

الجمهورية العربية السورية
وزارة الثقافة

جغرافية دار الإسلام البشرية

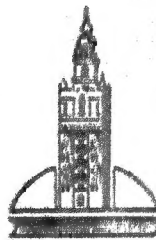
حتى منتصف القرن الحادي عشر

تأليف

الدوية ميكيل

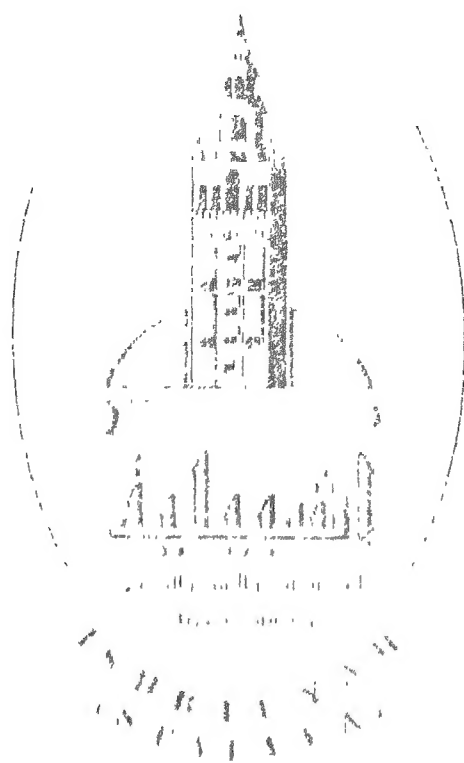
ترجمة

أبراهيم خوري



الثقافية

للدراسات والنشر والتوثيق
دمشق - سورية



Stores, Publication & Distribution
Executive Director: Mr. P. V. Rao

أندريه ميكيل

جغرافية دار الإسلام البشرية

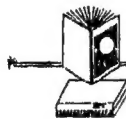
حتى منتصف القرن الحادي عشر

الجزء الثالث

الوسط الطبيعي

القسم الأول

ترجمة: إبراهيم غموري



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٢

العنوان الاصلي للكتاب :

ANDRÉ MIQUEL

La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11^e siècle

Géographie arabe
et représentation du monde :
la terre et l'étranger

جغرافية دار الاسلام البشرية : حتى منتصف القرن الحادي عشر /
أندريه ميكل ؛ ترجمة ابراهيم خوري . - دمشق : وزارة الثقافة ،
١٩٩٢ . - ج ٣ ؛ ٢٤ سم .

القسم الاول من الجزء الثالث الذي بعنوان « الوسط الطبيعي » .

١ - ٩١٠ م ي ك ج ٢ - العنوان ٣ - ميكل ٤ - خوري

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٠٥٦ / ٩ / ١٩٩٢

تنبيه

أفردت للأدب الجغرافي العربي جزئين (١) سابقين من عملي ، استهدف أولهما إعادة وضع هذا الانتاج في منظور الأدب والثقافة العربيين ، مثلما تمّ تكوينهما في القرون الثلاثة الأولى من الخلافة العباسية ، ورمى ثانيهما إلى البدء بدراسة مضمون مصنفات ذلك الأدب . ولن أعود هنا إلى الأسباب التي دعيتني إلى تقديم أبحاث الشعوب الأعجمية . فقد بدا لي ، كما قلت من قبل ، أنها تتصل صلة وثيقة بالتسلسل الزمني الخاص بنضوج الجغرافية العربية . واتوخى بعد الآن ، جهد المستطاع ، أن اقتصر في رؤيتي على دار الاسلام ، بالمعنى الضيق ، مما يدفعني إلى إبداء ملاحظتين .

فما دام البحث يتناول دار الاسلام ، تقضي ملاحظتي الأولى أن تعتمد جل تفصيلاتي ، إن لم يكن كلها إطلاقاً ، على مصنفين خصوا دار الإسلام دون سواها بأعمالهم . بدا أنوه بمدرسة المسالك والممالك ، على حد ما عرفت به اصطلاحاً وتيسيراً ، وبأطلس البلخي أيضاً ، أعني بجغرافيين ، علقوا على رسوم صور تمثل البلدان الرئيسة في دار الاسلام ، وانتقلوا

(١) جغرافية دار الاسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، باريس لاهاي ، ج ١ : الجغرافية والجغرافية البشرية في الأدب العربي . . . الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ ، ج ٢ : تمثيل الأرض والغريب ، ١٩٧٥ .

من الصورة إلى الشرح ، ومن الشرح إلى الوصف المفصل ، فتوسعوا في وصف دار الاسلام وحدها ، كالإصطخري وابن حوقل والمقدسي (١). وأود في سياق حديثي أن أعياء إلى الذاكرة أحد أسس تحليلي ، الذي يقول إن هؤلاء المصنفين وغيرهم يؤلفون جميعاً بين عامي ٨٥٠ و ١٠٠٠ ميلاديين ، هيئة متجانسة تماماً ، بأصول عدد من أعضائها بلا شك ، وبانتمائهم الثقافي على نطاق واسع . والقضية حقاً قضية أدب متوسط في ثلاث نواحي . فهذا الأدب متوسط اجتماعياً أولاً ، ومتوسط أيضاً بخياراته السياسية الدينية التي تتجه كلها إلى تأمين حصول قناعة ووضع نظرية وتحقيق رغبة ببقاء دار إسلام تجمع ولا تفرق رغم تبايناتها ، ومتوسط أخيراً على مستوى المعرفة . وأبرز من هذه الناحية الأخيرة أن مصنفي المسالك والممالك يمثلون ، تمثيلاً يبد سائر المصنفين ، معرفة متوسطة تقترب من التجربة الشعبية والأدب العلمي ، من ثقافة تمتد جذورها في أضعاف الحياة اليومية ومعطيات الكتب معاً ، من معرفة حريصة على وصف الحقيقة وعلى تقديم إثبات ، باحدى الطرق ، يُرى أن نقل هذه الحقيقة إلى الخلف ميسور وفق أصول اللغة السليمة الفصيحة . ويستهوينا منافسو البلخي من هذه الزاوية بالذات أكثر من سائر المصنفين ، لأنهم يتحدثوننا أكثر منهم عن هذه الثقافة المتوسطة ولأن هذه الثقافة ذاتها ، حتى لو كانت متقدمة بفضلهم تقدماً كافياً يرينا من خلال الكتابة ، الواعية أو اللا واعية ، بعض مفاهيم أساسية مشتركة بين الناس في عصرهم ، لم تتطور تطوراً عظيماً ، يميز لنا أن نستخلص من المفاهيم

(١) وكاليعقوبي على نطاق أضيق ، فهو بشير المدرسة (انظر حول هذه النقطة ج ١ القسم الثاني ، مذكور في الحاشية السابقة ، ص ٩٧ وما يليها) .

السابقة أن أحد الأذهان الخارقة تدخل تدخلًا فعالاً فحورها وربما جعلها
مُهَمِّشَةً .

فوحدة هذا الأدب قائمة ، تثبتتها روائز كثيرة ، منها — مفهوم
دار الاسلام . وفي هذه الحالة ، لن نعجب اذا تبين أن مصنفي المسالك
والممالك ، هنا أكثر من أي مكان آخر رمز هذه الوحدة في الجغرافية
أكثر من سواها . أما في الملاحظة الثانية من الملاحظتين اللتين أشرت
إليهما من قبل ، فاتساءل : أيحوز الحديث عن دار الاسلام بتعابير
تختلف عن تعابيرهم ، والاعتماد على قواعد جيدة وضعت للدراسة
الذهنيات ؟ أتمثل دار الاسلام تقسيمًا سهلاً . اخترته أنا كيفيا في
الوقت الحاضر بهدف عرض مضمون مصنفات الجغرافية ، أم تستجيب
هذه التسمية ، في عرف أهلها آنذاك ، إلى شعور أحسوا به إحساساً عميقاً
وواقعياً ؟ لا تحتمل الاجابة الشك ، لأن المرء يستطيع أن يتتبع من مصنف
إلى مصنف ، ومن القرن ٣هـ / ٩م إلى آخر القرن ٤هـ / ١٠م ، بطريقة
رائعة بدقتها وتدرجها ، تكون هذا المفهوم ونشوءه وأخيراً بروزه .
وخضعت مملكة العرب ومملكة العجم ، الواردتان في مصنفات الجغرافية
الأولى ؟ إلى سنة التاريخ ، ورؤعيي في خضوعهما التفاوت الزمني
الخاص بالظواهر الثقافية ، فاندمجت « أقاليم » العرب و « أقاليم »
العجم معاً وألفتا أقاليم دار الإسلام ، على حد تسميتها ، عند جغرافيين
مدرسة البلخي ، وعند المقدسي على وجه أخص ، وقيل لمملكة الاسلام ،
أو المملكة باختصار ، ولم يقل حتى « أقاليمنا نحن المسلمين » ، بل
الأقاليم (١) على وجه التعريف ، اذا تجرأت وعبرت عن فكريتي بهذه
الطريقة .

(١) بشأن تفاصيل هذا التطور ، انظر ج ٢ ، المذكور من قبل القسم الثاني ، ص ٣٠٩-٣١٢

ويرد الحذف أحياناً على خلاف ما تقدم ، فيستغنى عن لفظ مملكة ، ويبقى لفظ « الإسلام » وحده ، مستعملاً بمعنى « دار الإسلام » (١) . من هذه الناحية يمكننا أن نقدر بتجرد دقة العلماء المعاصرين الذين يصرون على التمييز بين الاسلام ، الدين ومظاهره في مجال الشعائر أو الفكر ، وبين دار الإسلام التي يعتبرونها نطاقاً جغرافياً يدين جل أهله بالإسلام أو كلهم إطلاقاً . ولم يكن لدى مصنفي الجغرافية مثل هذا الحرص اللامألوف ، لأنهم كانوا يتبعون أصول لغة واضحة جداً على سلاستها ، يستخدمون لفظاً واحداً يعنون به الظاهرة الدينية . ودار الاسلام - التي تنتمي إلى سلطة سياسية مبنية على هذا المعتقد . - ولم تكن كلها مسلمة . وهم يعرفون ذلك ويدونونه .

لا يبالي أحد ، إن قيل مملكة أو قيل إسلام . ولا يبالي أحد أيضاً إذا وصل هذا المفهوم إلى أجلي وضوحه ، متأخراً فترة من الزمن نوهنا بها ، في وقت تزعزع فيه البناء الذي أوحى به . بعد حلول العام ألف وظهور الاثراك ، وقبل أن تخلفه بلدان اسلامية ، وحوزات إسلامية . وربما دور إسلام متعددة مرة أخرى . ويبدو أن الأصل أن مصنف الجغرافية يدعوننا إلى وصف دار إسلام على وجه الإجمال ، ويتصورونها متماسكة ، رغم التقلبات السياسية ، ومخاطر طريق القوافل أو البحر . وتموجات الشعائر الدينية ، وأحياناً العقيدة فقد ظهر مفهوم المملكة وانفصلها

(١) انظر المقدسي ، ٢ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٣ (حاشية ك ، ص ٢٢) ، ص ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٦ (مرتين) ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٧٦ ، ٢٨٠ (حاشية ا) وأماكن أخرى (خاصة ١٠١ : « مياه الاسلام » ، ١١٦ : « وقد شققنا الاسلام » ، ١٧٥ : « خير ان ماها أخف ما ، في الاسلام » ، ٢٤١ : « في جبال المسلمين ») . انظر أيضاً مثلاً الاصطخري ، ١٣٣ (ابن حوقل ، ٤٠١) ، ابن حوقل ، ٤٧١ .

إلى حيز الوجود ، وصارا متلازمين . وما على الانسان إلا أن يدركهما قبل فوات الأوان ، لأنهما في طريقهما إلى الزوال في وقت قريب من الجغرافية العربية .

سوف نقوم بجولة طويلة في دار الإسلام ، مثلما كانت عليه في تاريخ يقارب العام الألف . ونتقصى الوسط الطبيعي في البدء . وسيأخذ العجب القارئ ، عندما يرى أن دراستنا الاجمالية التي ورد عنوانها « جغرافية دار الاسلام البشرية » ، تهتم على هذا النحو ، بالدرجة الأولى ، بما ليس بشراً ، نعني الأرض والماء والهواء والنبات والحيوان . أما الواقع ، كما أبنا مراراً وتكراراً (١) ، فهو أن الانسان يتجلى في جميع أبحاث هذا الأدب الجغرافي . ويزعم الباحثون اليوم أن هذا الانسان ينظر إلى الأشياء والأحياء من حوله نظرة لا تخلو من دوافع تحته عليها . فهو لا يتأمل في الصخر أو الحيوان أو الشجر بحد ذاتها ، بل لما بينها وبين البشر من صلات : كمنفعتها لهم أو ضررها ، أو ، بمزيد من الدقة ، لما تثيره في ذهننا من تساؤل عن مكانتها - ومكانتنا - في هذه الدنيا وعن غاية الباري من خلقها . كلا ، قطعاً ، لا يأبه باحث بهذه الجغرافية ، أما نحن فنستهل عرضنا بالأرض لأسباب عديدة ، منها أنها أجمد سائر العناصر ، وأغذاها على وجه العموم ، وأغمضها إطلاقاً على الأرجح ، وأهمها في جميع الحالات . وهي بداهة العنصر الذي جبلنا منه ، ونشعر أحياناً أنه جسم غريب يؤدي بعض حواسنا . لذلك أتممنا دراسة (٢) الأرض التي تصورناها كياناً مستقلاً في الكون، والتي

(١) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ١ ص ١٠ - ١٢ ، و ٨٩ - ٩٢ وأماكن أخرى ، ج ٢ ، قسم أول ص ٨ - ٩ ، و ١٢١ ، ١٢٢ وأماكن أخرى .
(٢) جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، فصل قسم أول ، ١ - ٢

تخيّلناها حيز البشر الموزع بين أبناء آدم، ولم نعد ننظر إليها ببصيرنا وحده، بل صرنا نطوّرها بأقدامنا . ونلمسها بأيدينا، ونشعر بها بقلوبنا بالذات .

قلت منذ لحظة : وسط مملكة الإسلام الطبيعي . على أن هذا الوسط لا يمثل كلا منفرداً ، شأنه شأن مملكة الإسلام التي لا تنعزل في هذا العالم عما يحيط بها من شعوب . وطبيعة دار الاسلام طبيعتان ، تشترك باحدهما مع الغرباء، وتحوز الأخرى لنفسها ، على حد قول الجغرافيين .

وتهم الطبيعتان بحثنا ، بداهة ، شريطة أن نشير إلى انتماء إحدهما إلى مملكة الاسلام أو إلى الغرباء . ولن نهمل هنا سوى طبيعة الغرباء حصراً ، مع أننا تناولناها من قبل (١) .

وأختم هذا التمهيد بوضع كلمات عن المنهج ، أضعها في صيغة سؤال : كيف تقرأ النصوص الجغرافية ؟ تقرأ على عدة مستويات ، وهذه ناحية بديهية فقد تعرض هذه النصوص العالم فعلاً بأبسط وأوضح كتابة ، وتصفه أو تدون معطياته ، حسبما نشاء ، دون أن تلتفت إلا إلى الموضوعية . وقد تعيد تقديم العالم ، لذاتها أو لنا . لكن لا بد لنا هنا أن نميز ، جهد المستطاع ، بين ما يراد كتابته وبين ما لا يراد كتابته ، بين تقديم صورة واعية تماماً وبين تقديم صورة ناشئة عن التردد والتحفظ وحتى عن الكتمان ، بين ما يستهدف النص قوله وبين ما يقرأ بين سطوره ، بين جهد التأمل المتعمد الذي يرمي ، من خلال المعطى الوارد إلى وعي التنظيم والمعنى والبنية والذهول الذي تقع فيه هذه الجغرافية في أيامنا الحاضرة ، فيما لو عُرِضَ عليها هذا التنظيم والمعنى والبنية المستخاصة من نصوصها ذاتها ، دون أن تكون قد خطرت لها

(١) جغرافية دار الاسلام البشرية، ج٢ قسم أول ص ١٣٨ (وحاشية ٤١٢، ص ٣٥٦) - ١٣٩

ببال من قبل على الاطلاق . من هذه الزاوية — ونكتفي بهذا المثال —
قد تنشأ آليات الكتابة ولا ارادتها على حد سواء ، عن نية يتوخى فيها
المصنف أن يتمسك تمسكاً منهجياً بهذه النقطة أو تلك من وصفه ،
وتقديم تعليل مقصود لهذه النية في سياق حديثه . وقد تكشف تلك الآليات
ولا ارادته ، دون علم المصنف ، عن اهتمام ، يحتمل ألا يكون
واضحاً تماماً في وجدانه .

ذكرت المصنف في الجملة السابقة . طبعاً ، يتراءى خلف النصوص ،
أشخاص نعرف دوماً بعض الشيء عنهم من خلال نصوصهم بالذات
فقط . إنما لا نبالي بالأشخاص إلا شذوذاً . فإذا كانت هيئة الجغرافيين
متجانسة تماماً ، وأظني استطعت لإثبات تجانسها ، وجب اعتبار هذه
النصوص قد كتبت ، من خلال هذا الشخص أو ذاك ، بيد مصنف
واحد أساسي ، هو شخصية المسلم المتوسط الثقافة ، في الذهنية المعروفة
حوالي ٨٥٠ — ١٠٠٠ م . وسوف نسترشد بهذا المبدأ في مطالعتنا . وما لم
بحتدم نزاع صارخ بين المصنفين ، تقضي الامانة العلمية أن نشير إليه ،
حق لنا أن ننسب إلى هذا المصنف الوحيد المتوسط الثقافة ، جملة أفكار
مكررة نلاحظها بانتظام من مصنف إلى مصنف . كذلك يجوز لنا أن
نرسم ، استناداً إلى التدوينات العائدة إلى موضوع معين، من الوصف—
لكن يتنوع ويتجزأ ويتوزع على عدة تصانيف — صورة إجمالية عن
ذلك الموضوع . ويمكننا أيضاً ، في حالة وجود تدوين خاص عند أحد
المصنفين ، أن نفترض أن هذا التدوين ينتمي إلى جملة الهيئة ، ما دام
لا يتناقض — ونلح على هذه الناحية — مع أي تأكيد آخر دقيق ، ولا مع
توحيد خصائص مجمل الهيئة .

اذن ينحصر هدفنا بالدرجة الأولى في إعطاء صورة عن الوسط الطبيعي في دار الاسلام حوالي العام ألف، اما واقع الأرض أو التاريخ ، فلن نتناوله إلا عندما يسمح لنا أن نقدر على وجه التقريب المسافة بين هذه الصورة وبينه . وهنا نقتصر في الاحالات على الحد الأدنى الذي لا يستغنى عنه في رأينا . مع ذلك يتعدى هذا العمل طاقة رجل واحد ، يشترط فيه أن يكون خبيراً في مجالات متنوعة ، كالجغرافية الطبيعية ، وعلم المناخ ، وعلم المياه ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات وغيرها أيضاً . وأنا واثق أن الاختصاصيين سوف يكملون الاضبارة المعروضة عليهم .

* * *

المصادر والمراجع

لا نذكر هنا إلا أسماء المؤلفات التي لم ترد في مصادر المجلدين السابقين الأول والثاني .
مع ذلك نكرر فيما يلي ثبت المؤلفين (بالرموز) لأسباب بديهية من تيسير العودة إليها .

آبل (ف . م .) ، جغرافية فلسطين ، باريس ، جزآن ، ١٩٣٨

آبل (ف . م .) ، الدليل الأزرق لسورية وفلسطين ، باريس ، ١٩٣٢

ابستين (هـ) ، اصل الحيوانات الالهية الافريقية ، نيويورك - لندن - مونيخ ،
جزآن ١٩٧١ .

ابن البيطار ، جامع المفردات ، ترجمة ل . لوكليز ، باريس ، ٣ أجزاء ، ١٨٧٧
١٨٨٣

ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ترجمة هـ . ماسيه « بعد وفاته » (راجعها ش . بيل) ،
دمشق ، ١٩٧٣ . حافظت على ذكر ترقيم صفحات النص العربي ، الوارد في الترجمة أصلاً ،
لكي أوجد الاحالات مع حواشي الجزئين السابقين .

اتشيكوبار (ر . د .) و هو (ف .) طيور الشمال في افريقية ، باريس ، ١٩٦٤

الادريسي ، وصف افريقية والاندلس ، طبع وترجمة ر . دوزي وم . ج . دي خوييه ،
إعادة طبع القديم ، لايدن ، ١٩٦٨ .

الوز (ب . ا .) ، مراجع فقرات العراق والبلدان المجاورة ، ج ٤ ، الاسماك ،
بغداد ، ١٩٥٥

الياد (م .) ، والاقيان والخليميائيون ، باريس ١٩٧٧

الياد (م .) ، كتاب تاريخ الأديان ، باريس ، ١٩٥٤

اليسيف (ن .) ، نور الدين ، أمير مسلم سوري عظيم في زمن الحروب الصليبية ،
دمشق ، ٣ أجزاء ، ١٩٦٧ .

انستاس الكرملي (ب .) ، « نظرات في كتاب التبصر بالتجارة » ، مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣ روماني ، ١٩٣٥ ، ص ٢٨٧ - ٢٩٥ .

اوغنيف (س . ا .) ، ندييات الاتحاد السوفييتي والبلدان المجاورة ، ٣ روماني: الحيوانات اللاحمة (المفترسة) ، ترجمة انكليزية ل ا . بيرون و ز . س . كول ، القدس ، ١٩٦٢

يدار (ف . ا .) ، كتاب الحيتان ، لندن ، ١٩٠٠

بديكر (ك .) ، فلسطين وسورية ، لايزيغ ، ١٨٩٣

بديكر (ك .) ، مصر والسودان ، لايزيغ - باريس ، ١٩١٤

بديكر (ك .) ، مصر العليا ، لايزيغ - لندن ، ١٨٩٥

بيراتز (س . ه .) ، كتاب الحيوانات الهندية ، الطبعة الثانية ، بمباي ، ١٩٦٥

برك (ج .) ، من الفرات الي الاطللس ، باريس ، جزآن ، ١٩٧٨

برنتجس (ب .) Die Haustierwerdung in Orient ويتنبرغ ، ١٩٦٥

بلاشير (ر .) - شويجي (م .) - دينيزو (ش .) ، معجم عربي فرنسي انكليزي ، باريس ، ١٩٦٤ (وبعدها)

بلا نشار (ر .) ، انظر الجغرافية العالمية .

بلا نفورد (و . ن .) ، حيوانات الهند البريطانية ، الثدييات ، لندن - كلكتوتا - بمباي - برلين ، ١٨٨٨ - ١٨٩١

بلا نفورد (و . ن .) ، فارس الشرقية . تقرير رحلات لجنة الحدود الفارسية ، لندن ، ٢ روماني ، ١٨٧٦ .

بلا نهول (كزافيه دي) ، الاسس الجغرافية لتاريخ دار الاسلام ، باريس ، ١٩٦٨

بلا نهول (كزافيه دي) ، « ثور الحمل في الشرق الأدنى وفي افريقية الشمالية » ، مجلة تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماعي ، ١٢ روماني ، ١٩٦٩ ، ص ٢٩٨ - ٣٢١

بلا نهول (كزافيه دي) ، « خمور افغانستان وجبال هيمالايا الغربية » ، مجلة جغرافية الشرق ، ١٧ روماني ، ١ - ٢ ، كافون الثاني - حزيران ، ١٩٧٧ ، ص ٣ - ٢٦

بلدشينو (ج .) ، ترجمة المقدسي الجزئية (انظر هذا اللفظ) ، جزءان ، اطروحة
دكتوراه دور ثالث ، جامعة باريس ٣ ، ١٩٧٨
بليغفاد (ه .) ولويتين (ب .) ، التقصيمات العلمية الدانماركية في فارس ، ٣
روماني : أسماك الخليج الفارسي ، كوبنهاكن ، ١٩٤٤ .
يولنز (ل .) ، طرق الزراعة في القرون الوسطى في كتب الفلاحة الاندلسية :
التقاليد والتقنيات ، جنيف ، ١٩٧٤ .

بولي ويسوفا ، Real - Encyclopadie der Classisssshen Altertumsw
issenschaft ستوتغار ، ١٨٩٤ وبمدها .

تيسيجر (و .) ، مفازة المفاوز . مع البدو ، آخر المتبدين في جزيرة العرب الجنوبية ،
ترجمة فرنسية ل م . بوشيه - فورنيز ، باريس ، ١٩٧٨ .
جغرافية دار الاسلام البشرية ، ح ١ و ٢ : ميكل (ا .) ، باريس - لاهاي ،
ج ١ ، طبعة ثانية ، ١٩٧٣ ج ٢ ، ١٩٧٥ .

الجغرافية العالمية ، نشرت باشراف ب . فيدال دي لا بلاش ول . غالوا ، باريس .
بلا نشار (ر .) ، ج ٨ : آسية الغربية ، ١٩٢٩ ، ص ١ - ٢٣٤
كامينا دالميدا (ب .) ، ج ٥ : الدول البلطيقية ، روسيا ، ١٩٣٢
غرينار (ف .) ، ج ٨ : آسية العليا ، ١٩٢٩ ، ص ٢٣٥ - ٣٧٩
موريت (ف .) ، ج ١٢ : افريقية الاستوائية والشرقية والجنوبية ، ١٩٣٨
الحيوان ، انظر النقد

دوسو (ر .) ، الطوبوغرافية التاريخية لسورية القديمة وسورية القرون الوسطى ،
باريس ، ١٩٢٧
الدينوري ، كتاب النبات :

أ - كتاب النبات ، أبو حنيفة الدينوري ، جزء من القسم الابعدي (ز) . نشره ب .
ليزين ، ايسالا - ويسبادن . ١٩٥٣ (مع معجم ألفاظ ، ص ٢٠ - ٥٢ ، اعتمد على
مراجعة مصنفات قديمة - منها مصنفات ابن البيطار وابن العوام - ومصنفات حديثة .
ب - معجم نبات أبي حنيفة الدينوري (كتاب النبات ، س - ي) ، مأخوذ من
استشهادات مصنفات متأخرة ، طبعة م . حبيد الله ، القاهرة ، نسخ .

رويرتز (ت . ج .) ، ندييات باكستان ، لندن - نوڤريدج ، ١٩٧٧
سرجنت (ر . ب .) ، انظر لومبار النسيج .
سزكين (ف .) ، تاريخ التراث العربي ، ج ٣ ، ١٩٧٠
سليم علي ، وريبي (س . د .) ، كتاب طيور الهند وباكستان ، اكسفورد ، ١١
روماني ، ١٩٦٩ .

شوارتز (ب .) ، Iran in Mittelalter nach den arabischen
Geographen لابينغ ، ١٨٩٦ - ١٩٢٩ ، ٩٥٧ صفحة في ٧ أجزاء ، مع فهرس ،
وحزمه ملحقان ، ستوتغار برلين ، ١٩٣٤ و ١٩٣٦ .

عزيز فكري (م .) ، القمح المصري ، القاهرة (مستخلص من مجلة اتحاد المزارعين
في مصر ، الجمعية الملكية الزراعية ، رقم ٢٩٦ و ٢٩٧ ، تشرين الأول والثاني ، ١٩٣٨ .
غالب (ا .) ، الموسوعة في العلوم الطبيعية ، ذكرت من قبل في جغرافية دار السلام ،
ج ٢ : تنطوي على مراجعة مصنفات قديمة وحديثة ، خاصة لمصطفى الشهابي . إلا أن اهتمامها
انصب على مفردات اللغة العربية الجاري استعمالها أو العلمية ، ويبدو المنظور التاريخي
ضعيفاً فيها .

غرینار (ف .) . انظر الجغرافية العالمية .

غوتنر (ا .) ، « رسالة في أسماك نهر دجلة » ، حوليات ومجلة التاريخ الطبيعي ،
السلسلة الرابعة ، ١٤ روماني ، ١٨٧٤ ، ص ٣٦ - ٣٨ .

فانين (ا .) ، اضافات إلى المعاجم العربية ، الجزائر ، ١٩٢٣

فليش (ه .) ، كتاب فقه اللغة العربية ، ج ١ : مقدمات ، علم الأصوات ، الصرف ،
بيروت ، ١٩٦١

فهد (ت .) ، « العجيب في الحيوان والنبات والجماد » ، في الغريب والعجيب في دار
الاسلام في القرون الوسطى . مؤتمر جمعية تقدم الدراسات الاسلامية (باريس ، ١٩٧٤) ،
باريس ، ١٩٧٨

فولرز (ج . د .) ، معجم اشتقاق فارسي لا تيني ، بون ، ٣ أجزاء ، ١٨٥٥ -
١٨٦٤ (ملحق ١٨٦٧)

- فيليبس (و . و . ا .) ، كتاب تديبات سيلان ، سيلان - لندن ، ١٩٣٥
- كامينا دالميدا (ب .) ، انظر الجغرافية العالمية
- كوتير (ه .) ، عالم الأحياء ، باريس ، ٥ أجزاء ، ١٩٢٧ - ١٩٣٠
- كوك (ج .) ، جامع المصادر العربية الخاصة بأفريقية العربية من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر ، باريس ، ١٩٧٥
- لاووست (ه .) ، مفصل قانون ابن قدامة ، بيروت - دمشق ، ١٩٥٠
- لوروا لادوري (ا .) ، فلاحو لانغدونك ، باريس ، جزآن ، ١٩٦٦
- لوسترانج (ج .) ، أراضي الخلافة الشرقية ، كمبريدج ، ١٩٠٥
- لومبار (م .) ، دار الاسلام في عظمتها الأولى ، باريس ، ١٩٧١
- لومبار (م .) ، النسيج في دار الاسلام ، من القرن السابع إلى القرن ١٢ ، باريس - لاهاي ، نيويورك ، « معطيات لكتابة تاريخ النسيج الاسلامي حتى الفتح المغولي » ، مجلة الفنون الاسلامية ، ٩ روماني ١٩٤٢ - ١٦ روماني ١٩٥١ .
- لينجي بروفنسال (ا .) ، تاريخ الاندلس الاسلامية ، باريس - لايدن ، ٣ أجزاء ١٩٥٠ و ١٩٦٧ . المعجم العالمي للتاريخ الطبيعي ، باريس ، ١٣ جزء ، ١٨٤١ - ١٧٤٩
- المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ترجمة جزئية ل ج . بلداشينو (انظر هذا الاسم) و ا . ميكيل ، « مصر كما رآها جغرافي عربي من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي : المقدسي » ، حوليات اسلامية ، ١١ روماني ، ١٩٧٢ (مجلد مخصص لآحياء ذكرى خستون وايت) ، ص ١٠٩ - ١٣٩ . انظر أيضاً جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ١ ، ص ٤٨ روماني .
- مورو (ف .) ، (باشراف) ، النبات ، باريس ، ١٩٦٠
- موريت (ف .) ، انظر الجغرافية العالمية .
- ميزيوم (كزافيه) ، تحليل جغرافي حيواني لتديبات فارس ، بروكسيل ، ١٩٥٩
- النقد ، ٣٧٥ - ٣٧٦ ، آب - أيلول ، ١٩٧٨ ، عدد خاص ، الحيوان .

- نورمان (ج . ر .) وفريزر (ف . ش .) ، عمالقة البحر ، ترجمة فرنسية لج .
مونتاندون ، باريس ، ١٩٣٨
- هاريسون (د . ل .) ، ثدييات جزيرة العرب ، لندن ، ٣ أجزاء ، ١٩٦٤ - ١٩٧٢
- هاسنجر (ج . د .) ، مسح ثدييات أفغانستان ، شيكاغو ، ١٩٧٣
- الهروي ، كتاب الزيارات ، دمشق ١٩٥٣ ، وترجمته لج . سورديل - تومين ،
دمشق ١٩٥٧
- هوزيه (ج .) ، نباتات الحبوب ، باريس ، ١٨٩٦
- هويه (ف .) و انشيكوبار (ر . د .) ، طيور الشرقين الأدنى والأوسط ،
باريس ، ١٩٧٠ .

* * *

ثبت المؤلفين ومصنفاتهم (بالرموز)

نكرر هنا ثبت الجزء السابق مع بعض الإضافات لتيسير الرجوع إليه

الرمز	اسم المصنف	اسم المؤلف
اصط	كتاب المسالك والممالك	ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي الاصطخري ، أبراسحاق
وص	مختصر العجائب	ابراهيم بن وصيف شاه
ابرا (١)	رحلة إلى أوروقة الغربية	ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي
ابرا (ص)	رحلة إلى الصقالية (١)	الطرطوشي
يعق	كتاب البلدان	احمد بن اسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي ، أبو العباس
رست	كتاب الأعلام النفيسة	أحمد بن عمر ابن رسته ، أبو علي
فض	رسالة	أحمد بن فضلان بن العباس بن الراشد بن حماد
فق	كتاب البلدان	أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمداني ، ابن الفقيه
راز	صفة الأندلس	أحمد بن محمد الرازي ، أبو بكر
اخ	رسائل	اخوان الصفا و غلام الوفاء
اسح	كتاب آكام المرجان	اسحق بن الحسين
تم	رحلة في بلاد دغلقان التفرغز (٢)	تميم بن بحر المطوعي

(١) لأسباب تتعلق بتيسير المراجعة ، سوف نشير ، بعد الاشارة إلى طبعة كوالسكي ، إلى طبعة الحجي .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

هم	الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود من بني صفية جزيرة العرب	همدان ، أبو محمد ، ابن الحائك أو ابن ذي الدميثة .
به (ف)	مقاطع من أبي الفداء	الحسن بن أحمد (محمد) المهلب
مه (م)	مقاطع من صلاح المنجد	
مه (ي)	مقاطع من ياقوت	
سر	كتاب عجائب الاقاليم السبعة	سهر أب (ابن سريون) مع احالات إلى طبعة فون مزيك
اسو	كتاب أخبار النوبة	عبد الله بن أحمد بن سليم الاسواني ، أبو محمد
ثما	لطائف المعارف	عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، أبو المنصور الثعالبي
خر	كتاب المسالك والممالك	عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه ، أبو القاسم
مس (م)	مروج الذهب	علي بن الحسين بن علي المسعودي أبو الحسن
مس (ت)	التنبيه والاشراف	
شاب	كتاب الديارات	علي بن محمد الشاشي ، أبو الحسن
جا (ا)	كتاب الامصار وعجائب البلدان	عمرو بن بحر بن محبوب ، الكنتاني بالولاء ،
جا (ج)	كتاب الحيوان	أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ
جا (ت)	كتاب التصريف بالتجارة	
قد	كتاب الخراج وصناعة الكتابة	قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، البغدادي ، أبو الفرج
ماش	كتاب الاسعار	ماشاء الله بن سارية
مقت	أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	محمد بن أحمد بن أبي البناء الشامي المقدسي البشار شمس الدين ، أبو عبد الله
خو (م)	مفاتيح العلوم	محمد بن أحمد بن يوسف ، أبو عبد الله ، الكاتب البلخي الخوارزمي
ند	الفهرست	محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق ، أبو الفرج بن أبي يعقوب ، ابن التديم

محمد بن حوقل البغدادي، الموصل	كتاب صورة الأرض	حو
محمد بن موسى الخوارزمي، أبو عبد الله	صورة الأرض	خو (ص)
محمد بن يزيد السيرافي، أبو زيد	ملحق أخبار الصين والهند	سيرا
محمد بن يوسف الوراق، أبو عبد الله	كتاب المسالك والممالك	ود
	ترجمة جزئية للبكري، لف. مونتييل ور (م)	
	ذكر في جغرافية دار الإسلام البشرية	
	ج ٢ قسم أول، ص ٢٨	
مسمر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي، أبو دلف	الطريق إلى أسيه	مس (أ)
	الرسالة الثانية	مس (ب)
مطهر بن مظهر المقدسي	كتاب البدء والتاريخ	مقب
المغرورون	قصة رحلتهم	مغ
يحيى بن الحكم البكري الجبائي، المعروف	رحلة إلى القسطنطينية	غز (ق)
	رحلة إلى بلاد النورمان	غز (ن)
يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي	وسائل فلسفية	كن (د)
مجهول	أخبار الصين والهند	اخب
مجهول	تقديم قرطبة	تق
مجهول	حدود العالم	حد
مجهول	عجائب الهند	عج

* * *

الفصل الأول

الأرض

تشبه أزمنة الخالق
جبالاً تجتاز الأرض
من البحر إلى البحر
مؤلفة أمواجاً عالية
هولدرلين

تعتبر الفيزياء القديمة ان الأرض أحد العناصر الأربعة التي يتشكل منها الكون . ويدعي الانسان ، على ما يعلم جميع الناس ، أنه جبل من التراب (١) . إلا أن الأرض لا تلخص وحدها وجود البشر ، بل ينعم بنو آدم بالحياة لالتقائها بالهواء والماء بلطف من الله . وتصبح الأرض في النهاية ضرورية وكافية لذاتها فقط ، على غرار كل من العناصر الثلاثة الأخرى . لذلك ، تم اتحاداتها بهذه العناصر ، بما فيها بالنار ، في معزل عن غايات العالم ونظامه المسخر لمصلحة الانسان ، الذي قد يقال بأنها لا تبغ شيئا منه ، اذن لا تبدو الأرض عنصراً مفيداً في الغذاء أو أحد عناصر تركيب الكون فقط ، بل أيضاً كائناً قائماً بحد ذاته ، يثير ، على هذا الاساس ، تساؤلاً شاملاً . لكن لا بد أن نقطع طريقاً طويلة على سطح هذا الحرم وفي داخله ، قبل أن نصل إلى طرح السؤال الخطير الأزلّي الذي يوجهه الانسان إلى الأرض : من انت اذن أيتها الأرض التي

نعيش فيها ؟ في آخر المطاف ، ينبغي على المرء فعلاً ، لكي يدرك كيف يتحدد تعريف أحد الكائنات ، أن يسأل نفسه في البدء كيف يتركب هذا الكائن وما يتركب ؟

بنية الأرض

يتألف كل جرم من بنية معينة أو هيكل محدد قبل أي شيء آخر. والجبال هيكل الأرض . وقد تضمن القرآن هذه الحقيقة المعروفة منذ نزوله : والقي في الأرض رواسي أن تميد بكم (٢) . وتتردد هذه الصور عند جميع الجغرافيين العرب تقريباً ، وتكرر حرفياً (٣) أحياناً. أما الخوارزمي ، على ملتقى التقليدين الإسلامي واليوناني ، فيوزع الجبال على الأقاليم إقليماً إقليماً ، كما لو أنه يقصد أن يشدها بحزام : فتصير أطوالها وعروضها وتحديد مواقعها على الجهات الأصلية ، وألوانها . مرتكزات مطمئنة تدل على الهندسة الكونية (٤) .

وأراد مصنف كتاب « حدود العالم » ، الفارسي ، المجهول الاسم ، أن يدخل المراتب في نظام الجبال . ولعله يكرر أحسن أفكار ابن خرداذبه حين يقول (٥) : « طبيعة الجبال مزدوجة . فبعضها أصلي ، يمتد من ناحية إلى أخرى ، يضيق أو يعرض . يستقيم تارة وينعطف أخرى ، حتى يبلغ منتهاه . فهذا البعض يدعى عمود الجبال . وبعضها الآخر فروع جبال تتشعب عن عمود الجبل ، وتذهب إلى منتهاها ، وتدعى شقوقاً(*) ، وتشبه فروع أغصان الأشجار . وقد تتفرع عن الشقوق شقوق

(*) جمع شق ، بفتح الشين ، النصف أو الجانب من كل شيء ، واللفظ ، كثيره في هذه الفقرة ، من أصل كتاب الحدود الفارسي . وقد جرينا على استعمال مصطلحات المؤلفين ، وعلى أخذها من كتبهم ذاتها ، واحببنا اعلام القاري الكريم . (المترجم) .

أصغر منها . فهذا مثال الجبال . وعلى وجه الإجمال ، تتشعب عدة شقوق عن عمد الجبال التي تمر في الكور والرساتيق ، في حين يقل كثيراً عدد هذه الشقوق في عمد الجبال التي تحترق المفاوز أو تنتصب على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار . وتتصل عمد الجبال بعضها ببعض في معظم الأحيان » .

في جميع الأحوال ، سواء شبه المصنفون الجبال بشجرة أو بهيكل عظمي أو بجهاز عصبي . فهي ، على حد تصورهم لها ، تنتشر في جرم الأرض العظيم ، وتمتد فروع البنية الاجمالية إلى أطرافه القصوى ، لتضمن ما أراده الله له من توازن في أدق أجزائه . وفي الوقت ذاته ، يقيم المخطط العام المعروض علماً ، إنما علماً حقيقياً ، أرسى على الأصول والفروع . على غرار بعض أنبل علوم التقليد العربي الإسلامي . ويبرر هذا النهج المزدوج ، الذي يسمح بالانتقال من جبال ، أسميها أصلية إلى جبال فرعية متشعبة عنها ، أو من الجبال الفرعية إلى الجبال الأصلية ، الحرص على معرفتها ، واحتمال الوصول إلى هذه المعرفة ، ويطمئنا أيضاً على هندسة عالم يظن أن لا ناظم لها .

وقد أوحى لي النصوص بصورة الأرض المشدودة بعمد ، التي أشرت إليها منذ قليل . فمن المرتفعات الشاهقة في آسية الوسطى ، التي نسميها اليوم سقف العالم (٦) ، حتى أطراف البلدان المعروفة ، باتجاه شرقي غربي ، يحيط بكرة الأرض عمود العمدة . لكن في وسط هذا النظام ، من جهة الغرب ، نحو دار الاسلام ، التي ينبض فيها قلب التاريخ وقلب أرض البشر ، يتسامى هذا العمود الأصلي أيضاً ان أمكن : « فمن تخوم هندوستان حيث تبدأ هذه السلسلة ، إلى تخوم جيلان (٧) حيث تنتهي ، تدعى منطقة الأرض (٨) » .

وهكذا يقوم كتاب « حدود العالم » بسلسلة متتالية من التعميمات ، حتى يبلغ جوهر النظام ، ويصل إلى الأصل الأول ، أي إلى الحلقة التي تضمن متانة المنطقة ، بما فيها هوامشها . لكن ماذا ندرأ؟ سواقط جرم بالي أم حدة شباب لا تضغط ؟ — هذه الأخيرة بلا ريب . فقد قلت في كتاب سابق (٩) إن الأرض تتجدد باستمرار ، جزءاً جزءاً ، ضامنة بهذه الطريقة بقاءها من جيل إلى جيل . فأعثر هنا مرة أخرى على ذلك الايمان ، المرفوض الآن ، بأزلية حيوية الاجرام السماوية ، إنما بعد أن رمز له ، بأسلوب حديث ، برداء خاص يطوع النار الكامنة .

إذن ، ترمز الجبال إلى الحياة ، نعني الحياة المنتشرة ، ضمن حدود معقولة ، في أدق أطراف الشجرة ، وتنطوي عليها . ويغطي نظام الجبال الوارد في كتاب « حدود العالم » ، بشكل اساسي ، التبت والهند والقبق وأرمينية : أما سائر العالم ، بما فيه دار الاسلام ، فمبحوث من بعيد ، ويكاد يغفل أحياناً ، مثلما أبان مينورسكي جيداً في تحاليله الطويلة العلمية (١٠) . فلا عجب أن تتبسط جغرافية المسالك والممالك ، وفي طليعتها جغرافية ابن حوقل — وفي إطار نظام الجبال العالمي ذاته — في عرض جبال مملكة الاسلام . بالتالي سوف نبحث بخاصة هذه الجبال بالذات ، وبروح تقصينا الحالي ، دون أن نغزلها ، ببتير لا مبرر له ، عن مجمل الجبال العالمية التي تنتمي إليها (١١) .

وبشرح ابن حوقل موضوع الجبل الأصلي ، بلا صورة الخزام . ويكتفي بالقول إنه يمتد « على وجه الأرض » (١٢) . ويتصرر هذا النظام تصوراً مركزاً وجلياً يفوق ما جاء في كتاب « حدود العالم » . ويثبت ، على وجه التخصيص ، الجزء الغربي من هذا الجبل ، أي الجزء

الذي يهيمه ، هو ، أن يبحثه على أساس أنه واضع خرائط دار الاسلام دون سواه فماذا يقول لنا ؟ يقول : « أوله (أي الجبل) بالشرق من بلد الصين خارجاً من البحر المحيط . فيقطع بلاد التبت على مغاربها إلى أن يأتي من حدود الاسلام فرغانة ، فتخرج منه ثلاث قطعات نحو الشمال والجنوب والجنوب الغربي . ونحن ننتج القطعة الجنوبية الغربية التي تأخذ إلى سمرقند . ويقطعها نهر جيحون (أو كسوس أو آموداريا) ، « وكأنه (الجبل) قُطِعَ ليستمر الماء في وسطه ، ويحتاز على البلاد التي هندس مضيئه إليها . » ثم يأخذ الجبل إلى نيسابور وينفصل عنه فرع يتجه إلى النواحي الجنوبية الشرقية من بحر الخزر (قزوين) . ثم يأخذ إلى الري قرب طهران الحالية . ويتصل من هناك ، من جهة ، بجبال أصبهان وشيراز إلى أن يبلغ بحر فارس ، ومن جهة أخرى ، بجبال تخوم بحر الخزر الجنوبية الغربية وجبال أذربيجان والقبق وبلد الروم . أما عمود الجبل فيأخذ في امتداده نحو العراق ، ولا يكاد يخترقه حتى يعدل عن سمت المغرب إلى الشمال الغربي إلى أن يأتي إلى نهر دجلة الأعلى ، ثم يقطعه ، ويأخذ على مدينة سُمَيْسَاطَ على الفرات ، بعد أن يتشعب إلى جبال كثيرة ، خاصة جبال أرمينية التي تتصل هي بجبال أذربيجان وجبل القبق وفرغانة حتى يبلغ بلاد ياجوج وماجوج . ولا يزال هذا الجبل يأخذ من عند الفرات إلى جبل اللكام (الامانوس) الذي يتصل نفسه بجبال الروم وبلاد الشام الشمالية ولبنان وبيت المقدس والقسطنطينية وجبل المقطم . وتقع شعبتان منه أيضاً على جانبي نهر النيل : تمضي احدهما إلى بلاد النوبة وبعدها إلى جبال القمر المجهرية التي ينبع منها نهر النيل العظيم (١٣) ، في حين تصل الشعبة الغربية إلى جبل برقة . أخيراً ومن هناك بالذات ، إما أن يمضي الجبل إلى سرت وجبل نفوسه في

جنوب غرب طرابلس ونفزاوه بين قابس وقفصة حيث يقف ابن حوقل ، وإما ان يضرب في أضعاف البر إلى فزان ، ثم يغوص في البراري حتى سواحل البحر المحيط .

تثبت نزهة ابن حوقل على سروات الأرض ، وهو مرخ العنان ، في ما يقل عن صفحتين ، رؤيته الواضحة الاجمالية لبنية الكرة الأرضية . فلا ريب أن هذا المصنّف يعرف ، كما يعرف مصنّف « حدود العالم » . أحوال الجبال التي تتشعب وتذهب بعيداً لتنتهي ، أو ، خلافاً لذلك . لتلتقي في مكان آخر بالسلسلة التي تفرعت عنها ، فتمثل على هذا النحو عروفاً أو شباكاً تحصر عيونها الأرض (١٤) . إلا أن ابن حوقل لا يتيه في التفاصيل ، وبخاصة ، كما يفعل مصنّف كتاب « حدود العالم » ، في جبال آسية البعيدة ، بل يجمال النظام في بناء أعم لأنه أوجز في كلامه وأغفل الدقائق ، ووضع صيغة المراتب دون أن يشوشها في ما لا نهاية له من الحالات المحتملة : « جميع الجبال . . . متناسبة متفرعة من الجبل الخارج من بلد الصين ذاهباً على الخط المستقيم إلى البحر المحيط من بلد السودان بالمغرب (١٥) » .

مع ذلك ، لا يكتفي ابن حوقل بهذا القدر . فهو يلدق في المصور ، ويضيف إلى النظام الجبلي نظاماً آخر . ويقول في مكان ثان : « وكذلك جبال الأرض كلها متناسبة متصلة إلا القليل اليسير منها » ، كما أن « جميع الرمل الذي على وجه الأرض متصل متناسب ، لا أعرف فيه بلداً رمله ذو فصل إلا القليل (١٦) » . وهكذا يقدم لنا ابن حوقل ، حتى في تكراره الصفات الواحدة . الرمل والجبل وكأتهما متماثلان في تنظيمهما . وفي الحالة القصوى . يمتزج الجبل والرمل . ويصبح بالإمكان

استبدال أحدهما بالآخر : ففي حين يتحول الرمل في قلب الصحراء الكبرى إلى « جبال لا يكاد يرتقى إلى ذراها إلا بمشقة شديدة (١٧) » ، يلاحظ ، على النقيض ، أن الجبل الأصلي يصير عند وصوله إلى نفزاوه جبال رمل ، فيستبدل طبيعته ، إن لم يكن شكله ، بطبيعة الرمل (١٨).

وعند هذا الحد ، تظهر صفة بارزة في هذه النظرة العامة لأرض دار الإسلام : فمن يحدق بها . ولنا عودة إلى هذه الناحية ، يسترع انتباهه حاجز مرتفع الذرى أو انبساط مفاضة شاسعة ، يحاول فيه الرمل أحياناً ، مثلما رأينا منذ قليل ، أن يتخلى عن مستواه الأفقي ليقتحم الجبال . ويعتبر الحديث عن ترافق هذين العنصرين ميزة كبرى تنفرد بها بنية الأرض : وقد تبدو الرمال ، لأول وهلة ، أضعف في انتظامها من الجبال ، إذ لا أحد يذكر نواة رملية تقابل العقدة الجبلية في آسية العليا . فهل تسود الفوضى في الرمال ؟ نود في البدء أن نشير الى محاولة إجراء مقارنة لفظية : فكما أن الجبال تتألف من فروع تتشعب عن الجبل الأصلي ، كذلك تتوزع الرمال الى عروق (١٩) تأخذ على وجه الأرض . اذن ما عسى هذه النزعة الجديدة (٢٠) التي ندعى لإجرائها ، أن تعلمنا أيضاً ؟

لنبدأ هذه المرة من الغرب . يتخذ الرمل هنا شكل حدوة فرس ، ترتكز دوماً على إحدى شعبتيها ، وينطبق قسمها الأوسط مع ساحل إفريقية الغربية . وتنتهي شعبتها السفلى شرقاً في مفاوز لا تعبر ، في حين تمر شعبتها العليا بجنوب المغرب ونفزاوه وسرت والفيوم ، وتبلغ النيل حيث تتعامد هي وعرق رملي آخر ، يصل النوبة ، من جانبي النيل ، بجبل المقطم . ثم يأخذ الرمل من جهة إلى بلاد الشام ومن جهة أخرى

اخرى الى جزيرة العرب التي يحصرها من الغرب والجنوب والشرق ،
ويصعد منها إلى العراق . وتحتل شمال جزيرة العرب شعبة أخرى تصل
مباشرة المنطقة الواقعة بين المدينة وتبوك بالبحرين . وبعد جزيرة العرب ،
يعبر نظام الرمل البحر ، ويعود فيظهر في الجنوب في بلاد الزنج ،
وعلى شواطئ الخليج الفارسي مقابل البحرين وعمان ، يأخذ نحو سجستان .
وهنا تفتح شعبة الكماشة الآسيوية الكبرى : شمالا . نحو خراسان
وخوارزم وبلاد الترك والصين حتى البحر المحيط ، وجنوباً ، نحو
الهند والتبت والصين حتى البحر المحيط أيضاً . ويختتم ابن حوقل (٢١)
قائلاً : « وهو (يعني الرمل) على ما وصفته وسقته (٢٢) من المحيط
بالمشرق إلى المحيط بالمغرب » .

اذن لا انقطاع في نظام الرمل ولا في نظام الجبال . ولا يسع الرمل
أبداً ، وهو متحرك في جوهرة ، أن يطمح ، كالجبال ، بتثبيت بنية
الكرة . في النهاية ، يعثر عليه في جميع الأماكن ، ويقترن توزيعه
بتوزيع التضاريس في أماكن كثيرة . ومهما يكن ، تجرّ الأمور وكأن
الجبل هيكل الأرض والرمل علامته . وقد ينكر البعض فائدة الرمل
هذه ، لأن الجبل يدل على نفسه بنفسه ، إضافة إلى دوره الخاص كعمود
الأرض . لا بأس ، إنما لا ترى هذه الهندسة دوماً : فهي تغوص أحياناً في
باطن الأرض ، وعندئذ يدل عليها الرمل ، كما يقولون ، من على
وجه الأرض ، يسمح باتباع أثرها المدفون ، كما هي الحال في الصحراء
الكبرى مثلاً ، حيث ، على حد قول ابن حوقل (٢٣) : « لا يزال هذا
الجبل يظهر في مواضع مستحجراً وفي مواضع جبال رمل ودهس . . .
ويغوص في تلك البراري » . ويلاحظ التدرُّج : من الجبل الحقيقي
المنظور ، الذي يأتي هنا من فزان ، إلى الجبل الصخري ، ثم إلى الرمل

الذي يكشف عنه أيضاً ، وأخيراً إلى الرمل المولى وحده الدلالة عليه .
اذن هذا الرمل أمين ، وضع في مكانه ليدل حسياً ، عند الزوم ، على
استمرار الجبل ، حتى تحت البحر . فهناك بلدين على جانبي خليج فارس
عند مدخله : فمن جهة ، تقع عمان التي يقال لنا (٢٤) بأنها ربما وقع
فيها ثلج رقيق ، ومن جهة ، الجبل الذي يتصل بجبال أصبهان وشيراز
إلى أن « يصل إلى بحر فارس » (٢٥) . فماذا يحوي هذا البحر اذن من
شاطئه إلى شاطئه تحت مائه؟ عرق رمل ، يجيبنا ويشرح ابن حوقل . اذن
قد يجوز لنا أن نضيف : عرقاً جبلياً أيضاً . ولا يدقق ابن حوقل في
هذه الناحية ، إلا أن المسعودي يعطي الجواب لأنه هو وابن حوقل يكمل
أحدهما الآخر : فراس الجمجمة ، الذي يشكل على ساحل مكران ،
الحد الشرقي لبحر فارس ، « جبل متصل ببلاد اليمن من أرض الشحر
والأحقاف ، والرمل منه تحت البحر ، لا يلري أين تنتهي غايته في
الماء » (٢٦) .

فإذا كان الرمل يقوم فعلاً بهذه الوظيفة على الأرض ، أعني إذا
كان حقاً دليلاً على بناء الأرض ، سواء أجدى أم لم يجد ، حسب ظهور
التضاريس ذاتها أو اختفائها في باطن البر ، عندئذ لا عجب لما يبذله
الجغرافيون الرسامون من عناية في تمثيله على خرائطهم (٢٧) ، ولا إذا
شكلت عروق الرمل ، عند ابن حوقل ، نظاماً يعادل تماسكه في النهاية ،
تماسك نظام الجبال ، ويفوق كثيراً في جميع الأحوال النظام الوارد ،
بهذه المناسبة ، في كتاب « حدود العالم » (٢٨) . وأعود إلى صورة
حدوة الفرس أو إلى الكماشة ، لأبرز أنها تكرر ، في إفريقية وآسية ،
على جانبي ما يبدو قلب النظام ، أو أيضاً ، مثلما قلنا في حديثنا عن
الجبال ، حلقة الخزام الرمي هذه المرة : وهذه الحلقة مرسومة بلقة

تامة ، وتعطي شكلاً رباعياً ، لا يقل وضوحه عن رباعي بوهيميا الجبلي ، وتشع منه في العالم الأسهم الكبرى الصحراوية التي تمتد على طول الجبال لتبين ، كما لو كانت معالم ، كمال الهندسة التي حباها الله بها . فهل يتحتم علينا أن نعجب لأن هذا القلب أو الحلقة أو هذه اليد ، كما تشاء ، انطبق مع جزيرة العرب ، التي يذكرنا نشوؤها الكوني ، في الاسلام ، أنها الأرض الأم الممتازة منذ استقبلت آدم وحواء المطرودين من الجنة ، وأن البيت رفع لما غرقت الأرض ليعرف مكانه (٢٩) ، وأن جبالها من جبال الجنة في جميع الأحوال (٣٠) ؟ ومن هنا نشأت ، عند اللقاء التقليد والجغرافية ، « عجيبة » جبل العرج الذي يقع بين المدينة ومكة ، ويمضي حتى يتصل ببلبنان واللكام والقبق ، ويشكل بالتالي مرة واحدة ، عقدة النظام الجبلي العظيم العالمي (٣١) عوضاً عن آسية الوسطى . ويبادر الجبل الأصلي إلى مساعدة الرمل ، بعد أن غيرت الارادة الاسلامية مكانها ، وثبتت جزيرة العرب ضد صور عالم أخرى ، في دورها البارز كقطب مملكة الاسلام (٣٢) .

بعض الجبال والمفاوز في دار الإسلام

ثبت قطعاً أن جولتنا الحرة ، على حد تعبيرنا ، كانت كافية لكي ترسخ في أذهاننا صورة جبال دار الاسلام ومفاوزها . ويسعنا الآن أن نخترق الأقاليم على مسار الطريق الرئيسي بالذات أو على جانبيه ، وأن نتوقف ، ونتهادى ، ونتسكع . إلا أن هذه التفاصيل تتوهنا ، وتبعدنا عن اهتمامنا ، الذي ينحصر في تحديد صورة شاملة اعتماداً عليها . ولم يقل أحد إن هذه الرحلات الكثيرة غنية بالدروس على الدوام . ففي أغلب الأحيان ، يذكر الجغرافيون رمالاً وجبالاً هنا وهناك ، ولا

يصفونها . لذلك أحيل القارئ إلى الحواشي (٣٣) لكي يطلع عليها ، على أن أحدد تحديداً عاماً على خريطة دار الاسلام موقع أهمها أو ما يبدو أهمها لوروده في النص . عندئذ أستطيع أن أرجع إلى مجمل المفاوز والجبال ، وأجمع المعطيات ، وأستخلص منها الخصائص الوثيقة الصلة بتمثيلها .

مع ذلك ، نود ، قبل أن نستبعد تعداد أشكال التضاريس الممل ، منطقة فمنطقة ، أن نكرر مرة أخرى أن التمسك بتدوينها وتنطس المصنفين أحياناً في تدوينها ، يشهدان على تفنن الباري في خلق العالم واحكامه بناء أدق نهايات جرمه الهائل . من هذا المنطلق ، يتضح توزيع المفاوز ، وينتظم في ثلاث حوزات كبرى ، تبرزها عروق الرمال العامة ، أو تحصرها أو تعتبر امتداداً لها أحياناً . فمن جهة أولى ، تمتد أرض قفر شاسعة ، تجاور أرض دار الإسلام : نغني الصحراء الكبرى ، المتعب إلى افريقية الداخلية ، بلد الزنوج المجهول . ومن جهة ثانية ، يمتد نطاقان جافان تحويهما أرض دار الإسلام ضمنها : بادية العرب ، أي صحراء الشام ، بين إقليم الشام وأقاليم العراق وجزيرة العرب ومصر ، ثم المفازة الكبرى المسماة مفازة فارس ، التي تتصل بأقاليم سجستان وكرمان وفارس والجبال وخراسان . ولاشك أن هذه الحوزات تتبدل من مفازة إلى أخرى وبحد ذاتها : فالمفاهيم والتسميات تستبهم أحياناً من المفازة المطلقة الحالية من الحياة إلى البادية التي تسمح ببعض أشكال النشاط الطبيعي أو البشري . وسوف نتاح لنا فرصة العودة إليها . لكن هنا على الخريطة ، لا يوجد أي إبهام : فالربع الثلاثة البيضاء - أو الصفراء في تلوين المقدسي ، تبرز جيداً من بعيد ، على خلفية دكناء

من الأرض (٣٤) . والمفاوز الكبرى : الشهيرة متصلة ، مثلما يظن ، ولا تحمل كتلتها بالذات تدقيقاً في التفاصيل .

ولابد أن ينطبق هذا الوضع على الجبال أيضاً ، مادام الباحث يبرز وحدتها العضوية من أقصى الدنيا إلى أقصاها . إلا أن الجبال تتباين باختلاف علوها ، وتجزئ وجه الأرض ، وتعزل البلدان عن بعضها ، أو تتوارى في أضعاف ظهر البسيطة ، فيتمكن الناس أن يميزوا في كتلة ظُنَّ أنها غلظ الجبل ومعظمه مع أنها متبدلة ، أطوآداً يتفاوت تمايزها . ويوزع التصنيف الأول الجبال على الأرض جمعاء ، حسب التقليد اليوناني بعد إعادة النظر فيه وتصحيحه على ضوء المعارف الأرضية الحاصلة من التاريخ الإسلامي الجديد ، أي حسب الأقاليم ، أقصد الأقاليم السبعة الطولانية التي تتوالى بدءاً من خط الاستواء . وبذا يصبح لكل إقليم نصيبه من الجبال . ويعتبر الخوارزمي (محمد بن موسى) رائد أصحاب هذا التصنيف الذين نذكر منهم قدامة وابن سرايون وإخوان الصفا . ويرى الخوارزمي أن عدد الجبال يبلغ على وجه الأرض (٣٥) ١٨٠ جبلاً . ومهما بلغت أهمية هذا التوزيع الاقليمي (٣٦) ، فهو لا يذكر مملكة الإسلام إلا في نطاق إندراجها في نظام الكون ، ثم إن الجبال تصبح فيه مواقع على الخريطة ، كالعناوين الأخرى ، من بحر أو جزر أو أنهار أو عيون أو مدن . في جميع الأحوال ، لا يتحدث أحد البتة عن مراتب في الجبال ، ولا أثر لهذه المراتب ، لأن الغاية تنحصر لا في إجراء تصنيف ، بل في تحديد الجبال على وجه الأرض بطريقة منهجية ، وتقديم إحصاء شامل لها يصل ، إذا جاز لي القول ، كيانات التضاريس في رؤية موحدة .

وثبلمو بعض الأخبار أهم . وإن كانت لا تعلن صراحة عن تمسكها
بجبال دار الاسلام ، مع أن اختيارها لا يقع إلا على بعض منها . ويبدع
ابن الفقيه (٣٧) في هذه الناحية ، ويكرر قول قتادة (٣٨) : بنيت الكعبة
من ستة أجبل : طور سينا ، وطور زيتا . وأحد ولبنان ، وحراء وثبير .
وبذا نرى أن جبلاً واحداً يختص بالتقليد الموسوي ، وجبلين اثنين
بالنصرانية (٣٩) وثلاثة جبال بالإسلام : هي الحراء مقر الوحي الأول ،
وثبير (٤٠) القريب منه ، وأحد جبل الشهداء الذي آوى في أحد شقوقه
الرسول الجريح ، الذي قال عنه : « وأحد جبل يحبنا ونحبه ، جاءنا
سائراً إلينا ، متعبداً ، له تسبيح يزف زفا (٤١) » . وقال مجاهد (٤٢) :
أسس ابراهيم زوايا البيت بأربعة أحجار : حجر من حراء ، وحجر من
ثبير ، وحجر من الطور ، وحجر من الجودي . أما المقدسي (٤٣) ،
فيقول إن أربعة أجبل من الجنة ، ثم ينسى واحداً منها ، ويسمي أحد
والطور ومجنة . ومجنة في أرض مكة ، ورد ذكرها طبعاً لتقارب اسمها
واسم الجنة (٤٤) . أخيراً (٤٥) ، يشير المسعودي إلى أربعة أطوار مقدسة
عند النصاري ، أولها طور سينا ، والثاني طور هارون ، وهو جبل هور
قرب البتراء ، والثالث طور زيتا ، والرابع طور الأردن « بين فلسطين
وطبرية » ، وهو بلا شك جبل طابور ، الذي يحمل حتى الآن ، كالجبل
السابق ، اسم جبل الطور (٤٦) .

يتضح بجلاء العيب ، إفراطاً أو نقصاً ، في جميع التصنيفات التي
عرضناها : فما غاية بحثنا إلا أن نبرز في أرض دار الإسلام الجبال التي
تحدد آفاقها هنا وهناك على الوجه الصحيح . فالتصنيف المستوحى من
الكرتوغرافية اليونانية ، يرفض مبدئياً كل فكرة مراتب ، لأنه يتوخى
أن يدون تدويناً منهجياً جميع الجبال على حد سواء ، وأن يحولها من

ناحية ثانية إلى نقاط موضوعة على الخريطة ، ناشئة عن تقاطع خطي طول وعرض . أما سائر التصنيفات ، فترتكز على فكرة دينية ثابتة ، تضيف إلى مفهوم الجبل ، أو تحل محله مفهوم الحيز المقدس . وحتى لو تطابق هذان المفهومان أحياناً ، على نحو ما سوف نلاحظ أحياناً فيما بعد ، فإن الجبل يعرف بحد ذاته أولاً . أعني بتضريسه ، وبشكله الذي يميزه عن العالم ، وحتى عن الجبل الكوني المنتشر في جميع الأماكن . إذن يتحتم علينا أن نرجع إلى النصوص (٤٧) ، لننتعمق فيها ، وننتجاوز التصنيفات المعروضة صراحة على علاقتها . ونستخلص بعض المفاهيم ، والأقوال المعادة ، والاستطرادات ، والصورة الحقيقية للجبال الحقيقية في دار الإسلام .

ولنبداً من الشرق . ففيه تلقى مفاجأة : فالحاجز بين أفغانستان وبين الهند ، الشهير في تاريخ الغزوات ، ثم في ملحمة خطوط الدفاع عن الامبراطورية البريطانية ، يكاد يتلاشى في نصوص الجغرافيين ، ويقتصر ذكره على بضعة أسطر ، تقنية جداً ، تتناول كلها بنية السلاسل الجبلية وتفرعاتها ، ترد في كتاب حدود العالم ، الذي يستفيض في بحث هذا الموضوع (٤٨) . ويحبذ الجغرافيون جبال إقليم كرمان ، التي ينهّج المقدسي ما ورد بشأنها من معطيات عند الاصطخري ، ويفرد لها نبذة خاصة (٤٩) . ويقال لنا إنها من مشاهير الجبال مع من يقطنها من قبائل القفص (كوفش ، كوج) والبلوص (بلوش) والبارز . فلماذا ؟ لأنها غنية بالفضة (يدعى أحدها جبل الفضة) وحشة ومنيعه ، وتمايز بزرها عن جذب المقازة الكبرى القريبة منها ، وتنشر الرعب مثلما يحدث في المقازة ، وتزيد عليه ما تثيره من مخاوف قبائل شبه متوحشة ، تدعي الإسلام . والبلوص شر منهم يبت قومهم الذعر بقساوة قلوبهم .

والجبال إقليم آخر ، يفرد له المقدسي نبذة خاصة . ويغني اسم هذا الاقليم عن التعاقب . و « الجبال » « شاهقة » . يقول عنها ابن حوقل إنها تحتكر معظم أرض الإقليم ، الذي لا يمكن ألا يسمى باسمها (٥٠) . وفيما عدا هذه التسمية المشتركة . يرد ذكر خمسة جبال في هذا الفيض من التضاريس (٥١) في الشمال الغربي والغرب والشمال الشرقي ، نعددها على التوالي : جبال الحرمية (٥٢) التي تعيد ذكر مآثر بابلک النائر الحانقة القتالة ، ثم أروند إلى جنوب همذان ، وفيه عين من عيون الجنة وأنوارها (٥٣) ، ثم جبل بهستون (بيستون) ، « الجرف الرمادي الشاهق » (٥٤) ، بين كرمشاه وهمذان . ويمده ابن حوقل من الري ومشارف العراق ، وهو « جبل منيع ، لا يرتقى إلى ذروته أيضاً ، . . . ، ووجهه من أعلاه إلى أسفله ، أملس ، حتى كأنه منحوت » ، أخيراً جبل دونباوند (دماوند) ، سيد الجبال ، وملك البورز ، ويتوزع على اقليمي الجبال والديلم (٥٥) . ويطيب للاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم (٥٦) ، أن يشيدوا بهذا الجبل الواقع في وسط جبال يعلو فوقها كالقبة ، ويحيط بالموضع الذي يعلو على الجبال ، نحو أربعة فراسخ (حوالي ٢٣ كم) ، ويرتفع حتى يرى من خمسين فرسخاً لعلوه . ويضاعف المسعودي هذا الرقم ، ويقول : فاذا صارت المراكب في بحر طبرستان على نحو من مائة فرسخ ، ودنت من جبال طبرستان ، رأَتْ في الأفق اليسير من أعالي جبل دنباوند ، المنعزل ، الشامخ ، العملاق . فكلما قربت من الساحل ، ظهر لها ، وهذا دليل على كرية ماء البحر وأنه مستدير الشكل . وتسمو قلته الجرداء في الهواء ، ويرتفع الدخان من أعاليه التي تترادف عليها الثلوج ، ويشتد فيها البرد ، وتعصف فيها الرياح حتى لا يلحقها شيء من الوحش ولا من الطير . ومسافة الصعود إليه (٥٧)

ثلاثة أيام بلياليها . لكن يا لروعة المكافأة ؟ فعلى هذا العلو الشاهق ، يرى من يعلو دنباوند « ما حوله من الجبال الشامخة كأنها رواب وتلال » و « البحر كأنه نهر صغير » .

وتعتبر فارس والديلم على جانبي إقليم الجبال ، اقليمى جبال أيضاً ، ينظر إليهما نظرة واحدة شاملة . ولم تعط التضاريس أسماء في إقليم فارس . لسبب بسيط : لأنها تسود في جميع الأماكن ، حتى إن الاصطخري يقول في صيغة موحدة : ليس بفارس بلد إلا وله جبل . بالتالي ، لا يسعه ، مثلما يستنتج بنفسه ، أن يثقل الخريطة بالجبال المنتشرة في جميع الأماكن . ويكرر كتاب « حدود العالم » وابن حوقل والمقدسي ، حرفياً أحياناً ، هذا القول ، لفرط سهولته على الأرجح (٥٨) ، ويكتفون بأن يعيدوا أثناء وصف المدن أو الحصون اسم الصرود الشائع . ويكاد الوضع يعيد نفسه على هذا المنوال في الأصقاع القريبة من بحر قزوين ، كالجيلان ، وطبرستان (مزندران) ، وجرجان ، التي يتألف منها إقليم الديلم . ومما يسترعي الانتباه ، هنا ، إضافة إلى التأكيد على الجبال (٥٩) ، هو ربطها بنظام العالم الكبير ، غرباً باذريجان والقبق ، وشرقاً بخراسان . فيما عدا ذلك ، لا يطلق على الجبل ، المنظور إليه بالإجمال ، إلا اسم الأقاليم التي ينتمي إليها أو السلالة الحاكمة فيه (٦٠) .

وهكذا تحتل فارس والديلم في مشهد دار الاسلام الجبلي العام ، وضعاً متوسطاً بين الاقاليم الشامخة الجبال ، مثل إقايم الجبال ، وبين أقاليم أخرى ، لا تخلو من الجبال — وهذا مستحيل كما نعلم — إنما جبالها نادرة ، أو صغيرة أو تكاد لا ترى ، مثلما هي الحال في خوزستان ، أي سوزيان القديمة ، الإقليم الذي ليس به جبل شاهق (٦١) ، الذي

تعلو تخومه الشرقية قطعاً لقربها من إقليم الجبل الذي يسبب لها البرد وجمد الماء في الشتاء ، وربما سقط فيها الثلج (٦٢) .

ويتصل إقليم الجبال بجبال شبيهة بجباله في جهة الشرق والشمال الشرقي . وقد أشرت من قبل إلى اتصال جبال خراسان وما وراء النهر بسلسلات آسية الوسطى . وأود الآن أن أعتمد على النصوص ، لاستعرض ذرى هذا الجبل الطويل الشاهق المتشعب . أو أطواده ، التي يحبوها مصنفو الجغرافية أهمية خاصة ، تعبر عنها أعلامها . ونبدأ بمفازة فارس . فالى شمالى شرق قاشان ، يمتد وعر من ربي ووهاد . يحيط بجبلي كركس كوه وسياه كوه . وكركس كوه جبل ليس بالكبير الطويل . وهو منقطع عن الجبال ، وعر المسلك إلى ذراه ، فيه معاطف ومسالك وحشة ، يعتصم به اللصوص ، ويخفون فيه أموالهم وذخائرهم . فلا ريب أن هذا الجبل يسترعي الانتباه : فمثلاً انتصب في الطبيعة . امتد على الخريطة (٦٣) ، واستوجب فقرة خاصة في النص أبرزته بوضوح (٦٤) ولم تكتف بذكر اسمه ، بل أبانت ان كركس اسم المفازة التي تتاخم الري وقُسم (٦٥) .

ويذكر المشهد العام في الشمال الشرقي ، من ناحية خراسان وما وراء النهر ، بالمشهد العام في فارس إلى حد معين فالغور ، وفرغانة ، وهيطل ، وختل ، ووخان وغيرها ، وكل البلدان أو جميعها تقريباً ، بمدنها ، فيها جبال قليلة أو كثيرة . فمضى لفظت أسماء هذه الكور ، تتبادر إلى الذهن صورة الجبال آلياً تقريباً ، في حرفية النص وضمير القارئ (٦٦) ، ويدرك الانسان (٦٧) أن انعدام التضريس أو ضعفه أو بعده ، كما لو أريد صرف النظر عن لازمة كانت في الماضي ملحة وساحقة أحياناً (٦٨) .

تصل إلى ذروتها بذكر اسم الغرج (غرج الشار ، غرجستان ، غروشستان)
والغرج هي الجبال حسب المقدسي : وهذا أمر طبيعي في بلد كله
جبال (٦٩) . على أننا نشاهد في هذا المنظر الجبلي العام ، بعض المعالم
كما هي الحال في إقليم الجبال ، عددها أوفر وتناسب مع بقعةٍ أوسع .
منها الجبل الأسود الذي يعتبر مرحلة على الطريق إلى جنوب هراة (٧٠) ،
ثم جبل سابلغ (سافلغ) الذي يحمي من الأتراك بلد الشاش أي طشقند
الحالية (٧١) هو والسور ومجرى نهر سيحون (سرداريا ارياكسارت) .
ثم جبل كو ، أقرب الجبال إلى بلخ (٧٢) ، ثم الجبال التي تحيط
بسمرقند : مثل جبل كوهك الصغير الذي يمتد أصله إلى سور هذه
المدينة ، ومنه أحجار البلد ، والطين المستعمل في الأواني والنورة
والزجاج (٧٣) ، ثم سيام ، وجبل الزابج ، وبخاصة جبل الشاوذار
(السوادار) إلى الجنوب ، المتصل الغلات لا تغبُّ ولا تمتنع ، ثم جبال
البتم إلى الجنوب الشرقي ، ويشار إلى أنها تتصل بالنظام الجبلي العالمي
وتقسم إلى البتم الأول والأوسط والبتم الخارج (٧٤) . ويستري انتباه
الجغرافيين وجود معادن الزاج والنرشاذر والذهب والفضة في هذه الكور
الشهيرة في تاريخ عملات الشرق (٧٥) ، ثم جبل الفضة ، وهو سلطان
هنا ، يطلق اسمه على إحدى المدن (مدينة جبل الفضة) (٧٦) ويقع
على بعد مائة كم إلى جنوب غرب هرات . وبقرب جبال الفضة ثلاث
مدن في بلد سرداريا المجاور لفرغانه (٧٧) . أخيراً بنجهير ، وهي جبل
الفضة ، عند منابع نهر كابل (٧٨) .

مع ذلك ، لم ترو غلطنا . فيا لعجبنا . لقد لقينا كثيراً من السلاسل
الطويلة ، المتقاطعة ، المتكتلة ، المتفرعة ، تمتد عن الجبال في جميع
الأماكن ، تتيح لنا في أفضل الاحتمالات أن نتنفس قليلاً قبل أن نستأنف

التقصي . وكانت حصيلة هذا الجهد بعض الأسماء المحدودة العدد . وكنا لتتأسى لو حصلنا هنا على شروح طويلة حماسية لجبال عملاقة ، أثرت فينا روعتها بعض الشيء ، مثل بهستون أو دنباوند في الجبال . لكننا لم نتوصل إلا إلى جبال شبه مغفلة الاسم ، اذا جاز القول . وفي هذا المجال ، ينال كتاب «حدود العالم» قصب السبق : فقد قلنا إنه يعنى عناية فائقة ، لا طائل تحتها دوماً ، ليوضح هذه المتاهة ، وقد حقق مأثرة مفاجئة ، فذكر اسم علم واحداً مبهماً ومشكوكاً فيه (٧٩) في إقليم خراسان وما وراء النهر . لكن هل نحصل على حظ أفضل من نصوص المسالك والممالك ؟ في الواقع ، لولا أهمية المعادن الثمينة أو ضرورات تحديد الطريق أو مجاورة بلدان شهيرة ، لما تمتعت الجبال الوارد ذكرها ، بأجمعها ، بوجود خاص بها فيما عدا الاسم الذي تأخذة عن كورة أو مدينة أو سلالة . وتجري الأمور كما لو أن البشر قرروا ، في ردة فعلهم حيال الجبال ، أن يمتلكوها ، بتغير مفاجيء في الأشياء : ففي صميم جغرافية ترتبط ، حسب مبادئنا الحالية ، بطبيعة الأرض ، نحن مدعوون في الواقع مرة أخرى ، إلى معرفة البشر .

ويحتف جبل القبق بتقويس إقليم الجبال في الشمال الغربي ، في الأفق البعيد . ويؤلف غلق قبة النظام الجبلي . وقد تحدثت في مكان آخر (٨٠) عما ينطوي عليه هذا الجبل الثغري من عظمة وأسرار وقلق . وبه تتصل ، في نطاق التضاريس العالمية ، أذربيجان وأرمينية والجزيرة . وتقتطع الجزيرة من فارس ، كما رأينا ، جزء من السلسلة الطويلة . ويطوف هذا الجزء على حدود العراق حتى ينتهي إلى ضفة دجلة اليسرى (٨١) ، ويحمل أسماء متنوعة ، يأخذها أحياناً من أسماء البلدان التي يجتازها (٨٢) قبل أن يصل إلى الكتلة الجبلية العظيمة التي

تحتوي أماكن عديدة ، في طليعتها ، ثمنين (٨٣) تحت قمم جبل الجودي الشهير دون سواه : ويقال إن سفينة نوح استقرت عليه ، ويقال إن جميع من كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً ، بنوا تلك القرية ، فسميت باسمهم (٨٤) . ويفترض أن جبل الحارث (ارارات) (٨٥) مكان آخر استقرت عليه سفينة نوح ، إلا أنه لا يبدو كذلك عند الجغرافيين (٨٦) . وهو جبل عظيم ، أعظم من جبال إقليم الجبال ، « متعال على الاسلام » لا يمكن أحداً صعوده لارتفاعه وصعوبة مسلكه . والثلوج عايه دائمة . ودونه جبل صغير يسمى الحويرث . وتخرج من الحارث مياههم . ومحتطبهم وتصيدهم فيه . ويقال إنه لا يعرف جبل أعلى منه بهذه المدن . وكان حضيضه خصباً يجمع حوالي ألف قرية (٨٧) . أما أذربيجان ، فجبلية كالبلدان المجاورة لها (٨٨) . وأكبر مدنها أربيل ، ولها جبل صعوده ونزوله نحو ثلاثة فراسخ (١٧ كم) — إن تسلقه أحد — يسمى سبلان ، رفيع شامخ ، مطل عليها من غربيها ، لا تفارقه الثلوج صيفاً ولا شتاء ، وإذا كان بعض المصنفين قد حطوا من شأنه ، مثلما فعل مؤلف كتاب حدود العالم وإن كان أكبر من دنباوند ذاته ، فذلك لأنه يبدو أقل علواً لانعزاله في وسط الجبال المحيطة به (٨٩) ، على حد قول ابن حوقل .

لنتقل الآن إلى الجنوب ، نلق تفاصيل أوسع ، وتحديد أسماء أفضل ، يفرد لها المقدسي بحثاً خاصاً (٩٠) . ويمثل جبل اللكام (الأمانوس) المحور الشمالي في نظام الجبال العالمي . فهو يتصل بجبال ملطية وشمشاط وقاليقلا والجزيرة والشام . ويفصل بلد الاسلام عن بلد الروم : وهو أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثماراً . ويمضي إلى جنوب حمص ، فيسمى جبل بهراء وتنوخ ، ثم يسمى جبل لبنان بعيونه وثماره وعباده .

وهنا يعود الجبل شامخاً ، فيشرف على البحر أو الأرض . ويرتفع بدرجات عملاقة ، فيسمى « طريق المدارج » من الجليل إلى بعلبك (٩١). مع ذلك ، يظهر بعض الغموض على الخريطة . ففي الأغلب ، يقصد فعلاً بالسلسلة الممتدة بين حمص ودمشق ، لا جبال لبنان الغربية ، بل جبال لبنان الشرقية التي يضاف إليها جبل الثلج وسنبر (٩٢) الذي يستغرب وضعه عند منابع بردى ، ثم جبال الالتقاء إلى شرق البحر الميت ، وأخيراً جبال الخوارج بين البحر الميت وسينا ، وجبال الشراة بين البحر الميت وجزيرة العرب . وأصل المقدسي من بيت المقدس ، ولا يجوز نسيانه ، لذلك فهو يعدل الخريطة . فجبل عاملة (أو صديقا بين صور وقدس وبانياس وصيدا) يطل على البحر ، ويتصل بجبل لبنان ، تليه جبال طبرية وناבלس ، وجبل زيتا ، وجبل نضرة قرب حبرون (٩٣) . ووراء جبل عاملة ، سلسلة طويلة تشمل جبل الثلج (حرمون) وجبل الجولان وجبال جرش المسماة اليوم جبال عجلون ، على منتصف الطريق بين بحيرة طبرية وعمان . وفي أقصى الجنوب ، يتصل النظام الجبلي بآن واحد ، بسيناء وبجبل المقطم في مصر ، وبجبال الشراة في سلسلة جزيرة العرب الساحلية .

ويتبدل موقف الانسان من جبال الشام فيعطيه هوية حقيقية ، فيما يبدو . لكن هل هذا صحيح ؟ لنستثن المقدسي ، الذي تملأ عاينه وطنيته الفلسطينية أن يعنى بالجبال عناية خاصة ، مثلما يعنى بالأنهار والعيون والمدن في بلده (٩٤) . فما هو وضع الآخرين ؟ إن ما يهيمن مرة أخرى وراء الأسماء ، هو البناء الأرضي ، والشعور بهذه السلسلة الفريدة التي تحمل وحدها هنا ثقل الظهرة العالمية الكبرى . فتعداد أسماء

الجبال من الأناضول إلى جزيرة العرب يدل على الدقة في الاستقامة ،
خلافاً لما يحصل في المشرق في دار الاسلام ، الذي يظهر فيه تعقيد النظام
الجبلي ، فيصور على حاله أو يحول إلى مخططات عامة مقتضبة ، فيغفل
عددًا كبيراً من الأسماء وأكثر مما نفترض بلا أدنى شك إذا راعينا
اتساع هذه الجبال ووجودها في جميع الأماكن . لكن هل ينطوي
الموضوع في الشام على شيء آخر يضاف إلى البساطة ؟ ففيما عدا اللكام ،
الذي أبنا دوره العظيم كمحور على خريطة تضاريس العالم ، ماذا تمثل
الجبال في نظر مصنفي الجغرافية والمقدسي ؟ تدل على قبائل أو جماعات
أخرى ، مثل تنوخ أو بهراء أو عاملة أو الخوارج ، وعلى مدن مثل
جرش أو طبرية أو نابلس ، وعلى نواحي مثل البلقاء أو الجولان (٩٥)
أو الشراة (٩٦) . ماذا يبقى اذن في النهاية ؟ جبال تقليد التوراة : جبل
زيتا (٩٧) ، سيناء ، حرمون وسنير (٩٨) ، ولبنان (٩٩) ، وحتى
جبل نصرة ، الذي يضمن له قرب حبرون وبالتالي ذكر ابراهيم ،
الإحالات اللازمة (١٠٠) .

إذن تلتقي ثلاثة تصورات في تضاريس الشام وفي التضاريس الشامخة
الواقعة إلى شمالها . فالجبل أولاً مادة بناء أرض وعلامة تدل عليه تزداد
وضوحاً مهما بدت بسيطة (١٠١) . وهو كيان منعزل ، يمتاز ببعض
الصفات البارزة كالعلو والوعورة أو الثلج أو الغلظ ، كما هي الحال في
أرارات أو اللكام . أخيراً هو مركز تاريخ وتاريخ مقدس ، مثل الجودي
أو سيناء . ولا ريب أن هذه الصفات يمكن إيجادها في الأقاليم الأخرى .
إلا أنها لا تصل إلى التركيز الذي تتمتع به هنا ولا إلى الأهمية المعطاة لها ،
إذا جاز هذا القول . ففي الجبال مثلاً ، يعتبر جبل دنباوند فعلاً محورياً

أساسياً في السلسلة العالمية ، ويلفت النظر بشكله وعلوه واسمه ، ويحمل مثلما سوف نبين ، تاريخاً يرتبط بأقدم التقاليد الفارسية : لكنه تاريخ أسطوري غير مقدس ، قلما يكون في نظر الإسلام . ويختلف الوضع بعض الشيء بالنسبة إلى جبل المقطم ، وهو جبل محور كما نعلم ، وبه مشاهد فسرّها المفسرون ، على حد قول المقدسي (١٠٢) ، إلا أن ارتفاعه لا يضاهي علو جبال العالم السامقة . خلافاً لذلك ، تجمع الأرض في الشام جميع الصفات التي يحتمل أن يمثل بها الإنسان الجبل . وتمتاز بعض الذرى ، كلينان ، بأنها تستقطبها لنفسها ، كما لو كانت ترمز ، في نوع من المنارة الجبلية ، إلى تمجيد أرض براءتها روح الله (١٠٣) وتزورها .

فهل نعجب إذا ألح الجغرافيون على القدسية في جزيرة العرب المقدسة (١٠٤) من دار الاسلام ؟ لقد أبنت من قبل كيف جعل إدخال القدسية جبل العرج غلقاً في بناء الأرض . وذكرت ، كما فعل الجغرافيون ، هذا الجبل المبارك ، الذي شق فيه جبريل للنبي وقت هجرته طريقاً إلى المدينة (١٠٥) . وقرنته بالحراء ، جبل الوحي القرآني ، وبأحد ، الجبل الذي أنجى حياة محمد ، هو وعير ، جبل المدينة . ويجب أن نضيف إليها كل الجبال القريبة من مكة التي تشترك بهالة قدسيتها . فالعقوبي يعددها ، وإليه أحيل . وتتصل بعض القمم بما قبل الوحي أو بعده : كالأنالب ، وبها كانت ديار ثمود (١٠٦) التي نحتت بيوتها فيها ، ورضوى ، الجبل الأخضر الكثير المياه ، الذي تزعم طائفة الكيسانية أن محمداً بن الحنفية حي مقيم به (١٠٧) ، وأخيراً المنيخرة ، قلعة القرامطة الحصينة في اليمن (١٠٨) . وتتحدر ثلاثة جبال صراحة (١٠٩) من السيطرة المطلقة لسلطة الدين وتاريخه ، هي جبل

شيام (١١٠) الشهير دون غيره بالعقيق والجزع ، ثم غزوان ، الجبل المبنية عليه الطائف وهو معتدل الهواء ، بارده ، ربما جمد الماء في ذروته في بعض الأيام ، ثم جبلا طي ، وهما مرتكزان هاما لتحديد الطرق أو تعيين المشهد ، ويحملان أصلا اسم إحدى القبائل العربية (١١١) . ونستخلص أن فلسية الجبال تتفوق قطعاً من بين صفاتها الثلاثة التي أشير إليها من قبل . وقد تنقل هذه الفلسفة ، مثلما قلنا ، مركز بنية جبال العالم إلى جزيرة العرب . وينزل دور الجبال في تاريخ الخلاص بلا شك غلظها إلى المرتبة الثانية ، أو يحيطه باهام له مغزاه في الحد الأدنى . فابن حوقل يعرض أحياناً بعض الدرر العملاقة الوعرة ، ويعتبرها كتاب حدود العالم جبالاً ، وجبالاً بلا تدقيق إضافي في أماكن أخرى . فلا ريب إطلاقاً أن الناحية الأساسية تنحصر في كلام الله .

يتصور المقدسي (١١٢) جزيرة العرب بناءً له ثلاثة أجنحة تحصر ظهرة جبلية يفتح انفتاحاً واسعاً على السهوب في الشمال ، وينغلق في جميع الجهات الأخرى ، أي على البحر . وليست هذه الجزيرة سوى إحدى فرعي العمود العالمي الذي يبدأ من بلاد الشام الجنوبية . أما الفرع الآخر ، فيأخذ إلى الفسطاط ، ثم إلى ضفتي النيل حتى النوبة ، وبعدها صعداً حتى الجبال التي ينبع منها النهر العظيم . ويوسع أحياناً اسم جبل المتطم ليشمل سلسلة الصفة الشرقية بأجمعها ، ويطلق على السلسلة المقابلة لها على جانب النيل الآخر ، اسم جبل الواحات (١١٣) . ويحسن أن نضيف إلى هذا النظام المزدوج ، سلسلة ثالثة ، تجاري على وجه التقريب منصف الظهريتين الخارجيتين من بلاد الشام نحو جزيرة العرب ونحر مصر . ويكاد ابن حوقل يعزل جبل سينا ، وإياه نقصد بالسلسلة الثالثة ، عن مجمل السلاسل ، إلا أن كتاب حدود العالم أوضح في هذه الناحية

بالمذات ، ويتصل هذا الجبل المقدس ، من جهة الشمال الشرقي ، بالكتلة الشامية ، ومن جهة الشمال الغربي ، بالمرتفعات الواقعة على يسار المسافر من فلسطين إلى القاهرة (١١٤) .

أما في غرب مصر ، فقليلة جداً الجبال التي تنال شرف تسميتها باسم خاص : وقد قلنا من قبل إن ابن حوقل تخلى عن متابعة وصف الظهرة العالمية عند تخوم أطرابلس وإفريقية . وتعتبر جغرافية أهل المشرق إقليم المغرب منعزلاً على حدة ، ومعرفتها به محدودة ، لوقوعه على هامش دار الإسلام . فهو « كمّ الثوب » (١١٥) . ولا غرابة في معرفة هذه الجبال التي يشار أحياناً إلى عظمتها وتدون أسماءها حسب البلدان أو المدن . ويتصور اليعقوبي . بعد تدقيقه في المشهد ، وجود نظام جبلي شامل ، إلا أن تصوره جاء خاطئاً ، لأنه جمع في سلسلة واحدة جبل الدرن وجبل جزول قرب تاهرت وأوراس (١١٦) . فإذا استبعدنا هذه المحاولة الفاشلة ، لن نحصل في النهاية إلا على بعض الأسماء (١١٧) من تضاريس المغرب : مثل جبل توجان قرب مسكرة (١١٨) ، و« فج الجبل المعروف بتازا » (١١٩) ، وجبل زالاغ ، الذي « غلب على سائر المدن العامرات » ، وهو مدينة أيضاً على جبل عال يطل على كورة فاس (١٢٠) ، وبخاصة جبل نفوسه ، المشار إليه من قبل ، واسمه مأخوذ من اسم قبيلة من قبائل البربر ، وصورته واضحة في ذهن المصنفين الذين يقولون عنه إنه جبل منيف يطل على ما حوله ، وفيه مياه جارية وري وزروع (١٢١) ، وجبل أوراس ، وهو طويل جداً وكثير المياه والزروع والمراعي (١٢٢) .

بقي علينا أن نعبر البحر لنصل إلى صقلية والأندلس . وينفرد ابن حوقل بوصف صقلية بالتفصيل ، ويقول فوراً إن الغالب عليها الجبال

والقلاع والحصون (١٢٣) . لكنه لا يضيف شيئاً على الإطلاق عن هذه التضاريس التي يقدمها لنا رأساً على أنها تنتشر في جميع الأماكن أو تكاد . مهما يكن ، فابن حوقل يتبع في النهاية نهج سائر المصنفين : فصنعية في الحقيقة أرض أظمة واحدة فقط ، هي إلاتنا ، الذي يسمونه جبل البركان أو جبل النار الجارية (١٢٤) . وسنعود إليه وإلى أمثاله فيما بعد .

والمعلومات قليلة عن الأندلس أيضاً (١٢٥) . ويصعب علينا تصور تضاريس هذه الجزيرة على ما نعرفها ، إذا طالعنا كتاب ابن حوقل . ويتحدث بعض المصنفين الآخرين عن جبالها هنا وهناك ، لكن كخلفية مبهمة خالية من الأسماء على الدوام . خلاصة القول ، لا نجد سوى جبل العيون ، وهو مدينة ، وجبل طارق ، والجبال المحددة بمواقعها بالنسبة إلى قرطبة : مثل جبل بطلش الذي بنيت في سفحه مدينة الزهراء الجديدة ، وجبل يسمى شلير بينه وبين قرطبة أربعة أيام ، ويقع عليه الثلج (سيرا نيفادا) ، وأخيراً جبل لينشكة الذي يحير اسمه ولعله سيرا سيغورا ، ويقع على نحو ستة أيام من قرطبة وهو مبدأ نهرا . ويستشف أحياناً قصد يتحقق بسرعة ، يرمي إلى فهم مجمل النظام . فابن حوقل يشير إلى تقابل الأندلس والمغرب على جانبي المضيق الواقع بين رأسي أشبرتال والطرف الأخضر اللذين سُمِّيَا جبلين باسم الجبلين المنتصبين على ساحليهما (١٢٧) . ويعتمد كتاب حدود العالم على وجود المدن ، ويشير إلى سلسلة جبلية تتفرع عن سيرا نيفادا ، وتصعد مستقيمة إلى الشمال وتساير خط تقسيم المياه بين بحر الروم وبحر الظلمات ثم تنعطف إلى الغرب ، وتنتهي في طليطلة ، في حين تجاري سلسلة أخرى ضفة نهر تاجو اليمنى (١٢٨) .

ويحسن بنا أن نقارن هذه المحاولات الأولى لتصوير الأرض بالمعلومات التي جمعها الرازي (١٢٩) من مصادر محلية . فهو يعرض أن الأندلس مؤلفة من ثلاث سلاسل رئيسة تقطعها من جهة إلى أخرى ، فتبدأ من بحر الروم وتصل إلى بحر الظلمات دون أن يخترقها أي مجرى ماء ، مما يؤول ، كما يلاحظ ، إلى دمج نظامي التضاريس والماء في نظام واحد . وعليه ، يؤلف نهر قرطبة (الوادي الكبير) في الجنوب محور جبال قرطبة (سيرا سيغورا ومورينا) التي تذهب من الساحل الشرقي إلى سهل الغرب . كذلك ، تحتل حوض وادي تاجو في الوسط الجبل التي « تفصل الأندلسين » وتصل طرطوشة بأثاء لشبونة . ويبدو شمال الأندلس مشوشاً ، ويخرج عن دار الإسلام : فالسلسلة التي تمتد من نربونه إلى جليقة ، تدمج سلسلتي البيرينه وشنتره في سلسلة واحدة كما نرى . ويجدر بنا أن نضيف إلى هذه الظهيرات الثلاث بعض الجبال الوارد ذكرها هنا أو هناك : منها في الجنوب جبل ريو (سيرا نيا - مالقة) الذي يصل إلى الجزيرة في الغرب ، وجبل شلير (سولوريوس أو سولاريوس) (١٣٠) الشهير بعيونه وثلجه ، أي سيرا نيفادا ، وجبل سلبه (أو شيبه) ، « الذي يعلو حتى السحاب » ، وتكثر فيه الزهور العطرية والطبية ، أي سيرا كابرا وبخاصة لوباتيجوا (١٣١) . ولا يوتق بالمعلومات المعطاة عن الشمال ، كمسا هي الحال بالنسبة إلى السلسلة الرئيسية ، بل يزيد الشك فيها عنها ، إذ يقال لنا بأن سيرا غواره الواقعة في منطقة هويسكة تبلغ البحر ، ثم أين يقع الجبل الأسود المتصل بجبال آراغون ، المنيع والعريض جداً حتى إن الفارس الجاد يجتازه في ثلاثة أيام ؟ أي الجبال المنتصبة جنوب جنوب شرق لوغرونو ، قرب قرية مونتينغرو دي كاميروس ، أم في منطقة لوس مونتينغروس على ضفة الابره

اليسرى بن سرغوسه ولزیده ؟ (١٣٢) . إذن الشكوك كثيرة في الشمال ، حتى لو أوردنا قلم يقيم صاحبه في الأندلس بالذات ، التي لا تعتبر نائية في مملكة الإسلام . مهما يكن ، لم يدون شيء عن الأندلس يشير بوضوح إلى دخولها في نظام جبال العالم . فعند الرازي وسائر المصنفين ، تبقى الأندلس فعلاً على هامش مصور جبال دار الإسلام . فجبالها لا تتصل البتة أو تكاد بجبال المغرب ، ولا يسعها أن تكون في أفضل الاحتمالات سوى أقصى طرف « كم الثوب » ، إذا فرضنا أن هذا الطرف لا يزال قائماً . فالجغرافية هنا تستيق فيما يبدو التاريخ الذي سوف يكرس فصل الأندلس عن دار الإسلام .

الجبل والجبال ، جبل أو كتلة جبلية

هذا هو إذن مشهد دار الإسلام ، وفيه إلحاح على جبالها ، التي تحدت مواقعها على المصور ، وبقي علينا أن نتوقف عندها لنجيب عن سؤال آخر لا يتعلق بمكانها ، بل بماهيتها . وقد يظن البعض أنها سائدة فعلاً لأول وهلة ، وأنها تفرط بالاهتمام بها . لكن من المسؤول ، إذا كنا قد اقترعنا ذنباً ، فالجغرافيون لا نحن ، هم الذين وضعوا الجبال في وسط اللوحة كلما تسنى لهم . وإن هم فعلوا ، فما ذلك إلا لأنهم مسلمون دينون يؤمنون إيماناً عميقاً بالآيات القرآنية ، ويعتبرون الجبل دليلاً واضحاً على أن الله أنشأ الأرض .

فالجبل في الواقع دليل واضح ، وهو سائد على الأرض بلا ريب . وهنا نستعيد قول الجاحظ : « اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحجارة ، ولا الفلك المشتتل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان ، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله . ولم تفرق الأمور

في حقائقها ، وإنما افترق المفكرون فيها » . وقوله أيضاً : « وما الصفدع بأدل على الله من الفراش » (١٣٣) . وهكذا نرى أن تفكير الجاحظ ينزع إلى جعل جميع الخلائق متساوية ضمن كل وحيد ، هو الكون إياه ، ويقصد الخلائق التي تقوم بوظيفة واحدة ، تثبت فيها وجود الله . ولا يناقش أحد في تباين الحجم أو القيمة بحد ذاته : فلا ينكر إنسان أن الجبل أكبر من الحجرة ، وأن رؤية الفراش أبعث إلى البهجة في النفوس من رؤية الصفدع . أما ما ينازع فيه ، فهو الانتقال من هذه الفئات إلى البرهان الوجودي ، بتعبير آخر ، التدرج منها إلى واجب الوجود والوصول إليه ، إذن لا يطعن الجاحظ بالحس السليم ، لكنه يحصره في نطاق محدد له . فهو معتزلي صلب ، يستخلص من الآيات القرآنية تأويلاً عقلانياً ، يدرك به الأرض الكلية من عناصر يختارها قرائن يستقطب بها مخيلة أكبر عدد من الناس : فالجبال ، كالبهار والأنهار والرياح أو الماء الهاطل من السماء ، لا تعطي وحدها صورة عن الأرض ، بل هي إحدى الأدلة على جعل الله البشر خلفاء هذه الدنيا . وأحيل بهذا الشأن إلى السورة ٢٧ من القرآن التي تبدو لي واضحة جداً : « أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً . أله مع الله (. . .) . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أله مع الله » (١٣٤) .

ولا يبحث الجغرافيون في هذه المناظرات الفلسفية الدقيقة ، ولا يحاولون أن يثمينوا ما إذا كان تفكيرهم يضل في استنتاجات خارجية مبنية على سوء تأويل الحس السليم ، الذي يتمسكون به ، وينغمسون فيه ، فينظرون إلى الجبل على حقيقته ، أي حسب منطوق الآيات الإلهية ، كدليل ثابت على إرادة الله بشأن الأرض . ولم يصلوا إلا إلى صيغة نظرية

وحيدة - بل وصل إليها بعضهم فقط - تتمثل في تحديد هيكل إجمالي ،
أو نظام جبلي عالمي ينتشر على وجه الأرض من أقصاها إلى أقصاها حسب
مشيئة الله . وفيما عدا ذلك ، إذا كان الجبل دليلاً على وجود الله ،
فلا ريب أولاً أنه لا بد من التحدث عنه كلما شُهِد : فهو كاسح حقاً
لكن كبرهان على وجود الخلق الإلهي في جميع الأماكن ، ولا ريب
أيضاً أنه ينبغي أن يتفق مع جلال خالقه وقدرته ، فيكون هائلاً ومهيماً
ومنيعاً أو عظيماً ، وسوف تتكرر هذه الصفات في النصوص الجغرافية
تكرار المدائح في سبيل مجد الله .

وصحيح أن دار الاسلام تحوي جبلاً متواضعة ، لكنها قليلة إلى
أقصى حد، أقصد ان لفظ جبل يتكرر بالخاص دائم ، من مدينة إلى
أخرى ، ومن رستاق إلى آخر ، ومن اقليم إلى اقليم ، وينقصه في الغالب
نعت يصفه . ثم ان احتمال وجود جبل صغير وارد ، لكن لماذا العكس؟
في جميع الاحوال ، الواقع ظاهر أمام ناظرينا : فالجبل الصغير ،
المنغوت صراحة بهذه الصفة ، نادر جداً ، خلافاً للجبل العظيم ، أي
الجبل الحقيقي ، كما سوف نرى . وقد عثرت عند ابن حوقل وعند
المقدسي ، إذا لم أكن مخطئاً ، على ستة أو سبعة تعابير واضحة تشير
صراحة إلى تضريس ضعيف الشأن : منها « جبل صغير » ، و « جبل
متلاط » ، و « جبل ليس بالكبير الطويل » (١٣٥) .

لكن علام تنطوي هذه الصفات في واقع الحال ؟ فالتعبير الأخير
يتعلق بأحد الجبال (كركس كويه) الواقع في مفازة فارس ، دور
أسفله نحو فرسخين ، أي أن قطر قاعدته يزيد قليلاً عن ١/٢ كم .
ونحن نعرف أن هذا البعد ليس بسيطاً . لكن هل تتحدد عظمة الجبل

بارتفاعه ، كما هي الحال في عرفنا ؟ إلا أن ابن حوقل أطلق اسم جبل على تضريس علوه خمسون قامة ، ولم يصفه بالصغير (١٣٦) . وقد يخطر ببالنا في هذه الحالة ان الجبل يعوض بفخامة انتصابه عما ينحسر من جلال في ضخامته المفقودة : إذ إنه يطل على نهر دجلة . ويردد المقدسي الفكرة ذاتها ، فيتحدث عن « جبل صغير » يشرف على بحيرة صغرى (١٣٧) ويبدو أن ابن حوقل يجعل الانقطاع والارتفاع متناسبين عكسياً ، مثلما مر معنا في حالة جبل سبلان في الظاهر ، لأنه ينقطع عن الجبال التي تصاقبه ، ويعلو في وسطها و « فوقها » كالقبة ، وليس على حدة (١٣٨).

ويؤكد هذا التردد ما استطعنا استنتاجه من الاحصاء البسيط ، من ندرة الصيغة التي تدعي ربط الجبل بما هو صغير أو لاطيء أو منخفض أو ضيق أو متقلص ، وعن الشك فيها ، وضعف ترابطها ، واستحالتها . ويستعمل الجغرافيون (١٣٩) ألفاظاً غير لفظ الجبل ، ليعبروا عن تحذب السطح البسيط أو عن ارتفاع الأرض قليلاً عما يجاورها . من ذلك : نشر أو نشرة (١٤٠) ، وحزنة (١٤١) ، ومدرة (١٤٢) ، وجرف (١٤٣) وشرف (١٤٤) ، وأخيراً الربوة أو الراية (١٤٥) ، وخاصة التل الطبيعي أو التل الاثري (١٤٦) . ويتجلى الفرق واضحاً جداً بين هذه التضاريس المنخفضة وبين الجبل الحقيقي : فلا يحدى المدن مثلاً باب يسمى باب الجبل ، والأخرى باب يدعى باب التل — آمد — (١٤٧) ، وفي بادية العرب تلال ، إلا أن الجبال قليلة فيها (١٤٨) ، وفي أحد البلدان رواي وجبال (١٤٩) . وقد تؤلف الربوة والسفوح والمنخفضات والتموجات جزء من جملة التضريس الذي له وحده الحق بأن يسمى جبلاً (١٥٠) . وهكذا نرى أن العلاقة واضحة بين الصغير والكبير ، وبين الأدنى والأعلى ، وبين الجزء والكل . ولا يجوز أن نخطئ ، فالعودة دوماً

إلى الجبل في كل مقايسة : فمنذ لحظة حاولنا عبثاً أن نخفض علوه ، في حين تبذل جميع تلك المدرات جهدها لكي تتخذ مظاهر هامة بارتفاعها ، إذا جاز هذا التعبير : فالراية الكبيرة ، والتل الرفيع ، والنشر المطل على نهر وعين (١٥١) ، كل ذلك . وحتى الاطراء على هذا التل أو ذاك الكثيب بوصفه انه « عظيم كالجبل » (١٥٢) ، يثبت أن التقدير لا يكون بوسط المقياس ، بل باعلاه ، حيثما وضعه الله ، وان ذكر الجبل يعني الأخذ بالعظمة والكمال والجلال . وان احتمال اتخاذ التل صورة الجبل أحياناً ظاهرة واردة جداً ، والعكس ليس صحيحاً ، وان هذا التل يختلف عن الجبل ، ويطلق عليه اسم خاص أو أسماء يدل عددها على اضطراب وضعه بالنسبة إلى وضع الجبل ، الأعظم والفريد ، وانه ، ولو جازت أحياناً مقارنته بالجبل فاعلت من شأنه ، يبقى جبلاً منقوصاً في أفضل الحالات ، ومع احترام مشيئة الله .

لذلك لن يقال عن الجبل أنه عظيم ، لأن هذه الصفة مفروضة فيه . لكن تختار له نعوت تنطوي على المبالغة على الدوام ، وتتراكم بطيبة خاطر متى سمح المشهد . اذن لا تذكر العظمة ، بل الضخامة (١٥٣) ، ولا العلو وحده (١٥٤) بل السموق (١٥٥) ولا الانافة (١٥٦) ، ولا الانحدار وحده ، بل وعورة الصخور المكدسة أو الجدران الملساء (١٥٧) ومناعة الحصن وامتناعه (١٥٨) . وتستدعي هذه الصفات غيرها ، فيصبح الجبل عامراً ، ويصل إلى حد الاشتراك بحياة البشر : فيتحول العلو والسعة إلى سموق وشهوق (١٥٩) ، أو على النقيض ، إلى وحشة وشموخ وعبوس (١٦٠) .

وتنطق الأرقام هذه المرة . فقد ذكر الفرسخان من قبل لدور أسفل

أحد الجبال ، ونشير الآن إلى أن علو جبل ماردين (١٦١) نحو فرسخان من قرار الأرض إلى ذروته . أما جبل دنباوند (١٦٢) العملاق ، فهو بالموضع الذي يعلو عليه نحو أربعة فراسخ . وفي كرمان ، طول جبال المعادن نحو مرحلتين (١٦٣) ، ويكون جبل نفوسه ثلاثة أيام في أقل من ذلك (١٦٤) . ويعطى رقمان قياسيان ، أولهما لجبل بتم : فقسم من البتم (وهو الأوسط) ، حول بحيرة جن ، يكون نحو ثلاثين فرسخاً ، أي ما يساوي كل الواقع (١٦٥) . ويشير المقدسي (١٦٦) إلى جبل في اردبيل مساحته ١٤٠ فرسخاً (كله قرى ومزارع) ، أي حوالي ٨٠٠ كم : ولا ندري أي سلسلة باذرييجان يمكن أن تمتد على هذا النحو بلا انقطاع . لكن ماذا نقول إذا كان المقصود ، مثلما أخشى ، جبل سيلان ، الذي يبلغ صعوده ونزوله نحو ثلاثة فراسخ فقط لاسيما أنه منقطع عن الجبال التي تصاقبه ؟ لا شك أن أنصار المقدسي ، وأنا واحد منهم ، ممن يعرفون رصانته ، سيتلذعون بحدوث سهو عابر والتباس حصل في ذهنه مع جبل القبق غير البعيد جداً — أو — من يدري؟ أو في مخيلة الناسخ . لكن لا بأس : فالذهاب بالتفضيل إلى هذا الحد ، يعود إلى مسلمة تقضي بأن تعطى القروض إلى الأغنياء وحدهم ، والجبل لا يمكن أن يشد إلا نحو الأعلى .

أقول نحو الأعلى ونحو المتراس أيضاً . وإذا كان الجبل يتألف ، مثلما رأينا ، في الأصل والواقع ، من فروع تتشعب إلى ما لا نهاية له ، على ما يقال ، فالمشهد الشامل لن يهمل أبداً ، ولن يوجه الاهتمام إلى التفاصيل المستقلة وحدها . ويدرك المصنفون الجغرافيون الجبل بكليته حتى في امتداداته بالذات ، وعلى مستوى العالم ، أو على مستوى هذا البلد أو ذاك ، أو هذه المنطقة أو تلك : ولا تعني التجزئة والتوزيع ، التمزيق

والانفصال ، بل الهندسة المرتبة . والتنظيم العضوي . وأعرف جيداً ان ابن حوقل يكرر الاصطخري ، ويقول عن قرية الحجر في جزيرة العرب : « وهي جبال في العيان متصلة ، حتى إذا توسطت كانت كل قطعة منها (١٦٧) قائمة بذاتها ، يطوف بكل قطعة منها الطائف » (١٦٨). ويقول في مكان آخر عن النواحي الواقعة إلى شرق سمرقند : « بهذا المكان تتفسخ الجبال ، وتظهر الأراضي التي يمكن فيها الزرع وجري الأنهار » (١٦٩) . مع ذلك ، لابد أن يلاحظ المرء أن التصريح بوضوح عن انقسام الجبال ، لم يرد إلا مرتين ، وان لفظ « قطعة » ، أي قطعة من المشهد العام في هذا المنظور ، لم يذكر إلا مرة واحدة في النصوص الجغرافية ، لأن ابن حوقل يكتفي بتكرار الاصطخري . وهذا يعني أن النظرة إلى الجبل تبقى شاملة تقريباً ، لا انفصام فيها رغم وجود فروع له معروفة ومفهرسة ، وهذا على الدوام أو على أي حال في غالب الأحيان ، لكي يشار إلى شواذات تخرج عن الوضع الراهن .

ويطغى هذا التماسك على العلو : وقد دوّن ابن حوقل هذه الحالة بوضوح ، واعتبرها بديهية : وقد ذكرت هذا الحدث وكررته ، ولن أعود إليه . فالكتلة تزيد الشعور بقيام حاجز أيضاً . مثال ذلك الحاجز الفاصل بين سواحل سرت وبين الصحراء الكبرى ، أو ما هو أوضح ، الجبال المتشعبة عن جبال اللكام (١٧٠) ، القائمة كالحاجز بين طرسوس وبين ثغور الروم . وتتمجلى أهمية الجبل على الأرض في بعض الأحيان بألفاظ مثل اجتياح وسيطرة واحتفاف . فمن البلدان المجتاحة وحتى المغمورة ، كما رأينا ، صقلية وفارس ، والمرتفعات الواقعة على سواحل بحر قزوين أو في شمال شرق دار الاسلام ، وأخيراً الجبال (١٧١) التي يطلق اسمها على ايران . ونذكر من البلدان المسيطر عليها ، اضافة إلى

ما مر من قبل ، وبلا تحديد معين ، إحدى مدن خوارزم أو فارس (١٧٢). ونسبي من البلدان المطوقة ، بلا تخصيص أيضاً ، مري وهران ، وغوطة دمشق ، وشى مدن الديلم التي يقال عنها ان الجبال تحتف بها على مثال القوس ، وأحد الأماكن النائية ، الذي تحيط به مدازة فارس من جميع جهاته ، حتى ليظن المرء حقاً أنه « ضمن سور » (١٧٣). وفي الحد الأقصى ، لا يدري المصنف أيستعمل جبلاً أم جبلاً ليدل على كتلتها . مهما يكن ، استعمالات الجبل واردة كثيراً : منها الجبل الذي يدور بعدن ، أو القريب من مدينه كوه بيان في كرمان (١٧٤) ، أو الذي يحيط ببقعة برقة من سائر جهاتها — وهي بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله — ، أو الذي يحتف ببقعة مدينة حران مسيرة يومين في مثلها (١٧٥) . ويستعمل الجبل مفرداً (أو بمعنى شبه جمع ؟) ليدل على جبال اليمن على ساحل بحر القلزم ، أو على أطراف تقويس جبال فارس في العراق ، أو أخيراً على جبل أرمينية العظيم المتصل بجبل القبق (١٧٦) . وتجمع الجغرافية العربية مناطق كاملة ، وتطلق عليها اسم « الجبل » مفرداً ووحيداً (إقليم الجبل) . وتحبو هذا الجبل وجوداً كثيفاً ، وسلطة راسخة جداً ومتينة ، فيجسد ما هو في الواقع مفهوم قرآني موروث : فالجبل قوي وعال ، لأنه رمز الله ، ولا يمثل ارتفاعاً منظوراً من أراضي سخرها الله للإنسان فحسب ، بل أيضاً ، ولأسباب إلهية عيناها ، كتلة متماسكة ومتجانسة على صورة بارئها (١٧٧) . لذلك تزول السلاسل في معظم الأحيان أمام الجبل في الرؤية الشاملة.

ولا شك ، لحسن الحظ ، في وجود ثغرات في هذه الكتلة ، تسمح بالالتفاف على العقبات الكبرى في الحد الأدنى . فالجبل ليس في الواقع سوى عكس الوادي ، وتتجاوز امنع ذراه مع طرق الدخول إليه والتوغل

فيه الي تقع عند حضيضه، وتدعو البشر إلى الانتقال إليها ، وحتى إلى الاستيطان والعيش فيها . وتتوفر هذه الطرق في مملكة الاسلام هنا وفي سائر الأماكن ، وهي معروفة ومدونة ومطروقة وموصوفة . لكن لم ينظر المصنفون الجغرافيون إلى الوادي من زاوية علاقته بالجبل : وسوف يعرف فيما بعد ، وسرى كيف يتم تعريفه . وعلى وجه أدق ، اذا أقيمت صلة ، وهذا أمر قليل جداً أصلاً ، يعبر عنها بلفظ شعب (شعب ، شعبة) (١٧٨) وهذه الكلمة غنية بمعانيها ولي عودة إليها . ولا أذكرها هنا إلا في النواحي التي تهتم حديثي . فلاحظ أولاً ان ألفاظ الوادي في هذه النقطة ، هي ألفاظ الجبل بالمئات : لأن شعب يؤدي معنى الارتفاع (رؤوس الجبال) والانخفاض (ما تعرج بين جبلين) . لكن ، حتى لو كانت الجبال عكس الأودية ، وعندما يراد وصف بلد يتناوب فيه المشهدان ، يستعمل لفظ الجبل لا الوادي في الجغرافية العربية والجغرافية المعاصرة . وهذا يعني أن شعب من الاضداد ، أو سلسلة تشاهد من أعلاها أو من أسفلها ، وان هذا اللفظ يرتبط بالجبل في جميع الأحوال . والبرهان أنه عندما يقصد به وادي ، لا يفارق النطاق الجبلي الذي يطبعه بطابعه في معناه الآخر (١٧٩) ، وأنه لا يعني أبداً مثلاً منخفضاً حفر في منبسط من الأرض . فهو مقيد بالجبل ، ويثبت فيه الوادي معه ، فلا يفقد الجبل شيئاً من مقوماته . ولا يدخل أحد في الجبل ليخرج منه ، والواقع أنه لا يخرج منه : فلا درجات ولا تدرج في هذه القلعة : فهي كتلة ولا تغادر إلا كتلة .

لكن ما هو الوادي المقصود ؟ لا ريب البتة أن الألفاظ المشتقة من «شعب» تدل في أغلب الأحيان على ثغرة بسيطة في جبل لا يسمح سطحه المحدود بأكثر منها . ويتحدد شكلها بالقمم العالية : فمكة واقعة بين

جبال فيها أودية ذات شعاب (١٨٠) . وتشبه شكلها ، على ما يقال صراحة ، سجلماسة ، وعمان ، واصطخر ، وفي خراسان : أنبار وقرية الحمراء (١٨١) . ويدانيها مواضع أو مدن أخرى : مثل منى في جزيرة العرب ، ومازمان أو سابور في فارس (١٨٢) . ويضيق شعب الجبل أحياناً إلى حد كبير جداً حتى لا يستطيع أن تسلكه إلا عناصر الطبيعة . فالرياح تقع على ذروة جبل (في بحر القلزم) ، وتنقطع قسمين ، فتتزل على شعبتين في سفحه متقابلتين ، وتخرج من كميها ، وتثير البحر في مضيق فاران (تاران) (١٨٣) . وفي مجاهل شعاب جبل كركس كويه ، مياه قليلة ، وهو جبل في مفازة فارس (١٨٤) . وتأتي مياه دمشق من الفيحة وعين بردى ، وتجري في شعب ، ويخرج ماء نصيبين من شعب جبل (يعرف ببالوسا) (١٨٥) .

وفي الشعب ، تنضغط المدن ، وتنحبس الرياح والمياه في حيز صغير ، فتندفع أحياناً غاضبة لحصر الجبال لها في رقعة ضيقة . وهكذا نرى أن الشعب لا يمثل في وسط الجبل ظهور أرض الهضاب أو السهول المتسعة ، بل امتداد الحد الأدنى من المجال الحيوي الذي تسمح به القلعة الشامخة . وليس الشعب وادياً ، بل فجاً عميقاً . ويمكن دائماً تمييز الوادي عن الشعب على ضوء الأوصاف الواردة في النصوص الجغرافية ، ويعبر عن الفارق بينها بوضوح كبير أحياناً : فيقول الاصطخري (١٨٦) ان أحد جبال جزيرة العرب (= جبل رضوى) ذو شعاب وأودية ، ويقول المقدسي عن الكعبة (١٨٧) : « الكعبة في شعب واد » (١٨٨) . وننتقل الآن إلى ذكر الأرقام . فمضى قرب مكة ، شعب طوله دون المليون ، أي ما يقرب من أربعة كيلومترات ، وعرضه دون رمية السهم ، لنقل أقل من ٢٥٠ متراً (١٨٩) . ولدى الباحث برهان آخر ، هو الماء

أيضاً . بل ماء من نوع جديد . فاذا كانت مياه الأنهار تتمكن من المرور في الشعاب ، فان هذه الشعاب ذاتها ، متى نحتت ما يتناسب مع الأنهار الكبرى . مثل جيحون والنيل ، لا تسمى شعاباً ، بل مضائق ، أو لا تعطى اسماً البتة . ويطلق اسم شعبة على الجبل وحده ، المقسوم إلى قسمين على جانبي الانقطاع . ويجوز استبدال هذا الاسم في أماكن أخرى . أما هنا ، فيقتصر على الجبل ، ويستبعد هذه المرة الظاهرة التي نهجت في تشكيله ، ليدخلها في نطاق آخر غير محدد ، لكنه ليس نطاق الجبل في جميع الأحوال (١٩٠) .

ونورد اثباتاً آخر وأخيراً . فقد ينفرج الشعب حقاً ، وتسمح له الجبال بالاتساع ، فيحتوي القرى ، والحقول الحقيقية ، والبساتين ، والمشاجر ، والمياه الوفرة . وعندئذ ينلج وضعه في عداد الحالات النادرة . وتعتبر ظاهرتة سعيدة وشاذة . مع ذلك ، حتى في هذه الشروط يذكر المصنفون بوجود القمم . وإذا انفتح في الجبل واد ، طوله عشرون فرسخاً مثلاً ، أي حوالي ١١٥ كيلومتراً ، يتبدى العرض بوضوح كاف من « اتصال » الزروع والمنازل (١٩١) . ويستثنى فعلاً شعب بوان الشهير وحده ، ويقع في فارس ، وهو إحدى جنات الدنيا الأربع . وتغطي فيه الأشجار القرى حتى لا يكاد يراها الانسان إلا أن يدخلها ، ويتناسب فيه رغد العيش ، عن خبرة فيه وشعور به ، مع طبيعة آفاقها عريضة ، ومع جبل قريب لا يحصر ، بل يجري المياه إليه ، فيجبهه رطوبة (١٩٢) مع المياه والاتساع .

ويمثل جميع ما ذكرته حالات شاذة ، ويجب الالتحاح على هذه الناحية . فليس الوادي . أعني الوادي الجبلي ، كما ننظر إليه نحن عادة ، رمز

انتصار على التضريس ، ولا نهجا في ازدراء شهوق الجبل العملاق بالاستيلاء على ركائزه الأساسية ، بل على النقيض ، تسامحاً من الجبل ولا شيء سوى هذا التسامح ، لأنه يتحكم في المواقف على الدوام . وربما بدا لبعض الناس ان في هذا القول شيئاً من الاستقراء الخارجي : فهنا وفي سائر الأماكن ، سيطر البشر على الجبل ، واستقروا في اضعافه ، ونجحوا في توفير متطلبات الحياة ومباهاجتها في كتلة قد تظن ممتنعة من بعيد . وهذا صحيح . وصحيح أيضاً أن النصوص الجغرافية تعكس هذه الحقيقة . وقد يقال بأنها تعكسها تلقائياً وعرضاً ، وفي جميع الأحوال ، دون أن يشعر أحد أن معركة حاسمة نشبت هنا بين الانسان والطبيعة . وتختلف رؤية هذه النصوص لهذه المجابهة اختلافاً كلياً ، وترى أن اختراق الجبل أضعف من توفقه .

ذلك أن العقبة (خائق ، ممر ، صعود) لا الوادي ، تتحمل في أذهان الناس وطأة الصراع مع الجبل والانتصار عليه . ولنتفكر مرة أخرى ان الجبل تدبير الهي ، ويبقى تدبيراً إلهياً ، حتى في عواقبه التي تعتبر وجهاً من وظيفته في تثبيت التوازن . ويرسو الجبل في وسط الدنيا ، ويعرض لطريق البشر ، ولا بد له من فاتحين قادرين على اجتياحه . ولا يتمثل هؤلاء الفاتحون في الحضر من أهل الأودية ، الذين يكسحون في عمل الأرض ، ويسعدون جداً فيما حازوا عليه وفي نطاقهم الثابت الضيق - فجميع هؤلاء ينعمون « في الأودية الصغيرة » (١٩٣) ، على حد قول جيونو - بل في أناس آخرين من رحالة الكرة الأرضية ، وفي طليعتهم التجار ، والمغامرون وطالبو المعرفة - وقد يجمعون كلهم في فئة واحدة - ومنهم أيضاً الجغرافيون في جميع الأحوال . أما هؤلاء الجغرافيون ، فيرومون الذهاب إلى آفاق أبعد من الحدود السابقة ، ويريدون تجاوزها

وتخطيها . ولا يبتغون متعة ، يأثمون ، ان هم سعوا إليها وحدها : إذ لا يجوز الجحود بخلق الخالق ، ولا يمضي أحد في أرض شاء الله أن تتجلى فيها قدرته العظيمة مثل دنباوند وسبلان ، إلا اذا أصابه مس من الجنون . أما في سائر الأماكن ، فاذا اقتضت التجارة أو تبادل الحاجات أو فرض السلطة أو نقل الفكر ، فتصبح مجابهة العقبة واجباً شبه مقدس ، يرضى الله عنه في رؤيته مواجهة خلقه وخليقته . ويعتبر الانسان ندأ للجل في خصومته له . لذلك تمكن من اجتيازه ، إلا أن معاناته في غضون هذا الاجتياز علّمته وجوب احترام الجبل .

ويكاد هذا الحوار ينقطع بين المتحاورين هذين المتحاورين بحكم استمراره في غضون المرحلة الأولى : فيكسب الميل البقاء لقاء ما ينخره من حدة انحداره . وهكذا يتحدث المقدسي عن بعض الجبال في مفازة فارس ، فيقول ان فيها عقاباً هينة (١٩٤) . ويتكلم ابن حوقل (١٩٥) عن الطرق بين وادي نهر النيل وبين بلد الواحات ، فيعتبران أكثرها في عقاب وأودية . وبذا نرى أن المقصود بعقبة لم يعد خوائق أو أودية ، بل أعرافاً وانحدارات : أي توالي حذبات ووهداث اذا شئنا (١٩٦) . وفي نهاية المطاف ، لا تلحظ العقبة ، وتصبح اسم مكان فقط ، أو حتى اسم مدينة ، مثل ميناء العقبة على الحدود الجنوبية في المملكة الأردنية الهاشمية الحالية (١٩٧) . وفي الأماكن الأخرى ، وفي أغلب الأحيان ، تبقى العقبة الظاهرة الكبرى في المرحلة ، والتدوين الوارد حتماً في النص كلما استدعت ذكره ضخامة كتلة التضريس ، كما هي الحال مثلاً في زغروس أو فارس ، حيث يشكل الجبل « أعظم تحديب باستمراره وثخائنه وانتظامه » ، و « يفضل تسلق سلسله عبر ممراته العالية . . على

المجازفة بسلوك وديانه . . . بما فيها من خرق عرضانية . . . وفجائح عميقة رهيبة ، منيعة وممتعة ... وخوانق حديثة جداً » (١٩٨).

في النهاية ، تعطي العقبة صورة عن الجبل ، واضحة ، لا رموز فيها ، يراها الناس بأعينهم ، ويطؤونها بأقدامهم ، لا تتناول كيان الجبل القائم بمجد ذاته ، بل ابعاده . وينفرد كل جبل بارتفاعه الذي يطول ويصعب ويتميز ، كلما زاد علوه وضخمت تضاريسه . ولنلق نظرة إلى الخريطة . فقد قلنا من قبل أن الجبل يتجزأ شيئاً فشيئاً في الغرب ، ثم يزول . بالتالي ، لا يستغرب الا تتجاوز آخر عقبة سميت باسمها السفوح الحادة في برقة : أي عقبة برقة ، أو العقبة باختصار ، وهي على ساحل البحر المالح بالنسبة إلى القادم من مصر (١٩٩) . أما في طرف دار الاسلام الآخر ، فتختفي جبال شمال غرب الهند من النصوص الجغرافية ، وتخفي معها ممر خير (٢٠٠) رغم شهرته في التاريخ والجغرافية .

وقلنا أيضاً من قبل أن الجبل في جزيرة العرب وفي هذا السياق الخاص يكاد يتخذ طابعاً دينياً ومقدساً على الدوام تقريباً . بالتالي تتسم العقبة بهذه السمة أيضاً . وتشتهر العقبة المسماة أحياناً عقبة أهل المدينة (٢٠١) ، بالمفاوضات التي جرت بين الرسول وبين أهل المدينة أي الانصار ، وبطقوس الرجم في الحج . وتشتهر أيضاً عقبة أخرى ، تقع على سفح جزيرة العرب الشرقي ، وتسمح بتسلك الأعراف التي تقطع الطريق الكبيرة من العراق إلى المدن المقدسة في الحجاز (٢٠٢) . ويشار في اقليم الشام إلى عقبة الرمان ، المسماة حالياً جسر الرمان ، والواقعة على طريق بعلبك دمشق التي تمر في جبال لبنان الشرقية (٢٠٣) ، ثم إلى عقبة فيق

« المعروفة » التي تقع شرق بحيرة طبرية ، وتسمح باجتياز هضبة الجولان (٢٠٤) . وتمثل ثغور الروم (الاناضول) بعقبة الأكواخ وعقبة البراذع في حوض بردان الأعلى (سيدنوس) ، نهر طرسوس ، ويقابلها ممرات طورس الشهيرة وربما أبواب كيليكية في إحدى التسميتين (٢٠٥) . ولأرمية في أذربيجان ، عقبة واقعة على الطريق الداهية من ارمية أو بحيرتها إلى الموصل ، ويمكن أن يتصور المرء أنها تدعى عقبة اورمية (٢٠٦) ، ويبرز المقدسي صعوبتها لأن جبال كردستان على الحدود الحالية بين العراق وايران وتركيا ، تعلو إلى ما يقرب من أربعة آلاف متر .

مع ذلك ، تكثر الوعورة في أماكن أخرى ، نعني في فارس . وتتابع سلسلة حقيقية من العقبات على الطرق المارة في جبال زغروس ، وتحمل في أغلب الأحيان أسماء المدن التي تحرس مشارفها . وهي على التوالي : عقبة حلوان بين حلوان وكرمنشاه (٢٠٧) ، وعقبة ماذران (٢٠٨) ، وعقبة اسداباذ (٢٠٩) ، وعقبة همذان (٢١٠) ، وأخيراً ثنية الركاب (٢١١) في أنحاء نهاوند . وتعرض عقبات أخرى تتوزع على طرق طرف اقليم الجبال الآخر ، كل من أراد الذهاب إلى شيراز وفارس ، وأولاهما قرب أصبهان (« مدينتان : اليهودية وشهرستان) وتسمى عقبة سرفراز . فمتى صعدنا الانسان ، أشرف ، بصحبة ابن حوقل (٢١٢) على المدينتين والرساتيق المتصلة بالبلد ، ورأى « انزه مكان وأطبيه » ، يستوقف نظره ليودع ما ارتاحت له نفسه ولم يسأله بصره . وتقع عقبة كيسا (٢١٣) ، أي ممر اسماعيل الحالي ، المؤدي إلى شمال شرق زغروس ، على الطريق ذاتها ، وقبل الوصول إلى مائين ، في شمال غرب اصطخر . ومتى وصل الانسان إلى شيراز ، تضطره جميع

الطرق تقريباً إلى الصعود . فالى الجنوب ، على الطريق من شيراز إلى سيراف تعرضه عقبة كسائر العقبات . (٢١٤) وإلى الغرب تنتصب عقبة على الطريق من شيران إلى خراسان ، بين كازرون وتوز (توج) (٢١٥) . وتأتي بعد عقبة بالان أو مالان (٢١٦) . أخيراً تجتاز الطريق من شيراز إلى خوزستان في الشمال الغربي . جبال زغروس الغربية وتمر في عقبة الطين وعقبة الفيل (٢١٧) لنتهي في ارجان عند نهر ارجان ، حيث تشاهد عقبة أخيرة عند التقاء نهر ارجان بنهر رامهرمز (٢١٨) .

في الختام (٢١٩) ، نلقى العقبات الأخيرة في خراسان وفرغانة إلى شمال شرق دار الاسلام . فمن نيسابور إلى طوس ، كما في اصبهان ، يصعد الناس إلى نيسابور العقبة التي تقع نيسابور في سفحها ، ويجتازون سلسلة بينالود التي يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ٣٥٠٠ متر (٢٢٠) . وبعد ذلك ، تقطع حيود هزار مسجد ، قبيل سرخس ، عقبة مزدوران (٢٢١) . وبعدها إلى الشرق أيضاً ، تربط إحدى الطرق وادي مرغاب بوادي جيحون ، وتجاري ظهر جبل بنس - اي - تركستان ، وتمر في عقبة ترابية ليست صعبة أصلاً ، مجهولة الاسم . (٢٢٢) . خلافاً لما تقدم ، يرد ذكر عقبة في أقصى دار الاسلام ، على حدود فرغانة ، وتخصها النصوص الجغرافية بالإشارة إلى وصف علوها وصعوبتها ، فلا بد بالتالي أن تكون واقعة في وسط سلاسل تيان شان الغربية ، وان يقصد بها ممر كوغرث أو توروغرت الحالي (٢٢٣) .

وبذا نرى أن النصوص الجغرافية تعطي صورة اجمالية عن العقبة . إلا أن هذه الصور لا تعرض منفردة في النهاية . فقد قلنا ان الانسان يتحاور مع العقبة ، ويوضح أولاً أماكن تأثيرها في الجسم أو في العقل .

مثلاً لا يتحتم على المرء دوماً أن يصعد العقبة . فربما اختار ارتقاءها ليكسب الوقت أو ليمضيه في جهة أخرى ، وترك الدواب تدور حول هذا العائق ، مثلما يحصل بين نيسابور وطوس (٢٢٤) . ويمكن أيضاً إزالة عوائق الطريق بالقيام بأعمال استصلاح ملائمة ، وانتهاز الفرصة لتقديم بعض اليسر إلى المسافرين ، كما جرى على السفوح الشرقية في جزيرة العرب . التي يروي ابن رسته عن قرية العقبة فيها أنها « كانت عقبة فسهلت » : وهذا على الأرض بالذات بلا ريب ، لكن هان العمل لوجود آبار يتحدث عنها المقدسي (٢٢٥) . ويتعاظم انتشار العمران في بعض الأماكن الأخرى . فهنا — على الطريق من شيراز إلى جنابة — يقوم خان — خان الأسد — ، وهناك — على الطريق من شيراز إلى اصبهان — بني مرصد ، مما يدل على قدرة البشر على الاستفادة من العائق الطبيعي (٢٢٦) . أخيراً ، يتمثل رمز الجبل الديني في قبة كازرون ، التي أشيدت قرب العقبة الواقعة بين كازرون وتوز . وتزعم المجوس أنها وسط الدنيا ، فتحول هذا المكان العالي إلى مكان سامي (٢٢٧) .

ونشير في الختام وعلى وجه التخصيص ، إلى أن الانسان يندرج حتى في وصف العقبة ، وكدت أقول في وصفها المحض . لكنني تراجعت . فهنا ، لا لوحة رائعة ، ولا مشهد طبيعي ، ولا جغرافية طبيعية صرفة ، بل جغرافية بشرية يتفاوت إبرازها . فالصعود ، عندما يذكر ميله ، شاق ، وحاد ، وصعب ، وخطر أحياناً ، والطامة الكبرى في عقبة اورمية على طريق الموصل ، التي « يركب الناس فيها اعناق الرجال كما تركب الدواب لصعوبتها » (٢٢٨) .

السهل ، لا يسترعي الانتباه

اذن يعتبر اجتياز الجبل مغامرة . وعلى النقيض ، يفترض البقاء فيه على مر الأيام أن الناس ارتضوا لأنفسهم ما يلائمهم منه ملاءمة بديهية تامة ، كأن يقيموا في حضيمه أو في ذيله ، ليتسنى لهم اشادة بنيانهم ، والماء الانسكاب من عيونه . ويرد كثيراً لفظ السفح (٢٢٩) في النصوص الجغرافية تعبيراً عن هذا الوضع . فيكرر في نطاق الجبل الخاص ، تصنيفاً جوهرياً ، يميز العالي عن المنخفض ، ويتردد في معظم أبحاث الجغرافية : كالتضاريس ، حتماً ، أو أحد البلدان أو إحدى المدن أو حي منها ، أو حتى إحدى الدور منفردة (٢٣٠) .

وهكذا يشار إلى الارتفاع والانخفاض ، ويحكم دوماً على كل منهما بدلالة الآخر ، ويلجّ عليهما لتحديد معالم الطبيعة الأساسية . اذن أين نعين موضع الأرض المطمئنة الحالية من الحزون ، نعي السهل ؟ فهل امتنعت نصوص الجغرافية عن ذكره أو كيف تراه ؟ نلاحظ أولاً أن لفظ سهل (٢٣١) ، الذي نضمه حالياً هذا المعنى تيسيراً ، ليس في الغالب سوى إحدى كلمتين تفتنان وتعارضان ، نقصد بهما السهل والجبل ، ونسوق على سبيل الذكر بعض الامثلة المأخوذة من ابن حوقل والمقدسي : « تنس مدينة عليها سور ، ولها أبواب عدة ، وبعضها على جبل قد أحاط به سور ، وبعضها في سهل » . وفي إحدى النواحي — ما بين همدان إلى الري إلى قم — في إقليم الجبال ، « فان الغالب عليها السهل ، والجبال بها قليلة » . وفي مكان آخر ، اسبره مدينة ، « سهلية جبلية » ، وسوخ مدينة على حدة الجبال ، وفي محلات أخرى أيضاً ، يجتمع السهل والجبل في أرض واحدة قرب البحر (٢٣٢) .

ويتجلى التضاد في النصوص الجغرافية بين تفسيري الحزن والسهل ، في غالب الأحيان وبوضوح غالب . حتى ليتمكن استخلاصه أيضاً من مقاطع كثيرة يرد فيها ذكر أحدهما فقط ، فيستبعد الآخر ضمناً ، تطبيقاً لمبدأ « ما ليس سهلاً . فهو جبل ، والعكس صحيح » ، على حد زعم السيد جوردان عند موليير (٢٣٣) . مع ذلك يلاحظ أن ذكر الجبل في النصوص الجغرافية يزيد قليلاً عن ذكر السهل ، مما يثبت أن الجبل يظل في أذهان الناس المعيار الكبير على الدوام وحتى النهاية . فلا يكتفي المصنف بالإشارة إليه ، على حاله ، متى وجد ، بل يستعين به ، ويتحدث عنه ، ليوحى بأن السهل الذي يعارض الجبل ، لا يسترعي الانتباه ، ويتعدى عن الأنظار ، ويغيب عنها ، وإن كان لا أحد من الجغرافيين يفكر بالاحتجاج بغياب السهل ، عندما يريد وصف مكان خزن (٢٣٤).

ويؤول الوضع السابق ، حتى لو وجد السهل ، وتمتع بالقيم التي نقر له بها في أيامنا الحاضرة ، إلى أن السهل أضعف تأثيراً من الجبل ، وأصعب انقياداً للتدوين . لكن ماذا نقصد بالسهل ، وهل له وجود ملموس ؟ أي عني ارضاً ارتفاعها صفر قياساً على التضاريس المجاورة له ؟ الجواب نعم ، أحياناً ، على الأرجح ، لكن نادراً جداً عندما يعبر ابن حوقل عن الأرض مثلاً ، فيجمع في سلسلة واحدة الفجاج ، والأعماق ، والسهول ، والجبال ، ويحصر السهل بين بطونها ومتونها (٢٣٥) ، أو اذا تناوب عند المقدسي في جملة واحدة من حديثه عن إقليم الشام ، السهل والجبل والأغوار (٢٣٦) .

مع ذلك ، يغلب ان تقرن مفاهيم أخرى بمفهوم الجبل ، أولها السطح أي إذا شئنا السهل المستوي ، والأفق الفسيح الذي يعترض فيه

أي شيء النظر ، كأن يتكلم ابن حوقل عن بلاد خولان ويقول « هي مفترشة » (٢٣٧) ، أو عن قرية طبرقة ، فيقول « إنها واسعة الفضاء » (٢٣٨) ، أو أخيراً عن أرض المعدن في حدود البجة ، لينقلنا في جولة قصيرة خارج مملكة الاسلام (٢٣٩) ، فيقول أنها « مبسوطة لا جبل فيها » (٢٤٠) . على الرغم من ذلك ، يحيرنا غياب لفظ سهل في اليمن ، ولا يسعنا فيما نعلم ، ان نصف تضاريسها إلا بالارتفاع ، وإن بلاد البجة تقع في الحقيقة وفي تنظيم العالم البنائي ، حسب ابن حوقل بالذات ، في وسط سلاسل جبلية تمتد بين النيل وبحر القلزم . أخيراً ، إذا عدنا إلى النص ، أدركنا أن المقصود بطبرقة ، ليس الآفاق الواسعة أو المنظورة ، بل الحقول الكثيرة الغلات والمزارع (٢٤١) المعروف وسطها هنا نغني جبال كرومير . اذن على وجه الاجمال ، تبدو «السهول» - وهي نادرة - المذكورة هنا ، صراحة ، أماكن منفرجة ضمن كتلة الجبال ، ولا شيء سوى هذا الانفراج ، أي ما يشبه بلاد ريبيلاز في نشيد العالم لحيونو (٢٤٢) .

بالمقابل ، نحصل حتماً على معان كثيرة : تدل عليها الألفاظ المشتقة من جذر « سوي » ، التي تصف الأرض المطمئنة المنبسطة ، مثل اسم الفاعل واسم المفعول ، بالذكر والمؤنث - مستوى ، مستوية أو مستواة - عندما تنعت بها الأرض الواردة صراحة في النص أو المسترة ، ويترافق مدلولها مع أوصاف أخرى تتناول طبيعتها أو خصبها (٢٤٣) . وأهم من هذه الألفاظ لبحثنا ، بعض مقاطع تجتمع فيها الأرض المستوية وغياب التضريس منها أو ابتعاده عنها (٢٤٤) . والمقصود بلا ريب ، السهل الذي يفتقرش ويمتد في الآفاق خالياً من التتوعات ومن العوائق التي تنطوي عليها الجبال ، وتقوم فيه المدن وتشاد (٣٤٥) ، فيمثل

«المستواة مطمئنة في وجه الأرض» (٢٤٦) وينشأ السهل أخيراً « في أحد البلدان » في الشتاء ، في ضباب أقصى شمال دار الاسلام ، كما جاء في هذا المقطع : « وقد استوت فجاج الأرض ، وأوعارها ، وجبالها ، وأوديتها ، بما استولى عليها من الثلوج ، فصارت كالمستوية الأرجاء » (٢٤٧)

لكن قد يحتاج البعض بأن الألفاظ السابقة اشتقت من جذر « سوي » لا من جذر « سهل » الذي كانت معرفته تتحتم علينا . فكيف نربط بين هذين اللفظين ؟ أهما مترادفان تماماً ، حتى ليتمكن استبدال أحدهما بالآخر ، مثلما يتبادر إلى الذهن أحياناً (٢٤٨) ؟ ليست الأمور بسيطة إلى الحد الذي نتصوره . فابن حوقل يتحدث عن انتشار الرمل المعروف بالهجير في الصحراء الكبرى ، ويقسمه إلى جبال و « أرض سهلة » أو على الأصح أرض مستوية ومطمئنة ، إذ إن الجبال « العظام » ، التي تتعارض مع السهل ، « لا تتوقل ولا ترتقى » (٢٤٩) . فالسهل يضيف هنا إلى استواء الأرض سهولة المسالك والمسير .

ولا ينفصل مفهوم السهولة ، فيما يبدو بجلاء تام ، في صميم النصوص الجغرافية ، عن جذر « سهل » ، ويعرف به تعريفاً أساسياً في الأصل . وجاء في مقطع آخر عند ابن حوقل ذاته ان الجبال في اذربيجان تمتد « بين وعر وسهل وجبل » (٢٥٠) . وكان يجوز ان يذكرنا هذا التصنيف بتقسيمات أخرى مرت معنا من قبل في حديثنا عن العلو صفر ، لولا أن النص وصف هذه الأوعار في الأسطر القليلة السابقة بأنها « صعبة ومنبعة » ، ووصف تلك الجبال بأنها « شاهقة عالية » (٢٥١) ، مما يثبت ، بالتضاد ، ظهور فكرة السهولة في السهل ، وملازمتها لفكرة التضريس المتوسط . أقول ملازمتها . لكنني أذهب إلى حد التأكيد على رسوخ البنية

ردحاً كاملاً في أماكن أخرى . على الأقل عندما يؤدي الثبات بصيغة
افعل التفضيل : أي اسهل . ويعتبر المقدسي طريق الري « أسهل » الطرق
التي رآها ، ويقصد ان العوائق فيها قليلة . ويقول إن طريق فارس
أصعبها . وأصعب ضد أسهل ، ويعني أن الجبال وعوائق أخرى تكتنفها .
وهكذا يدرك القارئ في النهاية أن الألفاظ وحدها تشرح الجغرافية ،
وان مفاهيم السهولة والوعورة - وهي أصلية (٢٥٢) تدخل في النظرة
الشاملة مفاهيم التضريس المستوي أو الغليظ .

ولن نختم بحثنا قبل إلقاء نظرة عاجلة على بعض الألفاظ الأخرى
المختارة من شتى النصوص الجغرافية . فالفحص يبدو في جوهره مزدجاً
غنياً بالماء والزرور (٢٥٣) . والقرار أو القاع هو سهل الحضيض عند
أصل الجبل تحت سفوحه (٢٥٤) . والساحة من الأرض ، هي المستوية
الضيقة المساحة التي تشرف عليها الجبال المحيطة بها (٢٥٥) . والصحاح
من الأرض ، ما انبسط وكان ذا حصى (٢٥٦) . أخيراً الصحراء أشد
استواء ، لا جبال فيها ، على حد ما يقال لنا ، ملساء إلى أقصى حد ،
لكن تقع في حيز جاف بوضوح ، وبالتالي هي « المفازة » التي لنا عودة
إليها . (٢٥٧) .

ويبدو للباحث أن هذه الألفاظ لا تترافق لا من قريب ولا بعيد ،
مع أحد مشتقات السهل . وتؤدي باللغة الفرنسية بكلمة سهل الفرنسية (٢٥٨)
لأن المترجم لا يجد سواها . وقد رأينا أن السهل يعبر عن السهولة الناشئة
عن استواء الأرض وعن التضريس المتوسط بين الظهور والبطون . اذن
يجوز أن يطرح المرء قبلياً ان استعمال الألفاظ المدروسة منذ قليل عوضاً
عن مشتقات « سهل » ، يعمل بأداء تلك الألفاظ معنى واحداً أو معنيين

من المعاني الثلاثة المضمنة في كلمة سهل ، أو باستبدال أحد معاني السهل بمعنى آخر (٢٥٩) . اذن لابد من مقارنة تلك الألفاظ لفظاً بالسهل . أما قرار وقاع ومشتقات « سوي » المحللة ، فبسيطة . فالقرار والقاع لا يؤديان من معاني السهل سوى فكرة التضريس المتوسط . وتقتصر مشتقات « سوي » على الإشارة إلى الانبساط (٢٦٠) . وأما الصحراء ، فتشبه السهل بتعبيرها مثله عن غياب الحزونة وعن استواء الأرض ، وتختلف عنه بالاستعاضة عن السهولة بالهفاف . وهنا يتساءل المرء : هل يعني هذا الاستبدال أن الهفاف لغو في تعريف السهل (وعندئذ يصبح الخصب سقطاً أيضاً في المنطق السليم) أم أنه تضاد بين ؟ لنقل مبدئياً ان جذر « سهل » يتضمن الخصب والجدب ، ويسعه أن ينزع إلى أحدهما ، إلا أن الاختيار يتجه في الواقع وعلى نطاق واسع ، إلى وفرة الخير (٢٦١) . لكن لا يبدو الاختيار قسرياً على الدوام . ففي حالات كثيرة ، لا يفصل الجغرافي الرضع الاقتصادي ، وإذا تطرق إليه ، فلا ينعت لفظ السهل ليعبر عنه (٢٦٢) ، بل يعجبه به في سياق النص وفي وصف الأماكن عامة كما لو أن مفهوم السهل يحرص على التمسك بالمعاني الثلاثة التي تعرفه (وخاصة معنى السهولة الذي يلخصها جميعاً) ، ويتحاشى زيادة صفات أخرى يحتمل وجودها فيه ويرتضيها ، لكنه يفضل الخصب على نقيضه . ومن هنا الميل إلى استعمال الصحراء لتأدية معنى الهفاف (٢٦٣) .

ويرد في النصوص الجغرافية مفهوم آخران يستدعيان ملاحظة مماثلة ، أقصد ان بوسعنا ، فيما يبدو ، أن نتناولهما بحرية تامة مع جذر « سهل » ، وان كانت حرفية تلك النصوص لا تعجز مثل هذا العمل . فالصحصحاح ، وقد مر معنا من قبل ، يعتبر كالسهل عن الأرض المستوية

والمطمئنة ، لكنه يزيد شيئاً عن وجود الحصى فيها واطنني على صواب
إذا استنتجت أن هذه الناحية تفرق الصحصاح عن السهل ، وتقضي أن
تكون أرض السهل لينة . وفي الواقع . يتعارض وجود الحصى (٢٦٤)
مع قيام الزراعة التي تحدثت عنه ، ومع فكرة السهولة المضمنة في جذر
«سهل» ، بالتالي يعتبر استواء الأرض في الصحصاح تقريباً حتماً وناشئاً
عن رؤية نظرة شاملة ، لا عن تمحيص أدق يقيم ارتباطاً وثيقاً بين وجه
الأرض وبنيتها . وتكتشف هذه النظرة الشاملة إياها أرضاً ملساء في
السهل لأنها لينة ، وتختفي أحياناً وراء لوحة السهل الموجزة ، وليس
مباشرة وراء السهل . ثم تأتي الاعتبارات الاقتصادية ، فنبؤنا ما إذا
كانت الأرض اللينة واقعة في أرض الأرياف المنبسطة الواسعة ، وهذه
هي الحالة الغالبة ، أو في أرض الرمال السهلة الشاسعة في المفازة التي
يتكلم عنها ابن حوقل (٢٦٥) . لكننا ندرك جيداً ، على ضوء الصفة
الأخيرة ، وهن ارتباط المفاهيم السابقة بتعريف السهل واحتمال وجودها
مستقلة . لأن الرمل والحصى ينبسطان ، إلا أن الرمل ألين و «أسهل»
من الحصى ، بالتالي أقلد منه على تكوين المستواة ومهائاتها . مع ذلك
لا يشكل الرمل دوماً أرضاً سهلة ، ومضى تخلى عن تشكيلها ، تصبح
ليونته عقبة ، ويتحول إلى جبال لا تتوغل ولا ترتقى ، يتحدث عنها
ابن حوقل أيضاً (٢٦٦) ، وتجاوز الأراضي السهلة .

أخيراً ، يرد مفهوم السعة في النصوص الجغرافية ، وقد أشرنا إليه
مرتين من قبل . والحقيقة أن معنى السعة لا يتضح تماماً ، ويكتنفه بعض
الغموض . فإذا كان السهل في تصورنا يعبر عن اطمئنان الأرض بالتعريف
فلا بد من رفض كل أرض يصطدم فيها المرء مباشرة بعائق ، وكل أرض
يتعذر عليه الوصول إليها وسلوكها بعد فترة وجيزة . أما إذا قورن

السهل بالساحة — وهي في الأصل فضاء ضيق بين دور الحلي خاصة (٢٦٧) فيتين أنه يعبر عن الحد الأدنى من اتساع الأفق ، الذي يسمح له به مثلاً تضاده مع الجبل . الوارد كثيراً في النصوص الجغرافية . ولا يرد الاتساع في هذه النصوص صراحة إلا نادراً ، ربما لأنه بديهي . وفي جميع الأحوال ، لا يدون اتساع السهل بتاتاً وعندما يظهر أفق عميق وفسيح بوضوح وصراحة — وهذا شيء نادر — يقارن بالتضريس المحروم منه بالتعريف ، أي بالجبل المتماسك العظيم الذي لا يبدو فيه الاتساع إلا شاذاً وعجيباً (٢٦٨) .

ونختتم هذا البحث (٢٦٩) بالقول ان مشتقات جذر سهل (٢٧٠) العربية التي تؤدي بلفظ سهل الفرنسي ، تعبر بانتظام فيما يبدو عن أرض لينة وسالكة على نطاق واسع ، وعن خصب الأرياف على نطاق أضيق . ويلاحظ الباحث أن فكرة السهولة متشعبة ، وان مفردات أخرى تدل على المعاني المقصودة وتحددها . بالفعل يعبر السهل عن سهولة ترتبط بتطامن الأرض واستوائها بالتالي عن سهولة الموضع وسلوكه ، أي في النهاية عن صفات تعطي تعريف السهل بعد مقارنته بالجبل . ويتفهم الباحث هذا الموقف تماماً ، لأن الجبل يسترعي الانتباه لأول نظرة يلقيها على الأرض ، ويفرض فعلاً كيانه ، العظيم في الغالب ، في حين يمثل السهل في الواقع تضريساً مستوياً بالتالي أرضاً تصعب الاحاطة بها . اذن يبقى الجبل حتماً المعيار الأكبر ، حتى لو تحول بعضه شيئاً فشيئاً إلى سهل ، عندما يخفض ارتفاعه ، وتضعف حدة انحدار سفوحه ، فيحكم عليه باتباع سيرورة تراجعية متنافرة ، أي بالحد من العوامل التي تربطه — وترتبط السهل معه بالتضاد — بمضمون الجغرافية البشرية وتبعده عن الجغرافية الطبيعية .

بعض النواحي الرائعة في الجبال

تجذب الجبال البشر إليها ، رغم عوائقها وعلوها ، الشاهق أحياناً ، ورغم غلظها ، المنيع في ظروف معينة . ولا نقصد بالبشر أناساً تواقين إلى كسب المال ، ولا مغامرين أو ساعين وراء الحصول على المعرفة ، بل كل من يستقر في الجبال ، ويعمر أرضه ويعيش فيها . ولا ريب أن أهل الجبال يختارون سفوحها وحضبيضها لسكناهم ، إذا كانت باذخة . لذلك تبقى رؤوسها ملكاً لله وحده (٢٧١) ، مثل قلل دنباوند المكلفة بالثلوج الدائمة ، وبالهواء المتخلخل . أما سائر الجبال ، التي تتوفر فيها أسباب الحياة — لعظمتها أو لكرمها — فينعم الناس بشيء من خيراتها التي لا تقدر بثمن .

وأول هذه الخيرات الهواء (٢٧٢) ، بمعنى المناخ ، لأن لكل جبل هواءه . ويقول ابن حوقل (٢٧٣) : « اللور بلد بذاته خصب ، والغالب عليه هواء الجبل » . ويشمل الهواء النبات فيشير المقدسي إلى « الثمار الجبلية » في حديثه عن ثمار نقاوس في المغرب (٢٧٤) . لكن ماذا يعني هذا الكلام ؟ يعني أولاً أن الهواء مرادف للبرد (٢٧٥) . لكن لا بد من إدراك المقصود بلفظ برد . بالفعل قد تكون الجبال باردة بحذ ذاتها ، بفعل شموخها وحده ، وهذه ناحية بديهية وجاء في كتاب التنبيه والاشراف (٢٧٦) : وفي بلاد مصر « يحمى جوها ، فلا يغلظ البخار السائل إليه ، ولا تجتمع ، حتى يخالط بحر الاسكندرية ، ويمتزج به ، ويجوزان معاً جهة الشمال من بلاد أروفي . وإذا صارا إلى الموضع الذي يعرض لهما فيه الانحصار ببرد الجو وما يحيط به من الجبال ، سالت تلك الأبخرة هنالك ، فصارت أمطاراً في تلك المواضع الشمالية . فلهذه

العلة ، عدم أهل مصر المطر « . مع ذلك تخضع الجبال وأرضها ، في بعض الأماكن الأخرى ، إلى ما يؤثر في ارتفاعها فيضعف فعله أو يقويه ، مثل سلطان الكواكب ، وكمية المياه ، وكمية الأشجار ، وطبيعة التربة ، واختلاف مجاورة البحار (٢٧٧) . واستشهد في هذا المنظور بالقطع التالي من كتاب التنبيه والإشراف ، لأنه يذكر أسماء جبال نعرفها (٢٧٨) : « وهوية هذه المواضع تختلف ، وإن اتفقت فيما ذكرنا من العرض وغيره ، لآفات وعوارض . من ذلك أن يكون بخارات باردة وفي أعماق الأرض ، فتظهر ، فتكون سبيل تلك المواضع من الأرض ، أن ما يتولاها من الكواكب يوجب تأثير الحرارة فيها ، فيغلب ما ظهر من البرودة منها عليها ، تدفع فعل الكواكب ، كالسروات من أرض التهام ، وهي ثلاث : سراة منها ما بين تهامة ونجد ، أدناها وجّ وهي الطائف ، وأقصاها قرب صنعاء من أرض اليمن . والسروات أرض عالية وجبال مشرفة ، يجب أن تكون حارة ، لتأثير الكواكب ، إلا أن ما يظهر من بخار الأرض يغلب على البلد ، فصار بارداً . وكذلك أيضاً دمشق ، عرضها وعرض بغداد واحد . . . فيجب أن تكون حارة كحر بغداد ، إلا أن البرد يغلب عليها ، لما يظهر من بخار الأرض من البرودة . فكان الحكم له . وكذلك ، قد تكون مواضع من الأرض ما يتولاها من الكواكب يوجب تأثير البرودة فيها ، فيظهر من قعر الأرض بخارات كثيرة حارة ، فتدفع ذلك ، ويصير الحكم لها ، وتجعل ذلك البلد حاراً ، ككثير من البلدان الحارة . وقد تكون بقاع من الأرض يغلب على ما يظهر منها من البخار البارد ، تأثيرات الكواكب بالحر . فيكون الحكم له ، ويغلب على ما ظهر منها من البخار الحار تأثيراتها بالبرد . فيكون الحكم له .

و تعتبر هذه التأمّلات وغيرها (٢٧٩) أفكاراً تتناول الهواء : ولا
نعيننا الآن إلا اذا أقحمت الجبال في تبصرها . وهي تلحّ في النهاية على
أحد أهم مبادئ الفيزياء في القرون الوسطى ، أي على التعقيد المذهل في
تداخل القوى الفاعلة في تكوين الحياة : مثل الجهات الأربع الأصلية ،
والعناصر الأربعة (الهواء والماء والأرض والنار) ، والطبائع الأربع
(البرودة ، والحرارة ، واليبوسة ، والرطوبة) ، والكواكب والنجوم
والبروج (٢٨٠) . وتخضع جزيرة العرب ، التي أخذت مثلاً هنا ، إلى
تأثير الشمس ، فهي بالتالي حارة ، وإلى تأثير الأرض ، فهي بالتالي
باردة مبدئياً (٢٨١) . ومن هنا نشأ التضاد بين الطبيعتين . لكن لا يبين
المسعودي لماذا يتغلب البرد أحياناً ، ولا لماذا لا تتضح هذه الغلبة إلا في
الجبال . وأظن أننا نستطيع أن نجيب نحن . فغلبة البرد نسبية تماماً ،
شأنها شأن سائر الأشياء في الدنيا : فدمشق ليست باردة إلا عندما تقارن
ببغداد . ويمكن أيضاً وصف بعض بقاع جزيرة العرب بالبرودة
والرطوبة ، لأنها تدخل في الربيع الذي يخضع لتأثير الشمس والأرض ،
وتلامس الربيع المجاور الذي يخضع لتأثير القمر والماء (٢٨٢) . وهكذا
يستطيع الباحث أن يعلل تعليلاً نسبياً — والحق على هذه الناحية — ضعف
تأثير الشمس ، وبالتضاد ، تقوية تأثير البرودة المشتركة بين عنصري
الأرض والماء ، مع أن الماء يقوّي عنصر اليبوسة الخاص بالأرض .
ويلاحظ أن جميع الظاهرات السابقة تدعم وجود وقوة الأبحرة الرطبة
التي تقاوم حرارة الشمس . لكن لماذا تحصل هذه الظاهرة في الجبال
وحدها دون غيرها ؟ ربما لأن الجبال أماكن اعلاء الأرض وارسائها
وانعطافها ، فتبدي استعداداً لإمرار قوى عنصرها ، وتسمح لها بلقاء
نار السماء .

ولا يأبه الجغرافيون لهذه المبادئ العلمية التي يتقيد بها الموسوعيون .
وأخص بالذكر منهم الذين عقدوا العزم على التجوال في دار الاسلام
ووصفها كما يرونها بنظر حاد وقلم متأهب على الدوام . ويكتفون
بوضع تصنيف أساسي يقسم وجه الأرض إلى جروم وصرود ، ويدخلون
الجبال في الفئة الثانية ، مثلما نتوقع . ونحن نحدو حدوهم بحس سليم في
بعض أنحاء كرمان أو في المغرب مثلاً (٢٨٣) . وقد تجري بعض التعديلات
على هذا التقسيم بلاريب (٢٨٤) . إلا أنه ليس الناحية الجوهريّة ، فالأصل
فيه ما يخلفه البرد من آثار ، تحدث وتدون على علاقتها ، كالمطر والجليد
والثلج .

والمطر المقصود هو الغيث الدائم ، كما هي الحال في طبرستان ، التي
يلخص المقدسي مزعجاًها باستنتاج مقتضب من كلمتين : « والصيف
مطر » (٢٨٥) . أما الجليد ، فيقال عنه : ربما جمد الماء في ذروة جبل
الطائف - زغوان - في قلب ؟ جزيرة العرب (٢٨٦) . وهذا يحصل
في الفصل البارد طبعاً ، وقد يشرح المسعودي أسبابه . إلا أن الجبال تحوّر
الفصول ، وتدعم سيطرة الصقيع الدائمة . فعلى شط بحيرة خوارزم ،
جبل عال ، يجمد عنده الماء ويبقى سائر الصيف ، وله اجمة قصباء .
والنص صريح يفيد ان الجبل يوزع برد الشتاء القارس على جميع فصول
السنة ، وهو أبرد ما على جيحون من البقاع (٢٨٧) . وهنالك ما هو
أغرب : ففي ناحية من جبال بتم ، عيون ماء يجمد في الصيف اذا
اشتد الحر ، وقاظت السموم ، حتى يصبح الجمد كالأعمدة ، وينقطع
جري مياهها (٢٨٨) . أخيراً يتكرر ذكر الثلج وكأنه نشيد البلدان
الباردة ووثيقة تعريف بالجبال أصلية ، ويرد في الحديث عن الجبال
العظام كدنباوند ، وحرمون أو سيلان ، وعند الكلام عن كرمان وما

وراء النهر وفارس والسلاسل العالية في غرب ايران . فالثلج يكتل جميع هذه الأماكن في جميع الفصول ، ويصل أحياناً حتى إلى الجبال التي تشرف على سواد العراق (٢٨٩) .

ولا تغري أمثال هذه الجبال على وجه الاجمال ، لكن لأبأس . . . فالبرد القارس لا يظهر في جميع الأماكن ، وهذا فأل حسن . ويصغر الجبل أحياناً أو يشرف من ارتفاع منخفض على أراضي حارة ، فلا ينفث برداً ، بل رطوبة . فيصبح جنة حقيقية بهوائه « المعتدل » . وينطبق هذا الكلام على الديلم ، وبلاد شيراز ، وسلاسل اقليم الشام التي تطل على البادية القاذلة ، وأخيراً على الطائف التي يصيف بها أهل مكة هرباً من شدة الحر (٢٩٠) . ويتحدث المقدسي عن شؤون اقليم جزيرة العرب ، : « هو اقليم شديد الحر ، الا السروات ، فان هواءها معتدل — وحدثت أن رجلاً صنعانيا ، طبخ قدرأ من اللحم ، ثم ذهب إلى الحج ، فعاد وما تغيرت » (٢٩١) .

إلا أن في الجبال مياهاً جارية ومحياة ، لا مياه منافع أو مياهاً عكرة . وتنحدر أكبر أنهار دار الاسلام من الجبال العالية ، وتعظم وتطول حتى ان بعض الجغرافيين يعللون أنفسهم برؤية مخرجها من أعالي تلك الأطواد عياناً ، ايستعوضوا بمشاهدتها عن معارفهم السماعية . ومن هذه الأنهار الكبيرة . سواء عرفت منابعها الجبلية أم لم تعرف ، النيل ، ودجلة والفرات ، وجيحون وسيحون ، وأخيراً مهران (٢٩٢) . وتليها فئة ثانية من الأنهار تأتي أسماؤها مقترنة بأسماء جبالها ، منها الأردن وجبل الثلج ، وبردى وجبل سنير ، وهرماس الأعلى وجبال نصيبين ، والزابان رافدا دجلة وقسم أذربيجان ، والكر وجبل القبق ، وجداول جبال

فارس ، ومياه خزرستان والجبال ، وزرين رود اصبهان ، ونهر مرو (مرغاب) وغر حستان ، وزرفشان (نهر السغد) وجبل بتم (٢٩٣) . ولا تسمى تلك المياه في معظم الأحيان وعلى الأرجح ، تغفل أسماء العلم الخاصة بها ، ويكتفى بلفظ الماء وبأسماء مجامعها العامة التي ترد في النصوص الجغرافية بعض مفرداتها كالمياه ، والمياه الجارية ، والعيون ، والجداول ، وكالمياه المستثمرة مثل الآبار ، والأقنية ، والأحواض ، والسدود. ويتكرر ذكر هذه التعابير بلا ملل في الحديث عن غاظ الجبال وحضيضها أو رؤوسها ، وفي الكلام عن الأرياف حيث تدبر الارحية ، وعن المدن التي يصل الماء النظيف إلى أزقتها وأسواقها (٢٩٤) .

وهكذا تبرز صورتان في هذه الجغرافية ، أولاهما كلاسيكية حتى أيامنا الحاضرة ، تعتبر الجبل خزان ماء ، يصفه المسعودي ويقول (٢٩٥): « واما انشازها ، فمنها الجبال الشامخة ، ومنافعها ظاهرة في قوة تحدر السيول منها ، فتنتهي إلى الأرضين البعيدة بقوة جريها ، ولتقبل الثلوج ، فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الامطار وتذيبها الشمس ، فيقوم ما يتحلب منها مقام الأمطار ، ولتكون الآكام والجبال في الأرض حواشر للمياه لتجري من تحتها ومن شعوبها وأوديتها ، فيكون منها العيون الغزيرة ، ليعتصم بها الحيوان ، ويتخذها مأوى ومسكناً ، ولتكون مقاطع ومعازل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار عليها ، وما لا يحصيه الا خائفتها » .

وهنا نود الإشارة إلى بعض التعابير المائية الواردة في النصوص الجغرافية ، مثل « المياه الغزيرة » في جبل اوراس ، والديلم ، والسلسلة الساحلية في فلسطين ، وفرغانة ، ومثل « هو اقليم كثير الأمطار ، وربما اتصل المطر سنة » وعظيم الامطار أيضاً حتى أنها تصبح « مؤذية

ومضجرة « في الجبال الساحلية الواقعة إلى جنوب بحر الخزر ، ومثل عيون وأنهار « كثيرة » أو « واسعة المياه » في الجليل وفلسطين ، وفي جبال ارمينية وأذربيجان ، وفي جبال همدان ، وأخيراً في الغور بين هرات وكابل غزنة (٢٩٦) . وتصور بعض المشاهد المياه تصويراً أفضل : منها خروج نهر الأردن من تحت جبل الثلج ، ولوحة عيون طبرستان التي تتحول مباشرة إلى أنهار ، وأخيراً صورة جبال البتم واشرسونة وسمرقند ، التي يمد ذوبان ثلوجها في الصيف نهر زرفشان (نهر السغد) ، فيزيد الماء فيه أحياناً حتى ليقرب السكر لقنطرة جبرد (٢٩٧) . بالتالي يوفر اقتران النهر ، سمي أم لم يسم ، باسم الجبال ، المعطيات الأساسية اللازمة لخريطة الجبال من جهة ولخريطة الامطار والعيون من جهة ثانية. ويلاحظ أيضاً أن الجبل الأجذب والاجرد أحياناً يبدو شاذاً ، فيدون . وينطبق هذا الكلام على الجليل ، وخاصة على جزيرة العرب التي تضم الحرة المؤلفة من « جبال كلها يابسة لا تنبت الا مواقع المواشي والغضى » التي لاتشاهد فيها إلا بعض الأعشاب النادرة المألوفة في المفازة (٢٩٨) . وهكذا تحوي الجبال الماء والحياة ، فتصبح معين المياه ومعين الحياة. وتستحق صورة الأرض العالية المغذية ، الواردة كثيراً في النصوص الجغرافية ، اهتماماً خاصاً . ولا ريب أن مصنفى الجغرافية يصفون الحياة الامينة والمزروعات الخصبة وصفاً بديعاً وعجيباً أحياناً ، دون أن يتحدثوا عن ارتباطها بوجود الماء صراحة على الدوام . إلا أن هذا الماء مفروض توفره لأنه يسقي البساتين ، أو يروي الحقول ، وينمي الأشجار، وينضج الثمار ، وتشرب منه القرى . وأذكر هنا ثلاثة استشهادات من عدد لا يحصى من النصوص الجغرافية التي سوف نحصيها . وأولها واضح تماماً يتكلم فيه ابن حوقل عن سيراف ويقول :

« وإنما فواكههم وتوسعهم وطيب عيشهم بما يصل لحبيهم من مياه تفرغ من جبل مشرف عليهم » (٢٩٩). أما المقدسي الذي يتباهى بأدبه ، فيريد أن يبهر القراء ، فيصف بلدان نيسابور أو خوزستان وصفاً مقتضياً ، فيقول مثلاً ما معناه أن جبالها وعرة وقاحلة ومزدروعات حضيضها موحشة وجافة ، لكنه يسبك هذه الافكار في نثر مسجوع ، فتصير : « سواد يابس وجبل عابس » (٣٠٠) . وأبدع من هذا السجع قوله عن شیراز : « وأبعد الجبال عنها على فرسخ ، وأقرب الحطب اليها على مرحلة » (٣٠١) . اذن يبدو وضع جبال شیراز غربياً ومثيراً تقريباً . فهي تحيط بها ويفترض أن تزودها بما يتوقع وجوده في المرتفعات من حاجاتها ، لكنها لا تفعل ، وتضطر شیراز أن تجلبها من مكان آخر بعيد عن نطاقها .

الجنان الجبلية

وتعيد النصوص الجغرافية إلى ذاكرتنا باستمرار (٣٠٢) بأن الخصب ناشيء عن الماء . فلننصت مرة أخرى ، عند ابن حوقل ، إلى الماء وهو ينساب سرّاً ، وأكد أقول بين فاصلتين . مع ذلك فهو يرى في اضعاف جبال أرمينية وأذربيجان ، ويحملها على التمتع برقة هدوء الحياة اليومية . ويختلج أيضاً في صميم كيان الاحياء ، فتطمئن أجسامهم وأفتاتهم إلى الأرض الغنية ، ويتطورون تطوراً عادياً متوازناً . ولتقرأ ما كتبه ابن حوقل (٣٠٣) : « وبهذه الجبال والنواحي والمدن والبقاع التي ذكرتها ، من الرخص ، والخصب ، والمراعي ، والمواشي ، والسواثم ، والخيرات (٣٠٤) والبركات ، والمشاجر ، والأنهار ، والفواكه ، الرطبة واليابسة ، والخشب ، على سائر ضروبه ، من خلجة (٣٠٥)

وكرممة وجوزة ، مالا يحاط بعلمه . ولا يبلغ كنهه . وملوكها بها من
سعة الأحوال ، وتمتعهم بالنعم . والملاذ . والتترف بالطيب والثياب ،
والخدم الروقة ، والخيول والبغال ، ذوات المراكب (٣٠٦) من الفضة
والذهب ، وقتية الجوارى (٣٠٧) الروقة ، من المغنيات والشهوريات
والطباخات (٣٠٨) ، والنفقات الدارة السابعة ، وكثرة الآلة من الذهب
والفضة ، والآنية الرفيعة ، الثقيلة المخرشة بالسواد . من الصواني ،
والأطباق ، والارطال (٣٠٩) ، والطسوت والاباريق والاسطال (٣١٠)
في غرائب الصنعة من اللجين والعسجد (٣١١) إلى ما يشكل ذلك من
الزجاج المحكم ، والبلور المخروط الثمين ، والجوهر من الحب
والياقوت (٣١٢) .

فالجبل نعيم ، ونقر بذلك ، ونعتبره نعيماً على مستويين : مستوى
ترف عظماء العالم ، ومستوى تأمين عيش عامة الناس . ونعزو هذا النعيم
إلى الجبل بحده ذاته وإلى وجود الماء ، سواء أشير إليه صراحة أو ضمناً .
ويلاحظ لفظ « عامر » (٣١٣) وضع الجبال المزروعة والمسكونة ،
ويشتق من جذر « عمر » الذي يفيد احياء الأرض على يد البشر . ذلك
أن الجبل والماء ينميان عفويًا نباتهما من الأشجار والأعشاب (٣١٤) ،
أما البشر فيقيمون في الأرض ، ويستثمرونها ويحولونها . فهم يقطعون
خشب الأشجار (٣١٥) ، ويحرقون ثمارها . بالفعل الجبال طيبة جداً ،
حتى أنها تقدم لجميع الناس ، بكثرة ، ودون حاجة لزراعة أشجار ، ثروة
عظيمة من اللوز والجوز ، والعنب ، والتين ، والبطيخ ، والخرنوب ،
والرمان ، والعناب ، والزيتون ، والتفاح ، وحتى الاترج والنخيل (٣١٦)
إذا كان المناخ ملائماً . وتتغذى الماشية ، من اللواب وسائر الكراع (٣١٧)
بأعشاب الجبال . وتسترعي انتباه الجغرافيين الأرض المحروثة والمزروعة ،

فيشرون إلى البساتين والحقول والزرع ، في شتى أنحاء الجبال الحصبة ، ويوجزون بلفظ « خصب » الوحيد (٣١٨) جميع ما يلحظونه . ويرسم ابن حوقل (٣١٩) لوحة عجيبة لجبال ضواحي سمرقند ، ويذكر فيها مباحج الجبال المنيع أو المستغلة ، ومواردها . ويقول : « وليس بنواحي سمرقند رستاق أصح هواءاً ، ولا أجود زرعاً ، ولا أحسن فاكهة منه — أي الشاوذار — ، وأهله أصح أهل نواحيهم إبداناً ، وأجمل الوانا وهو من أنزه الجبال ، وأحسنها ، في عمارة لا تنقطع ، وغلات متصلة لا تغب ولا تمتنع وللشاوذار فجاج (٣٢٠) وكل فج منها أنهار جارية إلى ضياع في خلال ذلك حسنة زاكية ، وصيود من غير جنس ، كثيرة ، وخصب وغدق من جميع وجوه العيش والتمتع به » .

وتنشط حياة البشر إلى أقصى حد في أماكن تجمعهم ، في المدن والقرى التي يعددها الجغرافيون ، ويصفون اتساعها (٣٢١) كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ويبالغون في أقوالهم ، مثلما فعلوا في زعمهم أن ألف مدينة كانت على نهر الرس في ظلال جبلي الحسار والحويرث (٣٢٢) . اذن الجبال حاضرة ، وهذه صفتها البارزة . ويتكرر تعداد مدنها وقراها ومزارعها في حالات كثيرة وكأنه لازمة في بحث الجبال ، ويقترن أحياناً بأسماء المراعي على نحو ما سوف نرى . مع ذلك ، لا يستنفد اقتصاد الرعي ، أن وجد ، جميع نشاط البشر (٣٢٣) ويمثل وجهاً واحداً منه ، ويعد الوجه الآخر فيه ، العمل في الحقل والبستان أو المشجرة . وقد أشرنا من قبل إلى تعبير المقدسي الواضح جداً في بحث جزيرة العرب ، وهو : (٣٢٤) : « والحرة . . . جبال ، كلها يابسة ، لا تنبت إلا مواقع المشاشية والغضى » . إلا أن هذه الجبال اليابسة شاذة

هنا ، وتعد تجربة تتعارض مع التعريف العام الذي يربط الجبل بصلابة وثيقة جداً بالماء والزروع الدائمة والحضر .

اذن عدنا إلى اكتشاف مفهوم الجبل الأم الموصوف بأوصاف اضافية ، لا على أنه أساس الهندسة الكونية ، بل باعتباره أصل العيون والحضرة والحياة في جميع الأماكن تقريباً . لكن لم نرجع إلى مفهوم الجبل الأم الذي يحدد له مكان وحيد وثابت على الأرض ، وينشأ عنه كل شيء ، بل إلى مفهوم الجبال الامهات . فليس المقصود ظاهرة ثابتة إلى الابد في وقت ماض لا مثيل له ، مر وانقضى نهائياً بعد تحديده في الدهر الكوني ، بل حركة تتجدد يوماً بعد يوم في صميم الزمن المعاش . ولا نعي بالجبل الأم جبلاً نشأت عنه جميع جبال الأرض ، ولا شيء سواه ، بل كل جبل احتضن البشر بحداثة ، ولا نشير إلى أرض لم تلد الا ذاتها ، بل إلى الأرض الخاضعة إلى خلق دائم وشامل ولا إلى أم واحدة ، بل إلى أمهات عديدات . وربما وجب علينا ان نضيف : لا إلى الياضية ، أمّ البدوي القاسية والحرّة ، بل ، على حد قول جورج دوبوي ، غابة الحضر الأصلية ، المغذية ، الكثيفة ، حاملة مزايا التربة الثابتة التي اجتاحتها البشر بعد أن تعلموها باتقان (٣٢٥) .

مع ذلك ، تقدم الجبال للبشر ما يزيد عن أودهم اليومي ، لكي يستقروا فيها . فتمدهم بالأغذية النباتية والحيوانية ، وبالمالح ، مادة المطبخ الأساسية ، التي تؤخذ من جبال الملح على ظاهرها الأرض ، على الأقل في فارس (ناحية دارابجرد) (٣٢٦) . ويشمل ما تعطيه المستحضرات الطبية والتجميلية ، كالمن ، والاثمد ، أساس صنع الكحل ، وأخيراً أملاح المغنيزيا والنشادر (٣٢٧) . وفي هذه الحالة الأخيرة ، يسمعون ابن

حوقل تنفس الجبل (٣٢٨) : فقد كتب يقول : « وفي كل جبل من جبال
البتم كالغار قد بني عليه كالبيت ، واستوثق من أبوابه وكواه ، وفيه عين
يرتفع منها بخار يشبه بالنهار بالدخان ، وفي الليل كالنار ، فاذا تلبد
هذا البخار في حيطان هذا البيت ، وسقفه ، قلع منه النوشادر ، وداخل
هذا البيت من شدة الحر ما لا يتهيأ لأحد أن يدخله إلا احترق ، إلا أن
يلبس اللبود المبلولة . ويدخل كالمختلس ، ويأخذ ما يقدر عليه من
ذلك ، وهذا البخار ينتقل من مكان إلى مكان ، فيحفر عليه حتى يظهر .
فاذا خفي في مكان ، يحفر عليه في آخر إلى ان يوجد . واذا لم يكن عليه
مبنى يمنع البخار من التفرق ، لم يضر من قاربه حتى اذا اختلق في بيت
احرق من يدخله لشدة الحر » . ونرى هنا أن الجبل يتمرد ، وان الحضر
يضطرون إلى الانسجام مع مزاجه . فعند الانتقال من الحقل إلى المنجم ،
يجب فرض سيطرة أخرى وبذل جهود أخطر بكثير . مع ذلك ، يصبح
تنفس الجبل العملاق ، الضار متى أريد ترويضه ، ملائماً بعد التغلب
عليه ، اذ يستثمر تجارياً لأن له استعمالات عديدة ، ويعد مصدر خيرات
وافرة . ولا يشبه هذا التنفس التنفس الآخر الذي سوف ندرسه ، ولا
يفيد منه الانسان ، بل يتعرض إلى أخطار قاضية من جرائه ، لأنه يختص
بجبل لم يمس ولم يخضع لبشر : نعي البركان .

في جميع الأحوال ، نذكر فيما يلي بعض المواد التي لا تنطوي على
أخطار ، وتستعمل في المنازل أو في الأعمال الحرفية ، كحجارة
الفرش أو البناء ، والنورة ، والجص ، والصمغ ، والزرنيخ ، والقيز ،
والكبريت ، والزاج ، والسبذاج ، والاسبستوس ، وسائر الطين الذي
يستخدم في الغسيل وتبييض الثياب ، وصنع الأواني الفخارية ، والتدفئة .

والزجاج ، والمداد الأسود ، ودوى الكتاب والأختام (٣٢٩) . سم
المعادن المفيدة ، كالنحاس، والرصاص، والزئبق، وخاصة الحديد اللين في
فرغانة، الممكن لما يراد قنيتة في أي صنعة قصد منه، وتتفق لهم الخواطر
بالغرائب التي يتخذونها منه (٣٣٠) ، ثم المعادن الثمينة أي الفضة
والذهب ، التي تكثر جداً في بعض الأماكن من الجبال ، فتسلك منها
عملة جيدة العيار في أرض مناجمها (٣٣١) ، وأخيراً الحجارة الكريمة
التي تكاد تختلط بعضها ببعض ، مثل البرام ، والفيروزج ، والهيمايتيت ،
واللازورد ، والدهنج ، والبلور ، والجزع ، والجمشت ، والزمرد ،
والحب ، والياقوت (٣٣٢) .

اذن تقدم الجبال لأهلها ضروريات الحياة ، وفيضاً من شتى المعادن
التمينة ، يضاف إليها التمتع بالبندخ ، وسحر ألوان الجنان ، وزهو
الأسرار التي يكشفها الانسان أو تظهر تلقائياً، كما في جبال بلق بأسيرة
في فرغانة ، حيث تبدو قطعة سوداء حالكة ، وأخرى حمراء قانية ،
وأخرى صفراء فاقعة ، على غرار الجبال الوارد وصفها في القرآن (٣٣٣).
مع ذلك نطن أن الذين هربوا إلى الجبال أو دفعهم قلقهم الدائم إلى اللجوء
إليها ، لم يلوذوا بقللها الشاهقة وأوديتها الخفية السرية ، ليحصلوا على
وسائل العيش أو مباهاجه، بل قصدوها، ليتقوا الأعداء ليقوا على قيد الحياة.
فأهل الجبال حضرة ثابتون في الأرض ، ومنعمون أحياناً ، لكنهم غالباً
ما كانوا حضرة مكرهين في البدء ، استقروا فيها لا لأنهم أحبوا الإقامة
أو امكانية العيش فيها ، أو رغبوا بمستوى حياة أعلى ، بل لأن الشعور
بالخوف كان مسيطراً عليهم ، وطغى على جميع الاعتبارات الأخرى
على الأرجح .

الجبال ملاجيء أم مخابىء ؟ ملامحها

قال مصنف كتاب حدود العالم . وهو مجهول ، (٣٣٤) في حديثه عن جبال كرمان : « تنفصل جبال كرمان بعضها عن بعض ، ولو أطلق عليها هذا الاسم الموحد . ويسمى أحدها جبل القفص ، ويقع في وسط مفازة فارس ، ويمتد شمالي البحر حتى جروم جيرفت . وهي سبعة أجبل متصلة . ولكل جبل فيها رئيس ، ولا ممثل للسلطان عندهم ، بل يجمع رؤساؤهم أتاوة كل عام ، ويبعثون بها إليه . وتستقل هذه الجبال بعضها عن بعض سياسياً . . . ولأهلها لغة خاصة بهم . وهي منطقة مزدهرة جداً وقوية جداً ، لا يمكن فتحها بالسلاح والحرب » .

ويتضمن هذا النص صفات جديدة نعتت بها الجبال وأضيفت إلى صفات قديمة معروفة ، تجيز جميعها للباحث أن يتصور جيداً كيف يستفاد من تلك الجبال وكيف كانت تستثمر . وكيف كان أهلها ومن ينظر إليها من قاعدتها ، يشعرون بها ويحبونها . ولاحظ القارىء حتماً أن كتاب الحدود قدّم مرتين هذا الجبل المرصوص ظاهرياً ، مرة أولى ليعزله عن سائر الجبال ، ومرة ثانية ليميز فيه سبعة جبال متصلة ، مع أنها سبعة عوالم منفصلة . اذن جبل القفص مجزأ ، وهذا هو التعبير الصحيح ، لغة ودينا ، وسياسة أو عادات . ونزيد على نص حدود العالم معطيات إضافية وردت عند ابن حوقل والمقدسي : ففي جبال ارمينية - القبق - اذربيجان ، ثلاث مائة لسان مختلف ، وممالك كثيرة ، وتمنع خفي عن أداء الخراج . وتقوم امارات مستقلة محلية في بعض الكور أو البلدان ، معفاة أحياناً من دفع الخراج ، في الجبال النائية الواقعة إلى شمال شرق دار الاسلام . ولكل جبل في الديلم على وجه التخصيص ، رئيس وعادات

يستعرضها المقدسي بالتفصيل ، نشير إلى إحداها : فالديلم لا يزوجون إلى غيرهم ، وقتل كل من يفعل ذلك واجب عندهم (٣٣٥) .

وتعزى هذه التجزئة إلى الطبيعة في الأصل بلا ريب . إلا أن البشر أيضاً انقادوا إلى تقسيم الأرض ، وأحبوه ، وعزّزوا انقطاع الجبال ، فأسسوا مجتمعات منعزلة في تلك المكامن الطبيعية ونكتفي بالكرد مثلاً على هذا الوضع (٣٣٦) . فقد لبوا نداء الجبال بطيبة خاطر ، ورددوا صدها ، وضخموه ، اذعاناً لهلعهم العظيم وارتعابهم من سائر البشر : فالتجزئة ، والارتجال ، والحرص على العزلة ، كل هذه الأمور توحى بأن الجبال ملاجئ . على أن اتساع رقعتها يحتم وجود درجات عديدة في العزلة ، ترتبط بضعف علوها ، أو باستمرار أهلها بإجراء اتصالات بالغير بوساطة تجار القوافل ، أو بتصميم السلطة على فرض سيادتها على جميع الأماكن ، أو بقدوم اعمار الأرض . أخيراً ، عجز أهل الجبال في الغالب عن الانقطاع عن العالم الخارجي ، أو لم يشاؤوا ان يثابروا عليه . وقد رسم الجغرافيون لوحات كثيرة ، أشارت إلى جبال عامرة على نطاق واسع ، ومنفتحة على سواها أيضاً ، ولا حاجة إلى الالتحاح على هذه الناحية . وفي بعض الأحيان ، يجروء البشر ، ويؤوبون عائدتين مثلما فعل أمراء المغرب الذين نزلوا من جبل زالاغ إلى فاس (٣٣٧) . وفي بعضها الآخر ، يهبط أهل الجبال ليقطعوا الطريق ، ويعترضوا أبناء السبيل ، مثلما يعمل أهل جبل أوراس وأهل جبال القفص وكركس كويسه في مفازة فارس (٣٣٨) .

وهكذا نذكر (٣٣٩) سهولة تحول الجبال من ملاجئ إلى مخابئ . مع ذلك ، تعد النصوص الجغرافية الجبال ملاجئ بالدرجة

الأولى ، وتكثر من الحديث عنها على هذا الاساس . ولنذكر قبائل القفص النازلين في جبال كرمان الذين لا يخافون أحداً إلا من البلوص النازلين على سفح جبلهم ، مع أن البلوص قوم ذوو سلامة ، لا يتأذى بهم أحد (٣٤٠) . ونشير خاصة إلى سكان جبال بحيرة كبودان في أذربيجان ، الذين ينزلون في وسطها ، يحميهم الماء والجبل . ويدفعون غالباً ثمن هذه الحماية ، على حد قول النصوص الجغرافية ، لأن أمواجاً عظيماً تهب على البحيرة في الشتاء ، كما أن البلاد فقيرة : « فجبالها مسكونة مأهولة على مياه زهيدة وعيش شظف ، وسكانها أصحاب المراكب ونواتيها المختلفون بالأمعة والركاب بين شطيها . ولهم معز يقوم برمقهم ، ولا شيء عندهم إلا ما جلب اليهم . . . ويربطون أرجل الصبيان بالسلاسل والحبال كي لا يتدحرجوا إلى البحيرة » (٣٤١) .

ويأتي الدين في طليعة دواعي اعتصام الناس في الجبال . فهو يفرق أهل البلاد تماماً عن اشقائهم المعادين لهم أو الخطرين عليهم . والاسلام هنا حديث العهد أحياناً ، كما هي حاله في جبال البارز ، وفي كرمان التي يدين أهلها بالزرادشتية (٣٤٢) ، أو يتحداه الكفر جهاراً ، كما في الديلم أو في الغور . دار الكفر التي تذكر في الاسلام لأن بها مسلمين (٣٤٣) . وفي بعض الأماكن الأخرى ، يكثر النصارى ، كما في جبال ارمينية وأذربيجان ، أو يقتصر وجودهم على بعض المحلات ، كالاديرة في جبل سيناء أو العمر الطيبة المنعزلة في جبل الشاوذار في سمرقند ، كما يقال لنا . وفي جبل لبنان عيون ضعيفة يتعبد عندها أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش يأكلون من الأشجار الثمار المباحة ، ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسب وغير ذلك (٣٤٤) . أخيراً اعتصمت بعض المذاهب أو الطوائف الاسلامية

في الجبال لضمان كيانها أو بقائها ، مثل الخوارج في جبل نفوسة ،
والزيدية في التخوم الجبلية إلى جنوب بحر قزوين ، والحرمية في جبالهم ،
والقيسية والقرامطة في جبال جزيرة العرب ، وزهاد جبل الجولان
من اتباع مذهب سفيان الثوري الذين يلبسون الصوف ، ويتقوتون
بالبلوط (٣٤٥) .

وترمز كثرة الحصون والقصور والقلاع في الجبال إلى انها ملاجئ .
وتبرز الألفاظ المشتقة من « حصن ومنع » التوافق بين البشر والجبال ،
ويشير الفعل واسما الفاعل والمفعول أو النعوت المأخوذة من هذين
الجذرين إلى تحصين الجبال ومناخها واعتبارها دعامة طبيعية في الدفاع
عن النفس ، وتعبّر أحياناً عن الدفاع عن النفس فقط (٣٤٦) . ونختار
من شتى الشواهد أولاً هذه اللوحة الشاملة التي توجز وصف البلد بالقول
ان الجبال والقلاع والحصون (٣٤٧) غالبية عليها . والمثال الجيد على ذلك
فارس (٣٤٨) . ففي هذه البلاد الجبلية ، مثلما قلنا ، أربع فئات من
الحصون . فأولاً أكثر « مدنها محصنة بحصون منيعة وأسوار وثيقة
شاهقة عالية » . وبها حصون داخل المدن . ولها أيضاً « حصون في جبال
منيعة منفردة عن البنيان قائمة بأنفسها » . أخيراً « بفارس زيادة على
خمسة آلاف قلعة منفردة في جبالها لا تقرب من المدن » . وفي هذه القلاع ،
ما لم يذكر لأحد من الجبابرة أنه قدّر عليها عنوة ، منها قلعة ابن عمار ،
وهي مرصد على البحر . وتسمى قلعة داكباياه ، يريدون باسمها انها
كثلاث أثافي ، لأنها قارة على ثلاث شعب كقرار القدر على الأثافي (٣٤٩)
.. ولا يقدر أحد أن يرتقي إليها بنفسه ، إلا أن يرتقي به شيء من
البحر » (٣٥٠) .

وتكثر هذه القلاع في فارس ، وتشاهد في عزلتها باسقة فوق مستواة من الأرض ، وتعتبر رمز الجبل الملجأ الكامل ومركز قوته . وتقتصر وظيفتها أحياناً على حماية المنازل المشادة في سفنها ، ويرتفع العدو لضخامتها ، وتعامل المدينة بسماحة . فهنا تقوم عليها القلاع كما هي الحال في عمان . وهناك تستكمل هي والبحر أو النهر نظام دفاع الموقع الطبيعي ، كما هي الحال في عدن ، والفسطاط ، وأوش في فرغانة (٣٥١) . لكن تتحول القلعة أحياناً إلى مدينة كاملة ، وتصير ، حصن أم لم تحصن ، قلعة ومدينة شاهقة في الجو ، يعبر موقعها ، على حد قول ابن حوقل ، « عن تراوح مشاعر أهلها بين الخوف والرجاء » (٣٥٢) .

هذه هي ملامح الجبال . ولها ، بين اعتبارها ملاجئ أو مخابئ مواقف عديدة ، يكفيها الموقع أو تستجيب لاختيار البشر موضعها . وتبين طمأنينة الحضرة الذين « لا يتأذى بهم أحد » (٣٥٣) ، على اللوحة على نطاق واسع ، ويعود الفضل الأكبر فيها إلى الأرياف الهادئة التي يطيب العيش فيها . ونوجز ما أشرنا إليه منها في سياق أبحاثنا ، في هذا المثال المختار (٣٥٤) : فغرجستان اسم غرج الشار عند العوام ، والغرج « هي الجبال » و « ثم عدل حقيقي ، ونظر عزيزي (٣٥٥) ، وبقية من سنن العمرين (٣٥٦) ، ورسوم تقرر بها العين ، لا عمال ظلمة ، ولا أسباب مغيرة . ما يؤخذ من أغنيائهم ، فهو موضوع في فقرائهم . ومن جنى جناية ، فالعفو أو الحد . مع ذلك قوم سلماء ، صالحون من الطينة الأولى . وصدق رسول الله : « كما تكونون يولى عليكم » . وربما وجب أن نضيف تأثير الطبيعة في الحالة الراهنة ، لأن التوافق تام في كل شيء فيها : فالأرض السعيدة الخصبة وقف على الناس الحكماء ، وخصال الملك تجمع مزايا الأرض والناس ، حتى أن اسمه يظهر أحياناً

في تسمية البلاد (غرج الشار : جبال الملك) ، وهو مثال الاستقامة والعدالة .

مع ذلك ، لهذا النعيم وجه قاتم . فقد يثير أطماع أناس ممن يقطنون في سفلى الجبال أو يجتازونها . وقد يضطر أهل الجبال أن يرتضوا شظف العيش وقسوة البر على التخصيص ، كما قلنا . ، ثمناً لأمانهم في ملجأهم . في هذه الحالة ، لا يواقي الحظ أهل البواذخ (٣٥٧) مثلما يحالف أقرانهم من أهل الجبال الآمنة المعتدلة ، فيولدون أشداء ، ويتميزون بنشاط (٣٥٨) عظيم تحتمه مقتضيات الدفاع عن النفس ضد البشر أو الوسط ، يتحول أحياناً إلى فظاظاة تبعث على العدوان . وشاهدنا لأهل الديلمان (٣٥٩) الذين لا ترى لهم لباقة ، ولا علم ولا ديانة ، بل ثم دولة ورجلة ، وهيبة ، وصوله وصبر في الحروب ، تسمح لهم بإبعاد أفضل الجيوش تنظيمياً (٣٦٠) ، وبملاحقتها إلى دار الاسلام ، وحجر سلطة الخلافة التي سوف يصبح البويهيون الجبليون أوصياء عليها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (٣٦١) .

وما قام به البويهيون في الواقع ، هو تنظيم المؤسسات وترسيخ الدعائم في حركة سميت لصوصية في أماكن أخرى ، أجلت دورياً سكان الجبال عن مخابثهم ، لكنهم لم يلبثوا ان عادوا إليها بعد انتهاء الغارة عليهم . ولا ريب ان هذه الجبال ليست نزهة ، لأنها عاجزة عن تثبيت البشر في الأرض . ولا تعلل جميع الأحداث بنزعة بعض الناس إلى الساب والنهب . مع ذلك (٣٦٢) ، سادت (٣٦٣) هذه الروح العدوانية في الماضي ، وتسود الآن في اقليم كرمان القشف وفي مفازة فارس الكبرى . ويستثنى أهل جبال البارز ، وهم ذوو سلامة ، لا يرون اذية أحد ،

والبلوص على سفح جبل القفص ، وكانوا أشرس الجميع حتى أبادهم
عضد الدولة (السلطة البويهية) ، وأخيراً في الجبال ذاتها ، القفص (الكوج)
الذين أرهبهم فيما يبدو سابقة قمع البلوص (قبل أن ينكي فيهم عضد
الدولة) ، وكانوا يسرون بقطع الطرق . وقد عرفهم المقدسي ، ووصفهم
على الوجه التالي : « القفص يسرون إليها (أي إلى المفازة) من جبال
كرمان . قوم لا خلاف لهم . وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، وبأس ،
وجلادة ، لا يقنون على أحد ، ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به
بالأحجار كما تقتل الحيات . تراهم يمسون رأس الرجل على بلاطة
ويضربونه بالحجارة ، حتى ينصدع . وسألته عن ذلك . قالوا : تفسد
سيوفنا ، ولا يفلت منهم أحد إلا ما ندر . ولهم مكان ، وجبال يمتنعون
بها . وكلما قطعوا في عمل ، هربوا إلى آخر » .

الجبال : تاريخ مقدس أو اسطوري

قد تكون الجبال ملاجئ أو مخابئ ، ساحرة أو رهيبة . إلا أن
البشر لم يهملوها البتة ، لاسيما الذين عاشوا أو تدربوا فيها أو اعتصموا ،
من فلاحين أو جند أو لصوص ، وحتى الذين اجتازوها اجتيازاً أو
رأوها فقط . وميزة الجبال أنها علامات منظورة ، تدل على مشيئة
الخالق وغايته ، وهذا ما يجب العودة إليه . فقد شدت البشر إليها
بانتمائها إلى التاريخ الدائم قبل أن يهتم الناس بدورها في صنع التاريخ
الحالي .

وثبتت الجبال أذهان البشر وأجسادهم وذكرياتهم وهمومهم
اليومية ، عندما اختاروا هم أنفسهم سكنها في عصور البطولة — مثلما
ارتضاها بعض الناس في الوقت الراهن ، ليعتصموا بها — أو عندما شاء

الله أن ينبط بها بعض تاريخ الخلاص الذي يتجدد باستمرار وكنت
أشرت من قبل (٣٦٥) في هذا التاريخ ، إلى أحدث ذكرى له نشأت
في جزيرة العرب عند ظهور الاسلام . وأضيف هنا إلى المقطم الأحاديث
الخاصة عن فتح مصر وظل الخليفة عمر الكبير على جبل زيتا (٣٦٦).
والآن أعود نصف قرن إلى الوراء . فقد تحدثت سابقاً عن العلامات
المنظورة . وهذه علامة أخرى تدل على التاريخ الكوني ، بل على تاريخ
الإيمان : أعني التلال . ويعطي ابن حوقل مثلاً عنها ويقول : « وبقر
ابرقويه تلال رماد كالجبال العظام التي صعود التل ونزوله نحو ميل » .
وفي كلامه مبالغة بلا أدنى ريب . إلا أن هذا الرماد يتناسب مع تاريخ .
عظيم ، خاص بنمرود أو ابراهيم في فارس (٣٦٧) . وقد يقال ان هذه
التلال مصطنعة ، وهذا في الحقيقة ما فعله اليوم في تعريف التلال التي
تنزع بانتظام في أرض المشرق وتاريخه . لكن لماذا يقارنها المقدسي
بالجبال ، اذا افترضنا ان حجمها يسمح بهذا التشبيه الدقيق ؟ إلا أنها
أتحولت فعلاً إلى جبال مثل غيرها بعد أن نسي الناس أصلها ؟ كلا ،
لأن الذاكرة حفظت بحرص ذكرى هذا الأصل . إنها لا بد من تسميتها
جبالاً - وهذا هو السبب - لأن الجبال والضمخامة وحدهما - وهذه
إحدى الصناعات الأساسية - ينسجمان مع عظمة الحدث الماضي ، ولو
كان في الأمر بعض المبالغة .

مهما يكن ، نعدد فيما يلي جبالاً طبيعية دخلت في التاريخ
المقدس (٣٦٨) . فعلى الجودي استقر فلك نوح ، كما رأينا . ويظن أن
قبر آدم خلف جبل زيتا أو بجواره ، ومنه صعد يسوع المسيح إلى
السماء . وبتل التوبة في الجزيرة مسجد يونس (٣٦٩) . وعلى فرسخ من
حبري ، جبل صغير وقريات لوط ، موضع مرقد ابراهيم قد غاص في

التف نحو ذراع . وعلى رأس جبل المقطم في قلته مكان يعرف بتنور
فرعون . ويقترن اسم عيسى وحده أو مع أمه مريم بجبل قاسيون ، المشرف
على دمشق ، ويقول بعض المصريين أن الربوة ذات قرار ومعين هي
مصر ، وقد كان عيسى ومريم بها مدة . وتحفظ جزيرة العرب في
جبالها بذكرى النبي صالح الذي أرسله الله إلى قوم ثمود الكفرة العنيدين .
أخيراً يرقد أصحاب الكهف في بادية عمان أو في هوية جبال الأناضول ،
التي تتطلع دار الاسلام إلى السيطرة عليها واسترجاعها .

وهناك جبال ارتبطت في الماضي مرة واحدة بتاريخ خلاص البشر
ولا تزال تعيشه — شأنها شأن جبال أخرى ليس لها وظيفة اضافية — على
مر الزمن ، وستبقى حتى اليوم الأخير ، الذي سوف تعلن عنه بذاتها
وتشهد على مجيئه . وهي جبال الجنة التي أشرنا إليها من قبل (٣٧٠).
وجبل المقطم المقدس الذي به مواضع يفضّلونها ، وصوامع يقصدونها
ليالي الجمع (٣٧١) وعند جبل لبنان الجنوبي (= جبل صديقا بين صور
وقدس وبانياس وصيدا ، وثم قبر صديقا) مسجد (٣٧٢) له موسم كل
سنة (يوم النصف من شعبان) يجتمع إليه خلق كثير . وجبل رضوى
الذي يعيش فيه محمد بن الحنفية ، حتى رجوعه مهدياً (٣٧٣). وجبال
جزيرة العرب التي تنبع فيها تسعون عينا — بعدد أسماء الله الحسنى —
وسوف تظهر فيها علامة في نهاية الزمان ، ربما كانت ناراً (٣٧٤) .
وبأقليم الجبال تل عظيم كالجبل ، وعليه قلعة ، وفيها بيت نار ، ويقال
إن ناره من قديم النيران الأزلية ، وبكازرون منها قبة تزعم المجوس
أنها وسط الدنيا (٣٧٥) . وقد برزت من البم جميع تلك الجبال في غابر
الأيام بعدما اتضحت فيها وفي أمثالها مشيئة الله في خلق الدنيا . ثم مجدها
أتقياء الناس ، فترافقت ذكراها مع فكرة نشأة الأرض ومع ترقب

الأمجاد الأخيرة . ولا شك أن جبل سينا وجبل بيت المقدس أجل منها كلها . فعلى قلة جبل سينا زيتونة جاء ذكرها في القرآن ، قالوا هي التي لا شرقية ولا غربية ، كما أن طور سينا المقدس لا يتبع لا جزيرة العرب ولا اقليم مصر (٣٧٦) . أما بيت المقدس في الأرض المقدسة ، فمدينة « مرتفعة على جبال يصعد اليها من كل مكان يقصدها القاصد من فلسطين » . وعلى جبل زيتا أيضاً زيتونة يقال إنها لا شرقية ولا غربية . وبه موضع يسمونه السامرة ، يقال إنها أرض القيامة ، وهي بيضاء لم يسفك عليها دماء (٣٧٧) .

وبقي أن نتحدث عن جبل (٣٧٨) شهير بين الجبال ، يرى لارتفاعه ، من أقصى الآفاق في البر والبحر ، لم يدخله الاسلام في تاريخه ولا في تاريخ خلاص البشر ، لأن تقاليد فارس الثابتة كانت قد سيطرت عليه . إلا أن الأدب العربي توخى تسجيل كنوز ثقافة الحضارة التي تتمثل فيه ، وحاول أن يجمع « الامم » تحت شعار اللغة العربية والاسلام ، فلم يسمعه إلا أن يلدن أساطير هذا الجبل العجيب ، وتعلنر عليه الذهاب الى أبعد من هذا الحد ، واستعصى عليه أن يدرج في منظوره روايات لا لا تنفصل البتة عن تاريخ غريب عنه في جميع الأحوال . وجل ما فعله ، بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها ، أنه حاول أن يلقي عليها ظلال الشك ، وسنرى كيف عمل . وباء بالفشل لأن الاسطورة كانت حية جداً ، ومنسقة جيداً أيضاً لتتفق مع ذوق العصر في العجيب . فاضطر البعض أن يتكيف معها بلا عناء كبير .

واسم الجبل المقصود دنباوند (دماوند) ، وقد عرفنا من قبل (٣٧٩) مظهره العام ومكانته في نظام الجبال العالمي . ونود الآن أن ننظر إليه

عن كتب . بصحبة أبي دلف مسعر (٣٨٠) أو بعض مستكشفيه ، ومنهم ابن الفقيه الذي يقص علينا روايته . فماذا نرى ؟ نرى قبة منخرطة هائلة ، بأعاليها مساحة فيها ملّ اورمل (٣٨١) ، تغوص فيه الاقدام . وهذا الملّ حمم مسحوقة ، ورماد بركان قطعاً . وبأعاليها أيضاً نحو من ثلاثين ثقباً ، يخرج منها الدخان الكبيري العظيم . ويخرج من هذه المخارق مع الدخان دوي عظيم كأشد ما يكون من الرعد ، وذلك صوت تلهّب النيران . ويخرج نهر أصفر كبيري ذهبي اللون من أسفل هذا الجبار . أقول « الجبار » ، وأقصد أنه أحد الجبابرة المحبوسين في جوف الأرض ، الذي يستر الجبل جسمه ، ويقذف نفثه . ولا يسع الاسطورة الا أن تتناسب مع هذه القبة الغامضة . الرائعة ، المذهلة ، المنعزلة ، الباعثة الدخان . ويستطيع المرء أن يتخذ منها مواقف عديدة . فقد لا يصدقها ، ويرفضها ، سواء ذكرت أم لم تذكر ، على أنها حماقة محضّة ، على غرار ما فعل الاصطخري (٣٨٢) . أو يحاول ، مثلما عمل أبو دلف مسعر ان يجرد معطياتها من الخلداع ، فيستبدل نفث العملاق بانبعاثات طبيعية من الأرض ، ونخيره بصوت الهواء المدفوع من أعماق الجبل ، وعينه بلهب البركان . وعلى النقيض ، يمكن أن يؤمن الانسان ، بقوة تضاهي صلابة الحديد ، بهذه الأسطورة العجيبة معتمداً على التقليد الفارسي الذي ابتدعها . أخيراً ، تتخذ جغرافية الأدب موقفاً وسطاً بين المؤلفين السابقين ، فتعرض على القارىء ، كما فعل ابن الفقيه ، نتاج ذهن يحرص ألا يفوته شيء ، فيفصل الوقائع المادية أي الجبل ، مثلما يشاهد عياناً ويعرفه الناس ، عن الاسطورة الشيقة جداً ، حتى إنها تستحوذ على معظم نص روايته . ومادام لا بد من بقاء الوقائع والاسطورة جنباً إلى جنب ، فليأت افتتان القارىء رضائياً ، وليستشهد له بالبيئة الشخصية ،

وبأقوال مراقب يبادر إلى إقناعه بغاية الصراحة وبهدوء وشجاعة ، لا بالأمر الطبيعي وحده . بل بالعجيب أيضاً . أفليس صحيحاً ما يروى ؟ إنه صحيح ، فقد شوهد عياناً .

وروي أن أفريدون (فريدون) ، وكان طوله تسعة أرماع ، اهان أحد ملوك الأشرار ، السحرة والمخادعين ، على حد ما جاء في الاسطورة ، وكان اسمه الضحاك (زهاك) ، ويدعى بيوراسف أيضاً ، وخلعه عن عرشه ، وأوثقه بأساطين وسلاسل ، وادار سلاسله على جبل . فاجتذب البيوراسف سلاسله مع تلك الاساطين والجبل ، وطيّر به في الهواء . فتبعه أفريدون ، ولحقه ، وقمعه بمقامع من حديد . ثم سار به نحو دنباوند ، فسجنه في جبل قرية الحدادين ، ووكل أرمائل بحفظه وغذائه ، فكان يذبح له في كل يوم نسمتين يتغذى بهما . لكنه استطاع في وقت مبكر أن ينجي حياة الضحايا المهيئين للذبح : فقد تمكن أحد المطلسمين أن يطلسم مأكول البيوراسف ومشروبه في جوفه . فهو يتغلغل في صدره إلى انقضاء أيامه . وفي الجبل قوم من الحدادين يضربون مطارقهم على سندانهم ساعة بعد ساعة ، ويتكلمون بكلام يهيجون به موزون عند ضربهم ، لا يفتر لحظة ، لئلا ينحل من وثاقه البيوراسف الذي دأب يلحسه ويلحس سلاسله ، فاذا ضربت هذه المطارق ، عادت السلاسل إلى ما كانت عليه من الغلظ . وجعل أفريدون يوم سجنه البيوراسف عيد المهرجان . وتقول رواية أخرى إنه قتل الضحاك في يوم عيد نيروز العام التاسع .

وننتقل الآن إلى الأشياء التي عوينت أو زعم أنها شوهدت عياناً . فجبل دنباوند يلد مسوخاً ، منها ذئبة في عظم البغال ، وطيور أمثال

النعام في خلق الفصائل ، وقلته مغشاة بالثلج . وتنحط دود عظام كائنها جنوع عن هذا الثلج إلى القرار ، فتعدو عليها تلك الطيور ، فتبتلعها . وتقع قرب القلة ، من الناحية الشرقية ، جوبة عظيمة ، وعليها اسكفة كتابة تحبر ان على القلة سبعة أبواب من حديد مصاريع ، على كل مصراع أربعة اقفال ، قد كتب على كل عضادة منها : « له أمد يجري إلى غايته ، ونهاية لا يعدوها . فلا يعرض خلق لفتح شيء منها . فيهجم من هذا الحيوان على الاقليم آفة لا تدفع عنكم ، ولا حيلة لكم في صرفها » (٣٨٣) .

ويعد جبل دنباوند هنا جبلاً كونياً ، بمعنى هذا اللفظ الشامل ، بناره — نار فولكين أو نييلولجن — وبتاريخه الناشئ ، الذي يجمع المعرفة والشقاء ، شأنه شأن علبة بندورا (٣٨٤) ، وبالعدد أربعة الذي يشير إلى رمز العالم الأرضي ، وأخيراً بايقاف المغامرة البشرية عند حدود معينة . ومثلما قلنا ، تنطوي على شيء من التردد محاولات ادراج الاسطورة في رؤية الاسلام العالمية . ولا يجدي زعم بعض المحدثين أن المحبوس بدنباوند صخر الجني الذي أخذ خاتم سليمان بن داود ، فهو يرد في بضعة أسطر من قصة ابن الفقيه ، وترد الاسطورة الفارسية في بضع صفحات . وفي هذه القصة شيء آخر : فقد اقحمت فيها أسماء خلفاء عظام في التاريخ الاسلامي هم المهدي وهارون الرشيد والمأمون (٣٨٥) .

لكن هل يعني هذا الكلام أن أهمية أعظم جبل من جبال فارس ، اكسبته شيئاً في مجال التقاليد المقدسة ، الوثنية أو غير الوثنية ، الخاصة . بقمم الأرض ؟ لا نظن . والواقع ان دنباوند جبل من جبال دار الاسلام ،

ولا يضير أن يرتبط بتاريخ فارس العائد إلى ما قبل الاسلام. من جهة أخرى ، وضعت فارس كنوزها في هذا الجبل ، وحصرتها به ، إلا أن دار الاسلام استعرضت جبالات كثيرة تخصها ، ويطغى عددها وقديسيتها الآن ، وسوف يطغيان في المستقبل ، على بركان عظيم وعلى جبار محبوس يتأهب على الارجح لإظهار بأسه ، على غرار البلد الذي يهيمن عليه ويجسده (٣٨٦) .

البادية والمفاوز

أشرت من قبل (٣٨٧) إلى الصحارى الواسعة الثلاث في دار الاسلام ، أي الصحراء الكبرى وبادية العرب ومفازة فارس . وحن الآن وقت العودة إلى هذا التقسيم لتوضيح مفهوم المفازة . وأتساءل ان كان لدينا مفهوم واحد أم مفاهيم كثيرة ، إذ لم يثبت أن الصورة ذاتها تنطبق على جميع هذه القفار ، بالتالي ان الصورة واحدة للمفازة ، وتخلو من التدرج . ويقول مصنف حدود العالم (٣٨٨) : «تسمى صحراء كل أرض تحوي رمالاً ، أو سباحاً ، وليس فيها جبال ، ولا مياه جارية ولا حقول . مع ذلك لا يمكن وصف المفاوز بالألفاظ مماثلة . فبعضها واسع ، وبعضها ضيق . كذلك الرمال فيها واسعة أو ضيقة» . اذن لابد لنا من البدء باستعراض الألفاظ . ودراستها في النصوص الجغرافية التي تستعملها منهجياً ، لنحصل بهذه الطريقة على استعمالات تتكرر وعلى عينات اختبار تتنوع جهد المستطاع ، عن الاسماء والأوضاع المقابلة لها. وفي هذا المنظور ، نستعين (٣٨٩) مرة أخرى بجغرافي المملكة أي الاصطخري وابن حوقل والمقدسي .

ونأخذ التيه أولاً . وهو أبسط الأسماء . وتسمى به مفازة سيناء ،

ومن هنا تسميتها الكاملة تيه بني اسرائيل (٣٩٠) . ويتصل حد له بالشام ، وحد بجزيرة العرب : وحد بمصر . ويوصف مع مصر ، لكنه يمثل موقفاً فريداً (٣٩١) . ويبلغ طوله من مصر إلى الشام نحو أربعين فرسخاً أي مائتين وثلاثين كم (٣٩٢) من الرمال والسياح والسماق خاصة . وبعضه جلد (٣٩٣) ، وفيه نخيل وعيون مفترشة قليلة . ونسلم بأن التليل يمكن استخلاصه من جميع هذه المعطيات لوصف الصحراء العام ، لأن التيه مكان تاريخي حائد بالدرجة الأولى ، ولا ينطوي في حد ذاته على تعريف جغرافي (٣٩٤) . ولابد للتيه ، باعتباره مسنداً إليه ، من لفظ آخر من الألفاظ التي يجب أن نتساءل عنها بالتفصيل والدقة ، مثل لفظ برية ، الذي يستعمله الاصطخري وابن حوقل (٣٩٥) .

مع ذلك نبحث قبل البرية لفظ صحراء الذي نعرفه . فقد قلنا إنه أرض مستوية ، لا جبال فيها . تركيبها أملس تماماً ، وتقع في المناطق الجافة (٣٩٦) . وبهنا الآن أن نبين بدقة كيف يعتبر هذا « السهل » صحراء أيضاً (٣٩٧) ، وبماذا يقارن . فأولاً نلاحظ بأن لفظ الصحراء لا يستعمل أبداً ليدل على الصحراء الكبرى ، لسبب بسيط : فامتداد هذه الأرض الفسيحة جداً ، يتعدى كثيراً امتداد الصحراء الضيق على الدوام . بالفعل ، يطلق اسم صحراء لا على مفازة مهيمنة بل على قسم منها ، يعبر عنه بالأرقام أحياناً ، طوله مثلاً فرسخ إلى ثلاثة فراسخ ، أي ٦ إلى ١٧ كم . اذن الصحراء سهل جاف ضيق ، يقع على مشارف إحدى المدن . أو يغطي رستاخاً منعزلاً في إحدى الكتل الجبلية ، أو يقتطع ، وهذا أفضل ، أحد أقسام عراء واسع حقيقي اسمه مفازة .

اذن للصحراء حدود ، وربما كان لمناخها حدود أيضاً . ولاشك أن المقدسي يقول في حديثه عن مغامراته : « سحت في البراري ، وتهت في

الصحاري » ، مما يبدو ، نظراً لاتساع الارتحال ، وكأنه يعيّن للصحراء أبعاداً تفوق إلى الحد الأقصى ما عينه ويسمها أيضاً بصراحة بصفة قبيحة ، لأن أمثال هذه الأسفار تدخل في عداد المغامرات . وبذل الجهود ، ومواجهة العقبات أو التعرض للمخاطر ، التي يجابهها كل مسافر يسعى لجمع وثائق كتابه (٣٩٨) - . لكن لا يجوز اعطاء تعبير المقدسي قيمة كبيرة . فقد أملاها عليه حرصه على اظهار براعته في الكتابة بنثر مسجوع ومقفى . فجملة « تبت في الصحاري » عنده صيغت بداهة لتحقيق الجرس الصوتي مع الجملة الأولى « سحت في البراري » التي سنعود إليها فيما بعد .

وقطعا لا يشك أحد في جفاف الصحراء : والبرهان وجود الحجارة ، ولو كانت جمشت ، التي تتألف منها أرض جزيرة العرب أو الأرض الغبرة التي تتعارض مع خضرة النبات الزاهية في ما وراء النهر ، على حد قول ابن حوقل (٣٩٩) . مع ذلك ، لا تعني هذه الأرض انتشار القحط التام . ففي فارس ، على الطريق الزاهية من شيراز إلى سيراف ، يشاهد خان آزادمرد في وسط صحراء كلها نرجس مضعف . وفي وسط مفازة فارس ، تسترعي انتباه المسافرين صحراء بما فيها من آبار قليلة . وفي اقليم الجبال ، صحراء أمينة حقيقية ، تقوم على وسط الرمال دون أن تقع فيها الرمال . وتلقى السباع مواشيهم فيها ، فلا تبدأ بسوء . أخيراً يستشهد ابن حوقل بأبي عثمان الجاحظ الذي يقول ان غبرة المزارع في أضعاف خضرة النبات من الزينة (٤٠٠) . ونختتم حديثنا عن الصحراء ، ونقول إنها لا تحتل المقارنة بمشاهد الأراضي الخصبة ، المغذية ، الكثيفة الزراعة والسكان . خلافاً لذلك ، تدرج في نطاق الأراضي الجافة بتربته ، وبوسطها . ولا بد أن القارئ لاحظ أن

المصنفين لم يذكروا أبداً وجود مياه جارية فيها . مع ذلك ، لا تمثل الخلاء التام ، ولا الفراغ المطلق ، ولا مفازة الجحاد ، إذ لا تمتلك لا اتساعها الشاسع ولا مضارّها الرهيبة . ولاشك أنها فقيرة ، وتحتفظ بفقرها . إلا أن ضيق رقعتها يحرمها من وسائل التأهيل الصحيحة الكاملة ، وهي من صنع الوسط المجاور لها ، الذي يجعلها صحراء حقيقية في عرف سكان الأراضي الغنية الذين ينظرون إليها بازدراء ، مثلما فعل ابن حوقل ، أو صحراء تتضاءل معارضتها للحياة بالنسبة إلى جميع الذين يأتون إليها ، ليستمتعوا بالبقاء وبشيء من الراحة ، بعد اختبارهم بلدان الموت .

ويمثل الرمل القحط المحتوم ، والصحراء بالذات ، قبل أن يكون أحد عناصر التربة أو صخرا ، وما تتألف منه الصحراء الحقيقية في الحد الأدنى . وهذا هو الوضع ، بلا أدنى شك في أماكن عديدة من دار الاسلام . ، يقترن في وصفها لفظ الرمل ، وكأنه مسند إليه صرف ، باحدى الكلمات التي تشير مبدئياً إلى الصحراء ، مثل البرية ، أو البادية أو المفازة . وينطبق هذا القول على الصحراء الكبرى وعلى كرمان أو سواد العراق أو نواحي نهر جيحون (٤٠١) . لكن يرد لفظ الرمل وحده في بعض الأحيان ، ويعبر ، دون دعم أي لفظ آخر ، عن الأرض الخالية من جميع الاحياء : حيوانات كانت أم نباتات . وهكذا يغطي الرمل أو الرمال (٤٠٢) بقاعاً تامة من الخريطة ، ويقال لنا بأن بعض المنشآت أو المدن أو المناطق يجتاحها أو يحيط بها هذا العنصر الغريب الذي يؤثر في عدة وجوه ، فيشكل تارة أرضاً ثابتة وثقيلة ، تسحق كتلتها كل شيء ، وطوراً أرضاً متحركة كالماء السائل ، تندس في أدق الشقوق ، وأحياناً أرضاً خفيفة عالقة في الهواء وتجتاح جميع الأماكن وتتواجد

فيها . وابدع مثال عنها بلاد زرنج في سجستان ، التي يضطر أهلها لحماية أنفسهم أن يوجهوا الريح ضد حليفها الطبيعي (أي الرمل) . فيجعلون زربا وسياجا كالحائط ، ويفتحون في أسفله باباً من تلقاء الريح ، فتدخله ، وتطير به ، وتصير بأعلاه كالزوبعة ، ويرتفع بعيداً وبعيداً جداً عن القطاع الذي يريدون حمايته (٤٠٣) . ولا نستغرب هذا الوجود الدائم المعقد الأشكال ، لأننا نعرف أن الرمل يشكل ظهرة كبرى توازي الظهرة الكبرى الجبلية في العالم ، وتمتد من أقصى الدنيا إلى أقصاها (٤٠٤) . ولا ريب أن الرمل ، خلافاً للجبل ، لا يحمل اسماً خاصاً به ، دائماً تقريباً ، أو على الأصح ، لا يطلق عليه الا اسم الرمل ، وحده ، أو مرفوقاً بأحد الالفاظ المرادفة لصحراء ، مثلما قلنا ، فيأتي مشتركاً فيها ولا يتغير في جميع الأحوال في كل المشاهد التي يسمها بطابعه . وفيما عدا ذلك ، يسمى بأسماء البلدان أو المدن التي يحتف بها : مثل رمال نزاوة ، سجدماسة ، وأودغست ، والقازم ، والبحرين ، ونواحي البصرة ، وعمان والشحر ، ومرو ، وسرخس ، ولم نذكر من لائحة ابن حوقل الطويلة (٤٠٥) إلا البلدان الواردة صراحة (٤٠٦) في «التعبير النحوي» مضافة إلى لفظ رمل ذاته . مع ذلك ، قد يشمخ الرمل ، كالجبل ، ويحصل على اسم علم (٤٠٧) : كالعبير ، وهو اسم الرمال التي تتوزع على جانبي شمال جزيرة العرب (٥٠٨) ، وكالاحقاف وهي رمال حضرموت ، وكالجفار التي تمتد وراء الساحل بين مصر ومشارف فلسطين .

نستخلص من جميع هذه المعطيات أن الرمل يدل على الجفاف المطلق ، ويضيف اليه بعض المفاهيم الناشئة عن طبيعته ، وأكاد أقول عن صفته : فجفافه خاص يفترض ضمهنا وجود خلفية زوال الحياة والخفاء ،

يكتنفهما صعاب تعترض حياة البشر أو سبل حركتهم (٤٠٩) ،
ومن المساحات الشاسعة جداً أحياناً لكي تحظى باطلاق اسم عليها .
خلافاً لذلك يعبر أحد الالفاظ العربية صراحة ، وبلا التباس ، عن فكرة
الخلاء والصحراء : نقصد قفر . جمعه قفار (٤١٠) الذي لا تعطي
النصوص الجغرافية البتة تعريفاً له ، لأنه مضمونه واضح لحد ذاته ،
ويؤدي معنى الخلاء التام والأرص التي لا ماء فيها ولا ناس (٤١١) .
وهكذا يجوز استعماله وحده ، أو مقروناً ، لأنه مسند اليه ، بلفظ يدل
على البلسد أو على الأصح على الصحراء : مثل « برية » التي آن أوان
الحديث عنها .

ولأول وهلة ، يثير اجتماع اسمين قضية اقترانهما . فما الداعي
إليه ؟ أهو الاطناب فقط ، بقصد التعبير عن صحراء مثلى ، أم أن ذكر
« القفر » يعود إلى الحرص على التعبير ، في فكرة الخلاء التام ، عن
« برية » لا تؤدي بالتالي على الدوام معنى الصحراء الحالية من الحياة ؟
لنستقصي النصوص الجغرافية . فمن جهة أولى ، يعبر « القفر » عن الخلاء
التام . أي عن « برية خالية من الآبار والسكان والمراعي ، قفرة ، لا
تسلك ، ولا تسكن » (٤١٢) . وغالباً ما تهب فيها ، كما قلنا ، زوابع
رملية تخفي المشهد السابق (٤١٣) . وفي بعض الأحيان ، يدل لفظ
« البرية » وحده على الخلاء التام الذي يفصل بين أجزاء العمارة ، ويعارض
عبور البشر ، في بعض الأماكن ، وقد لا يتجول فيه سوى الجن (٤١٤) .
بهذا المعنى يظن أن ما أول لفظ « برية » عكس مدلول لفظ « البادية »
أيضاً . فالمناطق الساحلية ، في البحرين وعمان ، التي ذكرنا من قبل أنها
خلاء تام ، تتميز على هذا الاساس ، عن الانحاء البعيدة إلى الشمال ،
والواقعة عند مشارف نهر الفرات و « بادية » البصرة ، التي تنزل فيها

قبائل عربية من بني أسد . ويظهر التضاد ذاته في الحديث عن الطرق (المسالك) في جزيرة العرب : ففي حين تقيم « البرية » سداً منيعاً في وجه المواصلات فيما يبدو ، تبقى « البوادي » . على خلافها ، مطروقة . يميل إلى سلوكها الخواص من أحياء اليمن ومخاليقها : على سفح الجبال (طريق الصدور) (٤١٥) .

مع ذلك ، لا تبدو صورة « البرية » قائمة إلى هذا الحد على الدوام . فحتى لو ابرزت أشد وعورة من « البادية » ، فبعض الأقوال المدونة هنا وهناك ، تشير إلى وجود بعض الحياة فيها ، ولو كانت وجلة ، فمدينة سنجار في الجزيرة ، تقوم في وسط « البرية » ، وعلى سفح جبل خصب ، على حد ما جاء في النصوص الجغرافية . وتحيط « البرية » بمدينة سر من رأى ، التي تمتد عمارتها ومياهها وأشجارها في الجانب الغربي . وفي أماكن أخرى ، كالسند وبلدان وادي جيحون ، ترتاد بعض القبائل « البرية » ، ولها فيها مراعي ، تنتجعها لتعيش (٤١٦) . إذن تبدو « البرية » وكأنها تلطف قسوة الصحراء المطلقة ، على أطرافها ، أو حتى في داخلها أحياناً . وهنا لابد أن نتذكر أولاً أنها تشير إلى القارة في اشتقاقها اللغوي ، وإن بوسعها بالتالي أن تميز بوضوح موقع إحدى المدن ، بعيداً عن أحد البحار أو حتى عن أحد الأنهار (٤١٧) : فهي تؤدي من هذه الناحية معنى الأرض على مرمى النظر ، بلا شاطئ يحدد الرؤية ، ولا مجرى ماء يحتفر كتلتها ، أو يجلب لها الرطوبة أيضاً : هنا يقال لنا : لا يعتمد إلا على الامطار (على الاعذاء أو البخوس) (٤١٨) .

وهكذا نفهم تبدل المعنى ، كلما تضاءلت نعم السماء في هذه الأرض البرية بالمعنى الصحيح : بالفعل الصحراء ليست بعيدة . ونذكر

أيضاً أن معنى « البرية » الأصلي لن يختفي تماماً أبداً : يدل على ذلك اقتران لفظ « البرية » بلفظ « مفازة » ، كما لو أن وجود « البرية » أريد به تخفيف الانطباع الكئيب الذي تعطيه المفازة . ونستشهد بالصيغة التالية من بين صيغ أخرى متنوعة (٤١٩) : « مفاوز وبراري منقطعة » (٤٢٠) قليلة المياه ، متعلرة المراعي » : اذن شروط الحياة مضطربة لكن لا خلاء شامل . وهذا النص أيضاً : « بين أضعاف مدن كرمان ، مفاوز وبراري كثيرة ، وليس اتصال عمارتها كاتصال عمارة فارس » : أي عمارة منقطعة . لكن لم تبلغ تماماً من الخريطة ، وصحراء لم تتمكن أن تعم جميع الأماكن . أخيراً نقول : « البرية » تشبه الصحراء قليلاً ، لكنها تمتد على أراضي شاسعة إلى أقصى حد ، ويبرز الجفاف كثيراً فيها ، فتبدو نوعاً متوسطاً من الصحاري : الخلاء الرهيب كما في الجماد الميت بل أقل منه أو ما يقاربه أحياناً ، بحياة رقيقة وخطرة ، وفي جميع الأحوال أصعب كثيراً من البادية يعيشها الشظف أيضاً .

ونترجم لفظ « البادية » ، حسب العرف الجاري ، بلفظ « سهب » الفرنسي (ستيب : Steppe) ، ماركين أن هذا الاداء يزيل معنى الاشتقاق الأصلي . فالبادية مسكن البدو ، وتنطوي على نمطي لغة وحياة . ولغة بدو جزيرة العرب أصبح اللغات (٤٢١) . بهذا المعنى الدقيق ، يقصد « بالبادية » المنطقة الواسعة الجافة التي تحد الهلال الخصيب الشهير ، من شمال جزيرة العرب (٤٢٢) حتى تخوم اقليم الشام وضفة نهر الفرات اليمنى . إلا أن البادية بمعناها الواسع ، وباعتبارها نطاق اقتصاد البدو ووجودهم . يمكن أن تدل ، في أماكن كثيرة ، على المشاهد التي يعيش فيها « غير قبيلة » متعزّون . لم يروا قط حاضرة ، ولا عرفوا غير البادية العازبة » (٤٢٣) .

اذن لدينا بادية العرب من جهة ، أو أحياناً البادية باختصار .
ويدرك الجغرافيون ادراكاً جيداً جداً البادية ، لكنهم لا يدرجون
ذكرها في لائحة الاقاليم المعنية : أي « جزيرة العرب ، والشام ،
العراق ، والجزيرة . وينفرد المقدسي بالحرص على الوضوح إلى الحد
الأقصى ، فيقول : « وبين أقاليم العرب بادية ، ووسط أقاليم الأعاجم
مفازة ، تسمى مفازة فارس ، فلا بد من افرادهما والاستقصاء في
وصفهما لشدة الحاجة اليهما (٤٢٤) . حتى على هذا الاساس ، لا يسعنا
أن نحصر البادية ضمن الحدود الصارمة ، لأن لها امتدادات في قلب
المعمورة في جزيرة العرب بالذات وفي الهلال الخصيب ، ويشبه وجودها
في النصوص الجغرافية ، كمجموع أو لوحة (جتمعها بوادي) ، موقعها
المسيطر على الأرض (٤٢٥) في الغالب . ويعطي المقدسي صورة رائعة
عنها في اقليم الشام ، عندما يقول : والبادية على تخومه « كالزقاق منه
إلى تيماء » ، نحو واحات شمال جزيرة العرب (٤٢٦) .

وفيما عدا هذه الأراضي المختارة ، تظهر البادية في هذا المكان أو
ذاك ، من أقصى دار الاسلام إلى أقصاها . فتندس بين مدن المغرب ،
وتمتد على حدود الصحراء الكبرى الشمالية ، وتنسبط في طرابلس الغرب ،
وخوزستان ، واورستان ، ومكران ، وحتى في السند ذاتها (٤٢٧) . فما
هي اذن هذه البادية التي يبدو أنها تتوزع شعاعياً من وسط جزيرة العرب
حتى مغرب دار الاسلام ومشرقها ، فأولاً فيها بشر ، بدو أو رعاة
آخرون لهم نمط حياة قريب من نمط حياة البدو ، يعيشون في هذه
البقعة الخافتة ولا يفارقونها أبداً ، كالبربر والاكرد ، والبلوص ، والبدمة
في السند (٤٢٨) ، مما يثبت أن الحياة فيها سهلة ، أو على الأقل ممكنة ،
لجماعات كاملة (٤٢٩) ، شريطة أن يكتفوا بالبداوة طبعاً ، لأن البادية

بقعة يعوض امتدادها عن ندرة الأرض المغسدة أو رقتها . فالبادية واسعة : ولا يتضح اتساعها من رؤيتها على الخريطة . بل يسون تدويناً (٤٣٠) . وفيها يتم الانتجاع ، نقصد أن بعض القبائل البدوية الكبيرة تنتقل فيها مع قطعانها ، وتكتفي بالعشب النادر بلا ريب وتستطيع دائماً أن تطلبه في مكان أبعد . والبادية أيضاً نطاق حياة حضرية حقيقية لاناس يقل عددهم عن عدد البدو ، ولهم مزارعهم ، وأساليب زراعة تستغني عن الري ، تلائم المناطق الجافة ، وتخضع لضرورة مطلقة تقضي بالتكيف مع ندرة المطر (٤٣١) . ويتعذر علينا التحدث عن خصب حقيقي (٤٣٢) في هذه الشروط . مع ذلك الحياة قائمة فيها ، ومستقرة ، ولها مستغلات دائمة، وضيق أيضاً (٤٣٣) . وتمتد رقعة حياة حضرية واسعة وحقيقية على أطراف البادية خاصة ، وتكثر فيها تربية الحيوان والزراعة ، وترتبطان بالمدينة القريبة وبسوقها ، في حين يعتمد معظم ازدهار المدينة القريبة منها على حياة البداوة التي تركز عليها . فاذا تساندت البادية والمدينة ، أمكن قطعاً أن يقال إنهما خصبتان : مثال ذلك واسط في العراق ، التي يقال لنا بأن حزامها الغذائي ضيق جداً ، على الأقل في غربها ، ومثل مدن أخرى كثيرة في الجزيرة تلتصق بالبادية (٤٣٤) .

خلاصة القول إذن ان درجات كثيرة تظهر بين هذا الخصب وبين البادية « العازبة » (٤٣٥) ، مروراً باحتمالات البداوة أو الحقل الموقت . ولعل أفضل تعريف للبادية ما قاله الاصطخري عن البقاع التي تمتد من شمال شرق بغداد نحو فارس : « ولما كانت . . . كالبادية متقطعة العمارة ، منفردة المنازل والقرى » (٤٣٦) . بالتالي الحياة مضطربة، ومتباعدة ، ومتقلبة ، ومتقطعة فيها ، إلا أنها ليست غائبة عنها .

فالبادية تختلف عن المفازة التي تعد صحراء أقل رحمة بكثير . والبرهان عند الاصطخري أيضاً (٤٣٧) : الذي يستهل فقرة خصصها لمكران بهذه التعابير : « مكران ناحية واسعة، عريضة، والغالب عليها المفاز والقمح الضيق . ثم يأسف لأنه ذكر في سياق حديثه وجود زروع ومدن أيضاً في أرض يتوقع القارىء أن تكون مقفرة ، ويصحح أقواله بعد فترة طويلة ، وقبل أن يختم فصله عن اقليم السند الذي يضم مكران ، ويستدرك نفسه : « والغالب على أرض مكران البوادي والزرع البخوس » . وهكذا يكون قد أدخل في وسط هذه المفازة التي لا تلائم الحياة امير حياة محتملة ، ومتباينة بن طرفي هذا الفضاء الفسيح ، لكنها واقعية ومحسية من مكان إلى آخر ، فيحول الصحراء المطلقة إلى بادية تتقبل بعض البشر في الحد الأدنى .

وتعد بادية العرب التي اشتق منها هذا الاسم ، أكمل نماذج البوادي . فلنلق نظرة على هذه البادية المثلى قبل أن ننهي حديثنا عن البادية ، معتمدين على المقليسي الذي أفرد لها بحثاً خاصاً ، كما سبق وقلنا . فهي فسيحة ، وهذا ما نتوقعه (٤٣٨) ، وفي جميع الأحوال سعتها كافية ، لتضم في أضعافها أحياناً مساحات أضيق مثل أقسام البادية (٤٣٩) . وهي مستوية أيضاً . أو على الأقل خالية من التضاريس الشاهقة ، ولعل هذا ما يفرقها عن جزيرة العرب بالمعنى الصحيح ، بجبالها العالية . فالسهل مع الدرجات التي ألمحنا إليها ، يميز واحة تيماء (٤٤٠) ، وعلى وجه العموم، يبرز (٤٤١) القمم التي لا تشكل فيها سوى تلال . ولا تحوي مدناً سوى تيماء (٤٤٢) ، وبعض القرى (٤٤٣) في أفضل الاحتمالات . والواقع أن بادية العرب منطقة مرور (٤٤٤) ، تعرض مقسمة إلى ثلاث عشرة طريقاً (٤٤٥) تسع منها طولاً يؤدي إلى مكة ، وثلاث

عرضاً يؤدين إلى الشام ، وبها طريق آخر لقرح يؤدي إليها من سواد العراق إلى البصرة ثم إلى مصر . وليس لأحد من أهل الاقاليم الثلاثة عشر طريق في البر إلى الأماكن المقدسة ، إلا اذا سلك إحدى طرق هذه الشبكة التي تضم ثلاث محطات تعد طرق العرب إلى مكة ، وفيها كان يريد بني أمية ، واياها سلكت جيوش العميرين وقت فتح الشام ، وهن قريبات ، آمنات ، وأصحابها بنوكلاب ، ويصحبهم كثير من أهل الشام وغيرهم ، يهدون المسافرين ، ويخفرون القوافل ، ويحرسون الناس ، ويعادون الذين يرفضون هذه الحماية القسرية (٤٤٦) .

ويفرض الماء (٤٤٧) نفسه على جميع الذين ينزلون البادية أو يمرون فيها ، وهو ملاذهم الوحيد ، والشيء الذي لا يستغنون عنه . وتتعاظم أهميته حتى ان التعبير عن قطع المسافات بالمراحل أو النهارات أو الليالي ، يستبدل أحياناً بالمناهل (٤٤٨) . والماء رديء اجمالاً في البادية ، ولا يستساغ شرابه (٤٤٩) ، فيما عدا بعض الحالات الشاذة ، لكن لابد من الإشارة إلى وجود هذا العنصر المنقذ مهما كان ، بلا تدقيق عن وضعه ، وبالأشكال التي تحيطه بها الطبيعة أو عمل البشر : عيون . غدران ، سباح ، آبار ، قنى ، برك عذيبية أو حفر في الرمل (٤٥٠) . ويفرق أحد التصنيفات ندرة المياه ووفرته التي يرحب بها الناس بلذاهة بحماس كما نتصور : بركة عظيمة ينبع فيها الماء ، بساتن تسقى بالسواقي ، آبار يقصدها عرب بالاباعر وفيها « فرج للحجاج » . وميّر تصنيف آخر ماء الآبار العذيبية السهل المنال وماء الآبار البعيدة القعر جداً . ويفرق تصنيف أخير الماء الحلو (العذب) ، النادر جداً ، كما قلنا والماء غير الطيب أو المالح تماماً : « الكريه » ، « المتن » ، الذي يطلق

الناس سواء شربوا منه أم خبزوا به أو طبخوا ، والماء الذي يتورم من يشرب منه وربما يقضي نحبه .

وتتفق آراء المصنفين الجغرافيين على النبات . فالنخيل يذكر حيثما وجد (٤٥١) . إلا أن مشهد نبات البادية العام يتألف من الأعشاب البرية والحشائش وأدغال الطرفاء في الغياض ، أو من نبت القث الشبيه بالخردل ، الذي يجمعه البدو إلى الغدران . ثم يبلونه بالماء فيفتح عن ذلك الحب ، ثم يطحنونه ويخبزونه ، ويتقوتون به ، مع لحم اليربوع .

اذن العيش شظف . يعلل هو وكرم البدو والطباع الفظة جداً ، حتى في بلدة مثل تيماء ، رغم بساطتها « الهائلة » ، وكثرة نخيلها ، وغزارة مائها . وفي تيماء أمور لا يجوز اغفالها ، مثل تدني مستوى الثقافة فيها ، وسوء تصرف أهلها ، وانخفاض مستوى حياتها ، لأنها تعلل جميع الظواهرات ، لاسيما كون خطيبهم بقالاً ، ومحاكمهم نعالاً (٤٥٢) . مع ذلك البادية كثيرة العرب اذا ما تجمعوا (٤٥٣) . وفي النهاية . تعوض بعض مزاياها عن مساوئها . فقطعاً طرقها وعرة ، تخترق المفاوز والرمال وأرض الجوع ، مما يؤدي إلى تخريب العمارة ، وتدمير الآبار ، وتعطيل البرك ، التي استفيد منها في الماضي (٤٥٤) . لكن اذا صرفنا النظر عن موارد التجمعات البشرية التي لا تتناسب مع الضيق العام (٤٥٥) ، نعتزف مثلاً أن الماء ، حتى لو كان رديئاً ، متوفر في كثير من المراحل (٤٥٦) ، وان بعض هذه المنازل حسنة ونيرة (٤٥٧) ، وان الهواء ، على وجه التخصيص ، ولو كان حاراً ، طيب في جميع الأماكن ، وصحي وخفيف ورائع أيضاً (٤٥٨) .

ونقول في الختام إن البادية ، عربية كانت أم غير عربية ، تشكل

عراءاً فسيحاً جافاً ، فيه امكانات عيش تفوق ما في البرية ، ليس دائماً ولا في جميع الأماكن بلا ريب ، بل من وقت لآخر ، وفي بعض المحال ، وليس أصلاً بالنسبة إلى الحضر الذين تتقبلهم تقبلاً فقط ، بل بالنسبة إلى أبنائها البدو الذين يتنقلون على دروبها ، تحت سماء وجو صافيين . هم وقطعانهم وخيمهم ، في تجوالهم الابدي ، فيتمتعون بحريتهم الذاتية . وتقل الجبال في البادية ، ولهذا الندرة قيمة رمز في الواقع : فأفاقها الفسيحة المفتوحة على نطاق واسع . تدفع أهلها إلى الارتحال من الحيز الموقت الذي يقيمون فيه بضعة أيام أو بضعة أسابيع في أفضل الاحتمالات ، وإلى الذهاب إلى مكان أبعد منه : فتقصيه عن يسر وكآبة الحياة اليومية التي لا تتبدل ، وتجعل أهل الجبال يربطون مصيرهم بها نهائياً .

بقي أن نتحدث عن المفازة ، لكي نختم استعراض الصحاري . ويطلق هذا الاسم في الأصل على عراء جاف فسيح ، نقول انه من فارس : ويسميه المصنفون الجغرافيون مفازة خراسان ، أو المفازة باختصار (٤٥٩) ويعتبرونه بوضوح وحدة طبيعية متميزة ، انتزعت من جملة أقاليم دار الاسلام في المشرق . ويبرزون كيانها بالتمام والكمال . ففي حين أن بادية العرب لا تحظى ببحث منفرد إلا عند المقدسي وحده ، كما قلنا ، يعالج جميع جغرافيين مدرسة البلخي المفازة على حدة : مثل الاصطخري وابن حوقل ، وطبعاً المقدسي الذي يقارن هذه المفازة غير العربية ببادية العرب .

ويكرر ابن حوقل الاصطخري ، ويصف المفازة بهذه الالفاظ (٤٦٠) « هذه المفازة من أقل مفاوز الاسلام سكاناً وقرى ومدناً ، على قدرها ،

لأن مفاوز البادية فيها مراعى واحياء للعرب ومدن وقرى ، ولا تكاد تخلو نجد وتهامة وسائر نجودها ونواحيها والحجاز وما يشتمل عليه من بقاعه واصقاعه من أن تكون في حيز قبيلة ، تتردد فيها على المراعى ، وكذلك عامة اليمن ، إلا ما بين عمان واليمامة مما يلي البحر (٤٦١) إلى حدود اليمن ، فان ذلك الموضع خال فارغ من ديار العرب من السكان . وكذلك المفاوز التي في اضعاف كرمان ومكران والسند عامتها مسكونة بالاخبية والاختصاص وغيرها . ومفاوز البربر أيضاً القاصية المتصلة بالبرية التي لا تسلك في الجنوب إلى البحر المحيط عامرة . اعرف ذلك واقف عليه باحياء البربر في مراعيهم ، وليس يستدرك من مفازة فارس وخراسان غير علم الطريق ومايعرض في اضعاف طرقها من المنازل (٤٦٢) والرباطات الموقوفة على سابلة الطريق ، ليستجار بها في شدة البرد من الثلوج ، وفي شدة القىظ من الحر ، وليس فيما عدا أطرافها كثير عمارة ولا سكان .

اذن الوضع العام السائد في الصحراء ، أو على الأقل في هذه الصحراء ، هو الموت . وتنفرد مفازة فارس بالخلاء التام ، اذا ما قورنت بالبرية ، أو البادية ، وحتى بالمفاوز الاخرى ، اذ تكاد الحياة لا تظهر إلا عندما يمر المسافرون فيها مروراً . وينتظم وصف المفازة حول الطريق (٤٦٣) . ونكرر القول بأن ذكر المفازة يؤدي إلى وصف مسهب تتناوب فيه وحشة الأماكن الرهيبة التي تبرز باعجوبة أمام المسافر في وسط يخفف قسوته بعض الماء والخضرة ، مع التوقف والاستراحة والامان (٤٦٤) .

ونبدأ أولاً باتساع المفازة . فقفاها تخيف ، حتى لو لم ترد امتداداتها في البلدان المجاورة لها . ويقول المقدسي : « تتوسط طولانياً »

سنة من أقاليم الاعاجم في دار الاسلام ، « ومثلها كمثل البحر » ، لا
معالم ثابتة فيها سوى الطرق المشهورة المسكونة (٤٦٥) . مرة أخرى .
نعود إلى الطرق التي تلخص جميع الحياة في هذه المفاوز (٤٦٦) ،
وتسمح برسم خريطتها . إلا أن مراحلها قريبة على وجه العموم (٤٦٧) ،
لكن ما أكثر العقبات فيها . وتأتي التضاريس في طبيعتها : ففيها ، خلافاً
للبادية ، ليس فقط تلال أو رمال ، بل جبال أيضاً ، « وحشة » ،
« ممتنعة » و « معارج » (٤٦٨) . وتضيف المفازة إلى الصعاب الخاصة
بالأرض . في شكلها المضطرب ، عقبات التجزئة : فهي موزعة طبيعياً
وسياسياً على عدة أقاليم ، ويكثر الدعر فيها ، بخاصة في جبل كركس
كيوه . من القفص أو البلوص (٤٦٩) . ولا يؤمن شر هؤلاء للصمص
والفساد الا بطريقتين : التحالف معهم (٤٧٠) أو ، وهذا هو الاسلوب
الشائع . الاعتماد على بذرة من قبل السلطان مع القوافل أو على الخصوص
التي أقامتها السلطنة في مراحل كثيرة على الطرق (٤٧١) . لكن لعل
أسوأ ما في الأمر أن يضل المسافر الطريق . ويقول المقدسي أنه مكث في
الطريق (من طبرس إلى فارس) سبعين يوماً يعدل من ناحية إلى ناحية (٤٧٢)
إذ لا معالم هنا في أغلب الأحيان ، وربما برزت الأرض من مكان إلى
آخر بألوان فاقعة ، سوداء ، أو حمراء ، أو بيضاء ، أو خضراء (٤٧٣)
أو بصورة غريبة جداً من حجرة تجاور الطريق (٤٧٤) . لنسمع ابن
حقول يتحدث عن سائر الأمور ، لأنه يعرف من أين جاء ، اذ إنه سلك
المفازة على الوجهين مرة مع المفردة ، وأخرى مع الجمال المحملة (٤٧٥) :
« فهي مفازة يصعب سلوكها بالخيول ، وانما تقطع بالابل . فاما دواب
عليها احمال ، فلا تسلكها إلا على طرق معروفة ، ومياه معلومة ، ان

تجاوزها في اعراض هذه المفازة متجاوز . هلك » . ويقول فيما بعد (٤٧٦):
« ولا يسلك إلا عند الضرورة ، والمسلك فيه على السمى والقصد بالنجم » .
فاذا ضل المسافر الطريق ، لا يهتدي إلى الماء . هذا ما قاله ابن
حقول منذ قليل . واذا لم يتوفر له الماء في المفازة أو البادية ، تعرض
إلى موت محتم في الأولى أكثر من الثانية . لكن من أين يستقي الناس
الماء ؟ من آبار . وأحواض ، يجتمع فيها ماء المطر الطارىء . وأحياناً
وهذا أمر عجيب ، من عين ماء تجري في أفنية ، وتستبي بضعة آلاف
من الأمطار المربعة من الأراضي المزروعة (٤٧٧) . اذن ، تعد مظاهر
الحياة شاذة ، ويشار إليها بعناية . فماذا يشاهد المرء في معظم الأحيان ؟
لا يرى لا بحيرة ولا نهراً قطعاً ، بل سباحاً ، و « عيوناً ضعيفة » ،
تدير ربحى صغيرة ، وتغذي رجلين أو ثلاثة من حقول يزرعه هؤلاء النفر ،
وماءً رديئاً غير شروب أحياناً ، من آبار ، لا تفنى بقافلة صغيرة ، أو
سيولا ، لا تكاد تنشأ حتى تجف على أرض يحرقها الملح (٤٧٨) .
والانطباع العام الحاصل عن المفازة هو الفراغ شبه المطلق . ففيها مدينة
واحدة ، وتتوزع جميع المدن الأخرى على تخومها . أما الضاع ،
فتعد على أصابع اليد . وقد أحصاها الاصطخري سبعاً بتماسها ، وتبعه
ابن حقول (٤٧٩) . وذكر ان عدد سكاتها يتراوح بين مئتي نسمة
وألف نسمة (٤٨٠) . بالمقابل ، يغلب وجود جماعات قليلة من الناس ،
حول رباط أو في قطعة أرض صغيرة جداً ، ووجود حصون مهجورة
أحياناً ، تحولت إلى منازل بسيطة طارئة ، وضياح اختفت تحت
اطلالها ، ومناهل غير مضمونة أو خانات تستجير بها مارّة تحلوا ألحان
السير وتغني أناشيد الوحشة . وتتكرر تعابير رتيبة كثيرة تصف الجفاف ،
منها « أربع مراحل في مفازة متصلة » ومشاهد ، ما مدّ البصر ، « لا يرى

فيها نبات « و « لا فيها ساكن » ، و « لا أثر للحياة فيها » . زيردده لفظاً
« مفازة » ليدل على الكل أو الجزء ، كأنه شعار هذا الخلاء الشاسع ، أربعاً
وأربعين مرة في صفحات سبع ، وصف فيها ابن حوقل مفازة خراسان
وفارس ، أي ما معدله مرة في كل أربعة أسطر (٤٨١).

اذن تعد الحياة في المفازة مظهرًا اضعف اضافة إلى أرض تنبذه
تلقائيًا ، وفرضه البشر عليه فرضاً لضرورات تنقلهم من مكان إلى
آخر . وتعتبر المفازة أرض عبور لا يستغنى عنها ، وتتفوق على البادية
بهذه الناحية . والدليل على هذا القول اغفال الحديث عن مناخ المفازة ،
في حين قيل إن مناخ البادية ممتاز (٤٨٢) ، كما سبق وأشرنا . ولا يشك
أحد في هذا الوضع ، وتستثنى بعض الضياع القليلة ، بل النادرة جداً .
وإذا أراد الانسان أن يعيش في المفازة يضطر أن يرضى بحياة بدو قساة
القلوب ومتوحشين أحياناً ، من قفص وبلوص ذكرناهم سابقاً . إلا اذا
عهدت له السلطة بحراسة الحصون ، أو ضمن اوده من حقل فقير ، من
مبيت المارة وتزويدهم بالطعام في المرحلة مساءً . ويبدو العاقل في أحد
الامثال ، في أغلب الظن ، غريباً جداً في المفاوز ، على الرغم من حكمته .
فقد كتب المقدسي (٤٨٣) ما يلي : « ساغند حصن خرب . . . ثم
أشجار توت وحبائك قليلة تزرع . وثمَّ يجتمع القفص ، ويستعدون
لقطع الطرق ويدبرون . ورأيت ثم رجلاً واحداً يزرع تلك الحبائك .
قلت له : الا تستوحش في هذا الموضع ؟ قال : اعلم اني ذهبت إلى
نيسابور في بعض السنين ، فكنت فيها نحو شهر ، وأنا ضيق الصدر ،
مستوحش من الناس ، حتى رجعت إلى هاهنا » .

ولابد أن يتنوع الناس لتكوين البشر ، فيسهلون المنعزلين (المنزوين)
والمنفيين (المبعدين) ، وربما المجانين أيضاً . وتعطي مفازة فارس

الكبرى صورة أساسية عن المفاوز ، ويرد لفظ المفازة وصفاتها في جميع دار الاسلام من أقصاها إلى أقصاها . ويعبر الشرح . كلما اقتضت الحاجة ، عن الأرض التفر الحقيقية . التي تكاد لا تحمل . أو لا طاقة لاحد بها ، بعيونها البعيدة المنال أو الشحيحة . وملحها ورمالها . ونأتها النادر القصير ، المعلوم في الغالب ، وزروعها . ان وجدت ، واعذائها المشكوك بمطرها . وبدوها وقطعائهم في النهاية . وقد استعرضنا جميع هذه الأمور ولن نعود إليها (٤٨٤) . ولعل تحديد مواضع المفاوز جغرافيا أجدر باهتمام الباحث . فلا ريب ، كما قلنا ، أنها تنتشر في جميع الأماكن تهرياً . ويعني لفظها . في مغرب دار الاسلام على التخصيص ، الخلاء الذي يمتد من بلاد المغرب حتى بلاد النوبة (٤٨٥) . ويعثر على هذا الفراغ ذاته في سيناء وفي بعض أنحاء الجزيرة العليا (٤٨٦) في وسط دار الاسلام . ويبلغ الخلاء أقصى اتساعه في المشرق . فيغمر الخريطة من وادي نهر مهران إلى إقليم الجبال وآسية الوسطى . ويجتاحها أحياناً . ويبدو أن مفازة فارس الكبرى تترارى خلف المفاوز الصغيرة التي تتوزع هنا وهناك . وتشبه فلاة هائلة عاتية ، تتعدى على تخومها ، فتتوسع ، ثم تختفي لتظهر في مكان آخر ، يبعد عن حدودها (٤٨٧) . ويرتبط استعمال لفظ مفازة ، كما ورد في النصوص الجغرافية بمفهوم واحد يعبر في النهاية عن حياة لا استقرار فيها ، لكن من وجهة نظر مختلفة . فيمكن أن يشعر البشر بالخفاف الشديد في المفازة لاتساع رقعتها ، كما هي الحال في مفازة فارس الكبرى ، وهذا ما يلاحظه الباحث على وجه العموم في المشرق الذي تحاكي مفاوز فارس . بالفعل يشير الجغرافيون إلى قدار تتفق أوصافها مع ما هو معروف عنها على الأرض ، أعني مفاوز الجبال وخراسان وآسية الوسطى ، ومع

أوصاف مفازة فارس (٤٨٨) ، إذ ليس فيها ، مثلاً ، من منادير الحياة ، إلا ما ينشأ عن ذهاب القوافل وإيابها على طرقها المعهودة العريقة في القدم . لكن يجوز الانطلاق من نمط المفازة إياه والشعور باحساس متفاهم بالجفاف من خلال بلوغه حد غير مألوف . عندئذ ، يدل لفظ المفازة على انقطاع حاسم وشامل مع الحياة ، أي الحياة السابقة أو الهامشية (٤٨٩) . وبهذا المعنى بالذات . يتساءل المرء عن كثرة تكرار لفظ المفازة بالمفرد في الإشارة إلى مفازة فارس الكبرى ، ويدقق في ما قلناه من قبل (٤٩٠) . فكما قلنا ، تعبر « مفازة فارس » عن رقعة الأرض كاملة أو عن أحد أجزائها ، لكن لابد أن يشار في هذه الحالة الثانية إلى أن المقصود بدقة تامة ، هو إما الخلاء الجاف المطاق الذي يحيط بخان أو منهل ، أو حصن أو أي أثر حياة آخر ، واما الطريق القفر أيضاً ، الذي يفصل مرحلتين من تلك المراحل . اذن في النهاية ، تعبر المفازة دوماً عن القفر بالذات ، كما المعنا ، لكن لا من ناحية بقعته برمتها مع ما تحيط به من مظاهر الحياة ، بل من ناحية صفتها الاساسية ، نعي بالضبط الصحراوية ، بصرف النظر عن أماكن عودة مراكز الحياة إلى الظهور .

ونختم هذا البحث الطويل عن المفازة . بالقول ان الالفاظ التي تدل عليها (٤٩١) تؤول إلى قيام أربعة ضروب من التوزيع . التوزيع الأول كمي ، تتعارض فيه مساحة السواد الضيقة مع اتساع البادية والبرية والمفازة . والتوزيع الثاني جيولوجي : فالبرية تلح على الضخامة والتماسك شبه القاريين ، في حين تفيد الصحراء غياب الحزونة واستواء الأرض ، والبادية انخفاض التضريس الذي يتمثل في التلال في الحد الأقصى ، والمفازة في وجود السهول (٤٩٢) والجبال مترافقة فيها . والتوزيع

الثالث جغرافي : فلا أهمية فيما يبدو . لموضع الصحراء والبرية . إلا أن البادية ، في أصلها وبنيتها على ما يظن ، خاصة بجزيرة العرب ، وإن كانت تنتشر في جميع أنحاء دار الاسلام ، كما أن موقع المفازة محصور في المشرق في معظم الاحيان . والتوزيع الرابع والأخير مناخي واقتصادي : فالجفاف وتناقص السكان يتدرجان في الصحراء والبادية والبرية والمفازة ، ويتزايدان ، فيكونان خفيفين ، ثم بارزين ، فشديدين فبالغين الحد الأقصى .

وقلنا « تدرج » ، ولا نحصره في التوزيع الرابع دون سواه . فالواقع أن تداخل التوزيعات الأربعة ، أو على النقيض ، تفضيل المصنّف لأحدها ، عمداً أو عن غير قصد ، يعلن على الأرجح الحيرة الظاهرة في سياق النص ، أو جمع لفظين ليصحح أحدهما الآخر (٤٩٣) . لكن لأبأس بهذا الغموض الذي انتقل إلى الألفاظ أيضاً ، فهو دليل على التنوع في المفاوز وفي ادراكها ، وربما في استجابة البشر إلى تحديها الطبيعي : فمن يدري إذا كانت المفازة تقوم في جميع الاماكن ، ويدوم شمولها إذا سيطر البشر عليها أو سكنوها أو التفوا حولها أو اجتازوها ؟

أرياف دار الاسلام

ولا نتوقع أن يستوفي الحديث عن الجبال والمفاوز وصف طبيعة بلدان دار الاسلام ، وإن كانت أهميتها طاغية فيه . وترتبط مكانة الجبال العظيمة بنشوتها بمشيئة الله وبكثرتها ، ومكانة المفاوز الفريدة بالاهتمامات التجارية التي تفرض على البشر ان يعرفوا معرفة تامة موقعها وشكلها ومسالكها الصعبة الوعرة . ويدخل عنصر ثالث في تكوين الوسط ، نعني الريف ، الذي يستقل عن الجبال والمفاوز ويصحبهما أو

يعد جزءاً منهما أحياناً . والريف غني — أو يشار دوماً إلى غناه تقريباً —
وينظر إليه على وجه العموم من زاوية علاقته بالمدينة التي يغذيها (٤٩٤)،
ومن ناحية خضرته الداكنة البارزة في الأرض المحيطة بها :
« فالسراد (٤٩٥) هنا في المنطقة الخافتة ، سواد الزروع والتربة ، الذي
يستحوذ على ناظري المسافرين القادم من المفازة أو البادية ، وهو جزء
صغير من الواحة ، أو مساحة واسعة من أحد البلدان كالعراق ومصر
والصغد والأندلس (٤٩٦) .

ويثير تعظيم الخضرة والماء ، والجوع والعطش بعد التغلب عليهما ،
موضوع الجنة ، فيقال ان في الدنيا أربع جنات ، هي الصغد ، خاصة
حول سمرقند ، والغوطة أي واحة دمشق ، ومنطقة البصرة ، ووادي
شعب برآن الذي عرفناه من قبل (٤٩٧) . وتضاف أحياناً بعض البلدان
الأخرى إلى لوحة الشرف هذه : كالرقعة على الفرات ، والري قرب
طهران الحالية ، وجيرفت في كرمان ، وجاين في الأندلس ، وتسّر في
خوزستان ، التي عدت مع الأسف « جنة ترعاها الخنازير » ، وجبال
أرمينية واذربيجان التي « تلتف الأشجار والمياه » فيها ، ويكثر العسل
المصفى الذي وعد الله المتقين بأنهار منه في الجنة (٤٩٨) .

فلنسبح الباري تعالى ونحمده الذي خلق هذه الأشياء الرائعة .
وقد كتب ابن حوقل عن بردعة: « وكانت عندهم رأيتها كالمُشَمِّمةِ
حسنًا » (٤٩٩) . وقال المقدسي عن كورة سابور التزيهة في فارس :
« وترى الأنهار جارية ، والثمار دائية ، والقرى ممتدة تمشي الفراسخ
تحت ظل الأشجار » (٥٠٠) . ويتكرر أيضاً عند المقدسي موضوع
الحياة التي « تغيب » في الخضرة ، والفضياع التي تلتف بها الأشجار وتغيب

في البساتين (٥٠١) . وعند ابن حوقل صفحات طوال يطري فيها على رونق أرياف أو واحات الاندلس ، وصقلية ، أو مصر . أو الشام ، أو العراق ، أو فارس أو آسية الوسطى (٥٠٢) . نختار منها المقطع التالي الذي يحدثنا فيه بأسهاب واطناب عن اقليم ما وراء النهر ، ويشرح الاسباب العميقة لروعته (٥٠٣) : « ولم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بخارى ، لأنك اذا علوت قهندزها . لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأنما السماء مكبة (٥٠٤) زرقاء على بساط أخضر ، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتراس التبتية ، والحجف اللطية (٥٠٥) أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً بين أراضي ضياع مقومة بالاستواء (٥٠٦) ، مهندمة كوجه المرأة بغاية الهندسة . وليس بما وراء النهر من البلاد ولا غيرها من البلدان أحسن قياماً بالعمارة للضياع منهم ، مع كثرة متزهات في سعة المسافة وفسحة المساحة من أرضهم » .

أجل ، يندفع ابن حوقل ، ويوسع لوحته صعداً ، ويدخل فيها أنحاء بعيدة عن نطاق بخارى مثل صغد سمرقند ، وفرغانة ، وبلد طشقند ، ويقول : « لأن من حد بخارى على وادي السغد (٥٠٧) يميناً وشمالاً ضياعاً تتصل إلى حد البتم ، لا تنقطع خضرتها ، ولا تنصرف زهرتها ، ومقدارها في المسافة ثمانية أيام ، مشتبكة البساتين والخضرة والرياض والميادين (٥٠٨) ، قد حفت بالأنهار ، الدائم جريها والحياض في صدور (٥٠٩) رياضها وميادينها . فخضرة الأشجار والزرع ممتدة على جانبي وادياها ، ومن وراء الخضرة عن جانبي النهر . مزارعها ، وبحرسها من وراء المزارع مراعي سوائمها وقصورها . والقهندزات من كل مدينة وقرية منها تبصر في اضعاف خضرتها

كأنها ثوب ديباج أخضر قد سيّر بمجاري مياهها ، وزينت بترصيف قصورها . فهي أزكى بلاد الله » .

ولا يعثر القارئ على أثر لوصف الطبيعة الوحش عند الجغرافيين الذين تناولت أقوالهم ما سيطر عليه الانسان منها وما استصلحة . ولم يتحدثوا عن تنظيم الزروع ذاتها . وقسموا الوسط إلى ضياع حضر ، واقتصاد رعي ، وحياة مدينية . واتبعوا سنة جمع المدينة والريف على نمط واحد ، ليخلقوا توازناً ، تغذي فيه الأرض المدينة ، وتحمي المدينة الأرض . وتضمن وصفهم ظاهرة أخرى أيضاً : فهم يبرزون الماء دون عنصري الوسط الباقيين أي الهواء واليابسة ، ويلحون على إعادة ابرازه . ولا يشيرون إلى الهواء الا في حديثهم عن زرقة السماء التي يظن أنها دائمة . ولا يتكلمون عن الأرض التي تتراءى من خلال الحياة التي تهبها فقط ، وسنعود إلى هذه الصفة المذهلة لأول وهلة .

وقد شعروا بالحياة ذاتها شعوراً عاماً وقوياً ، مثلما شعروا في أماكن أخرى بالمفازة التي عدوها نقيض الريف فيما يبدو ، فعارضوا مساحة المفازة الفسيحة بمساحة الآفاق المزروعة ، والجفاف المطلق بالنبات الكثيف . ويدرك الباحث رأساً بلا أدنى ريب أن الحضرة قوام تصورهم وان لو أنها يرمز إلى اتساع النشاط البشري وكثافته معاً : وهاتان ميزتان هامتان جداً حتى ان ابن حوقل افرد لهما عرضاً خاصاً ، وكتب في المقطع السابق اياه الاسطر التالية التي أشرنا إليها من قبل في حديثنا عن الصحراء (٥١٠) : « وقد قال أبو عثمان الجاحظ ان غبرة المزارع في اضعاف خضرة النبات من الزينة ، غير ان الأرض الغبرة بالتربة المنتشرة متى عدت تقويمها من العمارة بالعيان سلبت بهجة النضرة ، وبزت

حلية الزينة ، وعدمت حلاوة البهجة ، وقعدت بالمتزهر عن اللذة .
ويشتمل ما وراء النهر من هذا الأمر على نصيب وافر وقسط زاخر .
ويحيط ببخارى وقراها ومزارعها سور قطره اثنا عشر فرسخاً في
مثلها (٥١١) ، كلها عامرة زاهرة ناضرة » .

اذن لا يتقبل الجغرافيون الحقل الكثيب الفقير بأرضه العارية ، إلا
منعزلاً وبجوار نبات حقيقي . ولا يأبهون له اذا امتد واتسع . ولا تبدو
الأرض الفسيحة نزهة ، إلا اذا فرشت بغطاء منتظم يضعه البشر عليها ،
ولا تبهج فيها إلا الخضرة التي لا تنقطع ، ولا « تنصرم » . وتشير الشعور
بالكثافة ، وتدفع المرء إلى رفض الأرض الغبرة . التي كاد يراها
جميلة (٥١٢) متأثراً باللاحظ . ونعود مرة أخرى إلى ابن حوقل
لنستعرض مقطعاً آخر من كتابه ؛ « وذلك لهم (يقصد أهل بخارى)
دون غيرهم ، لأن المشار إليه من متزهات الأرض سغد سمرقند ،
ونهر الابلّة (٥١٣) ، وغوطة دمشق . على أن سابور وجور فارس
لا تقصران عن غوطة دمشق ، لأنك اذا كنت بدمشق ترى بعينيك على
فرسخ أو أقل جبالاتاً فراغاً قرعاً من النبات والشجر وأمكنة خالية من
العمارة . وأكمل النزهة ما ملأ البصر ، وسد الأفق ، وتناهى في الطيب .
وليس بنهر الابلّة ولا بنواحيه مكان يستوقف النظر على نحو فرسخ ،
وليس فيه مكان عال ، فيدرك النظر أكثر من فرسخ ، ولا
يستوي المكان المستتر الذي لا يرى منه مقدار ما يرى من مكان ليس
بمستتر في النزهة ، ومكان يستوقف البصر منه سعة في العيان وسفر في
المنظر ، ولذة واصلة إلى النفس (٥١٤) . وسغد سمرقند فلا نعرف به
مكاناً وبلدة اذا علا الناظر قهندزها وقع بصره على جبال خالية من

الشجر أو صحراء غبراء . وذلك ان مزارعهم محفوفة بالشجر مشحونة بالخضر » .

وبذا تتضح شروط التنعم في الريف وتتجمع . ويقصر النموذجان الزائنان في دمشق وسواد العراق في تركيبهما وفي امكان ادراكهما حسيّاً ، لأن الحضرة تبدو تارة واسعة في العيان وضيقة في المنظر ، وطوراً يسدها الافق فلا ترى كلها . بالتالي ، لا تكتمل اللوحة إلا اذا كانت تامة فعلاً ، وتسنى استيعاب حقيقتها . ولا تصبح الطبيعة نزهة إلا اذا تولى الانسان تحويلها إلى ريف ، ولا يجمّل الريف إلا اذا أحده المرء بعينه ، وجعل منه منظراً . ولنتوقف لحظة مع أحد الجغرافيين . أحد الجغرافيين أو أحد القواد ؟ لنتحاش التورية ، ونكتف بالوضع عند ابن حوقل : فالناظر يعلو قهنتلز سمرقند ، ويقع بصره عليها كلها ، مثلما يفعل في المصورات التقليدية قائد المعركة الذي يشرف على مسرح العمليات الحربية . وتقف المقارنة عند هذا الحد . ويرى سترابون على الاقل (٥١٥) ان اعتماد القائد أو الجغرافي على السمع في عماهما يفوق اعتمادهما على الرؤية ، ولهما في السماع تدبير ، يركز على تجميع المعلومات عن تركيب تصور منتظم من قطع متفرقة . خلافاً لذلك ، يستند ابن حوقل ويحلّو حلّوه جغرافيو نمط المسالك والممالك ، في اخباره وعلمه على العيان والمباشرة والمباشرة والشخصية . ويذهب إلى أبعد من العيان ، فيجيز لنفسه ، لأنه رحالة ، ان يحول هذا النهج الاخباري إلى متعة ، كما هي الحال هنا .

اذن تضم عناصر الحكم شعور الناظر وحتى متعته ، وواقع المشهد المعاین . وما دام الحال على هذا المنوال فان الريف الكامل يوفق بين

أشياء استعصى التوفيق بينها . فيشترط أن تكون خضرته ممتدة على نطاق واسع ، وخالية من الانقطاع مهما صغر . ومن البقاع الغبراء التي « تصرمها » مهما تضاعلت . ولا بد أن تسد الخضرة الافق الا متناهي ، وتغطي مستواة من الأرض أو منبسطة منها يكاد لا يتموج ، لئلا تستوقف النظر جبال خالية من الشجر . ويجب أيضاً أن ينتصب في وسطها مكان عال يرتقيه المراقب ليماً بصره برؤية البساط الأخضر بأجمعه . وتعج هذه الخضرة بالحياة ، ويقوم فيها القهnlز مقام الجبل المحطور وجوده ، ويعد متناً صنعه البشر ، ووفقوا بينه وبين الحياة التي بعثوها في الطبيعة الوحش ، بحقولهم وأشجارهم وبيوتهم . والقهnlز منظره تسمح للناظر أن يتأمل في أعمال البشر في الريف الذي لا ينفصل عن البصر المحقق به ، ولا يعكس تأثير البشر في الأرض فحسب ، لأن وصفه بالذات ينطوي على وجودهم في نشاط الحقول . ويعجب الكاتب لرؤية ذلك المنظر الشامل تحت السماء الزرقاء من أعلى القهnlز ، وينقل اعجابه إلى قرائه ، فيحبس الطبيعة وكائناتها في صفحات كتاب لم يكن يسعه لولاه أن يتميز بانسانية عظيمة (٥١٦) تتسامى إلى مستوى الكمال ولا تخلو من البساطة .

وتندلر في النهاية الاشارة إلى الأرض في الحديث عن الريف ، لوجود البشر في أوساطها المستصلحة أو الموصوفة . ويتناسب جمال الأرض مع جهود الانسان لقرشها بالخضرة . ويبدو ظهور متونها الغبراء شراً لا بد منه . فلا يستغر أن تتوارى الأرض في الريف تحت ثرواتها . ويعد قارئ النصوص الجغرافية قادراً جداً ، اذا استطاع أن يحدد نوع الصخور في المزارع الخصبة جسداً ، او اذا تمكن أن يعبر عن توالي الزروع والأرض الوحش بتناوب غير تناوب الخضرة والغبرة . ولا

ينكر أحد أن الجغرافيين العرب يميزون ، كما سوف يأتي فيما بعد .
شئ الترب بألوانها وخصائصها ، انما ليس في الريف الذي يهمننا هنا (٥١٧)
فماذا نرى في هذا الاطار بالذات؟ نرى ترباً توصف بابهام شديد
أنها جيدة أو أفضل تربة في الاقاليم أو عجيبه (٥١٨) . مع ذلك تغيب
أحياناً اما في التسمية العامة « الاماكن النزهة » (٥١٩) ، أو في نطاق
يلعب فيه الهواء والماء دورهما (٥٢٠) . وفيما عدا ذلك ، تدون درجة
خصب التربة . والتربة « الصحيحة » فيذكر جفاف الأرض أو رطوبتها
أو قساوتها أو ملوحتها (٥٢١) . لكن لا يقال شيء عن صخر الأرض
ولا عن لونها .

وتُعد مصر مثلاً نموذجياً على هذا الوصف . فابن حوقل والمقدسي
ينطلقان على سجيتهما في وصف ريف مصر الوافر الخصب ، الذي
يبلغ عرض العمارة بجنبيه من حد اسوان ما بين نصف مرحلة إلى يوم
حتى ينتهي إلى القسوط ، ثم تعرض العمارة على وجه الأرض ، فيصير
عرضها من حد الاسكندرية إلى الحوف الذي يتصل بعمارة القلزم نحو
ثمانية أيام وأكثر : وهذه الصورة أخاذة وجذابة إلى حد كبير حتى ان
التاريخ القديم يبالغ فيها ، ويمدّ العمارة في مخيلة المؤرخين ، ويوصل
النيل إلى الفيوم والواحات (٥٢٢) . ويتصور البعض ان مصر لو عمرت
كلها لوفت بأعمال الدنيا ، وتحتاج إلى ثمانية وعشرين ألف فدان ،
ولنما يعمر منها ألفا ألف فدان (٥٢٣) . ونحن نعرف هذه الثروة ،
ونعلم من أين تأتي : فمصر معولة على النيل ، على حد قول
المقدسي (٥٢٤) ، أي على الماء . وسواء أراد المصنف أن يتحدث عن
نظام الري بالفيضان ، أو عن نظام استيفاء الخراج (٥٢٥) فهو يشير على

الدوام إلى الماء الذي يهيمن في سياق النص هيمنته في المشهد الطبيعي . لكنه لا يقول كلمة واحدة عن طمي النيل ، بل يذكر تراكباً تسد به ترعة قبل زيادته ، فإذا أقبل الماء رده السد وعلا الماء على الجرف ، وعكس مياه الشرب (٥٢٦) . ولا يتم الحوار بين الأرض والماء (٥٢٧) في وادي النيل ولا في وادي مهران (٥٢٨) الذي يقارن به عادة ، بل بين الخضرة والماء من جهة أولى وبين المفازة من جهة ثانية (٥٢٩) على طول مشهد أعرض جداً ، يشمل جميع وادي النيل الخصب . وحتى هنا ، في هذه البلاد ، بتقاليد ذات المواضيع الواغلة في التقدم ، تختفي التربة وراء الخصب ، ويحجب النبات ، بفضل الماء ، علة حياته . مرة أخرى ، تحلو الأرض في زينتها التي تدل على نعم الله : ففي السجع الملقى الشائع في العربية تجري الأمور كما لو أن الإشارة إلى العامر من الأرض تلصق التربة في بنيتها بالذات (٥٣٠) ، وكما لو أن ذكر الخصب بدقة يحيل ، تلقائياً تقريباً ، إلى الغامر من الأرض .

بداية أبحاث جيولوجية

يتضح من هذه الظروف استحالة القول بوجود أبحاث جيولوجية حقيقية عند الجغرافيين . فماذا يصبح العلم الذي لا يولي الأرض اهتماماً ، ما دامت تفيد وتقوم بدور الأم المغذية ؟ وقد يتغاضى أبناء الأرض العاقون عنها ، ويهتمون بشرواتها ، لكنهم لن يستطيعوا عندئذ أن يتطلعوا إلى معرفة واقعها . وتبدو هذه الظاهرة غريبة ، إذ إن بعض المقاطع تبعث على شيء من التفاؤل . فالمسعودي يعلن مثلاً (٥٣١) أن الأرض من أربعة جواهر : الرمل ، والطين ، والاحجار ، والاملاح . لكنه يطرح مبدأ عاماً جداً ، ينص عليه ، في نطاق وصف الأرض الشامل ،

لا في وصف اراضي دار الاسلام محصاة ومحددة المواضع . ويتوقع
المرء قبلياً من المقدسي ما يزيد عن الوصف . لأنه يتمسك بالعيان ، ويحصر
اهتمامه بدار الاسلام وحدها : فهو يؤكد في مقدمة كتابه أحسن التقاسيم
انه ينفرد بذكر « السباخ والصلاب والرمال . والتلال والسهول والجبال ،
والخاووير والسماق . والسمين منها والرقاق » (٥٣٢) . ثم يلي مباشرة
هذه الوعود الخلابة ، ذكر « معادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق
والجذب » . فهيهات ، كما نرى . أن تكون هذه الجيولوجية كاملة ،
أو خالية من قصد الافادة : فالكاتب يفكر مرة أخرى في استثمار
الأرض ، عندما يعرض تصنيفه الموجز .

لكننا نتغاضى عن النيات . فقد يردّ علينا ويقال بأن معرفة التربة ،
ومعرفة طاقتها الانتاجية ترتبطان فعلاً ارتباطاً وثيقاً . وان الغايات
المحددة للعلم لا تضيرد بالضرورة . بل على النقيض ، تدفعه لأن يجد
فيها حجة فورية لاجراء بحث رصين . فما هو الوضع اذن على ضوء
النصوص ، لا في أقاويل المصنفين ؟ وكيف يفسر وجود تدوين دقيق عن
التربة وتركيبها ومظهرها ، اذا ما ورد ؟ نحن نلاحظ أولاً توفر
مجموعة من التدوينات العائدة إلى أراضي عالية التخصص . أقصد بكلامي
اولاً تركيبها بالذات ، اذ لا تشمل نوعاً عاماً . كالكلس أو الطين أو
الرمل . بل نوعاً محدداً جيداً : كالحجارة الكريمة ، والمعادن ، والملح
الطبيعي أو الفلزات أو صخور أخرى معينة بدقة . ثم أقصد الأراضي
المتخصصة من ناحية الافادة منها ، لأنها تتكون من جميع الأراضي
التي لا تزرع ، بالتالي التي لا تصلح إلا للاستعمالات الصناعية أو الحرفية
أو حاجات الزينة . أخيراً متخصصة أيضاً لجهة وجودها في الجبال (٥٣٣)
على نطاق واسع ، مثلما قلنا سابقاً .

فيما عدا ذلك ، يغلب جداً ذكر الطين والرمل والملح في المشهد .
ولعل اللفظ الأول ، أي الطين ، ورد هنا لأنه يلمح إلى المادة التي جبل
منها الانسان (٥٣٥) . في جميع الأحوال ، يشير المقدسي إلى ذلك
صراحة مرة واحدة في الحد الأدنى (٥٣٦) . وينتشر اللفظ الثاني ،
أي الرمل ، في المفاوز ، وهو العنصر الغالب في مناطق كاملة ، كما
قلنا ، يتجمع فيها ، ويضاهي تكتله تكتل الجبال أحياناً . وقد يؤلف
دهساً ، أو تذروه الرياح (٥٣٧) . أخيراً ، يتوضع الملح في جوف الأرض
ذاته أو على سطحها . فيشكل جبالاتاً كاملة ، هنا أيضاً ، أو يتوزع على
مساحات واسعة (سبخة ، جمعها سباح) . فيصير رمز القحط
الشامل (٥٣٨) . فيما عدا هذه الصخور الثلاثة الأساسية ، يعثر في النادر
على الكلس والجص والرخام والنسفة (٥٣٩) والسحمة ، والحوارة عند
المقدسي (٥٤٠) . وتشكل الأراضي الحميرية في باكو وفارس « عيون
قار » ، وفي خوزستان « معادن النفط والقار » ، وتشرف الدولة (٥٤١)
أشرفاً دقيقتاً جداً عليها كلها . أخيراً يذكر الصخر او الحجارة
والحصباء (٥٤٢) .

ونعترف أن حصادنا زهيد . فهل نحظى بما هو أفضل اذا اعتمدنا
اللون أو الصلابة أو الشكل ؟ لقد ثبت أن مثل هذا الاحصاء ممل في
الواقع وناقص ولا يمت إلى الموضوع بصله . بالفعل يكاد المرء يظن
أن التلويينات ترد صدفة ، ولا تتركز البتة على مبدأ تصنيف . والسبب
بسيط : فورودها كورود التلويينات المتعلقة بالأراضي ، يرتبط بثوابت
لا علاقة لها بالجيولوجية ، أتت شليرات متقطعة ، تزعم أنها ترتبط
بتصنيف جيولوجي .

فأولاً : ينظر إلى الأرض من زاوية علاقتها بإحدى المدن . مثلاً
أرض الدامغان في الديلم محصنة . وهي مالحة في البصرة في العراق
وفي الفرما والعريش في مصر ، وكلها سباح في الأهواز في خوزستان
والملتان في السند . وتغطي السباح والرمال مدينة زرنج عاصمة سيجستان-
والمدينة في حرة سبخة . وأرض مرو (٥٤٣) سبخة كثيرة الرمال .
وأرض برقة حمراء خلوقية التربة . وثياب أهلها ألبداً محمرة . ويعرفون
في الفسطاط بحمرة ثيابهم وتغبرهم (٥٤٤) . وعلى صيحة من الفسطاط
موضع يسمى القرافة ، ترى فيها البلد غبراء والمقابر بيضاء . وقد
شابهت نموجكث قسبة بخارى الفسطاط في سواد الطين (٥٤٥) .
وتوحي الاستعمالات الحرفية ، خاصة في البناء ، بكتابة تدوينات
أخرى . منها ، مواد القار ، وطين فارس الأبيض الذي يكتب به
الصبيان الواحهم ، وطينها الاسود للختم ومواد الدوى ، والحوار الذي
يستخدم هنا وهناك لتبييض السقوف والحمامات ، ورخام البناء وكلسه ،
وجص كنيس اليهود خارج حلوان في العراق وحجارته ، والسمة
الحمراء الرخوة في اقليم الشام ، والحجارة السوداء الصلبة في أسوار آمد
في اقليم الجزيرة ، والحجارة الغليظة السوداء وقيل لا بل حجارة رخوة
تضرب إلى البياض في مباني البصرة ، والحجر الاسود في إحدى أقبية
المقازة أو في مسجد شهرستان قسبة سابور ، والحجر المخوخ في قنطرة
سنجة الشهيرة في اقليم اقور (الجزيرة) (٥٤٦) ، والطين كمادة شائعة
في البناء ، الغليظ أو العلك الشديد المقاومة (٥٤٧) . ونحن نسلم بأن
هذه التدوينات لا تتعلق بالجيولوجية ، بل بتطبيقاتها . لذلك يقتضي أن
تبحث في مجلد مستقل جديد هي وأنشطة البشر ، ونكتفي الآن بأن نلاحظ
أن الأرض تتوارى ، هنا أيضاً ، خلف محاصيلها أو استعمالاتها ، ويقل

تواربها عما هو عليه في الريف فعلاً ، لأن المادة التي تتألف منها مذكورة باسمها وموصوفة أحياناً ، إلا أن الذهنية واحدة : فالإنسان سبب وغاية كل نظرة إلى الأرض .

ونكرر تعليقاتنا ذاتها فيما يختص بالممارسات الطبية أو الغذائية . فالأحجار التي تخرج من البحيرة المنتنة ، ويعرف الواحد منها بالحجر اليهودي ، يستشفى بعرقها ، ويستعمله أهل الطب لتفتيت الحصى المتولد في الكلي أو المثانة . والمدر ، أو أي طين الأكل ، الأبيض أو الأخضر ، المرغوب فيه بلا ريب ، اذ إنه يحمل إلى مصر والترك . والملح الذي يصدر هو أيضاً ، ويؤخذ من جبال بناحية دارابجر ، أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر أو أخضر أو من الألوان المتفرعة عنها ، أو يؤخذ من الملاحات الطبيعية (٥٤٨) . وتذكر أحياناً عجائب عن الطين أو نواحر تاريخية أو طبيعية أو سحرية . من ذلك حجر يوّلد النار ، أو يطفو فوق الماء ، أو يسبح في الخل كأنه سمكة ، أو حجارة كل من تناول منها حجراً وحركه فكأنما حرك مقلّة نواتها في جوفها ، أو الخرزة التي تجعل في حقو المرأة لثلا تحبل ، والحجر الذي يوضع على حرف التنور فيسقط خبز التنور كله ، أو الحجارة السوداء المتقاربة في الكبر في ديار قوم لوط ، وعلى جميع تلك الحجارة كالطابع من وجهيها ، وهي الحجارة المسومة التي رمى بها قوم لوط . كذلك مساحات شاسعة من الرمل ، « فيها أشياء عجيبة » ، أو أرض القيامة البيضاء (٥٤٩) في موضع الساهرة في بيت المقدس . ولنقف هنا : فقد مزّقت التربة ، وجزأت ، وكاد أصلها ينسى ، ولم تعد سوى شيء تابع من أشياء كثيرة في عبر العجائب الكبير ، الذي سوف نفتحه فيما بعد في حديثنا عن البشر أصحابه .

أخيراً تصبح الأرض سمة أحد الممالك ، ومعلما يشار إليه ليتأكد
المسافر من طريقه عندما يجتاز الصحراء بالدرجة الأولى طبعاً . وأشكال
هذه الصخور أو الحجارة غريبة ، تشبه اللوز ، أو التفاح أو الاجاص ،
أو الأشجار ، أو أطياناً بشرية ، أو حتى ثديي امرأة ، ولونها أحمر أو
أسود أو أصفر في الجبال والمعارض ، أو رمال متجمعة دهسة ، أو على
التقيض تصلح للتفتيش عن المياه ، ومنها الرمل الأصفر والأحمر القانيء
والأزرق السماوي ، والأسود الحالك ، والأكحل المشبع كالنيل ،
والأبيض كالثلج . وبعضه يحكي الغبار نعمة ، وبعضه خشن ، جريش
اللمس أحرش ، بألوان الرمل السوداء أو البيضاء أو الخضراء بلا نقصان
مثلما يشاهد في التصوية (٥٥٠) . لكن لم تعد الأرض معروضة لنا ، بل
طريق بوسيه الصغير .

وتؤيد رؤية الأرض . في الريف أو سواه ، اذا اقتضى الأمر ، ما
أصبح كلاماً معاداً في دراستنا ، نعني أن هذه الجغرافية بشرية بالدرجة
الأولى ، صنعها البشر أنفسهم لأنفسهم ، وانها لا تتناول الوسط الطبيعي ،
عندما تبحته . إلا من خلال ما نخصصه له من أوجه استثمار ، في حرصنا
على تأمين غذائنا ، ومسكننا ، ولباسنا ، والعناية بأنفسنا ، وزيتنا ،
واتجاهنا وحتى تسليتنا . وربما قيل بأن ذلك ينصب على تركيب الأرض
أو على بنيتها أو شكل صخورها . لكن ماذا يحدث لو انتقلنا إلى معطيات
أعم ، مثل أشكال المشاهد هذه المرة ؟ فقد سبق واستعرضنا أوسع هذه
المشاهد ، نعني الجبال والسهول ، والمفاوز والأرياف ، ورأينا مدى
اعمار الانسان لها ووجود الله فيها . بقي ان نستعرض حيزاً متوسطاً يقع
بين هذه الأشكال الرئيسة وبين تفاصيل تضاريس الأرض : فمن يدري
أن الجيولوجية مستبعدة تماماً عنه ؟

والجواب واضح : يعيب التدوينات هنا عجزها عن تكوين علم مستقل ومتكامل معاً ، أو ، وهذا أصح . ان هذه النواحي خارجة عن موضوع لها . وفي جميع الاحوال ، لا يمكن . لا هنا ولا في دراسة التربة بالمعنى الضيق . وضع احصاء شامل ودقيق . على مستوى الجيولوجية . والنسب الأول النقص في استقلال البحث ، لأن دراسة هيئة الأماكن وتضاريسها لا تحيل أحياناً إلى المجموعات ، بل إلى وحدات جغرافية لها أسماء اعلام ، فتتلاشى الطوبوغرافية ما وراء تعدادها . فتعريف سرة (جمعها سروات) الجبل وغيرها ، يعدّ في الواقع موضوعاً أدبياً ، يرتبط بالمعارف التقليدية عن جزيرة العرب . أو يقصد به على العموم الظهرة الساحلية في الحجاز واليمن . أو كل جزء من أجزاء هذه السلسلة ، الذي يسمى باسم القبيلة أو المدينة التابع لها (٥٥١) . ونجد ، التي نؤديها بهضبة في اللغة الفرنسية ، لا تنسنا أبداً أنها منطقة في جزيرة العرب أولاً . ويذكر ابن حوقل الأراضي العالية في اذربيجان مثلاً ، فيتحدث عن الجبال والمنخفضات والسهول دون الهضاب (٥٥٢) . . . والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً وبه . . . عيون وأنهار (٥٥٣) وهو بالدرجة الأولى انهدام البحيرة المنتنة الكبير . ويستعمل مفرداً أو جمعاً (غور واغوار) ليدل على الأودية العميقة في هذه الشبكة المائية ، وقد أصبح علماً من اعلام المناطق في اقليم الشام (٥٥٤) . ويرى المسعودي أن قسماً من الجبل تحت البحر يسمى في البحر الرومي سفالة ، فيمكن بالتالي اطلاق هذه التسمية على السلاسل الجبلية المغمورة بالبحر والواقعة بين جزيرة العرب ومكران ، أو بين قبرص والأناضول . إلا أن هذا الاسم يشعر بوجود سفالتين أشهر من الأولى ، وهما مدينتان متقابلتان في افريقية الشرقية والهند (٥٥٥) . ويرجح أن البطيحة (جمعها بطائح)

تدل عامة على أرض واسعة برمائية ، إلا أن الجغرافيين يعنون بها
أولا بطيحة سواد العراق ، واليها يحيلون عندما يذكرون مناطق أخرى
من هذا النوع (٥٥٦) .

وفي التدوينات نقص آخر ، اذ لا تنظر رؤية المشهد إلى أرض مستقلة ،
بل مقترنة بالعناصر الثلاثة الأخرى ، أي الهواء والنار ، كما في حالة
السراة (٥٥٧) وخاصة الماء . وينطبق هذا القول على لفظي سفالة وبطيحة
وعلى ألفاظ أخرى كثيرة نشير منها إلى ألفاظ معروفة مشتقة من جذر
شعب . وقد ذكرناها من قبل (٥٥٨) على أنها ألفاظ خاصة بالجبل ،
ويمكن أن تحيل « مشتقاتها » إلى التضاريس الشاهقة أو المقعرة : سلاسل
أو أودية ، عميقة في أغلب الأحيان . لكن يظهر عنصر الماء بقوة من
سهل متيجة إلى نهر جيحون : أي ماء أذرع أحد الأنهار والأقنية المتفرعة
منه (٥٥٩) ، أو على النقيض ، ماء أنهار تتراقد (٥٦٠) أو أيضاً أقنية
مسحوبة من إحدى البحيرات (٥٦١) . في النهاية ، يبدو أن جذر شعب ،
شأنه شأن مدلوله ، يعني تفرعات المسلك ، ومتاهات السوق ، وتقطع
حلود أحد البلدان (٥٦٢) .

وتمزج الطبوغرافية الانسان والمشهد مزجاً متشابكاً في حالات
أخرى ، وكنا قد لحظنا وجوده في بحث المياه المسيطر عليها بالأقنية.
ولكن سواء وجد الماء أو لم يوجد ، فالمقدسي يستعمل جذر « رجب »
الذي يدل على مكان واسع ، أو الاصح ، سالك وسهل . ويقصد به
هنا تارة أرضاً فسيحة جداً ، كالتي يدل عليها اقليم الرحاب ، ويضم
ايران واذريبيجان وارمينية ، وطوراً الأراضي المحيطة باحدى المدن ،
واحياناً فناء الدار أو ساحة المسجد . في جميع الأحوال ، يشعر الباحث

دوماً ان وراء استعمال هذه الالفاظ ، ان الانسان اضاف سهولة الحياة الى اتساع الوسط الطبيعي وأن الطريق بين الواسع والسعة ليست طويلة (٥٦٣). ويندرج لفظ بقعة في نطاق ذهنية مماثلة ، اذا أخذ بأدق معانيه (٥٦٤) ، لكنه بالغ التنوع مثل لفظ «باغوس» القديم عند الفرنسيين . فنحن هنا أمام « بلد » تعين حدوده الجغرافية بدقة ، خاصة في بطون الأرض ، بالنسبة إلى الجبل المجاور ، ويمتد أحياناً على مسيرة يوم أو يومين ، وهو فائق الخصب (٥٦٥) . ويعتد هذا المشهد النموذجي جداً ، مشهد الجزيرة أيضاً : لا الجزيرة المائية ، على الأقل ليس دوماً ، بل الأرض المعزولة تماماً أولاً بالبحر ، كما في جزيرة العرب ، أو الواقعة بين نهري - مثل الجزيرة الأخرى ، أي اقليم الجزيرة ، أو في انعطاف أحد الأنهار مثل جزيرة ابن عمرو على نهر دجلة (٥٦٦) ، أو أخيراً بالمفازة كما في قول ابن حوقل « جزيرة اوجلة » و « جزيرة ودان » في شمال صحراء ليبيا ، ليدل على ما نسميه نحن واحة اوجلة وواحة ودان (٥٦٧) .

ويظن أحياناً أن الألفاظ غنية جداً بالنسبة إلى المفهوم . ولا شك أن الألفاظ المترادفة تماماً غير موجودة لا في اللغة العربية ولا في سواها . مع ذلك لا بد أن نسلم أن النصوص الجغرافية لا تسمح في الغالب بتحديد الفرق بين المترادفين . فالبطيحة في السهول المرزغية مثلاً ، محدودة الاتساع جغرافياً كما رأينا . فماذا نقول عن الغبضة التي يقترب معناها صراحة من معنى البطيحة (٥٦٨) وعن المرج الذي تؤديه بالفرنسية في أغلب الاحيان « بمرعى » (٥٦٩) أو لنقل بسهل غني بالماء كالمتيجة (٥٧٠) وعن غمر ، أي أرض « غارقة » في الماء ، وعن نز أي أرض يتحلب منها الماء (٥٧١) ؟ وفي الاقسام الشاهقة من الجبال ، كيف نميز الظهرة والسرقة في جزيرة العرب - ان لم يعتمد تفريقنا مرة أخرى على أسماء

العلم - وبين « سنام » إحدى الكتل الجبلية الأخرى (٥٧٢) ؟ أخيراً .
لكي ننهي هذه الأمثلة ، ما هو التعريف الحقيقي لتعبير الأرض بين
الألفاظ الكثيرة المعروضة علينا : أهو بطن ، أي المنخفض عامة بأحجامه
المتبدلة إلى أقصى حد (٥٧٣) . أم العمق الذي يعد مرجاً محاطاً
بالجبال (٥٧٤) ، أم دارة وبحرة ، أي كل أرض اتسعت فأحاطت بها
الجبال في غلظ أو سهولة (٥٧٥) أم وحدة التي تلح فيما يبدو على
وضوح المنخفض (٥٧٦) أو أخيراً الوعر في نطاق جبلي باذخ (٥٧٧) .

قلنا إن الألفاظ اللغوية وافرة جداً . على النقيض ، لدينا لفظ واحد
في الحد الأدنى وهو من أهم الألفاظ ، لكنه لا يدل دوماً بدقة فيما
يظهر على واقع . فالسفح أسفل الجبل ، إلا أن النصوص الجغرافية
لا تسمح دوماً أن نعرف ، خاصة إذا تعلق الأمر بموقع إحدى المدن ،
إذا كان الجبل يبدأ بالسفح أم ينتهي به ، إذا كان المقصود المنحدرات
الأولى أو على النقيض ، الأرض المجاورة ، أو السهلة التي تشرف
عليها (٥٧٨) . ونترك سبب صعوبة التدقيق الذي لا يترخاه الجغرافيون
أصلاً . وسواء تحدثنا عن المنحدرات الأولى أم لا ، فالأمر يتعلق دوماً
بسعة الجبل ، وبتبعيته (٥٧٩) ، ونعرف مكانه لكي لا نعجب في هذه
الحالة لهذه الأمثلة الجغرافية .

بقي أن نستعرض لفظ « الوادي » في لائحة الألفاظ الدالة على
أشكال تضاريس متوسطة . لكن لا بد من تحديد الوادي المقصود .
ففكرة المنخفض البسيط تفرض نفسها في حالات كثيرة ، ويغلب في
الحقيقة المنخفض الفسيح ، المتطاوّل ، مثلما يستخلص من إطلاق هذا
الاسم على وادي القرى ووادي تهامة في جزيرة العرب ، وعلى الانهدام

الكبير لنهر الأردن والبحيرة المنتنة ، وعلى منطقة وادي دراعة في المغرب الأقصى . وقد أوضحنا من قبل الفرق بين الوادي والشعب الذي يحتمل ألا يكون سوى تضيق محلي في « واد » يذكر ذكراً عابراً أنه يتميز بتسهيل طرق المواصلات (٥٨٠) . وماذا عن الماء ؟ ليس وجوده حتماً ، ويشار هنا وهناك إلى واد يابس وقاس (٥٨١) . وإذا مُطِرَ الوادي قليلاً ، صار في الجغرافية مسيلاً لفترة هطل المطر (٥٨٢) التي تكفي في جميع الأحوال لتنفذ في الأرض ، وتغذي الآبار والعيون وتسقي الزروع (٥٨٣) . أخيراً نجد أنفسنا أمام ترافق الوادي والمياه الجارية : فعلى الحد ، يبدو الوادي أحياناً وكأنه مجرى الماء بالذات (٥٨٤) . في الواقع ، لا ينسب أبداً معنى الوادي الأول ، أي كونه أحد أشكال الأرض : فصيح « وادي تجتمع فيه المياه » و « وادي عميق يجري فيه نهران » ، تذكرنا . بوضوح (٥٨٥) بأن الوادي يظل إطاراً طبيعياً ، حتى عندما يجري الماء فيه ، ويبقى فاعل الحركة الوادي نفسه في الصيغة النحوية . وينبغي أن نقول في الترجمة الحرفية لا « نهر يجري » بل « وادي يجري بين الجنان » و « وادي لا يجري إلا بالأمطار » ، و « وادي يجري مالخاً » وأخيراً « وادي جرار » ، إلى جانب « نهر جرار » (٥٨٦) ، وهو تعبير متوقع استعماله اندر .

خلاصة القول ان سمات الوادي تتوضح على ضوء الفروق التي تميزه عن أشكال المشاهد الطبيعية الأخرى من ناحيتين . ففيما يختص بالتضريس ، لا يرتبط الوادي حتماً بالإطار الجبلي مثل الشعب . ويستمد تعريفه من شكله بالذات أي من امتداد لا يعني اختناقاً ، خلافاً للشعب هنا أيضاً . ولا يرتبط الوادي حتماً بالماء . فإذا كان الماء الراكد لا يتفق مع تعريفه ، ويعزله عن كل ما يمكن أن يشبه المستنقع (٥٨٨) فالمياه

الدائمة على النقيض ، وحتى المياه المتواترة ، ليست ضرورية لتعريفه الذي يمكن حصره في النهاية ، من هذه الزاوية ، في المياه الجارية ، شريطة أن يقال بأن هذه المياه قد تكون وقتية ، وحتى استثنائية ومحتملة الوجود . وإذا كان لابد من إيجاد صيغة لكل قوة ، فالوادي تضريس تلقى جريان منورق .

ولعل الوادي وحده من بين جميع المشاهد التي عدناها . يبرز بروزاً كافياً ، يجعله تضريساً حقيقياً إلى جانب الجبل والصحراء والريف . مع ذلك يجب أن نلاحظ أن مفهوم التضريس في رأي عالم الجيولوجية ، تعرض إلى « تمويه » عظيم قام به لا الماء عامل الحث ، بل الماء الذي يحتل أن يدعم المزروعات والحياة . وقد رأينا أصلاً أن الريف ، وهو شكل من السهول تستثمره البشر ، يقتضي من الباحث إجراء تحفظات مماثلة . كذلك المفازة بخلفيات أفكار الأعمار والمواصلات التي تكاد لا تخفي وراء الإشارة إليها . كذلك أخيراً الجبل ذاته متى تسنت الاستعاضة عن وصف أشكاله بوصف البشر المستفيدين من موارده . اذن في الختام ، لا يسعنا أن نتحدث الا عن بداية جيولوجية ، ونقول إنها لم تنشأ عن رؤية ضيقة ، بل عن نظرة واسعة جداً ارتبطت بغنى الألفاظ اللغوية ، أو في أغلب الأحيان بأهداف بشرية تجاوزت الجيولوجية وجرفت في دوامة أفق عريض يجول فيه نظر يتوق لمشاهدة الحياة .

حياة الأرض

تساءلنا في مكان آخر عن حياة الأرض وشبابها وموتها وبعثها (٥٨٨) والواقع أن فكرة عظيمة هيمنت على عالم العام ألف ، نفت وجود انقطاع في شتى ممالك الطبيعة ، وأكدت أن الحياة ليست وقفاً على النبات

والحيوان (٥٨٩) . فالأرض تنبت الذهب (٥٩٠) مثلاً . وكذلك المعادن ، وزايلتها أول الشهر في جواهرها وحسن بصيصها وصفائها (٥٩١) . ولم تفتأ الأرض تتغير منذ نشأت . ونرى أنها حية لأنها تكونت في زمن معين . ويذكر الجاحظ في كتاب الحيوان (٥٩٢) ان الصخور كانت لينة في أرض آدم الحديثة ، واثرت فيها أقدام الناس في ذلك الزمان . وي طرح الجاحظ اياه في كتاب التربيع والتدوير (٥٩٣) الاسئلة التي تدور في أذهان أصحاب الفضول العلمي . فهل كانت جميع الأشياء لينة في البدء ؟ ومن أين أتت الجبال والمياه والأودية وما هو ترتيب ظهورها ؟ وفي أي بحر تشكل الطين الذي نراه في أماكن شتى ، في الوهاد وعلى رؤوس الجبال ؟

ولا يعد هذا التساؤل شكلياً محضاً . فقد كرّره الجغرافية العربية في أبحاث أخرى ، في حديثها عن عالمها الخاص ، في نطاق مميز وفريد هو نطاق مملكة الاسلام . وهذا ما ذهب اليه ابن الفقيه في مقطعه التالي عن مصر (٥٩٤) : « أقول انه قد يكون البحر في موضع من المواضع ، ثم ينضب الماء عنه ، حتى يصير أرضاً يابسة . ثم يعود بحراً . والعلة في ذلك أن قرار الأرض يشبه اجسام الحيوانات والنبات ، وان لها نهاية وغاية ، بمنزلة الشباب والهرم ، ينقص ويزيد . فاذا قربته الشمس حيناً طويلاً ، حللته ، فارتفع ، وجفّ ذلك الموضع . فاذا بعدت الشمس عنه ، رطب ذلك الموضع وندي ، واجتمعت فيه المياه من الندى والأمطار . ذكروا أن أرض مصر كانت بحراً ، وكذلك جميع الأرض عليها . فنضب ذلك الماء قليلاً ، فجفت تلك المواضع في مدة من الزمان ، فظهر اليبس ، وغرس فيه الأشجار ، وزرع فيه الزرع » .

اذن يتابع البشر تاريخ الأرض الأزلي، لكن لا تبصر أعينهم منه الا
اغرب الجوانب وأخطر المراحل : أي بايجاز الظاهرات العنيفة أو
القصيرة الأمد التي يلحظونها بادراكهم الحسي دفعة واحدة ، وفي
غضون جيل واحد ، أو ، في أفضل الاحتمالات ، في أثناء بضعة أجيال
تتناقل ذكراها . وفيما عدا هذه الحالات ، يعجزون عن تقدير عمر
الأرض وتحديد تناوب أحداثها ، وتتوقف معرفتهما على مشيئة الله
وعلمه ، اللذين يتصورهما حدس الفلاسفة تصوراً بعيداً عن واقعهما.

وتدل انخسافات الأرض على حياتها الخفية تحت أقدام البشر .
ويذكر أبو دلف مسعر بعضها في خوارزم . فعندما وصل إلى نيسابور ،
بلغه أن إحدى الكور التي مرّ بها توارت في الأرض . فعاد أدراجه ،
فراها « عائرة على عدى مائة قامة ونيف ، والماء ينحدر عليها من كل
صوب » (٥٩٦) .

ولم يبق الا اجتياز خطوة واحدة لربط هذه الظاهرة بزلزلة الأرض .
فسجع المقدسي لا يفصل اضطراب الأرض عن اضطراب البشر ،
إذ يرى أن إقليم الجبال خسف وزلزلة وجسور سلطان وبلبله . ويشير إلى
الكوارث التي هدمت كنيسة الرهسا والمسجد الأقصى في بيت
المقدس (٥٩٨) ، وسيراف التي يقول عنها : جاءت زلزلة سنة ٦٦ أو
٦٧ هـ ، فقلقلتها ، وحركتها سبعة أيام حتى هرب الناس إلى البحر .
وتهدمت أكثر دورها المبنية من خشب الساج والآجر ، وتفطرت .
وسألهم المقدسي عن الذي صنعوه حتى رفع الله حلمه عنهم ، فقالوا
كثّر فينا الزنا ، وفشا فينا الربا . فقال لهم « فهل اعتبرتم بما أرى ،
قالوا لا » (٥٩٩) .

مع ذلك، تعد أقوى زلزلة تلك التي ضربت بلاد مصر وكثيراً من بلاد الشام والمغرب . وهدمت أعالي منارة الاسكندرية : وقد وردت أخبارها على المسعودي . وهو بفسطاط مصر . فقال بدقة أنها أقامت نحو نصف ساعة زمانية ، وذلك النصف من يوم السبت لثمانى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٣٤٤ هـ . وهو اليوم الخامس من كانون الآخر من شهور السريانيين عام ٩٥٦م (٦٠٠) . ثم ذكر أنه دخل « أكثر المواضع المشهورة بكثرة الزلازل وعظمتها » (٦٠١) ، مثل ثغور الشام والأناضول ، وثغور فارس والعراق ، وأنحاء بحر الخزر الجنوبية ، وسواحل الخليج الشمالية ، وأخيراً خراسان وآسية الوسطى . ويبدو أن المسعودي عرف جانباً كبيراً من المنطقة « عبر الآسيوية » على حد وصف علماء الزلازل لها . من جهة أخرى ، وصف وصفاً جيداً موجة الهزة . وتحدث عن زلازل متواترة ، كان مبدؤها ، أي مركزها السطحي في اصطلاحنا ، في بلاد الصين ، إلى أن اتصلت ببلاد فرغانة وبلاد خراسان . ودون في عداد المعطيات النتائج الفاجعة على حياة البشر كما حصل في زلزال خراسان : « فهذه البلاد هلك فيها خلق كثير من الناس فمئنها ما صار موضعها آجاما ومياها سودا منتنة ، ومنها ما صارت كالرماد لانقلابها في سفوح جبال شاهقة منيعة » . وكان التهديم في زلزلة بلاد مصر قليلاً ، مع ذلك أثر تأثيراً بالغاً في نفس المسعودي ، وقال عنه : لم أر أعظم أمراً من هذه الزلزلة ، ولا أطول مكثاً . ذلك أني تبينت تحت الأرض كالشيء العظيم يحاكيها ، ماراً تحتها ، وهازراً ومحركاً لها ، كأنه أعظم منها ، وكأنها كالتائية عنه . مع دوي عظيم في الجو » . ويندر جداً أن تبدي الزلزلة وجهاً ساراً : ويروي قدامة بن جعفر (٦٠٢) ان سنة الزلزلة بخراسان في نواحي مرو وطخارستان ،

كانت سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م ، وقد تفجرت منها عين السادرة . وصارت
عيناً كبيرة . وجرى ماؤها في البرية ، وهي مفازة تتصل بمرو وآمل .
لكن اذا اسثنينا هذا التفجر السعيد ، نتصور أن الأرض لا تهز إلا شراً
على البشر . وهي تتحرك آلياً متأثرة بالأبخرة التي تمتصها ، وتضغطها
مدة طويلة ، فتفجر تبعاً لكتلة الغازات ولطبيعة الأرض ، ولا يحصل
شيء إلا بمشيئة الله لإظهار غضبه عند اللزوم كما حدث في
سيراف (٦٠٣) .

وتتجلى حياة الأرض الداخلية أيضاً في الظواهر المغناطيسية .
فقد ذكرنا من قبل جبال الشرق الأقصى . وابنا أن الفرسان لا ينتعلون
دوابهم حديدًا عند سلوكها ، ولا يكون في سروجهم حديد ، وركبهم
ولحم خيلهم خشب ، كذلك لا مسير لمركب فيه حديد في ماء قريب
منها لثلاث تجذبه (٦٠٤) . ويتأمل ابن الفقيه (٦٠٥) في الجزيرة ، ويزعم
أن فيها جبلاً فيه صدع ، من انتضى سيفه ، أوبلحه فيه ، ثم فبض على
قبيعته بجميع يديه ، اضطرب السيف في يديه ، وارتعد هو ، ولو كن
أشد الناس . ولو بقي السيف مائه سنة ، لبقيت تلك القوة قائمة فيه .
وهذه القوة عجيبة . ويوضح ابن الفقيه ان الحجر بعينه لا يجذب الحديد ،
فان حلك عليه سكين أو حديد ، جذب الحديد . بتعبير آخر ، لا تحدث
الأرض هذه القوة العجيبة ، ولو كانت تحويها أو تنقلها . ولا ينحصر
المغناطيس في عنصر واحد في الحقيقة ، فالماء يعرفه أيضاً ، يشهد على
ذلك السمك الرعاد الذي يحدثنا عنه ابن الفقيه ذاته . ويقتضي فهم
الظواهر المغناطيسية اطلاعاً يتجاوز الجغرافية ، ويتطلب الامام بجملة
معارف ، بل بكل المعارف على الارجح (٦٠٦) .

ولا يشك أحد أبداً بأن الأرض عنصر أساسي في النظام المغناطيسي .
فمبدأ « الدخول في الكتلة » واضح من ارتعاد السيف أو انتفاض يد
الصياد ، الذي يقول ابن الفقيه عنه بأن « يده ترتعد وتنفض ما دام
الرعاد في شبكته وشصه » . الا أن القوة المغناطيسية لا ترتبط بالأرض
وحدها — فنحن نعرف ظاهراتها ونجهل طبيعتها — وتتفق في النهاية مع
نظرية العناصر ونظرية الخواص . فالماء بارد كالأرض ، ورطب وليس
جافاً ، ويتدخل ليحوي تلك القوة ، مثلما رأينا ، أو ليقضي عليها : ولو
سقى المغناطيس أو حكّ عليه الثوم ، لما جذب الحديد (٦٠٧) ، وإذا
غطس في الخل أو العسل عادت إليه جاذبيته . ونقف عند هذا الحد .
فالزلزلة تثبت وجود حياة خاصة بالأرض . أما المغناطيس فلا علاقة له
بها ، أو بالأحرى ، مثلما قلنا ، يتجاوزها ، ويدرجها في الجاذبية
الكونية (٦٠٨) بدورها المجهولة التي لا نهاية لها .

تلازم الأرض والجواهر الأخرى : من البركان إلى المياه الجوفية

يعثر في بلدان دار الاسلام على حالات متنوعة من تلازم الأرض
والجواهر الأخرى ، لا يفوت الجغرافيون أن يلحظوها . وينشأ هذا
الترافق عن تجاوز بسيط يقوم بينها ، كما يحصل في وضع الابخرة
في باطن الأرض ، واستطالة قلل الجبال في السماء حتى تكاد تصل إلى
الأثير ، وهبوب الرياح على وجه اليابسة أو الماء ، وازدواج المشاهد
الطبيعية البرمائية ، وطفو الحجارة فوق الماء أو احتوائها النار ، وكلها
حالات أشرنا إليها في سياق أبحاثنا ، ولن نعود إليها (٦٠٩) . مع ذلك ،
يستوقف النظر نوع من الحلول الحقيقي أحياناً . فالمسعودي يقول (٦١٠) :
« وجوفها — يعني الأرض — أطباق يتخرق فيها الهواء ، ويجول فيها

الماء ، موصلاً لها كمواصلة الدم للجسد . فما غلب عليه الهواء من الماء كان غلباً شروياً . وما امتنع الهواء من التمكن منه ، وغلبت عليه أملاح الأرض وسبغها ، صار ملحاً اجاباً . وإن كون مياه العيون والأنهار في الأرضين كالعروق في البدن . وهكذا نرى ان الحلول يتجلى في هذه الحالة على وجه التخصيص . من خلال الاستعارة الجسدية : في تلازم الأرض والماء . والواقع ان اجتماع الأرض والبيئة والماء الآسن . يرد في النصوص الجغرافية (٦١١) كما يشاء الجغرافيون . وتضفي الأرض أحياناً على الماء صلابتها فيما يبدو . والشاهد على هذه الظاهرة مقطع عند المقدسي (٦١٢) ، يبدو ان القسم الاخير منه يشير إلى الصواعد حيث يقول : « بقاشان ماء يسقي الزروع ، ثم يعود حجارة ، وبقهستان . كهف يتظر منه ماء ، ثم يعود حجراً » .

ويقلد الهواء (الجو) الأرض في بعض الاحيان النادرة ، ويرسل بعض النيازك الصلبة . فباردبيل محجر كبير ، لو ضربت عليه المرازب ما عملت فيه ، وقع من السماء على مسافة من هذا البلد . ثم حمل إلى الجامع (٦١٣) . مع ذلك ، تهيم النار هيمنة محكمة في جميع تلك الحالات التي تتوق فيها الأرض إلى ملازمة سائر الجواهر ، كما يتضح من حالة بخار النوشاذر في جبال البتم (٦١٤) . وفي أراضي القير ومنايع القطران اللزج ، التي يخرج منها دخان يتعالى كثيراً ، لو طار عليه طائر لسقط واحترق (٦١٥) فوراً .

وتسود النار خاصة في براكين متقدمة أو لم يمض زمن طويل على خمودها ، فبقيت ذكرها حية في أذهان البشر ، منها براكين أرض الغرباء من المغرب إلى افريقية ، في جبل القبق أو جزائر الزابج (٦١٦)

ويضاف اليها دنباوند (٦١٧) ، وبراكين جزيرة العرب الوسطى والجنوبية (٦١٨) ، وبركان على حدود فارس وخوزستان (٦١٩) ، وآخر في غرب اقليم الجبال (٦٢٠) ، وأخيراً بركان اتنا ، المعروف بـ « البركان » على العلمية ، وحده أو مع البراكين المجاورة له ، أي سترومبلي قطعاً ، وربما أيضاً الفيزوف أو إحدى الفوهات في جزيرة فولكانو في ارنخبيل ليباري (٦٢١) .

ويعبر لفظ بركان ، فيما يبدو ، اذا التزمنا بعرض الحقيقة ، عن مجمل الظواهر البركانية . ولا يقصد به جبلاً بركانياً بالذات دون سواه ، انما هو وغيره ، والابخرة والينابيع الحارة والكبريتية ، وما يسترعي الانتباه إلى توقد جوف الأرض (٦٢٢) . وتشاهد أولاً النار التي يستضاء بنورها ، مستمراً أو متقطعاً ، بجرأ أو جواً ، على مسافة عشرين وأربعين فرسخاً ، وأحياناً مائة فرسخ . ويرى لهبها ودخانها أيضاً ، وتقلد من جوفها جمرأ من الحجارة ، ويسمع صوتها كالرعد ، وتخرج من اليم جزيرة كاملة ثم تعيدها إلى قعر الماء . ويندوب الثلج في هذا الاتون المستعر ، ويتحول إلى بخار ، في حين ينبعث الماء من أعماق الأرض باندفاع شديد جداً ، حتى يقوم توازن بينه وبين النار . ثم تختلج الأرض وتتقبض بنيتها أو تنبسط ، وتمثل هذه الظاهرة في «النار الجارية» (٦٢٣) ، وأجيج اللابات أو تنائر غبارها ، والرماد المنرى ، والقيز ، والكبريت الساخن بتأثير حرارة جوف الأرض أو قيط الشمس ، والحجر الأبيض الخفيف الذي يسقط في البحر ، ويطفو على وجه الماء إلى أماكن بعيدة .

وتفوق ظاهرة البركان سائر الظواهر ، وبها تقيم الأرض حواراً مع الجواهر الثلاثة الأخرى مجتمعة ، أو تتحد بالنار ، أحد تلك العناصر .

وهذه الحالة استثنائية ، قد لا تدخل في بحث الجغرافية بالمعنى الدقيق ، بل في أدب العجائب . ويعدّ مشهد البركان هامشياً ومحيراً ، ولا يمثل شكلاً من الأشكال الأرضية الأساسية في العالم ، بل يدل على اقتحام النظام الأرضي من قبل مجموعة من القوى ، تفرض نفسها ، ولا بد من التعرف على آثارها . ويدرك البشر سيوررات البراكين جيداً ، ولا يلمون بسيوررات المغناطيسية ، مثلاً ، بالقدر ذاته . ولا يعتبر أصل البراكين أوضح من أصل المغناطيسية فالبراكين والمغناطيسية والهزات تصل أرض البشر بأرض لا يعرفها إلا باريها وحده . من جهة أخرى ، لا نتناول نحن بالبحث سوى قشرة الأرض . ونأخذ ما يصيبها من تشقق وتشنج وموجات تآلف وتنافر ، فنشعر أن هذه القشرة غطاء بسيط يخفي تحته حياة دفيئة ، ترتبط بالظواهر الكونية وبالتالي لا يسيطر عليها .

ولا ينكشف جوف الأرض إلا في فترات متباعدة . ويعرف الجغرافيون الكهوف والهوايا بلا ريب . ويتحدثون أحياناً عن استكشافها على ضوء المشاعل والأساطير أيضاً . وكانت بداية علم المغاور مترددة عند العرب وفي الغرب . وأذكر مثلاً ما قيل عن أن بجلوان قرب القسوط ، « مغاور عجيبة منكورة » يتيه فيها الانسان ، وان فيها طريقاً إلى القلزم أملس كأنما أجرى عليها الماء المالح (٦٢٤) . ثم ان الاسطورة لا تتناول الطبيعة وحدها ، بل تتعدها في أغلب الأحيان ، وتجمع جوف الأرض والتاريخ الديني أو الملكي مع النبي هود ، وهارون ، وموسى ، وسليمان ، والاسكندر ، وأهل الكهف ، ومحمد (٦٢٥) . وأشهر كهف في فارس ، كهف تهب فيه ريح عاتية ، ويقوم فيه تمثال سابور قرب جرن يقطر الماء من سقف الكهف (٦٢٦) .

فالماء هنا وفي الامكنة الاخرى ، وفي جميع المحال . يفرضه جوف الأرض . سواء جرى قديماً (٦٢٧) ، أو تقطر قطرة قطرة (٦٢٨) ، وبخاصة الجداول ، وحتى النهر ، اللذين يتفجران زائحين من باطن الأرض ، ويخرجان من «آبار لا يعرف قرار لها» ، أو من قعر أحواض فسيحة (٦٢٩) . ويأتي في أعلى المراتب نهر الأردن في بانياس (٦٣٠) ، ونبعه يعرف بالفبيجة في وادي نهر بردى صعداً عن دمشق (٦٣١) ، والخابور ، رافد الفرات (٦٣٢) . وأخيراً نهر دجلة الذي يخرج مأؤه أخضر من كهف الظلمات التي دخلها ذو القرنين ، وحرص مسلمة بن عبد الملك على دخولها ، واشعل المشاعل والشموع . فانطفأت ورجع (٦٣٣) .

أما الآن ، فقد حان لنا أن نتقصى مع الجغرافيين هذا الماء العجيب ، دم الأرض وبهجة البشر ، وان نصفه ونتذوقه .

* * *

4

5

6

7

الفصل الثاني 'الماء على الأرض'

يا أرض
يا ممتلئة رثقتها الأنهار
غليوم ابولينير

« اقطع قطعاً ان الطبيعة جمعاء كانت ماءً في البدء، وان كل شيء نشأ من الماء، وان الماء سوف يقضي على كل شيء » . وسواء كان الماء أصل الأشياء أو نهايتها ، أو الماء الملكي في الكيمياء العربية ، أو المادة الأولية في الحجر الفلسفي ، أو الماء الخالد عندنا ، فهو يبرز على الدوام أمام الناظرين ليفرض نفسه على أصولنا أو على أصول فوضوية في عالم، جبلنا منه ونعيش عليه ، ويحتفظ أحدث العلوم للماء بهذه المكانة السامية (٦٣٤) من وجهات نظر أخرى .

إلا أننا في دار الاسلام. فاحتار أولاً من القرآن (٦٣٥) النصوص التي تهمننا : «(وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً . وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً (. . .) . وجعلنا من الماء كل شيء حي (. . .) . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل

بين البحرين حاجزاً ءاله مع الله (. . .) وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار (. . .) وألقى في الأرض رواسي أن تُمِدَّ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسَبَلاً لَكُمْ تَهْتَدُونَ وعلامات وبالنجم هم يهتدون .»

وتوضح هذه النصوص القرآنية بعض الاتجاهات الكبرى في الجغرافية العربية مثل موضوع الحاجز . أي البرزخ . المتعدد أصلاً (٦٣٦) ، الذي توحى به ، على مستوى كرة الأرض ، ويعتبر نوعاً من التوازن العام بين كتلة البحار وكتلة مجاري الماء ، أو مثل حاجز البر يعترض بين أحد الأنهار والبحر ، أو أيضاً عظمة الأنهار الكبرى التي تدفع ، هنا وهناك ، مياهها سالمة بعيداً جداً عن مصباتها . والوضع الفريد في هذه الحالة ، هو وضع دجلة والفرات ، إذ إن هذا « الاسم » (أي الفرات) ليس سوى أحد النعتين الواردين في أحد النصوص القرآنية ليدل على الماء العذب .

وهكذا تمايزت البحار والأنهار ، وهي تندرج بعناية الله ، في مخطط تنظيم الأرض الشامل ، فتتضمن إلى الجبال التي تثبت الأرض ، مثلما قلنا ، وإلى النجوم التي توجهها . ويقضي هذا التنظيم التوسع في بحثه لاعطاء تفاصيل عنه ، على غرار ما فعلنا في موضوع الجبال ، فتصبح خريطة البحار والمجاري المائية الرئيسية ، عند مصنفي الجغرافية ، ليست إحدى ضرورات الاطلاع ، بل أيضاً فعل تسييح وعزاء لرؤية الماء الإلهي موزعاً بحكمة ، وأخيراً ، علة اتجاه ، لا مادي فحسب ، بل روحي ، وفرصة الانتقال من علامات الطريق ، ولو كانت ارضاً أو ماءً ، إلى دلائل الوحي : فالاهتداء بالنهر كالاhtداء بالنجم ، مثلما يقال لنا تلميحاً .

ويتميز الماء العذب ، المبحوث في هذا الفصل ، بصفتين : الماء

الاصلي والماء المسخر . ولن نلج على الماء الأصلي الذي يقرن بالطين (٦٣٧) أمّا استعمالات الماء عند البشر، فيمكن تصورهما بسهولة : فالاحالات القرآنية إلى الماء العذب تقصد ماء الشرب (٦٣٨) طبعاً ، وحاجات الطهي ، لكنها تشير قليلاً جداً ، فيما يبدو ، في هذا الاطار ، إلى ري النبات ، الذي يقرنه القرآن بالأحرى في الواقع بظاهرة المطر (٦٣٩) ، أي بنوع آخر من الماء العذب . أو فعلاً ماء السماء ، الذي سنتحدث عنه فيما بعد . ونعود إلى المياه الحارّة . أو التي تنبع من الأرض ، ونقول إن النصوص المقدسة توحى لنا نوعاً ما بوجود استعمال ثاني ، نعني الملاحظة نقول « نوعاً ما » ، لأن التسخير يتناول البحر والأنهار ، لكن لم يشر إلى الفلك إلا بالنسبة إلى البحر . وتجري الأمور وكأن الملاحظة ، بواسطة التكرار ، مشتركة بين المائتين ، العذب والاجاج ، الخاضعين لوضع تسخير واحد فيما يتعلق بالانسان ، في حين لا ترد بجلاء ودقة تامتين ، بشكل الفلك الحسي ، إلا فيما يختص بالبحر .

مهما يكن ، تجر الأمور فعلاً على هذا المنوال في النصوص القرآنية فاذا كان البحر يستلزم تلقائياً وجود الملاحظة فيه ، حتى لو كانت محفوفة بالأخطار ، فالنهر لا يصلح لها دوماً . ومن هنا الاشارات الواردة ، والحالة هذه ، التي تتراوح بين ذكر الملاحظة الكثيفة والملاحظة المستحيلة في الأنهار . ويشعر المرء ، مهما جرى ، خلافاً لما في اوردية ذات « الطرق المتحركة » ان الملاحظة النهرية تنحصر هنا في بعض الحالات الشهيرة ، مثل النيل وبلاد ما بين النهرين ، أو أنها تتجزأ وتقتصر على بعض أجزاء النهر المحظوظة . أما وظائف النهر الحقيقية ، فتظهر في ميادين أخرى : كتزويد البشر بالماء، المدون بدقة زائدة ، المتنوع ، المفهرس ، المصنف إلى مراتب، أو باختصار ، الذي يعبر بجلاء عن جميع

درجات هذه الهبة العجيبة الممنوحة للبشر ، ثم تظهر في إحياء النبات بترطيب التربة أو بالري أو بالماء المسحوب من سرير النهر ذاته أو من أقيته الفرعية ، فيصبح النهر على هذا النحو ، في هذه الوظيفة ، كامتداد للمطر القرآني (٦٤٠) ، ويصير عمل البشر كامتداد لهبة الله .

جريان الماء على الأرض

بعد جريان الماء على وجه الأرض حقيقة بديهية لوحظت ألف مرة : فالى جانب ماء السماء ، يعرف البشر الماء الذي ينشأ على البر ، كالعين والجدول وأحياناً المسرى وحتى النهر . وقد أشرت في نهاية الفصل السابق إلى بعض أعظم هذه الانبجاسات . وهاك مثالين آخرين : ففي مدينة بعلبك ، « عين عجيبة يخرج منها نهر عظيم » (٦٤١) ، وفي بودندوس قرب طرسوس ، « عين عظيمة تخرج من شبه رواق » (٦٤١) . على أن مصنفى الجغرافية ، مثلنا نحن ، يريدون كشف سر هذه المياه الخارجة من الأرض ، ثم سر دوامها أو اختفائها الموقت وتبدل غزارتها . ويحل ابن الفقيه القضية بأيسر السبل : « تغور المياه كلها وترجع إلى أماكنها إلا نهر الأردن ونيل مصر والحجرات وعرفات ومنى » (٦٤٣) . ولا يبت بعض المصنفين الآخرين في هذا الأمر بتأقاعاً ، بل يتمسكون بالواقع بتواضع ، ومنهم مصنف كتاب حدود العالم ، المجهول الأسم : « الأنهار الطبيعية مياه عظيمة تنشأ من ذوبان الثلوج أو من عيون تخرج من الجبال أو تتشكل على وجه الأرض » (٦٤٤) . وتقدر موسوعة اخوان الصفاء ، الحريصة على البنية الكونية ، ان ربع الأرض المعمور يحوي مائتين وأربعين نهراً . أطوالها عشرون إلى مائة أو ألف فرسخ (أي من ١١٥ إلى ٥٨٠ أو ٥٨٠٠ كم تقريباً) ، تجري في الاتجاهات الممكنة

حسب الجهات الأصلية المتقابلة . وتبدأ كلها في جبل وتصب في بحر أو بحيرة أو مستنقع ، حيث تفرغ زيادة مياهها التي تروي الزروع والضمايح بين المنيع والمصب . وتتبخر بقايا هذه المياه ، هي والمياه التي تستقبلها ، وتتكاثف غيوماً تسوقها الرياح إلى الجبال . حيث تنهمر السحب مطراً . ثم تعود هذه الدورة فتتكرر مجدداً (٦٤٥) .

ويجمل المسعودي (٦٤٦) . فيما يبدو : هذا التفسير الذي يمكن تعديله ، ويتبنى أربعة تفاسير أخرى . فأولها ، وقد عرفناها من قبل (٦٤٧) وندعوه عضويًا ، يجعل العيون والأنهار عروق بدن الأرض . والتفسير الثاني ميكانيكي ، صيغ كما يلي : « حق الماء أن يكون على السطح . فلما اختلفت الأرض ، فكان منها العالي والهابط ، انحاز الماء إلى أعماق الأرض . فاذا انحصرت المياه في أعماق الأرض وقعوها طلبت التنفس عندئذ لغلظ الأرض وضغطها إياها من أسفل ، فتنبثق من ذلك العيون والأنهار » . وتعتمد النظرية الثالثة على مبادئ الكيمياء الأولية : « وربما تتولد في باطن الأرضين من الهواء الكائن هناك ، وان الماء ليس باسطقس وانما هو متولد من عفونات الأرض وبخارها » .

أخيراً يرتبط التفسير الرابع بجغرافية نشوء الكون . ويقول المسعودي : « إن طائفة ذهب إلى أن الأنهار » مجراها كلها — أعني البحار — واحد ، وهو البحر الأعظم ، وان ذلك بحر عذب ليس هو بحر اقيانوس » ، مما يعطي ، مثلما نرى ، تفسيراً إضافياً إلى موضوع المجمعين المائتين الأصليين اللذين كشف القرآن عن وجودهما ، ثم إلى سبب عودة الأنهار إلى منبعها ، وهو رأي ابن الفقيه ، كما مر معنا : « فاقيانوس » الماء العذب يلعب على هذا النحو دور وعاء ضخمة يتصل بجميع أنهار الأرض .

وسواء كان عذباً أو اجاجاً ، فهو يظهر في جميع الأحوال ، بالنسبة إلى نهر واحد في الحد الأدنى . فالنيل ، الذي أشرت إلى سر أصله ، يخرج على هذا النحو من بحر عظيم مظلم : من تحت كيثبان رمل (٦٤٨). ويبقى الاسواني . الاختصاصي المستنير ، الباب مفتوحاً أمام الآفاق الخرافية لماء لا حدود له : فعند التقاء النيلين الأزرق والأخضر ، « يعرفون عرض النهرين ، ثم يزداد هذا العرض حتى يصبح مسيرة شهر » . وماذا بعد ذلك صعداً ؟ لا يجيب الاسواني عن هذا السؤال ، لكن يمكن تصور الاجابة جيداً بالنسبة إلى هذا النهر الغريب الذي يتضمن خم وهو يقترب من منابعه (٦٤٩) .

وتجمع خصائص أخرى الأرض والماء في تفسير نشوء العيون والأنهار : وهو اعتقاد قديم يربط نشأة المياه الجارية برحم الكرة الأرضية ذاته . ومبدأ الأنهار المقدسة في بلاد ما بين النهرين بخاصة « بعضو تناسل الآلهة العظيمة » (٦٥٠) . ومن هنا ، في ممارسات الخصب ، الصلة بين الأرض والماء المتفجر ، اذ إن المرأة تقلد الأرض لا العكس (٦٥١)، مثلما يذكرنا أفلاطون . وهذا ينطبق على حمة واقعة في سورية الشمالية ، فيها صورتا رجلين من حجر ، يخرج ماء الحمام من احليل أحدهما ، في حين تزعم النساء أن كل من لا تلد تحك فرجها بأنف الصورة الثانية فيولد لها (٦٥٢) .

أما خروج بعض الأنهار من الجنة ، فليس سوى صيغة عن الاعتقاد الشرقي القديم ، ويوافق هذا الموضوع بدوره تقاليد أخرى (٦٥٢) . فالقبة التي تنبثق منها الأنهار الأربعة الكبرى في العالم ، في رأي المقدسي وابراهيم بن وصيف شاه ، واقعة فعلاً في الجنة ، إلا أن الاوقيانوس ،

أي البحر الأخضر ، يظهر مرة أخرى في المشهد العام . ويروي المسعودي ان قبة من الذهب وأنواع الجواهر تقوم في وسط البحر الأخضر ، وترتكز على أربعة أركان من الياقوت الأخضر والأحمر والأزرق والأصفر ، تقابل أربعة بلدان الحديد والصفير والفضة والذهب التي تقع ، حسب ابراهيم بن وصيف شاه ، بين البحر الأخضر والجنة (٦٥٤) . ويعارض المسعودي ذاته في مكان آخر ، من فضائل الأنهار : بين تقليدين ، تقليد ما بين النهرين ، الذي أشرنا إليه من قبل . والتقليد المصري الذي يذكرنا ابن خرداذبه وابن الفقيه ان الأنهار الأربعة تجري فيه من تحت سرير فرعون في مدينة منف (٦٥٥) .

أخيراً ، بقيت تقاليد التوراة والقرآن . وينسب المقدسي إلى أهل الكتاب الاعتقاد بأنهار الجنة ، ويميز أصلاً جنتين : احدهما ارضية أعطت رمانة بحجم الحمل وضعت يوماً في الفرات الفائض ، والأخرى جنة أزلية (٦٥٦). والواقع أن سفر التكوين يذكر العيون الأربع والأنهار الأربعة : دجلة والفرات وجيحون وسيحون (٦٥٧) . وترد هذه الأنهار بالذات عند الجغرافيين ، وأوصى النهران الأخيران باختيار المزدوجة جيحون وسيحون وهما اما نهران في آسية الوسطى (اوكسوس ، واياكسارت ، اموداريا وسرداريا) أو جيحان وسيحان (بيراموس وساروس ، على تخوم سورية والأناضول) . أما الاسلام ، فيعتمد على القرآن : « فالماء الفرات » الذي يسقاه المؤمنون يأتي ، حسب الحديث الذي يرويه ابن الفقيه ، من الفرات والنيل وجيحون وسيحون، وهما اوكسوس واياكسارت (٦٥٨) .

في النهاية ، لا يجاري نهر النيل . الذي يرد ذكره دوماً في هذه النصوص الفردوسية أو المقدسة ، منفرداً أحياناً ، لكن مقترناً فعلاً في

الغالب ، بالفرات ليشكل مزدوجة النهرين « المؤمنين » ، التي تضم إلى جيحون وسيحون (أو جيحان وسيحان) في سبيل الحصول على الرقم أربعة . في هذه الحالة ، يأخذ نهر دجلة أحياناً محل نهر الفرات أو نهر النيل استثناءً . وقد تطرأ بعض التغيرات على هذه الأقوال أو تتناولها بعض التعليقات . فالمقدسي يلمح إلى أن الجنة منبع بعض الأنهار الأخرى التي لا تقل أهمية وشهرة عن الأربعة السابقة . ويعطي ابراهيم بن وصيف شاه نهرى جنجس ومهران مثلاً على ذلك . ويقارن نهر مهران بنهر النيل تقليدياً ، ويظن أنه يرفده بمياهه التي يطهر كل من يشرب منها . وهذا التباس مع جنجس ، نهر الهند الكبير الآخر . ونهر الفرات طاهر أيضاً ، واسمه وارد في القرآن ، كما قلنا : فهو من أنهار الجنة ، لولا ما يخالطه من الأذى ، ما تداوى به مريض إلا أبرأه الله ، فان عليه ملكاً يذود عنه الادواء (٦٥٩) .

وتمثل النار أو الخطيئة الوجه الآخر الذي يضعف سنده والثقة به أيضاً . فالمقدسي (٦٦٠) ، على غرار الميثولوجية اليونانية مع آشرون ، كوسيت ، ستيكس ، بيريفليغينون ، يعارض بين أنهار الجنة الأربعة ، وبين أربعة أنهار النار التي استوحيت اسمائها في الأساس من الأخرويات القرآنية ، وان كان يشك كثيراً في هذه الناحية . والزبداني أوضح هذه الأسماء ، وهو اسم قرية في جبل لبنان الغربي ، ويشير إلى بردى نهر دمشق ، وأيضاً إلى الزبد الذي يرمز إلى الاباطيل : « انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عاياه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الامثال » . والاسم الثاني الكر ، وهو نهر يقع في أطراف جبل القبق

الجنوبية ويذكرنا اسمه بأصحاب الرس الذين تبرهم الله تنبيراً ، لكن لا نرى لماذا استبدل اسم وارد في القرآن باسم لم يذكر فيه (٦٦١) . والاسم الثالث سم (٦٦٢) يحيل بداهة إلى لفظ سموم المشتق من جلده ، ويعني سموم في القرآن الريح الحارة . مع الأسف ، لا أجد أثراً لهذا النهر (٦٦٣) على الخرائط . أخيراً (٦٦٤) ، السنجة نهر في حوض الفرات الأعلى ، الشهير بالحسر الذي يجتاها (٦٦٥) . لكن هنا ، على نقيض الحالة السابقة ، أين نضع احالة القرآن ؟ مهما يكن ، يعتبر الخبر الذي يعارض بين الفرات والنيل « المؤمنين » وبين النهرين الكافرين دجلة ووادي برهوت في جزيرة العرب الجنوبية ، أصدق . وهكذا نرى كيف تنتظم الاسطورة : فالفرات يتميز بأنه نهر قديم مقدس ، يقع في بلاد ما بين النهرين ، وحظي بذكر اسمه في القرآن . ويعتبر النيل أيضاً نهراً مقدساً منذ القدم ، وقد نازع نهر دجلة على مكانته في المزدوجة القديمة العراقية ، فانتقل نهر دجلة إلى مزدوجة النهرين الملعونين مع وادي برهوت المشؤوم بسبب كهفه الذي تتردد عليه « أرواح الكفار » ، ويتصل بالنار الداخلية في البراكين ، ويعرف في التقاليد اليونانية الرومانية كأحد أفواه الجحيم (٦٦٦) .

نعرف الأنهار بمجراها الذي نراه بأعيننا ، أياً كان منبعها واتجاهها . مع ذلك ، حتى هنا ، ليست الأمور بسيطة على اللوام ، لأن للأنهار حياتها ، وهي تتغير ، كما يذكرنا المسعودي (٦٦٧) : « فان لمواضع الأنهار شباباً وهرماً ، وحياة وموتاً ، ونشأً ونشوراً » . ولكل مقام مقال (٦٦٨) : « فقد كانت مصر . . . يركب أرضها ماء النيل وينسبط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض ، وموضع الفسطاط في وقتنا هذا .

وقد كان بدء ذلك في موضع يعرف بالحنادل بين أسوان والحبشة . . . إلى أن عرض لذلك موافق من انتقال الماء وجريانه ، وما ينقل من التربة بتياره من موضع إلى موضع ، فيصب من بعض المواضع من بلاد مصر . . . وهاك الآن ما يتعلق ببلاد ما بين النهرين : « وقد كان الفرات ، الأكثر من مائه ينتهي إلى بلاد الحيرة ، ونهرها يسيّر إلى هذا الوقت ، وهو يعرف بالعتيق (٦٦٩) فيصب في البحر الحبشي ، وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنعجف في هذا الوقت ، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك الحيرة » وكتنقل الدجلة العوراء . فصار بينها وبين الدجلة في هذا الوقت مسافة بعيدة ، وصارت تدعى ببطن جوحى ، وذلك من جهة مدينة باذيين من أعمال واسط إلى دور الراسي إلى نحو بلاد السوس في خوزستان . وكذلك ما حدث من الجانب الشرقي ببغداد من الموضع المعروف ببرقة (٦٧١) الشماسية ، وما نقل الماء بتياره من الجانب الغربي من الضياع التي كانت بين قطربل ومدينة السلام . . . ونعترف بأن هذه الملاحظات قيمة ، إذ لا بد أن هجرات النهرين ولحيهما الكثيف في كل ربيع ، وربما ارتفاع ركيزة سواد العراق في الماضي ، قد أسهمت على نطاق واسع في إعادة تهيئة المشاهد الطبيعية (٦٧٢).

ويعتبر جيحون (او كسوس ، اموداريا ، نهر بلخ) النهر العظيم المتقلب الآخر . وتختلف آراء المصنفين حول قضية مجراه الاسفل (٦٧٣) العويصة . فاليعقوبي جازم يقول ان خوارزم على آخر نهر بلخ في الموضع الذي يخرج ماء نهر بلخ منه إلى بحر الديلم ، أي بحر قزوين (٦٧٤). ويتشبه ابن رسته وكتاب حدود العالم ببحيرة خوارزم (٦٧٥). أخيراً ينقسم سائر المصنفين الباقين إلى فريقين : يعبر نص اولهما عن تردده

مثل ابن خرداذبه والمسعودي (٦٧٦) ، ويعرف الفريق الثاني جيداً مصب جيحون في بحيرة خوارزم ، مثل الاصطخري وابن حوقل والمقدسي ، ويشير إلى تبدلاته السابقة ، إما نحو بحر قزوين . لكن صعباً وبعيداً عن خوارزم عبر صحراء قره قوم (٦٧٧) وإما نحو بحيرة خوارزم دوماً لكن إلى الشرق (٦٧٨) . إذن ، اذا استثنينا المصنفين الثلاثة الآخرين ، نجد كثيراً من الالتباس أو التردد أو الفراغ . تفسرها في الأساس ثقافة كتيبة قد تكون جمعت معطيات تعود إلى بطليموس (٦٧٩) . كما يفسره تشابه أسماء العلم في بعض الانحاء القريبة من بحر قزوين وبحيرة خوارزم : نعني جرجان والجرجانية على التوالي (٦٨٠) .

يكمن وراء هذه الشكوك سؤال يحاول أن يكشف سر حياة الأنهار : فما هو مدلول هذه الحياة بالمعنى الصحيح ؟ فاذا كانت جميع الأنهار قد وجدت لتنشأ وتخفي وتعود إلى الظهور . فلا بد أن تركز على قاعدة خفية ، على مبدأ مشترك ، يفسر اتجاه مياهها . ويضع مثلاً صورة الأرض والموسوعيون بعض النظريات : وقد سبق وأعطينا رأي اخوان الصفا : فهم يعطون ٢٤٠ نهراً لجميع الأرض ، أي ٦٠ نهراً لكل من الانجاهات الأربع الممكنة حسب ازواج الجهات الاصلية المتقابلة . وهكذا يقارن ابن خرداذبه أنهار الارحاء الشمالية من دار الاسلام ، التي تجري من المشرق إلى المغرب ، وفي طلبعتها جيحون ، بأنهار فارس والعراق التي تجري باتجاه معاكس . ويحلّو ابن الفقيه حلوه ، فيقارن بين أودية تهامة وأودية نجد . ويدخل ابن رسته الرياح في هذه السيرة . ولا يهم اذا هبت الجنوب وعذب الماء الذي يلي النيل لتراكم الأمواج في ذلك الوجه من ماء النيل ، أو اذا هبت الشمال وأمالت أمواج البحر على النيل ومامح ماؤه . فحياة جيحون كلها خاضعة لقوة الرياح في مجراه

الأعلى : فمخرجه من بلاد التبت يقبل من المشرق مع الصبا ، وهو
ينعطف إلى ناحية الشمال مع الجنوب (٦٨١).

ويتضاءل طموح جميع الذين يريدون انخضاع جميع المعطيات إلى
العيان . فأبسط مشاهدة تدل ان الماء يميل إلى الانتشار أفقياً ، فلا بد
أن يسيل من الأعلى إلى الأسفل . ويقول ابن الفقيه : « وقالوا كل
جبل في الدنيا إلا القليل فمأؤه من أسفله ومنابعه سفوحه . الا ارونند ،
فان مائه من أعلاه ومنابعه من ذروته . ومن هنا الأصل الغيبي والفردوسي
المعطى لهذه الظاهرة . ويعود ابن رسته نفسه إلى الأمور الحسية ، ويفسر
بطريقة جيدة جداً لماذا تصل أنهار سواد العراق إلى البحر : بسبب
الانحدار فقط ، لأن « البحر مغيض المياه وهو أسفل الأرض » (٦٨٢).

اذن الأمور بسيطة لولا أن النظرية تعود إلى السيطرة في هذه الفكرة
الأولية : فلما كانت الجبال واقعة في الشمال والشرق ، مبدئياً ، فلا بد أن
يأخذ انحدار سطح الأرض نحو خط الاستواء ونحو الغرب (٦٨٣).
ويجب أن تسيل الأنهار ، قلما يكون تلك التي يمكن الحكم على مجراها
على مسافة طويلة ، من الشمال إلى الجنوب ، أو من المشرق إلى المغرب.
ومن هنا ، عجائب الأنهار « المقلوبة » : وأولها (٦٨٤) النيل الذي يجري
إلى الشمال ، ثم مهران الذي يخالف ، فيقارن تقليدياً بنيل مصر (٦٨٥)،
ثم آلس في الأناضول (٦٨٦) ، وأخيراً الارنط ، أو آكسيوس ، الذي
سماه العرب العاصي (المتنرد *) ، ويتوقع القارئ ذكره هنا بلاريب ،
ويجر معه في حفرة البنائية الكبرى ، نهر الأردن ، والبحر الميت ،
المسمى « البحيرة المقلوبة » ، وحتى بردى ، (٦٨٧) ، نهر دمشق ، أما

(*) العاصي كلمة ارامية لا عربية مثلما ترجمها الاصل الفرنسي

بركوب ، نهر آسية الوسطى . ويعني اسمه « الماء المقلوب » ، فقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يجري من الاسفل إلى الأعلى ، أي في الحالة الحاضرة ، من المغرب إلى المشرق (٦٨٨) .

جريان الماء في باطن الأرض

لا يقتصر حوار الماء والأرض على ما نراه منه . فأولاً . تبقى قصة الأنهار في باطن الأرض خافية علينا في منبعها وفي نهايتها . لكن حتى في مظاهر الماء المرئية ، يبدي الماء الذي نراه ونلمسه ونذوقه ، أحياناً ، هذا الانتشار الشامل . وقد ذكرت سابقاً الاعتقاد بحركة جميع مياه الأرض في الاوقيانوس الذي يمثل وعاءاً مستطرقاً هائلاً . ويلعب النيل ، هنا أيضاً ، دوراً بارزاً ، اذ يكتب ابن الفقيه (٦٨٩) : « نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب . فاذا أراد الله ان يجريه ، أمر كل نهر ان يملده ، فأمدته الأنهار بمائها . فاذا فجر الله به الأرض عيوناً ، وانتهى من جريته إلى ما أراد الله ، أوحى الله عز وجل إلى كل ماء ان يرجع إلى عنصره » . ويخلص المسعودي (٦٩٠) إلى القول : « اذا زاد النيل غاضت له الأنهار والأعين والآبار ، واذا غاض زادت . فزياداتها من غيظه ، وغيظه من زياداتها » .

ولا ريب ان الاعتقاد ذاته يفسر جملة من الظواهر الغريبة : مثل العيون التي لا تتغير ، والبحيرات الهادئة ، والأنهار المتوازنة بدقة . ونذكر مثلاً عليها الهامند ، نهر سجستان ، الذي ينصب فيه ألف نهر ، فلا يتبين فيه النقصان ، أو تلك البحيرة الفارسية ، التي لا يتبدل مستواها البتة ، لا في الصيف ولا في الشتاء ، في حين يصب فيها في اليوم الواحد كمية من المياه ، اذا سكبت في أي مكان آخر ، شكلت

فيه بحراً متلاطماً (٦٩١) . وفي فارس أيضاً ، بنهاوند . . . ، موضع . . . فيه حجر يفور منه الماء في كل يوم مرة أو مرتين ، فيخرج ، وله خريز ، فيسمي تلك الأراضي ثم يتراجع . « وهو مطلقاً بسبب الماء ألا ينقص والألّ يزيد . وذلك ان الاكار يجيء وقت الحاجة ومعه المر ، فيقف عند الحجر ، فيسمع في الحجر وقع مثل وقع أبواب الحمامات ، ثم يخرج الماء . فاذا استغنى عنه نقص وتراجع » (٦٩٢) . وفي فارس أيضاً . ماذا نقول عن تلك العين الأخرى التي يخرج أيام الربيع منها سمك ثم تخرج منها حية سوداء ، فاذا خرجتا ، غارت إلى حول ؟ (٦٩٣) .

وعجيب أمر هذه العين التي نقول عنها ببساطة إنها متقطعة ، وعجيب أن تقضي أسطورة تتناول كتلة ماء ثابتة على أبسط مشاهدة ، هنا أيضاً . ولا بأس أن يعلن المسعودي (٦٩٤) : « فاذا انتهى مصب نهر الأردن إلى البحيرة الممتنة ، خرقها وانتهى إلى وسطها متميزاً عن مائها ، فيغوص في وسطها ، وهو نهر عظيم ، فلا يدري أين غاص من غير أن يزيد في البحيرة ، ولا ينقص منها » . وقد يقال ان هذا الكلام في هذه الحالة ، ينم عن جهل بين ظاهرة التبخر الكثيف ، الذي يجاهد نهر الأردن الضعيف كثيراً ضده . ويذكر قدامة (٦٩٥) في « الاقليم » الرابع ان لبحيرة طبرية رافدين لا رافداً واحداً : هما نهر الأردن الذي يذهب إلى البحر الميت ، ونهر آخر في الشمال يصب في البحر قرب مدينة أنطاكية ، ولا يمكن أن يكون الا نهر الارنط . وهكذا ، لم يبق على قدامة بعد أن استبدل نهر الأ، دن بالارنط الخيالي المخالف في شمالي البحيرة ، إلا أن يجعل البحيرة خزاناً عجيباً لا ينضب ، تتغذى من عين خفية ، يقول انها « لا تسيل » ، ونقول نحن ، لزيادة الدقة ، ان خروجها لا يرى .

وهكذا تفسر الاتصالات الباطنية تلايف المناهات المكتشفة . وهي
عيون عميقة تحفظ في طياتها أبلدان الغرقى دون أن تعيدها أبداً . وتشحن
أحواضها المتطابقة على التوالي حسب قوة المياه الواردة اليها (٦٩٦) .
وهناك تلك الأنهار الخفية التي تنتهي إلى رمل ، فتغور ثم تظهر بعيداً جداً
في نهاية تجوال . سوف نجهل تفاصيله إلى الأبد ، مع أنه واقعي . عرف
من قصب كتب عليه ، وطرح في موضع مغيض النهر ، وظهر في نهر
آخر (٦٩٧) ، أو من ذلك التركي الذي ركب قربة منفوخة ؟ في مدخل
نهر تحت رواق كبير تحت أحد الجبال . ثم خرج بعد يومين أو ثلاثة
إلى سهل تسكنه الأغوال (٦٩٩) وتعرف هذه الظاهرة في أماكن
كثيرة (٦٩٩) . ويغور الهرماس ، نهر نصيبين في شمال الاناضول ،
ثم يظهر فيه . وفي جزيرة العرب ، في العروض ، عين يقال لها عين
الناقة ويقول أهل الفلج في اشتقاق هذا الاسم ان امرأة مرت بها على ناقة
لها ، فتقحمت بها الناقة في جوف العين ، فخرج فقط سوارها بنهر محلّم
بهجر البحرين ، ومحلّم نهر عظيم ، يقال انه في أرض العرب بمنزلة
نهر بلخ في أرض العجم . وقد قيل ان نهر جيحون لا يغور ، ويصب في
في بحر الهند مما يلي كرمان . ومن أنهار الغياهب ، نهر زريرن روذ .
الذي يخرج من وادي اصبهان ، ويسقي رساتيقها ، ثم يغور في الرمل ،
ثم يظهر في كرمان على ستين أو تسعين فرسخاً (حوالي ٣٥٠ إلى ٥٢٠ كم)
من الموضع الذي غار فيه ، فيسقي أرض كرمان ثم يصب في البحر
الشرقي . أما الأردن ، ولعل حالته أعقد حالة (٧٠٠) ، فيظن ان مياهه
تغور في البحر الميت الذي يظل هادئاً رغم كل شيء ، كما رأينا ،
ولا يعلم أحد كيف غارت ، ويعتقد أن لها مخرجين . . . يميل بعض
المصنفين ان اولها الهند والبعض الآخر نهر أبي فطرس ، أي نهر العوجاء

اليوم (الاعور) . ، الذي يتفجر في سهل فلسطين الساحلي ، ويقال لما ان غزارته كغزاره نهر الأردن ، وان لمياهه « ثقل الزئبق » لأن أصلها من البحر الميت .

فهل نسخر من مآثر هذه التيارات الباطنية ؟ لاشك أن البعد شاسع بين جيحون ومشارف الهند ، وان الفاصل بين الهند ونهر الأردن محيط فسيح أيضاً . إلا أن سائر النواحي . فيما عدا المسافات ، ان وجدت تحدثنا عن حقائق نعرفها جيداً في أيامنا الحاضرة : كالعيون أو الانبجاسات من الصخور الكلسية في الجزيرة وفلسطين ، أو السفوح الشمالية من جبال فارس . إلى جنوب شرق اصبهان ، أو من الواجهة الشرقية في جزيرة العرب (٧٠١) . فهنا ، تبقى اسطورة المياه الباطنية ، المتوازنة بفضل جملة حركات داخلية وبادلات ، مثلما يحصل في عروق الجسم البشري ، قائمة ، ولا تضيف شيئاً إلى موطن الخيال ، بل يحتمل بالأحرى أن تكون تلك الاسطورة قد نشأت من المشاهدة المباشرة (العيان) ، أو من تفكير أولي متردد يتساءل عن سر انبثاق هذا الماء من البر ، الذي يشير مع الزمن إلى بدء ظهور علم يؤثر في المرء تلمسه طريقه .

وفقد الماء أحياناً شكله وحتى مادته في حركاته الباطنية : فيتحجر عند خروجه من الصخر الذي يحبه . لكن لا بد له قبل ذلك أن يعود ويتصل بالهواء الذي يجمد فيه العناصر التي أخذها من الأرض . ويعمل الزئبق العمل ذاته ، صناعياً ، في ماء مر ومالح وحمض (٧٠٢) . بالتالي ، يستحجر الماء ، هنا وهناك . في مجاريه المعمولة من خرف ، أو في كهف : ونقول نحن بمزيد من الدقة (٧٠٣) : يتحول إلى كلس .

وفي معظم الأحيان ، اذا خرج الماء من أماكنه إلى الهواء الطلق ، وسال من مواضع منبعه ، يتعرض إلى هذه الظاهرة . فيستحجر (٧٠٤) ، ويصير أحياناً صفائح حجر (٧٠٥) . ويستحيل تارة جزئياً فقط ، فيصير موميلي أبيض (٧٠٦) وأحياناً كلهما أبيض . أو بورقاً . أو شياً أو نوشاذر ، ومن المعروف جيداً أن هذه المواد ليست سوى مياه تمجرت (٧٠٧) .

وهكذا تنقل هذه المياه المرء إلى تخوم عوالم عديدة : لا عوالم العناصر الثلاثة المنوه بها ، بل عالم الكائنات أيضاً : فقبل أن تسقي المياه الحقول ، متى تسنى لها ، تتحول لينتفع بها الانسان . ولا يذكر الاستطباب أو البناء أو العمل الحرفي ، أو التآم الآتية المنصدعة متى ألقيت في العين المحجرة (٧٠٨) ، الا ليستعيد الانسان ، فيما يظن ، مرة أخرى ، المراحل الانتقالية ، أو بالأحرى الاستمرار التام الذي خلقه الله بين العالم وبين البشر الموضوعين عليه . فلا انقطاع بين ممالك الطبيعة . كذلك لا حلّ استمرار بين هذه الطبيعة وبين الكائن المتميز فيها ، بارادة الله ، لكي يعتمد عليها ويواصل أعمالها لمصلحته الخاصة ، انما دون أن ينسى مطلقاً انه منها بجسده .

شكوك جغرافية المياه

لنعد الآن إلى وجه الأرض . إلى المياه المنظورة . فهل تبدو لنا حقاً متماثلة في جميع الأماكن ، أو ، على النقيض ، متباينة ، تبعاً لما تفرضه الأرض عليها من أشكال بالذات ؟ لا ينازع أحد هنا بوجود مصطلحات علمية مختصة ، أسوق بعض أمثلة منها ، واضحة جداً : كالغور ، أي « المنخفض الذي تأخذ المياه إليه » والغسر ، أي الأرض المغطاة بالمياه ، والعمق الذي يجمع السهل والماء والأطراف الجبلية (٧٠٩) ، والهور ،

وهو مساحة واسعة مرزغية خالية من القصب (٧١٠) ، والخور أو الخور .
والخور طريق الماء لم يخفره أحد يجري . . . فيه ماء الامطار ويتراجع
مائه . . . عند المد وينضب في الجزر . وهذا اللفظ خاص بناحية
البصرة (٧١١) . والطربال ، وهو بناء عال مثل الدكة ، استنبط بحذائه
ماء من جبل شامق حذاءه (٧١٢) . وسائر الألفاظ التي لم تعد تعرف
لشيوعها : كالمستنقع . والقنى ، والخروض ، والبئر ، والفوارة (٧١٣) ،
إضافة إلى البحيرة والعين ، الباردة أو الحارة ، والبئر ، والحدول .
وأخيراً النهر .

ولا ريب أنه سيؤخذ علينا أننا نخلط اعتباطاً أنواع المياه وأحوالها
الطبيعية مع غيرها مما صنعه الانسان . لكن هل يختلف ما نفعله عما قام
به مصنفونا ؟ فالنهر يعتبر مصطلح المياه الجارية العظيم ، ويشمل جميع
أشكالها من الحدول إلى أكبر نهر ، وحتى المجاري المستصلحة . بالتالي ،
يكاد لا يستطيع مطلقاً التفريق بين النهر والقناة . فاليحقوبي لا يفيدنا
البتة ، إذ لا يرى فرقاً بين بردى وفروعه في الغوطة ، إلا بالحجم دون
الطبيعة . حين يقول : « ومدينة دمشق ليس لها نظير في جميع أجناد
الشام في كثرة أنهارها وعمارتها ، ونهرها الأعظم يقال له بردى » ،
ويقول ابن حوقل انه يتفرع منه نهر « القناة » . ويلحظ (٧١٤) الخلط
ذاته في العراق ، حيث تتنازع الأقتية الكبرى والفرات ودجلة على اسم
نهر (٧١٥) دوماً . ويكاد المرء أيضاً لا يميز أحياناً المجرى من القناة ،
أو النهر . الطبيعي أو الصناعي ، من البلد الذي يرويه : مثل نهر الابلبة ،
وهو قناة يشتق اسمه من مدينة قريبة من البصرة ، ومثل نهر بلخ ،
القريب من بلخ . وجيحون ، وكلاهما يدلان : إضافة إلى أنفسهما ، على
النواحي التي يحولانها إلى جنات أرضية (٧١٦) .

وقطعاً ، قد يلعب هذا النص أو ذاك إلى خبر يوضح تفرع القناة من النهر (٧١٧) . لكن كم يعثر . متقابل بضع صفات بينة ، على صفات أخرى ، تعد بالعشرات هذه المرة عند المصنف الواحد : تخطيط ، في المشهد الواحد من الأراضي المروية والمقننة في جميع الاتجاهات ، كالعراق وآسية الوسطى ، بين مجرى الماء الطبيعي وبين جميع ما تفرعه عنه عبقرية البشر (٧١٨) . ينبىء هذا الاختلال في التوازن بنقص النظرية والتصنيف . وقد حاول المسعودي اجراء تصنيف . إلا أنه أيد في الواقع الصورة التي تعطيها النصوص ، اذ قال : « وكل ماء يجري فهو نهر . وحيث ينبع فهو عين ، وحيث يكون معظم الماء فهو بحر » . لذلك . يذكر ان اسم البحر واليم المرادف له ، لا يطلق على البحار فقط ، بل على النيل أيضاً دون انهار الدنيا لكبره واستبحاره (٧١٩) . ومرة أخرى . يستشف من هذا الحديث ، موضوع الاتصال بين جميع مياه العالم . وهو موضوع ثابت الجذور ومضمن فيه .

ويتميز تصنيف مؤلف كتاب حدود العالم (٧٢٠) بالتهيج الزائد ، عندما يقول : « والأنهار ضربان ، أولهما طبيعي والآخر صناعي . ففي الصناعي . يحتفر المجرى ، ويسحب الماء فيه ، لتستفيد منه إحدى المدن أو تسقى به الزروع . ومعظم القنى صغيرة ، لايسع السفن أن تجري فيها . ولبعض المدن عشر أفنية ، وأحياناً أقل أو أكثر ، تستعمل مياهها للشرب وفي الحقول والمراعي . ولا يمكن أبداً تحديد عدد هذه الأفنية ، إذ قد يزيد أو ينقص في كل لحظة . أما الأنهار الطبيعية ، فهي مجاري المياه العظيمة التي تنشأ من ذوبان الثلوج أو من العيون الخارجة من الجبال أو من سطح الأرض ، وتشق طريقها ، تارة ضيقة وطوراً عريضة ، وتستمر في جريانها حتى تصل إلى بحر أو مستنقع . وبعض

هذه الأنهار الطبيعية ليس عريضاً جداً ، فلا تستفيد منه إلا مدينة أو ناحية :
مثل نهر بلخ ونهر مرو . وقد تتفرع من النهر الطبيعي أقبية كثيرة
يستفاد منها ، في حين يأخذ عمود النهر إلى البحر أو المستنقع ،
كالفرات » .

اكن لا يوضح وصف كتاب حدود العالم الفارق الرئيسي بين
المجري الطبيعية والصناعية من ناحية الافادة منها . فأحد القوارق ،
المشوش بعض الشيء . ينحصر في التكوين : فالنهر ينشأ من عيون أو
ثلوج . وقد تتفرع القناة عن النهر ذاته ، أو — الا أن النص لا يورد
شيئاً عن هذه النقطة — من وعاء خاص به : عين مثلاً أو بئر . وقد يجوز
القول ان الأساس الأول الحقيقي في تحديد المراتب وفي الإحصاء ، يعتمد
على الحجم : فيعتبر القناة بعامة صغيرة وبالتالي لا تصلح للملاحة ، والنهر
على نقيضها : هاماً على الأرجح ، وتبقى امكانية الملاحة فيه في الظل ،
ربما لأنها تخضع إلى احتمالات فرط القوة أو ضعف العرض (٧٢١).
في النهاية ، تنتمي أهم الخصائص إلى ثلاثة ميادين : أولاً ، وهذا هو
التفريق الجوهري ، سرير مجري الماء الطبيعي أو الصناعي ، ثم مصبها ،
إذ لابد من أن ينتهي النهر في بحر أو مستنقع في حين يفترض ضمناً ان
تنتهي القناة في الاراضي التي تسقيها ، وأخيراً الخريطة ، وهي ثابتة في
حالة الانهار . ومثيرة تعريفاً في حالة الأقبية التي تخضع إلى مشيئة
البشر .

اذن . مهما يكن ، يبدو هذا الوصف مقبولاً ، بعد ادخال بعض
التعديلات الضئيلة عليه . هنا وهناك . لجعله أدق وأشد تماسكاً . وهو
نسيج وحده في الأدب الجغرافي . ونسأل بخاصة : هل تقيد به بدقة

مصنف كتاب حدود العالم نفسه ، اذا اقتصر الجواب على أنهار العالم ، التي تلي نص الوصف (٧٢٢) ، يلاحظ ذكر عدد كبير من الأنهار التي ترقد أو تصب في نهر آخر (٧٢٣) ، وثمانية أنهار تنضب في الحقول التي ترونها (٧٢٤) ، ونشير أخيراً إلى وضع هام جداً (٧٢٥) هو وضع نهر هرات « الذي ترفده روافد عظيمة تتألف من سيول (٧٢٦) ، تجف أحياناً ، فلا حاجة لذكرها » . ومن هنا نخلص إلى أن الوصف أمم صفة أساسية للأنهار الطبيعية : نعي بالضبط وجود الماء فيها على الدوام .

في النهاية ، يشبه وضع الماء وضع الأرض في هذه النقطة ، التي تعتمد من جهة أولى على مجموعة ألفاظ تقليدية ، ومن جهة ثانية على نقص ، أو على الأصح ، على خفاء ما في علم المياه من مفاهيم لا تدرك ولا تكتب إلا في أماكن متفرقة لتشهد على حقائق بديهية يدحضها أحياناً أخرى اللاهوت أو الاسطورة أو ، على نطاق واسع ، القوة الإيحائية للماء جار منعش ، يقضي اسم النهر ، في سحره السامي ، على احتمالات إجراء أي تصنيف آخر ويودي به .

وتأييد وجهة نظرنا بالعودة إلى النصوص على أساس فئات جغرافية الأنهار . ولناخذ لنبدأ مفهوم الخوض . فعلى وجه الاجمال ، وفيما عدا بعض الأخطاء في التفصيل . الناشئة عن نقص في معرفة الأرض (٧٢٧) يُجرى النهر جيداً جداً من منبعه إلى مصبه ، من خزان الماء في أعلاه (٧٢٨) إلى البحر أو البحيرة . أمثلة (٧٢٩) : نهر النيل الذي ينبع من جبال واقعة خارج دار الاسلام ، ويجري بجلال وبساطة ، ويتجه رأساً إلى الشمال ، فيولى اهتماماً خاصاً ، كما قلنا ، ونهراً دجلة والفرات اللذان يتناولهما الوصف افرادياً من أرمينية إلى الجزيرة وحتى العراق ، ثم يجتمعان في

المشهد المشترك لسهل السواد وشبكة الاقنية التي تمزج أحياناً مياه
النهرين . وفي آسية الوسطى ، سيحون ثم جيحون الذي يقول عنه كتاب
حدود العالم (٧٣٠) ان غزارته أضعف من غزاره رافده الخرناب لكنه
فرض اسمه لطول مجراه الاجمالي .

اذن يدرك حوض هذه الأنهار وأنهار كثيرة غيرها . من خلال
مجرى ماء ، تستعمل النصوص ، على الأقل في حالة الأنهار الكبرى ،
لفظ عمود لتسميه به : ويعني عمود حرفياً الجذع ، الساق ، الركيزة .
وهنا الشريان الرئيسي في الشبكة النهرية (٧٣١) . اذن ، يتعلق الأمر .
كما نرى ، بتنسيق المراتب ، المبني على قوة النهر ، أو ، كما قلنا
منذ قليل ، على طوله ، لكن دون أن يقال بدقة ، كما نقول اليوم ،
ان هذه الظاهرة ثانوية بالمقارنة بمستلزمات التضاريس ذاتها ، وان النهر ،
قبل أن يكون عموداً ، ولید ما يهيأ له العلو لكي يلعب هذا الدور .
وندرك نتائج هذا الوضع على مفهوم الحوض بالذات . قطعاً ، يعرف
مصنفو الجغرافية — فهل يجهلون ؟ — وجود أنهار « تغيض » في
غيرها (٧٣٢) نسميها نحن الروافد . لكن هل يؤول هذا الوضع إلى أن
يتناول البحث ، كما هي الحال في الجغرافية الحديثة ، علاقة الحوض
بغيره من الأحواض من جهة — تميز خطوط تقسيم المياه الحدود بينه
وبين سائر الأحواض ، فتبين هذه العلاقة — وان ينتظم الحوض من
جهة ثانية حول المحور الذي يشكله مجرى الماء الرئيسي ؟ في الواقع ،
يؤدي الالتحاق على العمود في نصوص الجغرافية العربية ، لا إلى ابعاد
حدود الحوض إلى ما وراء الروافد وتوسيعه ، وإلى أقصى حد تسمح به
التضاريس . بل إلى تقليص الحوض ضمن الروافد حتى محور الشبكة

الرئيس : فيقتصر نطاق الخوض كله هنا على المجرى الرئيس . ويختص
بنهر واحد دون غيره ولا يكون مشاعاً بين عدة أنهار .

من هذه الناحية ، تلبو صورة العمود واضحة بجلاء : فكما تجسد
الشجرة كتلتها وحياتها وعمرها بجذعها . وتعتبر الأغصان امتداده
والجذور بدايته ، كذلك ، ينظر إلى كل ما يتفرع عن العمود أو يصب
فيه ، نظرة واحدة . ويسمى أحياناً بكلمة : الشعبة . وطبعاً قد تكون
الشعبة ذراع النهر على جانبي إحدى الجزر أو في إحدى الدلتات . أو أي
قناة متفرعة عن مجراه كما هي الحال بالنسبة إلى النيل ودجلة والفرات
وجيحون وهلمند وهرى روذ (نهر هرات) وزرغشان (نهر الصغد)
ومرغاب (نهر مرو) وبردی ومتیتجا وغيرها من الأنهار (٧٣٣) . لكن ،
قد تكون الشعبة أحياناً أيضاً عكس الفرع ، الطبيعي أو الصناعي .
نعني الرافد بلاريب (٧٣٤) . اذ نقصر اذا قلنا أن كل فرع ، بالمعنى
الذي نفهمه ذراعاً كان أو قناة ، يأخذ من النهر تعريفه وحياته . فالرافد
فرع أيضاً . بمعنى أنه يشترك والنهر بهذه الحياة التي يجري للقائها
وتستدعيه وتصبهره في جسم العمود العظيم .

اذن ينبغي أن ندرك أن الخوض سطح يحدد من خلال مجرى ماء
رئيس ، لكن يجب رؤية هذا المجرى الرئيس في وحدته . والواقع
أن هذه الوحدة ، لهذا النهر أو ذاك ، الهام أو الثانوي ، تلتقي صعبوبة
لتجسيد ذاتها تحت اسم واحد لا يتغير . وينشأ كل هذا الوضع عن أن
عددًا من المجاري المائية يضيف إلى اسمه الخاص أو يستبدله بلفظ نهر
مقروناً باسم المدينة أو المنطقة المسقبة . ثم يسقط على المشهد الاسم المركب
الحاصل على هذا النحو (٧٣٥) . ويصبح هذا القول في حالة نهر سيحون

(إياكسارت - سيرداريا) والشاش ، حالياً بلاد طشتمند ، وفي حالة
نهر جيحون (اوكسوس ، اموداريا) وبلخ (٧٣٦) . وفي حالة نهر
هرى رود وزر فشان ، ومرغاب الذين ذكرناهم من قبل ، وفي حالة نهر
هلمند وسجستان . وفي حالة نهر طاب وارجان في فارس ، وفي حالة
نهر دجيل (كارون) وخوزستان ، أو مصرها اصبهان ، وفي حالة
نهر الارنط وانطاكية ، وفي حالة نهر مهران والمنصورة ، مصر
السند (٧٣٧) . وفي حالة النيل ذاته اذ يقال نيل مصر (٦٣٨) أحياناً .
لنكتف بهلما القدر ولنسائل أنفسنا أولاً : أوليست تسمية مجرى الماء
باسم غير اسمه الخاص ، سبب الترددات التي تشوش ، ان حدثت ،
ما يمكن أن يحصل من ادراك وحدة النهر المقصود ، أو نتيجتها أو
قرينة تدل عليها على أي حال ؟ يلاحظ في الواقع — ويغرينا تردد اسم
العلم أحياناً — اننا نصل إلى ثلاث أو أربع تسميات ، وحتى أكثر منها ،
بالنسبة إلى هذا أو ذاك من الأنهار . وينطبق هذا الحديث (٧٣٩) على
زرين رود ، زنده روز ، نهر اصبهان (٧٤٠) وعلى نهر مهران (الهندوس)
نهر المنصورة ، نهر السند ، مهران السند (٧٤١) ، وعلى نهر جيحون ،
نهر بلخ ، نهر كالف ، وجيحان أيضاً التباساً مع شبه سميّه على تخوم
الشام والاناضول (٧٤٢) وعلى نهر الارنط ، الارند ، العاصي ،
المقلوب ، نهر انطاكية (٧٤٣) ، وعلى نهر كارون في تلك الايام دجيل ،
دجيل الاهواز ، نهر تستار ، نهر الاهواز ، نهر خوزستان (٧٤٤) ،
وعلى نهر هلمند ، هندمند ، هيرمند ، هرمند ، هيلمند ، هيرميد ، نهر
سجستان ، نهر بست (٧٤٥) .

وهكذا ، قد يتأثر بكثرة الاسماء مفهوم مجرى الماء ، مثلما نفهمه
اليوم ، منظوراً إليسه برمته مستمراً من أول مجراه إلى آخره . ويضاف

إلى ذلك لتقوية الظاهرة . تدخل أسماء أخرى . تطابق هذه المرة لا على مجمل المجرى ، بل على هذا القطاع أو ذلك منه . فنهر جيحون مثلاً يحمل مجراه الأعلى (٧٤٦) إضافة إلى ما نعرفه من أسماء وختاب ، وجرياب ونهر أيغان . ويطلق على نهر دجيل في مجراه الأعلى . أو في أحد أذرع أو فروع ، اسم مانان ، المسرقان ، السدره (٧٤٧) . ويعرف نهر الصغد ، بنهر بخارى في مجراه الأسفل (٧٤٨) . ويستبدل الفرات اسمه في حالة مماثلة ، باسمي سوره والحلقي (٧٤٩) . ولا يأخذ مهران اسمه إلا بعد أن تجتمع الأنهار الثلاثة التي يتألف منها ، ويحمل كل منها اسماً مستقلاً (٧٥٠) . أخيراً ، نلقى وضعاً متشابهاً في الألفية في العراق بخاصة (٧٥١) .

لكن لا بأس أن يبدل مجرى المساء ، الطبيعي أو الصناعي ، اسمه ، والا يهتم بهويته ، وان يضعف حرصه على اسمه حتى يصل به الأمر إلى حد استبداله أحياناً بأسماء أخرى . فيصبح نهر بلخ جيحون ، والدهاس أيضاً ، النازل من جبال باميان (٧٥١) ويصير نهر جيحان ، كما قلنا منذ قليل ، النهر السوري الأناضولي الذي يحمل هذا الاسم أو اسم جيحون ، والكر نهر تخوم جبل القبق الجنوبية ، أو نهرا في فارس (٧٥٣) . ويدل دجيل (دجلة الصغيرة) ، الذي عرفناه من قبل ، في أماكن أخرى . على قناة في السواد (٧٥٤) ، وعلى رافد — أو قناة أيضاً — كرخه في خوزستان (٧٥٥) ، المسماة أحياناً دجلة أيضاً : دجلة أخرى (٧٥٦) . ويصير النهروان في العراق قناة تأخذ اسمها فيما يبدو ، ومجراها من أحد الأنهار ، ويدرج الكل في اسم المنطقة كلها (٧٥٧) .

وتدفع هذه الترددات التي يمكن تطويل قائمتها إلى الاعتقاد ، في النهاية ، بأن المجاري المائية لا تدرك أبداً كما هي في وحدتها واستمرارها.

وقد قلنا ان هذه الحالة لا تنطبق على معظم الأنهار . مع ذلك ، قد ترتب على شكوك الاسماء أو الخريطة ، نتائج هامة على كل النهر المدرس أو جزء منه . وبالتالي ، على القدرة ، اذا اقتضى الأمر . على تناوله كمجرى ماء بالمعنى الصحيح . وقد رأينا منذ قليل أن نصوص الجغرافية تعطي أمثلة عن أنهار مجزأة . وعن مياه مشكوك باسمها ، أو يستعار لها اسم بالتالي من أنهار متلاشية . ويثبت هذه النقطة الأخيرة المقدسي ، الذي يقدم السند ويبين بالاجمال ان هذا النهر يشتمه ، يعني نهر مهران (الهندوس) ثم يتحدث في وصفه الممدن عن نهر غزير هنا وأنهار عديدة وغزيرة هناك . فهل يقصد نهر مهران الذي ينتشر على هذا النحو ، ويتباعد لوجوده في جميع المحلات ، أم أحد الأنهار التي تشكله أم أيضاً أحد أذرعه ، بدءاً من المهران الصغير (٧٥٨) . ويثبت تلك النقطة أيضاً يعقوبي (٧٥٩) الذي يذكر ان حماه واقعة على نهر يقال له الارنط ، ويشير بعد سطر واحد إلى أن لحمص نهرأ عظيماً ، فلا يعرف نهر العاصي في طريقه .

وترجع جميع أنواع هذا التردد بشأن مجرى الماء وحوضه ، إلى ثلاثة أسباب منها الثغرات بالذات في المعرفة النظرية أو معرفة الأرض . ومنها أيضاً الأشكال الطبيعية ، والمرتفعات العالية التي تعزل على مجرى النهر : بلداناً متفاوتات انقطاع بعضها عن بعض ، ويعتبر النهر في البدء -و أحياناً حصراً - نهراً . ويعرف بالاسم الذي أطلقوه عليه : والمثال النموذجي حتى أيامنا الحاضرة ، جبال زغروس التي تتخلل فيها الأنهار عن اسمها وتأخذ اسماً جديداً (٧٦٠) من فج عميق إلى فج عميق . أخيراً ، لتلك الترددات جملة أسباب ترتبط بموقف البشر من الماء ، أي امتلاكه . الذي يرى على ثلاثة مستويات . المستوى الأول منها

الوطنية المحلية والحق الثابت على النهر الذي يفرض عليه اسم المدينة أو البلاد (٧٦١) . والمستوى الثاني ، امتلاك المجتمع كله للنهر في معنى جماعي اوسع ، يدل عليه اصفاء صيغة عربية اسلامية على الاسماء السابقة ، كما هي الحال بالنسبة إلى نهري العاصي والفرات . أخيراً ، المستوى الثالث ، يحمل اسم القناة ، في حالة الاقنية على الاقل : طابع الفرد ، وربما خلد ذكر الشخص الذي حفره على حدة شرح الاصطخري (٧٦١) .

في النهاية، قد يفسر بالتالي الشك في الاسماء على نطاق واسع ، بالصلة الوثيقة بين الماء والأرض والأرض البشر . وكما هي الحال في الجيولوجية ، يتميز علم المياه بوجود بعض نواحي النقص ، على مستوى المعرفة النظرية أو العملية ، إلا أن هذه الثغرات — من يعلم ؟ — قد تكون ثمن (فدية) علم حددته بشكل آخر ، ارادته التي تنزع إلى التعميم الشامل ، وحرصه على أن يتناول العالم كله في ما يتكون منه من علاقات ، لا في عناصر تركيبه عنصراً عنصراً ، ويتذكر أن الانسان عنصر حاسم وجوهري في هذا التنظيم . متى اندرج الماء في هذا المجموع وانصهر فيه ، تصير قيمته في دوره في المجموع أكثر منها في حد ذاته . وهكذا ندرك كيف يصبح أحياناً اسم الماء مشكوكاً فيه أكثر من غيره ، في حالة نهر هلمند .

أخيراً نلقي نظرة سريعة ختامية على مفهوم آخر أساسي في جغرافية الأنهار : نغني مفهوم نظام النهر . فقد كتب أبو دلف مسعر مثلاً هذه الأسطر المقنعة جداً عن أحد روافد دجيل الاعلى ، وعليه قنطرة خُرَّازاذ الشهيرة : « أقيم هذا الجسر على وادي جاف عادة . ولا يسيل

فيه الماء إلا في أوقات الفيضانات الناشئة عن الامطار ، بشكل بحر عجاج يغطي وجه الأرض على عرض ألف ذراع ونيف بعمق ١٥٠ ذراعاً ، في حين يقتصر عمق السرير على عشر أذرع « (٧٦٣) . وبدون الفارق بين مستوى الفيضان ومستوى الجفاف ، والشح التام ، ودور الامطار ، وتقدير الغزارة أيضاً . اذ يعبر لفظ بحر حرفياً ، كما رأينا (٧٦٤) ، عن كمية هائلة من الماء . بصرف النظر عن الارقام المعطاة . وهذه التدوينات صحيحة كلها . وليست وحيدة من نوعها ، وستتاح لنا فرصة العثور على غيرها عندما ترسم خريطة الانهار الرئيسية في دار الاسلام . إلا أن الامر يتعلق في الواقع بمشاهدات محلية ، وحتى عارضة ، أخذت هنا وهناك بلا تعيين على الانهار وحسب الطريق المتبعة ، ولم تجمع في شبكة متماسكة . في نظرية شاملة لنظام المياه ومركباتها وتبدلاتها . ويعيدها الجغرافيون ، والموسوعيون منهم بخاصة ، من هواة المعطيات العامة لصورة الأرض . مثل المسعودي ، إلى بعض الاقوال الجزئية التي تتحول مباشرة إلى أصناف نوعية ، تلوب في خصائص وصف الانهار . « فعمل الأنهار التي تسكب تارة على اليابسة وتنقطع عنها » « وشباب » سريرها و « هرمه » ومحتها ، كل هذه العوامل خصائص يكاد كتاب مروج الذهب لا يلمع اليها إلا بسرعة بالغة ، في حاشية أو مقدمة أو تعليق . للوصف الحسي والتفصيل المجسد ، الواحد تلو الآخر ، في بحث الأنهار الكبرى على الأرض (٧٦٥) .

اذن ليس الحوض ومجرى الماء والنظام إلا مفاهيم كامنة ، مثلما قلنا من قبل . فالماء البحري متباعد بطبيعته ، صعب المنال ، سرّي ، غائض عادة ، يتعذر ادراكه سيما أنه يتحد حتى بعناصر أخرى كالأرض وحتى الهواء ، ونعني به الماء الذي نحاول معرفته ، وهو ماء البشر أولاً :

أي الماء الحيوي الذي يستعملونه ويقدرونه ويفتشون عنه . وفي الواقع ، قد يستغرب ألا نرى الجغرافية العربية البشرية ، بالمعنى الذي حددته مراراً وتكراراً ، في هذا الماء الجوهري ، بالدرجة الأولى ، الماء ذاته الذي سخره الله لخليقته .

الماء الضروري

يعثر على الماء في جميع الأماكن أو يكاد . وهذه حقيقة بديهية ، تتجلى لأول وهلة من قراءة النصوص الجغرافية مرة واحدة . ويدل احصاء بسيط للمقاطع التي يرد فيها ذكر الماء ، على أهميته (٧٦٦) . وغالباً ما يخصص له عنوان منفرد في عرض البلدان : فالمقدس مثلاً يخصص له في إقليم المشرق الواسع ، الذي يرتبط مصيره بوضوح بالأنهار الكبرى في آسية الوسطى وفروعها ، أربع صفحات كاملة (٧٦٧) يضاف إليها طبعاً التلويحات العديدة التي ترد في الوصف التفصيلي (٧٦٨) . ويولي الخريطة العناية ذاتها ، ويرسم عليها بدقة الأنهار الهامة باللون الأزرق (٧٦٩) .

والماء ضروري للمسافرين ، كالجغرافيين (٧٧٠) ، وللمؤمنين لوضوئهم (٧٧١) . والماء لازم أولاً وبخاصة في الحياة اليومية . لذلك كتب ابن الفقيه : « أحسن الأشياء صفو الهواء وعذوبة الماء وخضرة الكأ » (٧٧٢) ، وأضاف : « والماء حياة كل شيء » . فالماء للشرب والطهي : ويدل باب الماء في المدينة على انحناء جوهري (٧٧٣) . والماء للحمامات (٧٧٤) . والماء للطواحين التي تدخل عنصراً في المشاهد العجيبة : طواحين على الماء في خوزستان ، وهذه الدواليب العشرة (النواعير) التي تدور على شواطئ بحيرة صناعية في فارس (٧٧٥) ،

وأخيراً المياه للملاحة الأنهار . ويقول المقدسي : « كنت يوماً أمشي على الساحل وأتعب من كثرة المراكب الراسية والسائرة » ، ورأى في الدجلة السفن أبداً شبالا وزقافا ، ولهم في ذلك « رفق » ، والناس في بغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن ، ونرى لهم جلبة وضوءاء وثلاثا طيب بغداد في ذلك الشط (٧٧٦) . ويلمع إلى أن إقليم خوزستان يشق أكثر الأنهار ، يجري في جميعها السفن على غرار مصر التي يقول ابن حوقل : « تركب في السفينة إلى أي موضع وبلدة تريد ، فان طرقاتهم في الماء بالمراكب » ، ويضيف المقدسي : « وفي أيام زيادته (الماء) تستبحر مصر حتى لا يمكن الذهاب من هذه الضيعة إلى الأخرى إلا في الزواريق في بعض المواضع » (٧٧٧) .

ولا بد أولاً من إيجاد هذا الماء . على الأقل ماء الحياة اليومية . فنعم البلدان التي تستقي من نهر يجري دوماً صافياً ، وملعونة البلدان التي لديها ، وهذه الحال حول البصرة ، ماء ثلثة ماء بحر ، وثلثة ماء بحر ونهر ممزوج ، وثلثة بلا ذات يحركها المد والجزر على الشواطئ (٧٧٨) . وفي حالات كثيرة ، ينبغي التفتيش عن الماء في قعر الآبار ، وبعضها عميق جداً ومكلف ، أو سحبه بقناة تحتفر بمشقة ، اذا أريد حقاً ان تحيا (٧٧٩) المدينة . أو يسعى إليه ويحفر في سرير نهر جاف للحصول عليه (٧٨٠) .

ثم لابد من نقل الماء . ويتم عادة بالقرب والدلاء ، على مسافات بعيدة أحياناً . تتجاوز عشرة كيلومترات ، حتى المزارع التي يسقيها الرجال بأيديهم (٧٨١) . وقد تعتمد مدينة بكاملها ، رغم الجهود المبذولة ، مثلما حصل في البصرة ، على الماء المحمول إليها من مكان بعيد

جداً ، على ظهور الابل أو في السفن (٧٨٢) . ويشاء حسن الحظ أن يتمكن الانسان أن يحدد طريق جريان الماء ويوزعه ويخزنه : فتتوالى في الوصف (٧٨٣) الاقنية والترع والأقنية المتعالية ، والمسنوات والجباب والصهاريج والخزانات ، وحتى الثلاثيات أحياناً . أخيراً . لا يجوز أن نتغاضى ، في المشهد ، عن مخترعات نقل الماء ، حيث يدعم الحيوان جهد الانسان : السحارات . والنواعير المركبة على الأنهار والآبار . والاقنية التي تسكب الماء في الحقول أو في الحمامات . والبقر أو الابل التي تدير الدواليب . ويعثر على الصورة ذاتها في الاندلس وكرمان مروراً بمصر والشام وجزيرة العرب وفارس (٧٨٤) .

بقي أن يسان هذا الماء ، وان تدعم العيون أو الاقنية (٧٨٥) بالبناء . أو اللجوء إلى شفاة أحد الاولياء ، مثل النبي دانيال ، الذي اثار تابوته عصبية محلية ، اذ كان ينقل إلى المواضع يستسقى به ، ثم أخفي في سرير كرخه ذاته (٧٨٦) . ويستسقى أحياناً بالسحر صراحة . فعلى جبل نهاوند طلسمان ، سمكة وثور من ثلج لا يذوبان في شتاء ولا صيف (وهما رمزان بلديهان لقوى جهنمية ومائية) ويقال إنهما للماء ألاً يقل ، على النقيض ، يحظر طلسم آخر جرى آفة عين الملاحة ، أو طقس صب الناس الماء بعضهم على بعض (٧٨٧) .

أخيراً لا يجوز أن نهمل ممارسات القنن . ونترك أبسط علامات وجود الماء في الأرض ، القنا والقصب ، ونعتمد مثلاً على النمل : فكلما اشتد سواده وكبر وثنافل في مشيته ، كان الماء قريباً وطيباً وعذبةً . على العكس ، متى سار سيراً حثيثاً وخفيفاً حتى ليصعب امساكه . كان الماء على عمق لا يقل عن خمسين ذراعاً وثقيلاً واجاجاً . وينقل المسعودي

التقنيات الارقي التالية ، مع أشياء أخرى . وقد وجدها في كتاب الفلاحة لكاسوس (أو قسطنس) (٧٨٨) : « ان من اراد أن يعلم قرب الماء وبعده ، فليحفر في الأرض قدر ثلاثة أذرع أو أربعة ، ثم يأخذ قدرًا من نحاس أو اجانة خزف ، فيدهنها بالشحم من داخلها مستويا ، ولتكن القدر واسعة الفم . فاذا غابت الشمس ، فخذ صوفة بيضاء منقوشة مغسولة ، وخذ حجراً قدر بيضة . فلف ذلك الصوف عليه مثل الكرة ، ثم اطل جانب الكرة بموم مذاب والصقها في أسفل ذلك القدر الذي قد دهنته بدهن أو شحم ثم القها في أسفل الحفيرة ، فان الصوف يصير معلقاً والموم يمسكه ، ويصير إلى مكان الحجر معلقاً ، ثم أحث على الاناء التراب قدر ذراعين أو ذراع ، ودعه ليلتك كلها . فاذا كان الغد قبل طلوع الشمس ، فاكنس التراب عنه وارفع الاناء ، فان رأيت الماء ملزقاً بالأناء من داخل قطراً كثيراً بعضه قريب من بعض والصوفة ممتلئة ، فان في ذلك المكان ماء ، وهو قريب ، وان كان القطر ملتزقاً (٧٨٩) متباعداً بعضه عن بعض والماء في الصوفة قليل ، فان الماء بعيد ، وان لم تر على الاناء قطراً قليلاً ولا كثيراً ولا على الصوفة ماء ، فانه ليس في ذلك الموضع ماء ، فلا تتعنّ في حفره .

وتبذل عناية وانتباه فائقين في الحركة والنظر والوصفة على مستوى هذا الماء الثمين الذي ينبغي ايجاده وتنظيمه ، وحفظه . فيقوم حوله توازن ، عارض أحياناً ، يفتش عنه ، أو يستقر ، أو يختل في خضم الحصومات ، وتقدر قيمته بالمال . والويل للفقير الذي يتحتم عليه أن يكتفي بأي ماء ، المالح والكدر ، أو ان يجلبه من بعيد صافياً ويدفع ثمنه : ففي أبنية الفساطط الشاهقة التي تكون بها الطبقات سبعاً وستاً وخمساً ، وربما سكن

فيها المائتان من الناس ، وصب لمن فيها اربع مائه راوية ماء ، ويدفع
دانق لقاء صعود كل طبقة (٧٩٠).

ويعثر في المناطق الجافة في فارس أو آسية الوسطى ، التي شاء حسن
الحظ ، بنعمه الله ، فعلاً ، ان يحبوها أنهاراً غزيرة ، على مجتمع
يرتكز كله ، إلى أقصى حد ، على توزيع الماء المنظم حسب تقليد منذ
قرون عديدة . فالسدود والاقنية ، وشعب الانهار ، والواحد الاغلاق أو
التوزيع المفتوح فيها ثقب معيرة بعناية ، كل ذلك خاضع إلى إدارة
يقظة تتخذ القرارات وتراقب وتصوب وتستصلح . وعلى رأس هذه
الادارة شخصية مرموقة ، برتبة أمير ، يقال إنه أقوى من أمير الحماية ،
تحت يده عشرة آلاف رجل مرتزق ونيف . واختار من الصفحات
الطويلة التي تتناول هذا الري الحريص ، الاسطر التالية المأخوذة من
عند المقدسي : « وأما نهر المروين ، فيخرج من تحت الغور . فيمد
مرو العليا ، ثم يعطف إلى السفلى ، فاذا صار منه على نحو مرحلة ، لقيه
واد عظيم ، قد سده من الجانبين بالخطب عجيب وانحس الماء حتى
ساوى المصب ولا ترى أحسن ولا أتقن من قسمته . ويحكى عن
الذي قسمه انه قال : ما تركت من العدل شيئاً إلا وقد استعملته فيه .
إلا ما عجزت عنه . وقد أقيم لوح فيه شق على طوله ، في عرضه شعيره ،
ربما علا الماء ، فبلغ طوله في اللوح ستين شعيرة ، فتكون سنة خصبة ،
ويستبشر الناس بذلك ، ورفعت المقادير . واذا كانت ست شعيرات ،
كانت سنة قحط . وموضع مقياسهم على فرسخ من المدينة ، شبه حوض
مستدير . فاذا قلر المتولي لذلك ، انفذ البريد ساعية إلى ديوان النهر
خاصة ، ثم ينفذون الرسل إلى جميع المتولين شعب الانهار ، فيقسمون
الماء على ذلك المقدار . وعلى الموضع الذي ذكرنا أولاً اربعماية غواص

يراعونه في ليلهم ونهارهم ، وربما احتاجوا دخول الماء في البرد الشديد ، فيطلون أنفسهم بالشمع . وعلى كل رجل منهم الخشب وجمع الشوك بشيء معلوم في كل يوم يستعدونه لوقت الحاجة » (٧٩١) .

اذن هذا هو وضع المياه ، النادر أو المتقلب في معظم الأحيان ، بعد أن وجدت وصين وأهل . لكن أي ماء على وجه الدقة ؟ فحتى الآن لم نعرفه إلا في أصوله وحواره مع الأرض . والأشكال الطبيعية التي تتخذها تحت بصرنا أو يفرضها عليها عمل الانسان في النهاية ، لم نقومها إلا في غلافها الخارجي . مع ذلك . لا يمثل الماء عنصراً غريباً في جسدنا ، بل على النقيض أحد مواده ، الجوهرية على الأرجح . فنحن ندرجه ونعيد إدراجه على الدوام في لحمنا ودمنا ونطفتنا (٧٩٢) . لذلك تعتبر معرفته حيوية بالنسبة إلينا بقدر السيطرة عليه .

تصنيفات مائية جوهرية

يرى المسعودي ، استناداً إلى أرسطو (٧٩٣) ان الماء يتميز بثمانية طعوم ، العذب ، والملح ، والدسم . والخلسو، والمر ، والقابض ، والحريف . بالفعل ، يعتمد هذا التصنيف على المذاق ، كما نلاحظ ، لكنه يدخل أحياناً أيضاً أسساً أخرى : كالكثافة للدسم ، وضمنياً طبيعة الأرض ، على الأقل بالنسبة إلى الملح . ويميز تصنيف آخر ، مبني على تأثيرات المياه في الجسد : الماء العذب . والبارد ، والاجاج ، والكبريتي ، والبوريقي ، والقاري ، وماء الحديد . وماء النحاس ، وماء الحص ، وماء الزاج ، وماء البحر ، وماء الطين . وهنا تدخل طبيعة الأرض بقوة . مع الحرارة والمذاق والوسط : أرض وماء (٧٩٤).

على أن التصنيفين السابقين ثانويان . ويظل أهم تصنيف يرتكز على البرزخ القرآني المنوه به في أول هذا الفصل . وكنا قلنا إن له جوانب عديدة منها الأرض : على الأرض : أنهار كبرى يتأخر امتزاج مائها العذب بالأمواج (٧٩٥) ، عين تخرج من قعر البحر يغوص الملاحون في البحر ومعهم قرب (٧٩٦) يملأونها بالماء العذب . المياه العذبة التي تواجه المياه التي تجعلها طبيعة الأرض اجاجاً (٧٩٧) ، مدن في النيل الأدنى ، يتردد فيها الماء بين النهر والبحر (٧٩٨) . أخيراً تتنافس الأرض والبحر على عنصر يتنازعه : « فكل ما قارب الساحل جميعاً املاح الا اليسير » على حد قول الهمداني عن جزيرة العرب (٧٩٩) .

اذن كل هذا معروف وملون . ويتفوق عليه بالأهمية التصنيف الذي يحاول أن يعطي تفسيراً أصلياً للظاهرة الطبيعية . ويلاحظ أيضاً فارق كثافة ، من خلال القدرة على الدعم ، كما أثبت أرسطو ذلك بتجربة البيضة التي يتفاوت غوصها حسب كمية الملح المذاب (٨٠٠) . بقي أيضاً أن نعلم من أين يأتي هذا الملح . في هذه التجربة الدائمة التي تجريها الأرض منذ الأزل . فالمسعودي يرجع إلى الاصول ، ويقول : « وذكر ان بعض الأرض لم يسرع إلى بلع الماء ، ومنها ما أسرع إلى بلعه عندما أمرت ، فما أطاع كان مأؤه عذبةً اذا احتفر ، وما تأخر عن القبول ، أعقبها الله بماء ملح اذا احتفر وسياخ وملاحات ورمال . وما تخلف من الماء الذي امتنعت الأرض من بلعه انحدر إلى قعور مواضع من الأرض ، فمن ذلك البحار » (٨٠١) . وبذا يصبح الماء طعمان : العذوبة والملوحة ، لأن هذه خاصتها منذ البداية . ونجري على هذه الملوحة بعض الملاحظات . منها أن الملح ، وسيلة العقاب ، يهب ماء الأرض الآثمة طبيعة فريدة . فالماء الملح واحد على البر أو في البحر

وفي جميع الاماكن في أيا من الحاضرة . ومنها ان الماء عنصر منفصل يستقر . ولا يتم امتصاصه الا اذا شاءت الأرض ، فلا دخل له بالحدث بالتالي ، ولا يجوز على هذا الأساس ، اعتباره ملعوناً ، أي ، بمزيد من الدقة : ليس سبب اللعنة التي أصابته . ومنها أيضاً أن الملح ، وهو واحد من العناصر الداخلة في تركيب الأرض ، يتلشى هنا تماماً أمام الملح الذي يعتبر عامل تحول . ويصبح ، اذا جاز القول ، العنصر الخامس في العالم . ومنها أخيراً أن العقاب يعدل نشوء الكون : فلم يعد الماء العذب والماء الاجاج ، مثلما كانا في البدء ، عنصري توزيع متناسق ومتوازن ، بل حصيلة صدفة ، وآثار ، بالمعنى الصحيح والمجازي ، فوضى تغلب ارادة الأرض .

وينتقل المسعودي في مكان آخر من تاريخ الماء إلى عمله ، فيقول ان ما غلب عليه الهواء من الماء كان عذباً شروباً ، وما امتنع الهواء من التمكن منه غلبت عليه أملاح الأرض وسببها وصار مالحاً اجاجاً (٨٠٢) . فلم يعد ينفص اجتماع العناصر الثلاثة إلا النار . ويلمع ابراهيم بن وصيف شاه إلى دور النار ، عندما يؤكد أن عذوبة الماء وملوحتها يزادان حسب الاتجاه إلى الشمال أو نحو الشمس (٨٠٣) . ويبدو تدخل هذا العنصر واضحاً جداً : فالتبخر يشتد كلما اقتربنا من المناطق الحارة ، ويزيد نسبة الملح في الماء ويعتبر نص المسعودي أعقد ، نظراً لما يغفل ذكره . ويسلم بأن الماء يملح بترشحه في الأرض ويعذب بفعل الهواء . لكن هل يحصل هذا دوماً أم في حالات معينة فقط ؟ فاذا كانت الملوحة إحدى ثوابت الأرض ، لابد من قبول ثلاث احتمالات بالنسبة إلى الماء . فهو اما أن يكون عذباً بطبيعته ويحميه عمل الهواء ، فلا يجعله يملح بتماسه بالأرض ، كما يحصل في غياب الهواء . واما أن يكون عذباً بطبيعته

أيضاً ، ويميل بتأثير الأرض . ويصبح عمل الهواء في هذه الحالة . ان حصل ، اصلاًحياً فيعيد إليه عذوبته . أخيراً ، اما أن يكون الماء وحده . من بين هذه العناصر الثلاثة ، وفي البدء ، محايداً ، فيكتسب طعمين مختلفين محليين حسب ملامسته الأرض وحدها أو الأرض والهواء معاً . ويبدو الهواء في جميع الحالات المفروضة أقوى العناصر الثلاثة وأبرزها . لأنه يظهر دوماً متى وجد . ولو فرضنا أن ملوحة الأرض عارضة أصلاً . لتحتّم علينا استعراض حالتين اضافة إلى الملوحة المبحوثة من قبل . فاذا كان الماء في أرض غير مالحة ، واتصل بالهواء ، يظل عذباً على أي حال ، بطبيعته أو بعمل الأرض . واذا كان الماء في أرض غير مالحة وانقطع عن الهواء ، يحتمل نظرياً أن يظل محايداً أو عذباً بحكم طبيعته هذه المرة فقط . في النهاية ، بعد هذا العديد من الطروح والفرضيات ، نتساءل ما اذا كان لابد أن نفتش عن أبسط تفسير وأوضحه أيضاً ، مرة أخرى ، في نوايا الخالق ، الذي يتصرف بالماء ، كما يتصرف بكل شيء ، كيفما يشاء : فهذا الموقف تفسير ما لا يفسر ، أو بالأحرى تخلي عن تفسيره ، يتخذ هنا شكل تاريخ التوراة الذي نحال اليه .

ويعارض تصنيف أساسي آخر بين المياه الباردة والحارة . وقد تكون الحارة باردة في البدء ، ثم متى هبت الجنوب ، تسخن تلك المياه (٨٠٤) ، أو ان الانسان ، فيما يبدو ، من بعض التطبيقات الاستطبابية ، يحول طبيعة المياه ذاتها اعتباراً من مستوى حرارة معين (٨٠٥) . مع ذلك ، في الاساس ، يظهر الفارق الجوهرى في البدء بين المياه الحارة وسائر الامواه ، الباردة عادة ، الزائدة البرودة أحياناً ، والجمدة تقريباً في بعض الحالات (٨٠٦) ، ويجمد بعض الماء في الصيف اذا اشتد الحر وقاظت السموم ، ويكون حاراً في الشتاء (٨٠٧) . واشرت

من قبل (٨٠٨) إلى بعض هذه الظواهرات المتصلة بخاصة بالبراكين .
وأكرر هنا هذه التدوينات مع غيرها ، لأعطي الصورة النموذجية العامة
عن هذا الماء (٨٠٩) . وتخرج العين الحارة من قوى الأرض الحية والخفية ،
العظيمة والعجيبة . وتتميز أولاً بالنار التي تخرج منها ، وقد تقاوم النار
الماء وتطغى عليه . وفي الغالب ، يساق البيض أو الارز في الماء الساخن ،
الذي تمعط فيه الجلود . ويشق إلى الحمامات منه قناة ، وتعالج به
الاورام والجرب والقروح والبواسير ، وجملة عاهات أو أمراض
مزمنة ، والمقعد و . . . واستغني عن الطبيب وبئس المصير .

ولا وجه شبه اذن بين هذا الماء والماء الآخر ، أي ماء الحقول أو
حاجات الجسم اليومية . وتكاد الحمة ، إذا تبردت ، لا تؤمنها (٨١٠) .
وفي سائر النواحي ، يمكن القول إن طبيعة الحمة الاستثنائية تؤدي إلى
استعمالات نادرة ، يكفي النزر القليل لكي تنقلب إلى تأثيرات مؤذية
كالماء القاري أو النفط (٨١١) . وإذا كان ترافق الأرض والماء شائعاً
يشاهد كثيراً ، لأنه يجمع عنصرين نادرين أحدهما جاف والآخر
رطب ، وإذا كان ترافق الهواء والماء عادياً أيضاً ، لأنه يجمع تحت
السماء عنصرين رطبين أحدهما حار والآخر بارد ، فإن ترافق الماء والنار ،
على النقيض ، غير مألوف لأنه يجمع عنصرين متضادين أحدهما بارد
ورطب والآخر حار وجاف . ونستطيع استخلاص النتائج ذاتها من
الخصائص الأولية الأخرى : فالماء ثقيل كالأرض ، وبطيء كالهواء ،
في حين النار خفيفة وسريعة في الوقت ذاته (٨١٢) . اذن تعتبر الحمة على
وجه العموم دليل ظاهرة شاذة ، وترافق غير متكافئ يعلم الله وحده
سره ، هنا أكثر من أي مكان آخر .

أجل ، يسمح هذا السر للإنسان ان يفهم ، في الحد الأدنى ،

لماذا يجب عليه ، عندما يطرأ خلل على جسمه المركب من اتحادات أولية تفرضها الطبيعة ، ان يساعده ويعالجه باتحاد غير مألوف بين الماء والنار . ولو اطلع البشر على هذا السر ، لفسروا لماذا يجد العمل اللاتبيعي أحياناً هنا أو هناك ، مثل تسخين الماء الذي نقوم به يومياً في المطبخ أو الحمام ، عنصرين مترافقين طبيعياً ، تجمعهما « الزراعة » وحدها : نقول بدقة هنا أو هناك ، في هذا المحل أو ذاك من الكرة ، لكن ليس في كل مكان.

فالتوافق والتنافر والاقتران ، ألفاظ تمثل لا صوراً فحسب ، بل أيضاً انعكاس انتشار الاعتقاد بتوزيع الوظائف العضوي في العالم كله. فالجنسية داخلية في طبيعة الأشياء . تماماً مثلما هي الحال عليه في عالم البشر الصغير . فيقابل المشرق الذكر المغرب الانثى ، ولكل منهما كواكبه ، وتأتي الشمس والقمر في طليعتها (٨١٣) . وتقسم الاحجار إلى ذكر وأنثى (٨١٤) . فلا عجب أن تقسم المياه على هذا النحو . وقد صنفها ابن الفقيه حسب وضعها بازاء الجهات الأصلية ، فجعلها صافية في جهة المشرق ، وكدره وحارة وثقيلة ومتغيرة في الجهات الأخرى (٨١٥) . ويخطو ابن حوقل (٨١٦) خطوة أخرى ، ويقول : « وربما ولدت المرأة القبطية الولدين والثلاثة والأربعة في بطن واحد بحمل واحد ، وليس ذلك بمكان ، ولا في شيء من البلدان ، ولا ذلك بالخصوص . بل ربما جرى في السنة دفعات ، وذلك ان ماءهم على قولهم انثى يريدون ماء النيل ، وفيه خاصية لذلك على قولهم » ثم يقارب ابن حوقل بين النساء القبطيات وبين غنم تركستان وخوارزم حيث تلد الشاة في السنة ستة وسبعة رؤوس من الحملان ، والمعز كما تلد الكلبة . ويعلل هذا الوضع ويقول ان اغنامهم : « ترعى نهاراً وتنفس ليلاً ، فقواها زيادة ، وما ترعاه صحيح ملائم لها . وهذا يذكره الخراسانيون ان هواءهم يغلو حيوانهم

ويزيد في صحتهم . وينقي ابشارهم ، ويدفع عنهم الأمراض والاعلال
صحة مياهمهم » . فالخصب والصحة يترافقان ، ويحتاجان بالتالي إلى
الأرض ذاتها ، قطعاً ، وإلى القمر معها عبر الليل ، وإلى الهواء ، وأخيراً
الماء الذي يحتويه العشب ضمنه ويحمله على أوراقه . ويضيف ابن
فضلان : اذا صار الماء ثلجاً في الشتاء قوى الانواع .

بالتالي يبدو أن الماء الانثى هو الماء الذي ينشأ من وضع يجمع التعرض
إلى إحدى الجهات الأصلية . والأرض والمناخ والقمر . فما هو الماء
الذكر ؟ يعارض المقدسي في هذه النقطة بين نهرى بلاد ما بين النهرين ،
ويكتب : « واما دجلة فانها ماء أنثى ، لطيف ، جيد للمنفعة ، وكان أبو
بكر الخصاص يأمر ان يحمل له الماء من فوق نهر الصراة ، قبل أن يلقاه
الفرات . . . واما الفرات فانه نهر ذكر فيه صلابة » (٨١٨) . ويطلب
للأدب أن يتبسط (٨١٩) في موضوع ماء دجلة ، ويعتبره أحد مواضيع
المفضلة : وكان أحد الرجالات ورد فارس واصبهان ، ومعه من ماء
دجلة ماء كان يشربه منه في المواضع التي يجتازها ، فلما شرب من ماء
اصبهان أثره على ماء دجلة ، فأمر باراقة كل ما كان معه من ذلك ،
واقتصر على هذا الماء لما فيه من العذوبة واللذابة ، وعمله في هضم
الطعام . وهذا في ماء دجلة معدوم . وتتفق هذه الحالة في الواقع مع حالة
المياه الموضوعة في جهة المغرب المنوه بها من قبل .

ويبدو أن هذا الحكم السيء على ماء دجلة نسبي جداً ، في هذه
الحالة ، املاه انزاله إلى المرتبة الثانية بعد ماء أفضل منه . وبذا نواجه
انقلاباً حقيقياً في التقويم التقليدي ، يجعل ماء كان الناس يفضلونه
ماءاً رديئاً في حين احتفظ الفرات ، النهر الذكر الذي فيه صلابة ، مثلما
رأينا ، باسم الماء العذب (الفرات) الذي عمل منه القرآن علامة عطف

الله على البشر . وهكذا تأتي مقارنة خصائص جنسية الماء ، فيما يبدو .
سيئة وهاربة وضمنية ، وحتى مجهولة أحياناً . أو اذا اردنا ، أن نبرز
التضاد الذكر الانثى ، ملاءمته ، إن لم يكن شهرته ، فلا بد أن نسلم بأنه
يقتصر على نفسه ، مستقلاً عن الخصائص الثانوية التي نصفه بها خطأ .
فيصبح الماء الانثى ، على نقيض الماء الذكر ، ما يفرق به حصراً ، كما
عند ابن حوقل (٨٢٠) ، من فرط تنشيط خصب النساء ، وبلا أدنى
شك ، خصب الأرض المقرونة به مرة أخرى . وهكذا نعود إلى ظهور
الاعتقادات القديمة بالماء الأصلي أو السفلي ، المستتر في قعر الأرض
والانثى ، الذي يختلف عن ماء السماء العلوي والذكر (٨٢١) . أقول
معتقدات قديمة ، بقيت إلى أيامنا الحاضرة ، حتى المذكر والمؤنث ،
اللذين نطلقهما على أسماء الأنهار (٨٢٢) .

أخيراً هل يجب أن نتحدث عن تصنيف على أساس الحواس ؟
فاذا كان النوق ، كما سوف نرى ، أحد أسس تقويم المياه ، مرفوقاً
أحياناً بحاسة الشم واللمس ، فالمرء يذهل على النقيض لندرة الرؤية . ففيما
عدا الخرائط ، التي يبدو فيها النهر باللون الأزرق (٨٢٣) ، لا نجد
شيئاً من لوحة التلوين المألوفة في هذا النوع من التصوير . واذكر التضاد
في خوزستان بين نهريْن ، بخاصة في وقت الفيضان ، الذي يصبغ
أحدهما بالأحمر ويبرز اللون الأبيض للنهر الآخر . واللون الأحمر
القاني في الزاب الأكبر قرب منابعه ، وبحيرة زرقاء في الجزيرة ،
لانعكاساتها كانعكاسات الزجاج الملوّح . واللون الأخضر أو كأنه
الزنجار ، في بعض العيون ، الفاقع حتى ليتمكن صبغ الثياب به أحياناً ، أخيراً
بخاصة النيلين ، على الأقل عند الاسواني : أحدهما أبيض ناصع ولبي
أخذ لونه من أحد روافده أو من الأراضي التي يجتازها ، والآخر أخضر

غامق . انما صافي بآن واحد حتى لترى الاسماك في قعره ، ويحافظ النيران على مياههما منفصلتين على مسيرة يوم بعد التقائهما (٨٢٤). اذن تسجيلات متفرقة وسريعة . ولا يسمع المرء حقاً أن يصنع مشهداً من ألوان الماء . وفي معظم الأحيان ، يتوارى الماء الجميل وراء الماء النافع ، ويخفي الماء البخاري ألوان الحياة خلف الحياة ذاتها . فسحر الماء هو وجوده .

سحر الماء البخاري

لا شيء يؤثر ، كما قلنا ، مثل العين في المفازة (٨٢٥) . ويكفي ذكر اسمها وحده ، بلا اشارة إلى أشكالها : بئر ، عين ، حوض ، أو اماكنها ، لكي نقطع سلسلة طويلة من الخراب والرمل والعطش ، ولعرض الحياة أمام ناظرينا اللذين يصبحان ناظري المسافر ذاته (٨٢٣). فاليعقوبي يشير إلى أن السلوك إلى الواحات المصرية في مفازة وجبال خشنة ست «رحلات» ، ويعبر عن المفاجأة المذهلة وظهور المزارع والعيون المطردة والمياه البخارية ، والنخل وأصناف الشجر والكروم ومزروع الارز — ومن يدري ماذا أيضاً ؟ — في حين يناقضه ابن خردادبه ويستشهد بأحد الشعراء، ويتحدث عن برك ماء أقل ما يوجد فيها الماء :

هذا أحق منك بالتسرك

الذئب يعوي والغراب يسكي (٨٢٧)

لكن لن يفقد الماء مكانته اذا ما غادر المفازة ، ويرتبط ظهوره ، حتى في الأماكن الصحراوية ، بالسحر ، ويؤدي بما يثيره من غبطة لدى البشر . واعجاب لدى الكاتب، إلى العديد من الأنشطة والمشاهد .

فقوارات المدن ، وخنادق القلاع ، والجنان العظيمة التي تغطي خضرتها
ارحاء واسعة بتمامها . وشبكات الأنهار والأقنية . والطواحين والملاحة
النهرية والآبار ، والبحيرات والحياض . والعيون ، كل هذه المظاهر
تعتبر أشكالا ناشئة عن تفجر المياه ، وأسباباً لوجودها المستمر في النصوص
الجغرافية ، سواء أغفل إطلاق أسماء عليها ، أم وردت هنا وهناك
مرتبطة بإمكانة محددة جيداً وبأسماء خاصة بها (٨٢٨) . وأكتفي هنا
بذكر اثنين من مصنفي الجغرافية فقط ، فالاحالات بليغة بحد ذاتها (٨٢٩).

أما التجربة العكسية، فمضار الماء، وفي طبيعتها تقلبها واندفاعاتها
العابرة . فهنا ينقطع النهر ، أو تجف البئر أو البحيرة (٨٣٠) ، وهنا
يهجر النهر مجراه ، ويفيض ، ولا بد من رفع خشب فيه على قدر
زيادة الماء ، وماء غزير يطوف بالمدينة ويهدد البشر بالغرق (٨٣١) .
من ناحية أخرى، إذا كان الماء بعمامة وارد في عداد فضائل البلدان (٨٣٢)
بخاصة ما كان منها ينتهي اسمه بألف ونون (٨٣٣) ، فان وجوده يدفع
عادة إلى التطرف : كالشغب والخروج والزنا واللواط (٨٣٤) .

مع ذلك ، لا توازي النواحي السابقة منافع الماء . والبرهان التحفظ
بشأن طبيعة إحدى المدن ، لولا قلة مائها نوعاً أو كمّاً: مثل بخارى
أو الرملة في فلسطين ، وحتى مكة ، رغم فضائلها السامية (٨٣٥).
ولاشيء أشجى ، فيما أظن ، من مشهد هذا البلد في الجزيرة : « فالمكان
يعرف بالآوسل : نزه ، كثير الشجر ، والتمر والخضر والفواكه
والكروم . . . (أما اليوم) فهو كالبور مع شرف حال هذا الأوسل
ومكانه من الريع إذا زرع وفي أعاليه ساقية تسقي شيئاً من الأرض إذا
زرعت بماء تافه ترب » (٨٣٦) .

ويتضح بجلاء تام من المشاهد الموصوفة كاملة أو في خطوطها الرئيسية ، ان عمل الانسان في الطبيعة حاسم جداً في إيجاد الروعة الحقيقية في أحد البلدان . ولا نقصد الطبيعة الموحشة الجذابة ، مثلما قد نقول ، بل تلك الأماكن الفردوسية وارياف دار الاسلام المشار إليها من قبل في الفصل السابق . ولتعد إليها . ونلح هذه المرة على الماء الجاري . فمتى استصلح يكثر وتحوله القنى إلى شرايين أرض . وعجيب أمر هذه الأراضي المروية على نطاق واسع ، التي تغطي كلها بشبكة ري تسقيها ، وتتجاوز امكاناتها حاجات السكان : مثل مصر وغوطة دمشق والصغد وفرغانة وخوزستان والخابور الأعلى بعيونه ، وعدتها ثلاثماية ، والبصرة التي بلغت عدتها مائة ألف نهر وغيرها (٨٣٧) .

وتعتبر المدينة قمة البناء الاجتماعي ، وتقع في وسط شبكة الماء التي يسيطر عليها الانسان ويشقها . ويقال لنا بأن الماء متوفر في جميع الأماكن : في القصور والدور والحمامات والخانات والجوامع والأسواق والمحال العامة ، ويوزع على الفوارات ، ويقدم ثلجاً إلى المارة (٨٣٨) . وفي جامع دمشق فيض حياة ولذة عيش تنبعث منها صوره ، وهو يغسل حتى علو ذراع . ويقال « ليس بيت المقدس أمكن من الماء والآذان » ، فيصبح حظها أفضل من حظ مكة من هذه الناحية . ومدن الديلم التي تجرف ثلوجها بالأنهار المحولة إليها ، وأسواق فاس التي تنظف يومياً وترش بالماء الذي يسحب من النهر (٨٣٩) .

ويمتد البصر أحياناً ، ويحدق بمشهد واسع من الأرض والماء ، كما هي الحال في مدينة الاهواز في خوزستان ، التي يقول عنها المقدسي (٨٤٠) « والجانب العراقي جزيرة . . . بينهما (أي الجانب الفارسي والجانب

العراقي (قنطرة هندروان من الأجر . عليها مسجد يشرف على النهر حسن . وقد كان عضد الدولة هدمها وبنها مع المسجد بناءً أعجيباً لتضفاف اليه . فأبى الناس أن يسموها الا قنطرة هندروان . وعلى هذا النهر دواليب عدة يديرها الماء ، تسمى النواعير . ثم يجري الماء في قنى متعالية إلى حياض في البلد . وبعض يجري إلى البساتين ، ويمد العمود (أي عمود النهر) من خلف الجزيرة ، نحو صبيحة ، إلى (٨٤١) شاذروان (٨٤٢) . قد بني من الصخر عجيب . يتبخر الماء عنده . وثم فوارات وعجائب . والشاذروان يرد الماء ، ويفرقة ثلاثة أنهار ، تمتد إلى ضياعهم ، وتسقي مزارعهم وهم يقولون : لولا الشاذروان ما عمرت الأهواز ، ولا انتفع بأنهارها . وفي الشاذروان ابواب (٨٤٣) تفتح اذا كثر الماء ، لولاها لغرقت الأهواز . وتسمع للماء المنحدر صوتاً يمنع من النوم أكثر السنة . وزيادته تكون في الشتاء . لأنه من الأمطار . لا من الثلوج . ونهر المشرقان يشق في أسفل البلد ، إلا أنه يجف عامة السنة . ويتبخر الماء بموضع يسمونه الدورق . والأهواز بهذه الأنهار طيبة ، والسفن تذهب وتجيء وتعبث مثل بغداد . وتفرق الأنهار في أعلى البلد ، وتجتمع بأسفله في موضع يقال له كارشتان (٨٤٤) . ومن ثم تركب السفن إلى البصرة . ولهم طواحين على الماء عجيبه » .

ويذهب ابن حوقل في التدقيق إلى حد أبعد أيضاً في سمرقند ، التي يمجدها في نثر يحاول تنميقه أن يعكس تنميق المشهد الطبيعي (٨٤٥) « وعلوته (أي القهنلر) فرأيت أحسن منظر عاينه مبصر وتمع به ناظر : شجر أخضر ، وقصور تزهو ، وأنهار تطرد ، وعمارة تتقد ، لا يقع الطرف منه على مكان ، الا ملاءه ، وعلى باغ (٨٤٦) إلا استملحه واستصباه (٨٤٧) ، قد فصلت (٨٤٨) ميادينها (٨٤٩) ، وتناهت

تحاسينها . وقصّصت (٨٥٠) به أشجار السرو ، فجعل منها طرائف
الحيوان من الافيلة والابل والبقر والوحوش المقبل بعضها على بعض
كالمتناجية ، والمطالب (٨٥١) بعضها لبعض كالمتقابلة المتعاقبة . فيا له
منظراً ما أتلّفه للاموال ، واخذه بمجامع قلوب الرجال . هذا إلى أنهار
تطرد، وبرك مسجورة، لا تزال ترتعد ظريفة المغاني (٨٥٢) وقصور
(٨٥٣) ومستشرفات (٨٥٤) سامقة المباني ، قد رصفت . فهي مساكن
جليلة ومجالس (٨٥٥) نفيسة، وأحوال تدل على ملوك جلة » (٨٥٦).

وتصبح هذه المياه الجارية ، المتنافس على تعظيمها . ان جاز لنا
هذا القول، موضوعاً في ثقافة العصر العامة . وتخصبها جغرافية الأدب
عند ابن الفقيه (٨٥٧) يبحث طويل عنوانه « حديث المياه ومدح الماء
البارد » (٨٥٨) ، ليس سوى نشيد حمد للمياه الجارية . فلا شيء ينقصه :
القرآن ، اجازة الرسول ، الحكمة القديمة ، الخصائص ، عناصر المياه
وفضائلها ، لا ثحة البلدان التي تجملها ، نوادر ، صور بيانية يرمز فيها
الماء إلى الجمال والشرف ، وفي النهاية وبخاصة ، الشعر — نحو ٧٠
بيتاً — أختار منه ما يلي :

والماء يجري من متون الصفا
على الخزامى والسرياحين
تشمها عند هبوب الصببا
أطيب من نفحة نسرين (٨٥٩)

وهذه الابيات أيضاً :

قالوا ترى النيل في مصر فتألفه
إذا ترامى على آذيه الزبد

فقلت أحسن من نيسل بمصر كم
ماء العيون على الرضراض يطردُ
في جانبيه رياض الزهر زينها
نسيم نوارها والطائر الغردُ
تري الخزامى يناعى الأفيحوان بها
عند الغدو كما ناغى أبا ولدُ (٨٦٠)
وهذه أخيراً ، كنموذجين عن موضوع واحد :

١- ألقى الربيع على ارونندنا خلعا
خضرا وخلعته البيضاء قد نزعاً
كساه ثوباً كثير الوشي زينته
حدائق نصنع من فاقع لمعاً
ملءة نسجتها ديمة فلها
بدائع جمّة قد فاقت البدعاً
لها رقائق حسن ليس يفهمها
ماذا جواهرها إلا الذي صنعاً
صفر وخضر وحمير ليس يشبه ذا
هذا ولا ذاك هذا عندما طلعا
للماء فيه خريسر رجع لغمته
في الروض ترجيع نشوان اذا سمجعا

تري حداثقما كالبيض لامعة
بين الاقاصي فضاءاً في الرياض معاً
إذا بككت منزلة من فوقها ضحكت
شقائق أخرجت من بطنها خلعاً
فلو رأيت اذا ما الشمس صبحها
رأيت ما لم يرى خلق ولا سمعاً
طوداً منيفاً عليه شملة نسجت
خضراء فارتفعت فيه كما ارتفعاً
إذا الشمال عليه جرّ اذيله
حسبته سوق عطر بينها وضعاً
فانظر إلى بطن ارونند البهي ترى
باباً إليه من الفردوس قد شرعاً
واسمع اذا قرقرت قمريّة طرباً
وهاج ورشانه في سفحه ودعاً
والثاغيات بها تدعو هوالعها
فكل ثاغية قد ارقدت هلعاً
من لم يكن في ذرى ارونند معتكفاً
فذاك عن صحبة اللذات قد خدعاً (٨٦١)

٢- اودى الشتاء وهاج كل مغرّد
وبدت معالم الربيع الأحمد

عكفت على ارونند غير سحابية
 سوداء مظلمة كلون الإثمـ
 تبكي بمدمعها ويضحك ثغرها
 عن ساطع كالكوكب المتوقـ
 هملت بما حملت فألبست الثرى
 من نسجها حللا وان لم تعقدـ
 من كمل أخضر كالحرير وفاقع
 نضر وأحمر ساطع متوقـ
 شملت عصابة نوره لهم الثرى
 فتعممت منها هضاب الفدـ
 صارت عيوناً الثرى لما بكت
 فيها السحاب بأعين لم نجمـ
 وكأنها قمر وقد طلعت
 شمس الضحى من جوهر متبدـ
 حسنت فحسنت الثرى بحاسن
 حسرت مساوي الشتاء الأنكـ
 شربت من الوسمي أول صوبـ
 ومن الزلال البارد المتطـ
 وكأنما لبس البقاع معصفـ
 منها وشح صدره بمورد (٨٦٢)

نسفت الصبا عنه القذى بنسيمها

فكأنه لمعان متن مهتد

تعيد هذه الأبيات إلى ذاكرة قارئها ، متى نقلت إلى اللغة الفرنسية ،
تكلّف شارل أورليان ، وتصنّع القس دليل في بعض قصائده الريفية .
ولا تدفع جودتها إلى الاهتمام بها . بل الرغبة في روايتها . وتعدّ نوعاً
من السجع لا شعراً . وهذا أقصى ما يمكن عمله في وصف المياه الجارية .
وقد تجاوزت جغرافية الأدب ما ذهب إليه نثر مصنفات المسالك والممالك
فنونخي ابن الفقيه استنفاد جميع امكانات اللغة في سبيل تعظيم إحدى
العجائب .

وتستعرض مواضيع شتى . لكنها تركّز على الماء ، بجلاء تام ،
وتقصّد ماء العيون ، الذي يتحدث عنه متن النص ، ويشير إليه عنوانه .
وربما أتى ذريعة لادخال قصيدتين عن جبل اروندي في سياق الكلام .
وحتى لو لم يسمّ الماء صراحة إلا مرة واحدة في كل منهما ، فالمشهد
ينتظم حول خريره عند خروجه من منبعه . وهذا المشهد مقدس لأن
الله وحده سيد الطبيعة ، ويحيط علماً بها ، ولأن الطبيعة ذاتها صورة
عن الجنة . ولا يسع الانسان إلا أن يعجب بها ، ويصفها ، ويذكر الله
باريها ومبدع الجنة ، ويحمده ثم ان المشهد اياه جبلي ، يقتزن فيه موضوع
الأراضي الشاهقة الماطرة والمغلّية ، مثلما جاء في الفصل السابق ، .
بموضوع وطن يتراعى بين السطور ، لأن جبل اروندي جبل أمّ يقع في
بلاد همذان مسقط رأس ابن الفقيه وموطن صاحبي القصيدتين (٨٦٣).

وتبدو علاقات عناصر الطبيعة أدق ، فيتجلى دور النار ، على سبيل
الاستعارة فقط ، في دخولها في نطاق الألوان . لكنها تمر في الهواء

وتقترن به ، وتسقط الصواعق ، وتحول الماء إلى سحب بعد تحريره من الجو . أما الهواء ، فيتبدل سحاباً ورياحاً ، ويحمل السحاب الماء وقد يتصل بالنار . وربما هبت الريح شرقية جافة ، ومرت على وجه الأرض ، وذرتها غباراً ، أو أتت من جهة الشمال ، وجاءت من جبل ارونند الرطب ، فاعتبرت ريح السحاب ، وبالتالي المطر (٨٦٤) . وتتعدد صلات الهواء بعناصر النار والماء والأرض ، وتنوع خلافاً لوضع النار ، التي لها علاقة بالهواء والماء دون سواهما . أما الأرض فتشبه عنصر النار بعلاقتها المزدوجة بالهواء عندما تصير غباراً ، أو عندما تستقبل السحاب والرياح في قمة جبل ارونند . ولها صلة خاصة بالماء أيضاً . أما عنصر الماء فيسعه أن يماس العناصر الثلاثة الأخرى ، مثلما يفعل الهواء . فالسحاب يصله بالهواء ، والبرق بالنار متى لمع في السحاب ، ويملامس هو بالذات الأرض ، عندما يتلقاه سطحها أو يغور في جوفها .

وهكذا يبدو أن ما أريد له أن يكون إشارة إلى الماء الجاري في البدء ، يدفع إلى التنويه بالكون اجمع ، بعناصره التامة المتشابكة . فالمقصود بالماء الجاري في القصيدتين الماء الذي تمتلكه الأرض ، لأنه يأتي منها ، ثم ماء المطر ، الذي يهطل من أعالي السماء والهواء بمساعدة النار . وهذا التمييز مصطنع أصلاً ، لأن هذا الماء لا يتبدل أبداً : فهو ينشأ في الهواء والنار ، ويسبح على وجه الأرض ، أو ينفلد إلى اعماقها ، ليتفجر عيوناً فيما بعد ، ويجري من جديد (٨٦٥) ويعدّ التضاد الوحيد الصحيح . ذلك الذي يميز في الحقيقة ما يجري من ماء بفعل عجيب في الربيع ، وما لم يعد يجري أو ما لم يجر بعد ، اما لأنه جفّ بسبب جفاف الصيف ، وهو مضمّر بداهة ، واما لأن قسوة الشتاء شلّت حركته وحولته إلى

غطاء من ثلج أبيض . وتوحي بجميع هذه الأمور ، بالتضاد ، رؤية سحب لا يتوقف ، وهطول أمطار متواصلة ودائمة في الربيع (٨٦٦) .

مع ذلك ، مهما كان التمييز مصطنعاً ، على نحو ما مر معنا ، لا بد من إبقاء التفريق بين الماء الذي يجري مباشرة متى هطل ، والماء الذي تمتصه الأرض ويزغ عيوناً تترقرق في وقت لاحق . فهذا التمييز لا يتناول شكل هذا الماء وتاريخه ، بل طبيعته بالذات ، التي تتبدل ، وإن كانت واحدة في البدء ، حسب تدخل العيون أو علمه . فقد يلامس المطر وجه الأرض بسيحه عليه ، وإن كان ناشئاً عن الهواء والنار ، إلا أن ماء العيون وحده ، دون سائر المياه ، يجمع فعلاً في ذاته ، مادة العناصر الثلاثة ، لأنه يضيف إلى هواء ونار أصله ، طبيعة الأرض الحقيقية التامة ، التي يسعى وراءها عندما يغور في أعماق اليابسة . فالهواء يغلف هذا الماء ، والنار تخترقه ، وهو ينفذ إلى جوف الأرض ، وبذا يقع خلافاً للمياه الأخرى ، على مفترق الكون . ومهما كان الحديث الصريح عنه ضئيلاً في القصيدتين — ولو لم يسم حرفياً عيناً في القصيدة الأولى — فهو يعدّ فعلاً مركز دائرة دقيقاً لكن أساسياً ، ونقطة حيوية ينتظم البناء حولها . لذلك نكرر ونقول إن ابن الفقيه أدرج القصيدتين في عداد النصوص التي تتغنى بالماء عبر السحاب الذي ينشأ فيه ، والأرض التي تعيده إلى الوجود .

وتؤخذ مجموعة ألوان الحياة من بعض الألوان الأساسية : نعني الأخضر ، والأحمر ، القانيء أو الزهري ، والأصفر الفاقع النضر (٨٦٧) والمأخوذه أحياناً من بعض الزهور ، كالزعفران والبابونج (٨٦٨) . ويعتبر توزع الألوان ونضارتها أهم منها بالذات . ويؤكد النص ،

في الحرير وتوشيته ، على بریق يعتمد على تقوية درجات الألوان المتجاورة ، وغير المختلطة (٨٦٩) التي يتناقض ترتيبها مع ترتيب جوهري الأفق المتبددين اللذين يحجبان الشمس عند شروقها (٨٧٠). ويتجمل كل ذلك بموضوع الوميض الدائم : فيتقابل بياض غطاء الشتاء وسواد الغيوم ، مع بهاء الشمس وخاصة الماء ، الذي يحدث انعكاسه في العين قمرا في وضوح النهار ، ويثير ما يشبه جواباً على لمعان البرق ، وبريق السيوف في الريف أو الغبار ، وهذه النار التي تحرق جميع الألوان .

ويعد المشاهد على نحو ما أشرنا إليه ، غزلاً رعويّاً ، يعكس صورة الجنة : فليس فيه حيوان نبيل ، كالأسد أو العقاب مثلاً ، بل طيور فقط ، أو حيوانات مسالمة يلهم تصرفها الحب : كالشاة واليمام . ويرمز إلى الامان (٨٧١) والجمال والحرية ، بموضوع الثياب ، كما هو (٨٧٢) ، أو معبراً عنه بالمعطف ، أو الحجاب ، أو الثوب ، أو العمامة ، أو المنديل (٨٧٣) ، أو التاج : وهذه ثياب مطمئنة بالفعل ، على نقيض الثياب الباردة في الشتاء . وهي مزيّنة من جهة أخرى ، بالألوان الربيعية الفخمة ، وتعتبر حللاً لم تعقد (٨٧٤) وواسعة اتساع الجبل اللامحدود . ويغمر الفرح جميع الأشياء . فبعد عناء الشتاء القاسي ، تأتي مباهج الربيع الطيب والعيد واللذة . فالحياة التي يحف بها الماء ، تعد في أساسها بسمّة سامية لبلد متيقظ : ف وراء الرعب الناشيء عن البرق . يكمن اقترار السحاب الذي يتبدد ليكشفه ، ويصلح بشير بعث الماء في جميع الأماكن تقريباً ، كالحركة . وتذكر الصورة التامة في ضوء العالم الوليد ، في فجر اليوم وفجر العام مع الربيع ، أخيراً في فجر هذا الربيع ذاته بتباشير أمطاره .

ولا ينقص هذا المشهد سوى كائن واحد هو الانسان . والواقع أن هذا المخلوق موجود في جميع الأماكن في هذه الطبيعة التي يظن أنها عذراء . ولا يعبر عن وجوده بالصوت الذي يتحاور مع خرير الجداول ، بل بنشاط يديه بالذات . بالفعل لا يكفي أن تعبّر الأرض الأثمد (٨١٥) لزينتته ، والسيف لحيوية صباه الملتهبة . ويشبه البستان البري حديقة الانسان : فالألوان . كما قلنا ، مركبة وموزعة ومنسجمة ، وتنتشر العطور في سوق زهور شاسعة . ويطلق اسم حديقة أو روضة على البستان الذي يغني فيه أحد الأشخاص ويطبعه الانسان بطابعه ، ويطلق أيضاً على البستان الآخر الطبيعي المنقول عنه (٨٧٦) . وهكذا نعود إلى أرياف دار الاسلام بالاتحاد الوثيق بين الطبيعة والانسان ، هذا الاتحاد الذي يجعلهما هذه المرة خاضعين للمياه الجارية .

المياه الجارية : تصنيفها على ثلاثة مستويات

تحدثنا عن تصنيفات جوهرية للمياه الجارية ، وأشرنا إلى بعض سماتها ، فاستعرضنا المياه العذبة والمياه المالحة على درجات في البحر والبر ، والماء الذكر والماء الأنثى ، والمياه الحارة والساخنة . وبقي علينا أن نتناول الآن ، لا المياه التي يستعملها البشر في حاجاتهم الخارجية . كما في الملاحة أو الغسيل أو الري أو ادارة الطواحين ، بل المياه التي يتغذون بها ، أي المياه الحيوية ، بمعناها الشامل . وتجري فئة من الجغرافيين . تصنيفات في هذا المجال . فابن رسته مثلاً يلمح تلميحاً عابراً إلى أن أهالي صنعاء يفضلون مياه المطر على مياه العيون ، وإلى أن مياه الآبار أفضل من مياه نهر دجلة ، التي يشيد جميع الناس بفضائلها . فقد : «قالوا وأفضل المياه ماء السماء» الذي يؤخذ في ثوب نظيف . ثم ما وقع منه على

جبل فيجتمع على صخرة ، ثم ماء الأنهار العظام . ثم الماء المستنقع في الصحارى اذا لم يكن عشب فيه . ثم ماء القناة . ثم ماء الحوض الكبير العمق ، ثم ماء العيون وما كان مجراه على الصخور « (٨٧٩) .

ويستخلص من هذا الكلام في الحلد الأدنى مبدأ أساسي ، يقضي بأن جودة الماء تتناسب عكساً مع ملاستها الأرض . اذ لدينا ماء الهواء أي ماء المطر من جهة ، ومن جهة ثانية الماء الذي تكدر بمادة الأرض ، اما لأنه يغور فيها ثم يخرج عيوناً ، واما لأنه يجري على الصخور ويحتنها ، ويأتي مباشرة بعد ماء المطر ، الماء الذي يستقر على الصخور ، فيلامس بالتالي أرضاً قاسية لا يتسرب إليها ولا ينتزع من مادتها إلا النذر اليسير . ولا ريب أن حجم مياه الأنهار العظيمة يعوّض عن الكثرة ، ويسمح قلما يكون بالحصول على ماء بعيد عن التربة إلى الحلد الأقصى . ويشبه وضع الأحواض وضع الانهار ، في حين تعوّض الاقنية عن نقص عمقها بعازل صناعي من الآجر ، يحول دون تماسها والأرض . الحقيقية (٨٨٠) . أما منافع الماء في الصحراء ، فعمقها ضعيف بداهة ، ويكاد ماؤها الهاديء يحرمها من حوزة عناصر التربة ، شريطة ألا تنتقل هذه العناصر إليها عن طريق النبات المنتشر بكثرة في مثل هذه الأماكن .

ويؤيد هذا التصنيف ما سبق وقلناه عن مياه العيون ، التي تعدّ أوثق المياه صلة بالأرض . ويحتّم عليها ، خلافاً للاتجاه العام في الحقيقة ، أن تدنّي جودتها نتيجة هذا الاتصال ، كما لو أن قيمة المياه تتناقص متى هبطت على مدارج العالم من أعلى السماء إلى أعماق الأرض . ويحتج ابن الفقيه في هذا السياق من التفكير بأقوال غيره (٨٨١) ،

ويعرض هذا التصنيف على أنه واحد من تصنيفات عديدة أخرى (٨٨٢)،
منها التصنيف التالي المنسوب إلى بقراط : « الذي كان يقول : المياه
التي تنبع من مواضع مشرفة ومن تلاع وروابي ، أفضل المياه وأصحها
وهي عذبة وبلدانها أصح البلاد ، ولا تحتاج إلى كثرة مزج الشراب ،
ولا سيما الشرقي والصيفي لأنها تكون برّاقة طيبة الريح اضطراباً ».

ويسترعي الانتباه هنا موضوع الماء الشرقي والصيفي ، أكثر من
علوبته وصفائه وطيبه . فهو يعيد إلى الذاكرة تصنيفاً سابقاً ، ورد
مباشرة قبل نص ابن الفقيه . وبني على الجهات الأصلية (٨٨٣) . وقيل
فيه : كل مدينة موضوعة في جهة المشرق أشد اعتدالاً وأقل اسقاماً ،
لأن الشمس تصفى تلك المياه التي تجري فيها . والمدن الموضوعة بازاء
المغرب ، تكثر أمراض أهلها لأن مياههم كدرة متغيرة وهواءهم
غليظ . أما المدن الموضوعة على جهة الجنوب ، فتكون مياهها حارة
كدرة متغيرة مالحة ، فمن ذلك تسخن في الصيف ، وتبرد في الشتاء ،
وتكون ابدان أهلها رطبة لينة لما يتحلب إلى البدن من الرطوبات في
رؤوسهم ، وتكثر نساؤهم الاسقاط بسبب الرطوبات . أخيراً المدن
الموضوعة في جهة الشمال وعلى ازائه مياهها يابسة ، رطبة ، ثقيلة ،
وأهلها أقوياء . أشداء ، عراض الصدور ، دقاق السوق ، رؤوسهم
صحيحة يابسة ، وأعمارهم طويلة ، وأخلاقهم وحشة ، ويقل حمل
نسائهم ، ولكنهن لا يسقطن لبرد الماء وييسه ، ويلدن بشدة وصعوبة
ليبسهن . وانما دقت أرجلهم لارتفاع الحرارة عنها إلى فوق (٨٨٤).

وتعد أمثال هذه الاقوال خطرات علمية ، تركز على حركات
العناصر الأربعة . فالماء يخضع لقوة الأرض التي تجذبه إلى الاسفل ،

أو لقوى الهواء التي ترفعه إلى الأعلى ، سواء تأثر بتطهير الزار أم لم يتأثر ، لكنه يتفوق في الغرب على سائر العناصر (٨٨٥) . وتختلف اللوحة عامة في واقع الاشياء المنظورة . وتدخل تدوينات المصنفين عاملاً أو عدة عوامل يصل عددها الاجمالي إلى تسعة . تؤخذ من المراحل الأربع المتعاقبة في التفتيش عن المياه ، ومن تقويمها الخارجي ثم الداخلي ، ومن الحكم الشامل على صفاتها . ففي المرحلة الأولى ، يتدخل عامل السهولة أو الصعوبة . ويسهل على الباحث أن يقابل الماء السطحي بماء أقينية سامراء الشحيحة لضعف عمقها ، والضعيفة العمق لشقها في صخور قاسية جداً ، لا يجدي فيها استعمال الفأس ، وبالمياه التي يجب اكتشافها في جوف الأرض ، وبمياه الآبار العميقة . ولن نقول شيئاً عن الماء الذي يصل إلى الانسان ، ويقدم له عفويّاً (٨٨٦) . وتعتبر كمية المياه ، على حد تصورنا ، قرينة متواترة ، تؤدي أحياناً إلى تسجيل تدوين أدقّ . وينطبق هذا الحديث على « ندرة الآبار » في إحدى قرى جزيرة العرب أو افريقية الشمالية التي تعتمد على ماء السماء وحده (٨٨٧) . وأطرف من ذلك على الأرجح ، الإشارة إلى ماء متوفر ودائم يمكن الركون اليه في جميع الفصول (٨٨٨) .

ويراعي التقويم الخارجي حاسة الشم مراعاة ثانوية جداً في الحقيقة ، فيعارض نوعاً من الماء ذكر من قبل ، طيب الرائحة - المقصود نوع من الماء ليس له رائحة كريهة - بنوع آخر منتن بوضوح (٨٨٩) . والبصر أهم من الشم بكثير ، لأنه يحدد مباشرة الماء الصافي ، القليل الترسيب ، الحالي من الكدر إلى حد يمكن المرء من رؤية قعر ينابيعه . واقتحار الكوفيين والبصريين مشهور ، وفيه الكوفة الفرات ، وللبصرة ماء يتنازعه البحر ودجلة العوراء ، ويزعمون انه « واحد » وشهير جداً ،

إلا أنه مركّب قريب من ماء دجلة وروافده والأقنية والفرات ذاته (٨٩٠) .

أما التقويم الداخلي ، فينصب على الحرارة أولاً . ويصرف النظر عن الماء الحار ، لكنه يميز بين الماء البارد وبين ماء أقل برودة منه . ويخص الماء البارد بالاطراء التام والعناية الشاملة . وقد تحدثنا من قبل عن المثالج (٨٩١) . أما الماء الأقل برودة ، فمبهم جداً ، ويبدو وكأنه يشكل فئة متوسطة بين الماء البارد وبين الماء الحار ، الحارق في معظم الأحيان ، ولا تذكره النصوص الجغرافية عادة ، وإذا ذكرته اقترن بتعليقات بغیضة إلى أقصى حد . وسنعود إليه فيما بعد في كلامنا عن المقدسي . ويعدّ الوضع المثالي وضع الماء الذي يعين أبو مسعر صفاته ، أي الماء البارد في الصيف ، الدافئ والحامي في الشتاء (٨٩٢) .

وإذا خطا التقويم الداخلي خطوة أخرى ، تجاوز حساسة اللمس ، ووصل إلى الذوق . وهذا التصنيف مختصر أصلاً ، وهذه الحاسة من أضعف الحواس ، كما هو معروف ، إذا ما قورنت بحاسة الشم . ويميز التوزيع الأساسي الماء العذب والمالح ، أو الاجاج ، المشحون بالبلورات ، المرّ المذاق حتى ليتحتّم أحياناً ابتلاع بعض البصل (٨٩٣) لازالة حمازته ، أو العفص أيضاً (٨٩٤) . وما كنا لنؤكد على هذه النقطة ، لولا ضرورة الإشارة إلى ظاهرتين هامتين : اولاهما أن الماء على حد ما يقال لنا ، قد يتخذ مذاقات يتناسب عددها مع مذاقات الأرض (٨٩٥) ، ومنها الملوحة ، مما يدل على صفة أساسية في اتحاد هذين العنصرين . ثم يحسن التنويه بأن هذا التصنيف . وان كان بدائياً يقتصر عملياً على مقابلة العذب بالمالح ، يحتمل درجات من التمييز ضمن هذا التضاد بالذات : فتارة يتحدث الجغرافيون عن ماء عذب جداً أو في منتهى العلوقة ،

له طعم العسل أو الحمرة المعتقة ، وطوراً يتكلمون عن مالا يستساغ شربه لشدة ملوحته (٨٩٦) . وحتى لو صرفنا النظر عن درجات العذوبة أو الملوحة ، يبقى تقويم الماء بمذاقه إحدى الصفات الكبرى في وصفه (٨٩٧) . اذن ، على وجه الاجمال ، تسهم كثرة التصنيفات بحد ذاتها . في جعل عنصر الماء عنصراً مستقلاً فريداً في درجات تذوق البشر أغذيتهم ، وتحبوه أحياناً ضرورياً من الطعام الدقيق . يزيد تنوعها عما يندرج في سياق تقدير مكثف . فهل يجوز لنا أن نذهب إلى حد القول بأن الانسان قد يحاكي الاجناس الأخرى ، ويضيف أحياناً إلى المذاقات الاساسية أي العذوبة ، والموحة ، والحموضة ، والحرارة ، مذاقاً خامساً ، يتمثل في طعم الماء بالذات (٨٩٨) ؟ قطعاً كلا . لكن يلاحظ في الحد الأدنى أن أهمية الماء في المنطقة الجافة والشهرة التي يتمتع بها . متى اقترنت المتعة به بوفرته في الأماكن المميزة ، تؤديان إلى ولوع الانسان الذي يعيش منه ، بشربه وتقويمه .

ويعد ابتلاع الماء المرحلة الأخيرة في تقويمه الداخلي . ويتعارض فيه الماء الخفيف المريء ، والماء غير المريء ، وتكثر الدرجات الوسطى بينهما والتدقيقات أيضاً . وتعلل عذوبة ماء جيحون وخفته القصبويان — أو تثبتان ؟ — بكونه يتسخن أو يتبرد في فترة زمنية قصيرة جداً (٨٩٩) . ويسوقنا هذا القول إلى نطاق الحكم الاجمالي على الماء . فاذا قصد تقويم مذاقه ، قيل إنه ممتاز ، أو لذيذ ، أو طيب ، أو شروب ، أو رديء . أو كريبه ، أو لا يشرب (٩٠٠) . واذا أريد وصف آثاره في الجسم ، قيل إنه صحي ومريء ، أو غير صحي ، ومنتن أو خطر أو فاسد (٩٠١) . ويسترعي الانتباه نعت « مريء » من بين النعوت الموصوف بها الماء .

فقد اشتق من جذر يشير إلى الغذاء الصحي لخصته وسهولة هضمه .
ويتعذر تماماً إزالة الالتباس المحتمل بينه وبين جذر مجانس له ، يشق
منه لفظ « المرء » ولفظ « المريء » . بمعنى صاحب المروءة بالتالي يقصد
بهذا الماء ماء يستساغ إلى حد كبير ، ويحبو الجسم صحة وقوة تتجسد في
الرجل الرجل على أكمل وجه . وبذا يستشف من هذا اللفظ الأفكار
القديمة ، الماشار إليها من قبل . المتعلقة بجنس المياه وقدرتها على
التوليد .

وقد تحدثنا عن أربع مراحل في تقويم المياه . ولابأس بالاحتفاظ
بهذا التقسيم على حاله . ويمكن في الحقيقة تفضيل توزيع آخر ، يتلاقى
مع الأول أصلاً في النواحي الأساسية ، لكنه يدمج المرحلتين الثانية والثالثة
في مرحلة واحدة . فالموضوع يتناول الحكم على وجود الماء . فهل
وجوده عفوي أم تكتشفه جهود البشر ؟ وهل يعدّ خفياً في جميع
الحالات ، ولا يظهر إلا صدفة تارة هنا وطوراً هناك ؟ وإذا كان وجوده
محققاً ، هل تبقى كميته ثابتة أم تتغير ؟ وما هي نسب تغييرها ؟ ينتقل
البحث بعد ذلك إلى تقويم الماء بالحواس ، فيبدأ بالحواس الخارجية كالشم
وخاصة البصر ، ثم يصل إلى الحواس الداخلية كالحرارة والذوق
ولإحساسات التقلص الاستداري المتصل بالهضم . ومتى اختبر الماء اختباراً
حقيقياً . يحكم على وجوده بالذات ، حسب تقبل الجسم له مباشرة
وبعمق . وهكذا يصبح القياس والاختبار والحكم على الماء المراحل
الثلاث في عملية أساسية حيوية ، يسميها المقدسي وزن الماء . بالمعنى
الأصلي والمجازي .

المقدسي والمياه

يناط بالجغرافي « وزن الماء وتذوق الهواء » (٩٠٢). ويقتفي في عمله اثر الملوك الذين قام منهم قباز ، ملك الساسانيين ، بتحديد أفضل مناطق امبراطوريته (٩٠٣) . ويذهب طموح الجغرافي إلى أبعد من ذلك ، فيتوخي وصف دار الاسلام بأجمعها ، والوصول إلى علم مياه حقيقي ، ويريد الاعتماد على أسس صحيحة (٩٠٤) : « فان قال قائل : من أين علمت خفة المياه وثقلها ، قيل له بأربعة أشياء . احدها ان كل ماء يبرد سريعاً ، فهو خفيف . وما رأيت أسرع برودة من ماء تيماء وأريحا وهما أخف مياه الاسلام . فمن هذا استنبطت هذا الوجه ثم صبح لي بكثرة التجارب . والثانية ان الماء الخفيف يبطؤ تحلّبه (٩٠٥) ، ومن شرب ماء ثقيلاً أسرع بوله . والثالثة الماء الخفيف يشهي الطعام ويهضمه . والرابعة اذا أردت أن تعرف ماء بلسد ، فإذهب إلى البزازين والطارين (٩٠٦) ، فتصفّح وجوههم ، فان رأيت فيها الماء ، فاعلم خفته على قدر ما ترى من نصارتهم ، وان رأيتها كوجوه الموتى ، ورأيتهم مطأطيء الرؤوس ، فعجل الخروج منها » .

ويخاطب هذا النص قرائن معرفة بسيطة وقرائن أخرى تسعى إلى تفسير ظاهرة خفة الماء ، أو على الأقل ، التسمية المختارة لهذا الظرف بالذات . ويستدل على خفة الماء ببعض العلامات ، إلا أن الخفة تبقى غير مشروحة ، وتعلل ببطء التغلغل في الاجسام ، وسرعة الهضم ، وحيوية الكائنات ، وأخيراً الرقة حيال هجوم البرد والحر أيضاً ، على حد قول ابن حوقل (٩٠٧) وتعطى في مكان آخر أسباب ، واضحة تماماً أصلاً ، عن رداءة الماء والكدر والحرارة . ويتعلق الموضوع باختلاف البصريين والكوفيين .

فالمقدسي يقول (٩٠٨) : « واما الماء الملاصق لها . فغير حلو ولا طيب . ويقال فيه ثلثه ماء البحر . وثلثه ماء الجزر (٩٠٩) ، وثلثه ماء الحجر لأن الماء اذا جزر شمّرت شطوطاً الأنهار ، فبلذ الناس عليها ، ثم يقبل المد ، فيحمل تلك البلاذات . واذا هبت الجنوب سخن الماء » .

بالتالي . لا يقصد بوزن الماء معرفة جوهره بالذات — الذي يعلمه الله وحده — بل صفاته . بتعبير آخر ، يعني وزنه الحكم على خصائصه وآثاره . فهذه المعرفة خارجية ، لأن الماء يدخل جسم الانسان ، وليس العكس . مع ذلك ، يريها الجغرافيون معرفة رصينة ومفصلة ، لأنها تتناول عنصراً حيوياً . ولا يعيد المقدسي في هذه الناحية عن نهج معاصرة : فتقويمه الماء يتبع الطريقة التي بينها من قبل . إلا أنه يبدّ غيرهِ بشعوره بمسؤولية الاخباري والعالم . فهو اخباري لا يفوته ان كتابه موجّه إلى المنظرين أو محبي الاطلاع ، وإلى الرحالة أيضاً (٩١١) لذلك يستعمل لفظ « مختلفة » ويبرزه وينعت به مياه جزيرة العرب مثلاً عند وصفه اياها ، كما لو أنه يريد لفت الانتباه إلى مفاجآت الطريق (٩١٢) ، ويتجلى عنده غنى الألفاظ والدقة ، عند الضرورة ، في التدوينات التي ترمي إلى سرد معلومات عن اختصاصه ، وإلى تقديم أفضل وصف علمي وأدقّه على حد سواء .

وتأتي أولاً قرائن الوفرة والسهولة والدوام . فيكثر ظهور الماء الجاري نتيجة استعمال هذه الألفاظ البسيطة (٩١٣) أو تتوضح تبدلاته . وقد ينكر وجوده ، أو يبين تدرجه (٩١٤) ، أو يشاد به بتعابير « جريان حاد » ، « شديد الجري » ، « منحدر » (٩١٥) ، أو بتعابير مترجمة ، كأن يسمى أحد رستائق خراسان « ثاك — اب » ، ومعناه

بالفارسية « المياه الجارية » (٩١٦) : وتستعمل الالفاظ الدالة على الوفرة في جميع الأماكن تقريباً ، مثل « واسع » ، و « كثير » ، و « غزير » خاصة (٩١٧) . هنا أيضاً يرد في سياق الكلام ، النفي (٩١٨) والمقارنة (٩١٩) ، والتدرج ، وتؤدي الفكرة ببعض الألفاظ أو التعابير ، كأن يقال : ماء قليل (٩٢٠) ، أو ضيق (٩٢١) أو ضعيف (٩٢٢) ، أو صهاريج متروكة ، أو آبار معطلة (٩٢٣) أو ماء ثمين حتى أنه يخزن في جباب مقفلة أو صهاريج مغلقة (٩٢٤) . أو مدينة ظمئة (٩٢٥) أو أنهار تنقطع في الحقيقة ، أو تتشعب أو تشكل بقية نهر (٩٢٦) ، وقد يقال على النقيض : عميقة أو واسعة للآبار أو المياه (٩٢٧) أو يقال تتفجر العيون أنهاراً (٩٢٨) .

وتؤول الاحساسات الخارجية بأجمعها تقريباً إلى البصر عند المقدسي كما هي الحال عند سائر الجغرافيين . وتذكر حاسة الشم عرضاً متى أشير إلى الماء الكريه (٩٢٩) . ولم يسجل السمع خريير الماء ، بل يدون الوجبة العظيمة في الاهواز أو جيرفت في ولاية كرمان ، الناشئة عن شدة جرية نهر جيرفت وخريره وجره الصخور (٩٣٠) . ويلحظ البصر صفاء الماء ، ونظافته وخفته وعذوبته . وتارة يدرك درجاتها أو ينكر وجودها ، وطوراً يشيد بها فيقول ان الدرهم يطرح في الماء ، فلا يخفى في أسفله . كذلك يرى الاقدار والكدر والمواد العالقة فيه . ويروي المقدسي ان ماء النيل يكدر أيام زيادته ، فيلقون فيه نوى المشمش المرصوص ليصفو (٩٣١) . ويورد تأويل بعض الألفاظ الاجنبية أحياناً (٩٣٢) كما في عين سرو الشير ، ومعناها بالفارسية حليب الملائكة ، ويقول : « إن ماء بخارى كدر ويطرح فيه بلاذات كثيرة في البلد . ويقال ان أصل اسم بخارا « كوه خوران » (٩٣٣) وطرحت الهاء

والواو للتخفيف ، فصارت كخارا (٩٣٤) ثم أبدلوا من الكاف باء ليوهموا على الناس (٩٣٥) ، فصارت بخارا . وسمعت بعض الأدباء ينشد :

إن باء بخارا باء زائدة والألف الوسطى بلا فائدة فلم يبق إلا خرا»

ويحاول الناظم ، أن يستخدم لفظ خرا ، ليذكر بهذا الاسم الفارسي أو العربي للغائط والوحد (٩٣٦) . والماء المثالي ، من حيث حرارته ، هو الماء البارد في جميع الأماكن . وحتى الشديد البرودة ، أو الجاهد في الطبيعة ، وان كان لا ينقص منه الكثير . فماء نهر الأردن مثلاً يوصف بشدة البرودة ، ويخرج من تحت جبل الثلج ، ويقال بعد سطرين أنه رديء في مدينة بانفاس . وخير الأمور الوسط . فنعم البلاد التي يدوم برد مائها ، كما في فلسطين ، ويخالف ماء نيل مصر الذي يبرد «أيام البرد» نحو شهرين ، وماء اقليم المشرق ، حيث «شربهم الجليل» (٩٣٧) . في جميع الأحوال ، نتمنى على الله أن يقينا من المياه الساخنة ، التي تغلي في الصيف في خوزستان ، وتصفّر وجوه الخوزيين ، أو تصبح بيئة ، لتأثير ربح الجنوب فيها ، أو لحررها على مزارع الأرز (٩٣٨) . فالماء الغالي والماء الحميم ، مفهومان يندرجان في ألفاظ تشتق من جذر حمّ ، ويعني الماء الحار أو العين المعدنية (الحمة) ، ويقترنان بتصورات جهنمية في الواقع (٩٣٩) .

ولا يفاجأ المرء بشيء من حيث الدوق الذي يميز عدة مياه أيضاً . ويأتي في طبيعتها الماء الحلو الصرف . ويشاد به دوماً ، ويوسم ، ولا يسمى حلوّاً إلا اذا استحضت نكهته هذه الصفة عذب (٩٤٠) . ويجيء بعده الماء العذب بلا أي ابضاح ، ولعله ماء كل يوم ، إذا تأمنت

حلاوته (٩٤١) . ويعبّر الماء العذبي عن ماء احتياطي ، شبه عذب ، أي ماء لا يستساغ حسب الحالات (٩٤٢) . ويشار أخيراً إلى الماء المالح المنفّر دوماً ، الذي تكاد النصوص الجغرافية (٩٤٣) لا تعلق عليه . ويؤدي تأثير الماء في الجسم بعدة صفات ، منها الماء الخفيف والثقيل ، وهما معروفان ونكرهما الآن (٩٤٤) . ويليها الماء الحشن ، الذي تتفاقم خشونته من جراء الملوحة أو المرارة أو الصلابة . وعكسه الماء اللطيف (٩٤٥) . ويعاد الحديث عن غنى الألفاظ ، ويسهب فيه . في الحكم على قيمة الماء النهائية : فيقال ماء جيد ، بلا ريب ، ولذيذ ، ونقي ، وصحيح ، وممتاز ، وجديل أو بديع (٩٤٦) . ويقال أيضاً ماء معتدل ، أو رديء ، أو اشر ، أو آسن ، أو فاسد أو كره أو قاتل (٩٤٧) . أخيراً تعدد بعض الصفات الغريبة جداً ، فمن عجائب إحدى الولايات ، عين قد يقضي نحبها من يشرب منها ، ومخرىء ، وهو ماء مالح يطالِق الناس سواء شربوا منه أو خبزوا أو طبخوا ، وماء جرجان يقتل الغرباء (٩٤٨) . وماء شهرستان آكران ، حسب المقدسي ، الذي ركّب هذا النعت بالفارسية من « آك » أي كارثة أو موت ، ومن « ران » أي دافع أو جالب (٩٤٩) .

ولا ريب أن معرفة الماء ذاتية وإيحائية في النهاية ، فيما يبدو . ويستقيها الرحالة من تجربته ، ومن ذكريات افئتانته وخشيته وحتى انزعاجه ، لكنه يدرك انه سيحرم إلى الأبد من رؤيا جوهر الماء ، أو اكتشافه . وتعدّ الدقة في الإيحاء ، ووفرة الألفاظ ، وفقه اللغة ، ولو تناول كلاماً فارسياً أو أتى تافهاً ، نتيجة الاقرار بالعجز مبدئياً عن إدراك أعماق واقع الأشياء . مع ذلك ، يسعى المقدسي ككاتب إلى استكشاف حقل المعرفة المتبقي له على الوجه الأكمل . ويفكّر في

التجربة الحسية سواء كانت تجربته كرحالة أو تجربة زميله الرحالة الذي يتوجه إليه ، ولا يغرب عن باله جمهور آخر ، من المثقفين أو حتى العلماء ، ويعرض ما يعتقد أنه علم : « فوزن الماء » ليس تقويماً بسيطاً لهذا العنصر ، يصدر عن الحواس ، ويعرف بالماء تدريجياً ، ويحدد مراتبها وخصائصها الكمية أو النوعية ، بل « قياساً » (٩٥٠) بالقدر ذاته ، له قواعده ، وجداوله ، ومصطلحاته . لذلك يرى المقدسي فيه ، في مطلع مصنفه (٩٥١) أحد « أركان » بناء علم جديد يريد أن يؤسسه ، ونسميه نحن جغرافية . وأضيف : وكالعادة ، وخاصة هنا ، توضح معرفة الماء الحيوي بجلاء غاية المقدسي السابقة ، نعي تأسيس جغرافية بشرية .

بعض خصائص الماء الفرعية

الماء غذاء قبل كل شيء ، سواء تفاوتت جودة مذاقه ، أو اختلف ثقله . وما تبقى ثانوي ، تدويناته عرضية . وغالباً ما تعوز الدقة التفريق بين الماء العذب ، بارداً كان أم لا ، وبين المياه المعدنية الحارة ، التي تسترعي الانتباه إلى أقصى حد بفوائدها الطبية . ولن نهم هنا إلا بالمياه التي لم يحدد صراحة أنها تأتي من الحمات ، مرجئين دراسة المياه الحارة إلى كتاب آخر يبحث في أنشطة البشر .

وقد تحدثت منذ لحظة عن اعتبار الماء غذاء ، إلا أن الماء البارد ، بحد ذاته ، يضيف إلى ذلك تنظيم الجسم . فابن الفقيه يقول عنه (٩٥٢) : « والماء البارد مزاج الروح وصفاء النفس وقوام الابدان من الناس والحيوان ، بمجانسته لها . ومغازلته اياها ، ومن فضيلته ان كل شراب ، وان رقّ وصفوا وعذب وحلا ، فليس بعوض منه ولا مغن عنه ، بل

يطيب بمزاجه ، ويعذب بمخالطته ، حتى يجري في العروق بلطافته ،
وينساب في المفاصل برقته مع خاصته في ري الظمأ ، واطفائه ضرام
نارالحشا » .

اذن ، للماء الصافي بحد ذاته خواص تنتقل إلى بعض الأشربة متى
مزجت به . كذلك ، يعطى المزج الماء خاصة جديدة أحياناً ، فيصبح
منظماً ودواء شافياً ، كما يحصل ، متى أضيف إليه العسل (٩٥٣) .
وفصل المسعودي (٩٥٤) هذه الناحية تفصيلاً مسهباً ، ويقول : « قال
من سلف : في قوى الماء أقاويل مختلفة : فمن ذلك ، ان العذب مغذٍ .
وان كان سخناً : فان استعمل من داخل أو من خارج ، بقدر الحاجة
إليه ، فانه ينقّي الجسد ، وان استعمل أكثر مما يحتاج إليه ، فانه يرنخي
الأعضاء ويضعفها ، وان الماء البارد يشد الأعضاء ، ويقطع العطش ،
وان الزيادة منه ، تخلد الجسد وتميته ، وان الماء الاجاج ينفع من سُدَدِ
الكبد والطحال ، وان الماء الكبيرتي ينفع الجراح والقروح العتيقة والحكة ،
والبورقي نافع للحكة والحرب ، واما القاريّ ، فانه نافع من أوجاع
الصلب والعصب ، وماء الحديد نافع من الاسترخاء في الاحشاء وما
بطن من الاوعية ، وماء النحاس نافع من الرطوبة والبلة الكائنة في الجسد
والرأس ، وماء الحص يشنج المعدة ويقبضها ويكرشها ، وماء الزاج
يحبس الدم ، وماء البحر نافع من البرص ، وقد ذكر جماعة أنه ينفع
من الاخلاط الفاسدة ، اذا شرب منه اليسير مع دهن اللوز ، وله في
البصر أتعاب فظيع ، وان اصبح المياه للأجساد الأبيض البراق الذي
يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس نحو مغربها ، القابل بسرعة ما
يرد إليه من الحر والبرد » .

مع ذلك يختم المسعودي كلامه بهذه الألفاظ : « وللناس فيما ذكرنا كلام كثير في أنواع المياه وأوصافها ومنافعها ومضارها . وليس كتابنا هذا موضعاً له ، وإنما تغلغل بنا الكلام إلى ذكرها وتشعب بنا القول إلى وصفها » . لنعد اذن إلى الجغرافيين الرحالة ، بعيداً عن الاهتمامات الموسوعية وحتى — العلمية لأن موسوعة المسعودي تكاد تمتنع عن الخوض فيها — ولنختبر مع المقدسي الماء الذي نعر عليه في طريقنا . ويقال لنا ، بلا تدقيق اضافي ، ان بلدت بارين عينا يستشفى بمائها من العلل (٩٥٥) ، وان بقاهستان ماءً من شرب منه وبحلقه علقمة ماتت في الوقت (٩٥٦) . خلافاً لذلك ، قد يقضي نحيبه من يشرب من بعض الماء ، كما رأينا ، أو يتعرض إلى مزعجات جمّة ، خطيرة أحياناً ، خاصة بالنسبة إلى الغرباء الذين لم يكتسبوا مناعة ضد مضارها ، كالاسهال والامساك (الحصر) ، وثقل البطن ، والاورام ، وسقوط أصابع الأرجل (٩٥٧) . ويتعصّب من يشرب بعض المياه أو يدفع إلى الزنا واللواط (٩٥٨) لأن الماء يؤثر في خلق البشر واخلاقهم وذكائهم ، كما هو شائع بين الناس . على نقيض ذلك ، يزيد شرب بعضه المهارة اليدوية ، والذكاء ، والنفع عامة ، حتى إن بعض العيون لا تخرج شيئاً من مائها لرجل يقصدها بعد أن قتل نفساً بغير حق » (٩٥٩).

ولابد من الالتاح على أن هذه الأمور لا تبحث بحثاً منهجياً . فماء الشرب شروب . وبالتالي ينظم البدن تنظيمًا عادياً . ومتى ابتعد عن مجال الحياة اليومية ، ليحدث خللاً في الجسم ، أو ليعيد اليه توازنه المفقود ، أي عندما يصبح ضاراً ، أو على العكس نافعاً ، اقترب من الماء الساخن بحد ذاته أو المسخن ، الذي أشرنا إلى وضعه الغريب (٩٦٠) . ويقال إن بخيرة صغر تشفي من احتقن بمائها من علل كثيرة . لكن هل مأوها

عادي ؟ كلا ، إنه مالح جداً ، ومنتن « وثقيل - حتى ليصعب الخوض فيه ، ويذكر أصحاب العلل والمرضى الذين يقصدونه ، بأقرانهم ممن يرتادون مياه طبرية الحارة (٩٦١) . ويشار أيضاً إلى أن الامثلة النادرة ، الواردة من قبل ، عن خواص بعض المياه غير المتوقعة ، تعرض في الواقع على أنها عجائب ، وتلجج في الوصف على هذا الاساس ، وتدخل في عداد عجائب البلدان او الولايات (٩٦٢) . في النهاية ، تتضافر جميع الأقوال ، من الاستطراد الموسوعي إلى تعجب الرحالة من الماء النادر ، لتجعل ماء الشرب شاذاً . متى خرج عن نطاق الاستعمال اليومي :

مبادئ رسم خريطة مياه

يتحتم علينا الآن ، مثلما يقتضي العلم الصحيح ، ان نرسم خريطة لجميع تلك المياه . لكن أي خريطة ؟ فتارة ، نلقى خريطة لم تتغير قط - أو تغيرت قليلا جدا - منذ ظهور الانسان على الأرض ، فيما عدا استبدال بعض الأسماء هنا وهناك . كاسم أوكسوس أو اموداريا بجيخون مثلاً . وطوراً ، يختفي المخطط العام القديم وراء مخطط جديد يقدمه الجغرافيون . فما هو وضع واقع هذه التباينات ، وما هو مدى سعتها وتواترها ؟ آن لنا ان نعرف ذلك من استعراض أنهار دار الاسلام . ونرسم أولاً خريطة الاماكن الحالية من المياه ، لأن ما يفرض نفسه في البدء هو البلدان المحرومة من المياه ، أو ، لنقل ، من كمية معينة منها . فعزيرة العرب لا تمتلك لا أنهاراً ولا بحيرات . ولا يحوي شمال شرق دار الاسلام أنهاراً صالحة للملاحة سوى جيخون (اموداريا) وسيخون (سيرداريا) . وليس في كرمان أنهار غزيرة . فاذا وصفنا

وضع المياه بأمثال هذه الحمل . استطعنا أن نحدد على الخريطة بقاء واضحة ، أفضل ما فيها ماء دفين في جوف الأرض ، والأمثلة عليها صحارى جزيرة العرب والهلال الخصيب وفارس وتخومها وآسية الوسطى (٩٦٣) ، وبواديها جميعاً .

والتدوين ملائم جداً ، سواء أخذ من دفتر السفر أم من مفكرته . وهو في جميع الأحوال أفضل بكثير جداً من نظرية اخوان الصفا الخالصة ، التي أشرنا إليها من قبل . فقد خصت جميع أراضي المعمورة بـ ٢٤٠ مجرى ماء ، ووزعتها على أقاليمها واحداً واحداً ، حسب عرف بطليموس . لكن رقم التوزيع الاجمالي لم يشر إلا إلى ١٧٨ نهراً (٩٦٤) . فلابأس . إنما أين يقع أكبر عدد من الأنهار ؟ يجيب اخوان الصفا : في الشمال ، في الاقليم السابع ، أقصى الاقليم من الجهة الشمالية ، بأنهاره الأربعين . ويليه الاقليم السادس ، ويأتي بعده مباشرة بدرجة العرض وبأنهاره ٣٢ ، مما يعبر على الأرجح عن اشتراكه في بوادي آسية الوسطى الكبرى . ليكن . إلا ان الاقليم الأول ، شبه الاستوائي ، يضم ثلاثين نهراً ، ولا يبدو أنه اقليم صحاري جزيرة العرب الجنوبية ؛ كذلك يحوي الاقليم الثالث ٢٢ نهراً ، وكأنه لا يشمل جزيرة العرب ومفاوز فارس الشاسعة . ونوقف عند هذا الحد تمحيص هذه الاحصاءات الأولية : فلوحة اخوان الصفا لا تتوخى أن تقدم معطيات مرقومة ، بل ان تثبت بأرقام الأنهار والجبال والمدن تفوق البلدان الوسطى في المعمورة ، خاصة تفوق بابل التي خلفها العراق وورثها . وقد شرحت هذه الناحية في مكان آخر (٩٦٥) ولن أعود إليها .

لكن لنترجع إلى الجغرافيين المبدائيين ، وإلى ابن حوقل والمقدسي في طليعتهم . فاين تقع في رأيهم المجامع المائية والمياه الجارية الدائمة في

دار الاسلام ؟ لاشك أنهم يسمون بعضها في شتى أنحاء هذه الدار
الفسيجة . وحتى في مغربها القصي : اي الأندلس . مع ذلك . تبدو
الجغرافية العربية في هذه الناحية وفي نواحي كثيرة غيرها . جغرافية
أهل المشرق في الفترة التي حددنا لانفسنا . ويبدأ من مصر تقصي
الأنهار ووصفها ومقارنتها ، ثم يتجه نحو الشرق . ولا أتحدث عن
الشواهد الوفرة الواردة في النصوص . بل اسوق اثباتاً واحداً : فلوحة
أنهار دار الاسلام عند المقدسي ، بأنهارها السبعة والعشرين ، المثبتة في
صدر كتابه (٩٦٦) لا تتضمن ولو نهراً واحداً من أنهار المغرب . ولا
يشار إلى هذا المغرب . مثلما يقال لنا ، بأنهاره « الصغيرة » « الريفية » ،
إلا في وصف بلدان دار الاسلام . وليس على مستوى استعراض العالم
أجمع (٩٦٧) . وتتخذ مواقف مماثلة عند الموسوعي المسعودي (٩٦٨) .
وعند ابن الفقيه أحد ممثلي جغرافية الأدب (٩٦٩) ، وعند وصف
الأرض الكلية في صورة الأرض : فكتاب حدود العالم ، ونكتفي .
به (٩٧٠) لا يتحدث إلا عن نهر واحد في مغرب دار الاسلام . هو
نهر تاجه ، من أصل عشرات أنهار محددة ومسماة . ونخصّ المغرب
ذاته ببضعة أسطر باعتباره بلد أنهار ضعيفة ، تكاد مياهها لا تكفي لشرب
الناس وري الحقول .

فما هي اذن هذه الأنهار « الشهيرة » ، التي رسمت وحدها باللون
الأزرق على خريطة المقدسي (٩٧١) ؟ أنهار هامة ، وهذه ناحية واضحة .
ويأخذ المقدسي على الجيهاني ، وهو أحد أسلافه ، اكثاره من التفاصيل ،
وطالة كتابه ، وتفويته النقاط الجوهرية . اما الانهار القائمة الاهمية في
دار الاسلام ، فالشهير منها اثنا عشر ، تجري فيها السفن ، وهي الفرات
والنيل ودجلة ، وجيحون (او كسوس ، اموداريا) ، ونهر الشاش (اياكسارت ،

سيحون ، سيرا داريا) ، ومهران (الهندوس) ، ونهر الاهواز (دجيل ،
كارون) ، ونهر الرس (اراكس ، في ارمينية واذريجان) ، ونهر الملك
(سمور ، يصب في بحر الخزر بين دربند وباكو) وسيحان (ساروس) ،
وجيحان (بيرانوس) وبردان (كيدنوس) ، وهذه الأنهار الثلاثة الأخيرة
منطقة أنهار (انطرسوس) .

و « دونها » خمسة عشر نهراً أخرى تليها بالأهمية ، لكنها مذكورة
هنا في نظرة شاملة وعامة عن المياه في البلدان المسلمة : وهي : نهر
مرو (مرغاب) ، ونهر هرات (هري رود) ، ونهر سجستان (هلمند)
ونهر بلخ (دهاس) ، ونهر الصغد (زرفشان) ، وطيفوري (اوجرجان ،
في أيامنا : رود - اي - جرجان) في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر
قزوين (٩٧٣) ، وزند رود . ونهر العباس (الذي يبدو أنه ذراع من
دجلة عند مصبه) (٩٧٤) ، وبردی ، ونهر الاردن ، والمقلوب
(العاصي الاعلى) ، ونهر انطاكية (العاصي الاسفل) (٩٧٥) ، ونهر
ارجان (طاب) ، ونهر شيرين (في شمال غرب فارس) ، ونهر سمندر
(الارجح نهر سولاك الحالي) (٩٧٣)

ولا يجدي ابراز هذه اللوحة أو خلفيتها الفكرية . فنهر دجلة مكرر ،
ويذكر بعموده وبأحد أذرع ، كذلك العاصي سمى « المقلوب » حسب
جريانه ، وحسب اتجاهه الصحيح ، بعد انعطافه قرب انطاكية صعباً (٩٧٦)
أما سيجان وجيحان ، فهما سيلان في الحقيقة (٩٧٧) ، ولم يلرجا في
هذه المرتبة الرفيعة إلا لتشابه اسميهما باسمي سيجون وجيجون في
الكلام عن أنهار اللجنة السابق . ويبدو أن سيجان وجيحان يشكلان في
الأذهان ، كنهرين في منطقة انطرسوس (٩٧٨) ، ثلاثية أنهار متجانسة

جداً مع جارهما نهر بردان ، الذي ضم والحالة هذه ، إلى فئتهما ، ما لم يكن قد أدرج ليقابل نهر بردى الشبيه باسمه ، وهو نهر دمشق الشهير ، وصغره معروف جداً ، فلا يجوز رفعه إلى مستوى الأنهار الكبرى . وهناك شكوك أخرى : ففي وصف الأنهار الشهيرة اللاحق (٩٧٩) العام جداً ، استبدل نهر الاهواز « بأنهار الاهواز » . وهو تعبير يلمح إلى مجمل شبكة الماء المعقدة جداً في خوزستان . كذلك استبدل نهر شيرين « بأنهار فارس » ، ويظهر الكسر إلى جانب الرس والملك ، ويفضي مثلهما إلى بحيرة الخزر الغربية . ويتفرع نهر ارجان ، ويعطى نهر طاب ، الذي يبدو أنه مجراه الاسفل (٩٨٠) . وتضيق أنهار سمندر والعباس والصغد ، في حين يذكر نهر الري (٩٨١) .

مع ذلك ، لا تستبعد هذه الحيرة وجود دقة في نواحي كثيرة . وتتجلى السمة الشرقية بارزة في هذه اللوحة . فأحد الأنهار السبعة والعشرين مصري ، وثلاثة منها عراقية ، وثلاثة في المناطق الشمالية من دار الاسلام (ارمينية ، جبل القبق ، الشواطىء الغربية من بحر الخزر) ، وثمانية في بلاد الشام (٩٨٢) ، والباقي أي ١٣ نهراً في فارس وبلدان أقصى شرق دار الاسلام . ولا يذكر المقدسي أنهار المغرب ، فيما وراء مصر ، ويحدد الأنهار العظمى الاثنى عشر ، اعتماداً على شهرتها وعلى غزارتها الكافية لحمل السفن . ويلاحظ في مجال الملاحظة ، ان دار الاسلام لا تمتلك في الواقع إلا أنهاراً قليلة صالحة لها في رقعتها الواسعة جداً ، مما يدل . مثلما قلنا في مطلع هذا الفصل . على وجود اسطول نهري محلي جداً ، حتى لو جارينا المقدسي إلى النهاية ، وصرفنا النظر مثلاً عن كون أنهار بردان وسيحان وجيحان وفسور والرس ، لا تصلح للملاحة . في أفضل الاحتمالات ، إلا في جزء ، تافه أحياناً ، من

مجاريتها (٩٨٣) . ويحق لنا أن نشاءل عن امكانات الأنهار الخمسة عشر « النون » في مجال الملاحة (٩٨٤) . فلا يبقى لها إلا شهرة تقل عن شهرة المجموعة الأولى ، لكنها تظل كافية لكي تعدّ أنهاراً على مستوى دار الاسلام ، لا على المستوى المتواضع لهذه الولاية أو تلك.

خريطة المياه : وضع المغرب العارض

لا ترد أنهار في مغرب دار الاسلام ، في تصوّر العالم الشامل ، كما قلنا من قبل . وإذا اعتمدنا صورة الأرض في كتاب حدود العالم ، أو صفحات المدخل العام عند المقدسي ، تخيلنا الاندلس والمغرب خاليين أو شبه خاليين من ماء ، لا يعود إلى الظهور إلا في وصف بعض الاماكن المتباعدة . ولهذا الوضع استثناء واحد : فالرازي ، المشرقي الاصل ، المقيم في الأندلس ، (٩٨٥) يتحتم عليه أن يولي أنهار موطنه الحديد وجباله ، عناية خاصة في جغرافيته .

فلولاه ماذا كنا نعرف عن أنهار الاندلس ؟ نعرف أن نهر تاجه ، «نهر عظيم» ، يشق مدينة طليطلة ، وتقوم عليه مدينة طليطيرة ، لكنه يختلف عن تاجه المعهود ، لأنه يخرج من بلاد الجلالقة في الشمال الغربي ، ويصب في بحر الروم حسب المسعودي . ويصحح ابن حوقل خطأ المسعودي ، لكنه يجعل « وادي تاجو » يصير إلى واد ينتهي إلى البحر المحيط في شنترة . فيلتبس عنده مع أحد روافده في تلك المنطقة ، يسمى زيزيري أو سرياً (٩٨٦) . ويغفل أحياناً اسم النهر ، فيضيع في المشهد الطبيعي (٩٨٧) ، أو يعطى اسم المدينة التي يمر فيها ، مثل قرطبة والوادي الكبير ، ومارد ووادي آنه (٩٨٨) . ويتصف يعقوبي بالدقة والصحة

أحياناً ، لكن ليس دائماً ، اذ يضع سرقسطة وطرطوشة على الابره .
إلا أنه ينقل طليطلة من ضفة تاجو إلى ضفة الدوير (٩٨٩).

ويذهب الرازي وحده إلى أبعد من ذلك (٩٩٠) . فيذكر من
الأنهار الصابة في البحر المتوسط نهر الابره ورافده جليق وشقوره أو
نهر تدمير ، أي نهر منطقة مرسية (٩٩١) . ومن الأنهار المنتهية إلى البحر
المحيط : المينوه ، والدويره ، وتاجه ، مع خليجه العميق بين لشبونه
والمعدن ، ووادي آنه ويغور في قسم من مجراه ، أخيراً « نهر قرطبة »
وروافده : سنجيل ، ووادي شوش ، والوادي الاحمر ، ووادي
بلتون (٩٩٢) . اذن يعطى على وجه الاجمال ، لوحة مرضية عن أنهار
الاندلس الرئيسية ، ونكرر ان هذه اللوحة تضييع في نصوص أخرى تمثل
الأنهار فيها حطاماً في حقل بلد كبير يعرف الشيء القليل عنه . ويعدّ
وضع جزيرة صقلية أسوأ من وضع الاندلس . ويبدو أن ابن حوقل يعرفها
جيداً . لكنه يركّز على بلرم ، مينائها الكبير ، ولا يذكر سوى نهرين
فيها ، هما وادي عباس ، وهو عظيم ، عليه طواحين كثيرة ، ثم نهر
روطه الكبير أيضاً . والحقيقة أن هذين النهرين جدولان بسيطان ، فيما
يبدو ، اختيرا من بين سائر جداول بلرم ، وجميعها غير مسماة ، أو
معروفة بأسماء عيونها (٩٩٣) . وفيما عدا ذلك ، فصقلية اندلس ثانوية ،
يذكر المقدسي من مدنها الواقعة على أحد الأنهار : اطرابنش في الغرب
ولنتيني في الشرق (٩٩٤).

أما أنهار المغرب ، فعرضها أفضل ، لاعتناء ابن حوقل بها . لكنه
غالباً ما يهمل ، هنا أيضاً ، اسم النهر الذي يعدّ جزءاً من مشهد طبيعي
خصب ، يمتد حول إحدى المدن بالذات . (٩٩٥) . وقد يشترك النهر

والمدينة بالتسمية ، أو ينفرد النهر باسم يعرف به . وتتعاقب الأنهار من المغرب الأقصى إلى تونس على التوالي . فالزيز ، وهو نهر سجلماسة ، يقع على التخوم الصحراوية الشمالية القريبة من جبال الاطلس ، ويزيد في الصيف كزيادة النيل (٩٩٦) . ولا يتميز مصب نهر سله ، أو بورقرق ، دوماً عن مصب سبو ، الكثير الروافد ، ومنها ايناون . وقد يشته نهر سبو مع أحد هذه الروافد ، مثل « نهر فاس » الشهير ، الذي يقال « إنه أعظم من جميع أنهار الأرض » . ولا يزيد مستواه ولا ينقص ، وعليه ثلاثة آلاف رضى ، وعلى حافته مزارع وضياع وقرى (٩٩٧) . ويجري في جهة الشمال سفدد (أو تُشْمُس) أي نهر لوكنس ، وتمتد شعبتان بكلتيهما ماء كثير ، فهو غزير يحمل أهل بصرة صنهاجة المغربية تجاراتهم في مراكبه ، ثم يخرجون إلى البحر المحيط ، ويعودون إلى البحر الغربي ، فيسيرون منه حيث شاؤوا (٩٩٨) . ويتلقى وادي ملوية وادي مسون ، ويقع إلى وادي صاع (ز ا) ، ويصبان جميعاً في البحر ما بين جرارة أبي العيش ومليلة (٩٩٩) . ويشار إلى تفنا (١٠٠٠) ووادي الصفاصف ، أي وادي افكان إلى غرب جنوب غرب معسكر (١٠٠١) . أما وادي شلف ، فأهم منها إلى حد كبير ، ويسقي بساتين واسعة واجنة وكروما ، ويفيض كما يفيض نيل مصر (١٠٠٢) . ثم يذكر الوادي المالح ، والارجح انه يصب في شط الحصنة (١٠٠٣) ، ووادي سهر (القصب) في المسيلة . وفيه ماء عظيم ، وينبسط على وج الأرض ، وليس بعميق ، ويحني من أراضي غلات كثيرة وعلي كروم (١٠٠٤) . ونهر قرنة ، الذي تسمى مدينة قرنة به ، على حد قول المقدسي ، في شمال غرب تونس ، ولعله المليغ أو المجردة أو أحد روافدهما (١٠٠٥) . أخيراً وادي السراويل في قبلة مدينة القيروان

وفيه ماء مالح ، لأنه في سبخ ، وقد يكون الزرود (١٠٠٦) . ولا يذكر شيء من الأنهار بعد وادي السراويل باتجاه مصر ، وتصبح الاودية أسماء أماكن حقيقية ، لا يعلم أحد ان كان الماء قد جرى فيها في يوم من الايام . وهي أشكال أرض أو تضاريس في النصوص الجغرافية ، ولا شيء سوى ذلك . وربما كانت في الماضي البعيد أسرة أنهار جفت ماؤها ، وحل محلها رمل حقيقي أو اسطوري (١٠٠٧).

ولا غرابة في هذا الصمت المطبق في الحقيقة . فالماء لا يشاهد باتجاه الشرق بعد قابس ، وهي آخر المدن التي يبلو الماء فيها نهراً (١٠٠٨) . ولا يعرف منه في هذه المنطقة الجافة الواسعة ، الواقعة بين طرابلس الغرب ومصر ، سوى ماء المطر ، الذي يجمع فوراً في الصحاريج ، أو يعثر عليه في الآبار (١٠٠٩) . أما سائر المغرب فقد باركته السماء إلى أقصى حد ، لكن هل يسع الباحث الا يغالي ويتحدث عن لوحة مياه جارية فيه ؟ ان ابن حوقل واليعقوبي ، اوسع الجغرافيين اطلاعاً على هذه الشبكة المائية . لكنهم لا يتبسطان في الكلام عنها ، ولا يقدمان معلومات كاملة عنها . ويلوذ باقي الجغرافيين بالصمت التام ، فلا يرد شيء عندهم لا عن أنهار المغرب ولا عن جفاف ليبيا .

ولم يعد أحد يذهل لنقص الاطلاع على شؤون مغرب دار الاسلام عند جغرافي مشرقها ، بل يتعجب في النهاية ، والحق يقال ، ان يثير هذا الموضوع اليعقوبي وخاصة ابن حوقل الذي يعتبر المغرب « كم ثوب » (١٠١٠) دار الاسلام . ويعتبر اليعقوبي مسألة المغرب قضية شبه عائلية ، لأن هذه البلاد التي يهتم بها ، هي بلاد ادارسة فاس ، الذين انقذ جده الثالث مؤسس سلالتهم (١٠١١) . ويلاحظ ان ابن حوقل

يتحدث عن الأنهار في نطاق طرق معينة (١٠١٢) ، يجعلها نقاط ارتكاز لها أو توقف عليها ، اعتنى بتفصيلها عناية جيدة . لكن لمن يرسم تلك الطرق ؟ قطعاً للتجار . وهذا النوع من الاهتمامات معروف ، ويوجه الانظار إلى سجل ماسة ، وبعدها إلى أودغست وافريقية الذهب . إلا أن المغرب ميدان نزاع مغلق ، يتخاصم فيه امويو الاندلس وفاطميو مصر . وتدخل تلك الطرق وتحديد نقاط الماء عليها ، وبيان ثروات البلاد المسافر إليها أو تنظيم قبائل البربر ، في إطار جغرافية تؤيد الفاطميين ، بيدوا بن حوقل واحداً من أفضل ممثليها (١٠١٣) . فهل قام صدفة بتدوين أنهار الجزائر لأنها معالم طرق ، وخاصة بتدوين أنهار المغرب الأقصى لأنه يقابل الاندلس الاموية ، ويسيطر على بعض النقاط الحساسة الرئيسة على طرق الذهب عبر الصحراء ؟ في جميع الأحوال ، يعد تدوينها أفضل من التدوين المتعلق بتونس التابعة لسلطة الفاطميين . وقد قلنا من قبل ان معرفة الجغرافية عن المغرب ناقصة . ونقصد جهل بعض الجغرافيين الصارخ لها من جهة ، وتشويهها غالباً ونزوعها إلى جعل الأنهار وغيرها عناصر في استراتيجية السلطة .

مصر والنيل

انتهت الريب المغربية . وآن اوان الحديث عن مصر ، البلاد القديمة الشهيرة ، التي اثار حماس الجغرافيين (١٠١٤) ، الذين عرفوها جيداً ، ودأبوا يكملون معطيات اللوحة الكلاسيكية في كل وصف لها (١٠١٥) ، ويصححونها معتمدين على مشاهداتهم الشخصية .

وتأتي في طليعة هذه المعطيات ، كما قلنا من قبل ، المعادلة بين مصر والنيل ، وتشابك الأرض والماء ، واسهام النيل في جميع مظاهر

الثروة ، وتسميته بحرّاً دون انهار الدنيا لكبره واستبحاره . واتجاهه في جريانه من الجنوب إلى الشمال ، خلافاً لميل الكرة الطبيعي . وأخيراً خروجه من البخنة التي يجري فيها عسلاً . اذن النيل سيد مصر الذي حوّل أرضها القديمة إلى « معدن ذهب » . بالتالي يعد إحدى عجائبها.

والواقع ان النيل عجيب في نواحي عديدة ، أولها تاريخه الذي يتضح بتقليد خاص . ويختلف بعض الآثار . فهذا التقليد الخاص ، سنة النيل التي الغاها الاسلام ، وكانت تزعم انه لا يجري إلا بها . وتقضي بالقاء جارية بكر فيه لكي يأتي فيضانه غزيراً (١٠١٦) . اما الآثار ، فتتمثل في خرائب سور مزدوج ظن أنه أقيم على ضفتي النيل ، وسمي « حائط العجوز » ولم يكن في الحقيقة سوراً . بل مراكز مراقبة صغيرة متفرقة ، بنيت في الماضي في الاودية الصلبة فيه ، وبقيت اطلالها ، وجعلتها الاخبار آثار تحصين متقن ومستمر : شيد لمجابهة أهل صعيد مصر أو للرد على خطر السباع الخارجة من النيل وغيرها من الوحوش (١٠١٧).

ومن عجائب مصر أيضاً الحيوانات . ولابأس ان يعدّ النيل من أغنى أنهار الدنيا بالاسماك . وإليه تأوي دواب ، لا تعيش إلا في مائه أو على ضفافه ، نذكر منها - وسوف نعود إليها - الرعادة ، وفرس الماء ، وخاصة التمساح الذي يجزم الجغرافيون انه خاص بالنيل ، لا لأنهم يجهلون وجوده في أماكن أخرى ، مثل سواحل الهند أو افريقية الشرقية ، بل لأنه يطيب فعلاً له ، فيما يبدو ، أن يعيش في مصر ، ويكثر فيها ، ويترافق مع طائر يخلل اسنانه ، وينبئه إلى الاخطار التي تتهدده . أخيراً يعدّ التمساح ، عند الاقتضاء ، برهاناً اضافياً على اتصال النيل ومهران ، وقد اشرنا اليه من قبل ، لأن جميع تماسيح النيل أتت إليه من نهر مهران في المشرق (١٠١٨) .

والعجيبة الأخيرة فيضان النيل . وهذه ظاهرة خارقة حقاً . ويرحب بها الناس ، ويدعونها الجغرافيون على هذا الأساس ، بل يعدونها معياراً لأنهار أخرى . مثل مهران وزيز ، وشلف ، كما قلنا ، أو أيضاً نهر الشاش (سيحون) (١٠١٩) . هنا كذلك ، المعادلة شبه تامة بين مصر والنيل ، اذ ليس بأرض مصر ، فيما يقال ، مدينة يجري فيها الماء من غير حاجة إلى زيادة النيل الا الفيوم (١٠٢٠) . ويعرف المصريون جيداً زمن ارتفاع مياهه الذي يلوم من « امتداد الحر إلى الحريف » ، على حد قول ابن حوقل ، الذي يحدده بدقة في مكان آخر ، كما يفعل المسعودي أو المقدسي ، معتمدين جميعاً على تقويم قبلي قديم (١٠٢١) . ويتبدى نيل مصر بالزيادة في شهر بؤونة — وهو حزيران — عندما تحل الشمس في كوكبي التوأمين والسرطان ، ويستمر ماؤه في الزيادة في الشهرين التاليين (ايب و خاصة مسرى) ، وأحياناً حتى نهاية شهر أيلول (توت) . فاذا كان يوم عيد الصليب في ١٤ ايلول ، « وقت انتهاء حلاوة العنب » اطلق الماء الطيب في جميع نواحي مصر من ترعها ، وقد سدّ أهل الجرف أفواه أنهارهم حتى لا يخرج الماء منها . وحين طلوع الفجر بالسماك الاعزل ، وهو لثمان تغلو من شهر بابه (تشرين الأول) ، يتكامل ري الأرض ، ويقرب وقت انحصار الماء .

وقد ورثت دار الاسلام تقليداً من أقدم تقاليد الدنيا عن فيضان النيل ، وتعبّر عن اهتمامها بهذا النهر ، بما قيل من زمن بعيد عن الأراضي وعن المقاييس الموضوعة لمعرفة زيادة النيل ، وعن تقدير المحاصيل استناداً إليها ، مما يدل على مخاوف المصريين منذ عهد عريق في القدم ، من اندفاعات النيل ومن جفافه أيضاً (١٠٢٢) . ولقاييس زيادة النيل أماكن ثابتة أحدها بسردوس . « والمقياس بركة وسطها عمود طويل ،

فيه علامات الاذرع والاصابع (١٠٢٣) . فما فائدة هذه المقاييس ؟
أولاً تصحيح التخمينات التقريبية التي يرددها المصنفون الجغرافيون .
فهنا يقال ان أكثر ما يركب نيل مصر الأرض . وينبسط عليها من
جانبه نحو فرسخين سيحاً وفي الخليجان ، أي أقل من اثني عشر كم .
لكن على أي مستوى (١٠٢٤) ؟ ويروى أيضاً أن النيل عند امتداده ،
يكون أكبر من دجلة والفرات اذا اجتمعا ، لكن أقل من سيحون (١٠٢٥) .
ولا بد من التدقيق في هذه الأقوال التقريبية . والاعتماد على مقاييس
الزيادة لتحقيق هذه الغاية . وتتفق جميع التقديرات على ما يلي : فأقل
ما يبقى في قاع المقياس من الماء ثلاث أذرع . واذا انتهت الزيادة إلى
ست عشرة ذراعاً ، استبشر الناس ، وكانت « سنة مقبلة » . وأتم
الزيادات كلها ، العامة النفع للبلد كله ، سبع عشرة ذراعاً ، وفي ذلك
كفايتها وري جميع أراضيها . فان جاوزها الماء كان خصب وسعة .
واذا بلغ ثماني عشرة ذراعاً ، استبحر بمصر ، وتضررت بعض الضياع
وكانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء . واذا تعداها ، وهذه ظاهرة
نادرة جداً لحسن الحظ ، حلت بمصر الكوارث . مع ذلك تقل هذه
الأضرار عما يحصل لو قلت المياه : فالأذرع التي يستسقى عليها بمصر ،
ذراعان تسميان منكراً ونكيراً . اشارة إلى اسمي ملكي الموت ، وهما
الثالثة عشرة والرابعة عشرة . ولا يتادي المنادي على زيادة النيل إلا بعد
ان يبلغ اثني عشرة ذراعاً ، إلا ما يرفع إلى السلطان (١٠٢٦) .

ولا يترقب الفلاح وحده أنباء زيادة النيل . فالخراج يترصد لها
كظله ، ويتناسب استيفاؤه معها . ويقال ان ليس كهذه الحال تجري
أحوال الخراجات بسائر أصقاع الأرض . لأن الخصب لا يعول على
الأمطار ، لأن مصر لا تمطر إلا المطر اليسير . بل على مياه النيل (١٠٢٧) .

ويورد ابن حوقل ، دون سائر الجغرافيين ، اوسع التفاصيل عن هذه الناحية (١٠٢٨) ، ويستعرض مراحل استيفاء الخراج ، شهراً فشهراً. ويرفّقها ببيان أعمال الأرض الحارّية ، ويتزامن عنده تحديد الوقت وامتداد الماء ونمو النبات وكسح البشر في حقولهم . وتتكرر هذه الظواهر المربكة ، وهذا الاحصاء المحهد الدقيق الذي يهّم إلى أقصى حد تاريخ الزراعة في مصر والشرق الأدنى في القرون الوسطى (١٠٢٩) ، ويرز فيها فيضان النيل الذي يرى فيه الفلاح بشير خير أو نذير قحط أو مدعاة لا مبالاة ويعتبره الخراج الذي يقيس امتداد المياه وزيادتها ، دليلاً قاطعاً على جودة محصول الأرض المغمورة ، ومعيّاراً حاسماً لها. ويحدّق الكاتب بأرض مصر ونهرها ، ويطمئن لهما ، ويشعر بالثقة في وصف حوارهما ، وتهن عزيمته عند تعليله ابان زيادة المياه ، التي يستغربها كثيراً . لأن ظاهرتها تترافق مع التضداد الصارخ بين النيل الممتلئ السائد وبين مصر الشحيحة الامطار مثلما قلنا . اذن ينبغي ان تمطر السماء صعداً ، بعيداً جداً ، في شتاء نصف الكرة الجنوبي ، أي ما يقابل صيف النصف الشمالي . في رأي المسعودي . ويتحدث مصنفون آخرون ، وهم مصيبون ، عن أمطار صيفية في مناطق أعالي النيل أو يعتبرون زيادته ونقصانه من عيون في شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه ، أو يحتجون بمبدأ التوازن العام بين النيل وبين سائر أنهار العالم والأعين والآبار ، أو بما يظهر من تأثير القمر في بحر النيل : أي بالمد السنوي عملياً . ولا يتضح تماماً في ذهن الاسواني ما اذا كانت زيادة النيل ، الناشئة « عن الامطار يضاف اليها فيض الانهار ذاتها » ، تتبدل من مكان إلى آخر ، ويتغير زمانها وشدتها ، أو اذا كانت تحصل في جميع المناطق بأن واحد (١٠٣٠).

وتتدخل الرياح أحياناً في زيادة النيل . ولا غرابة في ذلك :

ما النيل أصبح زاخراً بمدوده

وجرت له ريح الصبا فجرى لها

وإذا هبت ريح الشمال ، تراكضت أمواج البحر ، ودفعت ماء النيل . فإذا هبت الجنوب ، ردت ماء البحر ، وغلب عليها النيل ، ما لم يعين النيل نفسه حركة الهواء من الجنوب بجريه وأبحرته . إلا ان ريح الشمال ، اذا كثرت واتصلت بماء النيل ، حبسته فيفيض من جراء هذا السد الخفي المحسوس (١٠٣١) . ويجوز أن تكون حركة الهواء والأرض والماء « لعل استأثر الله بعلمها ، ولم يظهر أحداً من خلقه عليها ، لما هو اعلم به من عمارة البلاد وصلاح العباد » (١٠٣٢) . كذلك بشأن الزمن . فنحن لم نعد نعيه ، ويعلمه الله وحده . ويقول السعودي : خفي على أهل مصر ، ولا تذكر تقاليدهم ، متى استقر أجدادهم في البلاد ، وسيطروا على النيل ، واعمروا الأرض ، في الأزمنة القديمة . عندما كانت زيادة النيل تبدأ عند موضع الجنادل الأولى . ثم عملت الأجيال المتوالية ، فأحكمت الجسور ، وبنت القناطر ، ونقّت الخللجان ، فقام توازن تام بين الأرض والنيل . وكان الماء اذا بلغ في زيادته تسع أذرع دخل بعض الخللجان ، واذا بلغ ست عشرة ، روى أرض مصر كلها ، عامرها وغامرها (١٠٣٣) .

أما الواقع الراهن ، وهو معروف وحده ، فمشهد تحدده بانتظام زيادة النيل لسنة كاملة ، وتحولّه في غضون بضعة أسابيع . وينساب النيل بين أبنية مصر القديمة ، أي معابدها ومسلاتها ، وأهرامها ، ويمر بمدنها . الواحدة تلو الأخرى ، ويتوزع على أريافها الهادئة بأقنيتها ، ونواعيرها

وسلودها ، ويسقي ضياعها وأراضيها ونباتها وحيوانها . واذكر من بين أشياء كثيرة ، النخيل ، وهو وافر جداً ، وبساتين الأشجار والخضار ، والحبوب ، والرز ، والكتان ، وقصب السكر ، والكروم ، والقصب ، والموز . والزيتون . والفلفل والسنط والحميز ، والبلسم (١٠٣٤) ، ثم الخيول . والقطعان ، والحمير ، والابقار ، والبغال ، والابل ، والاغنام ، والبط وحتى الخنازير (١٠٣٥) . وإذا تنهى مد النيل ، يغشى الأرض فتغمر الطرقات ، وترى « ضياعه على الروابي والتلال مثل الكواكب » ، قد أحاطت بها المياه من كل جانب ، فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض الا في الزوارق (١٠٣٦) .

وعندئذ يعمّ سحر الألوان وشذا العطور . وينبئ بهما النيل الذي يبدأ مخضراً ، ثم محمراً ، ثم مكدرأ ، ثم يتدافع بأواجهه ويتراعى بسيوله . ذلك أنه يجعل الدهر أربعة فصول بأربعة ألوان . فعندما يطبق على الأرض ، تصير كأنها فضة بيضاء ، ثم ينضب عنها فتصير مسكة سوداء ، ثم تزرع فيصير زرعها زبرجدة خضراء ، ثم يستحصل زرعها ويصفر فتصير ذهبية صفراء (١٠٣٧) . إلا أن هذا الكلام القليل المنقول من كتاب التنبيه والاشراف ، لا يكفي ليدل . ففي مروج الذهب توسع ، يتناول الأشهر القبطية ، ويتسامى بها ، ويشدد عليها ، على غرار تقويم الثورة الفرنسية ، ويجعلها أشبه بحلي يزدان بها العالم (١٠٣٨) . وقد جاء فيه : « وصف بعض الحكماء مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء . فاما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في شهر ابيب — وهو تموز ، ومصرى ، وهو شهر آب ، وتوت ، وهو أيلول (١٠٣٩) ، يركبها الماء ، فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على

روابي وتلال مثل الكواكب . قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا في الزوارق . واما المسكة السوداء ، فان في شهر بابه ، وهو تشرين الأول ، وهاتور ، وهو تشرين الثاني ، وكيهك ، وهو كانون الأول (١٠٤١) ينكشف الماء عنها ، وينضب عن أرضها ، فتصير أرضاً سوداء ، وفيها تقع الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك . واما الزمردة الخضراء ، فالأرض في شهر طوبه . وهو كانون الثاني ، وامشير ، وهو شباط ، وبرمهات ، وهو آذار (١٠٤١) ، تلمع ويكثر عشبها ونباتها ، فتصير كالزمردة الخضراء . وأما السبيكة الحمراء ، فان في شهر برمودة ، وهو نيسان ، وبشنش ، وهو أيار ، وبؤونة ، وهو حزيران (١٠٤٢) ، يبيض الزرع ، ويتورد العشب ، فهو كسبيكة الذهب منظرأ ومنفعة » .

وهنا ، تبلغ رؤية اقتران النهر بالأرض أوجها . مع ذلك ، لا يضني هذا العمل النيل . فهو رب مصر وسيدها ، يمر فيها ، ويخصبها ، ويكفي نفسه بنفسه . ومصر تهيم باتصالها به ، وليس العكس . مهما يكن ، يخص وصف النيل النهر وحده بجانب كبير من نصه . ولن نعود إلى أصل النيل ، الذي تحدثنا عنه من قبل (١٠٤٣) ، ولا يهمننا إلا نيل دار الاسلام . فهو يبدأ بدقة تامة عند أسوان ، على تخوم العالمين المصري والنوبي ، المتمثلة في جبال منبعة . فالى هذه الحدود ، في ناحية جزيرة بلاق (١٠٤٤) (فيله باليونانية) ، تنتهي سفن المصريين النهرية ، وتتوقف عند الجنادل الأولى ، التي تعد ثغرة هائلة مفتوحة في الجبال . لكنها ثغرة خشنة ، لم ينجز الماعمله فيها ، فخلّف في وسط النهر أحجاراً عظماً ، لا تقدر المراكب ان تسير بينها ، فيحمل متاعها في البر (١٠٤٥) . وعلى النيل أيضاً مضيقان بين جبلين بثيران صعوبات

نخيفة . يسمى الأول منهما الحنس ، ويقع بين أسوان واقفو . يرجح انه ممر جبل السلسلة (١٠٤٦) ، ويقع الثاني صبيبا بين اسنى وارمنت ، ولعله على مستوى « الجبلين » في الوقت الحاضر (١٠٤٧) . ثم يلي تلميح مبهم جداً إلى رسم النيل منعطفاً كبيراً بين الأقصر ونجع حمادى (١٠٤٨) وهذا كل ما يقال حتى مستوى الفيوم .

فهنا يقع سد اللاهون وخليجه ، ويقال ان يوسف احتفزه ، وهو يأخذ من النيل (١٠٤٩) ونشير عرضاً إلى أن المصنفين الجغرافيين يتعمدون الغموض . فمن يطالع مصنفاتهم ، لا يخامرهم الشك في ان الخليج المقصود ، اي المنهى ، ويسمى اليوم بحر يوسف ، يتفرع عن النيل ، لا عند هذا المستوى بل بعد مئتي كم صعداً قرب ديروط (١٠٥٠) في جميع الاحوال ، يبدو ان ري الفيوم يتم على مرحلتين . فلم يكن النيل يبلغ الفيوم ، فشكاً أهله ذلك إلى يوسف ، فبنى وسط المنهى سداً عظيماً ، وجعل في أسفله منافس في قنى زجاج ، فردّ السد الماء ، فارتفع حتى حاذى أرض الفيوم ، ووزنه ليدوم لهم دخول ماء ثابت ومتساو في خليج المنهى . وسر أهل الفيوم بعمل يوسف : فالماء حين زيادته ينهال من فوق السد ، وربما خلّفوا المراكب مع الحرية ، فأنحدرت سالمة ، وربما عطفت ، فانقلبت (١٠٥١) . مع ذلك ، لم يكن بناء السد كافياً فيما يبدو . فعلى حد قول المسعودي (١٠٥٢) كان الماء يأتي إلى الفيوم من المنهى أيام جري النيل فقط ، ولم يكن حجر اللاهون قد بني بعد ، فقرر يوسف أن يبني (١٠٥٣) المنافس والسدود المتدرجة التي يشير صاحب مروج الذهب إلى عجائب بنائها وخلودها ، بعد سترابون . وهكذا ، ارتد شح الطبيعة الأصلي عليها . وصارت الفيوم ، بعد

ضبط توزيع المياه بالسد ، البلد الوحيد في مصر الذي يتلقى ماء النيل يوماً بعد يوم ، كما سبق وقلنا . ويتجاوز الخليج قرية اللاهون ، بحجاره المنضدة في سريره ، ويذهب إلى مدينة الفيوم ليرسقيها . وكان سور يحيط بناحية الفيوم في قديم الايام ، ويعرف بـ « حائط العجوز » ، ولا تزال أبراجه بيئة من جانب البرية . وناحية الفيوم كثيرة الخيرات والفواكه . وأكثر غلاتها الارز ، ولا تعد من أصناف الحبوب شيئاً . وبها طرز مشهورة للسلطان ، تعمل فيها الستور والشرع والخيام والبسط والحلل المقصبة . وتنتهي بقية المياه ، بعد الفيوم ، على حد قول ابن حوقل ، إلى بحيرة أفني وتنهت ، وتمتد مسيرة يومين في وسط جبال رمل أصفر . وبها من الطير في الشتاء ، ما ليس بمكان ما يدانيه ولا يقاربه . وكانت تسمى قديماً بحيرة ماوريس ، وهي اليوم بركة قارون (١٠٥٤) .

ثم نأتي إلى مدينة الفسطاط العظيمة التي يعرض النيل عندها كثيراً . وينتهي ، باتصاله بجبل المقطم ، كل حوار مع الجبال ، وقد اتخذ مقياس لمعرفة زيادة النيل في جزيرة الروضة (وتدعى جزيرة الصناعة) ، بين الفسطاط والخيصة . والمعبّر إليها من الفسطاط على جسر ، ثم منها على جسر آخر إلى الخيصة ، وحركة السفن والمراكب دائمة بينها ، وفيها دور عالية بها طبقات ، وحولها بساتين ونخيل وقصور (١٠٥٥) . وتعد الفسطاط بداية الدلتا والحواف والريف : فالحواف ما كان من النيل أسفل الفسطاط ، وما كان من النيل جنوبيه يعرف بالريف (١٠٥٦) .

وتتلخص أوضاع الدلتا بوضع كلمات : أذرع النيل ، خلجانته ، سدوده . ولا ريب أن هذا المشهد يتراءى صعباً ، وقد رأيناه في الفيوم . إلا أن المياه تتوزع في أراضي الدلتا إلى أقصى حد بدءاً من الفسطاط .

ويتعيز (١٠٥٧) عمود النيل عن الشعبة الثانوية التي تعزل الروضة عن ضفة النيل الشرقية ، الواقعة عليها الجزيرة ، وتسمى خليجاً . إلا أن اسم الخليج يطلق أيضاً على ذراع النيل القديم ، الذاهب إلى بحر القلزم ، الذي رمه حكام مصر عدة مرات ، وسموه خليج أمير المؤمنين ، ولا يزال سده يلعب دوراً رئيساً أثناء زيادة النيل (١٠٥٨) .

ويرأى للقارىء أن الالتباسات أخذت تظهر من جراء لامبالاة أناسية ، تبدت عند المصنفين الذين لم يميزوا مجاري المياه الطبيعية عن مجاري المياه الصناعية (١٠٥٩) ، مثلما ابنا من قبل . بالفعل ، لا يسهل دوماً الوصول إلى رؤية واضحة لتداخل أذرع النيل وخليجانه ، صبيّاً ، بعد القسقاط ، لاسيما أن اسماءها في هذه الشبكة المائية وطوبوغرافيتها بالذات تبدلت في الغالب (١٠٦٠) . فقيماً يختص بالترع ، عدد المقدسي أربع أمهات (١٠٦١) ، أسماؤها بلقينة ، وذات الساحل ، ثم الترة التي تحدثنا عنها سابقاً ، وتقع عند عين شمس (هيليوبوليس) وهنا يفتح خليج أمير المؤمنين الذي تضيع مياهه في النواحي الشمالية من السويس الحالية (١٠٦٢) ، وأخيراً ترعة سردوس (١٠٦٣) ، وهي أهمها وابعدها صبيّاً ، وتكثر فيها التماسيح مع الأسف . ومن أمثالهم «احذر سردوس ولو كان الماء في قابوس» ، ويستطرد المقدسي ، فيقول : «كنت يوماً في سفينة عند سردوس ، فحكّت ، فقلت : أبالارض حكّت ؟ قيل : لا ، ولكن بظهر تمساح» (١٠٦٤) . أما الشعب والخلجان الكبرى ، المختلطة في الوصف (١٠٦٥) فكان عددها سبعة في مصر ، وهو رقم رفيع الشأن ، يضاف إلى قائمة ، أصبحت طويلة من عجائب مصر وفضائلها (١٠٦٦) . إلا أن الواقع يفرض بدوره اختيار شعبي النيل اللتين تتباعدان بعد القسقاط بمسافة قليلة ، صبيّاً ،

وتذهب احدهما إلى دمياط ، والأخرى إلى الرشيد . وتستطيع السفن القادمة من عرض البحر أن تصعد ، هنا وفي أماكن أخرى ، في المصب المسمى اشطوم ، وهو لفظ يوناني محرف (ستوما) (١٠٦٧) ومعناه فوهة النهر .

وتبرز نواحي أساسية في وصف دليا النيل (١٠٦٨) : مثل المدن بالتأكيد ، وفي طبيعتها الاسكندرانية والخلجان التي تصل بلدها بالنيل ، ثم البحيرات الكبرى القائمة بين طرف الريف وبحر الروم : كمربوط (ماربوتيس) (١٠٦٩) ، وبحيرة البرلس أو البشمور ، الكثيرة الصيد والسماك (١٠٧٠) في الغرب ، وبحيرة تنيس (١٠٧١) الشهيرة في الشرق ، ويجعلها كتاب حدود العالم مصرف نيل بسيط إلى أقصى حد (١٠٧٢) . ويشرح بعض الجغرافيين برزانة فائقة تجري النيل في الشعبة الشرقية نحو دمياط ونحو بحيرة تنيس المتصلة بالبحر الرومي (١٠٧٣) . فالمسعودي يعود إلى الماضي السحيق الذي كان البحر فيه بعيداً عن تنيس ودمياط ، وكانت فيه بحيرة تنيس أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة . أما ابن حوقل والمقدسي ، فيكتفیان بالحديث عما يشاهدانه من مدن أشبه بالجزر ، محاطة بالماء من جميع جهاتها . ومنها مدينة تنيس ، التي أعطت اسمها للبحيرة . وبحيرة تنيس قليلة العمق وفيها سمك الدلفين ، صديق الانسان ، وحسب هبوب الرياح ، يكون ماؤها عذبة إذا امتد النيل في الصيف ، ومالحة متى جزر النيل في الشتاء وقلب ماء البحر عليها . ولتنيس شهرة عالمية بالنسيج الفاخر ، ويعمل بها رفيع الكتان والثياب والحلل ، وهي إحدى مفترقات التجارة الدولية ، وتعد « جبل الذهب » ، وتسمى « بغداد الصغيرة » على الرغم من نقص مياه الشرب فيها وقذارة شوارعها .

اذن ، يكتنف النيل مصر حتى النهاية ، إلى بحر الروم ويتحداه .
وتقترن الإشارة إلى هذا الماء بذكر الأرض . والماء ماء الري بلا ريب ،
لكنه ماء الشرب أولاً ، ويؤخذ من العيون النادرة فيما يبدو في هذه
البلاد المحرومة من المطر أو تكاد (١٠٧٤) . ويسحب أيضاً من آبار
تزداد ملوحتها مع الابتعاد عن النيل (١٠٧٥) . أخيراً يستقى خاصة وفي
جميع الأماكن من النهر أو من فروعه . ويلخص اليعقوبي (١٠٧٦) مصر
والتدوينات الممكن جمعها من هنا أو هناك ، ويقول : « وشرب مصر
وجميع قراها ماء النيل صيفاً وشتاءً » وهذا الماء متفاوت الحلاوة ، كما
أبنا ، حسب التربة ، أو حسب نسبة القوى بينه وبين ماء البحر . وهو :
بارد هنا ، خاصة في الشتاء (١٠٧٧) ، أو حار كما في الفيوم ، حيث
يجري على حقول الأرز (١٠٧٨) ، وصاف أو على العكس كدر ، لاسيما
مقى زاد النيل ، وعندئذ تلقى فيه نوى ممشى مرضوضة ليصفو (١٠٧٩) ،
أو مخصب للتربة في جميع الاحوال ، وللنساء أيضاً (١٠٨٠) . ويستهلك
ماء النيل وحده أو ممزوجاً بالمشروبات الروحية ، كالخمر وخاصة
شراب العسل ، الذي يتخذ في زمان ملود النيل ، ويعمل من ذلك الماء
الحاثر الكدر ، ولو عمل من الصافي لم يخرج على صفاء هذا ولا
جودته (١٠٨١) :

فالماء يحجز ، ويوزع ، ويشرب ، ويتنوق ، ويلرس ، ويقوم ،
ويشاد به ، ويحتفل . فاذا كان عيد الصليب في ١٤ أيلول ، أي بعد
يوم واحد من التاريخ الحقيقي ، وقبل أربعة أيام من الاعتدال الخريفي ،
وقت انتهاء حلاوة العنب ، يخرج السلطان إلى عين شمس ، ويأمر
بفتح ترعة سد أمير المؤمنين في عين شمس (١٠٨٢) . وتطغى عبادة النيل

وعبادة مائه على احتفال عيد تعميد المسيح في ليلة الغطاس ، التي يشترك المسلمون والاقباط باحيائها وافراحها .

ويقول عنها المسعودي ما يلي (١٠٨٣) : « ليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند المصريين لا ينام الناس فيها وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني » (١٠٨٤) .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثماية (١٠٨٥) ليلة الغطاس بمصر ، والأخشيذ محمد بن طنج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل ، والنيل يطيف بها . وقد أمر فاسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسقاط ألفي مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل في تلك الليلة مئات آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف (١٠٨٧) . وهي أحسن ليلة تكون في مصر ، وأشملها سروراً ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم في النيل ، ويزعمون ان ذلك امان من المرض ومبرىء للداء .»

مجري الماء الوسطى في جزيرة العرب والشام

تفرض الصحراء وجودها بعد عظمة المياه المصرية ، إلى شرق النيل مباشرة ، وتستبعد الأنهار والبحيرات عن الخريطة (١٠٨٨) . فهنا يبدأ نطاق الأودية، وجزيرة عرب الأودية الجافة، بمجاريها الاستثنائية ، التي اختفت إلى الابد ، أو في أفضل الاحتمالات ، غارت ولم يعد يعثر عليها إلا في آبار في أماكن متباعدة . بالتالي ، لا تعدّ الأودية أنهاراً ،

بل أشكال تضاريس ، مغفلة الاسماء أو أماكن بسيطة أو منازل على الطرق (١٠٨٩) . وحتى لو اتسع الوادي ، وتحول إلى رقعة أرض حقيقية مثل وادي القرى الذي يمثل منخفضاً فسيحاً يمتد من خليج العقبة إلى المدينة ، فتسميته لا تنطوي البتة على إشارة إلى نهر مياهه دائمة وجارية (١٠٩٠) .

فأين يعثر في النهاية على هذا النهر الجاري ، ولو لبضعة أيام في السنة؟ في الأماكن الطبيعية المقدسة ، البائدة أو المازيفة . أما في الأماكن المقدسة المسلمة ، أي المدينة ومكة ، فتفيد هذه السيول الطارئة والعارمة — هي هذا النوع من السيول فقط — في وصف الطبوغرافية بدقة قبل أي شيء آخر (١٠٩١). ويتحدث الجغرافيون عن تاريخ جزيرة العرب الجنوبية، الذي لم تحتفظ الأرض والبشر إلا ببعض آثاره . ويلخص الاصطخري وابن حوقل الوضع تلخيصاً جيداً : فمجمع الماء الذي كان بأرض اليمن، في ديار سبأ ، إنما كان موضع مسيل ماء ، فبنى على وجهه سدّ وكانت تجتمع فيه مياه كثيرة يستعملونها في القرى والمزارع ، حتى كفروا النعمة بعد أن كان الله جعل لهم عمارات قرى متصلة إلى الشام ، فسلط الله على ذلك المكان آفة ، فبطل ذلك الماء ، ولم يبق من عمرانهم القديم الذي أقيم بعناية تامة في الماضي سوى بقايا أساسات بسيطة ، وبعض آبار تكاد لا ترى بعد عودة الوسط الأصلي إلى سابق عهده ، بعيونه وجداوله العادية (١٠٩٢) فقد استعانت جزيرة العرب بيد الله ، وحكمت بالعدل على النهر المبني عليه سد ، وعلى البحيرة التي صنعها البشر وراءه وقد تحدثت من قبل في سياق الكلام عن عين الناقة ، عن نهر محلّم بهجر البحرين ، ومحلّم نهر عظيم يقال إنه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم .

وهذه الأقوال تعظيم بلا ريب لعيون فائقة الغزارة وجميلة جداً .
ظنّ مدة طويلة أنها ينابيع تتفجر من نهر الفرات . لكن هل عين الناقاة
نهر حقاً (١٠٩٣) . ونلقى رؤية واسعة مماثلة في مصنف كتاب حدود
العالم : فهو لا يسمى إلا نهرًا واحدًا في جزيرة العرب ، هو وادي بيهان ،
ويضخمه ، ويجعله ينزل من جبال اليمن ، ويجتاز حضرموت ،
و« رمال » الاحقاف ، قبل أن يصب في بحر الهند . ووادي بيهان هذا
مع الأسف اسم بلد واسم مدينة أيضاً ، وفيه آبار كثيرة تحفظ مياه
أمطار أحياناً غزيرة ، لكنها طارئة ، قد تمر سنون قبل ان تهطل قطرة منها .
ولو فرضنا صحة وجود هذا النهر ، وبهذا الاسم بالذات ، فهو يجري
في الاتجاه المعاكس ، نحو صحراء رملية ، يضيع فيها بالتأكيد (١٠٩٤)
وينزل بالتأكيد من جبال اليمن لكنه يذهب نحو الشمال . أخيراً نتساءل
ان كان وادي صنعاء في اليمن الذي تجري فيه السيول أيام المطر ،
ويسمى السرار ، نهرًا بعرض دجلة أو أقل منها (١٠٩٥) .

اذن يبذل بعض المصنفين النادرين قصارى جهدهم في سبيل إقناع
الناس بوجود نهر واحد في الحلد الأدنى في جزيرة العرب ، يضاهي
أنهار العالم . مع ذلك فشلوا في محو الصورة الحقيقية ، الناشئة عن معرفة
الطرق منزلة منزلة أو عن وصف تلك الاصقاع : فجزيرة العرب أرض
مياه خفية ، غائرة أو مدفونة ، تشاهد في الطبيعة عيوناً أو سيولا موقته في
أفضل الاحتمالات ، أو يجدّ البشر في التنقيب عنها ليحصلوا عليها .
بالتالي تمثل الآبار (١٠٩٦) المشهد المائي في هذه الجزيرة لا الأنهار .

بقي علينا أن نشرح اصرار بعض المصنفين على تخصيص جزيرة
العرب ببعض الأنهار . فلعلهم حرصوا على التنهيج ، وعلى ذكر أسماء

جميع البلدان على خريطه أنهار العالم العامة ، كما هي الحال في كتاب حدود العالم ؟ وهذا صحيح في الكتاب ذاته بالنسبة إلى كل مغرب دار الاسلام (١٠٩٧) وقد يقصدون ألا يحرموا أنبل بلد في الدنيا من الدليل السامي على نعمته تعالى ؟ في هذه الحالة ، لابد من اعادة إدراج هذه الفكرة في النظرة الاجمالية الخاصة بالنصوص ، وفي الدور الشامل لتاريخ العالم . لا يستخلص ، في اطار هذا التفكير ، ان بعض الجغرافيين تجاهلوا دروس الماضي وأخطأوا في تحديد الزمن ، فخلطوا العصور القديمة بعصرهم . ولم يدركوا أن جوهر نعمة الله الثابتة تبدل بين الحقيقتين . فقد كانت النعمة طبيعية تتمثل في الماء عندما كانت جزيرة العرب تسيطر على أنهارها ، ثم صارت روحية بعد كارثة عقاب ونتائجها ، وظهرت ، لا ماءً جارياً ، بل وحياً تمثل في الايمان الصحيح . من هذه الزاوية بالذات ، البشر حفرة ماء محفوظ بعناية ومحصور ، تعدّ تذكيراً ورمزاً باندأ في تاريخ قديم مضت أيامه ، كان يحكي قصة النعم الأولى . وعلى التقيض ، يجري تاريخ الخلاص الجديد في العالم من جزيرة العرب التي صارت ينبوع الحى الابدى ، نهراً عظيماً أميناً من الثقة المهتدى إليها . وبشر زمزم رمز آخر : فالمياه تغور قبل يوم القيامة ، إلا بشر زمزم ونهر الأردن ، وماؤها دواء لكل مبتلي ، والتضلع من مائها براءة من النفاق (١٠٩٨) ، ويتحول مديح مائها إلى صلاة (١٠٩٩) .

ولابد من الانتقال إلى الشمال لايجاد المياه الجارية . ونفاجاً في الشام باغفال الانهار الساحلية في لبنان . ولا أثر لأودية الفجاج القصيرة العميقة ، ولا لتفجر العيون الكلسية الغزيرة ، وتحفظ الجبال بأسرارها (١١٠٠) ويجهلها الجغرافيون . ويعثر على بعض التدوينات مبعثرة هنا وهناك ، يظنّ أحياناً أنها مترددة أو مشكوك فيها . منها وادي

عاراً ، حالياً السعير ، في جهات الرملة (١١٠١) الشمالية الشرقية . وواد لم يسمّ يضغط جبلا نهلس (١١٠٢). ونهر بين الذي عند البلقاء وعمان ، يبدو أنه تابع لحوض نهر الأردن في ضفته اليسرى إلى شمال شرق عمان (١١٠٣) ونهر الشراة ، وهو على الأرجح وادي الحسا الذي يصبّ في بحيرة صغر ، ويأتي من المناطق الجنوبية الشرقية . ووادي بطنان ، المضاف إلى حمص ثم إلى حلب (١١٠٤) ، وعلينا ان ندرك أن هذا الاسم المبهم الغامض يدل على منابع نهر الذهب ، الذي يفيض في بحيرة الحبول بين حلب والفرات (١١٠٥) . أخيراً واديان يتعلقان بتاريخ التوراة أو الاخرويات ، هما وادي كنعان وخاصة وادي يوشافاط أو قدرون ، المسمى وادي جهنم ، الذي سيكون فيه يوم القيامة (١١٠٦) . ووصف القويق أفضل من وصف سواه، فهو يدخل إلى حلب ، إلى دار سيف اللولة في شباك حديد ، على حد ما قيل، مأوه صاف، ويفيض في المرج الاحمر ، أي مستنقعات المطخ حالياً (١١٠٧) .

في جميع الاحوال لم نتطرق حتى الآن إلى الناحية الاساسية . فهي تكمن أولاً في إحدى المناطق الحساسة من تخوم الاناضول ، تتصل بذكرى عظيمة ومرة تتعلق بالحروب مع بيزنطية (الروم) . وقد مرت معنا من قبل مثلثة أنهار بردان - سيحان- جيحان (١١٠٨) ، وخروج النهرين الاخيرين من الجنة واعتبارهما من الأنهار الشهيرة على الأرض ، واكتساب بردان نصيبه من الشهرة لذكره معهما . ويرتبط كل من الأنهار الثلاثة بإحدى المدن الآتية على التوالي طرسوس واضنة والمصيصة. وهذه الأنهار شبه غامضة ، تأتي من ارض عدوة ، عبر منطقة الأبواب الوعرة (١١٠٩) ، وتصب في دار الاسلام التي أصبحت مسرح صراعات ، وفتح بيزنطي في نهاية القرن ٤ هـ / ١٠ م . أيعلل اضطراب

الوضع إلى حد عظيم ، غموض التلميح ، وتوزيع المدن الثلاث الحاطية أحياناً ، والتباس الأنهار ، والمسافات المغلوطة ؛ وماذا نقول عن نهر بردان الغريب ، الذي يبدو عند المسعودي ان مخرجه من عيون تحت عقبة الاكواخ من جبل ترابي أحمر ، ثم ينقسم إلى قسمين ، يمضي احدهما إلى هرقله في هضبة الاناضول ، ويصير القسم الثاني إلى طرسوس باتجاه معاكس . ويصب فيه نهر يعرف بالفاتر ، غزير الماء ، وانما سمي الفاتر بالضياء لشدة برودته . ويشق بردان طرسوس ، وينتهي في البحر الرومي قربها . مهما يكن ، يرسم ابن حوقل لوحة الحرب الحديثة ، ويعارض الازدهار الغابر الذي يتمثل في الجسور الحجرية الفخمسة أو الاياف الزاهية العامرة بالماء ، بالخراب الشامل في عصره ، وانعدام الحياة . وكان يطيب للمصنفين أن يتغنوا بأصل هذا النهر المقدس ومكانته السامية في المواقع الامامية من ثغور مفتوحة انفتاحاً واسعاً على عدو ميؤوس من وضعه ، ثم صار الناظر التعيس الذي يتأمله ، لا يبالي بمائه ، بعد أن دار دولاب الزمن دورته .

بقي نظام مائي آخر ، وهو الأول في بلاد الشام من ناحية الأهمية . وتكتنف معرفته الشكوك . لذلك لا يسعنا إلا أن نجتمع في منظور واحد ، الارنط ، والمنخفض الكبير للبقاع والاردن والبحيرة الميتة ، وأخيراً بردى دمشق (١١١١) . ويستغرب في سياق هذا البحث ، لا الشطط في بعض المعطيات ، بل اقترانها بوقائع حسية ، عند أحد المصنفين بالذات ، أصله من بلاد الشام كالمقدسي . ولنتعرف على نهر الارنط أولاً . فالرياح الجنوبية تدفعه من جبال منطقة دمشق ، إلى حمص ، وحماه ، وشيزر ، فانطاكية ، فبحر الروم . ويمجري من الجنوب إلى الشمال ، خلافاً

لسائر الأنهار ، فسمي العاصي؟ أو المقلوب . وهو نهر هام ، يشرب
ماؤه في أماكن كثيرة . ويدقق المسعودي . ويقول الارنط نهر حمص
وحماه ، وشيزر ، وانطاكية ، الخارج من القرية المعروفة باللبوة بين
حمص ودمشق ، ويشير هذا الكلام إلى بعض منابع العاصي الكبيرة ،
التي يتألف منها هذا النهر (١١١١) . ويشق بحيرة قدس (بحيرة حمص
حالياً) ، وبحيرة فامية ، أي سهل الغاب المرزغي (١١١٢) . ويصب
إليه بالقرب من أنطاكية نهر الرقيا (أو اليعرة) الخارج من بحيرة
جندارس ، وهو نهر عفرين الذي يرفد العاصي هو والنهر الأسود (قره
صو) عبر منخفض العمق ، الواقع إلى شمال شرق هذه المدينة (١١١٣) .
وله رافد آخر ، يذكره ابن سيرايبون . هو نهر الرستن المعروف الموقع
صبعداً بعد حمص .

وننتقل إلى نهر بردى ، الذي ينشأ في الجبال المشرفة على دمشق .
فهو يروي واحة الغوطة بتفرعاته ، قبل أن يسكب فائض مائه في بحيرة
دمشق . ويدقق ابن حوقل ، ويقول : مخرج ماء الغوطة من الفيضة ،
مع ما يأتي إليه من عين بردى من جبل سنير . ثم يجري في شعب تنفجر
فيه العيون ، فيأخذ منه نهر عظيم ، ينبسط منه نهر المزة ونهر القناة . ثم
ينقل من هذا الماء عمود النهر المسمى بردى ، وعليه قنطرة في وسط
مدينة دمشق ، لا يعبره الراكب ، لغزر مائه وكثرته . فيفضي إلى قرى
الغوطة ، ويجري الماء في عامة دورهم وسككهم وحماماتهم .

ويتحدد الغور ويدرك ادراكاً جيداً جداً على الوجه التالي ، فهو
منخفض كبير ينحصر بين سلسلتين من الجبال ، وتتجمع فيه مياه
تلك المنطقة . ويعتبر حفرة وسطى وحيدة ، أو عدة حفر متصاة

(اغوار) بحفرته الرئيسة . ويلخص المقدسي المحور المائي في هذا النظام تلخيصاً كاملاً ، ويقول : ونهر الأردن ينحدر من خلف بانياس ، فيتبحر ، ثم ينحدر في الأغوار ، إلى البحيرة المقلوبة » . ولنعرض هذه المعطيات . فبحوار بانياس ، يخرج هذا النهر الشديد اليرودة من تحت جبل الثلج (حرمون) . والحولة بحيرة واقعة قرب قدس ، ولا يجوز الخلط بينها وبين بحيرة حوض الارنط ، وتخفي شطوطها تحت الحلفاء ، ويكثر فيها السمك البني المقلوب إليها من واسط في العراق (١١٤) وبحيرة طبرية فاتنة ، مجمع مائها تام الاستدارة ، ومحاط بالجبال ، وكثير الاسماك ، وحال جداً ، وبلدها غني ، به قرى عديدة ومدينة طبرية بحماماتها الشهيرة وعيونها الحارة . ويبدأ بعدها مباشرة وادي نهر الأردن الحقيقي ، الشهير بنخيله . ولا أثر فيه للروافد . ويستقطب نهر الأردن الانظار ، ويشد إليه المدن البعيدة عنه ، الواقعة في الأودية الملاصقة له ، مثل بيسان على نهر جالوت الذي يكاد لا يرى (١١٥) . أخيراً نذكر البحيرة الميتة ، المسماة المنتنة أو المقلوبة أو بحيرة أريحا ، أو بحيرة صغر (١١٦) وماؤها ثابت كالزئبق ، ليس فيه موج ، ولا يغرق ، ولا شيء فيه من الحيوان . ففي هذه الأماكن الكثيبة ، التي تذكر بعقاب قوم لوط ، لا تجود الطبيعة إلا بالملح ، وقار البحيرة ، والحجر اليهودي الذي يستعمله أهل الطب لمن به وجع الحصى في المثانة ، والماء الذي يعد الاغتسال به ترياقاً . ويجتمع ذوو العاهات والامراض على شواطئه في آخر شهر آب من كل عام .

ولنتقل الآن إلى ثبت الشكوك . فأولا يقال ان نهر الاردن ، إذا انتهى وصب في البحيرة المنتنة ، خرقها ، ووصل إلى وسطها ، وبقي ماؤه متميزاً عن مائها ، ثم يغوص في قعرها ، ويزعم البعض أنه يخرج

نهرًا ساحليًا في فلسطين ، أو — ولم لا — في الهند (١١١٨) . ولا يمثل
نهر الأردن كل النظام المائي في المنطقة . فالخوارزمي ، وهو صاحب
العمل ، يذكر نهريْن خارجيْن من بحيرة طبرية ، يذهب أحدهما إلى
البحيرة المنتنة والآخر إلى حرمون ، فبحر الروم . فهل نعرف على نهر
الأردن إذا قصرنا مجراه ، وجعلناه يشمل ما كان منه قبل بحيرة طبرية
صعداً (١١١٩) ، ثم على نهر الأرنط أو الأرنط ، إذا تغاضينا عن منشأه
الغريب ؟ هذا هو فيما يبدو رأي قدامه وابن سيرا يون الذي
يحدد بدقة مصب الأرنط غرب انطاكية ، لكنه يسميه نهر الأردن ،
على التخصيص ، ويقول عنه الخوارزمي انه يسقي حمص ، وحماه ،
وانطاكية ، إلا أنه يشكل نهرًا ثالثًا ينشأ في جبال لبنان (١١٢٠) . أما
بردي فيرى البعض أنه يخرج من جبل الثلج بالذات (حرمون) الذي
يقترن بجبل سنير (١١٢١) ، فيصل الجبل والنهر إلى دمشق . ويعني
المقدسي بأعقد شرح ، فيزعم أن لبردي فرعين أو ثلاثة فروع ،
طبيعية أو صناعية ، يروي أحدها دمشق والغوطة ، ويذهب الثاني إلى
نهر الأردن ، وينضم الأخير إلى نهر الأرنط .

فمن أين أتت هذه الالتباسات في بلد معروف ، يلمّ به الجغرافيون
الميلانيون الرحالة المشرقيون وخاصة المقدسي الفلسطيني الاصل ؟ نحتاج
أولاً بالتسمية : فيكفي تقديم أو تأخير حرف واحد في لفظي الأردن
أو الأرنط ليحل أحد النهريْن محل الآخر (١١٢٢) . وقدس اسم يطلق
على بحيرتين ، تخص كل منهما أحد النهريْن السابقين . ولفظ مقلوب ،
الذي يعني نهر الأرنط ، يطلق أحياناً على البحيرة المنتنة : المقلوبة .
وكلاهما يذكر بقوم لوط (١١٢٣) . لذلك يبدو أن النهر يستقطب إلى
نظامه البحيرة المقلوبة والنهر المقلوب بسهولة يعززها شعور المرء بأن

ثلث البقاع والغور يمثل بلداً واحداً ، على الرغم من العتبة الفاصلة بينهما .
يضاف إلى هذه الشكوك شكوك التضاريس . فقد أشير من قبل إلى الضباب
الذي يمكن أن يكتنف الجبل هنا ، خاصة في منطقة جبل الثلج ، وإلى
التقصير في تمييز لبنان الغربية عن جباله الشرقية (١١٢٤) . ولم يتوضح
خط تقسيم المياه في أرجاء بعلبك في العتبة التي تحدثت عنها منذ قليل
باختصار الخط المزدوج الفاصل أولاً بين حوض الارنط والليطاني (١١٢٥)
ثم بين الليطاني والاردن : فهل يعكس نص الخوارزمي هذه الرؤية الغامضة
التي تتناول الأنهار الثلاثة ؟ ويعدّ الارنط الأعلى معقداً جداً أصلاً ،
إذ يتكوّن من عيون عديدة مترددة ، لا تكاد تتشكل حتى تغور في
الأرض متوالية ، ثم يعود إلى الظهور صبيحاً مع عيون أخرى (١١٢٦) .
أخيراً ، لا يجوز أن ننسى ، خاصة بالنسبة إلى نهر الأردن والبحيرة الميتة
في الحلد الأدنى ، ذكريات التوراة والاقوال الأخروية (١١٢٧) التي
قد تدفع المصنفين إلى سرد خرافات كثيرة (١١٢٨) تتعلق بتصرف
هذه المياه .

وتسهم جميع هذه الامور في خلق مشهد خفي ومشوش يتألف من
بحيرات متطابقة (١١٢٩) ، ومن أنهار متباينة في اتجاه الجريان مثل
الارنط والأردن ومثل بردي الذي يتحاشاهما ويذهب لا إلى بحر الروم ،
بل إلى الصحراء (١١٣٠) ، ومن مياه لا تختلط بعضها ببعض ، ومن
أنهار تغور لتظهر في طرف العالم الآخر ، وتنشأ مكتملة من جوف الأرض ،
وتسحب مياهها من احتياطي أحواض باطنية ، لا تنضب (١١٣١) كما
سوف نرى في نهاية العالم . وهذا يعني باختصار ان تلك الأمور تسهم
بخلق بلد يظل فيه سير الماء (١١٣٣) بعيداً عن النطاق المكاني المعهود
وعن النطاق الزمني البشري المألوف .

الجزيرة وخوزستان : مشاهد أرض وماء

ننتقل من اقليم الشام إلى بلدي الفرات ودجلة . وهما فعلاً بلدان ، إذ يبدأ اقليم الجزيرة أو اقور على بعد ١٥٠ كم إلى ٢٠٠ كم صعداً إلى شمال بغداد ، في حين يشمل اقليم العراق بغداد وما إلى جنوبها من أرض منخفضة عنها . ولهذين البلدين وسطان طبيعيان متباينان ، حتى لو تشابها ببعض الصفات المشتركة بينهما من خلال نهريهما . فالعراق يمثل الحوار بين الفرات ودجلة بعد أن تخليا عن انفصالهما (١١٣٣) ، ووحدتهم شبكة من الاقنية والسباخ ، واستحال تفريق مجرييهما الاذنين الاقصيين ، سواء على الأرض أم على الخريطة ، عن الشبكة المائية في خوزستان ، التي تتوزع حول نهر اللجيل ، أي دجلة الصغيرة .

وسوف نبدأ من النهاية ، خلافاً لكل عادة ، ونتناول الوسط البرمائي الناشئ على جوانب نهر دجلة والفرات وفروعهما المتداخلة العديدة (١١٣٤) . فقد استطاع ابن سيرايون ، بما طبقه من تقنية ، وما بذله من دأب في وصف الشبكة المائية ، الطبيعية أو المنشأة ، أن يعرض نظرة شاملة منها ، حقيقية وغريبة ، اذ قال ما معناه : لم يعد دجلة والفرات سوى شريانين في شبكة متشعبة إلى أقصى حد ، لا يعني فيها لفظ نهر أحد النهرين الكبيرين ، اللذين يسميان باسم علمهما فقط ، بل إحدى الاقنية ، كبيرة كانت أم صغيرة ، التي تسير فيها المراكب . وتتوزع في كل الأماكن في جميع الأحوال . لذلك يتكون هذا الوسط من مجاري ماء عديدة ، محجوزة ، وموجهة ، ومتفرعة ، ومن كثير من القرى والضياح ، والقواديس . والقناطر ، وجسور المراكب .

ويدخل في تكوينه عنصر التاريخ أيضاً ، لأن الأسماء فيه قديمة ، تعود في الغالب إلى عصور ما قبل الاسلام .

ويقع نهر الفرات في الغرب ، ويشتهر بقناة كبيرة ، مسحوبة منه في أعلى الكوفة ، تذهب شعبة أولى منها إلى الكوفة واريافها ، وشعبة ثانية إلى الأرض المحصورة بين دجلة والفرات ، وتنتهي هاتان الشعبتان في بطائح العراق . ويقع نهر دجلة في الشرق وتشق منه أقينية تعاد إليه بعد أن تتوزع فروعها ، وتسقي المزارع ، وتتلقى أيضاً مياه أنهار سفوح جبال فارس . ويميز ابن سيرايبون هنا ثلاث شبكات رئيسية : هي نهر الاسحاق ، ونهر القاطول ، والكسراوي (نسبة إلى كسرى) الذي تبدل اسمه فيما بعد وأصبح تامراً ، وينضاف إليه الخالص والنهروان ومصرفه نهر بين ، ويأسر نهر ديالا (١١٣٥) ، أخيراً تصب في مكان واحد من دجلة ، ثلاثة قواطيل (جمع قاطول) ، هي اليهودي ، والمأموني ، وأبو الجند ، وتنتهي جميعها في قاطول كسرى (١١٣٦) . وتوزع أربعة أقينية جديدة مياه نهر دجلة على البطيحة بعد منطقة واسط باتجاه المصب : وهي بان ، وقريش ، والسيب وبردودي .

وهنا نصل إلى شبكة الفروع الكثيفة التي تضم مياه الفرات إلى مياه دجلة . فنلقى ستة أسماء كبرى : هي الدجيل ، ونهر عيسى ، ونهر صرصر ، ونهر الملك ، ونهر كوئي ، ونهر الصراط ، الذي سمى فيما بعد نهر النيل ، وسابس (١١٣٧) . وترمز بغداد إلى تداخل الأرض والماء ، ويخص ابن سيرايبون أقينتها بعدة صفحات كاملة من مصنفه .

ولإذا تأبرنا على الاتجاه إلى الجنوب ، لاحظنا تلاشي الأقينية ودجلة والفرات ، واختلاطها كلها في البطيحة التي تغطي على الأرض ،

وتتناوب فيها غياض القصب الفسيحة والاهوار (١١٣٨) . وقد عدّ ابن سيرايبون أربعة أهوار وسماها ، ويصب الهور الأخير في قناة أبي الأسد التي تجمع مياهه وتصرفها . وهنا يبدأ القسم الأخير من هذا الحوض الذي يخترقه عمود وحيد هو دجلة العوراء (١١٣٩) ، أي شط العرب . ثم تعود الاقنية إلى الظهور صبيهاً في بقعة منخفضة يجتاحها مد البحر وجزره ، ويبلغ عددها ثلاثاً فقط في الضفة اليسرى ، وما يزيد عنها في الضفة اليمنى ، لارواء مدينة البصرة الكبيرة ونواحيها أي تسع قنوات تماماً ، أشهرها المعقل والابلة (١١٤٠) والأمير .

هذه خلاصة في غاية الإيجاز والبساطة عن خريطة المياه في العراق . ولا يعني جميع المصنفين بعرضها على المنوال ذاته أو دون أن يخلو عرضهم من بعض الشكوك . وينطبق هذا الكلام على ابن سيرايبون ذاته . ولن أنطرق الآن إلى هجرة النهرين الكبيرين ولا إلى أسرار بحيرة البطيحة الفسيحة المرزغية . فسوف أتناول هاتين الناحيتين فيما بعد ، بل أشير إلى أن وضوح رؤية شبكة المياه الكاملة يتفاوت في أذهان بعض مصنفي الجغرافية ، إما لنقص في معارفهم ، أولتخاذلهم أمام الصعاب البادية لهم ، أو لفرط اهتمامهم الشخصي بأحد أقسام الشبكة وإهمال الباقي .

في جميع الأحوال يبقى المشهد واحداً . فالمياه أهم شيء ، وهي وافرة في جميع الاماكن ، كما قلنا ، وفي الاقنية بالذات . ولاشك أن التمييز بين نهر طبيعي وبين مجرى ماء مشقوق ، زال تماماً في العراق خلافاً لسائر أنحاء الدنيا : فالقناة عندهم فرع أو رافد ، وأحياناً فروع وروافد معاً، ويتحول النهر المأسور نفسه إلى قناة (١١٤١) . والعراق اقليم أخضر ، تتمايز أريافه القاتمة ، بل السوداء (السوداء) عن بواديه الفاتحة ،

وتبذرها بكرومها . ومشاجرها ، وجوبها وحقول سمسها ، أو بُقلها
أو برسيمها . وبأبجاز ، بمجموعة من الزروع المتنوعة إلى أقصى حد ،
يجبها النخيل وحدة لا تنقسم عراها ، بوجوده في جميع الانحاء
وروعته في هدوء غطاء سعفه (١١٤٢) . ويعد هذا المشهد أزلياً ، لأن
آثار المدائن (كتيذيفون) أو بابل تذكر بزوال الناس ، وتشرف على
مستواة من الأرض (١١٤٣) ، تمتد على مرمى النظر ، ويكتنفها
أطيايف ابراهيم ونمرود وملوك آل ساسان والحلفاء (١١٤٤) . وقد ولّى
ذلك الزمن ، ويتعارض بسهولة مع زمن ثابت يتجسد فيه دجلة والفرات ،
اللذان يعتبران مصدرى حياة حتى في أصغر ساقية لهما ، منذ أقدم
العصور ، ويرددان على مسامع العالم أمجاد العراق لأن ماء أحدهما
سائغ وماء الآخر من الجنة . ويقول المسعودي : عن أهل العراق :
« فاجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ، كما اعتدلوا في الجبلية ،
وكيف لا يكونون كذلك ، وهم أرباب الوافدين ، وأصحاب
الرافدين (١١٤٥) من دجلة والفرات » .

فالنهر في خدمة الانسان ، ويصلح هذا القول شعاراً للعراق . وقد
نازعت قوى عديدة نهري دجلة والفرات ، واعتزبت بسط نفوذهما ،
إلا أن أشدها تصميمًا ودأباً هي تلك التي احتفرت هذه الآقنية ، وأشادت
تلك الحواجز ، وبنت تلك الحبوس . وجاءت السيطرة على الأرض تامة
أحياناً . وبغداد مثال على ذلك الكمال . فقد أشرت من قبل إلى ان ابن
سيرابون ذكر مدينة قسمتها تفرعات دجلة إلى مربعات . ولا ينفرد
هذا المصنف بهذا القول : فاليعقوبي يتحدث عن عاصمة العباسيين ،
ويذكر جنباً إلى جنب الاحياء والشوارع والمياه (١١٤٦) ، ويضع فوق
رؤية هذه الشبكة ، رؤية أوسع إلى أقصى حد ، هي رؤية بغداد وأقنيتها

العديدة التي أصبحت مركز النظام المائي ، الذي يصل العراق بالعالم أجمع بواسطة دجلة والفرات . وموقع بغداد المنصور الاصيلي ، هو بالمعنى الصحيح موقع مدينة بنيت على الماء . وذكر الخليفة المدينة التي سوف يشرف على تأسيسها ، وقال : « والا جزيرة (١١٤٧) بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيها والفرات غربيها ، مشرعة للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والابلّة والأهواز (١١٤٨) وفارس وعمان واليمامة (١١٤٩) والبحرين وما يتصل بذلك ، فاليها ترقى وبها ترسي . وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربعة (١١٥٠) وآذربيجان وارمينية ، مما يحمل في السفن في دجلة ، وما يأتي من ديار مضر (١١٥١) والرقّة (١١٥٢) والشام والثغور (١١٥٣) ، ومصر والمغرب ، مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحط وينزل ، ومدرجة أهل الجبل واصبهان وكورخراسان » . وهذا النص نموذجي ينقلنا من موضع المدينة إلى موقعها ، كما قد يتصور الجغرافي ، وكل ذلك من خلال بحث الماء تدعّمه الأرض عند الحاجة (١١٥٤)

وتعدّ الملاحة والاعمال المائية أدلة حسية على انتصار الانسان في جميع الاماكن . من ذلك الالتقاء بالسفن القادمة من عرض البحر تسير في مجاري المياه العريضة من جانب البصرة ، ومشاهدة المراكب العادية في بعض المجاري الاخرى كنهر دجلة والفرات والاقنية الكبرى مثل نهر عيسى ، أو القوارب في شبكة الاقنية الريفية ، أو موانئ المرور عند تفريغ احدى القنوات من النهر ، وتقسيم الحمولة عند السلود ، ومواكبة السفن الكبيرة بزوارق أصغر منها تنقل بعض حمولتها لتمكينها من العبور في البطيحة ، وايقاف الملاحة النهرية في الليل ، بجسر من السفن يسمى مأصر ، بأن تشك سفينتان من أحد جانبي دجلة وسفينتان من

الجانب الآخر ، وتشد السفن على شطرين ، ثم تؤخذ قلوب على عرض دجلة يشد رأسها إلى السفن لئلا تجوز السفن بالليل (١١٥٥) . وتعد كل هذه المشاهد لوحات واقعية ، تتكون طبيعة العراق منها ومن منظر الحقول .

وفشلت مقاومة البشر الماء في بعض الأحيان ، على الأقل في إحدى مناطق الماء المستنقع الواسعة (البطيحة) التي نشأت من فرط غزارة دجلة والفرات بين بغداد والبحر . ويشاهد سريران قديمان لهذين النهرين في ناحية الحيرة وإلى شرق واسط . وثبتت اسطورة خايج كان يبلغ الحيرة في قديم الدهر (١١٥٦) (او ذكرى الايام الغابرة الموعلة في القدم الباقية في ذهن المجتمع) تبدل الوسط النهري . وقد تكونت فيه البطيحة . ويحتمل ، في رأي الاصطخري وابن حوقل وحدهما ، ان تكون المياه قد تراجعت ، لما بنيت البصرة وشقت أنهارها وكثرت واستغلق بعضها على بعض في مجاريها ، ثم غلبت على ماسفل من أرضها ، فصارت بطائح وآجاما . (١١٥٧) والتعليل التالي أقرب إلى الحقيقة : فسبب البطائح المبطحة في أرض السواد ان ماء دجلة كان منصبا إلى دجلة المعروفة بالعوراء التي في أسفل البصرة في مسافة مستقيمة المسالك محفوظة الجوانب ، فلما كان ملك الساسانيين في عهد قباد فيروز ، انبثق في أسفل كسكر بئق عظيم ، فاغفل امره حتى غلب مائه وغرق كثيراً من أرضين عامرة كانت تليه وتقرب منه ، فلما وكى كسرى انو شروان ابنه (٥٩٠ — ٦٢٨) (١١٥٨) ، أمر بذلك الماء فزحم بالمسننات حتى عاد بعض تلك الأرضين إلى العمارة . ثم لما كانت سنة ٦ من الهجرة ، زاد الفرات زيادة عظيمة ، ودجلة أيضاً ، لم ير مثلها ، وانبثقت بثوق كبار ، فجهد ابرويز ان يسكرها بسكور ، وشغلت الفرس بالحرب ،

فكانت البثوق تنفجر ، ولا يلتفت إليها . ويعجز الدهاقين عن سدها ،
فعظم ماؤها واتسعت البطيحة . ثم تمكن الخلفاء من الحد من امتدادها
دون ازالتها ، وأصبحت مساحتها تتراوح حسب المصنفين بين ثلاثين
فرسخاً في ثلاثين ، وبين خمسين فرسخاً في خمسين (حوالي ٣٢٠٠ كم^٢
٩٠٠٠٠ كم^٢ تقريباً) (١١٥٩) .

والبطيحة رقعة واسعة وحائدة في بلاد العراق ، تمتد بين السماء
والأرض ، بين مياه جارية غزيرة ، وجزر ، ومقاصب كثيفة نادرأ
ما تخترقها أشباه ازقة تسلكها الزواريق ، والمواحل ، والأماكن الجافة ،
يضاف إليها الاقنية والسلود ، وضياح أيضاً تقوم على تلال تكاد لا تعلو
عن مستوى السطح الغامض . وترى منها آثار المجتمعات البشرية القديمة
في قعر الماء اذا كان راكداً وصافياً . وتسير المراكب في هذه المياه
الضحلة بالمرادي لقرب قعرها . والعيش في البطائح جحيم من بعض
النواحي . فقد صارت بعض أقسامها صحارى ومفاوز تصيب فيها
سموم شديدة المارة في الصيف . والحر والرطوبة لا يطاقان فيها . والبق
كثير حتى اتخذت مواضع من قصب أشباه الدكاكين ، عليها أكواخ
يكتنون بها منه ، وفي كل كوخ خمسة مسالح . واستطاع السكان أن
يعيشوا فيها حياة حرمان وشظف . اوهم يتكلمون لغة قبيحة لكنها تتلاءم
مع الشروط الطبيعية ويتمسكون باستقلالهم ويتألفون من الزط ، أو
بالأحرى من بقايا المهجرين منهم من الهند (السند) ومن أقوام أخرى
اختلطت بهم . وبعض هذه الدهماء فلاحون وبعضها ملاحون ، ويتعلق
كلهم بمواقعهم الحرجة لأنها أمينة (١١٦٠) .

وفي أسفل الحدود ، تجابه دجلة والفرات عناصر طبيعية هذه المرة ،

بعد اتحادهما وتكوينهما دجلة العوراء (١١٦١) . والواقع أن الرياح لا تؤثر في مياهها المشتركة بقوتها المعهودة (١١٦٢) . مثلما يفعل البحر . وبعد المد والجذر رمزي حوار صاحب يسهله غياب الارتفاع الذي يجعل من هذه المنطقة « البلاد المنخفضة » (يقصد هولندا) في دار الاسلام . ويبلغ المد حدود البطائح ، ويغمر مأوّه الاقنية وحقول النخيل ، ويسقي البساتين ، ويدير الارحية ، ويزيد ملوحة مياه الأنهار (١١٦٣) . وعند مصب دجلة العوراء (في الموضع المعروف بالحرارة) ، يحدث تصادم بين مياه النهر والبحر على الرقوق ، دردورا خطراً إلى أقصى حد . نصبت قربه صوّة بحرية اتخذت من ثلاث خشبات كالكروسي عليها اناس يوقدون النار في الليل (١١٦٤) ليهتدى بها ، في حين يقع خور عظيم جسيم الضرر دائم الغرر ، على ركن الابلّة في دجلة بين يدي نهرها ، وكانت أكثر السفن تسلم من سائر الاماكن في البحر حتى ترده . فيبتلعها وتغرق فيه بعد أن تدور على وجه الماء أياماً ، وكان يعرف بكرداب الابلّة ، ثم اوسقت مراكب بالحجارة العظام وبلّعت ذلك المكان فابتلعها وانسلت وزال الضرر (١١٦٥) .

وتقع مدينة عبادان (١١٦٦) في « الجزيرة » بين دجلة العراق الكبيرة وبين نهر الدجيل الصغير (نهر خوزستان) ، وتصل سواد العراق بخوزستان . ويتشابه نظاما المياه في هاتين المنطقتين من عدة نواحي (١١٦٧) اولاهما تماثل الاسماء : دجلة ودجيل ، ودجلة للدلالة على نهر الكرخة أو أحد فروعه (١١٦٨) . والواقع أن الانتقال من هذا النظام إلى ذلك ، يتم بمجموعة أقنية تابعة للبصرة (١١٦٩) على حد ما يقال لنا . فهنا تصب مجاري ماء هامة جداً على تخوم العراق وفارس ، وهي معروفة بدقة حتى يصعب على الأنهار الكبرى القريبة منها أن تزيلها عن الخارطة فعلاً أو

مجازاً (١١٧٠). والدجيل أول هذه الأنهار ، ويسمى أيضاً دجيل الأهواز أو نهر الاهواز أو نهر خوزستان ، وهو قارون حالياً (١١٧١). وينبع من جبال أصبهان ، واسمه فيها مانان ، ويسقي مدن تستر وعسكر مكرم والاهواز حاضرة البلاد ، قبل أن يواصل جريانه إلى البحر . ويحمل المسرقان (١١٧٢) من الدجيل بين تستر وعسكر مكرم ويوازيه . وبسوق الاربعاء ، على شعبة من الدجيل أيضاً ، قنطرة كبيرة من خشب تجري تحتها السفن . وبين جانبي عسكر مكرم جسر كبير نحو عشرين سفينة . وبين الجانب العراقي والجانب الفارسي من الاهواز ، قنطرة هندوان ، وهي من الآجر . وقد بنى الملك الساساني سابور سد الشاذروان العظيم على نهر تستر . أخيراً أشرنا من قبل إلى عظمة بحيرة الأهواز (١١٧٣) فيتلقي نهر الدجيل روافد على ضفته اليمنى فقط : منها نهر جندي سابور ، وهو نهر دزفول ، الذي يمر تحت جسر الروم الشهير (أو جسر الروز ، أو جسر الزاب) (١١٧٤) . وبعده نهر السوس أو نهر الكرخة ، وينبع إلى جنوب همدان ، ويسميه اليعقوبي الهندوان . ويشتهر في قصبة السوس قبر دانيال الكائن في نهر خلف المدينة (١١٧٥) . وهو لا يدري لكنه ينزل في المساء وله قصة وتجتمع كل تلك الأنهار بعد الاهواز في نهر الدجيل ، فيغزر ، وتسحب منه أفضية تسقي الريف المجاور ، لاسيما نهر السدرة (نهر لوتس) الذي يعود فيصب فيه عند حصن المهدي (١١٧٦) ، في حين يمكن الوصول بأقنية أخرى إلى دجلة أو إلى حوض نهر طاب الذي يفصل خوزستان عن فارس (١١٧٧) . وهكذا تحتل خوزستان موقعاً متوسطاً . مع ذلك ، لا يجوز أن نفتخر بهذا الوضع . فالعراق يتفوق فيها على فارس . ويسع الباحث أن يسائل المجتمع البشري (١١٧٨) ، إلا أن هذه الناحية خارجة عن موضوع

الدراسة الحالية التي يقتصر الحديث فيها على الأرض والماء . فماذا يشاهد منهما ؟ اذا جاء المرء من البحر واتجه نحو مصب نهر الدجيل ، فاجأه نهر غزير يجابه المد والجذر ، رؤى درادير مماثلة لدرادير نهر دجلة (١١٧٩) القريبة منه . ويرتفع الماء أثناء المد ويصعد في الأودية ، فيسهل الملاحة ، ويسقي الزروع ، ويغمر الاقنية والحقول ، ويحمل السفن العظام إلى داخل البر ، فتذهب وتجيء وتعبّر وتنشط وتبهج الانظار كما هي الحال في بغداد (١١٨٠) . وتكثر المياه في الدجيل ، ويصير له عرض يقارب الفرسخ (عدة كيلومترات) ، فتتصبب على هذه الجهة الأرضية الواسعة . وتفرضها ، فيبدو الساحل وكأنه أصبح شريطاً رقيقاً جداً من الأرض ولساناً ناتئاً في وسع النهر . ونقر بأن شكل الأرض يماثل شكلها في العراق . فعلى شاطئ دجلة ينفذ إلى البحر شريط ضيق تنزع الأنهار إلى احتلال ما يتسنى لها من حيّز بره (١١٨١) .

فعلى هذا النحو ، أصبحت صورة المشهد الطبيعي في خوزستان واضحة في الذهن ، وتمتد بلا انقطاع فوق الماء من البلدين المجاورين لها ، أي فارس والعراق . وتظهر جهود البشر في جميع أنحاءها ، وتنتشر فيها الاقنية والسدود وأبواب الماء ، وتعد السفن أو الزورق وسائل النقل المفضلة فيها ، وتشققها مجاري المياه الطبيعية أو المفتوحة ، وتشكّث مزارعها وتتنوع ، وتتوزع حقول النخيل في جميع جهاتها ، وبعض تربها متسبخة أحياناً (١١٨٢) . وتشابه المناظر بين نهري دجلة والدجيل حتى إنها ترفع قعر أنهار خوزستان مع ان « عمقها عدة أمتار في طميتها » ، وتخفّض علو الجبال التي تتأخم في الشمال جبال زاغروس القريبة جداً منها . وعندما يتحدث الاصطخري عن خوزستان ، ويقول إنها باجمعها

« في مستواة من الأرض سهلة ذات مياه جارية » ، لا يوحي بوجود تضاريس أغلظ من تضاريس سهل الجزيرة ، ولا يشير إلى الصعاب التي اعترضت الري فيها منذ عهد آل ساسان بدءاً من سد تسمّر (١١٨٣) فالمياه تهيمن على المشهد ، وقد وجدت هذه البلاد في رأي الجغرافيين ، وضمتها إلى جارتها العراق التي تتشابه وإياها بكثير من الصفات ، على المستوى البشري هذه المرة .

خزان مياه ارمينية

يسمى العراق الشمالي ، لجهة الجبال ، بلاد ما بين النهرين العليا ، وبلاد اقور (١١٨٤) ، و « الجزيرة » الكبرى المحصورة بين نهري دجلة والفرات (١١٨٥) . وتزول صفات الطبيعة الجنوبية فيه . وتدل بعض فروع الفرات أو فروع روافده ، على الأراضي المنخفضة فيه ، مثل نهر سعيد من جهة ضفته اليمنى ، ومن جهة الضفة اليسرى ، الثرثار بالذات ، الذي يأخذ قسماً من مياه وادي هرماس الصاب في الخابور ، ثم يمر في خرائب هرة ، وينزل إلى مستوى مدينة تكريت القائمة على دجلة التي تعين عليها الحدود بين العراق والجزيرة (١١٨٦) فيما عدا ذلك ، يحدد كل من الفرات ودجلة الاعليان (١١٨٧) حوضه الواضح على الخريطة وفي التقسيم الإداري (١١٨٨) . ولا يتبادلان المياه ، إذا استثنينا وادي الثرثار ، ولكل منهما مجراه الخاص وروافده المستقلة . وإذا اشتركا ببعض الميزات ، بغزارتهما أو ياصلهما مثلاً ، فلا يشكل اقترابهما بلاداً ، على نحو ما يفعلان في العراق ، بل تباعدتهما وجريهما على طرفي الجزيرة التي يقعان على تخومها ويحصرانها .

وينشأ الفرات ودجلة في كتلة جبلية هائلة واحدة ، تمتد من

الأناضول الشرقية إلى مشارف بلاد فارس الشمالية الغربية ، ونحن نسمي هذه الكتلة ، تيسيراً للقارىء ، ارمينية (١١٨٩) مثلما يفعل الجغرافيون . و ارمينية هذه خزان مياه حقيقي . مثلما يستدل من عدد الأنهار النازلة منها والصبابة في دجلة والفرات . إلا أنها خزان كان معظمه في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي خارج حدود دار الاسلام . وكانت جبال ارمينية ثغوراً متحركة ، اندفعت فيها بيزنطية اندفاعاً قوياً ، وتجاوزتها في ذلك العصر . ويظهر ألم ابن حوقل في نصوصه ، التي تنبعث منها انات الحزن على ما صاب دار الاسلام من نوائب في تلك الايام (١١٩٠) . وينبع نهر الفرات من قاليقلا في ناحية ارضروم الحالية . وللمصنفين المام بمجراد الأعلى يتفاوت اتساعه من جغرافي إلى آخر ، لكنهم يخطئون أحياناً في اتجاهاته مع أنهم يعرفون جيداً انعطافاته الكثيرة حتى مدينة سميساط ، ويعرفون تقوسه العظيم على اقليم اقور وبادية الشام (١١٩١) . ويقولون ان الفرات يمر قرب ملطية ، وسميساط التي تمثل صعداً أقصى ما يمكن أن تصل إليه المراكب النهرية ، ويصير إلى جسر منبج ، ويعطف حتى يأتي بالس غرباً ، وبين الرقة وبالس أرض صفيين ، التي تحوي قبور بعض محاربي تلك المعركة (١١٩٢) . ويجتاز انهرات الرقة حيث يدير بعض مطاحن العروب قبل أن يدخل العراق . وتضاف الاسطورة والرعب إلى تاريخ البشر في الحديث عن نهر دجلة . وتخرج دجلة باللدات ماءً أخضر من تحت كهف الظلمات ، الذي دخله ذو القرنين وحده ، وحرص مسلمة بن عبد الملك في دخوله ، وهو أحد أوائل الفاتحين العرب ، وأعد المشاعل والشموع . فانطفأت ، ورجع (١١٩٣) . وخروج دجلة من أنحاء آمد الشمالية ، وجريانها من بلاد آمد من ديار بكر ، من أعين ببلاد خلاط من ارمينية ، على

حد قول المسعودي . ومدينة آمد على جبل غربي دجلة ، يطل على هذا النهر ، وعليها سور أسود وجامع من الحجارة السوداء أيضاً . ويسقي جزيرة ابن عمر . وهي مدينة صغيرة . سميت جزيرة لاحاطة منطعف دجلة بها . وتجارها نشيطة جداً ، ويقول ابن حوقل ان المراكب تصل منها إلى الموصل مشحونة بالعسل . والجن . والجوز . والاوز ، والبندق ، والزبيب ، والتين . وفي الموصل ، مصر الجزيرة . يسترعى الانتباه مشهد آخر فيها ، في وسط دجلة ، مطاحن تعرف بالعروب ، من الخشب والحديد ، قائمة في وسط ماء شديد الجري ، موثقة بالسلاسل الحديد . في كل عربة منها أربعة أحجار ، يقل نظيرها في كثير من الأرض . ومدينة تكريت على غربي دجلة ، على أبواب العراق ، وأكثر أهلها نصارى ، وبها من البيع والاديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى وأيام الخواريين ، وتجمع سائر فرق النصارى (١١٩٤) .

وتعدّ كثرة روافد الفرات ودجلة إحدى الصفات البارزة في وصفهما . فلكل منهما روافده الخاصة . مثلما قلنا سابقاً . ويختلف خزان الماء الأعلى تماماً عن الانحاء السفلى ، التي يحرم هذان النهران فيها من الروافد أو يكادان ، ويتأخيان بحكم الطبيعة أو بارادة البشر . وتختلف الجزيرة العليا أو السفلى أيضاً عن مصر ، بلاد النهر الوحيد ، الذي يتصرف كما يشاء اذ لا قرين له . خاصة في دلتاه ، التي تتعدد فيها اذرع وخليجانه ، وتجعله معقداً إلى حد كبير . ويظن أن الفارق يتلاشى صعباً ، حيث تتعدد أنهار النيل . ولا بد من التحفظ أيضاً ، والقول ان معرفة النوبة وما وراءها سيئة ، ولم تخضع للدار الاسلام حتى ذلك التاريخ في حين بقيت جبال الجزيرة وارمينية ، حتى بعد خسارتها ،

جزءاً من آفاق دار الاسلام . بسبب ذكرى الفتوح الغابرة ، وتقلبات
حروب الروم ، وتكفي المسالك أو لوحه الثغور لتعيدها إلى
خلدنا (١١٩٥) .

اذن (١١٩٦) . يعد نهر النديب ، ذو القار حالياً (١١٩٧) ، أول
رافد لدجلة من جهة الضفة اليسرى ، وقرب منابعه . يليه ، من جهة
الضفة اليسرى أيضاً ، على التوالي : نهر الرمس أو نهر الصلب ، وبعد
آمد : الانبار (١١٩٨) ، ساقيدما (بتمان) (١١٩٩) ، نهر سريط
(غرزان) ، ثم ، عندما تنعطف دجلة إلى الجنوب الشرقي ، الرزم (أو
زرم ، أو رزب أو زرب) ، وهو بهتان ، ويصرف مياه أنحاء بحيرة
خلاط الجنوبية وتبدأ عند مرفده ملاحه المراكب النهرية فيه (١٢٠٠) .
ونستمر في مجاراة الضفة اليسرى ، فنجد باسنفا قبل جزيرة ابن عمر
صعداً (١٢٠١) ، وبعدها صيبا ، دوشا (١٢٠٢) . ثم يأتي أحد أشهر
روافد الفرات ، نعي الخابور ، وهو الخابور الصغير على وجه الدقة ،
ولا يجوز الخلط بينه وبين خابور الفرات (١٢٠٣) . وننتقل الآن إلى
الضفة اليمنى فنلقى السفان (أبو مريا ، وادي المر) (١٢٠٤) من المنطقة
الواقعة بين الموصل ونصيبين . وفي الموصل ذاتها ، نهر زبيد ، يقابله
نهر خوصرة ، الذي تقع خرائب نينوى (١٢٠٥) على جانب منه . وبعد
الموصل ، صيبا ، يأتي رافدان شهيران ، هما الزاب الأعلى (أو الأكبر
أو الكبير) ، والزاب الأسفل (أو الأصغر أو الصغير) . والزاب الكبير
يبدأ من عين في رأس جبل ، وينحدر منها وهو شديد الحمرة ، ويجري
في جبال وأودية وحزونة ويصفو من حمرة . ويروي الزاب الصغير
مدينة البوازيج التي يسكنها قوم خوارج ، الغالب عليهم ايواء اللصوص
وفعل القبايح وشرى السرقات . والزابان نهران عظيمان كبيران اذا جمعا

كنصف دجلة وأكثر (١٢٠٦) . أخيراً ، يشاهد الثرثار على يمين دجلة ، قبل أن ندخل أرض العراق بالمعنى القديم .

أما الفرات (١٠٢٧) ، فنعرف الآن ان اصله نهران لا نهر واحد . فالنهر الشمالي احتفظ باسمه مع اسم قره صو ، المخصص لواديه الأعلى الأقصى . ويرى فيه الجغرافيون الفرات الحقيقي ، الذي يبدأ من بلاد قالقلا وهي ارضروم الحالية . ويتبقى من جهة ضفته الغربية ، نهر لوقية ، أي ارمودان ، ثم نهر ابيري (كلتي الخارج من بلد دفريجي) ، مع رافده زمره . ثم ينعطف إلى الجنوب الشرقي ، ليتلقى نهر انجا (انجو في ناحية عرب كير) ، وخضعة ارستاس (ارسنياس ، مراد صو) من الضفة اليسرى ، وهو الشعبة الثانية من الفرات ، ويتشأ من جبال شمال بحيرة خلاط (١٢٠٨) ، ويسقي عدة مدن ، منها شمشاط أي ارارساموسانا القديمة (١٢٠٩) التي يصب فيه بجوارها نهر الذيب (بيرى) (١٢١٠) وسلقيط (سونجوت) .

و يتم تكوين نهر الفرات بعد هذين الرافيدين ، فيتجه نحو مدينة ملطية ، حيث يصب فيه عن يمينه نهر جرجاريه (كورو أو حكيمحان) الذي تنتهي إليه مياه نهري الغوث وقباقيب (تهمه) الشهير بتنطرتة الكبيرة وبروافده العديدة التي يسترعى الانتباه اثنان منها ، هما قراقيس (سلطان صو) وهو نهر قلعة زبطرة المنبعة ، ثم زرنوق ، الذي تسحب منه قناة تذهب إلى ملطية (١٢١١) . ويتلقى الفرات فيما بعد من ضفته اليسرى ، نهر هنزيت (بويوك) الذي يحمل اسم هنزيتين (١٢١٢) القديم ، ثم من الضفة الأخرى ، رافدا أشهر إلى أقصى حد ، يدعى سنجة (جوك صو) ، من نواحي سميساط ، عليه قنطرة تعدل إحدى عجائب العالم

الأربع مع منارة الاسكندرية وكنيسة الرها وجامع دمشق (١٢١٣).
ثم يصب فيه من جهة الضفة اليسرى ، نهر كيسوم - وهي قلعة تشرف
على البلد - وهو بلا ريب نهر عريانا (١٢١٤) . وبعد ذلك بكثير جداً ،
يتلقى على مقربة من الرقة ، رافدين هامين جداً ، هما البليخ ، الناشي
في منطقة حران (١٢١٥) ، والخابور العظيم الذي يرفده وادي الهرماس ،
وينزلان من رأس العين ونصيبين ، وينبعان من مئذات العيون ، المتفجرة
في أرض تعدّ من أجلّ بقاع الاسلام ازدهاراً ، وأقدم أنحاء العالم ،
إذ ان الهرماس عليه قناطر حجارة قديمة رومية (١٢١٦) . ثم يترأى
العراق بعدهما مثلما قلنا في الحديث عن دجلة شرقاً . ويعطي الفرات ،
هو ونهر سعيد ، صورة عن التفرعات الكبرى المتشعبة من ناحية المصب ،
ولا يتلقى الفرات روافد بعدهما (١٢١٦) .

في النهاية ، يمكن تلخيص جريان دجلة والفرات ، بحوارهما مع
الأراضي التي يجتازانها . ففي أقصى أعاليهما ، صعبا ، يجتازان
بلادهما ، ويقطعانهما ، هما وروافدهما ، في اودية يساوي عددها عدد
النهرين مع روافدهما . وفي مجراهما الأوسط ، يحصران بلاد ما بين
النهرين العليا التي أطلق عليها اسم « الجزيرة » . أخيراً ، يتلاشيان في
المجرى الأسفل . فيقدم النهران خدمات أو يرتبطان بصلات وثيقة ،
في إطار توزيع ثنائي حتمي ، له حدود مختلفة : ففي حين يدل ظهور
السفن النهرية هنا وهناك على الانتقال من المجرى الأعلى إلى المجرى
الأوسط ، تنعكس صورة الصلات بين دجلة والفرات ، متى تمّ
الانتقال من المجرى الأوسط إلى المجرى الأسفل ، فيتحدان بعد ان كانا
متباعدين ، في شبكة من الاقنية العراقية وفي البطيحة الكبرى . وتذهب
الأراضي المنخفضة إلى حد دمج النهرين في مجرى واحد ، وتزداد الصفات

المشتركة بينهما ، لكنها لا تحتكرهما . وسواء اتصلا أم انفصلا ، فهما
تؤمان منذ نشأتهما ، بمياه الشرب التي يوزعها على جميع الاماكن ،
وبعدد روافدهما ، وحتى باسم بعض هذه الروافد ، وأخيراً ، يكون
مجراهما ومجري معظم الأنهار الصابة فيهما — على الضفة اليسرى
لكليهما — تنزل من منطقة واحدة ، أقصد الكتلة الجبلية التي جمعتها تحت
اسم ارمينية . وليس العراق سوى مخلب نهائي فرضته الطبيعة والأعمال
البشرية على أخوة تقرررت بين النهرين صعدا في أعاليهما .

ولا تستنفد دجلة والفرات موارد خزان ارمينية المائي . فبعض
الأنهار الأخرى تنحدر على السفوح الأخرى من هذه الأراضي العالية .
وتذهب إلى بحر بنطس . خارج حدود دار الاسلام ، وإلى بحر الخزر
أيضاً (١٢١٨) . ويعدّ الرسّ أعظم أنهار ارمينية . وينشأ قريباً جداً من
مخرج نهر الفرات ، في جبال قاليقلا ذاتها ، إلا أنه يدير ظهره إلى
الفرات ، ويتجه إلى الشرق . ويمتاز دبيل وأرّان ، حيث يتلقى أحد
الروافد (١٢١٩) . ويصب في بحر الخزر ، لكنه ينقسم إلى ذراعين ،
يذهب أحدهما إلى البحر مباشرة ، ويتحد الآخر بنهر مجاور كبير .
يدعى الكر (كور ، كوره) . ومبدأ الكر من كتل جبلية تقع إلى شمال
شرق قاليقلا ، ثم ينحدر إلى التلم الطويل ، الذي يفصل جبال ارمينية
عن جبل القيق الذي ينزله الجغرافيون منه أحياناً (١٢٢٠) . ويسقي مدينة
تفليس ، وهي ثغر جليل ، وبها حمامات كحمامات طبرية ، مأوها
ساخن من غير نار ، ثم مدينة بردعة ، أمّ ارّان . ويقترّب مجراه ،
صبيبا ، من مجرى الرس ، ويحددان أرضاً تنحصر بينهما ، وتقع حول
مدينة بيلقان .

ويضيف المقدسي إلى الرس والكركر ، نهراً ثالثاً خاصاً بجبل القبق
قطعاً ، يدعى نهر الملك (سمور) ، ويصب في بحر الخزر إلى جنوب
در بند (باب الابواب) (١٢٢١) . لكن لن ننخدع . فالرس والكركر ،
الوثيقا الصلة ، يلخصان على هذا السفح مياه ارمينية ويعدان رمز هذه
البلاد . ولا ريب أنهما يجريان على تخوم دار الاسلام ، أو على أراضي
تنازع عليها بيزنطية ، في حين يسيطر النصارى في الغالب في الاماكن
الأخرى ، إلا أن هذه المناطق ، الحادة الانحدارات ، الوعرة المسالك ،
غنية . وقد أشرنا من قبل إلى بهائها (١٢٢٢) . وتجمع جميع المحلات
بالمياه العذبة الحالية ، البخارية . ويحمل نهر الرس والكركر ، الهادئان
المهيبان ، السفن . ويديران المطاحن العروب ، ويجريان بين الفوة ،
التي يحنى منها أرياح طائلة . والعجيبة الاخيرة : ان في نهري الرس
والكركر أنواعاً من السمك اللذيذ كثيرة ، يأتي على رأسها البرستوج الذي
يجيء من أقاصي البحار في كل سنة في وقت معلوم يستعذب الماء ،
والسورماهي الذي يحمل منه إلى اردبيل والري والعراق ، ويستهدى
من أهلها وتجارها مطيبه ولذته وكثرة دسمه ، ورطوبة لحمه . وينقص
هذه اللوحة دعم التاريخ ، أقصد التاريخ المقدس . وهاكه : فمجمع
الرس والكركر مجمع البحرين ، ويقال ان موسى بلغهما (١٢٢٣) .
ويشير اسم الرس إلى أصحاب الرس ، الذين ورد ذكر عقابهم في
القرآن : فاذا تأمله المتمكن منه رأى عليه آثار مدن ، يقول ابن حوقل
إنها آثار ألف مدينة هي الآن تحت جبل الحارث والحويرث
(١٢٢٤) .

بلدان فارس : المفازة والبحر يتجاذبان الأنهار

لنترك الآن جبال ارمينية واذربيجان. ونتجه إلى الجنوب الشرقي ففيه ثلاثة خزانات مياه ، تتمثل في حواجز الخزر الجبلية الجنوبية ، وجبال المحروس ، ومجموعة خراسان وافغانستان . وتنتهي مياهها إلى بحر الخزر أو إلى الخليج أو إلى بحر الهند . وتجذب هضبة فارس أي مفازتها الكبرى المياه النازلة من المرتفعات المشرفة عليها ، فتفيض فيها ، وتحولها إلى خزان معكوس تضيق فيه .

ونبدأ بالشمال (١٢٢٥) ، بسواحل بحر الخزر الجنوبية ، الغنية بالمياه البحرية . ويتعاقب من الغرب إلى الشرق ، اسفيد - رود (اسفيد - رود ، سييد - رود) أي « النهر الأبيض » (١٢٢٦) ، الذي يصب فيه رافد « ملكي » ، دعى « شاه - رود » لصفاء مياهه ، ثم الهرهرز (هرازي) ، وبافل (بابل) ، وتيزهين - رود (طبري - رود ، تيجين) ، وخاصة نهر طيفوري أو نهر جرجان ، الذي يجري في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر الخزر ، ويمر بجرجان ، ويحصل أحياناً التباس بينه وبين نهر اترك الاعلى . ويخرج نهر جرجان من شرقي سلسلة جبلية تلتقي بجبال خراسان ، ويصب في بحر طبرستان (الخزر) على جانبي فرضة ابسكون . ولا يستطيع أي من هذه الأنهار أن يحمل السفن (١٢٢٨) لكنها كلها تخصب الأرياف بأقنيتها . وينطبق هذا القول على وضع الجانب الآخر من الحجاز الجبلي ، على واحات قزوين والري ، اذ تتوزع شبكة أقنية وآبار ارتوازية (١٢٣٠) حول الوادي الكبير وسيرم بالنسبة إلى الواحات الأولى ، وسورني (سرقني) (١٢٢٩) وجيلاني بالنسبة إلى الواحات الأخيرة . لكن تعمل المؤثرات القارية عملها هنا ، فتجف الأنهار أحياناً.

وتتوزع المياه توزيعاً مماثلاً في اتجاه الجنوب ، على طول جبال
زغروس (١٢٣١) . وتتوالى مجموعة من مدن الواحات عند حضيضها ،
من همدان إلى الكرج ، وقم واصبهان ، وثبت اثباتاً كافياً ضخامة
مخزون المياه فيهما . وعلى وجه التخصيص ، تبدو أصبهان بقعة رائعة
خضراء وغنية . في الهضبة العليا الجافة ، يسقيها زندروذ (زرین -
روذ) الشبيه بدجيل ، الذي ينشأ في أرض أصبهان بالذات ، ويذهب
إلى خوزستان . ويسمى « نهر اصبهان » ، ويسقيها ويسقي رساتيقها ،
بشبكة ري وتوزيع مياه موروثة عن فارس القديمة . ورغم تفريط
زرین روذ بالعطاء ، يبقى غزيراً جداً ، حتى يقال انه يغور في رمل
بآخر رساتيق اصبهان . ثم يخرج بكرمان (١٢٣٢) . وبعيد طرف
السلسلة الجبلية الشرقي ، تحيد المياه عن هضاب فارس ، وتتجه اما إلى
البحيرات أو إلى السفح الذي بازاء الخليج . وتكتمل صورة البلاد المروية
على نطاق واسع بعرض البحيرات . لكن لن نتحدث إلا عن بعض
الأنهار من الأسماء الخمسة عشر الواردة عند ابن حوقل والمقدسي ،
ومن الشبكة الكثيفة ، الغامضة أحياناً (١٢٣٣) . وأعظم هذه الأنهار
نهر طاب ، الواقع على حدود خوزستان المجاورة ، الكثير القناطر ومنها
قنطرة سكّان القليلة النظير . ثم نهر سكّان (مند) ، وليس في أودية أنهار
فارس واد أكثر عمارة منه . ثم نهر الكر ، ويحمل اسم نهر الكر العظيم
شبه القبقي ، وقد أصبح إحدى عجائب فارس ، بعد أن سكره عضد
الدولة بحائط عظيم ، جعل أساسه بالرصاص ، فتبحرّ الماء وارتفع ،
فوضع عليه من الجانبيين عشرة دواليب ، تحت كل دولاب رحي ،
وجرّ الماء بقني ، وسقى ثلاثماية قرية . أخيراً يتبدّل اتجاه المياه مجدداً ،
في أقصى الشرق ، وتنحدر إلى الأراضي الداخلية : فديو روذ (هری

روذ) أو نهر جيرفت ، شديد الجري وسريعه ، وله وجبة ، ويمر على الصخور ، ولا يستطيع أحد أن يتزله إلا متواقياً على رجليه من حجارة سريره ، وفيه ماء يدير خمسين رحي بالتقدير ، وهو يغوص في الأراضي القائظة التي بعث الحياة فيها (١٢٣٤) .

ونستمر بالاتجاه إلى الشرق ، حتى نصل إلى الكتل الجبلية في خراسان وافغانستان ، وبعدها إلى هضبة البامير التي تعدّ محور نظام توزيع مياه: اولاً بين نهر جيحون (اموداريا) الذي سوف نتكلم عنه فيما بعد ، وبين نهر مهران (الهندوس) (١٢٣٥) . وقد عرفنا نهر مهران من قبل ، فهو نهر نبيل ، عذب جداً ، زعم عمرو بن بحر الجاحظ ، انه من النيل ، ولا يخالفه بالزيادة ولا بوجود التماسيح فيه ، ولا بكونه من أنهار الجنة . ويقترب أيضاً بنهر جنجس ، وهو من أنهار الجنة أيضاً ، إلا أن قداسته تنتقل إلى نهر مهران ، إذ لا يجوز الشرب منه قبل التطهر . ونترك الأساطير ، ونتناول الواقع أو ما هو معروف منه . فجيحون ومهران يخرجان من مرتفعات شمالية تنزل منها ثلاثة أنهار تتحد ، على ما جاء في كتاب حدود العالم ، وتشكل نهر مهران ، أولها نهر يصرف مياه مناطق كابل وبنجهير (١٢٣٦) ، وثانيهما يسمى سندروذ ، ويقابل مهران الأعلى والأوسط ، وثالثهما هيفان أو ستلج . وعندئذ يسمى «مهران الذهب» (١٢٣٧) ، ويصبح أعظم من دجلة . ويجتاز البوادي أحياناً ، لكنه يعد في الغالب عماد بلاد واسعة ، ويسقي مدنها وقراها ، ويروي أريافها بشبكة أقنية تلتقي بأنهار أخرى ، فيضيق مجراه بينها . وسواء كبر أو صغر ، جاء في المرتبة الأولى أو الثانية ، فهو موزّع في جميع الأماكن ، وحتى في جهات لا يتوقع أنسان وجوده فيها ، مثل وادي نربدا (أو نرندا) ، فيما وراء شبه جزيرة جوزرات (١٢٣٨).

وفي أقصى صبيه ، قبل انتهائه إل البحر ، يتبحر في بطائح فسيحة .
تشبه بطيحة العراق ، عليها طوائف من السند يعرفون بالزط ، فمن
قارب منهم الماء ، فهم باخصاص ، وطعامهم السمك وطيّر الماء ، ومن
بعد من الزط عن الشط في البوادي لا يخرج من مخبأه ، إلا لينخرط
في جيش المنصورة ، قصبة السند الاسفل ، أو ليمتنهن القرصنة في البحر
المجاور .

وتختار بعض الأنهار سفح الجبل الآخر ، على مستوى العروض
ذاتها ، وتنحدر باتجاه سجستان وبحيرة زره الكبرى ، التي تتلقى
مياهم على مقربة من مدينة زرنج العظمى . وهذه الأنهار هي نهر فره ،
والخوش (نهر نيشك) وخاصة نهر هيل مند ورافده خرد روى (١٢٣٩).
ونلقى مرة أخرى اللوحة المعهودة ، نعني لوحة الماء باعث الحياة في
الواحات ، إنها هنا بقوة فريدة : ويحتاج النهر إلى قناطر ، مصنوعة
من مراكب أو مبنية بحجارة ، ويحمل السفن على الاقل في فترة ارتفاع
مستوى الماء ، ويخرج أحياناً من سريره ، لكنه يحيي بلاداً لولاه لقضت
عليها الرياح الرملية ، وتبدو جريته هادئة جداً ، حتى ان بعض الجغرافيين
ظنوا ، خلافاً للواقع ، ان مستواه ثابت ، لأن روافده الكثيرة تعوّض
بدقة تامة عن فقدانه الماء في فروعه الوافرة العدد .

ولا تستنفذ سجستان جميع موارد خزان ماء افغانستان ، الذي
يتحدث الجغرافيون (١٢٤٠) ، بحق ، عن وجود ثلاث شبكات مائية
أخرى خاصة به . ففي الشمال ، يقع خزان يغذي نهر بلخ أو دهاس ،
ومعناه يدير عشر ارحية (١٢٤١) . ونحن هنا في الواقع في حوض نهر
جيحون ، الذي يطلق عليه أحياناً اسم نهر بلخ ، مع ان هذه المدينة بعيدة

عنه بعض الشيء . ويعدّ دهاس نهراً مستقلاً ، لأنه لا ينصبّ في جيحون ، بل يعتبر رافداً نظرياً له . وهو ينهك تماماً في هذه المدينة ، التي تغمر مياهه شوارعها ، وتسقي رساتيقها بزروعها الرائعة وبساتينها وكرومها . وهذه هي الناحية الهامة على الدوام في الواقع ، نعي وجود الماء في الأرض . فرؤية الجغرافي تتغاضى عن النهر الأسفل ، على الخريطة وفي الوصف ، وتعتبره وضعاً طارئاً تماماً ، ويخلطون بين النهر الأعلى وبين حوض رافد آخر لنهر جيحون ، يعجز أيضاً عن الوصول إليه : نقصد القنلر (١٢٤٢) .

ويعدّ نهر مرغاب أشهر من نهر الدهاس ، ويسمى نهر مرو أو نهر المروين ، أي مرو الروذ ومرو الشاهجان (١٢٤٣) . ويستنفد المرغاب مياهه في الأرياف ، بعد أن يوزعها في فروعه التي ذكر المقدسي أربعة منها ، ثم عدل عن تسمية المتبقى منها ، لكي لا يرهق القارئ : وقد وضعنا من قبل (١٢٤٤) تعقيد هذا الري وأنظمته . ويعدّ نهراً مباركاً ، إلا عندما يندفع ويكسر سدوده ، فيثبت نزعه إلى الخروج من مجراه ، التي يرى المقدسي أنها ستلازمه إلى الأبد .

ويعتبر نهر هرات أو هري روذ (١٢٤٥) آخر الأنهار الكبرى في بوادي خراسان . وهو الوحيد الذي لا يجفّ في الصيف ، إلا أنه يستنفد مياهه في نهاية مجراه ، على مقربة من سرخس ، التي لا تتلقى ، في أفضل الاحتمالات ، إلا فيض مائه بعد سقيه واحة هرات . هنا أيضاً ، تعطى لوحة شبكة تفرعات ، يعدد الجغرافيون أسماءها في رساتيقها . وتتمم هذا الوصف في الجهة الشمالية الغربية ، في جبال خراسان : ففيها بلد نسا بعيونه التي يجري ماؤها إلى الدور ، ثم أي ورد ، وفيه ماء

قويق. الذي يحمل اسم قويق حلب (١٢٤٦). ، ثم واحة نيسابور (١٢٤٧) ونهر سغاروذ (او سغاور) الذي يدير سبعين رحى ، يشرف عليها مراقبو الري . مع ذلك ، يتعلق الوضع باجتماع شبكات أقنية ، واصلا لم يعد الماء ، حتى الغزير (١٢٤٨) ، سوى الماء الذي ينقّب عنه في الأرض. وفي جميع خراسان ، تنتزع المؤشرات إلى اثبات زوال النهر الحقيقي. ولن تلبث الآبار أن تسيطر في قوهستان (١٢٤٩) القريبة جداً من الصحارى المحرقة في مفازة فارس .

الأنهار الكبرى الثلاثة في آسية الوسطى

تعود المياه إلى السيطرة على الوسط في أقصى شمال شرق دار الاسلام وتخترقه أنهار تتناسب أهميتها مع سعة البادية ، وتسخر منها ، وتبعد وحشتها عن ضفافها . وتتنافس بهذه الأنهار وروافدها وأقنيته وفروعها مع البلدان والمزارع والمدن أو القرى ، في اللوحات المعروضة في نصوص الجغرافية العربية . وقد تناولت دراسة الاسماء التاريخية هذه الأوصاف (١٢٥٠) منذ زمن بعيد ، ولن نعود اليها في بحثنا لا في العراق ولا في دلتا نهر النيل . لكننا ننتهز الفرصة ، ونشيد بالعمل الجبار الذي انجز حتى الآن رغم الصعوبات الجمة التي تمثلت في وفرة التدوينات ، وتبديل أنظمة الري ، وتغيير الاسماء ، وهجرة الأنهار أحياناً . ونسأل عن أسباب هذا الفيض من الأوصاف والأسماء . ونعيده إلى ذهول المصنف عند رؤية الأراضي المستثمرة ، المقسمة إلى مزارع لا تحصى ، وعند مشاهدة المياه موزعة على شبكات ري منذ لحظة العثور عليها . وهذه اللوحة رائعة جداً ، فيما يبدو ، اذ لولا وجود المياه ، لهيمنت البادية ، وهذا ما قلناه سابقاً . ومن هنا نشأ فرط التدوين على الارجح : فكلما

زادت قيمة المياه ، زاد استرعائها الانتباه ، وكثر تسجيل ما يتعلق بها .
إلا أن للتاريخ والجغرافية أسبابهما . فالمصنفون كانوا يعتقدون في النصف
الثاني من القرن ١٠ هـ / ١٠ م ، وأساس الوصف جاء على لسانهم ، أن تلك
البلدان التي كانت تشكل قلب الممتلكات السامانية ، تعتبر نموذج حضارة
ناجحة ومستنيرة (١٢٥١) . ونعلم نحن أن أدب المسالك والممالك ،
شرقي في وحيه وفي موضوعه على نطاق واسع ، فتنزع في النهاية إلى
محاكاة شرق المشرق . وتشهد الأرقام على صحة هذا القول : إذ تكاد
الأنهار والأقنية في شمال شرق دار الإسلام تحتكر ثلث الأسماء الواردة
عند ابن حوقل والمقدسي (١٢٥٢) .

وتشمل مياه البادية ثلاثة أنهار عظيمة ، يذهب نهران عملاقان منها
إلى بحيرة خوارزم ، هما نهر سيحون أو نهر الشاش (اياكسارت ،
سيرداريا) في الشمال ، ونهر جيحون (اوكسوس ، آوداريا) في
الجنوب (١٢٥٣) . ويسمى نهر الصغد نهر زرفشان ، وهو أصغر من
النهرين الأولين ، وينتهي في سبخة (١٢٥٤) .

ويقع حوض سيحون (١٢٥٥) في ثغور ، ترسخت معرفتها
تدريجياً . ويجهله بعض الجغرافيين الأوائل أحياناً ، أو لا يميزونه جيداً
عن قرينه جيحون في الجنوب . ويطرح المسعودي نظرية تجعله فرعاً من
نهر دnie . وازدادت الأمور وضوحاً فيما بعد في القرن الرابع الهجري /
العاشر الميلادي ، لحسن الحظ . فهذا النهر يخترق أرض الأتراك ،
المسلمين أو الوثنيين ، الهادئين أو المضطربين ، وتمتد أرض الترك من
جبال قبائل القرلق إلى بوادي قبائل الغز . ويحمل سيحون الأعلى في
فرغانة اسم مدينة اوزكند . وتكثر روافده في هذه الأنحاء الجبلية ، ويعتبر

أهمها رافد نارين (ختلام . خيلم ، أو جدغل) . ثم تأتي واحة الشاش الكبرى ، أي منطقة طشقند الحالية ، مع نهرين في الضفة اليمنى : هما نهر إيلاق الذي يسمى باسم قصبة إيلاق ، ويصاقب نهر نارين ، ثم نهر برك (١٢٥٦) أخيراً تسود البادية القفرة من مدينة فاراب ونهرها حتى بحيرة خوارزم .

وغزارة سيحون إحدى ميزاته الرئيسة . ففيضانه يغطي أراضي واسعة جداً على ضفتيه ، تعادل خمسة عشر مثلاً مما يغطيه نهر النيل ، على حد قول المسعودي ، وتصبح الملاحة وسيلة الانتقال بين الضيع المعزولة على التلال ، كما هي الحال في مصر . ويقدر صبيب بثلي صبيب نهر جيحون . لذلك تستطيع السفن الكبيرة أن تجري فيه حتى بحيرة خوارزم ، وإن تصعد منها إليه . إلا أن غزارته تتفاوت من مكان إلى آخر في حوضه . فقسمه الأعلى أو نهر اوزكند جدول بين سائر الجداول ، ثم يتعارض وضعه في مجراه الأدنى ، إذ يتلقى نهائياً غزارة مجاري مياه الجبل ، ويجمعها في نهر وحيد ، يسمى نهر الشاش أو سيحون ، على حد قول كتاب حدود العالم . أما صعداً ، باتجاه فرغانة خاصة ، فتتراءى البرية في الآفاق البعيدة ، بعد المروج والمراعي التي تلي المزارع . ويشاهد سحر الأراضي المروية التي تخفي أشجارها الملتفة المنازل والمدن ذات الأنهار . وأما صبيلاً ، فتضعف غزارة سيحون ، ويقتصر عمله على إيقاف توسع البادية ، إذ « يظن أنه فارق الحياة » على حد قول المقدسي ، إشارة إلى الحوار الصامت بين الأرض والنهر الرائع . مع ذلك ، لا جدوى من سير السفن فيه .

ويشار إلى شبكة مائية ضئيلة الأهمية ، تقع إلى جنوب نهر سيحون ، وتسقي الأراضي الواقعة بين بلاد الصغد ونهر جيحون (١٢٥٧) ، إذ

تهبط من الجبال المجاورة أنهار كثيرة ، منها نهر القصارين (١٢٥٨) واسروذ ، اللذان يرويان حقول ناحية كش ، ثم يتحدان غرباً ، ويرويان مدينة نسف ورستاقها ، قبل أن ينتهيا في مستنقع ، ان بقي شيء من مائهما . ولا علاقة لمخصب الحقيقي في هذه الأنحاء بمخصب بلاد الصغد الواقعة إلى شمالها مباشرة . باتجاه نهر سيجون . فهذا البلد ، أي نواحي أشروسنه والسغد بالمعنى الصحيح ، يحوي عدة مدن هامة ، أعظمها مدينتا سمرقند وبخارى اللتان تمتلكان مزارع غنية إلى أقصى حد ، وبهما مياه « موزع الذهب » أي نهر زرفشان ، المعروف في النصوص الجغرافية باسم نهر الصغد أو نهر بخارى (١٢٥٩) . ويلخص كتاب حدود العالم شبكة الماء ، ويقول : تؤلف أربعة أنهار تنزل من جبال البتم الأوسط بحيرة يسحب ماءها نهر زرفشان وتسقي أشروسنه وبلاد الصغد ، ثم تقع مياهه أو ما تبقي منها بعد الري ، في مستنقع قريب من بيكنند أو قره - كول الحالية . ويغني الاصطخري والمقدسي وابن حوقل خاصة ، هذه النظرة الشاملة ، بتفاصيل العجائب الناشئة عن الماء ، وبوصف روعتها . فصعباً ، تسيطر الطبيعة بالجدول والافلاج الجبلية ، التي تؤلف ، عند ذوبان الثلوج ، نهراً عمقه « ثلاث قامات » ، غزيراً جداً حتى انه يحمل الخشب عوماً إلى سمرقند ، ويهدد أحياناً الجسور أو السدود . وعلى النقيض ، يفرض الانسان طابعه من اشروسنه ، ويتدخل باقامة أول سد على المياه . وتتوزع حول المدينتين العظيمتين ، سمرقند وبخارى ، شبكة أفنية متقنة جداً ، تقوم بأربع وظائف : فتجري في أوسع أفنياتها سفن كبيرة ، بحمولتها الثقيلة أحياناً ، وتسقي بشبكة أفنية تتفرع إلى أقصى حد حتى تصل إلى أصغر قطع الأرض في الأرياف ، وتوفر ماء الشرب لأهل المدينة التي تعتبر مركز الشبكة ورمزها الكامل ،

وتدير الارحية أحياناً وفي بعض الاماكن . وعلى هذا الماء وال جليل
بسمرقند ، وقوم مثبتون منزلون لسد بثوقه ومجاري أنهاره وسكوره ،
وقد أزيل عنهم الخراج . وجعل مكانه اصلاح تلك السكور . وأوصاف
ابن حوقل دقيقة ، تذكر جميع أسماء الاقنية ، وتسجيلها صحيحة حول
سمرقند وبخارى ويبرز ما ورثته دار الاسلام ووسعته من مشهد معروف
جداً ، في اوصاف ابن حوقل الدقيقة ، وتلويته الامين لجميع أسماء
الاقنية حول سمرقند وبخارى : فالماء ينتشر بكثرة ، في الهواء الطلق
أو تحت الأرض ، أو يحجز في بعض الاماكن وراء السدود ، أو يجري
في الاقنية أو في منخفض أو مجاري مرصوفة أحياناً ، رائعة وصافية ،
وبها نبر أيضاً ، أو على النقيض ، كلرة عكرتها أقذار المدينة الكبيرة .
أما الأرض ، فتخفيها نعمة الماء تحت خضرة ، لا تنقطع إلا ليتخللها
ضيق وقلاع يشاهد منها « اروع بلدان الله » (١٢٦٠) .

وتتكرر اللوحة في وصف جيحون (١٢٦١) ، آخر الأنهار الثلاثة ،
وأعظمها اذ يجتاز الجبال والواحات والبادي . وهو نهر مشهور ،
وان ضعف الامام به أحياناً ، وأصله من الجنة ، وله تقلبات وأسرار :
فالبعض يظن أنه يجري باتجاه الصين ، ويرى آخرون انه يعود إلى
الظهور في كرمان ، ويعتقد غيرهم أنه يتصل بنهر مهران أو بنهر
دنبه (١٢٦٢) ، كما هي حال سيحون ، ويظن أن ذلك ناجم عن تأثير
الرياح الشرقية . وتذهل غزارته الآن على وجه التخصيص ، مثلما
فعلت في الماضي البعيد . وتجعله قوة مياهه نهراً فاصلاً ممتازاً ، وحداً
أساسياً في الجغرافية . بأوسع معاني هذا اللفظ . ويطلق على البلدان
الواقعة على ضفته اليمنى اسم ما وراء النهر ، أو اسم « الجزيرة الخارجية »
مثلما تصور بوريس فيان (١٢٦٣) . في جميع الاحوال ، ما وراء

النهر عالم آخر ، هيهات ان يزِيل الفتح الاسلامي الذي جاء بعد فتح الاسكندر (١٢٦٤) ذكره من أذهان الناس . فهو عالم البوادي الفسيحة والجبال المنيعه . وأرض البرد . وتُجول فيه أقوام مختلفة من أتراك وهون . باختصار يشير اسم ما وراء النهر إلى بلاد الغيب ، بل إلى نهاية الأرض التي تحميها طلسمات الحكيم بليناس الثاني (١٢٦٥) ، وتشكل حدوداً تتميز بالسحر والتفكير الخاص ، وحتى باقتصاد فريد اذا شاء المرء أن يستذكر الحياة اليومية . وكل من أراد من التجار ، لاسيما تجار الرقيق ، أن يعبر نهر جيحون ، ويخرج منها ، يتمتع عليه أن يحصل على جواز من السلطان ، وان يدفع ضرائب ورسوماً معينة (١٢٦٦).

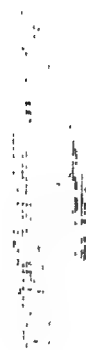
مع ذلك تقدمت معرفة اقليم ما وراء النهر ، وتمت بسرعة فاقت سرعة معرفة نهر سيحون . وتحددت منابع نهر جيحون تحديداً جيداً على وجه الاجمال . فقليل انه يخرج هو ونهر مهران من جبال واحدة ، تقع في بقعة تتفرع فيها جبال هندوكوتش عن هضبة البامير . وتنزل روافده الكبرى من أعالي الجبال ، وتقع فيه من جهة الضفة الغربية . ويتلقى فيها نهر جيحون الأعلى أو جرياب أو الوخاب أي نهر بنج (بيانلزه) حالياً ، على التوالي انديجاراغ ، وفارغر ، وهليك (اخشوا) ، وبلبان ، ثم مجرى ماء غزيراً جداً حتى أنه يعد النهر الثاني في تكوين نهر جيحون ، وهو الوخاب (الفخش) الذي يأتي من تخوم البامير الشمالية . أخيراً يرفده نهر القواديان والصغانيان (١٢٦٧) الهابطان من جبال البتم مثل نهر زرفشان (نهر الصغد) . ولا يقع في نهر جيحون من جهة الضفة اليسرى إلا نهر ضرغام (نهر بدخشان) ونهر ختلاب ، مع أن روافد سفوح جبال هندوكوتش الشمالية روافد نظرية أحياناً ، تجف بالري قبل أن تصل إلى جيحون (١٢٦٨) . وأطلق اسم بلخ على جيحون فليل نهر بلخ ، وان

كانت هذه المدينة ، كما قلنا من قبل ، لا تقع على هذا النهر بالذات ،
وتعين انتهاء المنطقة الجبلية ، وبالتالي انتهاء الروافد . وتمتد البادية من
عند نهر كالف على التخصيص (١٢٦٩) وتنتشر فيها واحات متباعدة ،
تحيطها أقنية مسحوبة من نهر جيحون . وتعد خوارزم أعظم تلك الواحات
وأوسعها . وآخر مظهر حياة هام قبل الوصول إلى المفاوز الواصلة حتى
بحيرة خوارزم .

وتتعارض لوحة جيحون بعد تشككه على النحو المذكور . وبعد
تحوله إلى نهر البادية الوحيد . تعارضاً تاماً مع مشهد حوضه الأعلى الواقع
في قلب الجبال ، بما تعترضه من عقبات هائلة أحياناً ، وما له من روافد
تندفق في الفجاج العميقة ، وما على ضفافه من خيرات يظن أنها انبعثت
من العدم ، كالأشجار والمزارع والحبوب أو الكرم ، إضافة إلى ما يحمله
نهر ونخشب من التبر (١٢٧٠) . مع ذلك ، يتراءى وراء جيحون الأعلى
والأدنى ، في الجبل والسهل ، نهر جيحون الواحد الذي يعد من أكبر
أنهار العالم . ويقال انه يأتي من الجنة ، ويعيد خلق الجنة على
الأرض (١٢٧١) ، ويشق بلداناً رائعة الجمال من أبداع ما في هذه الدنيا .
وتعد مياهه من أعذب مياه العالم ، وتكثر فيه الأسماك (١٢٧٢) ، وتجري
فيه السفن ، وفي بعض أقنيته أيضاً . أخيراً تتجلى عظمته وقوته بوضوح
تام من خلال تحديد معابره التي يمكن اجتيازها منها ، وتسمح له غزارته
أن يتشعب إلى فروع كثيرة في خوارزم وفي أماكن عديدة من مجراه
الأعلى . ويبلغ عرضه على مقربة من بحيرة خوارزم حوالي فرسخين (أي
حوالي ١١ كم) . وقد استطاع فيضانه ان يزيل مدينة كاث بأجمعها من
الوجود . وربما جمد وادي جيحون في الشتاء ، فيصير منظره ساحراً ،

ويبتدىء جموده من ناحية خوارزم حتى يعلو إلى حيث ينتهي الحمد.
وعندئذ تعبر عليه القوافل ببغالها وجمالها ، بأثقالها وأحمالها (١٢٧٣) .
ونشير في الختام إلى أن غزارة نهر جيحون حفته مركزاً فريداً على خريطة
الكرة . فهو نهر الثغور الفارسية التركية (١٢٧٤) ، ثم صار نهر دار
الاسلام ، دون أن تغرب الحدود التي يرسمها عن بال أحد من الناس.
فهو معلم يتناسب مع عظمة عالم جديد يبدأ عند ضفته الشمالية ، وصار
اسلامياً ، لكنه بقي عالمياً . ويثبت هو وبعض الأنهار الكبرى في العالم ،
كالنيل ودجلة والفرات ، ان دار الاسلام اختصت بتاريخ وجغرافية
شاملين وعالمين .

* * *



الفصل الثالث

مجامع المياه

من أغلق أبواب البحر ؟
سفر أبواب

نعرف الآن جيداً عمل الماء على الأرض التي وهبها الله للبشر ، سواء كان الماء في الأنهار أو القنى أو العيون أو الحياض . ونذكر أنه عنصر جوهري في تركيب الكون ، يمثل أولاً حركة تتكرر دوماً على الوجه التالي : مطراً ، فسيحاً ، فغوراً ، فانبجاساً ، فتبخراً ثم مطراً من جديد وحتى لو توقفت هذه الدورة العظيمة أحياناً . واحتجز انقطاعها الماء في أعماق الأرض ، قبل أن تعيده إلى الهواء الطلق ، فان فيه على الدوام حياة تنتقل إلى بني البشر منه . ويشير كل من يتحدث عن غذاء الانسان إلى الماء العذب ضمناً ، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة جداً . لكن ما حال الماء الآخر الذي يبقى في مكانه وسط الأراضي البارزة ، أو يشكل حدوداً لها ، هذا الماء المليء بالملح هذه المرة في معظم الاحيان؟ فالبحر والبحيرة يشتركان في صورة واحدة ، تبدي لنا سطحاً هادئاً ، متفاوت الملوحة ، من ماء لا يشرب ، يقابله سطح مضطرب من الماء الجاري العذب .

ويتوقع المرء تقديم الاعتراض التالي : ثمة - وهذه حالة شائعة كثيراً في الشرق بحيرات ماء عذب ، مثل بحيرة طبرية ، التي تتوازي تماماً مع البحر الميت القريب منها فالحق يقال إن الملح خلافاً لبقاء كتلة الماء في مكانها ، لا يعتبر قرينة حاسمة تفرق بين الماء الجاري ومجمع الماء . وهكذا تصبح البحيرة حالة وسطى بين النهر والبحر ، فلعلنا نصل إلى البحر الحقيقي عندما نجتاز مياهها .

البحيرة والبحر

لأول وهلة ، تبدو الأمور بسيطة . فليست البحيرة أبداً سوى بحر صغير ، إذا اعتمدنا على لفظ بحر وتصغيره بحيرة . لكن كيف نقدر مساحة البحيرة ، سيما ان البحر ، كما نعلم ، يؤخذ حتماً بمعنى عام جداً ، وكأنه يشير إلى مساحة كبيرة واسعة جداً من الماء المالح أو العذب على حد سواء ، إذ إن نهراً واحداً في الحد الأدنى ، وهو النيل ، استحق هذه التسمية (١٢٧٥) ؟ لننظر إلى الخريطة . يطلق على بحيرة آرال ، في معظم الأحيان ، اسم « بحيرة خوارزم » ، في حين يدعى بحر قزوين بحر الخزر أو بحر جرجان أو بحر طبرستان . وقد يستبدل أحد لفظي بحر أو بحيرة بالآخر أحياناً (١٢٧٦) حتى بالنسبة إلى بحيرة اورمية الأصغر كثيراً جداً (١٢٧٧) والواقعة في أذربيجان . فهل يجيء التمييز أفضل على أساس الملح ؟ لكن البحر الميت أو بحر لوط يدعى أيضاً البحيرة العفنة ، أو العكس بالعكس . وهكذا أصبحت تتوفر لدينا أمثلة كافية لكي ندرك من جهة ثانية اعتماداً عليها ، اننا لن نتوصل إلى نتيجة من التفريق بين بحر مفتوح وبحيرة مغلقة . فجميع الظواهر تتضافر لتلخص هذا التمييز وغيره : ثم ألا يجعل كتاب حدود العالم البحر

أو البحيرة ، والمستنقع على وجه أدق ، مصب الأنهار الطبيعي ، مما يؤول إلى إعطاء البحيرة والبحر تعريفاً واحداً (١٢٧٨) يرتكز إلى انتهاء مجرى الماء فيهما ؟

في جميع الأحوال ، لدينا ناحية ثابتة : تسمى البحيرة بحراً أحياناً. لكن لا يسمى البحر بحيرة أبداً ، أو لنقل بالأحرى ، ما دمنا لا نعرف حتى الآن حقيقة البحر ، ان احداً لم يسعمل قط لفظ بحيرة ليدل على البحر المتوسط (بحر الغرب ، بحر الروم) أو على المحيط الهندي (البحر الشرقي) مع فرعيه البحر الأحمر (المسمى بحر القلزم) والخليج العربي الفارسي (بحر فارس) (١٢٧٩) . بالتالي ، يسعنا أن نعيد التمييز ، الذي رفضناه من قبل ، بين بحر مفتوح وبحر مغلق (١٢٨٠) ، شريطة أن ننص عليه كما يلي : يجوز تسمية البحيرة بحيرة أو بحراً ، اما البحر المفتوح ، فلا يصح أن يطلق عليه اسم بحيرة ، أي بايجاز : تقتصر تسمية البحر على البحر المفتوح حصراً (١٢٨١) .

إذا عدنا مرة أخرى إلى الخريطة ، اضطررنا ان نتساءل عن احتمال وجود أساس تمييز آخر: نعني الامتلاك . قد يقال بطيبة خاطر إن البحر الحقيقي يمكن أن يقتسم مع الامم الاخرى في حالة البحار الشرقية والغربية ، ومع المجهول في حالة الاقيانوس (البحر المحيط) . خلافاً لذلك ، تمتلك دار الاسلام البحيرات . إلا أن هذا التمييز لا يصح هنا أيضاً . فمن جهة أولى ، يطلق أحياناً اسم بحر على بحيرة تمتلكها كلها دار الاسلام كالبحر الميت . من جهة أخرى ، يسمى بحر قزوين أحياناً ، كما قلنا ، بحيرة ، دون أن تمتلكه كله دار الاسلام . بالتالي ، لا بد أن نعرف أن قرينة الملكية ، أو الاشتراك بها ، الواضحة في حالة البحار

المفتوحة . تتشوش كثيراً عندما تطبق على البحار المغلقة ، من جراء تداخلها مع مفاهيم أخرى بيئة أو كامنة : فالبحر الميت ، المغلق ، غير المشترك بين دار الاسلام وغيرها ، المحدود المساحة يجمع كل صفات البحيرة ، إلا أن ملوحتة ، والملوحة ميزة أساسية للبحار ، تدفع إلى تسميته ببحراً . خلافاً لذلك ، يعتبر بحر قزوين ، المشترك بين دار الاسلام وسواها ، الواسع والمالح (١٢٨٢) ، ببحراً مبدئياً . مع أنه كتلة ماء مغلقة ، وهذه إحدى صفات البحيرات ، التي تدفع إلى تسميته ببحيرة أحياناً .

لكن هل يعني هذا الوضع وجوب التخلي عن محاولة توضيح الأمور ؟ ثم كيف يثق المرء بأنه يحصل على نتيجة لحوالي العام ألف تفوق ما حصل عليه العلماء في أيامنا الحاضرة ، التي لم يبلغ فيها التمييز بين بحر ومحيط وبحيرة حد الكمال دوماً ؟ في الواقع ، لو استعرضنا جميع معطيات الجغرافيين العرب ، ولاحظنا أن معايير الملوحة والاتساع والامتلاك لا تصح دائماً (١٢٨٣) ، لأمكننا مع ذلك أن نميز بين البحار الحقيقية ، التي تحمل باستمرار وحصر اسم بحر ، وبين البحار المبهمة والبحيرات . عندئذ نعود إلى الصيغة السابقة ، بنص معدل قليلاً ، ونخلص إلى القول بأن الشرط الضروري والكافي لكي يطلق على البحر اسم بحر هو أن يكون مفتوحاً .

هذه هي القاعدة الوحيدة الدقيقة الممكن استخلاصها من أسماء البحار في الجغرافية العربية ، وربما أيضاً في جغرافيتنا نحن . اما في سائر النواحي ، فنذكر جيداً ان لفظ البحر ، بمعناه الواسع ، يمكن اطلاقه على شتى المجامع المائية ، اذا ما أخذنا بقرائن أخرى تعوزها الدقة . وقد نوفق في

الاستهزاء من هذه الشكوك . مع ذلك ، ألا يسهل العثور على البحر الحقيقي ، إذا اعتمدنا على الصورة البسيطة والواضحة ، التي يحملها كل منا في مخيلته ، عوضاً عن التفتيش عنها عند علماء من جميع العصور ؟ فالاصطلاحات العربية ، التي تعرف البحر بأنه كتلة مائية واسعة ، تتفق في النهاية مع مصطلحاتنا : فلا ريب أن البحر ماء ماد وواسع حتى ليظن بأنه لا يتحرك ، ولا يتحرك فعلاً أحياناً على عكس النهر ، وهو الماء الذي يعتبره الانسان الواقف على الشاطئ ، أكثر من انقطاع في الأرض الثابتة ، يشعر غريزياً باستحالة عبوره : انه عنصر يجتاح الأرض هذه المرة ، ويدفعها بعيداً باتجاه الافق ، كما هي الحال في وضع النيل ، أو يخفيها وراء الافق في أغلب الاحيان أيضاً .

أصل البحار

من أين يأتي هذا الماء الهائل المتجمع ؟ تحدثنا في الفصل السابق عن البرزخ الذي وضعه الله بين الكتلتين المائيتين العذبة والمالحة ، وتحدثنا أيضاً ، من زاوية ثانية ، عن ماء ملخ أعقب الله به بعض الأرض الذي تأخر عن قبول أمره بابتلاع الماء وانحدر إلى قعور مواضع الأرض بعد الطوفان (١٢٨٤) . ويكرر المسعودي (١٢٨٥) أصل نشوء الماء الكوني ، مرفقاً بتفسير أخرى داخلية في الفيزياء ؛ فيقول : « وذهبت طائفة منهم (اي المتقدمين من أوائل اليونانيين والحكماء) إلى ان البحر بقية الرطوبة الأولى التي جفف أكثرها (١٢٨٦) جوهر النار ، وما بقي منها استحال لاحتراقه . ومنهم من قال : ان الرطوبة الأولى المجتمعة ، لما احترقت بلوران الشمس وانعصر الصفو منها ، استحال الباقي إلى ملوحة ومرارة . ومنهم من رأى ان البحر هو ما بقي مما صفته الأرض

من الرطوبة المائية لغلظ جسمها ، كما يعرض في الماء العذب اذا مزج بالرماد ، فانه اذا صفا من الرماد وجد مالحاً بعد أن كان عذباً ولنبق في مجال الفيزياء ، لكن هذه المرة ، في نطاق الزمن المستمر الذي ينقضي دوماً تحت بصرنا : وذهب آخرون إلى ان الماء عذبه ومالحه ، كانا ممتزجين ، فالشمس ترفع لطيفه وعذبه ، لخفته . وبعضهم قال : ترفعه الشمس لتغذي به ، وقال بعضهم : بل يعود بالاستحالة ماءً اذا صار بارتفاعه إلى الموضع الذي يحصره البرد فيه ، ويكيّفه . ومنهم من ذكر أن الماء الذي هو اسطقس (١٢٨٧) ، ما كا . منه عن الهواء ، وما يعرض منه من البرد ، يكون حلواً ، وما كان معه في الأرض لما يناله من الاحتراق والحرارة يكون مرّاً . ومن أهل البحث من قال : ان جميع الماء الذي يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرض وبطونها ، اذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة فهو مضاض من مضاض ، والأرض تقذف إليه ما فيها من ملوحة ، والذي في الماء من أجزاء النار التي تخرج إليه من بطون الأرض ومن أجزاء النيران المختلطة ، يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما وتبخرهما ، فاذا رفعا ، للطائف صار منها ما يشبه المطر ، وكان ذلك دأبهما وعادتهما ، ثم يعود ذلك الماء مالحاً ، لأن الأرض اذا كانت تعطيه الملوحة ، والنيران تخرج منها (١٢٨٨) العذوبة واللطافة ، كان واجباً أن يعود إلى الملوحة ، وكذلك يكون ماء البحر على كيل واحد ووزن واحد ، لأن الحر يرفع اللطيف فيصير طلاء ماءً ، ثم تعود تلك الاندية سيولاً ، وتطلب الحدود والقرار ، فتطلب الجدول والغيران ، وتجري في أعماق الأرض حتى يصير إلى ذلك الهور (١٢٨٩) فليس يضع من ذلك الماء شيء ، ولا يبطل منه شيء ، والاعيان قائمة كمنجنون غرف من نهر (١٢٩٠) وصب إلى حفرة تفيض إلى ذلك النهر .

أخيراً ، تلي تفسيرات شبه بيولوجية ، تجمع الكون والعالم الصغير :
« ومنهم من رأى أن البحار عرق تعرقه الأرض لما ينالها من احتراق
الشمس لاتصال دورها . (. . .) . وقد شبه ذلك قوم بأعضاء الحيوان
إذا اغتذت وعلت الحرارة في غذائه ، فاجتذبت منه ماءً عذباً إلى
الأعضاء المغذية به . وعلت ما ثقل منه ، وهو المالح والمر ، فمن ذلك
البول والعرق ، وهذه فضول الأغذية لا عذب فيها ، ولما كانت عن
رطوبات عذبة احالتها الحرارة إلى المرارة والمملوحة ، وان الحرارة
لو زادت أكثر من مقدارها لصار الفضل مرراً زائداً على ما يوجد من
العرق والبول ، لوجود كل محترق مرراً » .

وتتمايز نماذج التفاسير الثلاثة التي يعرضها المسعودي : بالعلاقة
بين الجغرافية والتاريخ بالدرجة الأولى . فالتفسير الأول يرتبط بالزمن
الغابر كلياً ، أي زمن النشوء الكوني ، فيؤول إلى تعيين مدة تحديد وتحديد
نهائياً ، في حين يندرج التفسيران المتبقيان في الزمن المعاش الذي يستمر
يوماً يوماً . ويشمل التفسير الذي يقول بعودة المياه إلى مكانها الاصلية ،
من ناحية ، نظامين ، حسب ادخال عمل حرارة الأرض الباطنية أو
اهماله . فاذا لم تعمل الحرارة عملها ، اعتبرت الأرض مصفاة هائلة ،
فعالة كانت أم غير فعالة . ففي الحالة الأولى ، تنشأ المياه الجارية . وفي
الحالة الثانية ، تتحدى المياه الثقيلة جداً ، المصفاة الطبيعية ، فتتكون
بالتالي الأنهار والعيون من جهة ، والبحار من جهة أخرى . وإذا عملت
حرارة الكرة الباطنية عملها ، يحتمل أن ينجم عن هذه الحالة وضعان
متباينان يلخصان في فرضيتين . ففي الفرضية الأولى ، يعتبر الماء ، وهذا
في اصطلاح الكيمياء الحديثة ، مزيجاً من عنصرين ، ويتجلى عمل
الحرارة في ظهور آثار مختلفة تبخر أحد العنصرين وتحول الآخر (١٢٩١) .

ويشكل الماء في الفرضية الثانية اتحاداً جوهرياً بين عناصر صافية أو مشوبة ، بعضها يتبخّر وبعضها لا يتبخّر . ففي الحالة الأولى ، ينتج الملح عن استحالة الماء العذب ، وفي الحالة الثانية ، يوضع مع الماء العذب من البداية ، ويقتصر عمل الحرارة على الكشف عنه .

ويؤدي الاعتماد على الزمن الكوني إلى إغفال مستقبل الماء العذب ، ويسوخ تحديد مستقبل البحر وحده تحديداً نهائياً ، يجعله لا يتحول ولا يتحرك كالبحر ذاته . بالتالي ، كان لابد ، في هذا المنظور الثابت ، أن تثير المياه الجارية معضلة ، يقتضي حلها ادخال الزمن المستمر أي الدهر الازلي ، نعني زمن البشر وزمن الانهار ، في محاولة تفسير أخرى . ويعرض علينا نظامان ، أحدهما بيولوجي ، كما قلنا ، يستلعي تعليقاً محدوداً فقط . فلا نبرز سوى معادلات لطيف وخفيف ، ومر (مالح) وثقيل ، تسمح بادراج الماء في دورة الاجتذاب بالحرارة الجرمية أو الشمسية : وتفلت المخلفات الثقيلة أي البول والعرق وماء البحر ، من هذا الاجتذاب ، في حين تتغذى الشمس من العناصر اللطيفة الموجودة في الماء ، على غرار ما يحدث في جسم الانسان ، لأنها وحدها خفيفة ، يسعها أن ترتفع إليها .

وتتضح بجلاء تام صورتنا ارتفاع الماء العذب إلى الشمس واغتذاء هذا النجم ، في الفرضية الأخرى ، التي تتضمن تفاصيل جمّة ، وتبدو عويصة أيضاً . فهي تنطوي أصلاً على أشياء كثيرة ، في طليعتها العودة البسيطة إلى الفكرة المثارة من قبل في الزمن الكوني ، نعني فكرة الماء الذي تصوره اتحاداً ، انما في منظور الزمن المستمر . وتعديل نظرية أخرى ، فيما يبدو ، تدخل بوضوح دورة التبخر والتكاثف ، نظرية

اغتناء الشمس ، التي تترك قضية مصير المياه الجارية معلقة . ان كل الأمور واضحة حتى الآن. لكن تنشأ الصعاب عندما يحاول المرء أن يندقق بعض الشيء في جميع هذه النواحي . النقطة الأولى : يأتي الملح من الأرض ، فتعلل به ملوحة المياه الجارية الواصلة إلى البحر ، التي تباح بفضل اجتذاب لعله يرتبط بثباتها في مكانها ، من الملح الذي تقذفه الأرض . لكن يبدو أن المياه الجارية لا تنتظر مرحلة وصولها إلى البحر لتتملح . فهي تتلقى الملح متى وصلت إلى الأرض ، في حين يخرج منها عمل النيران الاضافي العذوبة واللطافة . لكن كيف تفسر عذوبة ماء الأنهار في هذه الحالة ، من ناحية ثانية . يختلط موضوع الماء العذب الذي يرتفع إلى الشمس بموضوع آخر ، يناقضه ويجعله حصيلة عمل الهواء والبرد . أخيراً ، كيف يعرف البحر حقيقة ؟ يقال لنا بأنه خزان هور (١٢٩٢) ، انما هور لا تغذيه مجاري الماء وحدها : ففي باطن الأرض وأعماقها ، تتوفر حركة ماء أخرى ، تعتمد على المفهوم الضمني لمحيط الماء العذب الذي يوازي محيط الماء المالح ، ويشبه وعاءاً مستطرقاً على مستوى العالم ، يؤمن التوازن العام في جميع أنهار الأرض وعيونها وجداولها (١٢٩٣).

مرة أخرى ، لم نل ما نتوقع من التأملات العلمية ، المستوحاة ، في هذه الحالة ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، من ارسطو . مع ذلك ، حذار من السخر منها . فهي تحاول على الاقل أن تفهم مكانة البحر الصحيحة في دورة مياه الماء : فمصنفو الجغرافية يعرفون أن الغيوم والأمطار والأنهار ومجامع الماء المالح داخلة جميعها في كتلة واحدة وتنحصر الأمور المتبقية في ناحيتين خافيتين : اولاهما كتلة البحار الهائلة التي لا تتناسب كما نرى مع جميع الماء الذي تتسنى رؤيته في مكان آخر

على وجه الأرض أو في السماء ، ثم الملح ، هذه المادة الغريبة التي تتكون من أرض وماء أو تؤلف — من يعلم ؟ - - عنصراً بحد ذاته ، يثير ظهوره مشكلة هائلة في فيزياء تلك الأيام . فجهد العالم يستجيب لأمر تلقاه كل مؤمن بأن يعمل التفكير في بناء العالم المثالي . لكن هناك حالات — يدل عليها الرجوع إلى نشوء الكون— ينصب فيها ذكاء الانسان ، لكي يؤدي واجبه تماماً ، في حالة البحر مثلاً ، على واجب آخر ، يقضي بأن يعيد إلى الله لغزه سليماً .

خريطة البحار

أولاً ، يجمع مصنفو الجغرافية على أن الاقيانوس أو المحيط يستدير بالعالم كالحلقة ، وتتصل به جميع البحار المفتوحة . والإشكال ، على حد قول المقدسي ، هو أن نعرف هل تـقلب في المحيط أو تخرج منه . ويميل الاصطخري وابن حوقل إلى الفرضية الثانية ، التي تجعل بحر الروم والبحر المسمى بحر فارس « خليجين » متقابلين يأخذان من البحر المحيط . ويعلن المقدسي صراحة عن تردده الناشيء عن قراءة بعض الكتب ، لكنه يميل في النهاية إلى الحل الآخر ، فيقول ان البحار بالضبط أنهار تجتمع وتصب في المحيط ، بعد أن تضطر ، على غرار مجاري الماء المماثلة لها ، ان تنحدر نحو الجنوب ، حيث علو الأرض أخفض ، وحتى إلى ما هو أبعد أيضاً ، حيث يغور البر تحت الموج (١٢٩٤).

لن أتحدث عن الاقيانوس ذاته من جديد ، لأنه يعود إلى الأرض ، كلها ، وقد تناولته من قبل على هذا الأساس (١٢٩٥) . لكن أشير فقط (١٢٩٦) إلى انه البحر المحيط ، بحر الظلمات ، والأخضر على الدوام ، الذي لا حيوان فيه . حتى ليخال المرء أن التمييز الكبير على اليابسة

بين العامر والغامر (١٢٩٧) . يتكرر هنا في منظور اوسط . يشمل الأرض كلها والحياة التي تنتصر عليها ، وتتحول إلى نقيض نطاق الموت الشاسع ، السائل والملح . ولعل الحياة الوحيدة في الاقيانوس هي حياة الأهوال : فالأسماك هنا طولها « عدة ايام » ، وابليس يتململ في سجنه في جزيرة ساه ، وفيه قبر سليمان . سيد الجن ، يذكر بوجودهم في هذا المشهد الذي لا يصل إليه البشر .

ويبقى الاقيانوس على حدة ، سواء كان منبع البحار أو مصبها ، ولم يدخله المقدسي في جملتها (١٢٩٨) . لكن كم عدد البحار ؟ فالجلد معتمد بشأنها ، ويقال ان العدد يتراوح بين اثنين وسبعة ، بما فيه الاقيانوس (١٢٩٩) . ويوجز كتاب حدود العالم وضع بحار الكرة ويجعلها سبعة : هي البحر الأخضر المسمى المحيط الشرقي ، والمحيط الغربي ، والبحر الاعظم الذي يتاخم المحيط الشرقي ويشمل إجمالاً بحر الهند وخليجانه الخدسة : اي خليج بربرة (عدن) ، وخليج العرب أو القلزم او ايلة (البحر الاحمر) ، وخليج العراق (الخليج العربي الفارسي) ، وبحر فارس (بحر عمان اليوم ، إلى شرق مضيق هرمز) . وخليج الهند (القسم الشرقي من بحر عمان أو البحر العربي بالانكليزية) . ثم يأتي بحر الروم (المتوسط) وبحر الخزر (قزوين) ، وبحر الجزر أو بنطس (البحر الأسود) الذي يتصل ببحر الروم ، وأخيراً بحر خوارزم (آرال) . خلافاً له ، يناقش المقدسي (١٣٠٠) العدد مع شخص وهمي يعترض عليه ، ويورد أدلة قرآنية ، ويخلص صراحة بعد امعان الفكر إلى ان ليس هنالك إلا بحران .

لنقف لحظة عند هذا النقاش لنوجز فحواه . فالقرآن مصدر الرقمين

المنوه بهما ، إذ قال تعالى : « (والبحر يمدده من بعده سبعة ابحر) » ،
الآيسة ، ، وقال أيضاً : « (مرج البحرين يلتقيان) » ، الآية (١٣٠١) .
فماذا أراد الله : يجب المقدسي بأسلوبه الخاص ، من وجه أول ، ان
الألف واللام في لفظ « البحرين » للتعريف . ثم ان الله خاطب العرب بما
يعرفونه ويعاينونه . فذكر « البحر » ، مفرداً في الآية الأولى ، أي بحر
العرب ، الذي يلور على ديارهم ، و « البحرين » في الآية الثانية ، أي
بحر الروم والبحر المسمى الشرقي ، اللذين يلتقيان تقريباً (١٣٠٢) عند
برزخ السويس . اما البحار السبعة ، فيجوز ان يكون اراد بها سبعة من
جماعة (١٣٠٣) . ولم يقل تعالى ان البحار سبعة وانما ذكر بحر العرب
مفرداً ، وقال ولو أن سبعة مثله جعلت أيضاً مداداً ، فيصبح عدد البحار
ثمانية ، باضافة سبعة ، دارت أم لم تدر على ديار العرب الذين كانت
أسفارهم فيها ، وهي ، عدا بحر الحجاز ، بحر القلزم (منطقة السويس)
وبحر اليمن ، وبحر عمان ، وبحر مكران ، وبحر كرمان (بين الهند
وفارس) ، وبحر هجر (حوالي البحرين) .

ولا يلبث الشخص المخالف أن ينتقل من جزيرة العرب إلى العالم عامة ،
فيظهر في النقاش البحر الميت (البحيرة المقلوبة) والبحر الخوارزمي ،
والبحر الخزري (بحيرة طبرستان) والبحر القسطنطيني وبحر الهند وبحر
الزنج (السواحل الافريقية من المحيط الهندي) وأخيراً البحر الشرقي .
اما بالنسبة إلى البحار الثلاثة الاخيرة ، فواضح انه يمكن وان كان المقدسي
لا يذكر شيئاً عن هذه الناحية ، اما ان نلحقها بالاقيانوس ، المستبعد
لوضعه الخاص كبحر محيط ، واما جمعها ثلاثتها تحت اسم البحر
الشرقي ، الذي يدل على أحد البحرين الاكبرين اللذين يعرفهما العرب

ويسافرون فيهما . ويرفض بحر القسطنطينية ، وهو بحر ايجيه بلا ريب ، باعتباره خليجاً من الرومي . اما البحار الثلاثة المتبقية ، فهي بحيرات ببساطة كلية ، لأن من جعل هذه من جملة البحار . لزمه منطقياً ان يجعل بحيرات فارس والرحاب وتركستان بحاراً أيضاً . وخلاصة القول ان البحرين الحقيقيين ، اللذين حددتهما القرآن باداة التعريف (١٣٠٤) وتعرفهما ، هما بحر الروم والقسّم الغربي من بحر الهند .

وهناك رقم هـام ، هو رقم خمسة أبجر موروث عن بطليموس (١٣٠٥) . والبحور خمسة عند ابن رسته ، وهي بحر الهند وفارس والصين ، وبحر الروم وافريقية والشام ، وبحر اقيانوس ، وبحر نيطس ، وبحر طبرستان وجرجان . اما ابن الفقيه (١٣٠٦) ، فيعدد أربعة بحار ، هي البحر الكبير ، والبحر المغربي الدبوري الرومي . والبحر الثالث الخراساني الخزري ، والرابع ما بين رومية وخوارزم وفيه جزيرة توليه (١٣٠٧) . ويتردد المسعودي (١٣٠٨) بين خمسة وستة وسبعة ، ويتوقف لحظة عند الستة ، فيذكر بحر مانطش ، ثم يؤكد أن جميع هذه البحار متصلة ، وتؤلف بحراً واحداً هو الاقيانوس . اما اخوان الصفا ، فيذهبون في البدء إلى ان عدد البحار سبعة ، ويتوصلون إلى هذا الرقم باتباع تقليد ابن الفقيه ذاته (بحره الرابع يسمى بحر الصقالبة) ، وينقسم البحر الشرقي إلى أربعة بحار هي بحر القلزم وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين . لكنهم يترددون هم أيضاً . ويعودون فيما بعد إلى الرقم اربعة ، فيستبدلون بحر الصقالبة ببحر ياجوج وماجوج ، ويحذفون بحر الخزري ، ويقسمون البحر الشرقي . في غربه وشرقه ، إلى بحري الزنج وزابج ، أي بحر افريقية الشرقية وبحر جزر السوند (١٣٠٩) .

ونتساءل مرة أخرى : ما هو العدد الصحيح ؟ الله أعلم ، بلا أدنى ريب . فيما عدا ذلك ، يصطدم التقليد الكتبي ، البطلميوسي او سواه ، بظاهرة اتساع البحر ، لأنه يمتد ، لا على مستوى أحد البلدان ، بل على مستوى الكرة ، المستديرة الشكل مثله . التي يغطي خمسيها ، ولا يعد المرء خمس عشرة ليلة من أي موضع شاء . الا يصل إلى البحر ان شاء في شرق اليابسة (١٣١٠) وان شاء في غربها . طبعاً ، يحار العلم حيال هذه العظمة ، ولا بد له ، لكي لا يضيع ، ان يعود إلى الآفاق القريبة . فيصير بحر البشر في النهاية البحر الذي يطلق عليه اسم البلدان الواقعة على سواحل (١٣١١) ، بخاصة اذا كانت مواطنهم أو على الأقل يعرفونها ويرتادونها كثيراً . فبحر دار الاسلام الأول ، بلا منازع ، بشتى أسمائه ، هو القسم الغربي من بحر الهند ، من مشارف باكستان الحالية إلى افريقية الشرقية ، مع امتداديه بحر القلزم والخليج . وبحرها الثاني هو بحر الروم ، الذي يجب تحديده من هذه الناحية ، تحليداً غربياً : فينبغي اعتباره أولاً ، بالمعنى الضيق ، واستبعاد ملحقاته أي بحر ايجيه والمضايق والبحر الاسود وبحر آزوف ، الخارجة عن سلطة دار الاسلام ، ويتحتم بعد ذلك تقسيم الحوضه الباقية ذاتها مناصفة باتجاه شرقي غربي : فيصير هنا بحر دار الاسلام بحر الروم الجنوبي ، في حين يخرج بحر الروم الشمالي عن تبعيتها وتجهله (١٣١٢).

ونبدأ ببحر دار الاسلام هذا . فأولاً ، ما اسمه ؟ سمي بحر الشام ، (أو بحر الشام أو البحر الشامي) ، أو البحر الغربي (١٣١٣) ، أو بحر مصر ، أو بحر الروم ومصر ، وفي أغلب الاحيان البحر الرومي : وهذا يعني أن آخرين يمتلكونه أو على الأقل ان دار الاسلام لا تمتلكه كله . ويخرج من الاقيانوس ، المسمى هنا بحر اصنام النحاس ، ويوسع أحياناً إلى ما

وراء سواحل الأندلس والمغرب ، فيعتبر البحر القريب من هذه الشواطئ أحد خلجان بحر الروم . مع ذلك ، وعلى وجه العموم ، يعتبر الجغرافيون العرب (١٣١٦). كما نعتبر نحن ، ان بحر الروم يبدأ من مضيق جبل طارق . فما هي هيئته بعد ذلك ؟ يدرك المقدسي جيداً جداً أنه يخرج من المحيط عربضاً مباشرة ، ثم ينخرط ويضيق عند صقلية ، أخيراً يعود فيعظم إلى تخوم الشام . اما الاصطخري وابن حوقل ، فيميزان أحياناً بين البحر المغربي في الغرب وبين بحر الروم في الشرق (١٣١٧) . ويتصور مصنفون آخرون شكلاً أقل تقطعاً وأكثر انتظاماً (١٣١٨) ، يتوزع حول محور تناظر ، وينطلقون من هيئته مضيق جبل طارق الذي يشبهه بعنق دبّاء أو رأس مخروط أو رأس صنوبر (١٣١٩) . مهما يكن ، يدرك امتداده جيداً من جبل طارق إلى بحر آزوف ، على الأقل عند بعض الجغرافيين . ويضمخ هذا الامتداد أحياناً : فابن الفقيه يختار نقطة ارتكاز شرقية ويقول : وبحر الروم من انطاكية إلى القسطنطينية ، ثم يدور آخذاً من ناحية الدبور حتى يخرج خلف الباب والابواب من ناحية الخزر . . . حتى يبلغ الأندلس . . . إلى جزائر السعادة ، في الأقيانوس (١٣٢٠) . مع ذلك ، يشك في صحة الأبعاد أكثر من أي شيء آخر : فطول بحر الروم ضويف في الحد الأدنى واربى ، فحول بحر الروم إلى بحر كبير جداً (١٣٢١) . وتبقى رغم هذه الشكوك ، صورة مجمع ماء مغلق متصور بين مضيق جبل طارق والقسطنطينية : ويقول ابن حوقل بشيء من الشك بالنسبة إلى الشمال ، لو ان امرأة سار من بلاد الأندلس (من سبتة وطنجة) مؤملاً ان يعود إليها ، لدار على جميع بحر الروم ، من حيث لا يمنعها مانع إلا نهر يلقي إليه أو يفرغ فيه أو خليج القسطنطينية وجبل

طارق (١٣٢٢) ، ويمر ببلاد الاسلام وبعض بلد الروم ، وايناس ، وقلورية ، وانكبرذه ، وافرنبه .

ولنستعرض الآن المشاهد بمزيد من التفاصيل من الغرب إلى الشرق .
فعند مضيق جبل طارق ، أو المضيق باختصار ، الواقع بين رأس اشبرتال ورأس الاغر ، المسميين جبلين ، اذا عاين المرء أحد البرين تراءى له الآخر . لكن لعل المشهد الحقيقي هو مشهد التاريخ الاسطوري ، عندما كان بين الأندلس وبين الخضراء ، قنطرة مبنية بالحجارة والطوب ، وكان ماء البحر يمر تحت تلك القنطرة متقطعاً خلجاناً صغاراً تجري تحت قناطرها ، وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صم ، وقد عقد من كل حجر إلى حجر طاقة ، ثم لم يزل البحر يزيد ماؤه حتى علا القنطرة ، فغارت فيه ، وربما بدا موضعها لاهل المراكب تحت الماء ، فيقولون هذه هي القنطرة (١٣٢٣) . وهناك ذكريات أخرى : منارة النحاس والحجارة التي بناها هرقل الجبار على أعلاها الكتابة والتمائيل مشيرة بأيديها ان لا طريق ورائي ، وكأنها تقول هنا نهاية عالم البشر (١٣١٤) .

وتتشوش الطوبوغرافية بعد ذلك ، على الاقل من جهة الشمال . ولا ريب أن موضع شبه جزيرة ايطالية معروف في بحر الروم ، انما من بعيد جداً : فقد قيل لنا بأن خليجاً يخرج من بحر الروم إلى أرض نربونه (طوله مائتا ميل) وان خليجاً آخر ، طويلاً جداً (٥٠٠ ميل) ، يسمى ادرس أو اذريس ، لا يفرق أحياناً بينه وبين مضيق مسينه ، يتجه إلى ناحية الشمال قريب من الرومية (١٣٢٥) ، ثم يسترعي الانتباه إلى برزخ السويس ، الذي جاء ذكره في القرآن ، مثلما قلنا . ويفصل

بحر الروم عن البحر الشرقي . وقد أشير إلى محاولات قديمة لوصل بحر الروم ببحر القلزم ، وذكر ان طريقاً حفرت بينهما : وان خليجاً آخر سهل نقل احمال مراكب أحد البحرين إلى الآخر ، وان بعض المسؤولين فكروا بوصلهما بالنيل . وباءت جميع تلك المشاريع بالفشل في النهاية ، لارتفاع القلزم وانخفاض بحر الروم (١٣٢٦) ، وان الله قد جعل ذلك حاجزاً .

أما في الشمال ، فلا يفرق جيداً بين خليج القسطنطينية (بحر إيجة) وبين المشارف الخرافية نوعاً ما للقسطنطينية ومنطقة المضائق التي لا تنفصل عن ذكرى محاولات الفتح الأولى وعن حلم الفتح المستمر اليائس . فهنا يبدأ بحر جديد ، لا تغامر سفن دار الاسلام بولوجه ، وهو بحر الروم الذي تحدثنا عنه من قبل (١٣٢٧) . ونبرز فقط أن بعد المدينة المنية وبعد البوسفور ، يقع بحر بنطس (أو بحر ارمينية البحر الاسود أو بحر البونت) ، ثم البحر الملحق به أي بحر مايطس أو بالوس مايوطس (بحر آزوف) الذي يفصله عنه خليج بنطس (قناة البونت أو مضيق كرتش) وأتماره ، أي دنايه (الدانوب) وتنايس (الدون) (١٣٢٨) . والقضية الكبرى هي ان نعرف ما اذا كان بحر مايطس هو الطرف الأقصى لشبكة بحر الروم من هذه الجهة ، أو انه يفتح بدوره على آفاق أخرى . ويقال إن هذا البحر (مايطس) عظيم (١٣٢٩) ، فتلتهب المخيلة وتجعل بحر بنطس يجيء من بحر الخزر . ويدحض المسعودي هذا الرأي في النهاية ويشرح انه ناشيء عن أن نهر الخزر (الفولغا) يتشعب إلى فرعين يذهب كل منهما إلى أحد البحرين (١٣٣٠) . ونذكر مصباً آخر غربياً جداً : اذ يقال ان بحر مايطس في طرف العمارة من الشمال وتحت القطب الشمالي ، ويقرب منها مدينة تولية (١٣٣١) ، ولم يبق

إلا خطوة لكي تتصل عند هذه العروض الخيالية ، ببحر اقيانوس الذي يطوف من هذه الناحية بالبرور البارزة (١٣٣٢) .

وسواء اكتنفت الاسرار بحر الروم أم لم تكتنفه ، فانه محصور بين الجبال . بخاصة في طرفيه عند جبل طارق وامبراطورية الروم (١٣٣٣). ويختلف عن البحر الشرقي . ببحر السهوب ، بسواحله العامرة والمزروعة (١٣٣٤) . مع ذلك لابد ان نذكر ان الروم أسياذ هذا البحر وأسياد جزره وسواحله التي يهاجمونها الفينة بعد الفينة ، على الأقل في شرقها (١٣٣٥) : « وقد ألح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر ، فهم يختطفون مراكبهم من كل اوب ، يأخذونها من كل جهة ، ولا غياث ولا ناصر . ومن للمسلمين بناظر : والمملك فيهم هامل شاغر ، والمملك جماع مناع ، والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتي بالباطل على ما يبلع ، ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والفقيه ذئب ادرع ، في كل بليسة يشرع ، وبكل ريح يسري ويقلع ، والتاجر فاجر مستقع ، لا يعاف حراماً ولا مطمعاً ، والديار والأعشار بيد الأعداء متسلمة ، والاملاك مختصة بمضطلمة ، والأرض من أربابها إلى الله تعالى متظلمة » .

لنقطع برزخ السويس ، لنصل إلى البحر الكبير ، وهذا البحر هو البحر الشرقي أو البحر الحبشي ، أو بحر الهند . وتوقع تسمية بحر الهند في الالتباس ، لأنها تدل أيضاً ، بوجه أدق ، على قسم من بحر الهند يمتد إلى شرق مضيق هرموز (١٣٣٧). مهما يكن ، من خلال الفاصل بين سواحل فارس وسواحل الهند ، ورغم تضادهما في شؤون الملاحة ، نجد أننا نتصور وحدة المجمع المائي البحري الشاسع . او « الماء الواحد

المتصل « من دار الاسلام إلى افريقية وإلى الصين . وأبعد منها ، إلى الاقيانوس (١٣٣٨) . في النهاية ، يقسم هذا المجمع المائي ، حسب البلدان المحاذية له ، التي تعطي اسمها إلى البحار الثانوية التالية : خليج ايله ، بحر القلزم أو بحر جلد و مصر (البحر الاحمر) (١٣٣٩) ، الخليج البربري أو بحر عدن (١٣٤٠) ، بحر الزنج (سواحل افريقية الشرقية) ، الخليج الفارسي أو بحر فارس (الخليج العربي الفارسي) (١٣٤١) ، بحر الهند أو الخليج الأخضر (١٣٤٢) . ونعود إلى بحر الهند لنقول انه البحر الذي أشرنا إلى الشك في حدوده ، وينازعه أحياناً بحر فارس على حيزه الذي يمتد بعيداً إلى الشرق إلى قرب سرنديب (١٣٤٣) . من جهة أخرى ، بعد سواحل مهران ، أذن خارج تبعية دار الاسلام ، تطلق أسماء أخرى على هذا البحر الشاسع : بحر لاوري ، بحر هر كند ، بحر كلاه ، بحر كردنج ، بحر الصنف ، وأخيراً بحر الصين الذي يدعي أيضاً بحر صنخاي (١٣٤٤).

ويرى الجغرافيون العرب أن يقسموا البحر الشرقي انطلاقاً من جزيرة العرب . لأنه يحصرها بين خليجين من خلجانه . ومن هنا اطلاق اسم الجزيرة (١٣٤٥) عليها . بالمقابل ، وصفه المصورون وشبهوه بعليلسان أو طير ، منقاره بالقلزم وعنقه بالعراق ، وذنبه بين الحبشة والصين (١٣٤٦) . مهما يكن ، توحى رحله بحرية فيه حول جزيرة العرب بأشهر الاماكن فيه . ففي أعلى بحر القلزم ، يقع موضع جيلان ، « لجة القلزم » وفيها تسير المراكب في العراض لترجع من البر الغامر إلى البر العامر ، ثم رأس شبه جزيرة ومضائق تيران (فاران) : وهو موضع تهب منه الرياح من كمي شعبي بحر القلزم (شعبة القلزم وشعبة ايله) المتقابلتين ، فتتلف السفن أو تضطرها ان تقيم في مكانها مدة

طويلة إلى وقت الفرج . وترتبط هذه الأماكن بذكرى تاريخية :
فتاران هو الموضع الذي غرق فيه فرعون أثناء لحاقه بني اسرائيل (١٣٤٧).
يلي اليم الحقيقي ، المتطاول كالوادي الذي تنتشر فيه جبال تظهر جزراً
وعرية ، تضطر البحارة إلى أخذ الاحتياطات وإلى اليقظة المستمرة (١٣٤٨)
ويسمح المندم (باب المنذب) ، أو الدوارج (١٣٤٩) بالانتقال إلى عرض
البحر . الذي يتلجج ، فترى فيه الأمواج كالجبال الراسيات . لكن هل
صحيح ان هذا الاقيانوس ، البحر المظلم ، الذي تقوم على مشارفه
جزيرة اسقوطرة الرهبة كأنها صومعة ، وهي سد البوارج ، ومنهم
تحاف المراكب ولم تزل في هلع حتى جاوزتها (١٣٥٠) . ولا شيء
اوضح من التضاد بين هذه الباحة التي تتلاطم أمواجه على سواحل
جزيرة العرب الجنوبية وبين « اللسانين » (١٣٥١) اللذين يصلان إلى
شواطئها الاخرى ، وهما معروفان تماماً ، ويستطلعان يومياً ومألوفان ،
لأن بحر فارس يقابل بدقة ، من نواحي كثيرة ، قرينه في الغرب :
فله صعب مماثلة من جراء تياراته أو عريه ، بخاصة على مقربة من
العراق (١٣٥٢) . وله معارج ، يدخل في البر ويدخل البر فيه (١٣٥٣).
أما الأماكن الشهيرة هنا ، فخليج هرموز الذي يعرف بالخير ، والخليج
الذي تقع في أضعافه فرضتها (١٣٥٤) ، ثم الجبال المنيعه وفيها قلعة
ابن عمارة التي تراقب مرور السفن (١٣٥٥) وتستوفي منها العصور .
وأخيراً مغاصات اللؤلؤ (١٣٥٦) ومخاطر الملاحة التي أشرنا إليها .
ويتميز المشهد العام ببحر ماؤه غاية في الصفا (١٣٥٧) ينتهي إلى مفاوز
خالية وبرية مقفرة (١٣٥٨) ، وله معارج متلسنة وشعب عدة (١٣٥٩) .
وليس لبحر الروم هذه الخصائص ، كما قلنا ، بل يمتد مستطيلاً بين
شواطئ عامرة ومزروعة . ثم ان اللؤلؤ يخرج من البحر الصيني

والمرجان من الرومي (١٣٦٠) . ولهذا البحر مد وجزر ليس لبحر الروم مثله من الجانب الآخر البرزخ السويس (١٣٦١) . وهو مفضل وفيه ملاحه كثيفة (١٣٦٢) رغم عوائقها .

وبحر الخزر مجمع ماء مغلق . وقد أشرنا من قبل إلى الرفض النهائي لنظرية اتصال بحر مايطس به . ولا يطرح المقدسي موضوع أصلاً ، وهو الجغرافي الرحالة (١٣٦٣) ويؤثر القطب الشمالي في المخيلة تأثيراً عظيماً أحياناً حتى ليظن ان بحر الخزر يأخذ إلى الاقيانوس خلافاً لما قيل عن بحر مايطس (١٣٦٤) . وفيما عدا ذلك ، سواء اعتبر بحراً أو بحيرة ، فاسمه يشق من أسماء البلدان او الاقوام او المدن القائمة على سواحله : في الشمال : الخزر ، في الغرب : باب الابواب (دربتد) ، في الجنوب : جيلان ، ديلم ، طبرستان وجرجان وأخيراً الاعاجم (١٣٦٥) ومن الناس من يسميه أيضاً البحر الخراساني ، رغم بعد خراسان ، لاتصاله ببلاد خوارزم من ارض خراسان ، على حد قول المسعودي لتبرير هذه التسمية ، دون اعطاء تفاصيل أخرى تبين كيف تقع خراسان على بحر الخزر (١٣٦٦) ولا قيمة لهذا التفسير ، لأن بعد خوارزم عن بحر الخزر لا يقل عن بعد خراسان عنه ، ثم ان خوارزم اعطت اسمها إلى بحر آرال . ولن نضيف شيئاً سوى اننا نخشى أن يحصل التباس بين البحرين (١٣٦٧) ، وان يسهله على الارجح تعرجات نهر جيحون (اموداريا) في مجراه الاسفل (١٣٦٨).

ويسعنا اعتماداً على النصوص الجغرافية . ودون أن نعرف الواقع الذي تبقي تلك النصوص أمينة له (١٣٦٩) ، ان نميز بحري خزر في هذا الاتجاه أو ذاك : ففي الشمال ، يمتد بحر خزر المقازة الغزية ، وفي

الجنوب . بحر خزر تنكسر أمواجه على الحاجز الجبلي . ويحتكر المشهد الساحلي كله بما فيه من ذباب هنا وهناك . واذا رسمنا الآن قطراً يذهب تقريباً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، نحصل عن اليسار على الخريطة ، على عمارة وزروع وقرى وهذا بحر قزوين دار الاسلام . ونحصل عن اليمين على بحر خزر المفاوز . التي يسكنها خزر نهر اتل وطائفة من الأتراك الغزية ، الناشب خوف بينهم وبين الغزية . مع ذلك ، يشكل بحر الخزر ماءً واحداً ، يتميز بخصائص فريدة . ففي حوضته الواسعة ، التي يتبدل عمقها تبديلاً هائلاً ، تصب أنهار عظام هي اتل والكر الذي ينضم إليه نهر (اراكس) ، يضاف إليها أنهار نازلة من الجبال الجنوبية . وقد نتوقع بالتالي ان يكون بحيرة كسائر البحيرات إلا أن التربة السيئة تجعل مياهه مالحة . وهو بحر مظلم تهيجه الرياح ، وقعره طين ، لا مد فيه ولا جزر ، ومياهه ملمعة (١٣٧٠) وأحياناً وحشة والسفر فيها صعب . لذلك الملاحة فيها نشيطة جداً ، خاصة انطلاقاً من فرضية ابسسكون الجنوبية ، وهي خطرة تتم بمراكب كبيرة مقيّرة ومسمرة معاً . وجملته القول إنه بحر لا يرحب بالبشر ، وليس فيه جزر مسكونة فيها عمارة ، وما فيه من جزائر ، فيه دواب وحش فقط ، ويرتفع منه القوة ويخرج اليها من البر (١٣٧١) ولا ينتفع منه بشيء سوى السمك ، ثروته الحقيقية المضمونة والدائمة ، نعي انه لا يستفاد منه ومن سواحله ما يستفاد منه في أماكن أخرى : أي اللؤلؤ والمرجان والعنبر . ثم إن نوعاً من أسماكهِ ، نعي التنين الشهير ، رهيب ، وسنعود إليه فيما بعد (١٣٧٢) .

لننه رحلتنا البحرية بسرعة بالحديث عن بحر آرال ، المسمى بحر خوارزم أو بحر كردر أو بحر جيحون (١٣٧٣) . فهو مغلق تماماً ،

ويعتبر بحيرة لا بجرأً ثم إنه يطلق عليه اسم بحيرة دوماً تقريباً (١٣٧٤)، إنما بحيرة هائلة ، تغذيها مياه نهري آسية الوسطى العظيمين، جيحون (اموداريا) ، وسيحون (سرداريا) . ويقع في وسط سهوب ، ترعى فيها قطعان الغز البدو.فليس له سواحل مزروعة إلا في ناحية الجنوب، وفي أعلى مصب جيحون أيضاً ، حيث تقع واحة خوارزم . والسر العظيم هنا ، ليس البرد الذي يستمر حتى الصيف ، مع الكتل الجليدية في أدغال القصب ، بل الملوحة وكمية المساء الثابتة رغم صيب نهري هائلين بالنسبة إلى أبعاد البحيرة ، حتى لو كانت هذه الأبعاد كبيرة، كما قلنا ، ومن هنا الرجوع إلى فرضية اتصال باطني هذه المرة ، ببحر الخزر .

البحيرات : محاولات تصنيف وخريطة ومشهد

ما هي البحيرة ؟ رأينا من قبل الشكوك المتعلقة بتعريفها . لنقل إجمالاً إن مجمع الماء ، ملحاً كان أم عذباً ، يعتبر بحيرة عندما يتحقق فيه شرطان ، كل شرط منهما لازم وحده لكن غير كاف . الشرط الأول انغلاق المجمع تماماً ، أو على الأصح ، انعدام اتصاله بمجماع الماء الأخرى إلا اذا كانت روافد . الشرط الثاني المساحة الواسعة التي تكفي لتكوين بحيرة حقيقية ، تحدد بطريقة يمتنع معها ادخالها في عداد البحار ، مثلما حدث بالنسبة إلى بحر قزوين .

وقد ورد في كتاب حدود العالم (١٣٧٥) نص فريد ، وحيد من نوعه ، حاول فيه المؤلف أن يصنف البحيرات ، ويعرضها عرضاً منهجاً . فميز أولاً البحيرات المالحة، وعددها إحدى عشرة بدقة، عن البحيرات العذبة التي لا حصر لعددها لكثرتها ، ثم قسم البحيرات

العذبة إلى فئتين : فئة البحيرات العذبة الشهيرة جداً التي يسمى سبعة منها (١٣٧٦) والبطائح ، المعروف منها تسع فقط . وفئة البحيرات العذبة الصغيرة ، الأقل شهرة ، التي توصف أو تذكر عند وصف هذا البلد أو ذاك ، ولا يعرف عددها الاجمالي ، ونجف أحياناً . اما فيما يتعلق بمساحة البحيرة ، فان كتاب حدود العالم يعطينا أساساً يمكننا من اعتبار البحيرة صغيرة متى كان طولها فرسخاً واحداً ، أي ما يقرب من ستة كيلو مترات ، وعرضها نصف فرسخ أي ما يقرب من ثلاثة كيلومترات . ويوحى لنا باقتراح آخر تعبير خاص بهذه البحيرات الصغيرة ذاتها ، لم يؤخذ به في العرض العام ، لأنها ، كما يقال ، « ليست شهيرة ولا قديمة » : وهكذا يحتمل أن يكون المؤلف قد اراد دعوتنا إلى استبعاد فئة مجامع الماء الواقعة وراء السلود (١٣٧٧) . أخيراً ، نشير إلى كثرة الاسماك في جميع بحيرات وبطائح المياه العذبة ، وهذه خاصة مشتركة بينها جميعاً .

ولابد من إيضاح التفريق بين البحيرة والبطيحة وقد قلنا ان النص المعتمد عليه لا يدقق في أسس اجرائه ، ونحن نعلم أن ماء البطائح عذب دائماً خلافاً لماء البحيرات . ولا شيء يميز هاتين الفئتين من النواحي الأخرى : اذن لدينا في الحالتين مجامع طبيعية ، كبيرة أو صغيرة ، دائمة (وغنية بالسماك بالتالي) أو مؤقتة ، شهيرة أو غير معروفة . وكنا سنقف عند هذا الحد ، لولا أن النص الفارسي في كتاب حدود العالم ، لم يستعمل ، ليدل على الغيضة ، لفظ بطيحة العربي ، الذي يطلق بخاصة على غياض سواد العراق (بطائح السواد) ، الشهيرة والواسعة . فاذا صح ، كما يخطر ببالنا ، انها اعتبرت ضريباً نموذجاً ، فان الفرق بينها وبين البحيرة يتضح تماماً (١٣٧٨) . ففي البطيحة تتناوب المياه واجمات القصب التي تشق السفن طريقها بينها لتستمر في جريها .

بالتالي . فيما عدا السواحل (١٣٧٩) على الأصح . تتميز البحيرة عن البطيحة بأن سطحها خال من القصب والنباتات المائية الاخرى . لكن يدل وجود النبات في وسط مجمع الماء دلالة واضحة على خاصية ثابتة للبطيحة : نعي ضعف عمقها العام . وقد قيل في الحديث عن البطيحة بأن السفن كانت تخفف حملها لتجري في هذه المياه الرقيقة . فهنا لا يصاغ الفرق بين البحيرة والبطيحة بتضاد بسيط خالص : فبعض البحيرات الصغيرة ضعيفة العمق أيضاً اذ يقال ان بعض البحيرات الصغيرة تجف أحياناً . اذن نقول يجوز أن تكون البحيرة عميقة أو رقيقة ، انما البطيحة لن تكون أبداً عميقة . وعلى وجه الاجمال ، نقول في الختام : البطيحة نوع من البحيرات ماؤها دوماً عذب ودوماً ضعيف العمق ، ولا يخلو سطحها من النباتات .

فما هي هذه البحيرات في دار الاسلام ؟ نعلم مرة أخرى على مصنفات الجغرافيين العرب الذين يتناولون دار الاسلام بخاصة ، أكثر مما نعود إلى كتاب حدود العالم ، الحريص على وصف العالم بالإجمال (١٣٨٠) ، لاسيما الى ابن حوقل والمقدسي . وتميز الخريطة عندهم ثلاثة بلدان ، في طليعتها البلدان التي تنلر فيها البحيرات أو لا تعرف أصلاً . وينطبق هذا الكلام على أرجاء كاملة من دار الاسلام: في جزيرة العرب ومفازة فارس الكبرى طبعاً (١٣٨١) . أما في المغرب ، فلا أورد هنا إلا بحيرتين تتصلان بالبحر : هما بحيرة بنزرد ، وفي الغرب المغربي بحيرة آريغ التي يركب فيها أهل البصرة ويشحنون (١٣٨٢) فهل نعتقد أن المشهد يتغير في مصر ؟ في الواقع ، كما رأينا في الفصل السابق (١٣٨٣) ، لا يسعنا في بحثنا أن نفصل بحيرات الفيوم والدلتا عن وصف النيل ، لأنها من صميم النيل ، بأحد أشكاله ، المنبسطة ، المتهداية ،

وبإشارة إضافية ، ان لزمّت ، بزيادة عرض النهر . وبما أن النيل يتصل اتصالاً وثيقاً بنهر مهران ، نجد في أقصى مشرق دار الاسلام ، بطائح مياهها من مياه مكران وعليها الزط (١٣٨٤) . ويسعنا أن نكرر القول فيما يختص ببطائح العراق (١٣٨٥) ، في سياق كلامنا عن الزط . فالعراق ليس بلاد بحيرات ، لا هو ولا مصر أو السند ، ولا أيضاً الجزيرة التي يشير ابن حوقل إلى وجود جزيرة صغيرة فيها ، بديعة فعلاً ، واقعة على يسار نهر الفرات (١٣٨٦) ، تدعى المنخرق . وليس حظ بلاد السغد بأفضل من غيرها ، والبحيرتان فيها نهريتان : ويسقي ماء نهر زرفشان (نهر السغد) بلد سمرقند ، وينشأ من جبال البتم (الأوسط) من بحيرة جن أو دروازجه (١٣٨٧) ، ويغيض في آقازاي بيكند ، وهو بطيحة ماء عذب في مفازة بخارى (١٣٨٨) .

وفي جميع الأحوال ، لا يسع البحيرة ، سواء كانت غير موجودة أو نادرة أو ضائعة في الشبكة المائية ، ان تتطلع إلى تبوء مكانة فريدة بين خصائص أي بلد بارز : فبطائح العراق ذاتها ، المعروفة كظاهرة غربية ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنهرين الكبيرين اللذين لولاهما لما وجدت لكن ينعكس الوضع متى تعاضمت مساحة البحيرة وكان لها ظروفها الخاصة . وينطبق هذا القول على الشام ، حيث تعتبر بحيرة طبرية والبحر الميت ، رغم وجود نهر الأردن ، كما في الفصل السابق ، مجسعين مائتين منفردين ومتمايزين (١٣٨٩) . ويزداد الوضوح في حالة سجستان (١٣٩٠) ، اذ ليس لديه سوى بحيرة واحدة (زره) هائلة . ولا شك ان وجودها وحجمها أيضاً مرتبطان بنظام الأنهار التي تتلقاها والواقع أن لها عدة أنهار (١٣٩١) تغيض فيها وتتحول ، مما يدفع إلى

اعتبارها ليس مغيضاً فحسب ، بل مجمع ماء خاصاً قائماً بذاته : يرتفع منها سمك كثير وقصب (١٣٩٢)، وحواليها كلها قرى وعمارات . والتضاد من الناحية الأخرى بين الماء العذب والمفازة الوحشة . وحتى اتساع البوادي أخيراً (١٣٩٣) . كل هذه خصائص ترسم صورة أصيلة لبحيرة زره (١٣٩٤) ، ومن خلالها منظر أساسي لمشهد من الأرياف .

لنأخذ الآن نحو ارمينية واذربيجان . ففي ارمينية بحيرة وان . المسماة عند مصنفى الجغرافية: بحيرة خلط أو بحيرة ارجيش . باسم المدينتين الواقعتين على شواطئها (١٣٩٥) ، التي يخرج منها سمك صغار يملح ويحمل إلى أصقاع الشام وفي أطرافها ملح البورق ، وفي جبل في جنوبها مقالع الزرنج . ويكون طولها بضعة عشرة فراسخ . على حد قول ابن حوقل ، أي بضعة ٥٧ كم (١٣٩٦) . وأشهر منها أيضاً بحيرة ارمية في اذربيجان ، وتعرف أيضاً ببحيرة كبوذان أو تلا أو بحيرة الشراة أو أيضاً بحيرة الشاهة نسبة إلى إحدى اشباه الجزر (١٣٩٧) . وهذه البحيرة كبيرة أيضاً . فمن أبعادها الحقيقية البالغة ١٣٠ كم طولاً و ٤٠ كم وسطياً عرضاً ، جعل طولها أربعة أيام بسير الدواب أو ٥٠ فرسخاً (حوالي ١٩٠ كم) من الشمال إلى الجنوب ، وجعل عرضها من الغرب إلى الشرق ٢٠ أو ٣٠ فرسخاً (أي ١٥٠ - ١٧١ كم) . وتتوزع اللوحة بين خصائص البحيرة الملائمة وغير الملائمة . فمن جهة ، حواليها من جميع جهاتها عامر ، على ما استدارت ، قرى ورساتيق ، وفي وسطها جبال مسكونة مأهولة . وسكانها أصحاب المراكب ونواتيها المختلفون بالأمثلة والركاب بين شطبيها . لكن ثمن مدة الحياة باهظ . ففيها أمواج عظام في الشتاء وعواصف وغرق يضيف معائب كباراً إلى

شظف عيشهم . وأهل الجزر في بحيرة ارمية يحييون مأساة أفلح ، اذ يضطرون ان يربطوا ارجل الصبيان بالسلاسل والحبال كي لا يتدحرجوا إلى البحيرة (١٣٩٨) . أخيراً لا يتكون ذو روح فيها أيضاً ، فيما عدا الديدان والقنادس (١٣٩٩) .

بقي علينا أن نتحدث عن بلدان البحيرات بالمعنى الصحيح . ونقصد هنا العدد لا الحجم : لا بحيرة واحدة أو بحيرتين كبيرتين ، بل عدداً كبيراً ، لا يحصى أحياناً ، يطبع البلد بسمّة طريفة . ولا حاجة إلى تسمية تلك البلدان : فيقال بأن الحاجز الجبلي كله في جنوب بحر الخزر مليء بمجامع الماء دون ان يعين اسم واحد منها (١٤٠٠). ولعل من يعترض ويقول : يتحدث كتاب حدود العالم عن البحيرات في هذه الحالة ، في حين لا يشير ابن حوقل الذي يكرر الاصطخري إلا إلى الغياض . لكن هالك اقليماً كاملاً ، لا يجوز فيه شك ، نغني فارس (١٤٠١) . وتتوالى فيه البحيرات حسب الكور أو المناطق الكردية ، اذن فيه خمس بحيرات (١٤٠٢) : هي بحيرة دشت ارزن ، وبحيرة كازرون (أو أيضاً بون ، توز ، مور أو موز) ، وبحيرة جنكان ، وبحيرة البختكان ، وبحيرة الباسفوية (أو الجوبانان) . والبحيرة الأخيرة ليست في الواقع سوى قسم من البحيرة التي قبلها الأكبر منها بكثير (١٤٠٣) . وبحيرة دشت ارزن وحدها عذبة . وتحيط القرى والعمارات بها جميعاً ، وان كانت الوحوش ترتاد شواطئها أحياناً . وكل بحيرة مركز كورة تكفي نفسها بمواردها : فهنا البردي والخلفاء ، اللذان يصنعان ويصدران ، وهناك الملح والسماك في جميعها تقريباً ، يستهلك محلياً أو يصدر أيضاً . أخيراً هنالك بعض الحصائص الفريدة : فنهر الكر يصب في بحيرة بختكان (١٤٠٤) ، وبحيرة دشت ارزن تتبدل كثيراً : فريما امتلات

ففاضت ، وربما جفت ، وشواطئ كازرون متعرجة كثيراً . وفي أطراف الباسفوية آجام كثيرة ، وعليها دير الباسفوية النصراني . فهل يتسنى أن نشكل مشهداً بحيرياً من جميع الخصائص المتفرقة؟ فأولاً تنقصنا بعض النواحي : فلم يقل لنا شيء عن الألوان — ونكتفي بهذه الناحية — إلا بالنسبة إلى بحيرة المنخرق ، التي فيها ماء أزرق (١٤٠٥) كالزجاج الملوح . وتكمن الصعوبة في المعطيات المتناقضة في معظم الأحيان . فالبون شاسع مثلاً بين البحيرات القليلة العمق التي تجف وبين بحيرة المنخرق التي لا يعرف قعرها فيما يبدو لأنها اعتبرت بمائتي ذراع حبال بمثلقات ، فلم يوجد لها قرار . وماذا عن بيئتها ؟ وقد تيسر لنا معارضة البحيرات المحاطة بالحيال : كبحيرة طبرية أو ارمية بالبطائح الواقعة في وسط الأراضي المنبسطة ، أو وحشة المفاوز بالقرى والعمارات التي تحيط بها ، والضيق في إحدى البحيرات وبلدها هنا بالبهجة والسلام والثروة هناك . ويتراءى التردد ذاته بالنسبة إلى المياه : فالعدوبة تنازع الملوحة ، ووفرة السمك أو الطيور (١٤٠٦) تنازع كل كائن حي ، كما في البحر الميت . أخيراً ما هي النواحي المشتركة بين الماء الحر في بحيرة كبيرة شهيرة وبين البحيرة الصغيرة المجهولة الاسم المليئة باكمات القصب ؟ لنوقف هنا هذه اللائحة من التضادات . فهي تكفي لتبين لنا من خلال صعوبة اكتشاف صورة متجانسة للبحيرة ، سبب هذه الشكوك : فالبحيرة عالم وسيط . فالماء الذي لا يجري ، المالح أحياناً والعذب أحياناً ، وهو في النهاية ليس من النهر ولا من البحر . ربما حصل على خصائصه غير الأكيدة من وضعه ذاته : فالبحر ماء وضع نهائياً على اليابسة ، خلافاً للنهر ، الذي يمر عليها مروراً ، وخلافاً للبحر الثابت بقرار النهر ، لكن خارج البر . فهذه البحيرة اذن إحدى صورتين محتملتين للقاء

خاص بين العنصرين ، أما الصورة العكسية فهي الجزيرة أي البر المستقر في الماء . ومتى حققت البحيرة ذاتها وانتشرت فيها الجزر ، نتصور المشهد الغريب الذي يمكن أن يرتسم تحت البصر المحايد ظاهرياً . لكن المتميز في أعماقه ، للمسافر الذي يسألها .

العودة إلى البحر : عالم آخر

نعرف جيداً تضاريس قعر البحر ، ونعلم أن الجزيرة أو القاع الضعيف العمق شكلان متفاوتا البروز منها . لكن شتان بين القول بأن البر يستمر وحده تحت الماء (١٤٠٧) وبين قول ابن حوقل (١٤٠٨) عن بحر القلزم : « وهو ، وان كان بحرّاً ذا أودية ، ففيه جبال كثيرة قد علا الماء عليها » فهذه الجملة تعبر بمصطلحات البر عن مشهد يشبه مشهده لكنه خاض بالبحر ، وقلمسا يتوقع الانسان ، خلافاً لما يحصل له بشأن البر ، ان يرد فيه ذكر الجبل ، وهو أحد العنصرين ، المحذب والمقعر ، الداخلين في تركيب التضاريس . ويزداد وضوح الفكرة (١٤٠٩) في كتاب عجائب الهند ، الذي جاء فيه : « ان السلحفاة لها أيام في كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها في كهوف الجبال . وفي البحر غابات وشعاري وأشجار هائلة ، أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض » . وجاء أيضاً فيه (١٤١٠) في سياق الحديث عن دواب البحر : « واخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة والبحار والمنطقة المهجورة ، والبعد من السواحل المعمورة وعمق البحار وعدم البر والجزاير والسواحل ، وهو عالم آخر . »

ويلي هذا الاستشهاد مباشرة ، دعاء إلى الله يجعل البحر أخفى
ممالك الخليقة وأعصاها على بصائر البشر . أجل، الملك لله هنا وفي جميع
الاماكن . لكن تكتنف الأسرار البحر ومقدرة البارئ فيه . لنقرأ مرة
أخرى ما ورد في « عجائب الهند » ، كتاب البحريين (١٤١١) الرائع .
بمعنى هذا اللفظ على أدق وجوهه : « فلما كان الليل ، فتح الله .
سبحانه ، أبواب السماء بريح سوداء ملأت ما بين السماء والأرض .
ورفعت أمواج البحر إلى السحاب وحطتها إلى التراب . وطمرت من
السفن في البلاد والسواحل وفي وسط البحر ، وقل من سلم منها ومركب
القوم قد ألهمهم الله أن خففوا وطرحوا ما عليه من ثقل وغيره ، وكان
كلما جاش البحر عليه ، خف وعلا على الأمواج ، وطفأ على البحر .
وهم يقرعون ويدعون ويبتهلون . ولا يأكلون ولا يشربون ثلاثة أيام
بلياليها . فلما كان اليوم الرابع . أمر الله عز وجل الرياح ، فسكنت .
والبهار ، فهدأت ، واذهب الله ذلك كما عرف من عوايد قدرته
سبحانه » .

فعالم البحر عجيب ومنعزل ومجهول . ويشعر المرء دائماً غريباً
ان نباته وحيوانه ، كما سوف نرى ، عجيبان بعض الشيء : فالعنبر
واللؤلؤ والمرجان ، والأسماك الهائلة، أو التنانين ، تنتمي إلى وسط غريب ،
يخضع فيه دواب البحر إلى شريعة لا ترحم ، تدفعهم إلى « أكل بعضهم
بعضاً » . ويستعمل الجاحظ صيغة تماثل صيغة أخبار الصين والهند .
ويعرض الموضوع على الوجه التالي : « فان كان انما استبصر في ذمه
في قتل السمك ، فالسمك أحق بأن يكون من خلق الشيطان ، لأن السمك
بأكل بعضه بعضاً ، والذكر يتبع الانثى في زمان طرح البيض ، فكلما
قلدت به التهمة ، وان غرق انسان في الماء ، بحرّاً كان أو وادياً ، أو

بعض ذوات الأربع – فالسمك أسرع إلى أكله من الضباع والنسور إلى الجحيف « (١٤١٢) .

ودخل الموضوع في عداد معارف الأدب بفضل الجاحظ . وقد يقول معترض أنه يجمع أسماك الماء العذب وأسماك البحر في فئة واحدة ، ويخضعها إلى شريعة غاب مائة واحدة . لكن لا بد أن نفكر هنا ان هذه الشريعة ، التي تقتصر على الأنهار والبحيرات في البر ، تصبح عامة ومطلقة في البحر ، وبالتالي ان البحر في الكون يتمخض عن انقطاع يحصل فيه . يميل الخليفة كلها نحو الغريب ، ويجولها إلى حيز جهنمي يأكل فيه الحيوان صغاره . طبعاً ، يبدع إبليس شيئاً ، وقد رأينا أن الجاحظ يطرح فرضيات : فالشر والهول هنا ، كما في كتاب الحيوان كله ، قضيتان تطرحان أمام العقل البشري ، ويعلم الله وحده حلها لأنه الخالق الوحيد . مع ذلك ، يجوز ان يطرح الانسان طرحاً ، ولو بقصد رفضه في النهاية ، يجعل إبليس ينزل تحت الماء وسيطر على البحر سيطرة تامة بواسطة الاسماك ، ولو كان لم يعد على الأرض سوى رائد أنهار .

وسواء سيطر إبليس أم لم يسيطر ، فهذا العالم له حياة خاصة به . والبرهان انه يتحرك . فهنا أو هناك ، قوت الامواج سيطرتها على البر : فقد ركب ماء البحر قنطرة جبل طارق ، وانتقلت منارة الاسكندرية من وسط لسانها إلى طرفه ، وحلت بحيرة محل المزارع بعد اجتياح البحر لها ، أخيراً كانت قبرص موصولة بأرض الروم وبسواحل مصر وفلسطين ثم صارت جزيرة (١٤١٣) . ولا يستشف أي شعور بالقلق من خلال هذه الاشارات إلى التاريخ القديم الذي احتجز فيه البحر . فالموضوع

يتعلق هنا بأدوار في حياة العالم ، ولا شيء يمنع أن ينعكس الاتجاه في المستقبل ، كما حدث على الأقل في الخليج الذي كان يحتل السواد في العراق (١٤١٤) . ويفسر المسعودي (١٤١٥) هذه الظاهرة بقوله : « ذكر صاحب المنطق (١٤١٦) ان البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر حتى تصير في مواضع مختلفة ، وان جملة البحار متحركة ، إلا أن تلك الحركة إذا أضيفت إلى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعدها قعورها صارت كأنها ساكنة ، وليست مواضع الأرض الرطبة أبداً رطبة ، ولا مواضع الأرض اليابسة أبداً يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل لصب الأنهار إليها ، وانقطاعها عنها . ولهذا العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر . فليس موضع البر أبداً برّاً ، ولا موضع البحر أبداً بحرّاً ، بل قد يكون برّاً حيث كان مرة بحرّاً ، ويكون بحرّاً حيث كان مرة برّاً ، وعلة ذلك الأنهار وجريها . فان لمواضع الأنهار شباباً وهرماً ، وحياة وموتاً ونشأً ونشوراً ، كما يكون ذلك في الحيوان والنبات ، غير أن الشباب والكبر في الحيوان والنبات لا يكون جزءاً بعد جزء ، لكن تشيب وتكبر أجزاؤها كلها معاً ، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد . فاما الأرض فانها تهرم وتكبر جزءاً بعد جزء ، وذلك بدوران الشمس » .

عرفنا من قبل هذه النظرية عن حياة البر والأنهار (١٤١٧) . فهي تربط البحر بفيضاء الكرة كلها في البحث الذي يهمننا . ويسيطر البر على الظاهرة ، وتؤثر حياته ، بلداً بلداً ، وفق دورة تتجدد ازلياً ، في سرير الأنهار . وبالتالي في حجم المياه التي تصبها في البحر ، وبالتالي في حدود البر . وهل نذهب ، خلافاً لما ألمحنا إليه من قبل ، إلى حد القول إن البحر لا يمتلك إلا الحيز الذي يتخلى عنه البر ويرسمه له؟ والحق يقال ان التغييرات المبينة لا تتناول إلا الشواطيء ، ثم إذا كانت الآلية تصل إلى تعديل وجود

البحار وخريطتها العامة : بصب كميات مفرطة فيها ، ما هو مصير نظام الخليقة ذاته الذي منح الله وحده فيه إلى الأبد البحار وفي طليعتها البحرين العظيمين ، مكاناً محدداً ، أما الوجه الآخر ، فيتلخص بما يلي : اذا اختل التوازن يوماً ما لمصلحة البر أو الماء افرادياً ، فسوف يقضى على عالمنا : ركام أو طوفان في الماضي ، والقيامة في المستقبل (١٤١٨) .

البحر اذن جزء من الكرة ، اما البر ، نعني البر الصلد ، فلا دخل له بالبحر . ويتماسكان على تخومهما فقط ، ويتصلان من خلال الأنهار التي تلخل في نطاق البر ، بحيزها ، لكن في نطاق البحر بمائها وفقدان الملوحة بعد هذا الايضاح ، يبقى كل من البر والبحر في مواقعه وفي نطاقه في النهاية ، ويذوب النهر ذاته بعد وصوله إلى البحر ، مثلما يصبح الجبل المغمور جبل البحر ، وكما يتغير النبات والحيوان جذرياً بعد الانتقال من البر إلى الماء .

البحر المضطرب

مهما يكن ، في الحوار الجاري على الشواطىء ، لا يتقدم البر ، لكن لا يتراجع البحر ، والعكس بالعكس . اذن البحر وحده يتحرك ، كما كان يقال . ولا يجوز ان يغرننا ثباته العام على مستوى الكرة . وقد لاحظته المسعودي جيداً ، وتتم الحركة من الاسفل إلى الأعلى أولاً : فيرى انخفاض الموج لا حركته الظاهرية التي تجعله يركض ويتكسر . هذه هي اذن جبال البحر الحقيقية وأوديته ، تارة تتكسر بعضها على بعض وينقذ منها النار ، فيخيل لراكب البحر أنه يسير في بحر نار . وطوراً تصبح خباً هائلاً « أعمى » و « مجنوناً » ترتفع أمواجه إلى السماء ، فتكشف قعر البحر ، دون أن يظهر من ذلك زبد (١٤١٩) .

ويضطرب البحر بلا كلل . لأن الرياح في عرضه لا تستقر في مكان . ويكثر ذكرها في مقامع عديدة من كتاب عجائب الهند ، تبعاً لسيطرتها التامة على المياه (١٤٢٠) ثم إن « كل بحر تهيج فيه ريح كثيرة ، وتهيج حتى يغلي كغليان القدور ، فيقذف ما فيه إلى الجزائر التي فيه ، ويكسر المراكب ، ويقذف السمك الميت الكبار والعظام ، وربما قذف الصخور والخيال كما يقذف القوس السهم » (١٤٢١) . ويستلهم المسعودي (١٤٢٢) من هذا النص المأخوذ من أخبار الصين والهند ، وينهّج موضوع مزدوجة البحر والرياح في سياق بحثه عن أقسام بحر الهند : « فمنها ما يريجه من قعر البحر يظهر ، فتغليه ويعظم موجه كالقدر تفور مما يلحقها من مواد حرارة النار ، ومنها ما يريجه والآفة فيه من قعره والنسيم ، ومنها ما يكون مهبه من النسيم دون ما يظهر من قعره ، وما وصفناه مما يظهر من قعره من الرياح ، فذلك تنفسات من الأرض تظهر إلى قعره : ثم تظهر في سطحه ، والله عز وجل أعلم بكيفية ذلك » .

وسواء تنفست الأرض أم لم تنفَس ، وسواء عملت عصفاة هائلة في قعر البحار أم لم تعمل ، نرى أن الرياح والعواصف تترافقان . أما أكانهما المختارة . فعلى مقربة من السواحل حيث يوجههما شكل الشاطئ المجاور أو مضيق بين الشاطئ وإحدى الجزر . ويعرف البحارة جيداً هذه المخاطر في بحر القلزم أو في إحدى نواحي الجزر (١٤٢٣) وتتمتع الرياح بحريتها في باحة البحر ، وتهب على هواها ، وقد تفاجيء العاصفة السفينة في أي مكان كان أرادت . وتتخذ في البدء شكل زوبعة : « وربما روى في هذا البحر سحب أبيض ، يظل المراكب ، فيشرع منه إنسان طويل رقيق ، حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر . فيغلي له ماء

البحر : مثل الزوبعة . فاذا أدركت الزوبعة المركب بتلعتة . ثم يرتفع ذلك السحاب ، فيمطر مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا (١٤٢٤) . »

وعلى وجه التخصيص ، يعرف نظام الرياح والعواصف معرفة جيدة ، في بحري فارس والهند . والنص الأساسي مأخوذ من الفلكي أبي معشر . نقله ابن رسته وابن الفقيه والمسعودي (١٤٢٥) . ويشار إلى أن بحر فارس والهند هما في الحملة بحر واحد ، إلا أنهما متضادان بحالتهما لأن « بحر فارس تكثر أمواجه ، وتشتد ، ويصعب مركبه ، عند لين بحر الهند ، وسهولة مركبه ، وقلة أمواجه . ويسهل مركبه عند ارتفاع بحر الهند وتتقاذف مياهه واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة مركبه . وأول ما تبتدىء صعوبة بحر فارس ، عند دخول الشمس السنبلة (العنراء) ، وقرب الاستواء الخريفي . فلا يزال في كل يوم تكثر أمواجه وتتقاذف ، ويصعب ظهره إلى أن تصير الشمس إلى الحوت . وأشد ما يكون صعوبة ظهره وكثرة أمواجه وشدته في آخر زمان الخريف عند كون الشمس في القوس . فاذا كان قرب الاستواء الربيعي يبتدىء في قلة الأمواج ولين الظهر وسهولة المركب إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة . والين ما يكون ظهراً . وأسهله مركباً ، في آخر زمان الربيع ، وهو عند كون الشمس في الجوزاء . وأما بحر الهند ، فاذا صارت الشمس في السنبلة ، تقل ظلمته ، وتنقص أمواجه ، ويأين ظهره ، ويسهل مركبه إلى أن تصير الشمس إلى الحوت . والين ما يكون ظهراً عند كون الشمس في القوس . إلا أن يكون بحر فارس قد يركب في كل أوقات السنة . فاما بحر الهند ، فإنه لا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه . ولاختلاف حالهما وهيجان كل واحد منهما في وقت

خلاف وقت صاحبه . يسميان بطبيعة المرتين في الوقت الذي يهيجان فيه . فبحر فارس يسمى بطبيعة المرة السوداء لابتداء هيجانه في أول زمان الخريف ، وصعوبته وشدته في آخر هذا الزمان . وبقائه على حاله تلك إلى آخر زمان الشتاء . وبحر الهند يسمى بطبيعة المرة الصفراء لابتداء هيجانه في أول زمان الربيع ، وشدته قوته في آخر الزمان . ودوامه على حاله إلى آخر زمان الصيف وأما البحر الشامي ، فانه اذا صارت الشمس في أول العقرب إلى أن تصير في أول الحوت في هذه الأربعة الأشهر ، لا يستطيع الناس ركوبه ، وذلك لأن الشمس تتباعد عنه وتحدث فيه الرياح العاصفة ، وذلك في ناحية الشمال منه .

يلاحظ بوضوح التناوب الدقيق في حركة البحرين ، التي يمكن تلخيصها على الوجه التالي :

— قرب الاستواء الخريفي ، السنبله (١٤ آب — ٢٤ أيلول) : بدء الاضطراب في بحر فارس / بدء الهدوء في بحر الهند .

— آخر الخريف ، القوس (٢٢ تشرين الأول — ٢٢ كانون الأول) : ذروة الاضطراب في بحر فارس / ذروة الهدوء في بحر الهند .

— قرب الاستواء الربيعي ، الحوت (١٠ شباط — ٢١ آذار) : بدء الهدوء في بحر فارس / بدء الاضطراب في بحر الهند .

— آخر الربيع ، الجوزاء (التوأمان) (٢٢ أيار — ٢٢ حزيران) : ذروة الهدوء في بحر فارس ، ذروة الاضطراب في بحر الهند .

وتتميز الأطوار الأربعة في حياة البحرين لا بالأزمة ، مأخوذة اجمالاً ، بل بأواخرها : أي نهاية الصيف ونهاية الشتاء بدء الحركة ،

نم نهاية الخريف ونهاية الربيع لذروتها . ويسمح تدنخل الأزمنة (١٤٢٦) ،
في ذهنية فيزياء الزمن ، باعطاء البحر ، الكائن الحي ، احدى الطبائع
الأساسية الأربع ، حسب الأزواج التالية : الربيع وطبيعة الدم ، الصيف
وسلطان المرة الصفراء ، الخريف وسلطان المرة السوداء ، والشتاء
سلطان البلغم (١٤٢٧) . مع ذلك ، لا يجري الاختيار بالنسبة إلى البحرين
بالطريقة ذاتها تماماً : ففي حالة بحر فارس يؤخذ ، حسب ما هو مألوف
الفصل الذي يبلغ النشاط فيه ذروته ، بتعبير آخر نهاية الخريف ، وتنسب
إليه طبيعة هذا الزمن أي المرة السوداء . ونتوقع ، على أساس المبدأ
ذاته ، أن ينسب إلى بحر الهند الدم ، طبيعة زمن الربيع . انما اختيرت
المرة الصفراء التي تحيلنا إلى الصيف ، الزمن الذي لا يزال بحر الهند
هائجاً فيه ، لكنه يدنخل في طور يقوده إلى الهدوء . فمن أين جاء هذا
الاختلاف في وجهات النظر ؟ بداهة ، ولقاء هذا التفاوت البسيط ،
لمنح البحرين تحت اشارة واحدة ، المرة السوداء أو الصفراء ، التي
ترمز ، عبر الاختلاف ، إلى وحدة ، المحنا اليها منذ البداية .

وقد تلعب هذه الوحدة في النهاية لصالح بحر فارس أصلاً . بالفعل ،
الفرق ظاهر بين القول إن البحرين متضادان أو ان بحر الهند يوصف
بالفاظ متناقضة للالفاظ التي يوصف بها بحر فارس الذي يعتبر أساسه وقد
اختيرت وجهة النظر الثانية ، مثلما يثبت من مكانة بحر فارس وطول
بحثه عند المصنفين الثلاثة . بعد أن اعتبر منطلقاً للعرض وأساساً له .
وهذا أيضاً : اذا كان تصرف بحر الهند مألوفاً أكثر في نظر الفيزياء لأن
نشاطه يتجدد ، كما هي الحالة بالنسبة إلى كل منا ، متى اقترب الربيع ،
فان تصرف بحر فارس مألوف أكثر في نظر البشر ، لأن نشاطه متفق
مع الزمن السيء : فهنا يختار البحر ، لإحداث الصعاب في سبيلنا ،

الزمن المتوقع ، الزمن ذاته السائد على الأرض (١٤٢٨) . وربما يقال لنا ان بحر فارس لا يضيف إلى هذه الصعاب مفاجئة الفصل المعاكس . لذلك يعلن في النهاية أن بحر فارس يركب في سائر السنة ، في حين تكثر العواصف في بحر الهند ، خلصة ، بسبب المفاجأة وجميع قوى الربيع الحية.

ولا يهمنا الواقع كثيراً ، نعني واقع الموسميات ، التي نستشفها ، بصحة متفاوتة من خلال هذه النصوص ، ولا التمييز المصطنع بين البحرين ، كما لو أن الملاحة تنقطع في بحر الهند على الموسميات الصيفية ، في حين نعلم بدقة ان بحارة هذه المناطق يعرفون ويألفون نظام الرياح (١٤٢٩) منذ مدة طويلة . وما يهمنا أن العاصفة تفترض وجود ريح ومطر ، وتعتبر ظاهرة زمن سيء ، أي شتاء ، كما هي الحال على البر . وإذا كان بحر فارس بحرأ جيداً ، فمرد ذلك إلى أنه ينتمي إلى عالم البر ، بحكم قربيه منه — وحتى بحكم انغلاقه على نطاق واسع بشكل خليج — في حين ينتمي بحر الهند ، على التقيض ورغم اتصال مجمع الماء ، إلى هذا العالم الآخر ، المشار إليه من قبل ، الذي ينقلب فيه كل شيء ، ولا تنطبق عليه جميع قوانين البر .

وتتميز العاصفة بخمس سمات خارجية ، هي : كثرة الأمواج واضطرابها ، وظلمة السماء (١٤٣٠) ، وهبوب الرياح ، ومخاطر الملاحة . إلا أن الريح ، سيدة الموقف على المياه ، تخضع إلى الشمس ، مثلما نرى في بحر الروم : فبين دخول الشمس برج العقرب ودخولها برج الحوت ، أي من آخر تشرين الأول إلى مطلع شباط ، أو بصورة رئيسية في الشتاء هنا أيضاً ، كما هي الحال في بحر فارس ، يتناسب هبوب الرياح مع بعد الشمس من الأرض (١٤٣١) . ويعيد

المسعودي (١٤٣٢) الفكرة ذاتها ، لكن فيما يتعلق ببحري فارس والهند. ويفسر تناوب أحوالهما ، كما يقال لنا ، بقرب الشمس أو بعدها ، والشمس ذاتها تتحكم بالأزمنة ، في فصل الصيف في بحر فارس وفي فصل الشتاء في بحر الهند ، والعكس بالعكس .

وهكذا . متى انعكست الفصول ، يتصرف بحر الهند تصرف بحر فارس ، اذ ان العواصف فيه في ما يمكن أن يدعى الشتاء الهندي (١٤٣٣) : وهذه إشارة اضافية إلى حيوية اقتران العاصفة والفصل السيء ، انما مع قلب المنظور المشار إليه من قبل ، اذ ان بحر الهند يرجع إلى نطاق المألوف . ويمكن توجيه طعن واحد إليه ، والحالة هذه ، هو ليس الجمع بين العاصفة والايام الحميلة فقط ، بل أيضاً الانتماء إلى عالم تنعكس فيه الأزمنة بالنسبة إلى الشخص القادم من جهة الغرب . بقي ان نقول ان الوضع يحكم عليه دوماً بالمقارنة ببحر فارس ، وان الأزمنة الصحيحة هي أزمنته (بحر فارس) ، وانه اذا كان بحر الهند يتصرف في النهاية مثل بحر فارس ، فيؤخذ عليه أن تصرفه بالنسبة إلى البحريين ، لا يتم في الزمن السيء ذاته ، بل في زمن لا يتوقعه أحد.

وتؤثر العاصفة كثيراً في المخيلة ، حتى إنها تعتبر مكان وجود قوى غريبة وأشخاص سود . والدليل على ذلك النور الباهر الذي يصفه المسعودي (١٤٣٤) على الوجه التالي : « ربما شاهد المعافى منهم في أعلى الدقل — ويسميه أرباب المراكب في بحر الصين وغيره من البحار الحبشي (١٤٣٥) الدولي ، ويسميه الرجال في البحر الرومي ، الصباري — شيئاً على صورة الطائر يتوقد نوراً لا يستطيع الناظر منهم على ملء بصره منه ، ولا ادراكه كيف هو ، فاذا استقر على أعلى الدقل ، يرون البحر

يهدأ والأمواج تصغر والخب يسكن ، ثم إن ذلك النور يفقد ، فلا يدري كيف أقبل ولا كيف ذهب فذلك علامة الخلاص » .

وتحمل هذه العاصفة ، التي تنتهي بالنور الباهر ، في بحر الصين ، اسم الخب ، وكما يظهر طائر النور في نهايتها ، تظهر تباشيرها على النحو الآتي : « وذلك ان البحر اذا عظم نخبه وكثر موجه ، ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم الخمسة أشبار أو الأربعة ، كأنهم أولاد الاحاييش الصغار ، شكلاً واحداً وقدأ واحداً ، فيصعدون على المراكب ، ويكثر منهم الصعود من غير ضرر ، فاذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة ؛ فان ظهورهم علامة الخب ، فيستعدون لذلك (١٤٣٦) » .

وهناك علامة أخرى لهيجان البحر : هي السمك المسمى البرستوج ، وهو الذي يكثر بالبصرة (١٤٣٧) . مع ذلك ، لا شيء اربب من التنين (١٤٣٨) . ولا تعرف التنانين إلا في المياه العميقة في بحر اقيانوس ، وبحر الاعاجم لاسيما حوضته الشرقية ، قرب الجبل الأقرع ، حيث معظم ماء البحر وأكثره ، وأخيراً في بحر قزوين . وفي الأصل ، كان يقصد به ظاهرة الزوبعة ، المشار اليها من قبل (١٤٣٩) : فهو ريح سوداء تكون في قعر البحر ، فتظهر إلى النسيم وهو الجو . إلا أن الخيال يعبث في رؤية الزوبعة وعمود الماء والبخار ، على حد قول المقدسي ، فأراد أن يجعل منها حيواناً اسطورياً وتوهم بعض الناس أن التنانين حيات سوداء ، تحملها الامطار إلى البحر ، فتزدهر فيه مما تفترسه ، ومن هنا ضخامتها وتعميرها طويلاً حيث يبلغ عمرها ٥٠٠ سنة ، وهو سيد جميع دواب البحر المطلق . ومنهم من رأى أن التنانين دواب تتكون من قعر البحر ، فتعظم ، فتؤذي دواب البحر ، فيبعث الله الملائكة والسحاب الذي يعمل فيها كالمغنطيس ، فيخرجونها من بينها . ويتردد التنين ، ثم

يخرج ، ويرتفع رأسه في السحاب ، ولم تعد الزوبعة المخربة في هذا الكابوس سوى ضربات ذنب التنين المضطرب . وبلغ عدد السحاب اللازمة لاكتشاف التنين ، على حد قول ابن الفقيه ، سبعة ، بعدد رؤوس التنين على حد قول الفرس (١٤٤٠).

ولست العاصفة حركة البحر الوحيدة . ولا يحتاج البحر للريح ليعبر عن الحياة التي تختلج فيه : فله دردوراته الخطرة جداً ، وفي بعض أنحائه أرقاق أو أعريّة هنا ، وفي بعضها الآخر صدمات المد والجزر وماء أحد الأنهار الكبار . ويعرف البحرّيون بعضها جيداً ، بخاصة في بحر فارس . وقد زين أخطرها بأسماء بليغة (١٤٤١) مثل فك الأسد ، والذئب وبعض اعريّة مضيق هرموز ، حيث يضم البحر ، العميق جداً ، إلى دردور الامواج الهائلة ، أبا حمير (١٤٤٢) وكسير وعوير (١٤٤٣) التي دخلت في أحد الامثال السائرة بين الناس : كسير وعوير وثالث ليس فيه خير (١٤٤٤) .

وتنتشر أحياناً حركة البحر ، فتتحول الزوبعة إلى تيار ، ويصير البحر عندئذ أشبه بنهر هائل (١٤٤٥) . وهكذا تبدو حركات مضائق بحر الروم ، « ويحس بجريان الماء ويعلم بحركته » : فمن جهة أولى ، مضيق جبل طارق ، الذي « يخرج الماء من بحر اوقيانوس ويصب إلى البحر الرومي فيه ، وفي هذا الخليج مواضع تعلو أمواجها ، ويعلو الماء من غير ربح » وفي الطرف الآخر البوسفور (خليج القسطنطينية) الذي يذهب الماء فيه ويجيء . وفي بحر القلزم ، يتحرك البحر بجوار السويس ، وفيه غرق فرعون (١٤٤٦) . وقد عرفنا من قبل هذه الظاهرة : فلا بد أن نرى من خلال ثبات البحر الظاهري ، الحركة التي تحملها إلى الاقيانوس (١٤٤٧) .

المد والجذر

أخيراً ، هاء الحركة القصوى ، المرفئة تماماً ، الخاصة بالبحر ، التي توحى بصفحات طوال : أعني حركة المد والجذر (١٤٤٧) . إنها خاصة بالبحر ، لاسيما البحر الشرقي والاقيانوس . أما بحر الروم وما يتفرع عنه من بحار ، أو بحر الخزر ، فالمد والجذر فيها ضعيفا السعة ، باستثناء جزيرة جربة ، التي بينها وبين البحر نحو ميل تخرج مواشيهم عدوا حين يجزر الماء وينضب ، فترعى ، ثم تروح عشيا قبل المد . مع ذلك المد ابن على سواحل المحيط من الأندلس حيث يبلغ ارتفاع المد عشر أذرع ، وفي سواد العراق ، وفي الخوزستان ، حيث يصعد المد ، كما رأينا في الفصل السابق ، في الأنهار والأقنية ، فيسقي الحقول ويدير الارحية ، في حين يسمح بتجاوز الارقاق ، وفي الصين في الخلجان الكبرى ، وأخيراً في الهند حيث يشيع اللجوء اليها من قبل المقدمين على الانتحار الذين ينتظرونه على الشاطئ .

ووقت حدوث المد والجذر مصدر اهتمامات أخرى . ويشار إلى انتظامهما ذاته طبعاً . والحقيقة أن الحركات متعددة ، اولاهما ، وهي معروفة أكثر من سواها ، وفيها مد وجزر مرتين في اليوم والليلة ، أي كل ٢٤ ساعة (١٤٤٩) . لكن هناك دورات زمنية أخرى ، نصف شهرية ، في وسط الشهر وأطرافه (١٤٥٠) ، وسنوية حسب ابن خردادبه (١٤٥١) « لا يكون (المد والجذر) في البحر الأعظم (اوقيانوس) إلا مرتين في السنة ، مرة في شهور الصيف شرقاً بالشمال ستة أشهر ، فاذا كان ذلك طما الماء في مشارق البحر بالصين وانحسر عن مغارب البحر ، ومرة يمد في شهور الشتاء غرباً بالجنوب ، ستة أشهر ،

فاذا كان ذلك طما الماء في مغارب البحر وانحسر في الصين » . وهكذا يفسر مرة أخرى ، لكن هنا حسب المد والجزر ، التصرف المتعاكس لبحري فارس والهند (١٤٥٢) الذي ورد في أخبار الصين والهند على الوجه التالي : عند طلوع القمر : مد في بحر الهند وجزر في بحر فارس ، القمر في وسط السماء : جزر في بحر الهند ، ومد في بحر فارس ، عند مغيب القمر : مد في بحر الهند ، وجزر في بحر فارس ، اذا توسط القمر في وسط السماء : جزر في بحر الهند ومد في بحر فارس (١٤٥٣).

اذن التسجيلات صحيحة عن المد والجزر اليومي وعن دورته وتبدلات ميقاته وسعته حسب البحار والشواطىء . بالتقابل ، متى تعدينا الميقات اليومي ، يظهر الالتباس بين الظاهرة العامة والسمات الأظهر التي تتعرض لها خلال الشهر أو السنة ، وتصبح كما رأينا مداً وجزراً يضافان إلى المد والجزر الاولين (١٤٥٤) . وكيف نعرف الحقيقة عندما نجعل أصل هذه الحركات ؟ فهناك القمر ، وأحياناً قمران : أي كوكبان موضوعان تحت القمر الذي نشاهده ، وموكل اليهما إحداث المد والجزر بخاصة (١٤٥٥) . مهما يكن ، عند زيادة نور القمر أو القمرين أو نقصانه ، ينشأ المد والجزر (١٤٥٦) . ويفضل القمر على الشمس في هذه الحالة ، لأن اثره في البحر يذكر طبيعياً بأثره في الأمراض وحيض النساء ومخاض الكائنات الحية ، والزيادة في شعر الحيوان وأدمغته والالبان والبيض وزيادة المعادن في جواهرها ومن بصيصها وصفاتها ولسع حشرات الأرض وأفعال سائر السباع ، وكثرة السمك ونمو البقول والفواكه والرياحين وسائر النبات .

وهكذا ترتبط زيادة البحر بالقمر . لكن لابد أن نعرف اذا كان ذلك من أفعال القمر وحده أو من أفعال كوكب آخر معه . ويعود

المسعودي إلى طغيان الماء العام في مشارق الأرض مرتين في السنة . ويوضحه بادخال الشمس التي تحرك الهواء . فيتحرك البحر . وقد يضاف إلى ذلك فعل بعض الكواكب السيارة . مع ذلك نذكر أن الطرح الرئيس . المذكور قبل غيره هو فرضية تأثير القمر وحده . اذن يعود المسعودي إلى فرضية القمر ، لكنه لا يقصد هذه المرة تشبيهاً بسيطاً يؤدي ، مثلما نذكر ، إلى غليان الابخرة التي تتولد في بطن الأرض . وتنطلق عبر الاعماق البحرية ، بل يدعو إلى قبول تماثل تام بين البحر والقمر : فيعتبر البحر فعلاً قادراً لا صلدع في قعرها . فمتى سخن الماء فيها (١٤٥٧) يرتفع وتتضاعف كميته ، ومتى امتلأ القمر حمي الجو حياً شديداً . وظهرت زيادة الماء .

ويتوقع اجراء اعتراضين على هذا الشرح . أولهما وضع البحار التي لا يكون فيها الجزر والمد ، ويجاب عليه بتقديم ثلاث علل . ففي المجامع المخلقة (١٤٥٨) ، لا يظهر المد والجزر وتأثير القمر . ويحل محله انصباب الأنهار (١٤٥٩) الذي يؤدي إلى تبدل مستوى ماء البحر : فيقف الماء زماناً ، ويغلظ وتقوى ملوحته وتتكيف فيه الارياح . العلة الثانية وضع البحار التي تبعد عن مدار القمر ومسافته بعداً كبيراً ، فيمتنع منه المد والجزر فيها . والعلة الثالثة وجود ثقب في أسفل القمر ، تترتب عليه نتيجتان - « المياه التي يكون الغالب على أرضها التخلخل ، لأنه اذا كانت أرضها متخلخلة نفذ الماء منها إلى غيرها من البحار ، وتخلخل ، وانفست الرياح الكائنة في أرضها أولاً فأولاً ، وغلبت الرياح عليها ، وأغلب ما يكون هذا في ساحل البحار والجزائر » . وهكذا تتضح اضافة شرطين متممين حتى يحدث المد والجزر : كمية كافية من

الماء ، ثم رياح ضعيفة جداً لكي لا تفسد حركة تصاعد الماء ذاته نحو القمر (١٤٦٠) .

ويرد الاعتراض الثاني على الوجه التالي : مادام المد والجزر يتوقفان على سخونة الماء ، لماذا لا يكونان من الشمس الاقندر على تسخين الماء من القمر إلى حد كبير ؟ لماذا لا يمدّ الماء مع بدء طلوع الشمس ، ويجزر مع مغيبها ؟ يتذرع الجواب بطبيعة الماء ذاته ، بصرف النظر ، هذه المرة ، عن القمر والشمس معاً . يمكن أن نكتفي بهذا القدر (١٤٦١) أو أن نربط حركة الماء مرة أخرى بأبخرة الأرض ، التي تذكر حركتها المستمرة المتناوبة بالشهيق والزفير ، فتدفع ماء البحر من قعره تارة وتضغط عليه ضغطاً كافياً يرفعه ، وطوراً تنقص مواردها من أسفل ، فيتراجع الماء حيثئذ إلى قعر البحر .

ويعطى تفسير آخر يركز على الهواء أيضاً ، لكن بشكل جو هذه المرة . فالهواء المطلق على البحر يستحيل دائماً إلى ماء ، فإذا استحال ، عظم ماء البحر ، وفاض عند ذلك ، وإذا فاض البحر فهو المد . فعند ذلك يستحيل مائه ويتنفس ، فيستحيل هواءً ، فيعود إلى ما كان عليه ، والجزر في دورة الامطار ذاتها ، « وهو دائم لا يفتّر ، متصل ، مترادف ، متعاقب ، لأن الماء يستحيل هواءً والهواء يستحيل ماءً » . ولا يتحدث هذا التفسير ، لا هو ولا التفسير السابق عن القمر ، ويوضح المسعودي هذه الناحية بقوله : « وقد يجوز أن يكون ذلك عند امتلاء القمر أكثر ، لأن القمر إذا امتلا ، استحال الهواء أكثر مما كان يستحيل . وإنما القمر علة لكثرة المد لا للمد نفسه ، لأنه قد يكون والقمر في محاقه ، والمد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع القمر في أغلب الاوقات » .

كان التدرج بطبيعة الماء مهرباً . وهالك مهرباً آخر ، اختفى فيه القمر تماماً حتى من النقاش . فما هيجان ماء البحر الا كهيجان بعض الطبائع ، « صاحب الدم وصاحب الصفراء » . وفي ختام سلسلة التفاسير المعروفة ، يعيد المسعودي الحكيم ، كغيره ، هذا السر إلى الله . فالمد والجزر آية واعجوبة جعلها الله وحده (١٤٦٢) . ويدخل الفكر أصلاً هذه الظاهرة في نظام ما لا يعلم . فيعاد إلى الخيال جميع حقوقه . ومعروف موضوع الملك الذي أوكّل الله إليه الماء : ففي كل يوم يذهب جبريل إلى جنة عدن ، ويغطس جناحية في نهرها ، ثم يعود ويحركهما ، فيتساقط من كل جناح سبعون ألف قطرة ، يخلق منها الله عدداً مماثلاً من الملائكة » ، ويقول بعد ذلك : « لا تسقط قطرة ماء من السماء على الأرض الا وبرفتها ملك » (١٤٦٣) . وبما أن الملك يوكل إليه مراقبة البحر ، فهو يلعب دور المخبر أو المنفذ . وأحياناً ، يكشف للخضر عن المد والجزر ويقول : « إن الموت يتنفس ، فينسأب الماء إلى منخرية . فذلك الجزر ، ثم يتنفس فيخرجه من منخرية . فذلك المد (١٤٦٤) . وفي أغلب الاحيان ، يحدث الملك نفسه المد والجزر ، يغمس في الماء اصبعه أو قدمه كل يوم ، فيمد ، فاذا رفعه جزر .

ويبرز الاقرار بالعجز واحلال الخيال محله ببساطة ، معطى تتضمنه سائر التفاسير : نعني نقص اليقين في كل ما يتعلق بظاهرة المد والجزر . فالنظريات الفيزيائية ، تصطدم في النهاية بوقائع تقضي عليها ، أو تبقى بلا سند فرضيات ، لا يمكن التحقق من صحتها لذلك يحترس المسعودي من اختيار هذا الحل أو ذاك ، المعروض هنا أو هناك ، مع أنه ينهج ويفصل عرضه الاجمالي عن المد والجزر ، ويأتي به كاملاً ، ويتشبت ببحثه . وتؤيد ترددات الانسان أمام المد والجزر ما تشعرونا به جميع مظاهر البحر

الأخرى : فالمد والجزر يحيراننا لأنهما ظاهرة مزدوجة ، ثابتة على خريطة الأرض العامة ، لكن في الوقت ذاته متحركة ، هادئة أو عاصفة ، مفيدة أو ضارة . تغطي جانباً من الأراضي ، إلا أنها تحترم كل الأراضي المحظورة عليها ، مروضة ، لكنها غير مستسلمة ، بدلالة أنها تحت الشاطئ بالمد والجزر أو العاصفة ، ويتوقف اجتياحها ثم يعود . باختصار ، لابد أن نخلص إلى القول — أو ربما ان نبدأ من هذه النقطة — إنهما كالأرض مسخران للبشر بلا شك ، إلا أن البشر تفوتهم طبيعتهم وحياتهم وحتى غائيتهم في نظام الخلق على نطاق واسع .

الانسان والبحر

« البحريون أناس لطفاء ، لا كياسة لديهم ، ولا يعرفون سوى لغة السفن ، ينشطون متى كان البحر هادئاً ، ويتكاسلون أثناء العواصف . عندئذ ، الكثرة تأمر والقلة تطيع . يعدون طوافه الارساء ومرقدهم . ويلهون برؤية المسافرين مصابين بلوار البحر » . تشير هذه الاسطر التي كتبها سرفنتس (١٤٦٥) إلى الملاحه القديمة ، ويمكن تطبيقها بلا صعوبة على أولئك الرجال الذين يسألهم مصنفو الجغرافية عن البحر ، ويصغون أحياناً إلى قصصهم البحرية . ويعرفهم الأدب العربي على حقيقتهم : فهم متشدقون ، نفاجون ، هزليون ، استؤمنوا في البحر ، على حيز غريب ومحظور ، ونكرر مرة أخرى قولنا انه منفرد (١٤٦٦) وقد سمح لنا الذين يرون البحر على هذه الصورة من يرتادونه ، ومن ينقلون أحاديثهم في مصنفاتهم . بأن نتعرف على بلخته . بقي أن نتحدث عن الحياة في البحر ، لنكمل وصفه ، معتمدين على أهل البحر أنفسهم ، نقصد حياة الحيوانات البحرية ، وحياة الذين يمخرون عبا به . ونرجى حياة الحيوانات إلى

الفصل الخامس ، وحياء البحارة إلى الجزء الذي نتحدث فيه عن أنشطة البشر .

نؤخر اذن حالة أهل البحر ، ونساءل هنا جميع المقيمين على البر وينظرون إلى البحر من الشاطئ . فهل نستطيع أن نتحدث عن شاعرية بالنسبة اليهم ؟ ربما ، إلا أن هذه الشاعرية نادرة ، مطبئة ، لا تعي ذاتها ، تتم مثلاً من خلال صورة الأمواج التي تضرب جدران مدينة أو مرفأ . ويعبر بيت الشاعر راسين تعبيراً حرفياً تقريباً من هذه الصورة : « وحتى أسفل الحيطان التي يغسلها البحر » (١٤٦٧) . وتمثل هذه الناحية الحد الأقصى لما يمكن التنازل عنه للشعر ، باستثناء شكله ، غير الموجود عند مصنفى الجغرافية : فشاعرية راسين متوفرة لديهم ، انما في نثرهم . ويتثبت الحرص الصافي على الوصف في الأمور الأخرى .

وماذا يوصف بالضبط ؟ البحر بلا ريب ، كما رأينا ، عند الوجود في اللجة لكن متى عادت الأرض إلى الظهور ، ينعكس المنظور ، ويعود المشاهد إلى الشاطئ . ولا تعرض علينا مطلقاً واجهة برية من قادم من البحر ، باستثناء عجائب الهند (١٤٦٨) على الأرجح . اما ابن حوقل ، فجغرافي ، يقرر تخصيص فصلين منفردين لبحر الروم و بحر فارس (١٤٦٩) . وماذا يفعل ؟ ففيما عدا الممرات الخطرة والأماكن الهامة في هذه البحار ، المشار إليها على وضعها ، وكثير منها يقع ، والحق يقال ، في أفق الشاطئ ، يخصص الوصف لا للبحر ، بل للشواطئ ، التي نذكر مدنها وزروعها أو سهوبها ، كما يوصف أي بلد آخر ، ولا يقدم البحر هنا سوى اطار وصف الأرض (١٤٧٠) الممكن ، لكن غير الضروري ، مرة أخرى وعلى الدوام . علاوة على ذلك ، قد يصبح البحر

بشاطئه الفاصل ، مجرد ذريعة . فاذا كان داخل البلاد ليس من دار الاسلام وحدها . يسعد المصنف ان ينتهز الفرصة لزيارة بيزنطية من بحر الروم ، وبلد البجة والنوبة والحبشة من بحر القلزم .

في النهاية ، تضطر هذه الأمور الجغرافي أن يكون بحاراً وجواله على شاطئ البحر ، متى تسنى له ذلك مجدداً . وهاك بعض أمثلة مأخوذة من عند ابن حوقل : فحجم وعدد الأنهار ، الطبيعية أو الصناعية ، في خوزستان السفلى ، يضعفان كثيراً واجهة هذا البلد البحرية (١٤٧١). وليس ، كما نرى ، على العكس ، صورة أرض محدودة بسبب جبهة الماء تشاهد من اللجة . ويقول في مكان آخر ، في حديثه عن أنحاء قعر هذا الخليج ذاته : « ثم يقطع عرض نهر دجلة ، فيصير على ساحل هذا البحر إلى مهروبان من حد فارس ، ويعترض فيه أماكن تمنع من السلوك إلا في الماء » (١٤٧٢) : اذن تشبه الصعوبات صعوبات البر ، ثم تزول على مسافة قليلة من هنا بالملاحة في هذا البحر الذي يوصف لنا . أخيراً ، يعود إلى تكرار هذه الصيغة ذات المغزى « ثم يسير عليه آخذاً شطه . . . » (١٤٧٣) .

وهكذا ، لا شيء ، بالنسبة إلى ابن الساحل ، يثير افتتانه بالبحر وشوقه إليه . فمن أراد ان يحبه ويعرفه ويحيا فيه ، عليه ان يزيل الغلاف ، ويتحول على صورته ، ويصبح ملاحاً ، أي انساناً آخر في عالم آخر . وإلا لن يكون البحر سوى السبيل الوحيد الباقي للسفر ، واستطراداً في كتاب . فرؤية أهل البر له : مبنية على المصلحة في النهاية : فالبحر جيد أو سيء حسب سهولة الاتصالات التي يوفرها من بلد إلى آخر ، عند اللزوم ، أو العقبة التي توضع في وجه تلك العلاقات ، حسب تصرفاته

الملائمة او السلمية ، أو على العكس وحسب غناها أو بخلها . مسمكة
هنا ، عقيمة في مكان آخر ، مفتوحة على بلدان تستطيع التجارة ان
تجني منها ربحاً خيالياً ، أو على العكس على أرجاء قاحلة . وهكذا
يعارضون باتجاه الشرق بين بحر القلزم من جهة وبين بحار الهند والصين
من جهة ثانية . ويؤخذ على بحر القلزم أنه صعب ومنفر وخطر حتى انه
لا يسلك في الليل . وطبعاً لا تخلو البحار الأخرى من الأهوال ، انما
يعوض عنها ، خلافاً لبحر القلزم ، بالكنوز المتوفرة فيها في نهاية الرحلة :
الجواهر ، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعي والأخشاب النبيلة
و « العود » ، والكافور والتوابل ، والقصور ، وثروات أخرى تكثر
في الشرق الأقصى (١٤٧٤) .

مع ذلك ، يغلب تمييز آخر في معظم الأحيان ، يفرق بين المشرق
إجمالاً وبين المغرب . ففي المشرق ، يلخص وصف البحر ، رغم
شدائده ، بألفاظ المقدسي الآتية : « وهو أبرك البحرين وأحدهما
عاقبة » (١٤٧٥) . وكان المسعودي قد كتب (١٤٧٦) قبل المقدسي
ما يلي : « البحر الحبشي . . . أعظم ما في المعمور من البحار وأجلها
قلراً ، وأعظمها خطراً ، لاكتناف الممالك الجلييلة اياه ، وما خص به
من الجواهر النفيسة وانواع الطيب والعقاقير في قعره وجزائره وشطوطه » .
ويقول الجاحظ صاحب النفوذ : « فاما بحرنا هذا ، فقد طم على كل
بحر وأوفى عليه ، لأن كل بحر لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً إلا
وجعله في بحرنا هذا » . بالمقابل سمعة بحر الروم سيئة ، ينازع الروم
دار الاسلام عليه ، ولا تسيطر عليه ، ولا يعرف جيداً على الاقل في
شماله . وهو بحر صعب هائج تسمع له أبداً جلبة خاصة ليالي الجمع (١٤٧٩)
وهذه الأمور سهلة التعليل : فالله لما خلق بحر الشام ، أوحى إليه أني

خلقتك . وأني حامل فيك عبادة لي يبتغون من فضلي ، يسبحونني
ويقدسونني . ويكبرونني : ويهللونني . فكيف أنت صانع بهم ؟
قال رب إذا أغرقهم . قال اذهب ، فقد لعنتك ، وساقلّ حليتك
وصيدك . وأوحى إلى بحر العراق مثل ذلك . فقال رب إذا احملهم على
ظهري ، فاذا سبحوك سبحتك معهم ، واذا قدسوك قدستك معهم ،
وإذا كبروك كبرتكم معهم . قال اذهب . فقد باركت فيك ، سأكثر
حليتك وصيدك » (١٤٨٠) .

تتحدث هذه النصوص بوضوح ، وتسمح لنا ان نستخلص نتائجنا
فالمرء يتساءل طبعاً عن غائية البحر من خلال البحر ذاته . ولا يملك
هنا مفاتيح العلم الذي يعرفه الله وحده ، كما كانت الحال في موضوع
أصل البحار وطبيعتها . لكن هنالك ناحية ثابتة على الأقل : فالبحر من
صنع الله والله سخر كل الخليقة للانسان ، أسمى مخلوقاته . بالتالي ،
إذا لم يستنفد الانسان كل غائية العمل الالهي الذي خلق البحر . فهو
يدخل فيه على نطاق واسع . ومن هنا ينشأ التضاد بين نواقص معرفة البحر
وبين الصفة الحاسمة للمعيار المخصص له : فسوف يحكم على البحر فقط
من زاوية منفعة الانسان وسعادته ومصالحه . فلن يقال انه جميل وطيب ،
ولن يحب ، إلا اذا كان ملائماً وأميناً ومفتوحاً لا على المجهول فقط ،
بل على النقيض على أرض البشر ، وان أمكن يحيط بها ، وأخيراً
إذا كانت غنية اما بحد ذاتها أو بالبلدان التي تسمح بالوصول إليها .
وتتمثل اجمالاً جيداً جداً مع الاهتمامات البشرية حتى إنه يتخذ ، بالنسبة
إلى دار الاسلام في القرون الوسطى ، شكل الشؤون اليومية أو حتى
وجه التاريخ : في الشرق رحلة بحرية طويلة ، محفوفة بالمصاعب ، لكن
تذهب إلى بلدان يظن أن وظيفتها تموين دار الاسلام (١٤٨١) ، وفي

الغرب ، على النقيض ، بحر الروم الذي يبدو ، منذ الخليفة ، أول سوق يذكرها القرآن (١٤٨٢) ، قبل أن يؤيدها التاريخ ، وهي أن الخطر على دار الاسلام يأتي من الغرب .

الجزر ، « جغرافية مبهمة »

تحدثت في مكان آخر عن الجزر خارج دار الاسلام : أقصد جزر بحار الهند والصين ، والجزر الاسطورية أو شبه الاسطورية التي توضع على تخوم العالم ، من أوروبا الغربية والشمال حتى الشرق الأقصى (١٤٨٣) ونظراً لما يجري من مجابهات في بحر الروم ، تجعله ثغراً من ثغور دار الاسلام ، اضطرت أن أتكلم أيضاً عن جزر هذا البحر (١٤٨٤). فالجزر الداخلة في مملكة دار الاسلام هي البليار ، صقلية ، جربة ومدها وجزرها ، ارواد (ارادوس) مقابل المدينة السورية انطربطوس ، جزر لكال (مرسى الخرز) ومصايد المرجان فيها ، الجزائر (جزائر بني مرغناي) (١٤٨٥) ، الجزيرة الخضراء ، وأخيراً قادس مع منارتها التي يريد البعض أن يرى فيها مجاز هرقل . والجزر التي يمتلكها الغرباء هي : قرشقة ، سردينية ، رودس التي حولت إلى ترسانة بيزنطية ومنطلق الغارات البحرية التي تصل إلى مصر . وتصنف بين الفئتين السابقتين جزر يتنازع عليها ، وتفقد : اقريطش ، قبرس التي ظن أنها رقت تسوية موقفة بين دار الاسلام وبيزنطية. أخيراً كل باقي الجزر التي لا يمكن تصنيفها أو تعرف معرفة سيئة : مثل سترومبولي وبركانها (١٤٨٦)، وفافينيانا ، وبتلاريا (١٤٨٧) ومالطة التي استولت عليها دار الاسلام ، ويستغرب ان يعتبرها ابن حوقل قفراً تسرح فيه الحمير والغنم المتوحشة (١٤٨٨) .

ويبدو عرض معظم تلك الجزر سيء ، وكذلك معرفتها (١٤٨٩). أما الجزر المنتشرة في البحر في الجانب الآخر من برزخ السويس ، فيرتادها البشر ، ويعرفون موقعها جيداً على وجه الاجمال . ويتضح من وصفها أنها تنتمي إلى دار الاسلام بالسلطة السياسية أو التجارة و الدين أو أصل السكان (١٤٩٠) . اذن ، اذا انطلقنا من السويس ، نرى أولاً جزراً على جانبي رأس سيناء (١٤٩١) ، ثم بعدها بكثير جزيرة السرين التي تمر فيها مروراً الحبوب والتمور والعسل (١٤٩٢) ، و جزيرة الصلاب (١٤٩٣) ، وفرسان وكمران الملائمة للبحريين الذين يستعذبون من إحدى عيونها لكن يشك بسمعتها : يستوفي فيها مكس على كل ما يمر فيها كما في السرين ، وثبتت سلطات اليمن وجودهما فيها بأشادتها حصناً وسجوناً بخاصة (١٤٩٤) .

وتقع بعض الجزر على ساحل البحر الآخر من جانب افريقية : وهي : جزائر بني حدان ، وكان بها مراكب لمن آثر الحج ، تخطف بالحجاج إلى الجار وجدة ، وهي اليوم سفاجة (١٤٩٥) . ثم جزيرة سنجلة وبها مغاص لؤلؤ ، ويقصد في كل حين بالزاد والرجال : وهي المكور بلا شك (١٤٩٦) . ثم جزر سواكن الثلاث ، التي يسكنها تجار الفرس وقوم من ربيعة (١٤٩٧) . ثم باضع (مصوع) وتلك ، أو هذه الجزائر الغنية بالماشية وتجارة جلود الدباغ (١٤٩٨) . وبعد باب المنذب ، تأتي زيلع ، مركز مرور كالجزر السابقة ، وتجارة جلود الدباغ والعنبر والصدف أيضاً (١٤٩٩) ، ثم جزيرة نجه المجهولة (١٥٠٠) تماماً، وبخاصة سقطرة التي تنتمي إلى عالم المحيط الرهيب كما قلنا (١٥٠١). وفي شرق جزيرة العرب ، متى خلفنا عبادان (١٥٠٢) ، نجد أولاً خاركة بزرعها وكرمتها ونخلها ، وخاصة مغاصات اللؤلؤ فيها ، ويسمى

لؤلؤها الحاركي، ثم تأتسي لاوان (شيخ شعيب) وابسرون .
(هندرابي) (١٥٠٣) من جهة فارس ومن جهة جزيرة العرب ، الخزر
الواقعة حول قطر واول ، التي تتمثل بارخبيل البحرين . ثم من جديد
لفارس ، جزيرة كيس (كيش . قيس) التي تشبه خارك ، والجزيرة
الصغيرة خين (فرور) (١٥٠٤) وليست مأهولة ، والجزيرة الكبيرة
ابن كاوال (ابركافان ، لاف ، فشم اليوم) ، المزدحمة بالسكان .
الخوارج ، وفيها جامع كبير (١٥٠٥) ، وبقرها جزر هرموز
(ارموز) (١٥٠٦) ، وهنجام (هنكم) ومنها يستعذب ارباب المراكب .
أخيراً ، تجري رحلة قصيرة على بحر الخزر (١٥٠٧) . وقد أشرنا
من قبل إلى جزيرة واقعة تجاه مصب الرس (اراكس) والكرمجمعين :
والبواقع أن مشهدها يشبه مشهد شاطئ النهرين ، إذ إن القوة ترتفع
على شطها وعلى ضفاف النهرين (١٥٠٨) . مع ذلك ، هذه الجزيرة
غير مأهولة ، ويخرج اليها منتجة لاثارة القوة ، ولاستعادة اللواب
التي تسمن فيها لكثرة كالأها . وفيها وفي غيرها من جزر بحر الخزر مياه
وأشجار (١٥٠٩) ، لكن لا عمارة فيها ، مما يؤيد الانطباع العام الناشئ
عن وصف بحر الخزر : هو بحر وحش ، ويركب فيه ، لكن بلا سرور
فهو بحر لا يجتذب الحياة لا إلى مياهه ولا إلى جزره (١٥١٠) ، التي
تتحفظ دار الاسلام بشأنها ، مثلما يلمع اليه ابن حوقل . والرمز التام
هو حقاً في جزيرة أيضاً ، نعي البركان الذي يجعله المسعودي يشور في
بعض أوقات السنة ، ويرتفع لهبه إلى علو شاهق حتى إنه ينور البحر
على طول ستمائة كيلومتر (١٥١١) .

ويمثل اجتماع الجزيرة والبركان والأرض والماء والنار (١٥١٢) حالة
قصوى من « الجغرافية المبهمة » . وذكرت في مكان آخر (١٥١٣) هذه

الأسطر الموضحة كثيراً ، المأخوذة من ج . وغرون ول . مارين : « تقع ، بين الاقيانوس الذي يعتبر حده المجهول وما لا يمكن عبوره ، وبين البر الذي يمثل المعروف والحضارة هذه الجزر التي تشترك بصفات الاثنين ، جغرافياً وسيكولوجياً ، وربما غيبياً . فهي واقعة نوعاً ما على حدود العالم ، لا خارجه ولا ضمنه ، على شريط يدرك بين الداخل والخارج ، أشبه بهذب العالم ، على هذا الخط الذي لا سماكة له ولم يعد فيه العالم عالماً ، ويبدأ يصير عالماً : فالجزيرة تدل على الحد والفارق » .

مع ذلك . تصبح هذه الإشارة بخاصة في حالة جزر طرق العالم أو الباحة فما هو وضع الجزيرة المألوفة ، قرب السواحل ، أو المسكونة ، المزدحمة بالسكان والعمارة ؟ قد يخطر للانسان لأول وهلة أن الجزر تشكل أحد العناوين العادية في العالم المعروف ، وتبحثها على هذا النحو كرتوغرافية صورة الأرض التي توزعها على شتى البحار ، مثلما تفعل على البر بالأنهار أو المدن أو الجبال (١٥١٤) . لكن سرعان ما تتدخل أسس أخرى . فأولاً يثبت الحرص على وصل الجزيرة ، متى أمكن ، بالبر القريب منها نوعاً ما ، حقوق الأرض ، ويعيد وضع الجزيرة ، أي جزيرة ، في حالة مزدوجة : انما يستحيل أن ينازع تماماً البحر الذي تقع فيه الجزيرة ، لكن قد يراد اذا جاز القول ، منعها من البحري على غير هدى ، ومنافسة البحر عليها ، واجتذابها إلى البر ، لكي تتوازن القوتان المتناقضتان : الأرض والماء (١٥١٥) .

وتعود ترددات أخرى إلى المصطلحات ، وترتبط بلفظ « الجزيرة » ذاته ، اذ يعتبر ، مثلما قلنا ، كل بلد يعزله البحر أو مجرى ماء أو صحراء (١٥١٦) عن سائر البرور جزئياً أو كلياً . اذن . لا فرق بالمعنى

الصحيح بين الاندلس وصقلية وجزيرة العرب والجزيرة (١٥١٧) . واذا أريد التدقيق ، يقال الجزيرة في البحر . كما في حالة صقلية (١٥١٨) . وأصلاً ، قد يتسهل هذا النوع من الترددات في بعض الحالات ، باتساع البلاد ذاته ، كما لو كان الفعل البشري يتردد في إعطاء لفظ جزيرة معناه الكامل متى واجه مساحة معينة . فنحن لا نزال اليوم نشعر بالحاجة إلى وصف مدغشقر بالجزيرة الكبيرة . ونتحدث عن استرالية بقولنا قارة ، ونمنع بتاتاً عن اللجوء إلى مفهوم الجزيرة عندما نشير إلى أكبر جزر العالم أي بالضبط ما نسميه بالقارات .

اذن « جغرافية مبهمة » بالنسبة إلى جميع الجزر . هذا ما يستشف من الوصف ، الذي يشير هنا إلى جزر غير مسكونة ، وهناك على النقيض إلى جزر مسكونة ومغمورة (١٥١٩) . قد يقال تارة جزر بلا تضاريس ، وطوراً جزر تعتبر جبلاً برزت من المياه (١٥٢٠) . قلنا في حديثنا عن البحيرة (١٥٢١) مشهد متضاد . نضيف : بالنسبة إلى الجزيرة أيضاً ، فالبحيرة والجزيرة يبديان في النهاية وجهين من حقيقة واحدة ، يحددها الانتماء المزدوج إلى الأرض والماء . فالبحيرة ماء موضوع في الأرض ، والجزيرة أرض موضوعة في الماء . ليكن . إنما لا يقف الأمر عند هذا الحد . فعلى جانبي وضع متوسط ، وضع الافق المنبسط ، يمكن أن تتطور البحيرة واطارها نحو مشهد مقعر ، مشهد منخفض محاط بالجبال . على العكس ، تتطور البحيرة نحو مشهد نفي الاعالي ، أي مشهد جبل يشرف على المياه المجاورة . ثم كما هي الحالة بالنسبة إلى البحيرة ، لتصبح بحيرة ، لا بد لها أن تغطي مساحة كافية ، وإلا استحال وجودها . لكنها ليست مساحة مفرطة الاتساع ، وإلا تحولت

إلى بحر ، مثلما يحصل للجزيرة التي تنحصر بين هذا الحد الأدنى الذي يبرزها وبين المساحة الشاسعة جداً التي تحولها إلى قارة .

نعلم أن الخليقة تركز على نطاق واسع على ما اراده الله من توازن بين البر والماء . لكن نعلم أن هذا التوازن مرحلة انتقالية ، بين الفوضى الأصلية ، والاضطراب النهائي عند الحشر حيث يتخرب كل شيء ليحل محله نظام جديد أزلي فالتوازن الذي يسمح للجنس البشري ان يعيش المدة الزمنية المقررة له ، لم يختتم ولم يقض نهائياً على النزاع بين البر والماء . فالنزاع متوقف فقط ، ويبقى تحت الرماد ، في الحدود التي وضعها الله فيه ، ويظل كل عنصر يبدي بأسه ، الأرض بالانديفاعات البركانية أو الزلازل ، والماء بالعواصف أو المد والجزر . أما في الوقت الحاضر ، فعلى جانبي هذه الشواطئ ، يتناوب الانتصار والانكسار ، والتراجع والاجتياح ، وفي النهاية ، لا يتنازل لا البر ولا البحر عن شيء ، ويحتفظ كل منهما بنطاقه . مع ذلك سيأتي يوم يندفع فيه الماء والأرض ضد بعضهما ، وسوف يؤدي نزاعهما بدعائم العالم . وتمثل الجزيرة والبحيرة التوازن الحالي في رمزيتهما الساكنة وفي مساحتهما المحدودة . لكن حتى في الابهام . تمثل الأرض التي تتحدى الماء أحياناً حتى في لججه ، والماء الذي يقطع اواصر الاستمرار لاتصال البرور ، مقدمتين ، بالقدر ذاته ، الבלبلات الرهيبة التي سوف يزول فيها عالمنا وزمننا .

• * *

حواشي القسم الأول

حواشي الفصل الأول

- (١) يعتبر الماء أحياناً المنصر الأول ، في القرآن (انظر ٢٥ ، ٥٦ / ٥٤) وفي العلم المعاصر .
- انظر ماييلي مطلع الفصل الثاني .
- (٢) القرآن - ١٦ - ١٥ - ٢١ ، ٣١ - ٣١ ، ١٠ - ٢٧ ، ٦١ - ٤١ ، ٩ ، ٧٨ ، ٦ ، ٧ .
- (٣) انظر المقدسي - ص ١
- (٤) الخوارزمي (ص) ، ص ٣٩ وما يليها .
- (٥) حدود العالم ص ٦٠ - ٦١ . حول احتمال تأثير ابن خرداذبه (في حدود العالم وفي ابن حوقل الذي سوف نتعرض له فيما بعد) ، انظر دي خويه ، ابن خرداذبه ص ١٦ روماني (استشهاد المسعودي ، مروج الذهب : فقرة ٥٠٣) .
- (٦) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، ص ٢٠٩
- (٧) البلدان المتاخمة لبحر قزوين ، في زاويته الجنوبية الغربية .
- (٨) حدود العالم ، ص ٦٥
- (٩) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، ص ١٠ وما يليها .
- (١٠) حدود العالم ، ص ٦٠ - ٦٩ (و ١٩٣ - ٢٠٥) .
- (١١) بحث الموضوع ، بحد ذاته ، في جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، بالنسبة الى الأرض بمجملها ، وبالنسبة الى البلدان الغربية : انظر الاحالات في المرجع ذاته ، الفهرس ، ص ٦٠٦

(١٢) على وجه الأرض : ابن حوقل ، ص ١٦٨ . أخذت الصورة الاجمالية التالية من ابن حوقل ، ص ١٦٨ ، أخذت الصورة الاجمالية التالية من ابن حوقل ، ص ١٦٨ -- ١٧٠ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ص ٤٨٨ . اكرر هنا ، والحق على شكل السلسلة : ما ورد في جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ . يعثر على معطيات أخرى ، جزئية ، لا سيما عند ابن خرداذبه ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، وترجمة ، ص ١٩ ، ص ١٣٤ (حاشية ٢) ، اليمقوبي ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، ابن الفقيه ، ص ٢٥ ، ٢٩ ، ١١٢ ، ٣٠٥ ، والمسعودي (م) ، فقرة ٥٠٣ ، حدود العالم ، ص ٨١ .

(١٣) حول هذا الجبل ، انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، ص ١٣٦

(١٤) انظر حدود العالم ، ص ٦٠ - ٦٩ ، وأماكن متفرقة بالنسبة الى ابن حوقل ، نحيل الى ماقلناه عن جبال ارمينية أو الالافوس . وتظهر فكرة الشبكة ؟ ؟ في الحديث عن جبال تهامة في جزيرة العرب : جبال مشتبكة (ابن حوقل ، ص ٣٦) .

(١٥) ابن حوقل ، ص ٣٤٧ . يمكن مقارنة هذه « الشجرة الجبلية = التشعب » الناشئة عن الماء الكوني (المحيط : انظر حدود العالم ، ص ٦١ ، فقرة ١) ، بمعنى حركة الشمس (من الشرق الى الغرب) ببعض تصورات النشوء الكوني الهندية ، مثل تصورات اعمدة ازوكا .

(١٦) انظر ابن حوقل ، ص ١٥٨ ، مع تصحيح جزئي لترجمة وابت

(١٧) ابن حوقل ، ص ٣٦

(١٨) ابن حوقل ، ص ١٧٠

(١٩) يستعمل ابن حوقل (ص ٣٥) لفظ عرق في تقديمه صورة شاملة عن رمال الأرض . ويستخدم لفظ العرق أيضاً ليبدل على سلسلة جبلية صغيرة تضرب من برقة الى فزان . الا اننا هنا في أرض رمال (ابن حوقل ، ص ٧٠) ، تشبه بطبيعتها ، في الغرب ، رمل نفزاوه ، الذي يحول مثلما قلنا ، الجبل الى رمل . لا شك ان دقة مفهوم العرق تقل عن دقة مفهوم الفرع في وصف الجبال . مع ذلك ، تقسم الرمال والجبال ، مثلما سوف نرى ، تقسيماً جيداً الى عروق رئيسة والى فروع .

(٢٠) ابن حوقل ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ١٥٦ - ١٥٨ .

(٢١) ابن حوقل ، ص ٢٦

(٢٢) « على ما وصفته وسقته » : حرفيا وأذا ادفعه أمامي ، كما تدفع القطعان أو الدواب .

(٢٣) ابن حوقل ، ص ١٧٠

(٢٤) ابن حوقل ، ص ٣٩

(٢٥) ابن حوقل ، ص ١٦٩

(٢٦) المسعودي (م) ، فقرة ٣٦٢ .

(٢٧) انظر مثلا المقدسي ، ص ٩ ، الذي تشير خرائطه الى الطرق (بالأحمر) ، وإلى الأنهار (بالأزرق) ، وإلى البحار (بالأخضر) ، وإلى الجبال (بالرمادي) وإلى الرمال (بالأصفر) .

(٢٨) حدود العالم ، ص ٧٩ - ٨٢

(٢٩) انظر في الريفيديا ، أول هزيمة للمياه تمت بشكل رأبئة من الأرض ، اعتبرت التل الأصلي ومنشأ الكون . يقول ابن رسته ، ص ٢٦ ، في حديثه عن مكة : لما غرقت الأرض ، رفع البيت ، فكان مكانه ربوة حمراء معروفة مكانها .

(٣٠) حول هذه المواضع ، انظر ابن الفقيه ، ص ١٩ - ٢٠ ، ٢٥ ، ابن رسته ، ص ٢٤ - ٢٦ ، المقدسي ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ا . ج . ونسك و ا . هـ . ر . جيب « عرف » في ١م (٢) ، ج ١ ، ص ٦٢٤ .

(٣١) ابن خرداذبه ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ابن الفقيه ، ص ٢٥ .

(٣٢) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ - ٥٣٠ . يشير المقدسي ، ص ١٠٣ الى جبل العرج المقدس ، ويقول ان جبريل شق فيه للنبي وقت هجرته طريقا إلى المدينة .

(٣٣) نود ان لتحتاتي اثقال النص بالحواثي ، فنكتفي هنا بالاشارة الى بعض الاحالات إلى مصنفين ابحاثهم أقرب الى الابحاث الموسوعية ، ثم نبرز بمزيد من التفصيل هذه المرة مصنفي المسالك والممالك : ابن حوقل (يوسع الاصطلاح الذي نمتنع عن ذكره) والمقدسي . لذلك نحيل الى ابن خرداذبه ، ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ابن الفقيه ، ص ٢٥ - ١٣١ - ١٣٢ ، أبو دلف مسعر (ب) ، ص ١٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٣٦٢ ، ٥٣٧ - ٥٣٨ ، ١١١٥ - ١١١٦ - المسعودي (ت) ، ص ٧٤ ، ١٢٣ - ١٢٤ ، ١٩٨ ، حدود العالم ، ٦٠ - ٦٩ ، ابن حوقل ، ٢٣ ، ٢٨ - ٣٠ ،

٣٣ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٤ - ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١١٨ - ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٦٨ - ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٠ - ٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩ ، ٣٠٩ ، ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٧٠ - ٣٧١ ، ٤٤٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨٨ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، المقدسي ، ٧٦ - ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٢٣ ، ١٢٩ - ١٤١ ، ١٦٠ (وحاشية ه) - ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ (وحاشية ب) - ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ - ٢٢٧ (وحاشية آ) ، ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ - ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ (وحاشية ب) - ٣٠٢ (وحاشية د) ، ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ٣٠٦ - ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٥ - ٣١٩ (حاشية ومن ٣١٨ وحاشية ج) ، ٣٢٢ (حاشية ط من ٣٢١) ، ٣٢٦ (وحاشية ط) ، ٣٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ - ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ - ٣٧٦ ، ٣٨٠ - ٣٨١ ، ٣٩٢ (حاشية آ) ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ (وحاشية ك) ، ٤٣١ (حاشية ب) ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ - ٤٤٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ (حاشية ق) ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ - ٤٧١ (وحاشية ا) ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ - ٤٨٧ - ٤٨٨ ، ٤٩٠ :

(٣٤) انظر حاشية ٢٧

(٣٥) يعلن هو عن ١٥٨ . انظر الخوارزمي (ع) ، ص ٣٩ وما يليها ، ابن سراجيون ، ص ٢٨ (ب) وما يليها ، اخوان الصفا ، ١ ، ص ١٦٤ ، قدامة ، ص ٢٣٢ ، م ٦٢ - ٦٣ .

(٣٦) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ - ص ٦٥ ، شكل ١٥

(٣٧) ابن الفقيه ، ص ١٩ - ٢٠ ،

(٣٨) حول هذا الحافظ ، انظر ش . بيلا ، م ١ (٢) ، ج ٤ ، ٧٧٨ .

(٣٩) يقع لبنان على منعطف النصرانية (بمبادء كما سيأتي فيما بعد) والتقليد التوراتي .

(٤٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ١٣٧٤-١٣٧٦ هـ / ١٩٥٥-١٩٥٧ م -

ج ٢ - ص ٧٣ ، الهروي ، كتاب الزيارات ، ترجمة ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ٢٠٢ (وحاشية ٧)

(٤١) ابن الفقيه ، ص ٢٥ ، كرده المقدسي جزئيا ، ص ١٣٧ . انظر أيضاً المقدسي ،

ص ٨٢

(٤٢) ابن الفقيه ، ص ٢٠ . حول مجاهد ، انظر المراجع عند ا . لاووست ، ابن بطه ،
الابانة بيروت - دمشق ، ١٩٥٨ ، ص ٢٤ ، حاشية ٢ .

(٤٣) المقدسي ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ، حسب استاذ يرجع الى اسرة كثير بن عبدالله (حول
هذا الحافظ ، انظر ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، حيدر اباد - بيروت ،
١٩٦٨ ، ج ٨ ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٤٤) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٨ - ٥٩

(٤٥) المسعودي (ت) ، ص ١٩٨ ، ٢٦٨

(٤٦) يبقى جبل جرزيم ، واسمه جبل الطور أيضاً ، قرب نابلس ، وطور عدين ، في
الجزيرة . ولا يذكر المسعودي الا هذا الأخير (مسعودي - ت ، ص ٨١) . انظر ١ .
هونيمان و م . ستريك ، ١٣ ، ج ٤ ، ٩١٣ - ٩١٤ و ٩١٥ - ٩٢٢

(٤٧) قلنا : قيل في التنبيه ان معظم أخبارنا مستقاة من نصوص المسالك والممالك بالدرجة
الاولى ، لأنها وحدها تستهدف وصف دار الاسلام وصفا كاملا منهجيا . هذا لا يعني
أننا استغنينا هنا أو في غير هذا المكان عن قراءة النصوص الأخرى ، التي لا تحوي ،
كما يخطر ببال القارئ سوى تدوينات إفرادية وطارئة ، قد تتم في بعض الأحيان
تدوينات كتب المسالك ، لكنها لم تقدم مثلها نظرة شاملة عن مملكة الاسلام . أما الموسوعيون ،
وفي طليعتهم المسعودي ، فلن نحيل الا الى القسم العائد الى الجغرافية من أعمالهم ، حتى
لو فهمت الجغرافية في أوسع معانيها ، ونستبعد القسم التاريخي (مع انه القسم الأعظم) .

(٤٨) حدود العالم ، ص ٦٣ - ٦٤ (و ١٩٨ - ١٩٩) . وما يلي الحاشية ٢٠٠

(٤٩) الاصلطخري ، ص ٩٨ - ١٠٠ ، وابن حوقل ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ،
والمقدسي - ص ٤٦٥ (جبل كود) ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ - ٤٧١ ، حدود العالم ، ص ٦٥ ،
١٢٤ (و ٢٠١ ، ٣٧٣ - ٣٧٥) ، مع ذكر جبل آخر اسمه قوهستان أبي غانم ،
ويدل على الأصح على رستاق أو مدينة : انظر الاصلطخري ، ص ٩٧ - ٩٨ ، ابن حوقل
ص ٣٠٩ ، المقدسي ، ص ٤٦٧ .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ٣٧٠ ، يتوسع بالاصلطخري ، ص ١١٩ . انظر أيضاً المقدسي
ص ٣٥٣ - ٣٨٤ - حدود العالم ، آخر ص ٦٥ .

(٥١) الاصلطخري : ١١٩ - ١٢٠ ، ابن حوقل : ٣٥٩ ، ٣٧١ - ٣٧٢ - المقدسي :

٣٩٨ - ٣٩٩ (الذي يسمى بلا ايضاح اضافي ، ص ٣٩٧ ، أحد جبال فارس قرب أصبهان : جبل الكحل) ، حدود العالم : يذكر هذا الكتاب جبل دنباوند ، (ص ١٣٥) فيه أيضاً تدوينات نادرة متفرقة عن وجود جبال (ص ١٣٢) ، ويشير (ص ٦٦) الى ان فروع الجبال الآخذة من فارس تحمل اسم كوه - جيلو ، قرب أصبهان . ويسمى المسودي (ت) ، ٧٤ ، (انظر ب ١ شوارتز ، فارس . . . - مذكور بعد فارس - لا يبرز - ١٨٩٦ - ١٩٢٩ ، ج ٤ - ص ١٤٥٣ جبل كبير الذي يشرف على مدينة ماسبدان . أخيراً ، يشير ابن الفقيه ، ٢٥٩ ، الى جبل ايزا ، قرب نهوند .

(٥٢) يضع الاصطخري وابن حوقل والمقدسي جبال الخرمية في اقليم الجبال ، مثلما يلاحظ ، في حين يقع قلب بلد بابل في اقليم آخر (الران - اذربيجان) ، وهذا ما يقوله اصلاً ابن حوقل ، ص ٣٧١ . ويمكن ان نزيل هذا التضارب اذا فكرنا بتواحي أخرى من اقليم الجبال ، فيها خرمية (انظر ج . وايت ، الحرائر الفارسية ، القاهرة - ١٩٤٨ ، ص ١٣٦) حسبما يقول المسودي مثلاً (المسودي (ت) ، ٤٥٣) . الا أن ذكرى بابل التي يشير اليها صراحة الاصطخري وابن حوقل لا تجيز هذا التأويل . ولا يسعنا ، فيما يبدو ، لازالة التناقض ، الا أن نفكر في الأرجاء الجبلية الواقعة في شمال غرب اقليم الجبال المتاخم لاذربيجان . ويشير المسودي ، فقرة ٥٠٦ الى جبل ابي موسى الواقع فيما يظن في النطاق الخرمي .

(٥٣) لا يرد جبل اروند (الوند) باسمه صراحة في الفقرة التي تهمننا الا عند ابن الفقيه ، الذي يشيد به لأنه من مواليد همذان (ابن الفقيه ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤) . ويلمح اليه ابن حوقل ، ٣٧٢ ، والمقدسي ، ٣٩٣ (ويذكر ابن خرداذبه رستاق اروند في عداد رساتيق أصبهان ، ٢١ ، الا ان الاسم غامض عنده : انظر حاشية آ عند الناشر) . بشأن اروند ، انظر م . سترك و د . ن . ولبر ، في م (٢) - ج ١ ، ٤٣٨ ، و ج . لوسترانج ، أراضي الخلافة الشرقية - مشار اليه فيما بعد الخلافة الشرقية ، كمبريدج - ١٩٠٥ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٥٤) انظر ر . بلا نشار - في ب . فيدال دي لا بلاش ول ، غالوا ، الجغرافية العالمية - ج ٨ ، آسية الغربية - باويس ، ١٩٢٩ ، ص ١٣٠ .

(٥٥) الا اصطخري وابن حوقل يكرران الوصف ويتوسعان فيه في بحث اقليم الديلم : الا اصطخري ، ١٢٣ ، وابن حوقل ، ٣٨٠ - أخذت عنهما بعض صفات عرضي .

(٥٦) المسمودي (م) فقرة ٢٠٤ - ٢٠٥ ، المسمودي (ت) ، ٧٤ ، ابن الفقيه ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، مسعر (ث) ، ٣٣ - ٣٤ ، حدود العالم ، ١٣٥ و (٣٧٥) .
(٥٧) يعلن أبو دلف مسعر وابن حوقل (مرتين) انه يمكن النقاش في مسألة امكانية الصمود .

(٥٨) الاصلطخري ، ٦٧ ، حدود العالم ، ٦٥ - ٦٦ ، ١٢٦ ، ابن حوقل ، ٢٦٣ - ٢٦٤ . المقدسي ، ٤٣٩ . لا يجوز ان يتخذ المرء بلائحة أسماء الجبال التي تأتي منها الأنهار ، والواردة في تعداد ابن حوقل ، ٢٧٥ ، ففيها اسم علم واحد ، هو جبل دينار (وليس دينان : ابن حوقل ، ترجمة ، ص ٢٧١ ، انظر شوارتز ، فارس ، ج ١ ، ص ٤) . تنطبق الملاحظة ذاتها على جبل جم ، اسم احدى المدن ، مهما قال الاصلطخري ، ٧٨ ، وابن حوقل ، ٢٨١ (اللذان يناقضهما الاصلطخري ، ٧٠ ، وحوقل ، ٢٦٧) انظر شوارتز ، مشار اليه من قبل ، ج ، آخر ص ٣ . ويجوز أن يكون جبل الطين (الاصلطخري ، ٧٣ ، ابن حوقل ، ٢٧٢ ، ترجمة ، ص ٢٦٩) « جبل طين » انظر مع ذلك شوارتز ، مشار اليه ، ج ٢ ، ٩٢) .

(٥٩) يعني لفظ طبر « جبلا » في اللهجة المحلية : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٦٩ .

(٦٠) غمضت على تسمية جبل بنقشله ، الذي يذكره المقدسي ، ٢٥٥ ، ويدخل في كورة الخزر الغربية المربوط وصفها كيفيا عنده بوصف أقليم الديلم . بشأن المواضيع المشروحة هنا ، انظر ابن الفقيه ، ٣٠٥ - ٣٠٦ ، الاصلطخري ، ١٢١ - ١٢٥ ، ابن حوقل ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ - ٣٧٧ ، ٣٨١ - ٣٨٣ ، المقدسي ، ٣٥٣ - ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ، حدود العالم ، ٦٤ - ٦٥ ، ١٣٤ - ١٣٦ (و ١٩٩ - ٢٠٠) ، لوسترانج ، مشار اليه من قبل ، ٣٧٢ - ٣٧٣ (يذكر المسمودي (ت) ، ٧٤ ، جبال مورجان (حول موقع هذه القرية ، انظر ابن حوقل ، ٣٨٤) .

(٦١) المقدسي ، ٤١٤ ، الذي يذكر أيضاً بعض الجبال (٤١٠ ، ٤١٤) . انظر أيضاً حدود العالم ، ١٣ .

(٦٢) ابن حوقل ، ٢٤٦ ، المقدسي ، ١٢٣ ، ١٢٦ .

(٦٣) انظر الخريطة ، رقم ١٩ ، ابن حوقل ، ترجمة وايت ، ص ٣٩٢ .

(٦٤) المقدسي ، ٤٩٠ .

(٦٥) الاصطخري ، ١٣٣ ، ابن حوقل ، ٤٠٢ ، المقدسي ، ٤٩٠ (ح ، ب) .
حدود العالم ، ٢٢٢ . ويذكر أيضاً في هذه المفازة جبل يشك باسمه (بجنوبه ، بجنوبه) :
الاصطخري ، ١٣٧ (و ح ، ٣) ، ابن حوقل ، اخر ص ٤٠٧ .

(٦٦) انظر مثلاً اليعقوبي ، ٢٨٩ . أحيل هنا اجمالاً الى ابن حوقل ، ٤٢٦ - ٥٢٥
(خاصة ٤٤٨ : يتألف ختل كله من جبال) . المقدسي ، ٢٦٠ - ٣٥٢ . هناك وجهة
نظر مختصرة لكنها مقنعة في حدود العالم ، ١٠٢ - ١١٧ ، ١١٩ - ١٢١ . لم أدخل في
تعداد الجبال المعينة بأسمائها ، جغير - اغز ، وهو بلد تناولته في حديثي عن الأثرالك في
جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ . انظر ماييل ، الحاشية ٢٨٧ .

(٦٧) انظر ابن حوقل ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، وأماكن
أخرى . المقدسي ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
وأماكن أخرى .

(٦٨) انظر حدود العالم ، ١٠٤ (خوجستان) ، ١٠٦ (سارغان) ، ١٠٨ (طخارستان)
١١٥ (بتم ، بتمان) ، المرجع ذاته (فرغانة) ، ١١٩ (ختل) ، ١٢٠ (رشت ؟) .

(٦٩) المقدسي ، ٣٠٩ . حدود العالم ، ١٠٥

(٧٠) الاصطخري ، ١٤٣ ، ابن حوقل ، ٤٢١ ، المقدسي ، ٣٥٠

(٧١) ابن حوقل ، ٥٠٩

(٧٢) الاصطخري ، ١٥٥ (لم ينقل ابن حوقل الأسم ، ٤٤٧) .

(٧٣) الاصطخري ، ١٧٨ ، ابن حوقل ، ٤٩٥

(٧٤) الاصطخري ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ابن حوقل ، ١٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ،
٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ - ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ - ٥٠٦ ، ٥١٥ ، حدود العالم ،
١١٥ ، يجعل من بتم ناحية جبلية أصلاً . بشأن بتم انظر و . برتولد ، التركستان حتى
الغزو المغولي (مستشهد به فيما بعد : تركستان) ، لندن ، ١٩٦٨ ، ص ٨٢ . اقتصر
في بحث هذه النواحي على الرجوع الى جغرافي المسالك والممالك ، والى كتاب حدود العالم ،
فمندهم وصف منهجي . أما الباكون فعلى الهامش أو يتحدثون عرضاً : انظر مثلاً المسعودي
(ت) ، ٧٤ ، بخصوص جبل قرب نيسابور .

(٧٥) انظر م . لومبار ، المعادن في العالم القديم من القرن الخامس حتى القرن الحادي عشر ، باريس - لاهاي ، ١٩٧٤ ، ص ٤٣ ، ٢٣٨ .

(٧٦) الاصطخري ، ١٥٢ ، ابن حوقل ، ٤٤٠ - ٤٤١ ، المقدسي ، ٢٩٨ ، ٣٠٨

(٧٧) المقدسي ، ٢٧٥ (س ٩ - ١١) ، ٤٢٦ (س ٨ بشأن شلجي بكسر أو فتح الشين ، المذكورة من قبل ، ص ٢٧٥ ، س ٧ - ٩ ، لكن كمدينة دون الإشارة الى الفضة) .

(٧٨) الاصطخري ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ابن حوقل ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ، حدود العالم ، ١٠٩ ، المقدسي ، ٣٠٣ ، ٣٢٩ ، الوحيد الذي يسمي بنجهير جبل فضة . بشأن بنجهير ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ص ٣٥٠ .

(٧٩) حدود العالم ، ٦٣ - ٦٥ ، ١٠٢ - ١٢٢ . الاسم اسم قملك ، ٦٣ (١٩٩) .

(٨٠) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، ٢٥٩ - ٢٧٢ .

(٨١) ابن حوقل ، ١٦٩ (انظر م . كاذار ، تاريخ سلاة الحمدانيين في الجزيرة وفي سورية ، الجزائر ١٩٥١ ، ص ١٢٨) ، يضيف امتدادا يعبر نهر دجلة : جبل الشقوق ، الذي ينبغي ان يلحق به جبل سنجار في الشمال الغربي ، ويقول الاصطخري ، ٥٣ (لم يكرره ابن حوقل) عنه ان اسمه مأخوذ عن المدينة القائمة هنالك ، وجبل ماردين الذي يحمل أيضاً اسم المدينة المقابلة له ، حتى ولو لم يرد هذا التفصيل : حدود العالم ، ٦٦ (و ٢٠٣) ، الاصطخري ، ٥٢ ، ابن حوقل ، ٢١٤ (المدينة وضوحها الناسخ الذي زارها بعد نحو من خمسين عاما على وضع الكتاب في صيغته النهائية : ابن حوقل ، ٢٢٣ - ٢٢٤) ، المسعودي (ت) ٨١ ، يتحدث عن (علم الشيطان) « مما يلي طور عبيد » ، أي في جنوب شرق ماردين . انظر أيضاً ابن سراييون ، ٢٩ (ب) ، ٣١ (أ) ، ٣٢ (ب) .

(٨٢) انظر ابن حوقل ، ١٦٩ (جبل زيتا وجبل زامر : انظر كاذار ، مشار اليه من قبل ، ١٢٣ ، ح ١٠٤) . يذكر أيضاً جبال الداسن ، من اسم احدى المدن (ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢٩٧ ، ٣٧٠) ، الجبل « الذي بآمد » (ابن الفقيه ، ٦٧ ، ١٣٤) ، والجبال المعروفة بالسلك (من رساتيق اذربيجان) وجبل شمران (ويسمى أيضاً جبل

قنديل أو التاج أو شيرويه) في حوض الزاب الصغير (ابن الفقيه ، ١٣١ - ١٣٢ ،
المسمودي (ت) ، ٧٩) ، وجبل بالوسه ، قرب نصيبين (الاصطخري ، ٥٢ ، ابن
حوقل ، ٢١١) . مع ذلك ، يذكر كثيراً جبل بارما ، عن اسم قرية بين تكريت والموصل :
ابن سراييون ، ٢٩ (ب) ، ٣٢ (ب) ، قدامة ، آخر ص ٢٣٢ (يضيف اليه اسم جبل
ساتيدما) ، الاصطخري ، ٥٣ ، ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، حدود العالم ،
٦٦ (و ٢٠٢ - ٢٠٣) . انظر أيضاً لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٩١ ، ٩٨ . بشأن
هذه التاحية ، انظر المقدسي ، ١٢٣ .

(٨٣) ثنين ، باسورين ، قشابور ، تجمع ، فيما يبدو ، لتدل على جبال مرتبطة بجبل
الجودي : المسمودي (م) ، فقرة ٦٤ ، ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ .

(٨٤) ابن خرداذبه ، ٧٦ ، قدامة ، ٢٤٥ ، المسمودي (م) ، فقرة ٦٤ ، الشابشتي ،
١٩٩ ، الاصطخري ، ٥٥ ، ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، المقدسي ، ١٣٦ ،
١٣٩ ، ١٤٧ ، حدود العالم ، ٦٦ . انظر أيضاً ما تقدم ، ص ١٠ . وردت قصة نوح
في القرآن ، ١١ ، ٣٩ / ٣٧ و ٤٦ / ٤٤ : انظر طبة بلاشير ، ج ٢ ، ٤٣٩ (حاشية)
و م . سترك في ١ م (٢) ، ج ٢ ، ٥٨٨ - ٥٨٩ ، اللذين يشرعان الالتباسات الممكنة
بين هذا الجبل وبين جبل آخر يحمل الاسم نفسه وجبل ارارات : اثار هذا الالتباس
عند المقدسي ، ٣٨٠ . يذكر المسمودي (ت) ، ٨١ جبل التنين في تلك الأرجاء .

(٨٥) ذكريات أرمينية لا تناسب الأمن الى نوح ، عند المقدسي ، ٣٧٤ .

(٨٦) ما لم يكن الاسم يشير الى شخص اسطوري عربي : انظر لوسترانج ، الخلافة
الشرقية ، ١٨٢ . مع ذلك يلاحظ التشابه بين الحارث (اراتور) وصيغة اسم ارارات ،
المشتق من السريانية : اورارتو .

(٨٧) انظر قدامة ، ٢٣٢ ، الاصطخري ، ١١٢ ، ابن حوقل ، ٣٤٦ - ٣٤٧ (مع
الحاق بجبل القبق ، الذي يعتبر كثير الألسن : انظر ما يلي ، ص ٣١ ، حاشية ١٧٦ ،
وبجبال أخرى في هذه الأماكن ، تسمى باسم القرى ، مثل واهر وورزقان : انظر ابن
حوقل ، ٣٣٦ (٣٧٢ ، المقدسي ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، حدود العالم ، ٦٦ ، ٧٧ ،
(و ٢٠٣ ، ٢١٨) . انظر أيضاً لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٨٢ ، م . سترك ، في ١ م
(٢) ، ج ١ ، ٢٥٩ - ٢٦٠ . تعتبر الألف مدينة ، رمز الماضي ، الذي يتصل بحادثة
قصص أهل « البئر » : انظر الفصل الثاني ، حول نهر الرس الأرمني .

(٨٨) الاصطخري ، ١١٢ ، من أجل ألا ذوييجان والران و ارمينية .

(٨٩) ابن حوقل ، ٣٣٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، حدود العالم ، ٦٦ (و ٢٠٢) .

(٩٠) المقدسي ، ١٨٨ - ١٨٩ . حول المواضيع المعالجة هنا ، انظر الخوارزمي (ع) ، ١٢٥ ، ابن سراييون ، ٤٤ (آ) ، ابن خرداذبه ، ١٧٣ ، قدامة ، ٢٣٢ (و م ٦٥) اليمقوبي ، ٣٢٦ - ٣٢٧ (ترجمة ، ص ١٧٦ ، ح ٢) ، ابن الفقيه ، ٢٥ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ٢٩٥ ، الثعالبي ، ٩٥ ، الاصطخري ، ٤٣ ، ٤٨ ، ابن حوقل ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، المقدسي ، ٤٤ ، ١٦٠ (وحاشية ي) - ١٦٢ (و ح ب) ، ١٧٢ - ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ - ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، (ح يا) ، حدود العالم ، ٦٧ . اليمقوبي ٣٢٧ ، يضع عاملة في جبل الجليل : انظر هـ . لامس ، فرس لبنان » ، في منوعات جامعة القديس يوسف في بيروت ، ١٤ روماني ، ١٩٢٩ ، ص ٣٩ . ابن خرداذبه ، ٧٧ (ح يه) ، يتحدث عن جبال النور » ، الا أن النص مبهم ، عل الأقل بالنسبة للفظ جبل ، ويلحق الجبل بناحية معروفة جيداً أصلاً : النور ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٠٦ ، يذكر الجبل الأقارع بين اللاذقية وانطاكية . بشأن الجولان ، كما يفهمه المقدسي ، انظر ماييل ، الفصل السادس ، ص ٤٠٤ ، حاشية ٢١٣٦ .

(٩١) قدامة ، ٢١٩ ، المقدسي ، ١٩١ .

(٩٢) سنير جزء من حرمون بالمعنى الصحيح الا انهما يستعملان أحدهما بدل الآخر : (سفر تثنية الاشتراع ، ٣ روماني ، ٩ ، وقوى ، معجم التوراة ، ٥ روماني ، باريس ، ١٩١٢ عود ١٤٦٦ قدامة ، ٢١٩ ، (و ح آ) ، يسمي جبل رمي بين بعلبك ودمشق ، وهو مجهول ، المنطقة هي الزبداني ولا بد أن الجبل المقصود هو الجبل الشرقي مثلما يفكر الناشر .

(٩٣) المقدسي ، ١٧٢ و (و ح كجـ) ، الترجمة ، فقرة ١٧٨ ، ح ٢٢٢ . ا . س . مرمجي (نصوص جغرافية عربية عن فلسطين ، باريس ١٩٥١) يحرك نصره . انظر صفحات من تاريخ جبل عامل (في لبنان) ، بيروت ، جماعة من الباحثين) ، ١٩٧٩ .

(٩٤) حول هذا التمسك بالوطن ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ١٩ روماني ،

وجغرافية دار الاسلام البشرية ، ٣١٣ - ٣١٤ .

(٩٥) يذكرهما المقدسي في مكان آخر في عداد الرساتيق : المقدسي ، ١٥٤ ،
١٦٠ (ترجمة ، فقرة ١٤٦ ، ح ١٣٠) ، ١٧٥ .

(٩٦) لا تذكر جبال الشراة الا مرة واحدة (المقدسي ، ١٨٦) ، لكن قد تكون
ملحقة بكورة الشراة : بالفعل تذكر الشراة ككورة في معظم الاحيان : المقدسي ، ١٥٤ -
١٥٥ د ١٧١ (ترجمة ، فقرة ١٩٦ ، ج ٢٦٧٠) ، ١٨٥ (« نهر الشراة » : انظر
ترجمة ، فقرة ٢٢٣ ، ج ٨٩٠) .

(٩٧) وارد، منذ العهد القديم، في ٢ من صموئيل، و ١٥ ، ٣٠ ، وفي زكريا، ١٤ ، ٤٠

(٩٨) انظر سفر تثنية الأشترع ، ٣ ، ٨ - ٩ ، عمود ٦٣٣ - ٦٣٧ ، وما تقدم
حاشية ٩٢ .

(٩٩) ذكر أكثر من ٦٠ مرة في العهد القديم . انظر قوى ، مجمع التوراة ، ٤ ، عمود
٢٢٧ - ٢٣٤ .

(١٠٠) على افتراض ان جبل نصره (أو نصره : انظر ما تقدم حاشية ٩٢) اسم جبل فعلا :
انظر ملا حفلة دي خويه في المقدسي ، ١٧٢ ، ح كج .

(١٠١) احيل الى مقالي : « بعض نصوص المقدسي عن تمثيل اقاليم الاسلام » : الجغرافية
والمشهد الذهني . الدراسات العربية ، تحاليل ونظريات (جامعة باريس ٨ - فنسين) ،
١٩٧٩ ، ٢ / ٣ ، ص ٢٧٧ - ٣٠١ .

(١٠٢) المقدسي ، ٢٠٩ .

(١٠٣) لعل ذلك يحصل دون ان يعي المصنفون الأمر دوماً وتاماً . ويسترعي انتباهنا
الى الجبل الذي اسميه « كاملا » ، اجتماع ثلاث ميزات قياسية (هي دور الجبل في الهندسة
الأرضية ، وكيافه وتاريخه المقدس) ، لا غلظه الخام أو طول استشهاده . على سبيل
المثال ، لاشك ان جبل الجودي مشهور ، على وجه الاجمال ، أكثر من جبل لبنان ،
لكنه مثله مقدس ، وواضح الكيان كثيرا ، الا انه ادنى منه في صفات العلو والمجسم وفي
مركزه في النظام الجبلي العالمي .

(١٠٤) حول جبال جزيرة العرب ، انظر ما تقدم ، ص ١٠٨ ، و قدامة ، ٢٤٨ ، ابن
الفقيه ، ٢٥ ، ٩٢ ، ٢١٢ ، ابن رسته ، ٥٦ - ٥٧ ، اليعقوبي ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،
المسعودي (ت) ، ٢٧٩ ، ٣٣٤ (يعطي اسماً جبلي طوي) ، الا صطخري ، ٢١ - ٢٦ ،
ابن حوقل ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ - ٣٧ ، ٤٠ ، المقدسي ، ٧٠ ، ٦٧ ، ٧٦ - ٧٧ ،

٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٠٢ - ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ٢٥٤ (ح ط) ،
حدود العالم ، ٦٦ - ٦٧ (و ٢٠٢) .

(١٠٥) انظر ما تقدم حاشية ٣٢

(١٠٦) احوالة الى القرآن ، الشعراء / ١٥٠ (قول النبي صالح لشمود) : « . . . وننحتون
الجبال بيوتا .

(١٠٧) حول هذا الشخص ، ابن علي ، والكيسانية ، انظر هـ . لا ووست ، الانشقاقات
في الاسلام باريس ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦ - ٣٢ . و . و . مادلوغ ، في ١٣ (٢) ، ج ٤ ؛
٨٦٩ - ٨٧١ ، أعلن النبي ان الله راض عن جبل رضوى ، والنسبة الى الجبل الذي اشتق
الاسم منه : رضي .

(١٠٨) انظر ابن خرداذبة ، ١٤٠ - ١٤١ (و ح آ مع احوالة الى الهمداني ، ١٠٠) ،
الاصطخري ، ٢٦ ، ابن حوقل ، ٣٧ ، حدود العالم ، ٢١ (و ح ١) ، ٢٠٣

(١٠٩) حدود العالم ، ٦٦ ، يسمي تهامة (لا السهل الساحلي) جزيرة العرب الجنوبية
استبعد عن هذه الرؤيا مصنفنا كالهمداني ، الذي يقتصر حديثه على جزيرة العرب ، ولا
يتناول صورة شاملة لدار الاسلام .

(١١٠) انظر أ . غروهمان ، في ١٣ ، ج ٤ ، ٣٧١

(١١١) شهاب أيضاً يطلق على قرية : انظر غروهمان ، مشار اليه ، واليعقوبي ، ٣١٢ ،
الذي يسمي « جبل طي » سلمى : انظر أيضاً ما تقدم حاشية ١٠٤ .

(١١٢) انظر مقالتي المشار اليه من قبل : « بعض نصوص المقدسي » .

(١١٣) انظر المسعودي (ت) ، ٣٠٠ . ابن رسته ، ١١٦ - ١١٧ ، ابن الفقيه ، ٥٩ ،
الاصطخري ، ٤٠ ، ابن حوقل ، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ،
المقدسي « ٢٠٩ ، ٢١٢ ، حدود العالم ، ٦٨ ، ٨١ . ويعطي المسعودي (م) فقرة ٢٢٠ ،
اسم جزء من هذه السلسلة المزدوجة : الطيلمون . ويسمى جبل الطير (أو بوقيران :
ابن رسته ، ٨٢ . حول هذا الطير وهذا الاسم ، انظر ج . منبيري و ج . وايت ،
« معطيات لجغرافية مصر » ، مذكرات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، ٣٦ .
روماني ، ١٩١٩ ، ص ٦٤ - ٦٥) ، ويقع في الجانب الشرقي من نهر النيل ، بالقرب
من منية ابن خصيب (انظر جغرافية ابي الفدا ، النص العربي ، طبعة رينو دي سلين ،

باريس ، ١٨٤٠ ، ص ٦٧ ، والطروي ، الاشارة الى أماكن الزيارة ، ترجمة وطبعة ح .
سورديل تومين ، دمشق ، ١٩٥٧ ، ص ٩٩ ، ح ٢ . يذكر قدامة ، م ٦٤ ، اسما
مبهما جداً (سدوقية) ، نقله المقدسي ، ٢٠ ، ح يا : بلوقبه : يبدو ان النص يشير الي
نصف الدائرة (حول معنى الصيغة الخامسة لتمرّج ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٩٨) التي
يرسمها نهر النيل بين الأقصر ونجع حمادي . فهل نقراء بلوقيه : ابولونيد ، أي ابولونيو
بوليس (بارفا) ، أو قوص (انظر ج . - ش غرسين ، قوص ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٨
وما يليها) نشير الى أن الف ليلة وليلة تحوي قصة بلوقيه . لكن لعل بلوقيه صورة
خاطئة بوقيرا (ن) .

(١١٤) انظر ابن حوقل : ص ١٣٢ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، وحدود العالم : ص ٦٧

(١١٥) الاصطخري : ص ١٩ ، ابن حوقل : ص ١٧ . انظر المقدسي : ص ٢١٦
« اقليم المغرب ، في زاوية الاسلام موضوع ، وبعضه خلف البحر مقطوع »

(١١٦) اليعقوبي : ص ٣٥٨ - ٣٥٩ (يذكر اسم انقبك ، المشكوك بصورته ، الذي
يقصد به تل الجزائر على الأرجح) . قارن بالحقة التالية للحقة التي تهمنا ، في ج .
ديسوا ، « الأطلس » ، في ١م (٢) ، ج ١ ، ٧٧٠ - ٧٧١ . حول حقيقة هذه المنطقة
التضاريسية ، انظر ا . برينان ، « الجزائر » في الموسوعة العالمية ، باريس ، ج ١ ،
١٩٦٨ ، ص ٦٣٢ .

(١١٧) اصف الى الجبال الواردة لاحقا اسما مشكوكا جدا فيه ، يطلق على جبال المقدسي :
ص ٢٢٧ (وحاشية آ) . أما جبال برقة (برقة : انظر عقبة برقة : ابن حوقل :
ص ١٥٧ ، ١٧٠ وحدود العالم : ص ٨١) ، فقد أخذ اسمها كما نرى من اسم
المنطقة ، الشهير جدا والشائع استعماله . حول جبل اشبرتال (رأس سبارتيل) انظر ماييلي
عن الأندلس .

(١١٨) أو توجان : ابن حوقل : ص ٨٩ ، المقدسي : ص ٢١٨ ، ٢٢٩ (وحاشية ن ،
ك : انظر الادريسي ، وصف أفريقيا والأندلس ، ترجمة دوزي ودي نخويه ، لا يدن ،
اعادة طبع ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥ ، ج ١) .

(١١٩) ابن حوقل : ص ٨٨ (ربما عنت تازة فج الجبل) .

(١٢٠) المقدسي : ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ - ٢٣٠ . التمييز لجالك برك في « من
الفرات الى الأطلس » باريس ، ١٩٧٨ ، ١ ، ص ٣٨١ .

- (١٢١) ابن حوقل : ص ٩٤ - ٩٥ . حدود العالم : ص ٨١ (باسم جبل طرابلس) .
- (١٢٢) ابن خرداذبة : ص ٨٩ . ابن الفقيه : ص ٨٠ . اليمقوي : ص ٣٥ ، ٣٥٨ - ٣٥٩ . ابن حوقل : ص ٨٤ - ٨٥ . المقدسي : ٢٢٧ .
- (١٢٣) ابن حوقل : ص ١١٨
- (١٢٤) المسمودي (م) : فقرزة ٢٧٦ ، ٤٦٤ ، ٩١٢ . المسمودي (ت) : ٨٩ (بركان منقلية ، وضع في جزيرة ، لعل التباسا حصل بينه وبين ستروميولي) . ابن حوقل : ٢٥٥ - ٢٥٦ . المقدسي : ٢٣٢ - ٢٤١ .
- (١٢٥) ابن خرداذبة : ص ٩٠ . ابن الفقيه : ٨٨ . المسمودي (ت) : ١٠١ . الاسطخري : ٣٥ ، ٣٦ . ابن حوقل : ٤٧ ، ٦٢ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٩٠ . المقدسي : ٢٢٣ (وحاشية ح) ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٤٨ . حدود العالم : ٦٩ ، ٧٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥ (و ٢٠٥) .
- (١٢٦) . يلاحظ ان هذه الجبال الثلاثة الأخيرة لم تذكر الا مرة واحدة عند ابن حوقل وابن الفقيه والمسمودي . حول شلير ، انظرا . ليفي بروفنسال ، شبه جزيرة ايبيريه في القرون الوسطى حسب الروض المطار ، لايدن ، ١٩٣٨ ، ص ١٣٧ . حول اسم شلير ، انظر مايلي .
- (١٢٧) ابن حوقل : ١٩٠ . اشبرتال وجبل (عوضا عن طرف) الفر .
- (١٢٨) حدود العالم : ٦٩ (و ٢٠٥) . تقطع السلسلة الثانية نهر تاجو في عقبة اذا أخذنا منطوق النص الحرفي .
- (١٢٩) أصله شرقي (وتبقى لغته شرقية) لكنه أقام في الأندلس : انظرا . لبفي - بروفنسال في الأندلس ١٨ روماني ، ١٩٥٣ ، ص ٥٦ ، وفي ١م (٢) ، ج ١ ، ص ٥٠٣ (تلخيص نظام جبال الأندلس حسب الرازي . أخذنا معلوماتنا عن الرازي : ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ (وحاشية ٧) ، ٧٦ ، ٨١ ، ١٠٠ - ١٠١ .
- (١٣٠) انظر م . بسنيه ، معجم الجغرافية القديمة ، باريس ، ١٩١٤ ، ص ٧١٢
- (١٣١) يتكرر الزوض المطار هذه المعلومات ، طبعة ليفي بروفنسال ، شبه جزيرة ايبيريه ، مشار إليها ، ص ١٧٨ ، وحاشية ٤ .

(١٣٢) انظر العذري ، مختارات جغرافية تاريخية ، طبعة ع . ح . الالهواني ، مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ٦٦ و ١٦٢ .

(١٣٣) الجاحظ (ح) ، ج ٣ ، ٢٩٩ ، ٣٧١ .

(١٣٤) الآيات ٦٢ / ٦١ - ٦٣ / ٦٢ .

(١٣٥) ابن حوقل : ٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٩٥ . المقدسي : ٧٧ (مرتين) ، ١٧٣ ، ٤٩٠ (ب) ، هذه الاحالة الأخيرة مقصود بها ، بدليل الأرقام ، الجبل ذاته الوارد عند ابن حوقل ٤٠٢ . بالفعل كلاهما ينقل عن الاسطخري : ١٣٣ .

(١٣٦) ابن حوقل : ٢٢٢

(١٣٧) المقدسي : ١٧٣

(١٣٨) ابن حوقل : ٣٧٢ ، ٣٨٠

(١٣٩) اضافة الى الألفاظ التي سوف نذكرها ، نشير الى ما ورد عند المقدسي مرتين ، ٤١٤ ، ٤٢٨ ، عن مدينتين في خوزستان وفارس ، واقعتين في هودة . والهودة تعني حرفيا سنام الجبل ، لكن لو افترضنا ان بوسعنا ترجمة هودة هنا بأكمة أو حدة ، تبقى مشكلة استعمال حرف الجر « في » المستعمل عوضا عن « على » الشائعة عند المصنفين الجغرافيين في حالات من هذا النوع (على الجبل ، على التل ، . . . الخ) . ويفترض دي خويه وجود تصحيف لو هدة : منخفض ، قاع (دي خويه ، م ج ع ، ج ٤ ، ٣٧٠) .
(انظر الحاشية ح و يط من المقدسي ، مشار اليه)

(١٤٠) ابن حوقل : ١٢٢ ، ١٨٣ ، المقدسي : ٨٤ ، ١٣٨ ، ٢٩٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٧ ، ٤٢٨ .

(١٤١) ابن حوقل : ٥٠٧

(١٤٢) ابن حوقل : ٤٠٨ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٣٥٢ .

(١٤٣) ابن حوقل : ٧٩ ، ٢٢٥ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٢٠٥ .

(١٤٤) ابن حوقل : ١٨٣ ، ٢٢٦ .

(١٤٥) ابن حوقل : ٣٥٢ ، ٤٠٤ ، ٤٨٨ وأماكن أخرى ، المقدسي : ٣٧٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩٢ وأماكن أخرى .

- (١٤٦) ابن حوقل : ٢٩٧ ، ٣٦٥ ، المقدسي : ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ٢٤٨ ، ٣١١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٩٠ (حاشية ط)
- (١٤٧) المقدسي : ١٤٠ .
- (١٤٨) المقدسي : ٢٤٨
- (١٤٩) ابن حوقل : ٣٤٢
- (١٥٠) ابن حوقل : ٤٨٨
- (١٥١) انظر على التوالي : المقدسي : ٣٧٧ ، ابن حوقل : ٤٠٨ ، المقدسي : ١٤١ ، ابن حوقل : ١٢٢ ، ٢٢٦ .
- (١٥٢) ابن حوقل : ٣٦٥ . حول الكتبان ، أي « جبال الرمل » ، « العظام » أحياناً التي « لا ترتقي ولا تتوقل » ، انظر ابن حوقل : ٣٦ ، ١٥٧ ، ١٧٠ .
- (١٥٣) عظيم : ابن حوقل : ٨١ ، ٩٠ ، ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ٣٦٥
- (١٥٤) عالي وأسماء فاعل من الاشتقاق ذاته : ابن حوقل : ٨٠ ، ٩٤ ، ٣٧٠ ، المقدسي : ٢٢٩ ، ٣٥٣ ، ٣٨٠ .
- (١٥٥) شاق : ابن حوقل : ٩٠ ، ١٧٠ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ١٦١ ، ٣٩٨ .
- (١٥٦) مطل ، منيف : ابن حوقل : ٣٧ ، ٩٤ ، المقدسي : ١٦٠ (وحاشية ح) ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ .
- (١٥٧) لا يسلك ، لا يرتقي ، وعر ، صعب ، أملس : ابن حوقل : ٣٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، المقدسي : ٣٨٠ ، ٣٩٨ .
- (١٥٨) منيع ، ممتنع ، حصين : ابن حوقل : ٣٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٨٣ ، ٣١٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ - ٣٧٧ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ٣٩٨ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ .
- (١٥٩) سامق (عالي ، عالي جداً ، لكن على وجه التخصيص ، صورة رائعة ، مؤنقة للنبات والأشجار) ، تقترب بصورها للسجع « شاق » ، المذكور في الحاشية ١٥٥ : ابن حوقل : ٩٠ ، ١٧٠ ، ٣٦٥ ، ٥٠٥ .

- ١٦٠) وحشة الجبال : المقدسي : ٤٨٧ ، شاخ (بمعنى عال جداً وممتز ، تكبر) .
ابن حوقل : ٨٠ ، ٨١ ، عاس : المقدسي : ٣١٥ (حاشية يو ، ٤١٠ .
- (١٦١) ابن حوقل : ٢١٤
- (١٦٢) ابن حوقل : ٣٨٠
- (١٦٣) ابن حوقل : ٣١٠ - ٣١١ ، المقدسي : ٤٧١ ، كلاهما نقل عن الاصطخري :
٩٨ .
- (١٦٤) ابن حوقل : ٩٤
- (١٦٥) ابن حوقل : ٥٠٦ . انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٦٦ - ٤٦٧
والخريطة ٩
- (١٦٦) المقدسي : ٣٧٥
- (١٦٧) منظر م ج ع ، ج ، ٤ ، ٣٣٠ .
- (١٦٨) الاصطخري : ٢٤ ، ابن حوقل : ٣٢
- (١٦٩) ابن حوقل : ٤٩٥
- (١٧٠) ابن حوقل : ١٧٠ ، ١٨٣
- (١٧١) أحيانا يرد بالمفرد : جبل : لنظر مثلا ابن الفقيه : ١٢٦ ، ١٩٢ ، ٢٠٩
وأماكن أخرى .
- (١٧٢) المقدسي : ٢٨٨ ، ٤٣٥
- (١٧٣) ابن حوقل : ٧٨ ، ١٧٤ ، ٣٥٧ ، ٤٠٢ (الاصطخري : ١٣٤) .
- (١٧٤) المقدسي : ٨٥ ، ٤٦٢
- (١٧٥) ابن حوقل : ٦٦ ، ٢٢٦
- (١٧٦) ابن حوقل : ٤١ ، ٢٤٦ ، ٣٤٦ - ٣٤٧ . حول هذه الحالة الأخيرة ، لاحظ
ان تعبير « جبل عظيم » ينطبق ، فيما يبدو من حرقية النص ، على جبل القبق ، هو
والتدوين الذي يشير الى كثرة الألسنة فيه (٣٠٠ ونيف) (انظر الحاشية ٨٧) . الا ان
كثرة الألسنة تتعلق بجبل سبلان وقراها (اذربيجان) . بالتالي أميل الى الظن على نفس

المنوال ان اتساع الجبل يشمل بلا تمييز القبق وأرمينية : لذلك خصص المقطع لا اتصال
جبل القبق بجبال أرمينية .

(١٧٧) هذا أحد معاني لفظ صمد الفامض : القرآن : ١١٢ : ٢ وترجمة بلاشيرج ٢ ، ص ١٣٤ ،
حاشية ٢ ، و ت . ل . جديدي (الغزل عند العرب ، وضع العذريين . اسهام في علم
اجتماع الأدب العربي ، الجزائر ، ١٩٧٣ ، ص ٨٠) بترجمة « بلا يدرك » .

(١٧٨) ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٤ - ١٩٧٦ / ١٩٥٥ - ١٩٦٦ ،
لفظ شنب . و ر . دوري ، ملحق المعاجم العربية ، ليدن - باريس ، ج ١ ، ١٩٢٧ ،
٧٦١ - ٧٦٠ ، شوارز ، ايران ، ج ٧ ، ٨٠ (الفهرس) .

(١٧٩) انظر ذكر أحد الطرق عند اليمقوي ، ٣٤٩ ، بالتعبير : بين جبال وشعاب .

(١٨٠) الاصطخري : ٢١ ، ابن حوقل : ٢٨٠ ، المقدسي : ٧١ . تعداد هذه الشعاب
منهجيا عند اليمقوي : ٣١٤ - ٣١٥ .

(١٨١) ابن حوقل : ٩٢ ، ٤٤٣ ، المقدسي : ٧١ ، ١٧٥ ، ٤٣٦ .

(١٨٢) الاصطخري : ٢٢ ، ابن حوقل : ٢٩ ، المقدسي : ٧٦ ، ٤٤٣ . انظر أيضاً
احالات أقل وضوحاً : ابن حوقل : ١٨٢ ، ٤٤٨ . من أجل برقة ، التي لها موقع مائل ،
أجد (عند المقدسي : ٢٢٤) لفظ هوية : منخفض ، حوض .

(١٨٣) ابن حوقل : ٤٦ ، عن الاصطخري : ٢٩ ، لكنه يضيف لفظ كم الأساسي ،
حرفياً : مدخل اليد من الثوب ، ومنه (م ج ع ، ج ٤ ، ٣٤٢) .

(١٨٤) الاصطخري : ١٣٣ - ١٣٤ ، ابن حوقل : ٤٠٢ .

(١٨٥) ابن حوقل : ١٧٤ ، ٢١١

(١٨٦) الاصطخري : ٢٥ ، ابن حوقل : ٣٣

(١٨٧) المقدسي : ٧١

(١٨٨) لا أرى الا مثالين على الالتباس بين شعب ووادي : المقدسي : ١٧٤ (وهي -
نابلس - في واد قد ضفطها جيلان) ، و ٣٦٣ (مدن ياجوج وماجوج خارج دار
الاسلام : الجبل الذي السد في شعب منه) ، حيث يستعمل اللفظان ، مثلما يلاحظ ،
أحدهما عوضاً عن الآخر (مؤلف مشار اليه ، ٣٦٣ ، ص ٤ و ٩ .

(١٨٩) الاصعخري : ٢٢ (الذي لا يعطي رقما للعرض ويكتفي بالقول انه ضيق) ، ابن حوقل : ٢٩ ، حول رمية السهم ، غلوة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧ ، شكل ٦ (١٩٠) ابن حوقل : ١٤٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، مع تصحيح ، ترجمة وايت : ليس النيل هو المقطوع الى شعبتين بل الجبل . تعليقات أخرى للجذر شعب على الجبل : ابن حوقل : ١٨٣ ، ٢٧٢ (تصحيح ترجمة وايت : « مضائق » : انظر الحاشية ٣٤٩) .

(١٩١) ابن حوقل ، ٣١١ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ، المقدسي ، ٤٧١ . نستطيع ان نذكر ايضاً بالنسبة الى الادوية الفصية ، لفظ فج جسمه فجاج (خاتق ، ممر) ، لكنه ائدر الى اقصى حد وغير ثابت دوما بهذا المعنى الدقة (معنى الجسم : ارض عميقة) : انظر مثلاً ابن حوقل ، ٤٦ ، ٤٩٨-٤٩٩

(١٩٢) ابن خرداذبة : ٤٣ - ٤٤ ، ابن الفقيه : ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٢٧ ، الاصعخري : ٧٨ ، ابن حوقل : ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٤٧٣ ، المقدسي : ٣٥ ، ٢٥٩ ، ٤٢٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ (مع تصحيح الحاشية ح) ، ٤٥٥ تغنى الشعراء بشعب بوان ، خاصة المتنبى : انظر ابن الفقيه : ٢٠٠ ، وابن حوقل ، ترجمة وايت ، ص ٢٦٥ . والبعد الوحيد المعطى هو فرسخان للطول (الاصعخري ، ذكر من قبل ، وابن حوقل : ٢٨٢) بالنسبة الى العرض انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٦٤

(١٩٣) جان الأزرق ، باريس ، الناشر « البليياد » ، ٢ روماني ، ١٩٧٢ ، ص ١٧٥ (١٩٤) المقدسي : ٤٨٨ : عقاب هيئة .

(١٩٥) ابن حوقل : ١٥٥

(١٩٦) تكفي نظرة سريعة الى خريطة هذه المناطق لتبرر هذه « التضاريس » المزعومة . (١٩٧) يسميها الجغرافيون في الحقيقة ، ايله أو ويله . وقد ظهرت تسمية عقبة ايله عند الادريسي في القرن الثاني عشر ، ثم اختصرت « العقبة » في وقت لاحق . انظر هـ . و . غليدن ، في ١٢ (٢) ، ١ روماني ، ٣٢٤ . ويرد لفظ « العقبة » عند جغرافي حقبنا ليدل على مكان معين قرب مكة ، على السفوح الحادة في برقة أو جزيرة العرب ، التي ستحدث عنها فيما بعد .

(١٩٨) انظر بلا فشار ، الجغرافية العالمية ، ح ٨ ، مشار اليه ، ١٢٩ - ١٣٠ - ١٥١

(١٩٩) ابن خرداذبة : ٨٤ ، قدامة : ٢٢١ ، اليعقوبي : ٣٤٢ ، ابن حوقل : ١٥٧ ، المقدسي : ٢٤٥

(٢٠٠) ابن حوقل ٣١٩ ، يكتفي بالقول بأن ولاية السند (بلدان نهر مهران) تحوي فجاجا (مفردا فاج) : شعب ، مخرم (انظر حاشية ١٩١)

(٢٠١) انظر (مع ثنية) ابن خرداذبه : ١٣٠ (وح اويه) ، ١٣٤ ، ابن رسته : ٧٦ ، اليعقوبي : ٣١٢ - ٣١٥ (مقترنة بالثنية) ، الاصطخري : ٢٢ ، ابن حوقل : ٢٩ ، المقدسي : ٧٣ ، ١٠٠ ، ٧٦ ، ١٠٠ ، انظر ف . بوهل ، « منى » في ١٢ ج ، ٣ ، ٥٦٦ ، مونتغوموري وات و . « عقبة » في ١٢ (٢) ج ، ١ ، ٣٢٤ ، كذلك « انصار » ، المرجع ذاته ، ج ١ ، ٥٢٩ - ٥٣٠ ، ف . بوهل وج . جوميه ، « حبرة » ، المرجع ذاته ، ج ٢ ، ٤٤٩ - ٤٥٠

(٢٠٢) ابن خرداذبة : ١٢٦ ، ١٤٧ ، قدامة : ١٨٦ ، ١٩١ (وح يو) اليعقوبي : ٣١١ ، ابن رسته : ١٧٥ ، ١٨٤ ، المقدسي : ٢٥١ ، ٢٥٣ تقع بركة العقبة اليوم على بعد ٤٠ كم تقريبا الى غرب البصرة : انظر اطلس عالم التاييمز ، لندن ، ١٩٦٨ ، ص ٣٣ ، ١/٨

(٢٠٣) اليعقوبي : ٣٢٥ . انظر لوسترانج فلسطين والحكم الاسلامي ، لندن ، ١٨٩٠ ، ص ٣٨٩ ، ر . دوسو ، الطبوغرافية التاريخية لسورية القديمة وفي القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٢٧ ، ص ٣٩٧ ، ك . بيديكير ، فلسطين وسورية ، لا ييزنغ ، ١٨٩٣ ، ص ٣٤٠ ، يبرز ارتفاع المنحدرات الحادة في هذا المكان . هذا « ممر غرناطة » .

(٢٠٤) اليعقوبي : ٣٢٧ ، الاصطخري : ٤٩ ، ابن حوقل : ١٨٧ ، المقدسي : ١٩١ (فيق أو افيق ، انظر الترجمة ، ص ٢٧١ ، مع المراجع) . نذكر أيضاً بما قيل من قبل ، ص ١٩ ، عن « طريق الدرجات » (لكن دون لفظ عقبة) ، الذهاب من الجليل إلى يعلبك .

(٢٠٥) المسعودي (ت) ، ٨٨ ، ويتحدث المقدسي ، ١٥٠ ، عن عقبة الشهداء على الطريق التي تذهب من حوض دجلة الأعلى الى شواطئ البحر الأسود (بنطس) ومن هناك الى بفلاغونية . تقع العقبة قرب قيصرية بحر بنطس (كبيرة ، انظر المرجع المذكور ح . يد) ، بالتالي فهو وادي ليكس - كلكيد ايرماك : ذكريات حملات سيف الدولة في هذه المنطقة من الامبراطورية البيزنطية (انظر ١ . فاسيليف ، بيزنطية والعرب ، ج ٢ / ١ : السلافة المقدونية (٨٦٧ - ٨٥٩) . الطبعة الفرنسية لم . كانار ، بروكسيل ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤)

- (٢٠٦) المقدسي : ٣٨١ ، لا ورمية عقبتان . . .
- (٢٠٧) ابن خرداذبة : ١٤ ، ١٩ ، ابن رسته : ١٠٤ ، ١٦٥ ، ابن حوقل : ٢٣٤ ، المقدسي : ١٣٤ ، ٣٣٧ . انظر شوارز ، فارس ، ج ٤ ، ٤٥٥
- (٢٠٨) ابن رسته : ١٦٦ - ١٦٧ ، انظر شوارز ، المرجع ذاته ، ٤٧٨
- (٢٠٩) ابن الفقيه : ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، وشوارز ، المرجع ذاته ، ٤٥٥ - ٤٥٦
- (٢١٠) ابن خرداذبة : ٢١ ، ابن الفقيه : ٢١١ ، مسعر (ب) ٣٤ ، المقدسي : ٢٥٨ ، ٣٩٣ - ٣٩٤ ، وشوارز ، المرجع ذاته ، ٤٥٦
- (٢١١) ابن الفقيه : ٢٥٩
- (٢١٢) ابن حوقل : ٣٦٣
- (٢١٣) قدامة : ١٩٦ (وح . ك) ، الاصطخري : ٨٠ (كنسا ، وابن حوقل : ٢٨٥ (كنسه) ، ويشير المؤلفان الأخيران الى وجود مركز مراقبة ومكس (مرصد : انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٥٣٣ ، م ج ع ٤٠٤ ، ٢٤٧ ، وايت ، ترجمة ص ٢٨٠ : «مكس» انظر شوارز ، فارس ، ج ٣ ، ١٨٢
- (٢١٤) الاصطخري : ٧٩ ، ابن حوقل : ٢٨٣
- (٢١٥) الاصطخري : ٧٩ ، ابن حوقل : ٢٨٤ ، المقدسي : ٤٦ ، ٤٥٧ ، وشوارز ، فارس ، ج ٣ ، ١٩٦
- (٢١٦) المقدسي : ٤٥٦ ، وشوارز ، مذكور سابقا ، بآخر الصفحة (وح. ٣١) - ١٩٦
- (٢١٧) ابن خرداذبة : ٤٣ (وح . ح) ، وشوارز ، فارس ، ج ٢ ، ٩٢ ، ج ٣ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٧٨
- (٢١٨) المقدسي : ٢٤ : «ونهر إرجان يتفجر من جبال فارس ويقع فيه ماء صالح تجمعت العقبة» . يبدو ان هذا الملح ملح رافد نهر رامهرمز ، الذي يلتقي فيما بعد على مسافة حوالي ٢٠ كم الى جنوب هذه المدينة ، بنهر ارجان : انظر شوارز ، فارس ، ج ٣ ، ٢٠٢ ، (وح . ك) ، ج ٤ ، ٢٩٥ . حول الجص المالح في هذه المنطقة ، انظر بلا نشار ، الجغرافية العالمية ، ج ٨ ، مشار اليه ، ص ١٤٦ ، ظننت في السابق (المقدسي ، ترجمة ، ص

٦٧، ح ١٢٠٠) ان العقبة المقصودة هنا ربما كانت عقبة الطين أو عقبة الفيل . لكن على الرغم من تردد الجغرافيين بشأن مياه هذه المنطقة (انظر شوارز ، فارس ، ح ٤ ، ص ٢٩٥ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٧٠ ، ح ١) يقع مجرى نهر ارجان اجمالاً ، إلى شرق وشمال شرق هذه المدينة ، ورافده نهر رامهرمز إلى شمالها الغربي ، في حين لا بد من التفتيش عن عقبة الفيل ، وهي أقرب إلى ارجان على الطريق القادم من تيران ، في الجنوب الغربي من ارجان .

(٢١٩) قد قوّدي إلى الالباس ترجمة ابن رسته ، ١٥٠ (ترجمة وايت ، ص ١٧٣) و « مر » . ليس المقصود هنا عقبة بل « درب » بين الجبل والبحر ، في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر الخزر يقابل الدرب الآخر ، الشهير ، المسمى باب الأبواب (دربند) على الشواطئ الغربية (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣) .

(٢٢٠) ابن حوقل : ٤٥٣ - ٤٥٤ ، اطلس التاييز ، ص ٣٢ ، ز / ٢

(٢٢١) ابن خردادبة : ٢٤ ، قدامة : ٢٠٢ ، المقدسي : ٣٥١ ، ٣٥٢ (وح . يد) . حول هذه الطرق ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٨٨ ، ٤٣٠ - ٤٣١ (مع تشكيل مزدوران) واطلس التاييز ، ص ٣٢ ، ي / ٢

(٢٢٢) ترائية ، بكل تحفظ : قدامة : ٢١٠ ، حول هذه الطرق ، انظر ابن خردادبة : ٣٢ ، المقدسي : ٣٤٧ - ٣٤٨ ، انظر أيضاً اطلس التاييز ، ص ٣١ ، ب - ج / ٢ - ٣ و د / ٢

(٢٢٣) ابن خردادبة : ٣٠ ، قدامة : ٢٠٨ ، المقدسي : ٣٤١ . يشير ابن خردادبة وقدامة ، فيما يبدو ، إلى عقبتين على حوض نهر سيحون الأعلى (اياكسارت ، سير داريا) ، ولا مجال للتدقيق أكثر مما فعلت ، الا اذا كنت مقصراً . انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٨٩ ، واطلس التاييز ، ص ٢٤ ، ا - ب / ٥ و ٤٣ ، يد / ٦ ، وبارتيلو ، التركستان ، ١٥٦

(٢٢٤) توفير مرحلتين : ابن حوقل : ٤٥٣ - ٤٥٤ . اختصار طريق أيضاً ، غير محدد بالأرقام ، لعقبة الفيل : انظر المقدسي : ٤٥٣ (وح . ط) .

(٢٢٥) ابن رسته : ١٧٥ : كانت عقبة فسهلت ، المقدسي : ٤٥٣ ، يشير أيضاً اضافة إلى الآبار ، إلى بعض مواضع خراب في زمنه .

(٢٢٦) الاصلطخري : ٧٩ - ٨٠ ابن حوقل : ٢٨٣ - ٢٨٤ ، وحاشية ٢١٢ .

(٢٢٧) المقدسي : ٤٦

(٢٢٨) ابن خردادبة : ٣٠ ، قدامة : ٢٠٨ ، اليعقوبي : ٣٤٢ ، المقدسي : ٤٥٦ .
الاستشهاد مأخوذ من المقدسي : ٣٨١ . يقارن بما قلناه عن جبال آسية الوسطى : انظر
جغرافية دار الاسلام : ج ٢ ، ص ٢٢٩ ، ٢٤٦

(٢٢٩) اسفل (جمعه اسافل : القسم المنخفض) أو اذدر ، لحف (حرفيا : اسفل جبل
قليل العلو) : انظر ابن حوقل : ٤١ ، ٨١ ، ١١١ ، ١٦٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٨ ، ٣٧١ ،
وأماكن أخرى ، المقدسي : ح زمن ص ٣٢١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤٣٣ ،
٤٤٧ ، ٤٦١ (ح . يز) ، ٤٦٥ ، ٤٩٠ (ح . ب) وأماكن أخرى

(٢٣٠) اكتفي هنا ببعض أمثلة مأخوذة من المقدسي . من أجل البلدان : المقدسي : ١٧٩ ،
٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢ - ٢٩٣ ، ٣١٦ (ح - يه) ، ٣٨٤ : من أجل
المدن ، التي يرمز الى اقسامها العالية والمنخفضة أحيانا بالجامع أو السوق ، وحتى بالرباط ،
انظر المقدسي : ٧١ (٧١ ، بالنسبة الى مكة الكعبة تمثل الانتقال بين المنطقتين) . ١٤٠ ،
١٨٤ ، ١٩٩ ، (الفسطاط) ، ٢٧٧ ، ٣١٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٤١١ - ٤١٢ ، ٤٣٦ ، أحيانا ، يتعلق الموضوع بمدنيتين مختلفتين : المرجع
ذاته ، ٢٢٩ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٤١ ، من أجل حي ، المرجع ذاته : ٢٠٢ ،
من أجل قصر : ٤٣١ ، ٤٤٩

(٢٣١) الجمع سهول ، والألفاظ المشتقة : سهلة سهولة ، سهلي ، التي لا أفرق بينها ،
لأنها تدرس هنا في نفس النص العلاقة ذاتها للجبل (الملا حظة ذاتها معكوسة : جبل ، جبال ،
جبلي) .

(٢٣٢) ابن حوقل ٧٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٤١٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥١٤ ، المقدسي : ١٢٣ ،
١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣ ،
٣٧٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٥٥٩

(٤٣٣) ابن حوقل : ٤٣١ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ - ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،
٤٥٠ ، ٥٠٤ ، ٥١٤ ، المقدسي : ١٤٠ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ - ٢٨٩ ،
٣٠٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ - ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ - ٣٩٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ،
٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٤ ،
٤٦٥ ، ٤٧٩

(٢٣٤) ابن حوقل : ٤١٥ ، ٤٤٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٢ ، ٥١٤ ، المقدسي : ٣٨٩ (ح . آ)

٣٩٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٦٥ ، ٤٨٠

(٢٣٥) ابن حوقل : ٣٤٦ . حول فجاج ، جمع فجج : مضيق نخرم ، شعب ، انظر حاشية ١٩١ ، و ٢٠٠ . يلاحظ ان فجاج أعماق ، يمكن ان تبدو تطور ، بالجمع ، لتعبير مألوف ، خص للدلالة على بلد لا متناهي : من كل فج عميق : من جميع الجهات ، من أبعد المناطق (ترجمة ش . بيلا ، العربية الحية ، باريس ، ١٩٦١ ، عمود ٩-١٠) مثال آخر ، أقل وضوحا ، بين أرض سهلة وجبل أرض مرتفعة : ابن حوقل : ٥٠٧

(٢٣٦) المقدسي : ١٥٢ ، انظر أيضاً المرجع ذاته ، ١٦٦ ، مع سهل وحده بالمفرد ، من أجل فلسطين بدقة : اغوار ، سهل ، جبال : المرجع ذاته ، ١٨٦ ، مع إضافة بادية العرب : سهل ، جبل ، اغوار ، بادية .

(٢٣٧) ابن حوقل : مفترشة

(٢٣٨) ابن حوقل : ٧٤ : واسعة الأفضاء (يحذف « سهل » في ترجمة وايت ، ص ٧١ ، س ٦ : الكلمة غير موجودة في الأصل) .

(٢٣٩) لكن ليس بالضرورة بالنسبة الى دار الاسلام : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٦١ - ١٦٥ ، ١٩٧

(٢٤٠) ابن حوقل : ١٦٢ اداه وايت ص ١٦١ (انظر ح . ٧٧٢ عنده) حسب م ج ع ، ج ٤ ، ١٩٠ ، مبسوط : مستو)

(٢٤١) وايت (ص ٧١) يؤديها بامتلاكات واسعة

(٢٤٢) قد تصحح هذه الأقوال ، بهذا المعنى ، ما قلناه من قبيل ، عن الجبل كتلة . على الأقل ، تبدو استثناءات بسبب ندرتها . بشأن هذه الأمثلة ، انظر ما يلي ، ص ٤٧ . حول بلاد ربيلا ، الذي يبرز جيوئو اتساعه مع ذلك : انظر طبعة لا بلياد ، باريس ، ج ٢ ، ١٩٧٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٩

(٢٤٣) ابن حوقل : ٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢٨٨ ، المقدسي : ٨٧ ، ٤٧٩

(٢٤٤) ابن حوقل : ٢٢٦ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، المقدسي : ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ٣١١

- (٢٤٥) ابن حوقل : ٨٧
- (٢٤٦) ابن حوقل : ٤٤٨ ، يؤديها وايت ، ٤٣٤ ، « باراضي خالصة من الحزونة » .
- (٢٤٧) ابن حوقل : ١٠٢
- (٢٤٨) ابن حوقل : ٢١١ . يقول : سهلية مستوية
- (٢٤٩) لا يمكن أن يقصد : ابن حوقل : ص ٣٦ ، « ارض مستوية » ، لأن هذا النعت يجب عندئذ ان ينطبق أيضاً على جبال الرمل . فالتضاد واقع ، كما في الالفاظ المشتقة من جذر سوى ، بين الاستواء وبين حدة انحدار الجبال . فالاستواء ان وجد ، يتوارى على أي حال خلف هذا التضاد ، ولعل دوره الوحيد ينحصر في تقويته ، والا فماذا يمتنع ان لم يكن الرمل الأملس ، تقول هذه الكثبان
- (٢٥٠) ابن حوقل : ٣٧١ : وعمر ، سهل ، جبل ، يترجم وايت (ص ٣٦٢) بدقة تامة اللفظ الأول بـ « منخفض » . بالفعل لا يمكن ان يقصد النص وجود عوائق أرضية فقط ، كما في الأماكن الأخرى ، بل التفسير المقرب ، الذي يتميز ، كما سبق ، عن الجبل وعن السهل : انظر ح ٥٧٧
- (٢٥١) صعبة - منيمة ، شاهقة - عالية : ابن حوقل : ٣٧٠
- (٢٥٢) المقدسي : ٤٨٨ ، بالنسبة الى مسالك مفازة فارس
- (٢٥٣) ابن حوقل : ٨٧ ، ٩٣ (أمثلة عن المغرب) ، فحص البلوط الشهير (انظرا . هويس ميرندا ، ١٠م (٢) ، ج ٢ ، ٧٦٢ - ٧٦٣) مذكور عند ابن حوقل : ١١٠ ، والمقدسي : ٢٤٧ . حول معاني هذا اللفظ ، انظر دوزي ، ملحق ج ٢ ، ٢٤٣
- (٢٥٤) ابن حوقل : ٢١٤ (في الحديث عن جبال ماردين) ، يدقق في ما قاله الا صطخري ٥٢ ، المقدسي ٣٠٢ (ح . ه) في كلامه عن بلخ ، ٣٢٩ (منخفض تحتله بحيرة : منطقة اسافل جبال ، تنطبق الآن مع الحدود الحالية الايرانية الأفغانية في ناحية زابل) .
- (٢٥٥) ابن حوقل : ٤٠٢
- (٢٥٦) ابن حوقل : ٦٦
- (٢٥٧) الا صطخري : ١٥٢ ، ابن حوقل : ٢٤٣ (واضح جداً ، الا أن ترجمة وايت ، ص ٤٥٥ ، تصير أفضل لو توضححت) ، ٤٤١ ، ٤٧٣ (تضاد بين الصحراء

الرمادية والخضرة الداكنة للزرروعات والأشجار) ، ٥٠٤ (يُحذف « من رمل » في ترجمة وايت ، ص ٤٨٣ ، س ٤) ، المقدسي : ٢٣٣ ، ٣٠٨ (والتصحيح ح .يج) ، ٤٩٦ (مهم جداً لأنه يشير الى عجيبة وجود مزروعات في وسط الصحراء بين الرمال) .

(٢٥٨) انظر وايت ، مثلاً ، : « سهل » عوضاً عن صحراء (ابن حوقل ، ترجمة ، ص ٤٢٦ ، ٤٥٥ ، ٤٨٣) ، وبشأن الألفاظ المشتقة من جذر سنوي (ص ٦٣ وأماكن أخرى) ، « هضبة » عوضاً عن ساحة وصحاصح (ص ٦٣ و ٣٩٣) .

(٢٥٩) الفرضية الثالثة ، أو فرضية لفظ يضيف قيمة رابعة الى القيم التي يتألف منها لفظ سهل ، لم تسجل ، لأن الألفاظ المبحوثة لا يدخل أي منها في هذه الحالة .

(٢٦٠) ولو كانت الألفاظ المشتقة من جذر سوى أهم بكثير من هذه الناحية ، لأنها تقترب على الأقل مرة واحدة بلفظ سهل ، وتسمح بتعيين إحدى قيم هذا الجذر .

(٢٦١) بشأن الرفرة ، انظر ابن حوقل : ٢٢١ (نخسب يقترب بالمزوجة سهل سوى ، يقارن بابن حوقل : ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٦٤ ، ١٧٣ (زريعة السهول) ، ١٧٤ ، ٢٣٣ (في سهلة كثيرة المزارع) ، ٢٨٠ - ٢٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ (في سهلة كثيرة الخير) ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٦٤ . يثبت اقتران السهل والبخصب ، بالتضاد ، عند المقدسي ، ٤٠٧ ، في الحديث عن رامهرمز .

اذن تعد صفة استثنائية ، صفة جذب السهل ، وتبرز على هذا الأساس . بشأن اقتران السهل بالجذب ، انظر ابن حوقل ٣٦ (رمال الصحراء) . اخيراً ابن حوقل ، ١٥٠ ، ٤١٥ ، في حديثه عن زرنج ، يبين الصفة الاستثنائية لغنى السهل ، المققطع من رمل الصحراء بعد جهد جهيد .

(٢٦٢) استثنائية ومقنعة : يتم التعبير عن اقتران فكرة النخسب ، بواسطة جذر آخر ، سوى : ابن حوقل : ١٧٦ (ذكر في الحاشية السابقة) .

(٢٦٣) فحص ، بالمعنى الآخر (معنى النخسب) يكرر معنى سهل . لكن كلا ، لأن فحص يشير الى الأرض على العموم ، لكن ليس الى السهل : انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ١٤٣

(٢٦٤) انظر ابن الفقيه : ٣٢ ، ٣٣ ، الذي يمازج جذري سهل وغلظ

(٢٦٥) ابن حوقل : ٣٦ ، ٤١٥ (ذكر في الحاشية ٢٦١)

(٢٦٦) ابن حوقل : ٣٦

(٢٦٧) هكذا يفهمها ابن حوقل (ذكر في الحاشية ٢٥٥) : مساحة مغلقة محاطة بالجبال
(٢٦٨) انظر الأمثلة الثلاثة (خولان ، طبرقة ، بلد البجة) المذكورة من قبل ص ٤٢ .
انظر أيضاً تعبير جبال وضواحي (جبال وبلدان مفتحة ، معرضة للشمس) عند ابن حوقل :
٤٦٤

(٢٦٩) تقابل هذه النتائج بالنتائج التي استخلصتها سابقاً من أحد نصوص الهمداني : « أرض
جزيرة العرب حسب الهمداني ، مجلة القاهرة الجديدة ، ج ١ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٤١ -
٢٦٣

(٢٧٠) سهل ، سهلة ، صفة (نعت لأرض أو بر) : ابن حوقل : ٣٦ ، ٤١٥ ،
٤٣١ ، ٤٤٥ ، ٥٠٧ أيضاً اسنان : المقدسي : ١٤٠ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ -
٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٦٤ ،
سهول جمع سهل : المقدسي : ١٧٣ ، ٣٧٣ ، ٤٥٩ ، سهولة (عكس جبال) : المقدسي :
٢٨٣ ، سهلي : ابن حوقل : ٢٢١ ، ٥١٤ ، المقدسي : ١٢٣ ، ١٧٤ ، ٢٣٣
وما يليها ، ٤٢١

(٢٧١) انظر ما تقدم ، ص ١٣ ، الحاشية ٥٧

(٢٧٢) هنا وفي الصفحات التالية ، أخذت التديوينات من ابن حوقل والمقدسي من نصوص
مبهر عنها بصراحة في المكان الممين بأنها جبلية

(٢٧٣) ابن حوقل : ٢٥٧

(٢٧٤) المقدسي : ٢٣٠

(٢٧٥) المقدسي : ١٤٢ (حيث يقال ان احد المناطق باردة لقربها من الجبل) ، ٣٥٤

(٢٧٦) المسعودي : (ت) : ٣٠٠

(٢٧٧) المسعودي (م) ، ج ٧ ، ١٨٤ ، المسعودي (ت) : ٤٦ - ٤٧

(٢٧٨) المسعودي (ت) : ٦٨ - ٦٩

(٢٧٩) يشير المسعودي الى وجودها ، بلا ايضاح ، في تمة النص المستشهد به . انظر
مثلا المسعودي (م) ، فقرة ٢١٤ ، ج ٧ ، ١٨٤ ، المشار اليه من قبل .

(٢٨٠) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٤٨ - ٥٦

(٢٨١) المرجع ذاته ، ص ٤٩ ، شكل ٨

(٢٨٢) المرجع ذاته ، اشير اليه

(٢٨٣) يعثر كثيرا على هذا التصنيف الى حروم وصرود (متلا ابن حوقل : ٢٨٧ - ٢٨٨)
اذكر الحالتين المشار اليهما هنا ، لأن فيهما تلميحا صريحا الى الجيل : ابن
حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١ - ٤٧٢ (بشأن كرمان ، وان كان ابن حوقل ،
٣١١ ، يدرج جبال القفص في الجروم) ، بالنسبة الى المغرب : المقدسي ، ٢٣٦ (دون
احالة صريحة الى جروم وصرود في الحقيقة) .

(٢٨٤) انظر الحاشية السابقة

(٢٨٥) المقدسي : ٣٥٩ (وح . يا : « امطار مستمرة »)

(٢٨٦) ابن حوقل : ٣٢ ، المقدسي : ٧٩

(٢٨٧) قرب جبل يسمى جغيراغز ، على تخوم المملكة وبلدان الترك : الاصطخري :
١٧٠ ، ابن حوقل : ٤٨١ (ترجمة ، ص ٤٦٢ ، مع المراجع) وجغرافية دار الاسلام ،
ج ٢ ، ٢٢١

(٢٨٨) ابن حوقل : ٤٨٨ . يخلط النص فيما يبدو بالتناوب ، الماء الجامد في الصيف
والحار في الشتاء ، الخاص بالعيون العالية ، وعيون ماء حار دائم ، ترتبط ببحر كات
نشوء الجبال في المنطقة . انظر ، ب . كاميرا دالميدا ، في فيدال دي لا بلاش وغالوا ،
الجغرافية العالمية ، ج ٥ : دول بحر البلطيق ، باريس ، ١٩٣٢ ، ص ٢٧٧

(٢٨٩) ابن حوقل ، ٢٤٦ (يقول بدقة في هذا المجال ان حلوان المدينة الوحيدة في
العراق ، التي تشلج أحيانا) ، ٣١٠ - ٣١١ ، ٤٩٧ ، المقدسي : ٤١٤ ، ٤٣٢ ، ٤٧١
(٢٩٠) المقدسي : ٧٩ ، ٩٥ ، ١٨٦ ، ٣٥٤ ، ٤٢٣

(٢٩١) المقدسي : ٩٥

(٢٩٢) بالنسبة الى النيل : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٣٥ وما يليها .
بالنسبة الى جيحون وسيحون : ابن حوقل : ٣٢٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٥ . بالنسبة الى مهران :
ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي ٤٨٢ . الوضع أقل وضوحا بالنسبة الى الفرات (انظر
مع ذلك المسمودي (م) ، فقرة ٢٢٨) ودجلة الخارجة من كهف أو باب الظلمات ، في

جبال الجزيرة ، الى شمال شرق آمد ، في ديار بكر . انظر المقدسي : ٢٠ (الترجمة ، ص ٥٥ والفهرس ، ص ٢٥٦) .

(٢٩٣) على التوالي ، ابن حوقل : ١٧٠ (من أجل كل الشبكة المائية العائدة للبحيرة الميتة) ، المقدسي ، ٢٢ ، ١٦٠ (ترجمة فقرة ١٤٦ ، وحاشية ١٢٩) ، ابن حوقل : ١٧٤ (وحاشية ٩٢) ، المقدسي : ٢٢ ، ابن حوقل / ٢١١ ، ابن حوقل : ٢٢٨ ، ٢٩٧ ، ٣٧٠ (تردد بين ارمينيا واذربيجان : ٣٤٥ ، المقدسي : ٣٧٥ ، ابن حوقل : ٢٧٤ - ٢٧٥ (لوحة مفصلة) ، المقدسي : ٢٤ ، المقدسي : ٢٣ - ٢٤ ، ٤٤٥ - ٤٤٦ ، ابن حوقل : ٣٦٥ ، المقدسي : ٣٠٩ (حول تعريف غرجستان ، انظر ما تقدم ، ص ١٥) ابن حوقل : ٤٨٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، المقدسي : ٣٣٢ .

(٢٩٤) انظر مثلاً : ابن حوقل : ١٢٢ ، ١٦٩ ، ٢١١ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٣٨١ (مع تضاد بين لحف الجبل الرطب ، والقمم الجافة أو القليلة الأمطار) ، ٤٠٢ ، ٤٤٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، المقدسي : ١٧٦ (ترجمة ، ص ٢٠٩ ، حاشية ٢٦٣) ، ١٨٨ (ذكر ضعف عيون لبنان) - كذا : - تدوين في فترة الجفاف ، ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٧٥ ، ٣١٩ (ح . ب . يه من ص ٣١٨) ، ٣٢٠ (ح . يط) ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨٩ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ (ح . ب) ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ (ح . ب) ، ٤٩٤ (ح . يه) ، ٤٩٣ (ح . يه) .

(٢٩٥) المسعودي (ت) : ٤٥ - ٤٦ . عدلت ترجمة كارادي فو

(٢٩٦) اليعقوبي : ٢٨٩ ، ابن حوقل : ٨٤ - ٨٥ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، المقدسي : ١٦١ - ١٦٢ ، ١٧٤ ، ٢٧٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣ - ٣٩٤

(٢٩٧) المقدسي : ١٦٠ ، ٣٥٩ ، ابن حوقل : ٤٩٧

(٢٩٨) بالنسبة الى اليهودية (تدوين مبدلة : ابار ، لا عيون) ، انظر المقدسي : ١٧٦ - ١٧٧ (ترجمة ص ٢٠٩ ، ح ٢٦٣) . بالنسبة الى جزيرة العرب ، المرجع ذاته ، ص ٩٤ (مقطع وارد في مقالتي المشار اليه في الحاشية ١٠١) بشأن حالة لبنان ، الاغرب ، انظر الحاشية ٢٩٤ . انظر أيضاً ابن حوقل ، ١٧١ (لمنطقة القدس) ، ٣٤٦ (جبال بحيرة خللاط) .

(٢٩٩) ابن حوقل : ٢٨١ (توسيع الاصطخري ، ٧٨) .

(٣٠٠) المقدسي : ٢١٥ ، ٤١٠

(٣٠١) المقدسي : ٤٣٠

(٣٠٢) ابن حوقل : ٣٣ ، ٣٧ ، ٨٤ - ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٧٤ ، ٢٠٤ (بالنسبة لجبل القلال ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٣٧٩) ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ وأماكن متفرقة ، المقدسي : ١٨٦ ، ٢٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ (مع تصحيح حاشية ٨) وأماكن متفرقة . نص هام : نص ابن الفقيه العائد الى اروند (الا حاشية ٥٣) ، وسأعود اليه في الفصل التالي .

(٣٠٣) ابن حوقل : ٣٤٧ - ٣٤٨

(٣٠٤) هكذا اترجم ، حسب النص ، الجمع خيرات ، يسكن ان يعني هذا اللفظ : قمح ، حبوب :

(٣٠٥) بشأن لفظ خلنج ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ ، الفهرس ، الكلمة (خلنج) :

(٣٠٦) مراكب (عوضا عن ركب ، مفردة ركاب) جمع مركب ..

(٣٠٧) بشأن قياس ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٣٥

(٣٠٨) اعترف بمجزي عن ترجمة لفظ ثالث يصف هؤلاء العبيد : شعوريات ، اذا كان هذا شكلها الصحيح . يقترح وايت (ترجمة ، ص ٣٤١) « المغنيات » ، لكن يصبح اللفظ مكررا مع مغنيات

(٣٠٩) ارطال : وايت ، المرجع ذاته ، يترجمها بقناني

(٣١٠) الاسطال . وايت ، المرجع ذاته ، يترجمها بالاسطال

(٣١١) لجين ، عسجد

(٣١٢) لفظ حب غامض . يتردد وايت في الترجمة في المرجع ذاته ، م ج ع ، ج ٤ ، ٢١٢ ، يعطى المحب معنى حببي . المقصود بداهة حجر رسه حببي لكن أي سحر ؟ اترجم « غرينا » ، بلا تعيين ، لا تقيد ، في الفرنسية ، بالاشتقاق اللغوي الفقهي ، ولو من بعيد جداً (انظر معجم لبيتريه لفظ غرينا وغريناد (يكتب بالانجليزي) :

(٣١٣) ابن حوقل : ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، المقدسي : ١٦٠ (ح . ز) ، ١٨٨ ، ٢٢٤ ،
٢٧٨ ، ٢٥٨ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٧١

(٣١٤) بالنسبة الى الأشجار ، التي لم تحدد طبيعتها (برية أو مشمرة) ، انظر ، ابن حوقل :
١٧٤ ، ٣١٠ (انظر كتاب الحدود ، ٦٥) ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٤٣٩ ، المقدسي :
١٧٣ ، ١٨٦ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٣٧٣ ، ٤٢٠ - ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٩ ، ٤٧١ .
بالنسبة الى المروج انظر مايلى عن القطعان .

(٣١٥) يبدو وجوده بدهيا تلقائيا ، مع الأشجار (يذكر أحيانا صراحة ، انظر
ما تقدم ، ص ٥٤) . في جميع الأحوال ، يشار الى خلو الجبال منه : انظر الحاشية ٣٠٦
(٣١٦) حول الثمار ، البرية أو خلافا ، والمشاجر ، انظر ابن حوقل : ٩٠ ، ٩٤ ،
١٧٢ ، ١٨١ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٣٦٨ ، ٣٨١ ، المقدسي : ١٥١ - ١٥٢ ، ١٦٢ ،
١٧٢ (و ح . ك) مع احالة الى كبر التفاح ورخصه (، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٨) عن
لبنان - ثمار ، تصب « فاري » ، ورنند : انظر الترجمة ، ص ٢٣٨ - والجولان الذي
يذكر ان الدوام فيه غذاء اعضاء احدى الاخويات (، ١٨٩ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٤١ ،
٣٥٣ ، ٣٥٤) يستبعد النخيل بسبب البرد (، ٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ٤١٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ،
٤٧١

(٣١٧) ابن حوقل : ٧٦ ، ٨٤ - ٨٥ ، ٢٠٤ (بالنسبة الى جبل القلال ، انظر
الحاشية ٣٠٢) ، ٣٦٥ ، ٤٨٨ ، المقدسي : ٣٥٣ - ٣٥٤ (و ح . ا) ، ٣٧٣

(٣١٨) بالنسبة الى البساتين ، انظر ابن حوقل : ٣٣ ، (بصيغه مجاز) ، ٩٠ ، ٤٣٩ ،
٤٤٤ ، المقدسي : ٢٢٧ ، ٣٥٤ ، ٣٩٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ (مع تصحيح الحاشية ه) .
بالنسبة الى الحقول والمزروعات ، انظر ابن حوقل : ٣٧ ، ٨٤ - ٨٥ ، ٩٤ - ٩٥ ،
١٧٤ ، ٢٠٤ (بالنسبة الى جبل القلال ، المذكور في الحاشيتين ٣٠٢ ، ٣١٧) ،
٢١١ ، ٢٢٠ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ ، المقدسي : ١٦٠ (ح . ر) ، ١٨٦ ، ٢٢٧ ،
٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٣٥٤ ، ٣٧٥ ، ٤١٤ ، ٤٧١ . بالنسبة الى خصبها ، انظر ابن
حوقل : ٢٨٥ ، ٣١٠ ، ٣٧٧ ، ٥٥٥ (خصب تشير اليه الخضرة) ، المقدسي :
١٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٣٧٣ (خصب تشير اليه اسماء المواد الزهيدة) ، ٤٧١ .
فلتذكر أيضاً ما يقابل الجبل المجدب ، وهو استثناء اشير اليه (انظر الاحالات في
الحواشي ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، و ٣٠١) .

(٣١٩) ابن حوقل : ٤٩٨ - ٤٩٩

(٣٢٠) هكذا اترجم الجمع فحاج (المفرد فج) (انظر الحواشي ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥) .
هذه الدروب بين الجبال تفترض كما يرى من بقية النص ، وجود حد ادنى من الاتساع
أو الفضاء .

(٣٢١) ابن حوقل : ٩٤ - ٩٥ ، ٢٨٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ١٦٠ (ح . ز) ،
١٦١ - ١٦٢ ، ١٨٦ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ (ح ا) ،
٣٥٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ .

(٣٢٢) المقدسي : ٣٨٠

(٣٢٣) ربما ما عدا الأتراك : ابن حوقل يشير الى أن الجبال في غرب فارس مسكونة
(مأهولة) بالأكراد لكن دون تحديد « القرى » ، ويذكر اسماء القبائل فقط (ابن
حوقل ، ٣٧٠) ، في مكان آخر ، بالنسبة الى فارس (ص ٢٦٩ - ٢٧١) في الحديث
عن زوم الكرد ، يتحدث ابن حوقل عن القرى والمدن في البدء ، الا أن تسمية النص تلح
خلافاً لذلك على البداوة وعلى الانتقالات الواسعة ، وتوحي يوضح بأن هذه المدن والقرى
تجمعات خيم . انظر أيضاً ابن حوقل : ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ،
٢٦٥ (واضحة جداً) ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٥٨ (خريطة : انظر الترجمة ، ص ٣٥٠ ،
س ١٠) ، ٣٦٩ . في الأصل ، لم تنوضح صراحة صلة الأكراد بالجبال الا مرتين :
ص ٢٥٧ (عبر المناخ) ٣٧٠ . استثناء آخر هام : الأقوام البدو في جبال كرمان
(ابن حوقل : ٣٠٩ - ٣١٠) .

(٣٢٤) ما تقدم ، ص ٥٢ آخرها - ٥٣

(٣٢٥) احييل ، لبيان هذه الذهنية ، الى التحاليل الرائعة لجورج دوبوي ، خاصة في سان
برنار ، الفن السيستيري .

(٣٢٦) ابن حوقل : ٣٠٠ ، المقدسي : ٣٣٣ (خراسان) . يضاف اس ، حسب اشارة
المقدسي : ٤٤٣ (ح . يه) : انظر م ج ع ج ٤ ، ٢١٨ .

(٣٢٧) ابن حوقل : ٤٨٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ - ٥٠٦ ، ٥١٥ ، المقدسي : ٣٩٧ ،
٤٤٣ (ح . يه) ، ٤٧٠ (مع معطيات عن كيفية جمع الانثيموان : لا أفصلها هنا ،
لأنها تدخل في دراسة التقنيات التي سوف تعالج في جزء آخر . مع ذلك ، سأتحدث فيما

بعد عن التقنيات التي تسمح بجمع غاز النشادر ، لأننا نستشف عبر الكلام عنها ، كما سوف أقول ، صورا تامة لحياة الجبال) . لا أدري وجه استعمال نصيح تمبير نصيح الجبل الوارد عند المقدسي ، ٣٩٦ - ٣٩٧

(٣٢٨) ابن حوقل : ٥٠٥ - ٥٠٦ . حول استعمال غاز النشادر في السيمياء ، انظرا . ايلياد ، الحدادون والسيمايون ، طبعة جديدة ، باريس ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٢ (المراجع)

(٣٢٩) ابن حوقل : ٣١٤ ، ٣٤٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥١٥ ، المقدسي : ١٨٤ ، ٢٠٩ (وحاشية د) ، ٣٣٣ ، ٤٤٣ (وح . يـح) . فلتذكر ان ملح النشادر يمكن ادواجه في فئة هذه المواد

(٣٣٠) ابن حوقل ٣٠٠ (بالنسبة الى جبال اصطخر ، الاشارة اليها يسبقها قائمة بمعدن فارس لكن دون التحديد ما اذا كانت جبليه) ، ٤٣٤ ، ٥٠٦ ، المقدسي : ١٨٤ ، ٤٤٣ ، ٤٧١

(٣٣١) ابن حوقل : ٥٠ (ذهب البجة : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧٤) ٣٠٩٠ - ٣١٠٠ ، ٣٤٨ ، ٣١٤ ، ٤٣٤ ، ٤٤١ (مع فكرة هامة : توقف استشار الفضة بسبب نقص الحطب) ، ٤٤٥ ، ٤٩٥ (صعوبات الاستخراج) ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٥ ، المقدسي : ٢٠٩ ، ٢٢٦ (وح . ط) ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ، ٢٧١

(٣٣٢) ابن حوقل : ٣٧ ، ٥٠ (زمرد بلد البجة : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، مشار اليه) ، ١٥٠ ، ٣٤٨ ، ٤٣٤ (معدن القدور البرام ، تحمل الى سائر بلاد خراسان من جبلها) ، ٤٨٨ ، ٥١٥ . حول ترجمة غرينا « قصيد يرام » انظر الحاشية ٣١٢ . انظر أيضاً المقدسي : ٣٠٣ (اطار جبلي : قرب بلدان « جبل الفضة ») .

(٣٣٣) ابن حوقل : ٥١٥ ، القرآن ، ٣٥ ، ٢٥ / ٢٧

(٣٣٤) حدود العالم : ٦٥

(٣٣٥) ابن حوقل : ٣٤٦ - ٣٤٨ (حول صعوبة القطع في المجموعة الجبلية ، انظر الحاشية ١٧٦) ، ٣٧٧ ، ٥١٤ ، المقدسي : ٣١٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨ - ٣٦٩

(٣٣٦) يمكن ان نتحدث أيضاً بداهة عن بربر جبال افريقية الشماليه . عن الأكراد وارتباطهم الواضح بالجبال (فارس) ، انظر المقدسي : ٤٣٥ . يشكل الأرون في جبال الأمانوس حالة خاصة : انظر المقدسي : ترجمة ص ٢٣٨ ، حاشية ١٧٧

(٣٣٧) المقدسي : ٢٣٠

(٣٣٨) ابن حوقل : ٨٥ ، ٤٠٢

(٣٣٩) تلتقى استنتاجاتي في أكثر من نقطة مع استنتاجات ب . ا . كمب ، السلطات ، والخطابات ورؤية العالم ، عند ياسين بن خير الله العمري الموصلية . باريس ، جامعة باريس ٣ ، ١٩٧٩ ، اطروحة دور ثالث ، سحب .

(٣٤٠) الأصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١

(٣٤١) ابن حوقل : ٣٤٦ ، المقدسي : ٣٨١

(٣٤٢) الأصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١ ، ٤٨٩

(٣٤٣) ابن حوقل : ٣٧٧ ، ٤٤٤ ، ٤٩٨

(٣٤٤) ابن حوقل : ٤٩٨ ، المقدسي : ١٨٨ (بالنسبة الى لبنان ، وان كانت نصرانية نساكه غير محددة) ، ٢٠٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، حول استعمال القصب الفارسي . المقصود هنا ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٢٥

(٣٤٥) ابن حوقل : ٣٧ ، ٩٤ - ٩٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧١ ، المقدسي : ١٨٨ ، ٣٦٧ (اديرة في جبال طبرستان ، بلا تدقيق اضافي) ، ٣٧١ (ح . بط ، من ص ٣٧٠) ، ٣٩٨ - ٣٩٩ ، وبالنسبة الى جزيرة العرب ، ما تقدم ، ص ٢١ - ٢٢ ، المسعودي (ت) ، ٧٤ ، يتحدث بلا تدقيق ، عن نساك في الجبال الواقعة بين قومن ونيسابور .

(٣٤٦) ابن حوقل : ٢٧١ ، ٣١٠ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ٢٣٤ ، ٣٥٤ (ح . ا) ، ٤٨٩

(٣٤٧) ابن حوقل : ١١٨ (صقلية ، ٢٠٠ (بلاد الروم) ، ٣٤٦ (منطقة في ارمينية) ، ٣٨٣ (جرجان) . مجموعات اخرى عند المقدسي : ١٠٣ (اعراف اليمن) ، ١٤٠ (ثغور الأناضول والجزيرة) ، ٣٥٤ (ح ١٠) و ٣٥٦ - ٣٥٧ (بلد قومن) .

(٣٤٨) الأصطخري : ٧٣ ، ابن حوقل . ٢٧١ - ٢٧٣

(٣٤٩) من الفارسية : ديج - باياه : اثافي القدر ، يصحح هنا (ابن حوقل ، ٢٧٢) : « شعاب » في ترجمة وايت (ص ٢٦٩) ب « حروف جبلية » ، « اعراف » .

(٣٥٠) حول هذا النظام انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٨٤

(٣٥١) المقدسي : ٨٥ ، ١٧٥ ، ٢٠٠ (ح . يب) . فيما يتعلق باوس (ابن حوقل : ٥١٣) ، يقول النص ان المدينة « ممتصة » بجبل عليه مرقب للترك : وابت (ترجمة ، ص ٤٩٠) يجعل هذا المرصد ملكا لهم . الأفضل ان تفهم على الوجه التالي : الترك ، أي الاحتياط من الخطر التركي ، اذ لا يتصور ، في مثل هذا الوضع الملائم ، ان يضطر الترك ان يحرسوا في هذا المكان البقول والمواشي ، كما لو كانوا هم المحاصرين . في ختام هذه الاحالات ، اذكر بالأرض الواسعة المحصنة بيز الجبل والبحر (الخزر) من دريند (باب الأبواب) الى تخوم دار الاسلام : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

(٣٥٢) ابن حوقل : ٢٢٥ ، بشأن هذا النوع من المدن ، انظر ابن حوقل : ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٤٥٤ (الرباط) ، ٤٤٩ - ٤٥٠ ، المقدسي : ١٦٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٣ (ح . د من ٣٠٢) ، ٣٠٨ ، ٣١١ . نذكر أيضاً بجبل القلال (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٣٧٩) خارج حدود دار الاسلام (ابن حوقل ٢٠٤) .

(٣٥٣) لاصطحري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١ (سكان جبال البارز في كرمان) . يطبق المؤلفان الأولان ، بشيء من التناقض ، الصيغة على البلوص ، الذين يعيشون على السفوح المنخفضة من جبال القفص .

(٣٥٤) مأخوذ من المقدسي : ٣٤ ، ٣٥ (ح . ج) ، ١٧٣ ، ٣٠٩ - ٣١٠

(٣٥٥) يمكن ان تنعت الصفة « عزيزي » في هذا النص ، عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الأموي ، الذي يعتبر مثال التقوى والسنة : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٠٠

(٣٥٦) حرفيا : عادات الحمرين ، أي خليفتي الرسول : أبي بكر وعمر

(٣٥٧) وأحيانا الدواب أيضاً : صيغة مهمة عند المقدسي ، ٤٦٢ ، بتحدث فيها عن « دواب جبلية الغت هذا النوع من التوقل » .

(٣٥٨) المقدسي : ٣٥٤ (ح ١٠)

(٣٥٩) المقدسي : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠

(٣٦٠) بشأن اللفظين لباقة واليف ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، على التوالي ، ص ٣٤٧ ، و ١٨٠ - ١٨١ . أما لفظ دولة (أفضل من دولة : مصيبة ، سوء حظ) فيحيل الى ميل

الدبلوماسيين الى سلطة قوية ، بداهة : اشارة الى سلالة (دولة) البويهيين ، التي سيأتي الكلام عنها .

(٣٦١) المقدسي : ٣٩٩ آخرها - ٤٠٠ ، يعود الى وصف مزاج الدبلوماسيين كخاتمة الصفحات المذكورة آنفاً .

(٣٦٢) انظر أيضاً ، بصيغة مختصرة ، الاشارة الى اوراس ، عند ابن حوقل : ٨٤ آخرها - ٨٥

(٣٦٣) الاصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، ٤٠٢ ، المقدسي : ٤٧١ ، ٤٨٨ - ٤٨٩ ، ٤٩٣ (روح . يج) ، ٤٩٤ (ح . يط من ص ٤٩٣) .

(٣٦٤) لا خلاق لهم : انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٣٩٩ . تعذيب آخر مطبق في هذه المناطق : الركض حافي الأرجل عشرين فرسخا : المقدسي : ٤٨٩

(٣٦٥) ما تقدم : ص ١٠ ، ٢١ ، ٣٦

(٣٦٦) ابن الفقيه : ٥٩ ، المقدسي : ١٨٦

(٣٦٧) ابن حوقل : ٢٩٧ (استنادا الى الاصطخري : ٩١ ، مع بعض التعديلات ،

انظر شوارز ، فارس ، ح ١ ، ٤) ، المقدسي : ١٢٢ ، ١٣٠ ، ٤٤٥

(٣٦٨) انظر ما تقدم : ص ١٧ و ٢١ ، ابن رسته : ١١٦ - ١١٧ ، الاصطخري :

٤٢ ، ابن حوقل : ١٦٠ ، المقدسي : ٤٦ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٥١ (بشأن « ريوه

يسوع » ، جبل الجليل ، وتحديد مواقع المحتملة حسب تقاليد المصر ، انظر ياقوت ،

معجم البلدان ، ج ٢ ، ١٥٧ - ١٥٨ - الذي يستشهد بابن الفقيه في صيفته التامة ، التي

لا نعرفها اليوم - والمقدسي ، ترجمة ، ص ١٤٨ ، ح ١٦) ، ١٥٢ آخرها - ١٥٤

(اصحاب الكهف ، انظر الترجمة ، فقرة ١٢٣ - ١٢٧) ، ١٧٢ ، ١٧٣ (ترجمة ،

ص ٢٠١ ، ح ٢٢٩٠) ، ٢٠٩ (ترجمة في الحوليات الاسلامية ، ١١ روماني ،

١٩٧٢ ، ص ١٣٢ ، ح ١٧٢) . حول اصحاب الكهف ، انظر جغرافية دار

الاسلام ، ج ٢ ، ٤٦٠ - ٤٦١ ، و ا . ليسكو ، معبد لاصحاب الكهف في الأردن ،

م دا ، ٣٦ ، روماني ، ١٩٦٨ ، ص ٣ - ٩ أخيراً ، يجب ان نلاحظ ان جبل صديقا

الذي يتحدث عنه المقدسي ، ١٨٦ و ١٨٨ ، يتصل على الأرجح بتاريخ أبناء (ذرية)

نبي ثمود : انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٢٣٧ ، ح ١٠٩

(٣٦٩) يذكر تلى التوبة بداهة بعودة يونس الى الله وتوبته ، وعودة الله الى البشر ،

وصفحه عن يونس وعن سكان نينوى .

- (٣٧٠) ما تقدم ، ص ١٠ آخرها - ١١
- (٣٧١) ابن الفقيه : ٥٩ ، المقدسي : ٢٠٩
- (٣٧٢) المقدسي : ١٨٨
- (٢٧٣) ما تقدم ، ص ٢١ آخرها
- (٣٧٤) الهمداني : ٧٩
- (٣٧٥) ابن حوقل : ٣٦٥ ، ٤٣٨ ، المقدسي : ٤٦
- (٣٧٦) المقدسي : ٤٦ ، ٦٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ انظر القرآن ، ٢٤ ، ٣٥ ، والمقدسي ، ترجمة ، ص ١١٩ ، ح : ٧ .
- (٣٧٧) ابن حوقل : ١٧١ ، المقدسي : ٤٦ ، ١٥١ ، ١٧٢ (ترجمة ، ص ١٩٩ ، ح : ٢١٧) ، ١٧٣ ، ١٨٦ ، ١٨٨
- (٣٧٨) ينبغي أيضاً ان نفكر بقاء ، الجيل الأسطوري في اقاصي العالم . تأملنا فيها من ناحية أخرى ، في اطار دراسة الأرض الكلية : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٠ ، ٨ ، ٢٧٠ .
- (٣٧٩) انظر ما تقدم : ص ١٣ . بشأن جبل دنهاوند ، ومنطقته وأساطيره ، انظر ابن خرداذبه : ١١٨ قدامة : ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ابن رسته : ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٥١ ، ابن الفقيه : ٢٧٤ - ٢٧٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ٥٣٧ - ٥٣٨ ، ١١١٥ ، المسعودي (ت) ، ٦٨ ، ٧٤ ، ١٢٣ - ١٢٤ ، المقدسي ج ٣ ، ١٤٦ - ١٤٨ مسعر (ب) : ٣٣ - ٣٤ ، حدود العالم : ١٣٥ (٣٧٥) ، الاصلطحي : ١٢٣ ابن حوقل : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، المقدسي : ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩٢ (ح ١٠) ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ . انظر أيضاً م ، ستريك ، م (٢) ، ج ٢ ، ١٠٨ - ١٠٩ ، وبلاشار ، جغرافية عالمية ، ج ٨ ، مشار إليها ، ١٣٨ .
- (٣٨٠) بمعدل ٥٠٪ فقط ، باقراره ، لكن « يدفع حياقه ثمتاً لذلك
- (٣٨١) أحمر على حد قول المسعودي : اللون العام للبركان داكن ، وذاجم عن التراخيت ، وهي صخر شبه بورفير .
- (٣٨٢) حماقات على حد قوله عن قصص دنهاوند ، وهو يشير إليها (لأن أصله فارسي ، ويتنسك بتقاليد بلده : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، ٢٩٣ . لكن يتفوق هنا

ذهه العلمي) ، باقتضاب بالغ. في الواقع . ويلوذ ابن حوقل والمقدسي بالصمت حيال هذا الموضوع .

(٣٨٣) ابن الفقيه : ٢٧٧ - ٢٧٨ : ترجمة (بعد الوفاة) ه . ماسي ، راجعها ش . بيللا ، دمشق ، ١٩٧٣ . الحيوان المقصود هنا الغول الأسير ، متلما يتضح من تنمة النص . يعثر مجددا على موضوع الباب الذي يدل على حدود العالم ، في اسطورة ياجوج وماجوج : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٥٠٠ وما يليها .

(٣٨٤) يصل الاسطورة الفارسية ، بطرق اخرى ، العناصر ذاتها (النار ، المصيبة ، المرفة) التي تربطها الاسطورة اليونانية ببعضها (خاق هيفايستوس فولكين باذدورا ، فتح ايبيميته العلبة ، وهو شقيق بروجميتيه خالق الانسان وساق النار الالهية) .

(٣٨٥) يعتبر تقليد اخر ، هامشي هو أيضاً ، الأسير تثنينا له سبعة ارؤس ، نشأ من مستبد تائب (ابن الفقيه : آخر ٢٧٨) . بشأن اساطير اخرى ، غير واردة في النصوص الجغرافية ، انظر م . ستريك ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ١٠٨ - ١٠٩

(٣٨٦) انظر دوره في نهضة الادب الفارسي ، شاهنامه خاصة : الاحالات في ستريك ، المرجع ذاته .

(٣٨٧) ما تقدم ، ص ٩

(٣٨٨) حدود العالم : ٧٩

(٣٨٩) تبدو اللوحة الواردة في كتاب حدود العالم (ص ٧٩ - ٨٢) ، من هذه الناحية واضحة الى حد كبير . فهذا المصنف وسط بين جغرافية صورة الأرض وجغرافية المملكة الأدق ، ويقدم في لوحته جميع المفاوز المعروفة جنبا الى جنب ، كبرت أم صغرت ، الفت مجموعات أم لم تؤلف الا انها لا تحة فقط (أو تعليق على اطلس اذا شئنا) ، حريصة فقط تقريبا على تحديد المواقع وعلى الطوبوغرافية ، وفي جميع الأحوال قليلة المعلومات ، ان لم نقل بصراحة خالية من المعارف الدقيقة عن مفهوم الصحراء بالذات والتعريف المعطى في اللوحة ، والمذكور من قبل يكفي يحد ذاته ونهايتها .

(٣٩٠) الاصلحري : ٢٠ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ابن حوقل : ١٩ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، المقدسي : ١٩٣ ، ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣٩١) انظر ما تقدم ، ص ٦٦ ، في الكلام عن سيناء

(٣٩٢) التقدير صحيح : هذا بالفعل اعظم عرض في شبه جزيرة سيناء تقريبا ، وفي الاتجاه الآخر ، المسافة بين سيناء على عرض الاسماعيلية ، اذ ان القسم الأبعد الى الشمال ، يؤلف حسب المصنفين الجغرافيين منطقة مصرية ، الجفار (من الفرع الشرقي للنيل الى العريش) .

(٣٩٣) السماق ، مفردا سمقة : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٤

(٣٩٤) تيه ، مصدر تاه : بالمعنى الأصلي ، مكان ضل فيه بنو اسرائيل الطريق

(٣٩٥) مفازة عند المقدسي على الأرجح ، الا أن النص تغير : انظر المقدسي : ٢١٠ (ح ١٠) .

(٣٩٦) ما تقدم ، ص ٤٤

(٣٩٧) بالنسبة الى البحث الذي يهنا هنا ، احالاتنا تضاف الى احالات الحاشية ٢٥٧ ، وهي : الاصطخري : ٢٦ ، ٧٩ ، ١٣٦ ابن حوقل : ٣٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٧٣ ، المقدسي : ٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٩٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٤

(٣٩٨) المقدسي : ٤٤ (بالنسبة الى مجمل المقطع ، انظر المرجع ذاته ، ٣٣ - ٣٥)

(٣٩٩) ابن حوقل : ٤٧٣ ، ذكر من قبل في الحاشية ٢٥٧ . يحذف من ترجمة وايت ، ص ٤٥٥ ، س ٢٤ - ٢٥ ، النقي (« لا يرى شيئا . . . الا ») الذي يفيد عكس المعنى .

(٤٠٠) الجاحظ (مستشهد به ، ابن حوقل ، المرجع ذاته ، بكتيته ابي عثمان) لا يتحدث في الحقيقة عن صحراء (اذا استشهد به ابن حوقل حرفيا) ويتوسع النقاش في الواقع ، ويتمدد هذا المفهوم ، ليصل الى جمال اجتماع الأشجار والأرض المزروعة وتبدو الصحراء في نفس ابن حوقل - باسمها - أرضا ليست مجدية بالضرورة بلا ريب ، لكن بعيدة عن الخضرة الحقيقية الظاهرة في الحقول الحقيقية والمشاجر ،

(٤٠١) ابن حوقل : ٦١ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ٤٥٢ ، ٥١٦ ، المقدسي : ٢٣١ ، ٢٤٣ ، ٢٨٢ . انظر أيضاً اسحاق بن الحسين : ٤٥٠ - ٤٥٢

(٤٠٢) ترد « الرملة » أحيانا أيضاً ، وهي اسم حبة الرمل أو المكان الرمل أو الأرض الرملية .

(٤٠٣) انظر ابن حوقل : ٣٦ ، ٣٩ ، ٦٧ ، ٨٦ ، ١٥٨ ، ٢٥٣ ، ٤٠٨ ، ٥١٣

وأماكن أخرى ، المقدسي : ٨٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٣٢٠
(وحاشية يعل) ، ٤٣٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٧ ، ٤٨٨ ، وأماكن أخرى حول الرمل المحتاح
هنا أيضاً ، لكن في نص يجمع فيه لفظ رمل مع لفظ برية أو مغارة أو بادية ، انظر مثلاً
ابن حوقل : ٦١ ، ١٥٣ ، ١٥٨ . حول بلاد زرنج ، انظر الاصطخري : ٢١٤ ،
وابن حوقل : ٤١٥ - ٤١٦ .

(٤٠٤) انظر ما تقدم : ص ٥ - ٨

(٤٠٥) ابن حوقل : ٣٥ - ٣٦ ، و ١٥٧ - ١٥٨

(٤٠٦) قد ينطبق هذا الوضع ، بداهة وقطعا ، تقديراً ، على اسماء البلدان الأخرى ،
المذكور انها داخلة في النظام الرمي : ولو اقتصرنا نحوياً على بعض منها ، في حين تشملها
الإضافة كلها في الواقع .

(٤٠٧) ابن حوقل : ٣٥ ، ٣٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، المقدسي : ١٥٤

(٤٠٨) حسب ابن حوقل على الأقل ، لكن انظر تحديد موضع آخر في حدود العالم : ٢٢٢

(٤٠٩) احيل في جميع هذه النقاط ، إضافة الى جميع ما هو مدون بشأنها وجميع حتى الآن ،
الى مقالتي الممنون : « ارض جزيرة العرب حسب الهمداني » ، مجلة القاهرة الجديدة
(القاهرة ١ روماني ، ١٩٧٥ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤)

(٤١٠) مع اسماء مشتقة من الجذر ذاته : قفرة ومقفر . انظر الاصطخري : ٢٥ ، ٢٨ ،

٣١ ، ابن حوقل : ٣٤ ، ٤١ ، ٥٠ ، المقدسي : ٢٤١ ، ٤٥٩

(٤١١) هذا هو تعريف الهمداني (الحاشية ٤٠٩) . يتحدث لسان العرب عن خلاء بلا
نبات ولا ماء .

(٤١٢) انظر الاستشهادات بالا اصطخري وابن حوقل في الحاشية ٤١٠

(٤١٣) ابن حوقل : ٦١ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، المقدسي : ٤٦٧

(٤١٤) الاصطخري : ٢٧ ، ابن حوقل : ٣٩ ، ١٤٨ . ذكرت برية أيضاً وحدها

بلا نعت ، عند ابن حوقل : ٥١٢ ، المقدسي : ٢٤٦ ، ٢٨٨ . انظر أيضاً المقدسي :
٤٤ (نص استشهد به وترجم ص ٧١) .

(٤١٥) ابن حوقل : ٣٩ (الاصطخري : ٢٧) و ٤١ (تصحيح ترجمة وايت ، ص

٣٩ : لا يمكن ان يكون المقصود « السهول » ، لأن الطريق في سفح الجبل ، ولا بد ان يقال في الحد الأدنى « فوق السهول » لا « عبر السهول » .

(٤١٦) الا صطخري : ٦٠ ، ١٠٥ ، ابن حوقل : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٥٠٧

(٤١٧) حول هذا المعنى للفظ « برية » أو الصفة « برى » (ة) ، انظر الا صطخري : ٤٦ ، ابن حوقل : ١٨١ (الحديث عن منبج بين ساحل الشام ونهر الفرات ، « مدينة برية » ، أي بعيدة في داخل البر على حد قولنا . تصحح ترجمة وايت ، ص ١٧٨ ، مع ملا حفلة ان ابن حوقل خفف نص الا صطخري : (في برية) ، وجعله « مدينة برية » ، المقدسي : ١١٨ (طرف البصرة البري : بداهة يقابله الطرف النهري أو البحري) ، ١٤٠ (اذمة في الجزيرة : اذمة صغيرة في البرية . استشهاد غير ثابت ، لكنه لعله يعني « بعيدا عن أي مجرى مائي » ، في هذه البلاد التي يخترقها دجلة والفرات ورافدهما) ، ٢٣٢ (بطرلية ، في صقلية : بطرلية قبلية برية ، مثال واضح جداً ، يعكس المدن البحرية الواردة في النص ذاته — برطنيق غير بحرية) ، ٢٨٨ (تقابل جهة النهر ، جهة البر) . (٤١٨) الحديث عن منبج (الحاشية ٤١٧ السابقة) .

(٤١٩) ابن حوقل : ٨٣ ، ١٠٣ ، ٢٢٧ ، ٣٠٩ (جدير بالا اهتمام لأن الا صطخري عنده مفاوز فقط ، المقدسي : ٤٨٦

(٤٢٠) منقطع : يمكن فهمه « متباعدة » ، وان كان النص (اتساع الصحراء الكبرى) لا يسمح بهذا التأويل .

(٤٢١) المقدسي : ١٢٨

(٤٢٢) رأينا (ما تقدم ، ص ٧٠) ان صحراء سيناء على حدة . وتستشف صورة الهلال الخصيب عبر لفظ مقوسة : المقدسي : ٢٤٩

(٤٢٣) ابن حوقل : ١٠١ ، عند البربر ، النموذج ذاته ، ولفظ بادية أيضاً ، عند البلوص (الا صطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١) ، وعند البدهة في السند (الا صطخري : ١٠٥ ، ٩٨ ، ابن حوقل : ٣٢٣ — ٣٢٤ ، وان قيل ان لهم اخصاصا واجاما ياقون اليها : ربما كان هذا هو السبب الذي دعا ابن حوقل الى تصحيح الا صطخري — الذي يتحدث فقط عن البادية — والقول : والبدهة كالبادية من البربر ، ليبعد بلا ريب عن نموذج البداوة الشاملة التحالصة المنتشرة عند العرب) .

(٤٢٤) المقدسي : ٦٦٠ ، ١٥٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٤٨٧ - ٤٩٦ وأماكن أخرى .
لم يحسب المغرب بين الأقاليم العربية التي تحوي بادية (المرجع ذاته : ٢٤٨) .

(٤٢٥) بشأن هذه البلدان ، انظر ابن حوقل : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ١٥٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، وأماكن أخرى ،
المقدسي : ٦٢ - ٦٣ ، ٦٦ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٧ - ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ،
١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٤٩ ، وأماكن أخرى .

(٤٢٦) المقدسي : ١٥٢

(٤٢٧) ابن حوقل : ٦٩ ، ٧١ - ٧٨ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠١ ، ٢٥٧ ، ٣٢٨ ،
المقدسي : ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٤١٤ ، ٤٨٤

(٤٢٨) ابن حوقل : ٧٧ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠١ ، المقدسي : ٢٤٣ ، ٢٤٨ ،
٢٨٤ ، ٢٥٢ .

(٤٢٩) يشير المقدسي : ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، إلى كثرة العرب في البادية .

(٤٣٠) على ما هي عليه - أما بصفة : مفتوحة (الاصطخرى : ٦٠) ، أو واسعة ،
تصف البادية (المقدسي : ٢٥٢) أو ايضاً بوصف البادية اغلب الارض (الاصطخرى :
١٠٧ ، ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٤٨٤) .

(٤٣١) عنى ، بخوس ، مباحس (حول النقطتين الأخيرتين ، انظر م ج ع ، ج ٤ ،
١٨٥) . ويذكر نقص المياه الدائمة الجريان عند الحاجة : الاصطخرى : ١٠٧ ،
ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٤٨٤) .

(٤٣٢) ابن حوقل : ٧٨ ، في ضواحي المدن ، وسنعود إلى هذه الحالة :

(٤٣٣) ابن حوقل : ٣٩ : (تصحيح ترجمة وايت ، ص ٣٨ : « وادي ») ، ٦٩

(٤٣٤) ابن حوقل : ٧٦ (حول لفظ حوزة : مرعي طيبي ، ونتاج بمعنى قطمان ،
انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٢٠ ، ٣٦٠) ، ٧٨ ، ٢٣٩ ، المقدسي : ١٤٢

(٤٣٥) ما سبق : ص ٧٦ (والhashية ٤٢٣) .

(٤٣٦) الاصطخرى : ٢٦٠ كرره ابن حوقل ، لكن دون ذكر الاتساع ، لسبب انشائي
بلا شك ، بقصد المحافظة على توازن السجع (منقطعة العمارة ، منفردة المنازل والقرى) :

(٤٣٧) الاصلخري : ١٠٥ ، ١٠٧ ، كرره ابن حوقل : ٣٢٥ ، ٣٢٨ والمقدسي : ٤٨٤ (حيث الصيغتان اللتان سوف نستشهد بهما مفصولتان ببضعة أسطر) .

(٤٣٨) المقدسي : ٢٥٢

(٤٣٩) يقع ، بادية ، سهلة : المقدسي : آخر ٢٤٩ ، آخر ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٤٤٠) المقدسي : ٢٥٣

(٤٤١) المقدسي : ٢٤٨ ، الا حظ أبضاً بين قوسين ، غياب الألوان : اللون الأسود وحده مذكور (المرجع ذاته ، ٢٥٣ ، مثالان) .

(٤٤٢) المقدسي : ٢٤٨ . يقول في ص ٢٤٨ : فيد مدينة صغيرة ، ويعلن صراحة : وهي من مدن الحجاز لا محالة ، ولكن أوصلنا إليها وصف الطرق (طريق القادسية) .

(٤٤٣) المقدسي : ٢٤٨

(٤٤٤) حول المواضيع المعروضة ، انظر المقدسي : ٢٤٨ - ٢٥٠

(٤٤٥) لا تدخل فيها الطرق الفرعية (البنيات : حول هذا اللفظ ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٩٤) المقدسي : ٢٥٢ .

(٤٤٦) المقدسي : ٢٥٠ - ٢٥٢

(٤٤٧) يقال لنا بان بادية العرب بها بحيرة ، ولا نهر الا نهر الأزرق ، الزرقاء اليوم ، رافد نهر الاردن من الضفة الشرقية (يبق في التوراة) . حذار من الالتباس مع نهر الزرقاء الصغير الساحلي في فلسطين ، أي نهر التمساح في العصور القديمة .

(٤٤٨) منهل ، جمعه مناهل . حول هذه الطرق ، انظر المقدسي : ٢٤٩ وما يليها . حول الليالي : ٢٥٢ ، حول منهل : ٢٥٠ (وحاشية آ) ، ٢٥٤ ، و م ج ع ، ج ٤ ،

٣٦٨

(٤٤٩) المقدسي : ٢٤٨

(٤٥٠) حول هذه المواضيع والمواضيع اللاحقة (تصنيف المياه) ، أحيل اجمالاً الى المقدسي : ٢٥٢ - ٢٥٤

(٤٥١) المقدسي : ٢٤٨ - ٢٥٢ (كل تمور تيماء جيدة) .

(٤٥٢) المقدسي : ٢٥٢ ، ٢٥٣ . حول لفظي بقال وهائل ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٩٢ ، ٣٧٠ - ٣٧١ . حول حاكم (قاضي من المرتبة الثانية ؟ أو قاضي مدينة صغيرة ؟ أو ضابط شرطة ؟) انظر ا ، ليفي بروفنسال ، تاريخ التنظيم القضائي في بلدان دار الاسلام ، طبعة ثانية ، لايدن ، ١٩٦٠ ، ص ١١٠ ، ٢٧٧ ، ٥٢٤ ، ٥٦١ - ٥٦٤ ، ٥٧٦

(٤٥٣) المقدسي : ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤

(٤٥٤) المقدسي : ٢٤٨ ، آخر ٢٤٩ - ٢٥٢ - ٢٥٥

(٤٥٥) المقدسي : آخر ٢٥٢ - ٢٥٣ في الحديث عن تيماء ، المذكور من قبل . لاحظ أيضا حمام فيد ، المرجع ذاته ، ٢٥٤ (حول هذا الحمام ، انظر مع ذلك الحاشية ٤٤٢) .

(٤٥٦) المقدسي : ٢٥٢

(٤٥٧) المقدسي : ٢٥٣

(٤٥٨) المقدسي : ١٨٦ ، ٢٤٨ ، آخر ٢٥٢ ، ٢٥٣ . حول لفظ خمة في تطبيقه على المناخ ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٢٨ . تدرين آخر جيد عن البرية : ابن حوقل : ٢٨٠

(٤٥٩) انظر مثلاً المقدسي : ٦٣ ، ٤٧٣ . عنوان بحث هذه الصحراء : مفازة خراسان (الاصطخري : ١٣٣) مفازة خراسان وفارس (ابن حوقل : ٣٩٩ ، مفازة خراسان : المرجع ذاته ، مثلاً ص ٢٨٧) . المفازة التي يبين هذه اقاليم (أي اقاليم الأعاجم : المقدسي : ٤٨٧) .

(٤٦٠) الاصطخري : ١٣٣ ، ابن حوقل : ٤٠١ (الصحراء في ترجمة هذه الفقرة تعني المفازة)

(٤٦١) مما يلي البحر : المقصود خليج فارس .

(٤٦٢) انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٤٤ . يستعاض هنا عن معنى الرباط الشائع (دير محصن ، خاصة في الثغور) بمعنى مركز تفتيش ورقابة ، يتوقف فيه المسافر ، ويجدد قواه ، كما يستخلص من الوصف .

(٤٦٣) عند المقدسي (انظر ص ٤٩٠ - ٤٩٢ ، الحواشي) عرض فيه ، زائد التنظيم في نسخة اسطنبول .

(٤٦٤) تتعارض ، عند المقدسي مثلاً ، صيغ « الرهيبة » (٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤)
وصيغ « الفرج والمهونة » (٤٩٣) .

(٤٦٥) المقدسي : ٤٨٧ ، ٤٨٨ (يشبه استعمال فعل ركب في المفاوز ، فعل ركب
البحر بالنسبة الى مفاوز تخوم شمال الصحراء الكبرى : المقدسي : ٢٤٦)

(٤٦٦) مع ذلك كل شيء نسبي : فالمقدسي : ٤٩٣ ، يذكر ، كما يجب ، طريقاً لا
لا تندر فيها لا الحياة ولا الحراسة .

(٤٦٧) المقدسي : ٤٨٧

(٤٦٨) الا صطخري : ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، المقدسي :
٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣

(٤٦٩) حول التجزئة والدعار ، انظر الا صطخري : ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ابن
حوقل : ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، المقدسي : ٤٨٧ ، ٤٨٨ - ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ،
٤٩٤ (حاشية يط من ٤٩٣)

(٤٧٠) الا صطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٦ ، لا ريب ان هذا ما فعله المقدسي
أيضاً في القصة الواردة في ص ٦٤

(٤٧١) الا صطخري : ١٣٢ - ١٣٥ ، ابن حوقل : ٤٠٣ - ٤٠٤ ، المقدسي : ٤٩٢ -
٤٩٤

(٤٧٢) المقدسي : ٤٨٨

(٤٧٣) الا صطخري : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧

(٤٧٤) الا صطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٦

(٤٧٥) ابن حوقل : ٤٠٢ ، يتوسع في الا صطخري : ١٣٤ . حول معنى المفردة
(قافلة بلا متاع) انظر م ج ع ، ج ٤ ، ص ٣١٤

(٤٧٦) ابن حوقل : ٤٠٣ ، يتوسع في الا صطخري : ١٣٤ . حول تعبير على البسمت .
والقصد (خط مستقيم) ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ص ٣٢٦

(٤٧٧) الا صطخري : ١٣٥ - ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٥ - ٤٠٩ ، المقدسي : ٤٨٧ ،
٤٨٨ ، ٤٩٣ - ٤٩٥

(٤٧٨) احيل على وجه الاجمال الى اماكن متفرقة من الاصطخري : ١٣٤ - ١٣٨ .
وابن حوقل : ٤٠٣ - ٤٠٩ ، والمقدسي : ٤٨٧ - ٤٩٥

(٤٧٩) والمقدسي أيضاً بطريقة منهجية زائدة وأدق .

(٤٨٠) سنيج المدينة الوحيدة في هذه المفازة (الاصطخري : ١٣٤ ، ابن حوقل : ٤٠٢ - ٤٠٣) ومدينة ذره هي أيضاً على تخوم المفازة ، وتتبع بداهة إقليم الجبال الصخري : ١٣٤ ، ابن حوقل : ٤٠٣ ، شأنها شأن قرية بدره (الاصطخري : ١٣٥ ، ابن حوقل : ٤٠٤ ، حيث ترد خطأ ذره أخرى : شوارز ، ايران ، ج ٧ ، ٩٢٩) . وترشيز تابعة لنيسابور (الاصطخري : ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٩) ، وخبيص على شفير المفازة وتتبع كرمان أيضاً (الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٧) ومثلها واور القرية « العامرة » (الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٩ ، وشوارز ، ايران ، ج ٣ ، ٢٢٥) ، وقرية قرب نرماشير (الاصطخري : ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٩ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣١٣) . وتتبع قم (الاصطخري : ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٤) قرستان على حنب المفازة دوماً . والقرى السبع الداخلة في قاب الصحراء هي : دانجبي ، جرمق (تفسيرها ثلاث قرى) ، كرى ، خزانة ، ساغند (حول حقيقة ساغند ، انظر المقدسي فيما يلي) ، بشتاذران ، وابن (الاصطخري : ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ - ٤٠٩) . يلاحظ ان ابن حوقل الذي يحذو حذو الاصطخري عن كتب ، يمتنع عن مجاراته (اذن يخالفه بعض الشيء) ليعبر في عرضها العام (الاصطخري : ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن حوقل : آخر ٤٠٢) ان المفازة لا تحوي أي قرية .

(٤٨١) ابن حوقل : ٤٠١ - ٤٠٩ (يكرر الاصطخري : ١٣٣ - ١٣٨) احيل اليه اجمالاً لهذه الأقوال .

(٤٨٢) يكتفي المقدسي ، ٤٨٨ ، بذكر تناوب الجروم والسرود (المناطق الحارة والباردة) ليشير الى فروق الحرارة التي تعد احدى ميزات المناخ الصحراوي .

(٤٨٣) المقدسي : ٤٩٤ (حاشية من في ص ٤٩٣) .

(٤٨٤) ابن حوقل : ٨٦ ، ١٠٣ ، ٢٢٧ ، ٤٣٦ (تسجيل نبات : اصابع العروس الصمغية) ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٧٧ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، المقدسي : ٢٤١ ، ٢٨٢ ، ٣٢١ (حاشية ج) ٤٨٤ ، ٤٨٦

(٤٨٥) ابن حوقل : ٨٣ ، ١٠٣ ، ١٥٣ ، ٥٢٧ (صحاري شبه مجهولة الى جنوب الصحراء الكبرى ، بين بلاد الزنج والمحيط) ، المقدسي : ٢١٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦

(٤٨٦) ابن حوقل : ٢٢٧ ، المقدسي : ١٤٠ ، ٢١٠

(٤٨٧) يبدو عدد الاستشهادات من هذه الناحية ملهلا بالنسبة الى الاستشهادات الممكنة الاتيان بها لدار الاسلام (انظر الحاشيتين ٤٨٥ و ٤٨٦) . وتتناول كل ولايات دار الاسلام الشرقية ، باستثناء ارمينية واذريجان : انظر ابن حوقل : ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٥٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩ وما يليها ، ٤١١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ - ٤٥٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، المقدسي : ٢٨٢ ، ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ (ح ب) ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣٠٨ (ح ز) ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ (ح آ) ٤١٨ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ (و ح آ) - ٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦

(٤٨٨) نبرز من الاحالات المعطاة في الحاشية ٤٨٤ ، على وجه التخصيص : ابن حوقل : ٥١٧ (مع تكرار التدوين الخاص بالسير على خط مستقيم) على القصد : انظر الحاشية ٤٧٦) أو حسب توفّر المرعي ، حتى منازل المراحل لا يمكن تحديدها بدقة تصحح ترجمة وايت ، ص ٤٩٤) .

(٤٨٩) انظر ابن حوقل : ٨٦ (حول قرية كانت مزدهرة في الماضي ، في المغرب ، تحولت ارضها الى مفازة ١٤٧ (الاصلحري ، ٤٠ : توالي المقاوز والأراضي المزروعة في النوبة) ، ٤٤٦ (في خراسان ، مفاوز يمر عنها تنافس مفاجيء في أعمار الأرض) ، ٤٧٧ (واحة في خوارزم ، محاطة بالمفازة من جميع جهاتها) ، المقدسي : ١٤٠ (التضاد بين إحدى المدن والمفازة في الجزيرة) .

(٤٩٠) ما تقدم ، ص ٨٤ - ٨٥

(٤٩١) يستبعد على هذا الاساس ، تيه ، رمل ، وحتى قفر ، ولم يزل القفر تماما كتعبير ، ويستنفد كل معناه بفكرة المفازة . الحاشية ٤١٠ ، ٤١١ .

(٤٩٢) نظر بنوع خاص وجود صحراء في مفازة فارس الكبرى : الاصطخري : ١٣٦ ،
ابن حوقل : ٤٠٦

(٤٩٣) انظر (ما تقدم ص ٧٥ ، حاشية ٤١٩) اقتران برية ومفازة أو أيضاً ص ٧٨ ،
تردد الاصطخري بين مفاوز وبوادي .

(٤٩٤) احد ابواب زرنج في سجستان ، يسمى باب الأطلام ، ويؤدي الى الرساتيق :
الاصطخري : ١٣٩ ، ابن حوقل : ٤١٤

(٤٩٥) أمثلة شهيرة : الريف العراقي (الاصطخري : ٢٠ ، ٥٩ ، ابن حوقل : ١٨ ،
٢٣٤ ، ٢٤٣ ، المقدسي : ١١٨ ، ولوستراخ ، الخلافة الشرقية ، ٢٤) .

(٤٩٦) بالنسبة الى الأندلس ، وبوجه ادق الى قرطبة ، يستعمل لفظ قنباية : انظر
المقدسي : ٢٣٣ ، ٢٢٥ ، دوزي ، ملحق ، ٢ ، ٤٠٨ ، ليفي بروفنسال ، الاندلس
المسلمة ، مشار إليها ، ج ٣ ، ٥٠ ، ٢٢٥ وأماكن متفرقة (قنباية قرطبة) ، ٢٧٧ ،
ج ١ (النعت قنباي) .

(٤٩٧) ابن الفقيه : ١٠٤ - ١٠٥ ، ابن حوقل : ٤٧٢ - ٤٧٣ ، المقدسي : ٣٥
(تغييرات ، المرجع ذاته ، ٢٥٩) . حول شعب بوان ، انظر ما تقدم ص ٣٤

(٤٩٨) المقدسي : ١٥٩ ، ٢٣٤ ، ٣٧٣ ، (انظر القرآن ، ٤٧ ، ١٧) ، ٣٨٥ ،
٤٠٩ ، ٤٦٦ (ح د) . يثير موضوع الجنة المقارنة باماكن اخرى ، لا تلفظ الجنة فيها
(مثل ارمينية اذربيجان) ، لايد من ادراجها في الفتنة ذاتها بدهاء : ابن حوقل : ٤٧٢ ،
المقدسي : ٤٢٤ (وضع منطقة سابور في فارس) .

(٤٩٩) ابن حوقل : ٣٣٨

(٥٠٠) المقدسي : ٤٢٤ . حول معنى اسم الفاعل « دافية » ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٣٨

(٥٠١) المقدسي : ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٣٢٠ ، ٤٢٥

(٥٠٢) ابن حوقل : ١٠٨ ، ١٤٧ ، ١٧٤ ، ٢٣٦ ، ٣٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ،
٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩

(٥٠٣) ابن حوقل : ٤٧٢ - ٤٧٤ . بالنسبة لكل النصوص المترجمة فيما بعد . تدقق
ترجمتنا أو تصحح عند الاقتضاء ، ترجمة ج . وايت . ظهرت التعليقات ، مع بعض

الفوارق الشكلية ، في « جغرافي عربي في الريف » ، القوس ، ٧٢ (تكريم جورج دوبي) ، ١٩٧٨ ، ص ٤٣ - ٤٨

(٥٠٤) مكتبة حريفيا غطاء : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٣٧

(٥٠٥) حول لمط والنسبة لمطية ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ح ١٠٦٧

(٥٠٦) مقومة بالاستواء : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٣٦

(٥٠٧) زرفشان

(٥٠٨) ميادين ، المفرد ميدان : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٥٨

(٥٠٩) رياضها وميادينها ، حريفيا

(٥١٠) ما تقدم ، ص ٧١

(٥١١) أي ما يقرب من ٧٠ كم

(٥١٢) تلي الاحالة الى الجاحظ ، في نص ابن حوقل ، في الواقع ، نصا سوف نستشهد به ، لكنها ذاتها يأتي بعدها نصوص أخرى استشهد بها من قبل ، تحوي موضوع الكشف أيضاً .

(٥١٣) انها منطقة البصرة ، يدل عليها نهر الابللة (ابولوغوس القديمة) : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٩٠ ، ٤٤ ، ٤٦ (ح ١) - ٤٧

(٥١٤) معنى جملة ابن حوقل واضح ، رغم تركيبتها الثقيل بلا جمل : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٧٨

(٥١٥) سترابون ، كتاب ٢ ، فصل ٥ ، فقرة ١١ . لفت انتباهي الى هذا المقطع صديقي لويس مارين

(٥١٦) جغرافية بشرية اذن ، بالمعنى الذي بيناه في جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، ٨ رومانبي آخرها - ٩ .

(٥١٧) بعض الأمثلة : الرمل المذكور لا كارض ، بل عنصر غالب في موقع احدى المدن (ابن حوقل : ١٤٤) . الأرض يذكرها المقدسي ، ٣١٥ ، اللزجة (ملكة : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٠٣ - ٣٠٤) ، وهي ليست كذلك بداهة . كذلك المقدسي ،

٤٢٠ ، يذكر تربة فارس كارض مناجم ، اللون الأبيض لكان معين في اورشليم يجب ربطه بالاحرويات (مكان القيامة) : المقدسي ، ١٧٢ ، حول لون التربة السوداء في المدينة ، انظر المقدسي : ٢٨٠

(٥١٨) المقدسي : ٣٨٨ ، ٣٨٩ (ح - آ) ، المرجع ذاته ، ٦٧ (أفضل) ، توصف به ارض جزيرة العرب ، يحيل بداهة الى فضائل البلاد في تاريخ دار الاسلام ، وعلى التقيض ، المرجع ذاته ، ٣٨٥ (لعينة ، لا ررض الري) يفسر في اطار مقتل الحسين .

(٥١٩) مثلا ، ابن حوقل . ٣٦٣

(٥٢٠) ابن حوقل : ٤٤٢ ، المقدسي : ٣٠٨

(٥٢١) بالنسبة الى الخصب أو نقيضه ، انظر ابن حوقل ، ١٤٦ (غير نقي) ، ١٦٠ ، ٢٥٧ (خصب) ، ٤٥٣ (ازكى) ، ٥٠٥ (جيدة) . بالنسبة الى « الأرض » ، انظر ابن حوقل : ٢٥٣ ، ٤٩٤ ، المقدسي : ٢٩٤ ، ٣٠٨ (جدر صح) ، ابن حوقل : ٢٣٩ ، ٤٤٢ (جدر طيب) ، على العكس ، جفور فسد (ابن حوقل : ١٣١) وعفن (المقدسي ، ٣٠٥) . بالنسبة الى الجفاف ، ابن حوقل : ٢٥٣ و ٤٩٤ (نص مبالغ ؟ به او جفاف خفيف) ، المقدسي : ٣١٥ . بالنسبة الى الرطوبة : ابن حوقل : ٢٥٧ . بالنسبة الى القساوة : المقدسي : ٣٨١ : بالنسبة الى الملح : ابن حوقل : ١٤٦ ، ٢٥٣ ، المقدسي : ٤١٠ . يلاحظ ان هذه الأرض ، في حالات كثيرة ، هي التي تقوم فيها مدينة (نظر حاشية ٥١٧) : مثلا ابن حوقل : ١٤٦ ، ١٦٠

(٥٢٢) ابن حوقل : ١٣٥

(٥٢٣) ابن حوقل : ١٤٧ ، المقدسي : ٢١٣

(٥٢٤) ابن حوقل : ١٤٧ ، ١٥٣ ، المقدسي : ٢٠٨ ، ابن حوقل : ١٤٤ ، يمد هذا الازدهار بعيدا على الضفة اليمنى .

(٥٢٥) ابن حوقل : ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، المقدسي : ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٢ - ٢١٣

(٥٢٦) المقدسي : ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ . تبدو الأرض (السوداء بعد الفيضان) عند المسعودي (م) فقرة ٧٧٤ ، (ت) ، ٣٤ ، ولا مزيد وفي اطار اشارة شعرية . (٥٢٧) فيضان الصيف ، التماسيح ، مذاق الماء ولونه . الموضوع شائع في الأدب ، وفي

الجغرافية انظر الاصطخري : ١٠٧ ، ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٢٣ (ترجمة ، ص ٦٤ ، حاشية ١١٢ ، مع احالات اخرى .

(٥٢٨) الاصطخري : ١٠٧ ، وابن حوقل : ٣٢٨ ، في الكلام عن مهران ، يمشر على هذه الجملة الموحية : « وهو نهر كبير عذب جدا ، وفيه التماسيح كتماسيح النيل ، وهو كالنيل في الكبر وجريه كجريه بماء الأمطار الصيفية ، ويرتفع على وجه الأرض ، ثم ينضب ، فيزرع عليه حسبما يزرع بأرض مصر »

لا يتناول هذا النص صراحة الا الري ، كما نرى ، وليس تخصيص التربة . والمقدسي مقتضب أكثر من ذلك ، ٤٨٣ : « وعليه مزارع عند زيادته ، كما ذكرنا بمصر » .

(٥٢٩) ابن حوقل ، ١٤٨ ، يعارض في الحقيقة النيل وحده (لكن نعرف انه باحث الخضرة) والصحرَاء .

(٥٣٠) يعد التدوين ، كما عند المقدسي ٣٨١ ، عن الحرارة ، وعلاقتها بالملوحة أو درجة تساوة التربة ، استثناءً فعلياً .

(٥٣١) المسعودي (ت) ، ٤٥ ،

(٥٣٢) المقدسي : ٢ ، ترجمة ص ٥ و ٢٧٧ (ح ٧٣) .

(٥٣٣) ما تقدم ، ص ٥٧ - ٥٩ . سوف نتاح لنا فرصة العودة الى هذا الموضوع في جزء آخر ، في بحث انشطة البشر . فلنتذكر خاصة أفضلية الحديث عن المعادن (ذهب ، فضة ، وحجارة كريمة خاصة) : انظر من بين احالات كثيرة ، ج روسكا (عنوان الماني) ١٩١٢ ، والحمداني ، كتاب الجوهريتين العتيقتين ، الناشر والمترجم ، ج . تولد ، اوبسالا ، ١٩٦٨ . حول المعتقدات المرتبطة بالفلزات وبالحجارة الكريمة ، انظر ايلياد ، الحدادون والسيميائيون ، مشار اليه ، ص ١٦ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٤٠ - ٤١ ، ٤٣ وأماكن متفرقة .

(٥٣٤) ابن حوقل : ٢٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٤٦ - ٤٤٧ ، المقدسي : ٢٢٦ ، ٢٨٠ ،

٢٨١ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ (ح . ا) ٤٤٣ (وح . يح) ، ٤٦٥

(٤٣٥) القرآن ، ٣ ، ٤٣ ، ٥ / ١١٠ ، ٦ / ٢ ، ١١ / ٧ ، ١٧ / ٦٣ ، ٢٣ / ١٢ ،

٢٨ / ٣٨ ، ٣٢ / ١١ ، ٣٨ / ٧١ ، ٧٧ / ٥١ ، ٣٣

(٥٣٦) المقدسي : ٣١٠

(٥٣٧) ابن حوقل : ٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ٤١٥ - ٤١٦ ،
٤٣٤ (مع الملح) ، المقدسي : ٩ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣١ ،
٢٥٣ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ (ح . يط) ، ٣٣٣ (ح . ز) ، ٣٩٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦٧ ،
وما تقدم ، ص ٧٢ - ٧٣ . انظر أيضاً ابن رسته : ١٦٠

(٥٣٨) ابن حوقل : ٣٠ (مقترنة بحرة أرض حجرية) ، ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ٢٥٩ ،
٣٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٥ ، ٤٣٤ (مع الرمل) ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ ، ٥١١ ، المقدسي :
٨٠ ، ٨٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢٤٥ ، ٣١٥ ، ٣٥١ - ٣٥٢ ، ٣٧٢ ، ٤١٠ ،
٤١٩ ، ٤٥٣ ، ٤٨١

(٥٣٩) انظر المقدسي : ١٤٦ ، ١٨٤ ، ٢١٣ ، وابن حوقل : ٣٣ (ابن رسته : ٢٥) ،
٢٢٢ ، ٢٣٨

(٥٤٠) حول الكلس أو الحوارة ، انظر المقدسي : ٢ ، ١٨٤ ، وم ج ع ، ج ٤ ، ٢٢٠ ،
حول الساق ، مفردة سمقة ، المقدسي : ٢ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٤٥٩ (مع الرمل)
وم ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٤

(٥٤١) موميائي ، نفط ، قبر (بشأن اللفظ الأول ، انظر احالة عند ابن حوقل ، ترجمة ،
ص ٢٩٤ ، ح ٣٧٤ : مسعر (ب) : ١٢ ، الاصلطخري : ٩٣ (كرره ابن حوقل :
٣٠٠ ، والمقدسي : ٤٢٨) ، المقدسي : ٤٠٢ ، ٤٢٠ ، ٤٤٤ (بشكل نار ودخان) .
يبرز وجود صاحب البريد حقيقة السلطة المركزية ، وذلك بين الأشخاص الرسميين
الذين يراقبون أعمال المحصول . ينز القير المقصود في هذا المقطع (الاصلطخري ، مشار
اليه) من جدران الكهف .

(٥٤٢) ابن حوقل : ٢٩ ، ٣٠ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، المقدسي :
١١٨ ، ١٢٣ ، ١٤٧ ، ٢٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٨١ ، ٤٤٠ ، ٤٩٠

(٥٤٣) ابن حوقل : ٣٠ ، ١٤٤ ، ٢٥٣ ، ٤١٥ ، ٤٣٤ ، المقدسي : ٨٠ ، ٨٢ ،
١٩٥ (و ح . ح) ، ٣٥٥ ، ٤١٠ ، ٤٨١ . على التقيض ، لا يشر على الملح في
نيسابور : المقدسي : ٣١٥

(٥٤٤) ابن حوقل : ٦٦ . التربة ذاتها في منبج ، في سورية الشمالية الشرقية : المرجع
ذاته ، ١٨١ .

(٥٤٥) المقدسي : ٢٠٩ ، ٢٨٠

(٥٤٦) ابن الفقيه : ٢٦٠ ، ابن حوقل : ٢٢٢ ، ٤٣٨ (بشأن فارس ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣١٥) ، المقدسي ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ (حول نخوخ ، مقعر ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٣٠ ، ودوزي ، ملحق ١ ، ٤١١) ، ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٤٤٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ (وح . يح : غضبار أبيض لعطش البيوت) . مسعر (ب) ١٢ ، يشير في باكوالي جريان نبط أبيض ، ابن الفقيه ، ٦٨ ، يميز بالنسبة الى الأهرام بين المرمر والبورفير (الرخام : انظر دوزي ، مشار اليه ، ٥١٩) .

(٥٤٧) المقدسي : ٢٨١ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٤٦٥ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٣٠٣ - ٣٠٤ (النعت علم : لزج) .

(٥٤٨) الميسودي (م) فقرة . ٩٠ ، ٥١٤ ، الميسودي (ت) : ١٠٨ ، الاصلطخري : ١٥٥ ، ابن حوقل : ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٤٤٦ - ٤٤٧ ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ ، المقدسي : ٢٢٦ ، ٣٢٦ (وح . ٨) ، ٣٣٣ ، ٣٥١ - ٣٥٢ ، ٣٨١ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٢٩٣ . ينظر بالبال أيضاً سباخ البحيرة الميتة (المقدسي ، ١٨٤) والمواد التي ترافق في النصوص الجغرافية الملح : كالقلويات أو (ابن حوقل : ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ٢٢٨ ، ٤٨٧ ، المقدسي : ٣٥١ - ٣٥٢ ، حول لفظ ملاحه ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ٦١١) .

(٥٤٩) ابن الفقيه : ٦٦ ، ٧٦ ، ابن حوقل : ١٨٥ ، المقدسي : ١٧٢ ، ٣٣٣ (ح . ز) ٣٩٧ . حول هذه الحجارة (حجارة الاستمطار أو الصواعق خاصة) ، انظر ايلياد ، الحدادون والسيمايون مشار اليه ، ص ٣١ ، ٧٨ ، ١٥٩ - ١٦٠ (المراجع) .

(٥٥٠) الهمداني : ١٥٠ ، ابن حوقل : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ٤٠٤ - ٤٠٧ ، ٥١٥ ، المقدسي : ٩ ، ١٧٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٥٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٠ (ح . يط) ، ٣٥٠ ، ٤١٤ ، ٤٩٠ . حول النعت دهس (رخو ، تفرز فيه الرجل كثيراً) ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٣٨

(٥٥١) الهمداني : ٦٧ - ٦٨ (حيث تزيد الأدوية التجزئة : وتنسب هي أيضاً الى القبائل) ، ١١٩ ، الميسودي (م) ، فقرة ١٢٧٦ ، الميسودي (ت) : ٦٨ - ٦٩ (ذكر سابقا ، ص ٤٨ - ٤٩) ، ابن الفقيه : ٣٠ - ٣٢ (مع الفاظ اخرى) ، المقدسي : ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ميكيل ، بعض نصوص المقدسي ، مقال ذكر .

(٥٥٢) ابن حوقل : ٣٧١ . حول نجد جزيرة العرب ، انظر ابن حوقل : ٤٠١ ، ٣٩ ، المقدسي : ٨٦ ، ٩٤ ، والمقال الوارد ذكره في الحاشية السابقة .

(٥٥٣) من فعل غار : تسرب ، نفذ ، اختفى في الأرض (عن الماء)

(٥٥٤) الاصطخري : ٤٥ ، ابن حوقل : ١٧٠ ، ١٧٣ ، المقدسي : ٢٦ ، ١٥٢ .
١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٦٩

(٥٥٥) المسعود (م) ، فقرة ٣٦٢ و غ . فران ، م ، ج ٤ ، ٤٩٠

(٥٥٦) المقدسي : ١٢٤ ، ١٢٨ ، ٣٢٩ ، ٤٨٤

(٥٥٧) انظر النص المذكور من قبل ، ص ٤٨ - ٤٩

(٥٥٨) ما تقدم : ٣٢ - ٣٤

(٥٥٩) ابن حوقل : ١٣٩ وما يليها ، المقدسي : ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٨٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ (وح . يد) -
٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٢٩ . يلاحظ أحيانا استعمال الفاظ أخرى : مثلا الصيغة الخامسة من فرق لتقسيم قناة الى فروع أصغر منها :

المقدسي : ٣٣١ ، خليج يعني قناة متفرعة عن نهر (انظر مثلا النيل ، المقدسي : ١٩٨ ، لسيحون ، المرجع ذاته ، ٢٢ (ح . يد) ، لمهران : ابن حوقل : ٣٢٠ ، ٣٢٣) ،
خاصة عمود للدلالة أحيانا على الذراع الرئيس لنهر كبير (النيل ، دجيل ، جيحون أو نهر مرو / مرغاب) ، بالنسبة الى التثنيات : المقدسي : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٥ ،
٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٤١١

(٥٦٠) المقدسي : ٢٠ ، ١١٧ ، ٢٩٠ ، ٤٨٢ : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٧٤

(٥٦١) المقدسي : ٤٤٦

(٥٦٢) المقدسي : ٦٢ ، ١٢٢ ، ٤١٢ ، ٤٩٠ (ح ط) ، م ج ع ، (مشار اليه)
يؤول الأسواق تأويلا آخر : موزعة في أماكن عديدة .

(٥٦٣) المقدسي : ٨٦ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ٢٠٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ،
(ح ب) ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ (ح . آ) ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ،
(اقتران المساحة بالننى واضح جدا) ، ٣٨٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢

(٥٦٤) المعنى الآخر واسع ، بقعة بلاد عامة : انظر مثلاً ابن الفقيه : ٢٠٩ - ٢١١
(كرره المقدسي : ٢٥٧ - ٢٥٨) .

(٥٦٥) ابن حوقل : ٦٦ ، ١٧٤ ، ١٨٣ ، ١٨٥ (باستثناء بلد لوط المخرب
والمحروق) ، ٢١١ ، ٢٢٦ ، ٤٨٨ ، المقدسي : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٥٣ ،
٣٨٨ ، ٣١٤ ، ٢٥٩ ، ٢٥٧

(٥٦٦) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٩٣

(٥٦٧) ابن حوقل : ٦٧

(٥٦٨) المقدسي : ٣٢٩ (يقارن بالمرجع ذاته ، ٤٨٤ ، الذي يعارض به هذه المرة
بطيحة ببطيحة ، العراق ببلد آخر .

(٥٦٩) انظر المدخل ، ص ١ - ٢) ل ش . بيلا ترجمة مروج الذهب للمسمودي

(٥٧٠) المقدسي : ٢٢٨

(٥٧١) الاصل مخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٣٨١ (نز مع نجل ، بمعنى قريب) ،
٤٠٥ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٣١١

(٥٧٢) ابن حوقل : ٤٨٨

(٥٧٣) ابن حوقل : ٢٩ ، ٣٨١ ، المقدسي : ٧٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ . معنى عام جداً
لوطاء الذي يبدو اصلاً عوضاً عن اغوار ، جمع غور ، من أجل السجع في مثل سائر
(المقدسي ١٨٨)

(٥٧٤) ابن خرداذبه : ٩٧ ، ابن حوقل : ٣١٩

(٥٧٥) ابن الفقيه : ٣٢

(٥٧٦) ابن حوقل : ٢٨٢ ، ٣٥٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٨٨ ، حوضة بالقلب :
المقدسي : ٤١٤ ، ٤٢٨ (انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٧٠ ، وحاشية ١٣٩)

(٥٧٧) تبرز أيضاً سمويات السير : انظر تعبير أرض وعرة المسالك (بيلا ، اللغة
العربية الحية ، مشار اليه ، عمود ١٠) . حول وعرة ، وعرة ، الجمع أوعار انظر ابن
حوقل : ٣٧٠ - ٣٧١ (بمعنى « هوة » و « صعب وهائل » في اطار جبال عالية جداً ،

ثم « منخفضات » بمكس السهول والجبال : انظر ترجمة وايت ، ص ٣٦٢ والحاشية (٢٥٠) ، ٤٠٢ ، ٤٣٩

(٥٧٨) اعطيت الاحالات في الحاشية ٢٢٩

(٥٧٩) لا يستعمل لفظ سفح وحده ابدا بل دوماً المضاف جبل

(٥٨٠) انظر ما تقدم ، ص ٣٣ - ٣٤ . بالمعنى المبين هنا ، أو بالنسبة الى وادي ، بلا تدقيق ، انظر ابن حوقل : ٣١ ، ٣٣ ، ١٥٥ (تضاد بين الاودية والمقاب) ، ٣٢٤ ، ٤٨٨ ، المقدسي : ٧١ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ١٥١ ، ١٦١ (ترجمة ، ص ١٧٧ ، حاشية ١٣٤) ، ١٧١ ، ١٧٤ (استثناء وارد : وادي نابلس محصور بين جبلين ، مضغوط بينهما) ، ١٧٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ (دراعه ، لا يظهر لفظ الوادي في الحقيقة ، الا ان تعبير نهر جرار يبدو مساوياً وادي جرار الذي ستحدث عنه فيما بعد) ، ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ (ح . ط) ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣ ، ٤٣٦ ، ٤٥٣ ، ٤٩٤

(٥٨١) المقدسي : ١٤٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٤

(٥٨٢) الاضطخري : ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٧ ، ٤٠٨

(٥٨٣) حول مواضع خصب الوادي ، انظر ابن حوقل : ٤٠٨ ، المقدسي : ٥٨٣ ، ٩٣ ، ١٧١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٣٠٣

(٥٨٤) ابن حوقل : ٥١١ ، المقدسي : ٢٣٣

(٥٨٥) المقدسي : ١٤٠ ، ١٦٨ ، ٣٧٧

(٥٨٦) الاضطخري : ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٧ ، المقدسي : ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ (مثالان) ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، حول جرار ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٠٤ . انظر القرآن ١٣ / ١٨ / ١٧ ، حاشية ترجمة بلاشير : حرفياً ، جرت اودية »

(٥٨٧) عندما يتميز أحد الوديان بماء مستنقع ، باقي ، يكون الماء في الآبار أو العيون كما ابنا .

(٥٨٨) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٠ - ١٦

- (٥٨٩) موضوع ادب ، انظر أبو الحيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، الناشر أحمد أمين وأ . الزين ، القاهرة ، ج ٢ ، ١٣٧٣ / ١٩٥٣ ، ص ١٠٤ وما يليها
- (٥٩٠) جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧٤
- (٥٩١) المسعودي (ت) ، ١٠٥
- (٥٩٢) الجاحظ (ح) ٢٠٦ ، ٤
- (٥٩٣) الناشر بيلا ، ص ٢٦ ، انظر ترجمة ب . كارادي فو ، مفكرو الاسلام ، باريس ، ج ٢ ، ١٩٢١ ، ٢٥٤
- (٥٩٤) ابن الفقيه : ٦٤ - ٦٥ ، ترجمة ماسي (راجعه ش . بيلا) مشار اليه ، ٨٠
- (٥٩٥) الضمير في « حلقته » عائد في كل هذه الجملة ، ليس الى قرار الأرض ، كما يمكن ان يظن من سياق الترجمة ، بل الى الماء
- (٥٩٦) مسعر (ب) : ٢٩
- (٥٩٧) المقدسي : ٣٨٤
- (٥٩٨) المقدسي : ١٤٧ ، ١٦٨ (الترجمة ، ص ١٩١ ، ١٨٥)
- (٥٥٩) المقدسي : ٤٢٦ - ٤٢٧
- (٦٠٠) المسعودي (ت) ، ٧٣ ، الذي يعطي التواريخ في تقاويم اخرى : فارسية (٩ ديماء) ، اسكندرية أو قبطية (٩ طوبه) وسورية ، منسجمة مع التقويم اليوليوسي (هـ كانون الثاني)
- (٦٠١) المسعودي (ت) : ٧٣ آخرها - ٧٥
- (٦٠٢) قدامة ٢١٠ - ٢١١
- (٦٠٣) المقدسي : ج ٢ ، ٣٤ - ٣٥ . ذكر زلازل ارضية اخرى عند ابن رسته : ١٧٠ ، ومسعر (ب) ٤١ . في حقبات متأخرة انظر م . أ . طاهر « نصوص مؤرخين شاميين عن الزلازل في القرن الثاني عشر الهجري » ، م د ش ، ٢٧ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٠ - ١٠٨ . انظر أيضاً م . أ . طاهر ج . ب . بواريه « الزلزلة التاريخية في الشرق الأدنى والأوسط . . . » ، مجلة جمعية علم الزلازل في امريكا ، سوف يظهر في وقت لاحق

(٦٠٤) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٩٠ . تكرر موضوع المراكب في كتاب
الف ليلة وليلة (رحلة سندباد السادسة وقصة ثالث قلندر ، ابن الملك)

(٦٠٥) ابن الفقيه : ٦٧ ، ٧٦ ، ١٣٤ ، يكرره جزئيا المسمودي (ب) ، فقرة
٨١٦

(٦٠٦) انظر استشهاد ابن بطلان عند أ . ويدمان ، في م ، ج ٣ ، ١٠٩

(٦٠٧) يتدخل الهواء في فرضية جابر بن حيان (انظر ويدمان ، مقال ذكر) الذي
يعتبر المغناطيسية قوة لا مادية شبيهة بالمعطور . والنار ، على الأقل بشكلها المجازي كسم ،
تتدخل بسم الحية ، الشبيه بالمغناطيسية من ناحية زوال اثره بنسج الا ترح ، مثلما يزول
أثر المغناطيس بالثوم .

(٦٠٨) كما ان موضوع جبل الحديد يتعدى ، على مستوى آخر ، الجغرافية ، ويدخل
في القصة والأدب : انظر الحاشية ٦٠٤ ، والبيهقي ، كتاب المحاسن والمساوي ،
بيروت ، ١٣٨٠ / ١٩٦٠ ، ص ١١٣ : ضل أحد الملوك وجيشه في إحدى الصحاري ،
فوضع رجله الحافيتين على درعه على الأرض ، وتغطى بدرعه . ثم مات في هذا الوضع .
وكان « المنجمون قد تنبأوا عند ولادته بأنه سيتوفى بين جبلين من حديد » .

(٦٠٩) انظر ما تقدم ، ص ١٢ - ١٣ ، ٣٣ ، ٤٧ آخرها - ٤٩ ، ٥٢ ، ٩٧ ،
٩٩ وأماكن متفرقة . اصف المقدسي ، ٣٨١ (حول تقنيات الحراثة التي يقتضيها اثر
الثلوج الغزيرة في الأرض ، في منطقة اردبيل .

(٦١٠) المسمودي (ت) ، ٤٥ (ترجمة معدلة بعض الشيء) .

(٦١١) انظر مثلاً ابن حوقل : ١٣ ، المقدسي : ١٩٥

(٦١٢) المقدسي : ٣٩٧ . انظر أيضاً ابن خردادبه : ١٧٢ ، مسعر (ب) : ٣٧ (عين
تتحجر بلامسة الزئبق) ، حول هذه المواضع ، انظر ما يأتي الفصل ٢ ، ص ١٢٦ -
١٢٧

(٦١٣) المقدسي : ٣٨٠ . حول المعتقدات المرتبطة بالنيازك ، انظر ايلياد ، الحدادون
والسيميائيون مشار إليه ، ١٤ ، و ١٥٩ (المراجع) .

(٦١٤) انظر ما تقدم ، ص ٥٧

(٦١٥) انظر ما تقدم ، ص ٩٦ (وح . ٥٤١ . عرفت صيغة الطير رواجاً عظيماً :
الاصطخري : ٩١ ، ابن حوقل : ٢٩٧ ، المقدسي : ٤٤٥ ، حدود العالم : ١٢٨ ،
٣٧٩ (انظر شوارز ، فارس ، ج ١ ، ٣٧)
(٦١٦) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٧٧ (وح . ١٠٣٣) ،
٢٦٠ ، ٢٦٧

(٦١٧) انظر ما تقدم ، ص ١٣ ، ٦٦ آخرها - ٦٩

(٦١٨) اليقوي ، ٣١٢ ، (بركان بني سليم ، على بعد حوالي عشرة فراسخ من
المدينة ، انظر « اليورات البركانية الكثيرة الى أقصى حد والحديثة ، يذكرها بالنسبة
لهذه المنطقة بلا نشر ، في الجغرافية المالية ، ج ٨ ، مشار اليه ، ١٨٢) . المقدسي ،
١٠٢ (بالنسبة الى منطقة عدن ، انظر و لوفنرين ، في ١٢ (٢) ، ج ١ ، ١٨٦ ،
وبلا نشر المرجع ذاته ، ص ١٧٥ - ١٧٦) ، ١٠٣ (بالنسبة الى منطقة صنعاء خاصة ،
ذكر مكان خرجت منه نار احترقت بستان مقسمون (القرآن ، ٦٨ : ١٧) : حول
الآثار المنظورة (بازالت) للبراكين في المشهد الطبيعي ، انظر بلا نشر ، الموجع ذاته ،
ص ١٧٤) . اخيراً يلاحظ « بركان » وادي برهوت أو بلهوت في حضرموت
انظر الاصطخري : ٢٦ آخرها - ٢٧ ، ابن حوقل : ٣٨ ، المسعودي (م) ، فقرة
٩١٢ ، ٤٦٤ ، المسعودي (ت) ، ٩٠ ، المقدسي ، ج ٢ ، ٩٧ ، ج . شليفر ، في ١٢ ،
ج ١ ، ٦٧٠ ، ج رنتز ، في ١٢ (٢) ، ج ١ ، ١٠٧٦ - ١٠٧٧

(٦١٩) المسعودي (م) ، فقرة ٩١٢ ، المسعودي (ت) ، ٩٠ ، الاصطخري : ٦٤ ،
ابن حوقل : ٢٥٥ ، المقدسي : ٤٤٤ ، حدود العالم : ١٣٠ ، ٣٨١ . شوارز
(فارس ، ج ٣ ، ١١٦ ، ج ٤ ، ٢٩٣) يميل ، اعتماداً على الاصطخري ومع بعض
الحق ظاهرياً ، الى عين بيتومية .

(٦٢٠) المقصود ، في الواقع ، على الأرجح ، الجايزر : المسعودي (م) فقرة ٩١٣ ،
المسعودي (ت) ، ٩١ ، وايضا ابن الفقيه : ٣١٤ . انظر شوارز ، فارس ، ج ٤ ،
٤٦٧ آخرها - ٤٦٨

(٦٢١) حول هذا المركب البركاني ، المعروف معرفة سيئة في الغالب (انظر الى تحديد
موقع اثنا في إحدى الجزر التي تبدو متميزة عن صقلية ، ووجود بركان في جزيرة
« مقابل تاورمين » ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٣٦٧ ، شوارز ، فارس ،

ج ٤ ، ٢٩٤ ، ابن خرداذبة : ٩٠ ، ١٥٥ آخرها ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٦ ،
٤٦٤ ، ٩١٢ ، المسعودي (ت) ، ٨٩ - ٩٠ ، ابن حوقل : ٢٥٥ - ٢٥٦ ، المقدسي :
٢٣٢ ، ٢٤١

(٦٢٢) انظر الصفات المشار اليها في الحاشية ٦١٨ ، والحاشيتين ٦١٩ ، ٦٢٠ .
أخذ الوصف الوارد هنا ، من جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢٦٠ ، ما تقدم ، ص ٦٧ ،
المسعودي (م) ، فقرة ٣٧٧ ، ٤٦٤ ، ٩١٢ - ٩١٣ ، المسعودي (ت) : ٩٠ - ٩٢ ،
عجائب الهند : ٢٨٥ ، ابن حوقل : ٢٥٥ - ٢٥٦ ، المقدسي : ٢٤١ ، وصيف شاه :
٤٨

(٦٢٣) المقدسي : ٢٣٢

(٦٢٤) المقدسي : ٢١١ . انظر أيضاً مسعر (ب) : ٣٦ ، ابن حوقل : ٢٩٧ ، ٥٠٥ -
٥٠٦ (كهوف بتم ، مع ابخرة غاز النشادر ، ذكر من قبل) ، المقدسي : ١٥٣ (شبكة
جوفية مبنية بانهدام القبة : انظر الترجمة ، ص ١٥٧ - ١٥٨) ، ١٧١ ، ١٧٥ ،
(كهف له مدخلان) ، ١٨٥ ، ٣٣٣ (و ح . ز) ، ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٦٢٥) انظر الحاشية ٦١٨ ، والمسعودي (م) ، فقرة ٨٧ ، المقدسي : ١٠٢ ، ١٣٦
(انظر المرجع ذاته ، ١٤٤ ، ١٤٦) ، ١٧١ (حول كهف القدس ، انظر ج . و كر ،
١٨٥ ، ج ٢ ، ١١٥٢ و ١١٥٤) ، ١٧٥ ، وما يليها ، ١٨٥

(٦٢٦) لا ريب ان لدينا هنا اختلاط عدة مواضع ، مواضع الكهف (أو الكهفين)
و مواضع الصخور المنحوتة في المنطقة ، في بهستون (بيستون) و طاق - أي بستان :
انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٦٣ ، أ . هرزفيلد و ر . ن - فراي ، في م ا (٢) ،
ج ١ ، ١٢٨٦ ، شوارز ، فارس ، ج ٤ ، ٤٨٧ ، وما يليها ، ج ٤ ، ٤٤٥ ، ٢٠٥
(لفظ جرن) ، بالنسبة الى النصوص ، انظر ابن حوقل : ٢٩٧ ، ٣٥٩ ، ٣٧٢ ،
المقدسي : ٤٤٤ - ٤٤٥ ، حدود العالم : ١٢٨ . يبدو ان الكهف المقصود هنا ، يتفق
جيذا مع وصف ج . سوتير و دي شاف ، « استكشاف كهفي في ايران » ، سيلونكا ،
١٩٧٤ ، ج ٤ ، ص ١٠٩ - ١١٠ حول المعتقدات الخاصة بالكهوف ، انظر ايلياد ،
الحدادون والسيمايون ، مشار اليه ، ١٥ ، ٣٣ - ٣٤ ، وأماكن متفرقة .

(٦٢٧) انظر المقدسي ، ذكر من قبل ، في الكلام عن كهوف مصر

(٦٢٨) انظر كهف سابور وما تقدم ، ص ١٠٨ (استشهاد المقدسي) .

حواشي الفصل الثاني

(٦٣٤) انظر ايلياد ، الحدادون والسيمايون ، شار اليه ، ١٣٠ و ١٣٩ . الأسطر المذكورة من كيرشوفير ، مؤلف كتاب Aurea Catena Homari ، (١٧٢٣) فيما يظن . علاقة الماء بالحجر الفلسفي ملحوظة بجلالة في ابن الفقيه ، ٢٠٥

(٦٣٥) الاحالات الى النصوص المذكورة هي الآتية : ٢٥ : ٥٥ / ٥٣ - ٥٤ / ٥٤ ، ٢١ : ٣١ / ٣٠ ، ٢٧ : ٦٢ / ٦١ (انظر الفصل الأول ، ص ٢٦ آخرها - ٢٧) ، ١٤ : ٣٧ / ٣٢ (جزئيا) ، ١٦ : ١٥ : تستهدي ترجمتي بترجمتي ر . بلاشيروم . حميد الله

(٦٣٦) مع اهمال التأويلات العائدة الى الأخرويات ، انطلاقا من مقطع اخر من القرآن : ٢٣ : ١٠٠ / ١٠٢ انظر ب . كارادي فو ، ١٢ (٢) ، ج ١ ، ١١٠٣ - ١١٠٤ . بالنسبة الى التفسيرات المشار اليها هنا ، انظر المقال ذاته وبلاشير ، القرآن ، ٢ / الحاشية ص ٣١٠ - ٣١١

(٦٣٧) القرآن ، ٦ : ٢ ، ٢٠ : ٥٧ / ٥٥ ، ٢٢ : ٥ ، ٣٢ : ٦ / ٧ - ٨ / ٧ ، ٥٥ : ١٣ / ١٤

(٦٣٨) ر . بلاشير : « شروب » ، م . حميد الله : « مبرد » .

(٦٣٩) العلاقة مباشرة بين المطر والنبات في مجمل ال ٦٣ حالة تقريبا التي ذكرها بلاشير (القرآن ، الفهرس ، لفظ مطر) . تندس مياه العين أو النهر بين اللغظين في ثلاث حالات فقط : ١٣ (بلاشير رقم ٩٢) : ١٨ / ١٧ ، ٢٣ (٦٦) : ١٨ - ١٩ ، ٣٩ (٨٢) : ٢٢ / ٢١

(٦٤٠) مبنية بايجاز كما قلنا في ثلاثة مقاطع من القرآن : انظر الحاشية السابقة

(٦٤١) اليعقوبي : ٣٢٥ ، بالتأكيد النبع الكبير في رأس العين ، الذي يروي بعلبك وضواحيها .

(٦٤٢) ابن خرداذبة : ١٧٢ . الموقع مرتبط بوفاة الخليفة المأمون . يرتبط بشبكة ماء بردان ، أي كيدنوس القدامى .

(٦٤٣) ابن الفقيه : ٦٤ (انظر المرجع ذاته ، ١١٦) . لنا عودة الى الاردن والنيل . أما ذكر الأماكن الاخرى ، فلعلة يتفسر على ضوء الصفة المقدسة ، التي تحظر اعادة استعمال المياه التي مستها (الحجرات ، جمع حجرة ، تحيل فيما يبدو الى « الغرف » التي دفن فيها النبي وزوجه عائشة وخليفته أبو بكر وعمر ، واجداده ، أو أحد مشاهير الرجال : انظر ١م (٢) ، ج ٣ ، ٥٦٤ ، الهروي ، كتاب الزيارات ، طبعة ذكرت ، ص ٦٣ ، و ٩٠ - ٩١ ، الترجمة ، ص ١٤١ و ٢٠٦ - ٢٠٧) .

(٦٤٤) حدود العالم : ٧٠ ، يكرر النص : « انهار طبيعية » الفرق المبين من قبل (المرجع ذاته ٦٩) بين مجاري ماء طبيعية وصناعية (اقية)

(٦٤٥) الاخوان ، ر ١ ، ١٦٤ - ١٦٥

(٦٤٦) باستثناء تحفظ مصنفاته الاخرى ، الضائعة ، التي يحيل اليها ، في المقطع المشار اليه هنا (المروج ، فقرة ٢١٤) ، بالنسبة الى آراء اخرى خاصة باصل المجاري المائية . يبدو ان كتاب النبي لا يأخذ بفرضية اخوان الصفا (ص ٤٥ - ٤٦)

(٦٤٧) ما تقدم ، الفصل ١ ، ص ١٠٨

(٦٤٨) ابن الفقيه : ٦٤ ، ٧٨ . يعود الرمل الى الظهور عوضا عن حبال القمر (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٣٦ - ١٣٨) ، بشكل جبل (أو جبال) الرمل عند الاسواني ، ٢٥٩ . انظر ج . هـ . كرامرز « النيل » في ١م ، ج ٣ ، ٩٨١

(٦٤٩) الاسواني : ٢٦٠ يديهي ان « ثم » يجب ان تفهم صعدا على النهر . المريفق قرب سوبه ، مصر بلد علوة النوبي ، الذي يعرفه الاسواني جيدا . بالاخرى ، لا نجد سببا عرضا للنيل يبلغ مسيرة شهر . احيل جملة ، بالنسبة الى بلدان منابع النيل والنيل الأعلى ، التي لا تدخل في مملكة الاسلام ، الى جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٣٥ آخرها ١٣٨ و ١٥٣ وما يليها .

(٦٥٠) ايلياد ، الحدادون والسيماثيون ، مشار اليه ، ٣٣

(٦٥١) المرجع ذاته ، ص ١٦

(٦٥٢) ابن الفقيه : ١١٧

- (٦٥٣) انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٦٥ ، حاشية ١١٤
- (٦٥٤) المسعودي (م) ، فقرة ٢٨٨ - ٢٨٩ ، المقدسي : ٢١ - ٢٢ ، وصيف شاه ٣٤٤ وما يليها
- (٦٥٥) ابن خردادبه : ١٦١ ، ابن الفقيه : ٧٣ تلميح في القرآن : ٤٣ : ٥٠
- (٦٥٦) المقدسي ، ج ٢ ، ٤٢ ، ح ٤ ، ٥٦
- (٦٥٧) سفر التكوين ، ٢ ، ١٠ - ١٤ . قوى ، القاموس ، لفظ « نهر » ، ح ٢ ، ٢٩٩٠ ، كرامرز ، « نيل » ، ١٢ ، ج ٣ ، ٩٧٩ ، المسعودي (ت) ، ٩٧ ، حاشية ٢ لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٤ ، حاشية ١
- (٦٥٨) القرآن ، ٧٧ : ٢٧ ، ابن الفقيه : ٩٥ . حول التقليد الاسلامي ، انظر ١ . ح . ونسلك ، كتاب التقاليد الاسلامية الاولى ، لا يدن ، ١٩٦٠ ، ص ١٨٣ . حالة اخرى ، يتحول فيها الموضوع الى موضوع اسلامي : القبة فوق الصخرة صارت مسجد ابراهيم ، ويخرج من تحت الصخرة ماء كثير . في مجال آخر ، هنا بهلوي ، روحنت فيه جغرافية الانهار ، انظر ج - دي مبناي « تفسير روي لاسطورة جغرافية مزدية » ، المجلة الاسيوية ، ٢٥٩ ، ١٩٧١ ، ص ٢١ - ٢٤
- (٦٥٩) حول هذه المواضيع انظر ابن الفقيه : ٦٤ ، ٩٥ ، ١٧٤ - ١٧٥ ، ٢٢٠ (عين في فارس ، في اروندي ، تعد من عيون الجنة) ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ٧٧٥ ، المسعودي (ت) ، ٣٥ (لبن وعسل لمنطقة الاسكندرية) ، المقدسي ، ج ٢ ، ٤٢ ، ج ٤ ، ٥٦ ، المقدسي : ٢١ - ٢٢ - ٢٣ (يصحح الرس ويجعل الشاش (نهر الشاش ، اسم آخر لسيحون) : انظر الترجمة ، ص ٦٥ ، ح ١١٤) ، ١١٣ (الفرات باسم « نهر ») ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ آخرها ، ٢٩٨ (نهر منطقة مرو ، مبارك بسبب ذكرى ذي القرنين ، المشهور بأنه باني المدينة : انظر ابن الفقيه : ٣١٦) ، ٤٧٤ (مهران ، لم يسم ، وصف بالنيل) ، وصيف شاه : ٤٣ - ٤٤ ، ٣٤٤ - ٣٥٠ . ربما وجب أيضاً مقارنة الرقم ٧ بهذه المعطيات (بالنسبة الى الأنهار التي تولف النيل ، صعدا من بلد علوة ، الاسواني : ٢٥٩ ، بالنسبة للأنهار التي تسقي مدينة الشيز ، في الجبال ، وكل منها يدير رعي ، مسعر (ب) : ٨ . بالنسبة الى التقليد الاسلامي ، انظر ابن حنبل ، المسند ، القاهرة ، ١٣١١ / ١٨٩٣ ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، ٣٣٥ ، ٤٤٦ ، ج ٣ ، ص ١٦٤ ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ٢٠٨ وما يليها .

(٦٦٠) المقدسي : ٢٣ (ترجمة ، ص ٦٥ حاشية ١١٥ - ١١٦) ، الاحالات الى القرآن كما يلي : ١٣ : ١٨ / ٢٥ ، ١٧ / ٤٠ : ٣٨ ، ٥٠ : ١٢ ، ١٥ : ٢٧ ، ٥٢ : ٢٧ ، ٥٦ : ٤١ / ٤٢ .

(٦٦١) الحالة معقدة جدا لا سيما وان نهر الكر ، الذي يعني اسمه « آبار » ، مثله مثل الرس ، من انهار فارس ، كالرس بالذات (انظر ابن حوقل : ٢٦٣ ، ٢٧٥ - ٢٧٦ ، المقدسي : ٤٤٦) . مع ذلك يبدو ان هذين النهرين مقصودان ، لاهمية مجاري المياه في منطقة ارمينية اذريجان القبق . العقبة الاخرى : يذكر المقدسي ان التقليد يعتبر الكر من انهار الجحيم ، خلافا للرس ، الذي يعد من انهار الجنة . صححت من قبل (حاشية ٦٥٩) رس وجعلته ساش ، لأعود الى سيعون . ربما اخطأت ، لكن اذا حوفظ على التصنيف كما ورد عند المقدسي ، لا نفهم ماذا يعمل في اطار الجنة ، نهر يذكر بداهة بتدوينات ذم . انظر مايلى ، ص ٢١٥ .

(٦٦٢) مشكوك فيه اصلا : انظر تردد الناشر ، اللفظ ، م ج ع ، ج ٤ ، ١٤٠ .
والمقدسي ٢٣ ح ز

(٦٦٣) لا يمكن ان نستبعد كليا معنى سم (ثقب الابر) في صورة الجمل الذي يمر في هذا الثقب قبل ان يدخل الكفار السماء (القرآن ، ٧ : ٣٨ / ٤٠) باقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ٢٤٥ ، يتحدث عن وادي سمي ، في الحجاز .

(٦٦٤) صورة اخرى : سبخة (أرض مالحة) .

(٦٦٥) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٢٤ ، حاشية ١ ، و ر . هارتمان ، « الفرات » ، في ١م (٢) ، ج ٢ ، ٩٦٨ (١) .

(٦٦٦) ذكر ابن قتيبة التقليد وذكر ان النهرين الكافرين هما دجلة ونهر بلخ ، وسبب هذا الكفر الري الشحيح الذي يتناقض مع ري النيل والفرات ، السخى : انظر المقرئزي ، الناشر وايت ، مذكرات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، مجلد ٣٠ ، ص ٢١٨ . انظر ابن الفقيه : ١٧٤ ، المقدسي : ١٤٥ . حول برهوت (أوبرهوت أو بلهوت) ، انظر الطمداني : ١٢٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، والحاشية ٦١٨ ، الهروي ، كتاب الزيارات ترجمة مذكورة ، ص ٣٨ ، و ٢٢١ ، باقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٦٦٧) المسعودي (م) ، فقرة ٢١٣

(٦٦٨) المقاطع المذكورة مأخوذة من المسعودي (م) ، فقرة ٧٨٥ ، ٢٢٩ - ٢٣٥ ،

انظر أيضاً المسعودي (ت) ، ٨٠ ، ابن رسته : ٩٤ آخرها - ٩٥ ، المقدسي : ١٨ ، ٢٠ (ح . يا) يتحدث في كلامه عن النيل ، عن ذراع يصب في بحر القلزم : بلا ويب التبس عليه مع القناة ، غير المستعمل آنذاك ، الذي كان يصل النيل بالبحر المذكور : انظر كرامرز ، « النيل » م ١٠ ، ج ٣ ، ٩٨٠ (١) .

(٦٦٩) « القديم » فعلا

(٦٧٠) تسمية عادية لشط العرب ، الا ان المسعودي يتكلم هنا عن بحر دجلة القديم (حاشية المترجم ش . بيلا) : انظر ح ١١٦١

(٦٧١) أي الجزء المنخفض الذي يمكن أن يغمره الفيضان (حاشية المترجم)

(٦٧٢) انظر بلا نشار ، في جغرافية عالمية ، ح ٨ ، مشار اليه ، ٢٢١ - ٢٢٥ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٥ - آخرها - ٢٩ ، م ستريك و ج . لاسنيور ، « كارون » ، ١٠ (٢) ، ج ٤ ، ٧٠٢

(٦٧٣) لخصه ب . سبولر ، « اموداريا » ، ١٠ (٢) ، ج ١ ، ٤٦٨ - ٤٧٠ (مع المراجع) ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٥٥ وما يليها ، بارتولد ، التركستان ، ١٤٦ ، ١٥٠ وأماكن متفرقة ، كامينا دالميدا ، جغرافية عالمية ، ج ٥ ، مشار اليه ، ٣٠٣

(٦٧٤) اليعقوبي : ٢٧٨ . تصحح ترجمة وايت ، ص ٨٣ (« تقع خوارزم عند مصب جيحون ») ، التي تحدث التباسا ، لتصحيح : « على آخر نهر بلخ » .

(٦٧٥) ابن رسته : ٩١ - ٩٢ (انظر بارتولد ، التركستان ١٤٦) ، حدود العالم : ٧١

(٦٧٦) ابن خرداذبة : ١٧٣ (وح . ز) ، ناحية هامه : يجعل المصنف النهر يصب في بحيرة كدر ، الا انه اضاف هو أو الناسخ أو أحد المفسرين : في بحر جرجان : أي بحر الخزر . يحيل وصف المسعودي (ت) ، ٩٦ ، للبحيرة ، احدى أوسع البحيرات في العالم (انظر المروج ، فقرة ٢٢٣) الى بحر آرال ، الا ان بارتولد (مشار اليه) يرى بالا حري في « هذه البحيرة المسماة الجرجانية » ساري قميش ، على مجرى جيحون القديم باتجاه بحر الخزر ، على حوالي ٢٥٠ كم الى جنوب غرب شواطئ بحر آرال . في الواقع ، يقال انه « يخرج من هذه البحيرة انهار عظيمة تصب في البحر الخزري » . انظر أيضاً المرجع ذاته ، آخر ٩٧ ، ثم ٩٧ (الفقرة الأولى)

و ٢٤٥ (يصحح في ترجمة كارادي فو، « بحيرة جرجان » التي تحيل الى بحر الخزر، الى « البحيرة المعروفة بالجرجانية » حسب النص العربي) ، وكلها احالات تزيد الالتباس ، اذا ان هذه البحيرة أي ساري قميش ، تتلقى مع جيحون ، سيمحون : نفكر ببحيرة آرال لا سيما وان شواطئها شهدت المجابهات بين الغز والكيماك .

(٦٧٧) الاصطخري : ١٦٦ آخرها - ١٦٧ ، ١٦٩ ، ابن حوقل : آخر ٤٥١ (بحيرة آرال مسماة ببحيرة جيحون) ، ٤٧٧ ، ٤٨٠

(٦٧٨) المقدسي : ٢٢ ، ٢٨٥ ، انظر سبولر ، « اموداريا » ، في ١٠م (٢) ، ج ١ ، ٤٦٨ (٢) ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٥٥

(٦٧٩) انظر سبولر ، مشار اليه

(٦٨٠) مع اغفال ساري قميش (الحاشية ٧٧٦) . انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٥٨ ، ح ١

(٦٨١) ابن خرداذبة : ١٧٨ ، ابن الفقيه : ٢٧ ، ابن رسته : ٩٠ - ٩١

(٦٨٢) المسعودي ذكر من قبل ، ص ١١٦ ، ابن الفقيه : ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ابن رسته : ٩٤

(٦٨٣) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٨ ، والمسعودي (ت) ، ٦٩ آخرها

(٦٨٤) ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٦ - ٦٧ ، المسعودي (ت : ٢٤٢ ، ابن حوقل : ١٥٣

(٦٨٥) المسعودي (م) ، فقرة ٤٢٤ ، المسعودي (ت) : ٢٤٢

(٦٨٦) المسعودي (ت) : ٢٤٢

(٦٨٧) ابن سيرايبون : ٤٤ (ا - ب) المسعودي (ت) : ٢٤٢ ، ابن حوقل : ١٥٣ ،

المقدسي : ٢٢ ، ٢٣ (ح يز من ٢٢) . انظر ر . هارتمان ، في ١٠م (٢) ، ج ١ ، ٧٢٧ ، واليعقوبي ، ترجمة ، ص ١٦٩ ، ح ٦ . سنعود فيما بعد ، في حديثنا عن الخريطة ، الى الشكوك المتعلقة بنظام ماء الارنط - الأردن - بردى (انظر أيضاً الحاشيتين ٦٩٥ و ٧٠٠ وص ١٩٦ - ١٩٨ .

(٦٨٨) ابن خرداذبة : ٢٨ ، قدامة : ٢٠٥ ، ابن الفقيه : ٣٢٧ آخرها . الأسم غامض (ماعدا مقطعه الأخير ، من الفارسية آب أي ماء ، نهر) . انظر ترددات الناشر (ابن خرداذبة ، مشار اليه ، ح ز ، ابن الفقيه ، مشار اليه ، ح يط) .

- (٦٨٩) ابن الفقيه : ٦٤
- (٦٩٠) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٦
- (٦٩١) ابن الفقيه : ٢٠٨ (هتدميد) ، مسعر (ب) : ٣٣
- (٦٩٢) ابن الفقيه : ٢٥٩ - ٢٦٠
- (٦٩٣) المقدسي : ٣٩٧
- (٦٩٤) المسعودي (م) ، فقرة ٨٩ ، المسعودي (ت) ، ١٠٧ . انظر ما يلي بالنسبة الى بزوغه
- (٦٩٥) قدامة : م ٦٥ . حول شكوك نظام ماء المنطقة ، الحاشية ٦٨٧ والحاشية ٧٠٠ وص ١٩٦ - ١٩٨ ، حيث يلاحظ ان قدامة وحده يشترك في الوقوع في هذه الأخطاء .
- (٦٩٦) مسعر (ب) : ٢٨ - ٢٩
- (٦٩٧) ابن خرداذبة : ١٧٦ ، ابن الفقيه : ٢٦٦ ، المسعودي (ت) ، ١٠٨
- (٦٩٨) المقدسي ح ٤ ، ٩٠ ، يضيف ان العمالقة سخرُوا من قصر قامة زائريهم ، لكنهم طرحوا السؤال بحكمة : كيف عاد الأتراك ليستطيع رواية هذه القصة
- (٦٩٩) الاحالات كما يلي : مسعر (ب) : ١٦ ، الهمداني : ١٦٠ ، المسعودي (ت) ، ٩٧ ، ابن خرداذبة : ٢٠ آخرها ١٧٦ ، ابن الفقيه : ٢٦٦ ، ابن رسته : ١٥٥ ، المسعودي (ت) : ١٠٧ - ١٠٨ ، ابن حوقل : ٣٦٦ (نسخة اخرى : يضع زرين روذ في بحيرة في كرمان : طهغيزوز) ابن خرداذبة : ٧٩ آخرها ، المسعودي (ت) : ١٠٧-١٠٨ ، المهلب (ي) ، ج ٥ ، ٣١٥ - ٣١٦ (وياقوت ، معجم البلدان ج ٤ : ١٦٧ ، بيدكر فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ١٢ ، ٢٤١ ، كارا دي فو يرى ان ابي فطرس نفس انتي ياتريس ، أو كفر سابا (انظر بسنيه ، مفردات جغرافيه قديمه ، مشار اليه ، ٥٤) المذكور انه بجوار النهر .
- (٧٠٠) لأنه من جهة لا ينضب (انظر ص ١١٦) حتى قبيل الكارثة التي تسبق يوم القيامة (انظر ابن الفقيه : ١١٦ ، المرجع ذاته ، ١٠٤ لنهر ابي فطرس ، ومن جهة اخرى ، لأن ماء الصاب في البحيرة المينة لا يرفع مستواها ، مثلما مر معنا .

يضاف هذا الى جميع الشكوك المشار اليها في الحاشية ٦٨٧ ، ٦٩٥ ، و ص ١٩٦ - ١٩٨ .

(٧٠١) انظر بلا نشار ، جغرافية عالمية ، ج ٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢١٦

(٧٠٢) مسعر (ب) : ٨ ، ١١ ، ١٤ ، ٣٧

(٧٠٣) المسمودي (م) ، فقرة ٧٠٥ ، المقدسي : ٣٩٧ (س ٩ - ١٠ ، ذكر ص ١٠٨)

(٧٠٤) مسعر (ب) : ٨ ، ١١ ، ١٤ ، ابن الفقيه : ٢٤٧ ، ابن رسته : ١٥٨ ، ١٥٩ الاصطخري : ٣٦ الرازي : ٦٧ ، المقدسي : ٣٩٧ (س ٨ : ذكر ص ١٠٨)

(٧٠٥) ابن خرداذبة : ١٧٢

(٧٠٦) ابن الفقيه : ١٩٩ - ٢٠٠

(٧٠٧) ابن خرداذبة : ١٧٢ ، ابن الفقيه : ٢٤٧ ، ابن حوقل : ٣٤٦ ، المقدسي : ١٤٦ . التعبير من ابن الفقيه (الشب والنشادر) ومن ابن حوقل (البورق) .

(٧٠٨) انظر مسعر (ب) : ١١ ، ابن رسته وابن حوقل والمقدسي ، ذكروا من قبل

(٧٠٩) انظر ص ٩٩ و ١٠١ من الفصل الأول

(٧١٠) ابن سيرايمون : ٤٠ (١) ، ابن رسته : ١٨٥ (هول) .

(٧١١) ابن الفقيه : ١٨٩ . الواقع ان الالتباس يشمل كل هذه الصور : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٣٠ و ٣٧٠ (مع احالات اخرى) ، يبدو ان استعمال هذه الألفاظ يمتد من سواد العراق الى فارس الغربية . انظر المقدسي : ٤٢٦ ، س ٧ و ١٠

(٧١٢) ابن حوقل : ٢٧٨ - ٢٧٩

(٧١٣) فوارة ، حول المعنى الأخير ، انظر مثلا ابن الفقيه ، ٢٠٥ (٨ . ماسي ترجم ببساطة : فجروا)

(٧١٤) اليعقوبي : ٣٢٥ ، ابن حوقل : ١٧٤

(٧١٥) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٠ - ٧٤ ، اماكن متفرقة

- (٧١٦) ابن الفقيه : ١٠٤ - ١٠٥ . أمثلة أخرى على النهر الذي يعطى اسمه الى إحدى المدن أو المناطق : ابن حوقل : ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، المقدسي : ١١٤ - ١١٥
- (٧١٧) مثال ابن حوقل : ١٧٤ (قناة متفرعة عن بردى بأمر من يزيد بن معاوية) ، ٢٤٣ (أنهار تأخذ مياهها من دجلة) .
- (٧١٨) مثال ابن حوقل : ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٤٧٩ - ٤٨٠ ، ٤٨٤ - ٤٨٦ ، ٤٩٦ - ٤٩٧ ، ٥٠١ وغيرها .
- (٧١٩) المسعودي (م) ، فقرة ٣٠٤ ، ٧٧٧ ، ابن الفقيه : ٥٨ ، المقرئ ، طبعة مذكرة (مجموعة أعمال المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة) ، ٢١٨ ، حاشية ٥
- (٧٢٠) حدود العالم : ٦٩ - ٧٠ ، ذكر جزئياً ص ١١٦
- (٧٢١) فيما بعد ، يقول المصنف (ص ٧٩) ان الأنهار الصالحة للملاحة هي الأنهار التي عددها في نظراته العامة (حدود العالم : ٦٩ - ٧٩) .
- (٧٢٢) حدود العالم : ٧٠ - ٧٩
- (٧٢٣) مع مثال على الشعب واضح جداً (ذكر من قبل ، فقرة ٤٦ : « يتفرع نهر آخر عن دجلة فوق بوله ويسمى نهر بوله » طبعاً المقصود بداهة قناة (انظر ترجمة مينورسكي ، ذكر من قبل) ، وتضم الفئة الأخرى ما نسميه الروافد .
- (٧٢٤) ذكر من قبل ، فقرة ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٤٨ (مثالان) ، ٢٧ ، ٣٩ و ٤٥ (أقل وضوحاً) .
- (٧٢٥) ذكر من قبل ، فقرة ٢٧
- (٧٢٦) سيل ، حرفياً : الجريان
- (٧٢٧) بالنسبة الى منابع النيل ، مثلاً (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٣٥ آخرها - ١٣٨) ، أو ، بصورة أقل وضوحاً ، بالنسبة الى شبكة ماء الأردن والأرناط وبردى : انظر الحواشي : ٦٧٨ ، ٦٩٥ ، ٧٠٠ ، وما يلي ١٩٦ - ١٩٨ .
- (٧٢٨) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٥١ ، مفهوم واضح حتى في مناطق خالية من الأنهار الكبيرة الدائمة انظر بالنسبة الى اليمن ، الحمداني : ١٠٩
- (٧٢٩) سنعود الى هذا الموضوع فيما بعد ، في الحديث عن الخريطة . بالنسبة الى النظرة

العامة ، يمكن الاستعانة بجغرافية صورة الأرض ، العامة (كتاب الحدود ، ص ٧٠ - ٧٩) أو المصغرة في بلدان دار الاسلام (المقدسي : ٢٠ - ٢٤) .

(٧٣٠) حدود العالم : ٧١ ، ٢٠٨

(٧٣١) بالنسبة الى النيل والفرات وبردى ، وجيحون ، وسيحون ، والدجيل (كارون ، نهر الأهواز) ، والمرغاب (نهر مرو) : الاصلطخري : ٥٧ ، ٥٩ ، ١٦٦ ، ابن حوقل : ١٧٤ ، ٢٣٨ ، ٤٧٥ ، ٥١١ آخرها ، المقدسي : ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٤١١ ، حدود العالم : ٧٧ .

(٧٣٢) انظر جدول كتاب حدود العالم : ٧٠ - ٧٩ ، وأماكن متفرقة

(٧٣٣) حول نسبة ومشتقات الجدر ذاته ، انظر الفصل الأول ، ص ٣٢ - ٣٤ . انظر أيضاً مثلاً ابن حوقل : ٢٣٦ آخرها - ، ٢٤٣ ، المقدسي : ٢٠ (ح يا) .

(٧٣٤) انظر حول هذا المعنى لشعبة وجذر ، ابن حوقل : آخر ٧٩ (من أجل نهر ساحلي في المغرب الأقصى) ، المقدسي : ٢٠ (بالنسبة الى الخابور بالنسبة الى الفرات) ، ١١٧ (بالنسبة الى دجلة : تلاقي الأتنية والأنهار القادمة من خوزستان ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٨ ، ٤٢ - ٤٣ ، وأماكن متفرقة) ، ٢٩٠ (ربما كانت اتنية) متفرقة من جيحون وعائدة اليه) ، آخر ٤٨٢ (انهار تشكل جيحون في مجراه الأعلى انظر م ج ع ، ج ، ٤ ، ٢٧٤

(٧٣٥) انظر ما تقدم ص ١٢٨ (و ح ٧١٦) . يلاحظ ان المثالين المذكورين ، ونكتفي بهما ، يعبران عن الحركة المزدوجة : من المدينة الى مجرى الماء ، ومن مجرى الماء الى المنطقة ، وان المدينة هي صاحبة المبادهة .

(٧٣٦) ليست بلخ على النهر بالذات ، بل على مسافة من ضفته اليسرى

(٧٣٧) انظر م ج ع ، ج ، ٤ ، الفهرس ، اللفظ

(٧٣٨) مثال : ابن رسته : ٩٠ ، ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٥ ، اليعقوبي : ٣٥٨ ، المسعودي (ت) : ٢٤٢ ، لعل التدقيق ناشئ عن الرغبة بتمييز النهر عن بعض المجاري المائية الأخرى المنسوبة اليه في افريقية الغربية خاصة (انظر كرامرز ، « النيل » ، في ١م ، ج ٣ ، ٩٨١ (٢) ، وجغرافية دار الاسلام ج ٢ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، والحالة الأقل احتمالاً ان المقصود قرية عراقية (المسعودي (ت) : ٧٨ ، المقدسي : ٢٧ ،

٥٣ ، ١١٤ ، ١٢١) تختلف عن قناة تحمل الاسم ذاته : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٧٢ - ٧٣

(٧٣٩) نحيل دفعة واحدة هنا الى فهارس م ج ع ، ج ٤ ، اللفظ ، ونكتفي أحياناً ببعض التوقيقات الإضافية .

(٧٤٠) انظر ابن حوقل : ٣٦١ ، ٣٦٥ ، المقدسي : ٣٩٦ .

(٧٤١) بالنسبة للفظين الأخيرين ، انظر ابن رسته : ٨٩ ، المسعودي (ت) : ٨١ (لعل تسمية مهران السند، المركبة ، تقابل تسمية نيل مصر ، نظراً للمقارنة التقليدية الجارية بين النهرين) .

(٧٤٢) حول هذا الالتباس ، انظر ابن الفقيه ، الذي يميز أحياناً (٦٣ - ٦٤ ، ١١٦) ويخلط أحياناً أخرى (٩٥) . حول تسمية نهر كالف ، حسب مدينة من الضفة اليمنى ، انظر المسعودي (ت) : ٩٥ ، الذي يقول بدقة فيما بعد ان المقصود جيحون ، نهر بلخ ، والترمذ ، وخوارزم : من بين شتى التسميات الأخرى ، اذا لزم الأمر .

(٧٤٣) بالنسبة الى الاسمين الأخيرين ، انظر المسعودي (ت) : ٨٨ ، ٢١١ ، ٢٤٢ ، اليعقوبي ٣٢٤ ابن رسته : ٩١ . بشأن الأرئط ، انظر أيضاً مايلى ، ص ١٧٤

(٧٤٤) بالنسبة الى اسم دجيل (الالهواز) ، انظر ابن خردادبة : ١٧٦ ، اليعقوبي : ٢٧٢ ، ابن رسته : ٩٠ ، ٩١

(٧٤٥) انظر ، إضافة الى م ج ع ، ج ٤ ، فهرس ، اللفظ ، حدود العالم : ٧٣ ، المسعودي (م) : فقرة ٥١٠ ، المسعودي (ت) : ٨٣ آخرها .

(٧٤٦) انظر ابن رسته : ٩١ ، المسعودي (ت) : ٩٥ . أخذ الاسم الأخير من اسم أحد الأقوام (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢٢٤) ، اما الأسمان الأولان ، فهما في الواقع اسما أحد النهرين اللذين يؤلفان نهر جيحون الأعلى : نظرة شاملة عند ابن حوقل : ٤٧٥ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٣٥

(٧٤٧) ابن رسته : ٦٢ ، ابن حوقل : ٢٥٢ ، ٣٦٥ ، حدود العالم : ٧٤ - ٧٥ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٣٥ ، ٢٣٧ . ويثبت اسم أخير ، هو بهمنشير ، مسعودي (ت) : ٧٨ ، الالتباس صبيبا ، بين حوضي دجيل ودجلة ، عبر ، اسمي دجلة الموراء والأعلى : انظر ستريك ولاسنر ، « كارون » ، م ١ (٢) ، ج ٤ ، ٧٠٢

- (٧٤٨) ابن حوقل : ٤٨٦
- (٧٤٩) الجاحظ(١) : ١٩٨ ، قدامة : ٢٣٣ ، المسعودي (ت) : ٧٨ ، و س . ه .
لونغريغ ، م (٢) ، ج ١ ، ٤١٧
- (٧٥٠) حدود العالم : ٧٢
- (٧٥١) انظر الأمثلة عند لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٣
- (٧٥٢) الاصلطخري : آخر ١٥٥ ، ابن حوقل : ٤٤٨ ، حدود العالم : ٧٣ ، ٢١١
- (٧٥٣) انظر م ج ع ، ج ٤ ، الفهرس ، اللفظ ، بشأن نهر الرس ، نهر ارمينية الذي
يصب في الكر ، انظر أيضاً نهر الكر في فارس أيضاً ، عند ابن حوقل ، ٢٧٥ (ترجمة ،
ص ٢٧١ ، حاشية ١٩٧) .
- (٧٥٤) لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٥١ واماكن متفرقة
- (٧٥٥) المرجع ذاته ، ص ٢٤٠
- (٧٥٦) المقدسي : ٤٠٨
- (٧٥٧) ابن خرداذبة : ١٧٥ ، اليعقوبي : ٢٦٩ ، ابن رسته : ٩٠ ، م ج ع ، ج ٤ ،
اللفظ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٦٠ - ٦١ واماكن متفرقة
- (٧٥٨) المقدسي : ٤٧٤ ، ٤٧٩ - ٤٨١ ، المسعودي (ت) : ٨٣ ، يقارن بالحدود :
٧٢
- (٧٥٩) اليعقوبي : ٣٢٤ . لا تقع حمص على النهر تماما ، الا ان النص لا يفسح المجال
للشك
- (٧٦٠) انظر بلا نشار ، جغرافية عالمية ، ج ٨ ، مشار اليه ، ١٣٠ - ١٣١ ، ب .
شوارز و ا . ميكيل ، « كرخة » في م (٢) ، ج ٤ ، ٦٨٠
- (٧٦١) اسم القبيلة أحياناً على احدى الأكتية : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٤١
- (٧٦٢) الاصلطخري : ٥٧ (يمكن ان يحيل اسم القناة الى المنطقة التي يرويها) ، ابن
حوقل : ٢٣٦
- (٧٦٣) مسعر (ب) : ٤٥ - ٤٦ (يكرره ياقوت في معجم البلدان ، ج ٤ ، ٤٠٦) ،
انظر س ١٠ . بوسورث ، « ايدحج » ، م (٢) ، ج ٣ ، ١٠٤١ ، شوارز ،

فارس ، ح ٤ ، ٣٣٨ . يلى ان تعبير « بحر عجاج » مفضل عند المصنف : انظر ما تقدم ، ص ١٢٤

(٧٦٤) ما تقدم ، ص ١٢٨ آخرها - ١٢٩

(٧٦٥) المسعودي (م) ، فقرة : ٢١٣ ، ٢٣٦ . اشارة الى شح النيل ، المرجع ذاته ، فقرة ٧٧٨

(٧٦٦) يعثر على هذه الاحالات ، فيما يلى ، حاشية ٨٢٨ وحاشية ٨٢٩

(٧٦٧) المقدسي : ٣٢٩ - ٣٣٢

(٧٦٨) ولا في مطلع المجلد ، اللوحة العامة لمجاري ماء دار الاسلام (ص ١٩ - ٢٤) .

(٧٦٩) المقدسي : ٧

(٧٧٠) المقدسي : ٣٦٢ (الزاد والماء) ، ابن حوقل : ١٥٥

(٧٧١) التدخل عبر ناحية طقسية : المقدسي : ٣٨٧

(٧٧٢) ابن الفقيه : ٢٢٣ . يلى بعد بضعة أسطر ، الموضوع العكسي المتظر : الماء عامل موت لتقصه أو فرط وجوده .

(٧٧٣) في آمد ، في الجزيرة : المقدسي : ١٤٠ . قارن باتجاه آخر رئيس ، اشبر اليه في الحاشية ٤٩٤

(٧٧٤) المقدسي : ١٦٤ ، ٤٦٢ وأماكن متفرقة .

(٧٧٥) المقدسي : ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٢ (فارق الرعى تحركها الابل) وأماكن متفرقة ، مسعر (ب) : ٢٦ ، يتحدث عن نهر قادر على تسيير مائة طاحون

(٧٧٦) المقدسي : ١٢٤ ، ١٩٨ ، انظر أيضاً الى الملاحة ، المرجع ذاته : ١٣٥ ، آخر ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ آخرها ، ٢٩١ - ٢٩٣ ، ٣٢٣ ، ٤١٤ ، ٤١٤ ، ٤١٩ (و ح . ج) . حول معنى « رفق » (حياة سهلة ، موارد طبيعية ، ثروات) انظر مثالا عند المقدسي : ١١٩ ، ص ٨

(٧٧٧) ابن حوقل : ١٣٧ ، ١٤٥ ، المقدسي : آخر ٢٠٦ ، ٤١٤

(٧٧٨) بالنسبة للحالة الأخيرة ، انظر المقدسي ١٢٩ (حيث اشكل لفظ حجر بالسكون .

حول جذر بلد ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٩٢ - ١٩٣ ، حول الصيغة الثانية (أو الخامسة)
 لجذر شمر ، المرجع ذاته ، ٢٧٧) . حول استعذاب الماء من النهر والقناة ، انظر
 المقدسي : ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، آخر
 ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ،
 (ح يه من ٣١٨) ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٦٢ - ٤٦٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠

(٧٧٩) المقدسي : ٤٤٧ (ح ب) ، ابن الفقيه : ١٨٩

(٧٨٠) الجاحظ (١) : ١٩٨

(٧٨١) ابن الفقيه : ١٨٩ ، المقدسي : ٤٢٩

(٧٨٢) حول البصرة ، رغم القناة (ابن الفقيه ، مشار اليه) ، انظر المقدسي : ١٢٩ .
 حالات اخرى ، مع تواتر كـر « من بريد » : المقدسي : ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦
 (مثلاً) ، ٨٧ ، ١٢٩ ، ١٩٦ ، ٣٢٦ (ح . ا) ، ٤١٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨

(٧٨٣) صفحة مثالية : المقدسي ، ١٦٨ ، حول القناة المعلقة ، انظر المقدسي ، ١٦٤ ،
 حول المثاليات الطبيعية أو الصناعية ، انظر الاصطخري : ١٦٧ ، ١٩٨ ، بالنسبة الى
 انشذروان ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٨ - ٢٦٩

(٧٨٤) ينفرد المقدسي باعطاء أوسع لائحة اسماء (نظرا للالفاظ الواسعة الاستعمال)
 لكل هذه التقنية المائية : دولا ب (جمعه دواليب) ، حنافة ، زرنوق ، قادوس ،
 فوارة ، سانية (جمعة سواني) ، خيزور (جمعة خيازير) انطونية ، مزمله ، ناعورة
 (جمعها فواعير) ، شباك : انظر المقدسي : ٣١ ، ٩٣ ، (ح يه) ، ١٥٥ ، ١٦٤ (ترجمة
 ص ١٨٤ ، حاشية ١٦١) ، ٢٠٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٥٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٢ ،
 و م ج ع ، ج ٤ : ١٨٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٣٢١ . حول
 المسناة ، (حاجز لرفع مستوى الماء للري) ، انظر الجاحظ (١) : ١٩٧ . يكثر أيضاً
 عند ابن سيرا يون ، ٣٣ (ب) و ٣٤ (ب) على دوالي (مفردا دالية) وشواذيف
 (مفردا شادوف) . حول ساقية بمعنى سانية ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٢ . حول هذه
 التقنيات ، انظر ل . منسى و ب . لا فيريير ، الساقية ، القاهرة ، ١٩٧٤

(٧٨٥) مثال المقدسي : ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٧١

(٧٨٦) الاصلطخري : ٦٤ ، ابن حوقل : ١٥٥ ، المقدسي : ٤١٧

(٧٨٧) ابن الفقيه : ٢٥٩ ، ٢٦٥

(٧٨٨) المسمودي (م) : فقرة ٣٠٨ - ٣٠٩ . حول قسطنطين ، انظر المرجع ذاته ، ترجمة ، ص ١١٦ ، حاشية ٤ ، جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧ ، حاشية ٦ ، ول . بولنز ، الاساليب الزراعية في القرون الوسطى حسب مصنفات الزراعة الأندلسية : التقاليد والتقنيات ، جنيف ، ١٩٧٤ ، ص ٣٧ ، م . حميد الله ، معجم النبات لابن حنيفة الدينوري ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ١٥

(٧٨٩) ملتزق : المترجم يفهم : « ملتصق بالجانب » ، وهذه الحالة تنطبق على جميع القطرات . يفضل فيما يبدو اعطاء الصيغة الثامنة معناها المعنى المعكوس المتوسط : لزج ، سميك ، ثخين .

(٨٩٠) حول هذه المواضيع ، انظر ابن الفقيه : ١٨٩ ، وابن حوقل : ١٤٦ ، المقدسي ١٢٩ (ح . كو) ، ١٩٨ ، ٢٠٧ . حول العملة الفضية المسماة مزبقة (دانق) ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٥٢

(٧٩١) ابن رسته : ١٥٥ ، خوارزمي (م) / ٦٩ وما يليها ، ابن حوقل : ٣٦٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٩٧ ، المقدسي : ٣٣٠ وما يليها . انظر أيضاً البخاري ، الجامع الصحيح ، ترجمة أو . هوداس و . مارسيه ، الأحاديث الإسلامية بباريس ، ١٩٠٣ - ١٩١٤ ، ٤ مجلدات : م مجلدات : ٣ ، ص ١٠٢ - ١١٢ . اليك بعض التدقيق حول شتى النقاط في النص المترجم : حول والي المعونة أو أمير الحماية ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ١٩٢ ، ك . كاهين ، ١م (٢) ، ج ٣ ، ٤٠٦ - ٤٠٧ . حول شق ، بمعنى اسم جمع (عرض ، تدريج) ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٧٥ . الشعيبة وحدة وزن (انظر ١ . زمباور ، « حبة » ١م (٢) ، ج ٣ ، ١١) أو قياس كما هي الحال هنا (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧ - ١٨ وشكل ٦) . يرى المقدسي ، ٦٥ - ٦٦ ، انها تساوي أقل من ٤ مم بقليل . ترجمت شكوك بعزم اغصان (حول بعض شكوك النص ، انظر ابهامات النص ، انظر المقدسي ، ٣٣١ ، ح . ج و د) بشيء معلوم كل يوم : يبدو لي أن الأفضل العودة الى ما قيل من قبل على العموم عن رواتب هؤلاء الأشخاص .

(٧٩٢) ابن الفقيه : ٢٢١ آخرها - ٢٢٢

(٧٩٣) المسمودي (م) : فقرة ٨٩٦ - ٨٩٧

(٧٩٤) ليس الماء البارد نقيض الماء الحار طبيعياً ، بل عكس الماء العذب المسخن . ويتراءى الوسط أيضاً عبر الماء الطيني ، الموصوفة على وجه الدقة بأنه الأبيض البراق الذي يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس نحو مغربها ، القابل بسرعة ما يرد إليه من الحر والبرد .
وبذا نرى انه يجب فهم الوسط بمعناه العام : أرض الجبال ، لكن الجو أيضاً .

(٧٩٥) انظر الاحالات في الحاشية ٦٣٦ ، ابن حوقل : ٤٨١ ، يشير ان بحيرة آرال تبقى مالحة رغم صغرها ورغم قوة نهري جيحون وسيحون : ومن هنا جاءت فرضية اتصالها ببحر الخزر .

(٧٩٦) المقدسي : ٤٤٥

(٧٩٧) ج ٢ ، ٤٢ ، انظر ما تقدم الفصل الأول ، ص ١٠٨ وما يلي ص ١٦٠ آخرها-
١٦١

(٧٩٨) الاصلطخري : ٤١ ، ابن حوقل : ١٥٦ المقدسي : ٢٠٨ ، اسحاق : ٤٤٧

(٧٩٩) الهمداني : ١٥٥

(٨٠٠) المسعودي (ت) ، ١٠٦ - ١٠٧ ، مأخوذ من ارساد طفسية ج ٢ ، ٣ ، ٣٨

(٨٠١) المسعودي (م) : فقرة ٦٥

(٨٠٢) المسعودي (ت) : ٥٤ ، ذكر في ما تقدم الفصل الأول ، ص ١٠٨

(٨٠٣) وصيف شاه : ١١٦

(٨٠٤) المقدسي : ١٢٩

(٨٠٥) المسعودي (م) : فقرة ٨٩٧

(٨٠٦) ابن حوقل : ٤٦٤ ، (تحفظ هنا : ان الماء يقدم مبرداً في أسواق سمرقند) .

(٨٠٧) ابن حوقل : ٤٨٨ ، اشير اليه من قبل في الفصل الأول ، ص ٥٠ ، (وح ٦٠)

(٨٠٨) ما تقدم ، الفصل الأول ، ص ١٠٩ (وح ٢ و ٤)

(٨٠٩) المسعودي (م) ، فقرة ٩١٣ ، ابن الفقيه : ٢١٤ ، الهمداني : ١٠٥ ،

الاصطخري : ٤٤ آخرها - ٤٥ ، ابن حوقل : ١٧٣ ، ٣٦٦ ، المقدسي : ١٦١ ،

١٨٥ - ١٨٦ ، ٣٣٤

(٨١٠) الاصطخري ، ذكر من قبل ، ابن حوقل : ١٧٣

(٨١١) ابن الفقيه ، ذكر من قبل

(٨١٢) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١١

(٨١٣) انظر المسمودي (م) ، ٣٨ ، ٧٠ . يبدو ان هذا التوزيع لا يأخذ بعين الاعتبار تذكر الأسين العربيين أو تأنيثهما ، مثلما لا يفعل الفولكلور : انظر م . رودنسون ، « قمر » ، في ١ م (٢) ، ج ٤ ، ٥٤١ (مع المراجع) .

(٨١٤) المسمودي (م) ، فقرة ٩٠

(٨١٥) ابن الفقيه : ١٥١

(٨١٦) ابن حوقل : ١٦١ - ١٦٢

(٨١٧) ابن فضلان : ١٠٦ - ١٠٧ ، من أجل بلد البجناك (المذكور في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢٢٨)

(٨١٨) المقدسي : ١٢٤ . ينبغي فهم النعت لطيف بمعنى « يسامي الدم » (نقيض غليظ انظر دوزي ملحق ٢ ، ٥٣٢ ، وما يلي حاشية ٩٤٥) أو نقيض صلابة : قوة ، قسوة مستعملة للفراة) ، ويشير المرح الفكر : كنت اترجم المتفقهة بالمعنى العام « الذين يتعاملون النشاطات الفكرية » ، لولا الاحالة الواضحة الى اخصافي بالفقه (حول الجصاص ، فقيه حنفي ، ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م - ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م ، انظر أو - سبايس ، ١ م (٢) ، ج ٢ ، ٤٩٨) . بشأن نهر الصرات ، ربما كانت الترجمة الحرفية فوق نهر الصرات ، قبل ان يمس الفرات هذا الماء . بالفعل نهر صرات قناة متفرعة من نهر عيسى (الذي يذهب من الفرات الى دجلة) الذي يصب في دجلة في بغداد : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٦٦

(٨١٩) ابن رسته : ١٥٥ ، ابن الفقيه : ٢٢١ ، الثعالبي : ١٢٤

(٨٢٠) يبرور تطابق هذا المصنف نعت أنثى « على ماء النيل ، النهر المذكور ، تأويلا يمكن ان نفكر فيه بالنسبة للجزيرة : ماء دجلة المؤنثة والعكس بالنسبة للفرات .

(٨٢١) انظر ايلياد ، الحدادون والسيمايون ، مشار اليه ، ٣١ ، و كرجي ، كتاب انباط المياه الخفية ، ترجمة ١ . مزهيري : حضارة المياه الخفية ، نيس ، ١٩٧٣ ،

ص ٦٧

١١٦ ، ١٠٨ ، ١٠٣ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٠ — ٨٣ ، ٨١ — ٧٦ ، ٧٣ — ٧٠ ، ٦٨
 — ١٧٦ ، ١٧٣ ، ١٧١ ، ١٥٨ ، ١٥٥ ، ١٥٣ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٩ ، ١١٧
 ، ٢٣٧ ، ٢٢٩ — ٢٢٦ ، ٢٢٤ — ٢٢٠ ، ٢١٧ ، ٢١٤ ، ٢١١ ، ١٨١ — ١٧٩
 — ٢٢٠ ، ٢١٧ ، ٢١٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩
 ، ٢٥٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٣٧ ، ٢٢٩ — ٢٢٦ ، ٢٢٤
 ، ٣٠٢ ، ٢٩٨ ، ٢٨٣ — ٢٧٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٦٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٣
 ، ٣٥٢ ، ٣٤٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٠ ، ٣٣٧ — ٣٣٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٠ ، ٣١٢ ، ٣١١
 ، ٣٨٨ ، ٣٨٢ — ٣٧٨ ، ٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٦ — ٣٦٤ ، ٣٦٢ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨
 ، ٤٣٣ ، ٤٢١ ، ٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٤١٧ ، ٤١٥ ، ٤١٤ ، ٤٠٩ — ٤٠٢ ، ٣٨٩
 ، ٤٨٩ ، ٤٨٧ — ٤٨٣ ، ٤٨٠ — ٤٧٥ ، ٤٧٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٤ ، ٤٥٢ — ٤٣٥
 ، ٤٩٢ — ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، المقدسي : ٦٥
 — ١١٠ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ٩٥ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٨٦ — ٨٢ ، ٨٠ — ٧٦ ، ٧٤
 ، ١٥١ ، ١٤٦ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٧ ، ١٢٢ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٧ ، ١١٢
 ، ١٩١ ، ١٨٨ ، ١٨٦ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٢ ، ١٦٢ — ١٦٠ ، ١٥٧ ، ١٥٥
 ، ١٩٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٣٥ — ٢٢٤ ، ٢١٦ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ١٩٥
 ، ٢٧٤ ، ٢٧٢ — ٢٧٠ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٥ — ٢٥٢ ، (وح . يك)
 ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٢٩٩ ، ٢٩١ — ٢٨٨ ، ٢٨٥ — ٢٨١ ، ٢٧٩ — ٢٧٧ ، ٢٧٥
 (وح د) — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٣ ، (وح د) ، ٣١٤ ، ٣١٦ — ٣١٩ ، وح يه
 (من ٣١٨) ، ٣٢٠ (وح يط) ، ٣٢١ (وح بوز) ، ٣٢٦ (وح . هـ) ،
 ٣٢٩ ، ٣٣١ (وح يب) ، ٣٣٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ — ٣٥٩ (وح يا)
 — ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ — ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ (وح ب) —
 ٣٩٢ (وح آ) ، ٣٩٤ (وحاشيتها) ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،
 ٤٠٧ — ٤٠٩ (وح ط) ، ٤١٠ — ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ،
 ٤٢٦ — ٤٣٨ ، ٤٤٣ — ٤٤٥ (وح . هـ ويح) ، ٤٤٧ (وح ب) — ٤٥٠
 (وح ب) ، ٤٦١ — ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ — ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ،
 ٤٩٠ (وح ب) ، ٤٩١ (وح ط من ٤٩٠) ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ (وح ط ويظ من
 ٤٩٣) ، ٤٩٥ (وح . يز من ٤٩٤) .

(٨٣٠) المقدسي : ٢٨٣ ، ٣٣١ (وح يب) ، ٤٤٥ (وح . هـ) ، ٤٤٦ ، ٤٦٦

(٨٣١) المقدسي : ٤٤ ، ٢٠١ ، ٤٨٧ آخرها - ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٣١ -
٣٩٣ ، ٣٣٢

(٨٣٢) المقدسي : ٣٣ ، ١١٣ ، وأماكن متفرقة .

(٨٣٣) المقدسي : ٣٥ (و. ح. ج) ،

(٨٣٤) المقدسي : ٣٦ ، الصفتان الأخيرتان تتوافقان بلا تمييز مع البحار والأنهار

(٨٣٥) ابن حوقل : ٢٩ - ٣٠ ، المقدسي : ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤

(٨٣٦) ابن حوقل : ٢٢٠ . حول المكان والقصائد الموحاة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ٥١٨ ، لفظ دير الشياطين .

(٨٣٧) ابن حوقل : آخر ١٣٧ ، ١٧٤ ، ٢٢١ - ٢٢٢ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ٢٤٢ -
٢٤٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٣٣٥ - ٣٣٨ ، ٣٤٧ ، ٣٦٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٣ ،
٤٦٤ ، ٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٢ - ٥٠٠ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، المقدسي : ١٤٠ ،
١٥٧ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٣٠١ - ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٤١٤ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦

(٨٣٨) ابن حوقل : ١٧٤ ، ١٧٩ ، ٢١١ ، ٣٦٨ - ٣٦٩ ، ٤١٥ ، ٤٤٥ ،
٤٦٧ ، ٤٩٢ - ٤٩٤ ، المقدسي : ١٥٧ ، آخر ١٦٧ - ١٦٨ ، ٢٧٢ - ٢٧٣ ،
٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ (و. ح. د) ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٣٩٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ (و. ح. ب)

(٨٣٩) انظر على التوالي : المقدسي : ١٥٩ (و. ح. د) ، آخر ١٦٧ ، ٣٧٠ ، ابن حوقل :
٩٠ . اكتفي هنا ، كما اكتفيت في الحواشي السابقة ، بالمصنفين اللذين يمثلان على أفضل
وجه جغرافية دار الاسلام ، لثلا أكثر من الانحالات بافراط . يمكن ايجاد عند بعض
المصنفين تعليقات اخرى هامة : انظر مثلاً اليمقوبي : ٢٤٣ (المائة طاحون في بغداد) ،
٢٥٠ - ٢٥٤ (تموين كل اهالي بغداد بالماء العذب) ، وفرة الماء في بغداد مما يسمح
باقلمة النخيل البصري فيها) ، ٢٦٤ (وفرة الماء الجانب الغربي من سامراء) ، ٢٦٦
(نفقات بالنق لبحر القناة الكبرى اللازمة لتأسيس سامراء) .

(٨٤٠) المقدسي : ٤١١ - ٤١٢

(٨٤١) حرفياً : على مسمع الصوت (صيحة ، م. ج. ع ، ج. ٤ ، ٢٨٣) .

(٨٤٢) انظر م. ج. ع ، ج. ٤ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ ، و. ج. ب. د. ديميزون ، معجم
فارسي فرنسي ، رومة ، ٤ مجلدات ، ١٩٠٨ - ١٩١٤ ، ج. ٢ ، ص ٢٣٢ .

(٨٤٣) ابواب .

(٨٤٤) تشكيل حسب شوارز ، فارس ، ج ٤ ، ٣٠٣

(٨٤٥) ابن حوقل : ٤٩٢ . انظر أيضاً مشهد الريف الأخضر ، ما تقدم ، ص ٨٨ - ٨٩ . اعيدت الترجمة ، في النص الوارد في الفصل الأول ، ص ٨٨ ، حاشية ٩

(٨٤٦) اللفظ المستعمل باغ الفارسي

(٨٤٧) الصيغة العاشرة استعصى : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٧٩ .

(٨٤٨) ميدان ، جمعة ميادين : انظر المرجع ذاته ، ص ٣٥٨ .

(٨٤٩) الصيغة الثانية فصل ، ربما محاطة بجدار أو فصيل : انظر المرجع ذاته ، ٣١٧ ، دوزي ، ملحق ٢ ، ٢٧٢ .

(٨٥٠) الصيغة الثانية فصوص : انظر دوزي ، المرجع ذاته ، ٢٧٠

(٨٥١) الصيغة الثالثة طالب ، حرفيا ، طلب احدهم الآخر .

(٨٥٢) المخاني ، حرفيا : المنازل أو الثروات

(٨٥٣) حرفيا : القصور

(٨٥٤) مشترف أو مستشرف : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٧٤

(٨٥٥) حرفيا : أماكن اجتماع ، مجالس

(٨٥٦) السامانيون بداعة .

(٨٥٧) ابن الفقيه : ٢٢٠ - ٢٢٧

(٨٥٨) على نقيض مدح العيون الحارة ، ضمنا

(٨٥٩) بحر السريع

(٨٦٠) بحر البسيط

(٨٦١) البحر البسيط ، ذكر اسم الشاعر : وهب الهمداني

(٨٦٢) البحر الكامل

(٨٦٣) الهمداني ، نسبة ابن الفقيه ، ونسبة ناظم أول قصيدة عن ارونند (انظر الحاشية

(٨٦١) . لم يعط اسم الشاعر الثاني ، لكن يمكن ان نقدر ان المقصود أيضاً شخص

فارسي من المنطقة ذاتها . ولا شيء يمنع أيضاً أن نفكر ، نظراً للموضوع وبعض الصور الشائعة (ربيع ، ألوان ، برق ثياب ، الخ) أن المقصود الشاعر ذاته ، وأن كان ابن الفقيه ينسب القصيدة الثانية إلى « شاعر آخر » ، دون تسميته .

(٨٦٤) انظر بلا نشار ، الجغرافية العالمية ، ج ٨ ، نشار إليه من قبل ، ١٢٨ .

(٨٦٥) انظر المقدسي ، ج ٢ ، ٢ : « كل ماء عذب مأخوذ من بئر أو نهر أو أي مصدر آخر ، يأتي دوماً من السماء . وفي يوم القيامة ، يرسل الله ملاكاً معه حوض ، يجمع فيه كل تلك المياه ، ويعيدها إلى الجنة » .

(٨٦٦) ترجم ماسه : « عيون لا تجف » ، والتعبير « لم تجمد » يمكن فهمه في بالمعنيين المشار إليهما .

(٨٦٧) هكذا ترجمت فاقع نضر

(٨٦٨) هكذا ترجمت « اقحوان جمعه اقحاسي » ببليس - زهر اللؤلؤ - التي تدخل في فصيلة المركبات . لم يعط لون الأقحوان الذي يتبدل من نوع إلى آخر .

(٨٦٩) « متناقضة » ، حرفياً : « لا تتشابهان » ، وتشبه أحدهما غيرها .

(٨٧٠) من جوهرين متبدين . ترجمها ماسه : « من مادة تتناثر » . فصلت أخذ اللفظ بمعناه الجمع والحسي : « حجارة كريمة » .

(٨٧١) باستثناء خوف الحملان ، الذي يبدو صفة مزاج (اللفظ الدال عليه أكثر من نعت طبيعي : اسم من حذر هلع ، الذي يعبر عن القلق) .

(٨٧٢) كسا ، ثوب ، البست ، حلل ، لبس

(٨٧٣) « وشح صدره بمورد . اديته بحمالة » لأن الصورة الحربية اللاحقة تنسجم معها في رأيي .

(٨٧٤) ترجمت : بثوب متراخ « حللاً لم تعقد . ماسيه : (وهو ينسجها) ، حتى أنها لم تعقد ، أي المعاطف .

(٨٧٥) حرفياً : الاثمد ، الذي يصنع الكحل منه

(٨٧٦) ابن الفقيه : ٢٢٦ ، البيهقي ٣ - ٤ حدائق ، روض ، رياض

(٨٧٧) ابن رسته : ٢٢١ ، انظر الحاشية ٨١٩

(٨٧٨) سوء ترقيم ليس له مقابل

(٨٧٩) ابن الفقيه : ٢٢٣

(٨٨٠) لكي يصح التضاد ، لابد من افتراض الحوض طبيعيا ، حول هذا المعنى ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ٣٣٦ ، واللسان ، اللفظ ، الذي يشرح بلا مزيد من الشرح . حوض يجتمع الماء .

(٨٨١) أو بالا حري روايات اخرى عن مجهول : قالوا . ذكر تياذوس (تيودوريه) فيما بعد .

(٨٨٢) ابن الفقيه : ١٥١ - ١٥٢ . اشارة موجزة : ١٥٩ - ١٦٠ تلخص الشروط الملازمة لفتح بئر .

(٨٨٣) اشير اليه بايجاز ص ١٤٥

(٨٨٤) يضاف فنتان ، هما رطبة ، بديهي بالنسبة الى المياه ، ويابسة ، يمكن ان تلمح الى الجفاف العام ، موضوع الحديث ، وتتناقض مع رطبة . الناشر (ترجمة ص ١٨١ ، حاشية ٢) يصحح اعتمادا على مخطوط مشهد : فاسدة

(٨٨٥) النار غالبية في الشرق ، فيجب ان ينسب الغرب الى المنصر المكسي بالدرجة الاولى أي الماء (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١) . من جهة اخرى تسمح القوى الصاعدة والنازلة بنسبة الجنوب الى الأرض والشمال الى الهواء . أما عند الهمداني فالتوزيع كما يلي بالترتيب : شمال غربي جنوب غربي ، جنوب شرقي وشمال شرقي (المرجع ذاته ، ٤٩) .

(٨٨٦) ترد هذه الصفات بكثرة ، حتى انها تجعل التعليل مشكلة يستحيل حلها ، بسبب اتساعها . احيل الى الحاشية في الشرح المخصص للمقدسي فيما بعد ، وهي مذكورة عنده واكتفى هنا بالا حالة الى ابن حوقل ، نظرا لاهيته في جغرافية المسالك والممالك (وحده أو عندما يتوسع بالاصطخري) ، أو اعطى بعض الاحالات العائدة الى الصفات المذكورة بمزيد من الدقة . انظر في فطاق هذا التفكير بشأن السهولة أو الصعوبة : اليعقوبي : ٢٣٥ ، ٢٦٧ ، المقدسي : ٧٨ ، ٩٣ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٦٤ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٤٢٩ (خاصة موضوع الماء « القريب » الذي لن أعود اليه فيما بعد) .

(٨٨٧) المقدسي : ٧٧ ، ابن خرداذبه : ٨٤

(٨٨٨) اليعقوبي : ٢٧٢ ، المقدسي : ٤٤٥ ، وما تقدم ١٢٤ - ١٢٥

(٨٨٩) المقدسي : ١٨٤ ، ٢٥٣ .

(٨٩٠) الجاحظ (١) : ١٩٤ - ١٩٧ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٧ ج ٦ ، ابن حوقل :

٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٨ / ١٣ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ١٧٧ (حول لفظ طفس ، انظر م ج ٤ ، ج ٤ ،

٢٩٠) ، ١٨٥ ، ٢٢٢

(٨٩١) مثلا ابن حوقل : ٤٦٤ : عذب ، بارد ، خفيف . حول المثالج ، انظر ما تقدم ،

ص ١٣٨ (و ح . ٨٣) .

(٨٩٢) مسمر (ب) : ١٧ . حول معنى النعت حامية ، انظر دوزي ، ملحق ، ج ١ ،

٣٣٠ . فهذا النعت ونعت مائنة (حامية) توصف بهما العيون .

(٨٩٣) ابن حوقل : ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٢٤ ، ١٤٨ / ١٣ ، ٢١٠ ، ٢٣٧ ،

٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، ٣٢٨ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٠٣ - ٤٠٦ ، ٤١٧ ، ٤٥٢ ،

٤٦٤ ، ٤٨١

(٨٩٤) حرفيا عفوصة من العفص ، مذاق مر : ابراهيم ، ترجمة ص ١٠٦٢ (في

الحديث عن منطقة يادربورن) ، مما يدل على عدم الدقة في هذه المادة ، في تقدير العلمين

الآخرين الحموضة والمرارة . انظر المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٦ ، المشار اليه ص ١٤١ ،

ويميز من هذه الناحية المر والحامض والقابض ، والحريف ، ويقول ان هذا التصنيف

أحد التصنيفات الكثيرة الاخرى .

(٨٩٥) المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٧ ، ما تقدم ، ص ١٤١ ، المقدسي ، ج ٢ ، ٤٢ ،

ابن حوقل ، ١٣ ، ٢٧٧ ، ٤٠٧ .

(٨٩٦) ابراهيم ، ترجمة ، ص ١٠٦١ آخرها - ١٠٦٢ ابن حوقل : ٢٥٤ ، ٢٩٨ ،

٤٠٣ آخرها ، ٤٥٣ .

(٨٩٧) اُحيل مرة اخرى الى التعليق اللاحق اعتمادا على نص المقدسي

(٨٩٨) انظر ج . لومانين ، « النوق الموسوعة العالمية » ، ج ٨ ، ١٧٠

(٨٩٩) ابن حوقل : ٩٤ ، ١٢٣ ، ٣٤٥ ، ٤٥٢ (اميل الى الظن بأن التسخن والتبرد

يرتبطان بأسباب طبيعية : فالفروق القصوى لحرارة آسية الوسطى ، الترجمة ، وايت ،
ص ٤٣٧ ، على أساس « يسرع البرد عوضا عن يسرع ، يميل فيما يبدو الى ظاهرة صناعية
ناشئة عن الانسان) ، ٤٦٤ حول سرعة التبريد ، انظر مايلى النص المترجم المأخوذ من
المقدسي .

(٩٠٠) ابن حوقل : ٧٩ ، ٩٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٠٣ ، ٤٨٦ - ٤٨٧ ، ٥٠٤ (أحياء ، يتوارى اسم الماء بالذات خلف اسم
الشرب : شراب ، شروب) .

(٩٠١) الجاحظ (١) ، ١٩٧ (امراء) ، ابن حوقل : ١٣ ، ٧٣ ، ٩٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٢٦٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦٩ (مع نعت المرى عدة مرات ، وستحدث عنه) .

(٩٠٢) ذوق الهواء ووزن الماء : المقدسي : ص ٢ آخرها

(٩٠٣) وزن المياه والتراب : المقدسي : ٢٥٧ - ٢٥٨

(٩٠٤) المقدسي : ١٠١

(٩٠٥) اضيف لزيادة الايضاح واعتمادا على السياق اللاحق التدقيق العائد الجسم : انظر
ح ٢ ، ج ٤ . ٢١٨ (الصيغة الخامسة : تحلب) .

(٩٠٦) اختيرت هاتان المهنتان بداهة لعلاقتها بالماء ، الداخلى في العطور ، أو الذي تفصل
به الثياب لاعادة بيعها (لفظ تاجر الرثا مفضل عندي على لفظ بائع أقمشة)

(٩٠٧) انظر ما تقدم ، ص ١٦١ بآخرها ، في الحديث عن مياه جيحون .

(٩٠٨) المقدسي ، ١٢٩ ، اشرفنا اليه من قبل ، ص ١٣٨ ، (حول بعض نقاط القراءة ،
انظر المرجع ذاته ح ١) .

(٩٠٩) المقصود مياه البحر والنهر (أو الأتنية) المختلطة

(٩١٠) حرفيا الأعضاء التناسلية (حبر بحاء مثله)

(٩١١) المقدسي : ٢ ، ٨

(٩١٢) المقدسي : ١٠١

(٩١٣) المقدسي : ١٦٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٥٦

٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ (ح - آ) ، ٣٩٣ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ - ٤٠٩ ،
٤١١ - ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ - ٤٦٦ ، ٤٩٣ .

(٩١٤) المقدسي : ١٦٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ (ح . و ص ٣٢١)

(٩١٥) جرى حاد ، شديد الجري ، منحدر ، محدار (انظر م ج ج ع ، ج ٤ ، ٢١٣) ،
المقدسي : ٣٥٧ ، ٤١١ ، ٤٥٠ (ح . ب) ، ٤٦٦ ، ٤٧٠

(٩١٦) المقدسي : ٣١٦ (انظر ح يب) : من الفارسية تج (مجرى ، سرعة) وآب (مياه)

(٩١٧) المقدسي : ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ،
١٧٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، آخر ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ (و ح . يب) ،
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ - ٣٩٢ ، ٤٠٢ ،
٤٢٥ ، ٤٣٣ ، آخر ٤٤٥ ، ٤٦١ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٩٣

(٩١٨) المقدسي : ٩٥ ، ١٠٨ ، ٢٥٣ ، ٣١١ (ح . لب) ، ٤٣٦

(٩١٩) المقدسي : ٢٠٢ (اوسع) ، ٢٠٨ (أكثر) ، ٣٩١ (اغزر) .

(٩٢٠) المقدسي : ٣٠٧ ، ٣١٩ .

(٩٢١) المقدسي : ١١٨ ، ١٢٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٩ ، ٣٢١ (ح . ز) ، ٣٥٧

(٩٢٢) يمكن ان يستعمل النعت للكبار أو العيون : المقدسي : ١٠٨ ، ١٧٢ ، ٢٢٥ ،
٢٥٤ (ح ط) ، ٣٠٨ ، ٣٢٢ (ح . ز من ٣٢١) ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٨٢ (ح ٧
من ٤٩٠) ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ (و ح . يبط من ٤٩٣) .

(٩٢٣) ٢٥٤ المقدسي

(٩٢٤) المقدسي : ١٦٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٥

(٩٢٥) المقدسي : ٣٢١

(٩٢٦) المقدسي : ٢٨٣ ، ٣٣١ (ح . يب) ، ٤٣٤ . حول مداد ، المنفي هنا ،
انظر م ج ج ع ، ج ٤ ، ٣٥٢

(٩٢٧) المقدسي : ٢٧٨ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٥ ، ٤٦١

(٩٢٨) المقدسي : ٣٥٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤

(٩٢٩) المقدسي : ١٨٤ ، ٢٥٣

(٩٣٠) المقدسي : ٤٧٠ ، وما تقدم من ١٥٠ آخرها - ١٥١

(٩٣١) المقدسي : ١٤٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٣٠٢ (ح . د) ، ١٥ (الحمامات) ،

٣٥٨ ، ٢٨٩ (ح . ب) ، ٣٩٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ . حول آجين ، انظر الحاشية ٩٤٧

(٩٣٢) المقدسي : ٣٣٢ ، ٤٤٥ (و ح . د)

(٩٣٣) « الجبل المفترس »

(٩٣٤) يهمل المقدسي كما نرى طاهرات اخرى للتطور الصوتي

(٩٣٥) بالفعل يمكن فهم مجمل النص : جبل وحل ، طين (الفارسية خر) ، أو الفائض

(العربية خر أو الخر للجمع مفضل) . انظر الآيات التالية .

(٩٣٦) احتفظ بامانة لتشكيل اسم المدينة ، بالقراءة اخرى ، الذي صححها الناشر الى خرا

(لكي تتقارب مع اللفظ العربي خراء : انظر الحاشية ٩٣٥) ، الذي يمكن ان يذكر

ايضاً ، على علاته ، باللفظ الفارسي خر : ضباب سحاب منخفض . وزن الشعر . لا

وجود له (انظر المقدسي : ٣٣٢ ، ح حاشية ج لا وجود لهذا الوزن) ياقوت معجم

البلدان ، ح ١ ، ٣٥٤) يعطى صيغة معدلة ومنظمة عن بحر السريع .

(٩٣٧) المقدسي : ٧٩ ، ١٦٠ ، آخر ٢٠٧ ، ٢٦٠ ، ٣٢٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ .

٤٠٩ (و ح . ط) ، ٤٨٣

(٩٣٨) المقدسي : ١٢٩ ، آخر ٢٠٨ (حول اثر حقول الارز الضار ، انظر المرجع

ذاته ، ح . يز و ٤٣٦ . انظر أيضاً مايلي الفصل السادس ، الارز) ، ٤٠٤ (ح ١٠ من

ذاته ، ح . يز و ٤٣٦ . انظر أيضاً مايلي الفصل السادس ، الارز) ، ٤٠٤ (ح ١٠

(٤٩٠

(٩٣٩) حميم : ١١٩ ، ١٧٨ (مقترنة بجحيم ودالة على البلد) ، ٤١٠ ، ٤٦٧ (مع

شرح مختصر عن مقطع حميم مع مبالغة الى « حميمان » : ليصير خاصاً بجهنم . انظر م ج ع ،

ج ٤ ، ٢١٩) . ويقال ان كل ماء حار يسمى حميماً (بلا ريب لأنه معرض الى تسخين

الهواء خلافاً للعين) . والحميم ضد يعني الماء الحار أو الماء البارد ، لكن ليس هنا في

جميع الأحوال : فالاحالات المستشهد بها تعود الى نصوص ذم (وصف مثالب البلدان

الموصوفة) .

(٩٤٠) حلو ، حلاوة ، احياناً مجازاً الحاوية (الآبار الألفية . .) : المقدسي : ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، آخر ١٩٩ آخر ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٢٧ ، ٢٥٠ (ح . يد) ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٣١٢ (ح . يو) ، ٣١٣ (ح . د) ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٥٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ (ح . ب) ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٥ (ح . يح) ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨٢ ، ٤٩٤

(٩٤١) عذب ، عذوبة : المقدسي : ٨٢ ، ٨٦ ، ١١٨ ، ١٤٠ ، ٣٢١ (ح . ب) ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٥٨ (متصل بالصفاء) ، ٣٧٩ (متصل بالخفة) ، ٣٨٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٨٣ . حول معنى عذب ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٩٧ ، مع امثلة واضحة جداً ، مأخوذة من ياقوت (احدها مذكور عند المقدسي ، ١٦١ ، ح ط : « ماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة ») ، « ماؤها عذب ليس بحلو . انظر بالمقابل مثلاً أقل وضوحاً ، عند ابن حوقل ، ٢٩٨ : ماء حلو عذب .

(٩٤٢) يكثر استعمال هذا النعت مجازاً للحاوية : المقدسي : ٨٥ ، ٧٤ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ (و ح . ب ، مع نعت رديئة) ، ١١٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٧١ ، ١٧٤ (نص ذم بوضوح) ، ٢٠٩ ، ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ٤٢٧ ، ٤٩٣ — انظر م ج ع ، مشار اليه .

(٩٤٣) هنا أيضاً يصف النعت مالح الحاوية : المقدسي : ٨٥ ، ١٣٨ (وآبار الموصل مالحة ، وشربهم من دجلة ومن نهر زبيدة : حول هذا النهر انظر لوسترانج ، الخلافة ٨٨) ، ١٦٤ (مالحة ، نعت عائد الى مدينة الرملة ، ومحصور بين « عميقة الآبار » و « ماء المطر في جباب مقفلة » ، وكله وارد في نص مثالب هذه المدينة) ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٦ ، ٢٥٣ (ماء مالح قبحه الله) ، ٢٨١ (في نطاق نص مزعجات المدينة) ، ٣٢٢ ، ٤٢٥ (يملح ماء النهر من وقت العنب الى وقت المطر) ، ٤٢٦ ، ٤٤٦ (اربع بحيرات مالحة ، وبحيرة واحدة عذبة في فارس) ، ٤٩٣ . يجب الا يلتبس مع مليح (جميل طيب احياناً) : انظر وصف العيون : « عجيبة خفيفة » ، المقدسي : ٢٥٢ (و ح . ح) .

(٩٤٤) المقدسي : ٨٤ ، ١٠١ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٣٠٢ (ح . د) ، ٣٠٨ ، ٣٧٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ (نفي الخفة) ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤٨ (للآبار) ، مع افعال التفضيل ، المرجع ذاته ، ١٧٥ ، ١٨٤ .

(٩٤٥) نحسن ، زعاق (خاصة للحمامات) ، صلاب ، لطيف : على التوالي : المقدسي :

١٨٤ ، ٤١٤ ثترافق الخشونة مع الصحة (١٠٨ ، ١٩٦ ، ١٢٤ ، ١١٣ . حول
لطيف بمعنى « يسامي الحسم » ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ٥٣٢ ، حول زعاق ، انظر
تعريف لسان العرب ، « مر غليظ » : غليظ ، عكس لطيف : انظر دوزي ، مشار اليه ،
لا يطاق شربه بسبب ملوحته الشديدة (اجاج) .

(٩٤٦) المقدسي ، للا لفاظ التالية : حسن : ٣٥٩ (ح . ك) ، طيب : ١٠١ ، ٢٠٨
(عن الحمامات) ٢٩٤ (صفة منفية في ١٢٩ ، ٢٥٣) ، مريء : (حول هذا الجذر
انظر ما تقدم ، ص ١٦٢) ١٨٤ ، آخر ٤٨٠ (صفة منفية ٣٠٤) ، صح : ١٣٨ ،
٣١٤ ، ٣٥٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٤ (صفة قد تقترب بالخشونة) ، ٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٤٨٠ ،
(صفة منفية ٤٣٦) ، بسبب حقول الارز : انظر الحاشية ٩٣٨) ، جود : ١٢٤ ،
(الصفة مالح : انظر الحاشية ٩٤٣ بأخرها) ، ٢٥٢ (و ح . ك) ، عجب : ١٠٨ ،
٢٥٢ (ح . خ) ، ٢٥٤ ، ٣٠٣ ، ٣٣٣ (و ح . ز) ، ٤٠٢ ، ٤٦١ .

(٩٤٧) معتدلة : المقدسي : ٢١٤ ، رضي : ١٠١ ، ١٤٢ ، ١٦٠ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ،
١٩٦ ، ٢٠٨ (حاشية يز) ، ٢٤٨ ، ٣٣٢ ، ٣٩٦ ، ٤٤٨ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٣٦٥ ،
مذمومة : ٢٨١ (للاقنية في منطقة بخارى) ، آجن : ١٩٦ (تبدل عام يشمل الأنداز) ،
كريبه : ١٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٥٣ ، قاتل : أو يقتل : ١٠١ ، ٣٧٠ . يلاحظ ان كلمة
الزعاق (خ . ٩٤٥) يمكن ان تقرأ زعاف المدروسة سابقاً (« يقتل فوراً » كالمسم خاصة) ،
ولا بد من أخذها ، في حالة مياه الحمامات ، بالمعنى المجازي . وتوصف البحيرة المقلوبة
(المقدسي : ١٨٤) بانها وحشة ، لكن بمعنى عام على الأرجح .

(٩٤٨) المقدسي : ١٤٦ ، ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٣٧٠ (صيغة ماثلة في ١٧٨ : « بلد قاتل
للغرياء ردىء الماء ») .

(٩٤٩) المقدسي : ٣٥٨ ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٧٥ ، وديميزون ، معجم ، ج ١ ،
١٣٩ ، ج ٢ ، ٩ (انظر بنوع خاص الأمثلة المنتهية « بران » في تركيبها) .
(٩٥٠) فعل آخر للقياس ، يستعمل جتماً لتقدير حجم مياه دجلة بالنسبة الى نيسابور
المقدسي : آخر ٢٩٩ .

(٩٥١) المقدسي : آخر ٢ - ٣

(٩٥٢) ابن الفقيه : ٢٢٠ - ٢٢١

(٩٥٣) ابن الفقيه : ٢٢٢

(٩٥٤) المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٧ ، اشير اليها ص ١٤٤ وفي الحاشية ٨٠٥)

(٩٥٥) المقدسي : ٤٤٨ (انظر أيضاً ابن حوقل ، ذكر سابقا ، ص ١٤٦)

(٩٥٦) المقدسي : ٣٩٧

(٩٥٧) المقدسي : ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤٤٤ ، ٤٧٨ . حول الصيغة

الرابعة اطلق ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٩١ ، حول الصيغة الثانية ، المرجع ذاته ، ٣٠٦

(٩٥٨) المقدسي : ٣٦ (انظر ما تقدم ، ص ١٤٩) ، ٣٣٦ (وح . بو)

(٩٥٩) الجاحظ(١) : ١٩٧ ، المقدسي : ٢٤١

(٩٦٠) ما تقدم ، ص ١٤٥

(٩٦١) المقدسي : ١٨٤ - ١٨٥ ، اصصح الصورة الواردة في طبعة دي خوية : الأحداث

وأصحاب الملل ، الأحداث (الشباب أو الرعاع) : انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٢٥٨)

باحداب جمع حديب (الاحدب : انظر بلاشير ودرمون ، في د ج ع ، ١٨١) أو الى

اغراب جمع غريب (ألا جرب) ، حول صيغة جمع افعال اللفظ فعل ، انظر دي سامي ،

صرف ونحو عربي ، ج ١ ، ٣٨٦ ، بلاشير وغودفروا دي مونين ، صرف ونحو

عربي كلاسيكي ، ١٧٩ .

(٩٦٢) وتصنيف المقدسي واضح جدا من هذه الزاوية : ١٨٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٤٤ ،

٤٤٨ . يتخذ ابن حوقل الموقف ذاته ، ٢٩٨ ، ويشير الى عين ماء حلو عذب يشربه الناس

لتنقية الجوف ، وهو احدى خاصيات فارس .

(٩٦٣) ابن حوقل ، ٢٧ (يكرر الاصطخري ، ٢١ : فلفظ البحر ، « كمية كبيرة من

الماء » ، يحيل هنا الى البحيرة مثلما يشبت من النقاش اللاحق ، عن موقع البحيرة المقلوبة) ،

٢٩ ، ٣٠٩ ، ٣٨٠ - ٣٨٢ ، ٤٤٧ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ٩٥ ، ١٤٢ (لا بحيرة

في الجزيرة ، وان ذكرت بحيرة صغيرة ص ١٤٠) ، ١٧٩ ، ٢٢٢ آخرها - ٢٢٣ ،

٢٤٨ ، ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ٤٥٩ ، ٤٧٠ (باستثناء نهر جيرفت) ، ٤٨١ ، ٤٨٧

(الفرق التمييز بين الأنهار الدائمة والفياض) . انظر أيضاً كتاب حدود العالم ، آخر

٧٣ - ٧٨ .

(٩٦٤) انظر ما تقدم ، ص ١١٦ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، ٦٨ - ٧٠ ،
وشكل ١٤ (أ) و ١٥ ، قدامة : م ٧١ ، يعطي مجموعاً يساوي ٢٥٨

(٩٦٥) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، مشار اليه

(٩٦٦) المقدسي : ١٩ وما يليها

(٩٦٧) اثبات آخر : في العرض الاجمالي ذاته ، يسمى المقدسي ، بعد الأنهار ٢٧ ،
ثلاثة أمثلة عن انهار ريفية : ولا تضم اي نهر من المغرب .

(٩٦٨) المسعودي (م) ، فقرة ٢١٥ - ٢٤٢ ، (ت) ، ٨٤ - ٨٩) لا يذكر أي
اسم لمغرب دار الاسلام او لنهر يصب في بحر الروم . ولا يظهر نهر تاجه ، المسعودي
(م) ، فقرة ٣٩٩ ، مثلاً ، وان قيل عنه انه « احد اشهر انهار العالم » ، الا في سياق
الكلام عن تاريخ الأندلس . ويذكر الوادي الكبير عند المسعودي (ت) ، ١٠٠ - ١٠١
باسم « نهر قرطبة » .

(٩٦٩) لم يشر الى أي نهر في المقطع العائد الى المغرب : ابن الفقيه ، ٩٧ - ١١٢

(٩٧٠) حدود العالم : ٦٩ - ٧٩ . يحصل الانطباع العام ذاته ، عند قراءة الخوارزمي
(ع) ، اماكن كثيرة ، وقدامة (م ٧١) وخاصة ابن سيرايبون ، الذي يخصص
بالمقابل شروحا مستفيضة لانهار الجزيرة واقتنيها (ص ١١٩ - ١٣٧ : لا يذكر
نهر واحد من مغرب دار الاسلام في نظراته العامة الى انهار الأرض ، ص ١١٩ - ١٥٥)
ووضع الفزاري اعقد : فكتابه الجغرافية يتضمن انهارا مغربية واندلسية (انظر طبعة
مصحح صادق ، م د ش ، ٢١ روماني ، ١٩٦٨ ، ص ١٤٢ ، فهرس لفظ وادي ،
اماكن متفرقة) ، لكنه اعيد النظر به في القرن السادس / الثاني عشر ، على يد أحد
الاندلسيين المسمى الزهري ، الذي عد له بلا ريب ليزيد أهمية موطنه (انظر أمثلة عن
تعديلاته ، المرجع ذاته ، ص ٢٤) ، حول الأسباب التي تمنعنا من أخذ هذا المصنف
بمعين الاعتبار في كتابنا ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، الطبعة الثانية ، ١٤
روماني .

(٩٧١) حول المعطيات الواردة هنا ، انظر المقدسي ، ٤ ، ٩ ، ١٢ ، ١٩ - ٢٠

(٩٧٢) انظر شوارز فارس ، ج ٤ ، ٣٠٩ - ٣١٠ ، يجب الا يحصل التباس بينه
وبين نهر في صقلية ستحدث عنه فيما بعد .

(٩٧٣) يصب في بحر الخزر من الجهة الغربية ، الى شمال المدينة الحالية مشكلة : يقع النهر في الواقع خارج حدود المملكة : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢٦٤ ، ٥٣٨ وأماكن متفرقة . لا يرد في هذه اللوحة الا لأن المقدسي يدخل في وصف ملكة الاسلام كل البلد حتى نهر اتل : المقدسي ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ - ٣٦١

(٩٧٤) انظر لوستراخ ، الخلافة الشرقية ، ٣٧٦

(٩٧٥) انظر المقدسي ، : ١٩ ، ح ز

(٩٧٦) مثال آخر : يرد نهر طاب بين أسماء الأنهر الثلاثة المسماة فيما بعد عند المقدسي (ص ٢٠) كمثال على الأنهار الثانوية، الا ان طاب ليس الانهر ارجان المذكور من قبل ، في مجراه الأسفل : انظر المقدسي : ١٩ ، ح ز (انظر مع ذلك الترجمة ، ص ٣٣٠ - ٣٣١) .

(٩٧٧) « انهار جارقة » اوديتها « فجاج رهيبة » . يبلغ عرض وادي كيدنوس خاصة عشرة امتار تقريبا في مضيق أبواب كيليكية : انظر بلانشار ، الجغرافية العالمية ، مشار إليها ، ٧٤ - ٧٥

(٩٧٨) انطرسوس شهير في تاريخ البطولات لعلاقات دار الاسلام والروم : انظر جغرافية دار الاسلام ج ٢ ، ٤٢٤ ، ٤٧٦ ، ٥٣٤ ، وأماكن متفرقة . بالفعل جمعت الأنهار الثلاثة في الوصف العام اللاحق ، وجامعها المقدسي (ص ٢٢) .

(٩٧٩) المقدسي : ٢٠ - ٢٤

(٩٨٠) انظر الحاشية ٩٧٦

(٩٨١) لا ريب ان المقصود نهر صغير مسحوب من عين غزارتها عظيمة : انظر لوستراخ ، الخلافة الشرقية ، ٢١٥ ، شوارز ، فارس ، ج ٦ ، ٧٦٤ - ٧٦٥ . بالنسبة للقضية التي يثيرها احتمال اختفاء نهر العاصي ، انظر الترجمة ، ص ٦٤ ، ح ١١١

(٩٨٢) اشارة الى موطن المؤلف والى تعلقه المعروف جيدا بمسقط رأسه .

(٩٨٣) انظر الحاشية ٩٧٧ وبلانشار في الجغرافية العالمية ، ح ٨ ، مشار إليها ، ٤٨ ، ٥٣ - ٥٤ ، ٧٨ ، ١١٥ - ١١٦ ، ١٢٤ ، حيث لم يقترن ذكر هذه الأنهار بالحديث عن سفن نهريه . ويمكن إجراء التحفظات ذاتها بشأن انهار العالم ، الواردة في حدود العالم على انها صالحة للملاحة : يبدو واضحا جدا ان هذه الصفة ترد تلقائيا للدلالة على نهر عظيم (انظر ما تقدم ، ص ١٢٩) .

(٩٨٤) عرفت هذه الأنهار بالافادة منها في ري الأراضي بنوع خاص (نموذجها زند - رود) ، أو هي قصيرة جداً مثل نهر الاردن . ولعل الاستثناء الوحيد هو نهر العباس ، لكنه في الحقيقة ذراع من دجلة مثلما سبق وقلنا .

(٩٨٥) انظر الحاشية ١٢٩

(٩٨٦) المسعودي (م) ، فقرة ٣٩٩ ، ابن حوقل : ١١٦ آخرها ، حدود العالم : ٢٢١ ، ٧٩

(٩٨٧) مثال : اليعقوبي : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ابن حوقل : ١١٥ ، ١١٦ ، المقدسي : ٢٣٣ - ٢٣٥

(٩٨٨) اليعقوبي : ٣٥٤ ، المسعودي (م) ، فقرة ٤٠٣ ، المسعودي (ت) ، ١٠٠ - ١٠١ ، ابن حوقل : ١١٢ - ١١٣ ، ١١٥ . أما ملقون ، فهو مادي آفة الا على أو أحد روافده (ابن حوقل : ١١٦) .

(٩٨٩) اليعقوبي : ٣٥٥

(٩٩٠) الرازي ، ٦٢ ، ٩٠ ، ١٠١ - ١٠٤

(٩٩١) انظرا - ليفي برونسسال ، « تدمير » في م ١ ، ج ٤ ، ٨٤٨ ، و « الاندلس » في م ١٢ (٢) ، ج ١ ، ٥٠٣ و ٥١٢ (خريطة) حذار من الالتباس بينه وبين نهر شقر ، الذي يجري بعيدا الى الشمال ، ويصب في البحر حوالي بلنسية : وهو المقصود عند اليعقوبي باسم البلد : اليعقوبي : آخر ٣٥٥

(٩٩٢) حول (هـ) في آخر الكلم ، الملفوظة « او هـ » ، انظر المسعودي (م) ، فقرة ٩١٦ ، ابراهيم (ا) ، ترجمة ص ١٠٥٥ ، حاشية ٣ آخرها .

(٩٩٣) ابن حوقل : ١١٨ (يلزم « المدينة الكبرى » في الجزيرة) ، ١١٩ - ١٢٠ ، ١٢٢ - ١٢٣ ، (مع اسماء العيون ، وتعبير « نهر كبير » لوصف روضة ، في حين ينبع تحت باب المدينة ، التي تقع على البحر) ، المقدسي : ٢٣١ . ينبغي الا يحصل التباس بين وادي عباس ونهر عباس (انظر الحاشية ٩٧٢) .

(٩٩٤) المقدسي : ٢٣٢

(٩٩٥) انظر مثلا اليعقوبي : ٣٥٧ ، ابن حوقل : ٨٩ ، بشأن مدن (الجزائر) : اليعقوبي : ٣٥٨ ، ابن حوقل : ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، المقدسي : ٢٢٩ . بشأن احدى المناطق (تونس الشمالية) ، ابن حوقل : ٧٤

(٩٩٦) اليعقوبي : ٣٥٩ ، ابن حوقل : ٩١

(٩٩٧) بشأن هذه الأنهار ، انظر اليعقوبي : ٣٥٧ - ٣٥٨ ، ابن حوقل : ٨١ ، ٨٨ ، ٩٠ . يلاحظ ان الروافد (ايتاون ووادي نمائه ، وهو اسم مدينة) ، لا تذكر كروافد . وتذكر كروافد نهر سبه ، نهر نهر مشكوك باسمه (اليعقوبي ، آخر ٣٥٧ ، بشأن تحديد موقع المنطقة ، انظر ج . ايفر ، « غماره » ، في ١٠ (٢) ح ٢ ، ١١٢١) ونهر آخر اغفل اسمه في منطقة البصرة (ابن حوقل : ٨١ ، حول تحديد موقع هذه المدينة ، انظر ج . ايفر ، ١٠ (٢) ، ج ١ ، ١١٢٠) .

(٩٩٨) ابن حوقل : ٧٩ - ٨٠ . يلاحظ ان احد النهرين اللذين يتألف منهما نهر سفدد يأتي من البصرة (انظر الحاشية السابقة) .

(٩٩٩) ابن حوقل : ٨٨ - ٨٩ ، لا يذكر ان مسون اسم مدينة أيضا (مسون حالياً) . بشأن صاع (مدينة ونهر) انظر البكري ، وصف افريقية الشمالية ، ترجمة م . كوك دي سلين ، باريس ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٧ ، ١٨١ ، ٢٧٣

(١٠٠٠) ابن حوقل : ٧٨

(١٠٠١) ابن حوقل : ٨٩ . بشأن تحديد موقع هذا البلد ، انظر الادريسي ، وصف افريقية والأندلس ، الناشر دوزي ودي خويه ، لايدن ، ١٩٦٨ (تصوير) ، ترجمة ، ص ٩٥

(١٠٠٢) اليعقوبي : ٣٥٨ ، ابن حوقل : ٩٠ (شلف اسم مدينة أيضاً) .

(١٠٠٣) ابن حوقل : ٨٨ ، ٩٠ . انها منطقة واقعة بين مسيلة وقصر البخاري . يمكن ان يخطر ببالنا اسر الأعلى (قارن نص ابن حوقل بنص البكري ، مشار اليه ، ١٢٦ ، ح ١٠ . بشأن موقع مدينة اشير انظر ج . ماركة ، ١٠ (٢) ، ج ١ ، ٧٢٠) ، لكن يبدو ذكر الملح يشير الى شط الحصنة .

(١٠٠٤) ابن حوقل : ٨٥ آخرها .

(١٠٠٥) بشأن المدينة والنهر ، انظر المقدسي ، ٥٥ ، ٢١٦ (ح . ك) ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، وتحيل هذه الاحالات الى منطقة بجه فيما يبدو .

(١٠٠٦) اليعقوبي : ٣٤٨

(١٠٠٧) انظر الأسماء عند ابن خردادبه : ٨٢ ، ٨٨ ، اليعقوبي : ٣٤٢ ، ابن

نفيه : ٧٩ - ٨٠ ، قدامة : ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ابن حوقل : ٦٢ - ٦٣ (خريطة) .
يختفي اسم وادي بالذات أحيانا لصالح اسم ثاني مضاف : انظر المقدسي : ٢٤٤ (ح . و)
بشأن وادي الرمل ، انظر مثلا ابن الفقيه : ٨٠ ، ٨٤ وما يليها ، ٢٤٢ ، وجغرافية
دار الاسلام ج ٢ ، ٤٩١ - ٥٣٩

(١٠٠٨) ابن حوقل : ٧٠ ، المقدسي : ٢٢٤ : وادي جرار ، دون تدقيق الاسم
لمقصود بداهة وادي قابس ، وهو مجرى ماء غزير ، تغذيه عيون جميلة .

(١٠٠٩) ابن حوقل : ٦٧ - ٦٨ ، المقدسي : ٢٢٤

(١٠١٠) التعبير من الاصطخري ، ١٩ ، يكرره ابن حوقل ، ١٧ : انظر جغرافية
دار الاسلام ، ج ٢ ، ٥٢٩ .

(١٠١١) انظر اليعقوبي ، ترجمة وايت ، ص ٧ روماني وح ١ - ٣

(١٠١٢) انظر ابن حوقل : ٩٠ ، الذي يعود الى طريقه الموصوف سابقا (المرجع ذاته :
٨٨) . ويضيف باهتمام : « وقد اتيت بهذا الطريق مقلوبا لأنني سلكته من المغرب الى
فريقية » .

(١٠١٣) بشأن اهتمامات ابن حوقل التجارية والسياسية ، انظر جغرافية دار الاسلام ،
ج ١ ، ٢٩٩ - ٣٠٢ ، ٣٠٦ - ٣٠٩

(١٠١٤) على الأقل جغرافيو المسالك والممالك : ابن حوقل الذي يتوسع كثيرا بالاصطخري
والمقدسي .

(١٠١٥) أخذ وصف النيل والبلاد التي يسقيها من : الخوارزمي (ع) : ١٠٨ ، ابن
سيراينيون : ٤٣ آ ب ، ابن خرداذبه : ١٧٦ ، اليعقوبي : ٣٣٠ - ٣٣٤ ، ٣٣٧ -
٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ابن الفقيه : ٥١ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ - ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٨ ،
ابن رسته : ٨٠ - ٨٢ ، ٩٠ ، ١١٥ - ١١٧ ، قدامة : م ٦٤ ، المسعودي : (م)
فقرة ٢١٥ - ٢٢١ ، ٤٨٧ ، ٧٧٤ - ٧٨٥ ، ٧٨٨ ، ٧٩٠ ، ٨٠٤ - ٨٠٥ ،
١٢٨٦ ، المسعودي (ت) : ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٤ - ٣٥ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٧ ،
٢٤٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ابن حوقل : (يتوسع بالاصطخري ، ٣٩ - ٤٢ وأماكن
متفرقة) : ٥١ ، ١٣٥ - ١٤٣ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٨ / ١٣ ، ١٤٩ -
١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ - ١٦١ ، ١٧٠ ، ٣٢٨ ، المقدسي : ١٨ ، ٢٣ ، ١٩٣ ،

١٩٦ ، ١٩٧ (ح . و) ، ١٩٨ - ٢٠٢ ، ٢٠٣ آخرها ، ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١١ - ٢١٣ ، ٤٨٢ ، اسحاق : ٤٤٧ - ٤٤٨ ، الحدود : ٧٨ ، الأسواني : ٢٦١ .
ساقناول بعض هذه الاحالات في بعض النقاط الخاصة .

(١٠١٦) ابن الفقيه : ٦٥ ، المقدسي : ٢٠٧

(١٠١٧) ابن الفقيه : ٦٠ ، المسعودي (م) ، فقرة ٨٠٩ ، ابن حوقل : ١٦٠ و ش .
بيلا ، اللفظ في م ١ (٢) ج ٣ ، ٧٣ - ٧٤

(١٠١٨) ابن الفقيه يناقض في ص ٦٣ ص ٦١ التي يصف فيها سفاد التماسيح في بلاد النيل ، كما يصف ببعضها وتلقيسه .

(١٠١٩) بشأن فهر الشاش ، انظر المسعودي (ت) : ٩٧

(١٠٢٠) ابن حوقل : ١٤٧

(١٠٢١) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٨ - ٧٧٩ ، ابن حوقل : ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٧ ، المقدسي : ٢٠٦ .

(١٠٢٢) المقدسي : ٦٥ (ح . يا من ٦٤) ، ٢٠٠ (ترجمة جزئية في الحوليات
الاسلامية (القاهرة ، معهد فرنسي للآثار الشرقية) ، ١١ روماني ، ١٩٧٢ ، ص ١١٩ ،
ح ٧٣) .

(١٠٢٣) ابن رسته : ١١٦ ، المسعودي (م) فقرة ٧٨١ ، المقدسي : ٢٠٦ . حول
هذه القياسات ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧ (وشكل ٦) - ١٨

(١٠٢٤) المسعودي (ت) : ٩٧

(١٠٢٥) المسعودي (ت) : ٩٧ ، ابن حوقل : ٤٨ / ١٣

(١٠٢٦) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٨ ، ٧٨٢ ، المقدسي : ٢٠٦

(١٠٢٧) ابن حوقل : ١٣٧ ، المقدسي : ٦٥ (ح يا من ص ٦٤) ، ٢١٢ - ٢١٣ .
نلاحظ مرة اخرى ان طمي النيل الشهير لا يرد في الحديث عن الخصب .

(١٠٢٨) ابن رسته : ١١٦ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٨ ، ابن حوقل : ١٣٦ -
١٣٧ ، المقدسي : اشير اليه .

(١٠٢٩) انظر ابن حوقل ، ترجمة ، ص ١٣٥ ، حاشية ٦٣١ - ٦٣٥

- (١٠٣٠) اليقوي : ٣٣٩ - ٣٤٠ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٦ - ٧٧٧ ، ٧٨٦ ،
المسعودي (ت) ، ٢٩٧ ، الاسواني : ٢٦١ ، وما تقدم ، ص ١٢٤
- (١٠٣١) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٦ - ٧٧٧ ، آخر ٧٨١ ، المسعودي (ت) :
٢٨ ، ٣٠٠ ، المقدسي . ٢٠٨ .
- (١٠٣٢) المسعودي (ت) : ٣٠١
- (١٠٣٣) المسعودي (م) ، فقرة ٧٨٢ ، ٧٨٥ ، ابن حوقل : ١٣٦ ، ١٥٣ ، وما
تقدم ص ٩٣ ، وحاشية ٥٢٧ وص ١٢٠ آخرها - ١٢١
- (١٠٣٤) بلسم ، بلسان (ابن حوقل : ١٦١) : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٩٣ ، الجاحظ
(ت) ، الفهرس ، هذا اللفظ ، ص ١٦٢ ، وا . غالب ، قاموس علوم الطبيعة (الموسوعة
في علوم الطبيعة) ، بيروت ٣ أجزاء ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ ج ١ ، ص ١٦٢ .
- (١٠٣٥) ابن حوقل : آخر : ١٤٢
- (١٠٣٦) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٤ ، المسعودي (ت) : ٣٤ ، ابن حوقل : ١٣٧ ،
١٣٩ ، المقدسي آخر ٢٠٦ ، وما تقدم ، ص ١٣٧ آخرها
- (١٠٣٧) المسعودي (ت) ، ٣٤
- (١٠٣٨) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٤
- (١٠٣٩) الأشهر المعطاة مقابلة ، ليست أشهر السنة الهجرية ، بل الأشهر المسماة السورية
العربية ، هنا : تموز آب ايلول . أتبع في الأشهر القبطية هنا ومن قبل ، التشكيل (الذي
يختلف أحيانا عن تشكيل النص العربي) المتبع عند س . بيلا وفي ترجمته .
- (١٠٤٠) تشرين الأول ، تشرين الثاني ، كافون الأول
- (١٠٤١) كانون الثاني ، سباط ، اذار .
- (١٠٤٢) نيسان أيار حزيران .
- (١٠٤٣) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، ص ١٣٥ آخرها - ١٤٠
- (١٠٤٤) المرجع ذاته ، ص ١٥٦
- (١٠٤٥) ابن الفقيه : ٧٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢١٩ ، ابن حوقل : ١٤٥ ،
١٧٠ (وحاشية ١٩٠)

(١٠٤٦) انظر معلومات المسافات الواردة عند ابن حوقل : ١٤٥ (الى ثلث الطريق من اتفر صعدا حتى اسوان) ، والواردة عندك بيديكمر ، مصر والسودان ، لا يبرز - باريس ١٩١٤ ، ص ٣٤١ آخرها - ٣٤٢ أما كرامرز (« النيل » ، في ١٠م ، ج ٣ ، آخر ٩٧٩) فيعكس الموقعين .

(١٠٤٧) يقول ابن حوقل ان المضيقيين واقعين « بين جبلين .

(١٠٤٨) قدامة : م ٦٤ ، المقدسي : ٢٠ (ح . يا) : الحاشية ١١٣

(١٠٤٩) حول المواضيع المبحوثة هنا ، انظر ابن الفقيه : ٦٧ - ٦٨ ، ٧٤ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٠ ، ٧٨٣ - ٧٨٤ ، ٧٩٧ - ٧٩٨ ، ابن حوقل : ٦ ، ١٣٣ (خريطة) ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ - ١٦٠ ، ١٧٠ (مع التصحيح المذكور في الحاشية ١٩٠) ، المقدسي : ٢٠٨ . للمصور القديمة ، للنظر سترابون (مدينة ارسينويه ويندها) ١٧ روماني ، ١ ، ٣٥ - ٣٨ ، وبسنه ، مفردات ، مشار اليه ، ٨٥ . أيضاً كرامرز ، مشار اليه ، ٩٧٩ (يذكر خليج المنهي حسب الادريسي : هو خليج المنهي أو المنهي عند المسعودي) و ب . م هولت ، « فيوم » في ١٠م (٢) ، ج ٢ ، ٨٩٣ (١٠٥٠) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٠ ، حيث يمكن ان نترجم مثل ش . بيلا : « يجتاز النيل سدود اللاهون » أو « يمر النيل قرب سدود اللاهون » ، المرجع ذاته ، ٧٨٢ - ٧٨٣ ، يتحدث عن خليجين مختلفين (خليج الفيوم والمنهي) ، في حين يذكر ، فقرة ٧٩ ، خليج المنهي وحده فقط قرب بلد الفيوم .

(١٠٥١) هنا أيضاً ، لا يسمح شيء في النص (المقدسي : ٢٠٨) بأن يقدر القاري ، بأن هذا السد ، الموصوف عند ذكر الفيوم ، يقع في مكان آخر سوى على مستوى هذا الموقع (الا اذا قصد بالنهر الخليج ، وبالسد الحاجز)

(١٠٥٢) المسعودي (م) ، فقرة ٧٩٧

(١٠٥٣) لا شيء يدل على انه بانى الخليج القائم ، خلافا الى المرجع ذاته ، فقرة ٧٨٣

(١٠٥٤) لخص بذكر تاريخها ، مصر والسودان ، مشار اليه ، ١٨٧ - ١٨٨

(١٠٥٥) ابن رسته : ١١٦ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٨١ ، ابن حوقل : ١٤٦ ، المقدسي : ١٩٧ - ١٩٨ ، ٢٠٠ (يشير الى ان الفاطميين هدموا الجسر الغربي) .

(١٠٥٦) ابن حوقل ، ١٦١ ، يقلد الاصطحي ، ٤٢ (ويجمله غامضاً) :

والحوف ما كان من النيل اسفل الفسطاط » « وما كان من النيل جنوبه يعرف بالريف » .
بشأن تفسير هذه الاتجاهات ، انظر كرامرز ، مشار اليه ، ٩٨٠ (عمود ٢) .

(١٠٥٧) بشأن عمود انظر ما تقدم ، ص ١٣١

(١٠٥٨) حول الخليجين ، وذكر ذراع النيل القديم ومحاولات وصل النيل ببحر
القلزم ، انظر المسعودي (م) فقرة ١٤٢٦ - ١٤٢٨ ، المقدسي : ١٢ ، ٢٠ (ح . و)
٢٠٠ ، ٢٠٦ ، كرامرز ، مشار اليه (ص ٩٨٠) و س . هـ . بيكر « الفسطاط » ،
في ١ م ، ج ١ ، ٨٤٠ ، ٨٤٢ ، حول الالتباس بين الخليجين عند المقدسي ، انظر
الاحالة في الحاشية التالية .

(١٠٥٩) بالنسبة الى المقدسي ، يبدو ان الالتباس ثابت بين ذراع الروضة وخليج أمير
المؤمنين : انظر ترجمتي (المشار اليها سابقاً ، ص ١٨١) ، ح ١٤ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٨ .
(١٠٦٠) انظر كرامرز ، مشار اليه (ص ٩٨٠ ، عمود ٢) وابن حوقل : ١٤٣ .
الذي يصرح انه يكتفي بالشيء الأساسي ، رغم اعطائه تفاصيل جمة .

(١٠٦١) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٩ ، المقدسي : ٢٠٠ ، ٢٠٦

(١٠٦٢) لا ريب ان المسعودي يسميها ترعة ، المسعودي (م) ، المرجع ذاته ، ترعة الذنب أو
الذنب : انظر كرامرز ، مشار اليه ، (٩٨٠ ، عمود ١) ، ذنب التماسح (انظر
بحيرة التماسح الحالية التي تخترقها قناة السويس) . انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة
١٤٢٦ - ١٤٢٨ .

(١٠٦٣) في منتصف الطريق بين الفسطاط ودمياط : المقدسي : ٢١٤ . حول سردوس ،
انظر كرامرز مشار اليه (٩٨٠ ، عمود ١) .

(١٠٦٤) المقدسي : ٢٠٨ ، يشرح القادوس ويقول انه كوز الدولا ب .

(١٠٦٥) يبدو ان المصنفين لا يميزون ابدا بين الشعبة والخليج والماء : انظر مثلاً ابن
حوقل : ١٣٩ - ١٤٣ ، حيث اذكر من بين بعض النواحي الفامضة تسمية الماء الاخذالى
دمياط وتنبس ماء (ص ١٣٩) وشعبة (١٤٣)

(١٠٦٦) المسعودي (م) ، فقرة ٧٨٢ ، يذكر سبعة خلجان (اقنية واذرع اذ يسمى
بينها خليج دمياط وخليج والا سكندرية) ويدخل فيها خليج الفيوم وخليج المنهي (حاشية
١٠٥٠) ويذكر في مكان آخر (فقرة ٢٢٠) انه ينقسم الى خلجانا تذهب الى بلاد

تنيس ودمياط ورشيد والا سكندرية ويقول المقدسي (ص ٢٠ وحاشية يا) فيقول في
المن ان النيل يتشعب خلف الفسطاط فنهر يفيض في الاسكندرية ونهر بدمياط . وفي
الحاشية يا : ثم ينقسم سبعة اقسام منها قسم الى الاسكندرية بعد ما ينقسم قسمين .

(١٠٦٧) بشأن الملاحة في النيل (شعبة الرشيد) انظر اليعقوبي : ٣٣٨ ، ابن حوقل :
اخر ١٤٠ ، يتحدث ركوب التجار من الاسكندرية الى مصر في الصيف عند زيادة
النيل ، وبمراكب خاصة طبعاً ، ويقول المسعودي (فقرة ٢٢١ من المروج) ان السفن
كانت تجري في النيل وتصل الى أسواق الاسكندرية . يبدو ان تسمية المصب اشتوم
شائعة : فالمهلبي (ي) ، ١ روماني ، ١٩٦ ، يورد اللفظ ذاته في كلامه عن مصبين
اخرين (تنيس - دمياط) : انظر أيضاً تعبير اشتوم تنيس عند المقرئزي ، ذكر عند
مسبيرو ووايت «نصوص» ، مقال ذكر (حاشية ١١٣) ، ١٧

(١٠٦٨) اكثر تلك الأوصاف تفصيلاً ، وصف ابن حوقل : ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٥٢ ،
١٥٦ ، ١٦١ وأماكن متفرقة .

(١٠٦٩) المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٠ - ٢٢١

(١٠٧٠) ابن حوقل : آخر ١٣٨ - ١٣٩

(١٠٧١) بشأن البحيرة والمدينة ، انظر اليعقوبي : ٣٣٨ ، وابن رسته : ٩٠ ، وابن
الفيقي : ٢٥٢ ، والمسعودي ، فقرة ٧٨٨ - ٧٩٠ من م . و ٣٥ من ت ، وابن حوقل :
١٥٢ ، ١٥٦ ، والمقدسي : ٢٠١ - ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، وحدود العالم : ٥٦ ،
٧٨ .

(١٠٧٢) تبدو الشعبة الأخرى خليجاً تصل الى الاسكندرية بعد سقاية الريف .

(١٠٧٣) ينبغي فهم تعبير « الى دمياط » « صعدا الى دمياط » انظر اتجاه الطريق من الفرما
(بيلوز) الى دمياط مروراً بتنيس) . ويجعل اليعقوبي بحيرة تنيس نهاية النيل من هذه
الناحية . الا ان الاتصال بارز عند المهلبي (ذكر من قبل ح . ١٠٦٧) ؛ واتصال
بحيرة تنيس ببحر الروم وارد صراحة عند ابن حوقل وعند المقدسي (انظر ماييلي حول
تناوب الماء الحلو والمالح عليها) : ابن حوقل : ١٥٦

(١٠٧٤) ابن حوقل : آخر ١٤١ ، يذكر عين موسى في الدلتا

(١٠٧٥) المقدسي : ٢٠٨

(١٠٧٦) اليعقوبي : ٣٣٩ آخرها .

(١٠٧٧) المقدسي : آخر ٢٠٧ (ذكر من قبل ، ص ١٦٦)

(١٠٧٨) المقدسي : آخر ٢٠٨ (ذكر في المكان ذاته)

(١٠٨٠) انظر ما سبق ، ص ١٤٥ آخرها - ١٤٦

(١٠٨١) اخذنا بعين الاعتبار تردد الصور : شبره ، شبري ، شبرو (من لفظ قبلي قديم يعني بلد : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٩) يرجح ان النبيذ المسمى شبراوي عند المسعودي (م) ٧٧٩ ، هو في الواقع شراب العسل المستنبذ في شبرو (ابن الفقيه دون تمييز الاسم المكان ابن حوقل) ١٦١ ، في هذه الحالة يخالف المسعودي ويقول ان النبيذ الشبراوي يتخذ بمصر من ماء طوبة ، وهو كانون الآخر بعد الغطاس ، واصفى ما يكون النيل في ذلك الوقت .

(١٠٨٢) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٧٣٤ ، ٧٧٩ ، ١٢٨٦ ، المقدسي : ٢٠٦ بالنسبة لعيد الصليب في الشام : المرجع ذاته ، ١٨٣ () وما تقدم ، ص ١٨١

(١٠٨٣) المسعودي (م) فقرة ٧٧٩ - ٧٨٠ ، انظر دوزي ، ملحق لفظ غطاس ، ج ٢ ، ٢١٦

(١٠٨٤) كانون الثاني

(١٠٨٥) أي ٩٤١ بعد الميلاد

(١٠٨٦) مؤسس سلالة الأخشيديين المحلية ، سوف يمارس السلطة من ٣٢٣ / ٩٣٥ الى ٩٤٦ / ٣٣٥

(١٠٨٧) الملاهي (أيضاً : آلة موسيقية) : قد يكون حشوا مع عزف . لقصف أيضاً معنى شراة ، مأدبة فاخرة : انظر ترجمة تن . بيل .

(١٠٨٨) انظر ما تقدم ص ١٧١ (وحاشية ٩٦١) : لا توجد لا انهيار ولا بحيرات في جزيرة العرب .

(١٠٨٩) حول هذه المواضيع ، انظر مثلاً ابن خردادبه : ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ابن رسته : ١٧٥ (وادي السباع وزباله : تصحيح الترجمة ص ٢٠٣ : المقصود ماء مستنقع لا حار . ابن حوقل : ٢٩ ، آخر ٣٠ ، ٣١ ، آخر ٣٣ (تصحيح الترجمة ،

ص ٣٧ و ٣٨ / النص ص ٣٨ و ٣٩ : « بوادي » لا أودية . المقدسي : ٨٠ ، ٢٥٢ .
لوائح الأودية عند الهمداني : ٧١ - ٧٨ ، ٨٩ - ٩٠

(١٠٩٠) انظر بشأن وادي القرى (انظر ١ . غروهمان ، م ، ج ٤ ، ١١٣٥ - ١١٣٦)
وروده ، في معظم الأحيان ، في قوائم البلدان أو الطرق . ابن خرداذبه : ١٢٩ ،
١٥٠ ، قدامة : ١٩١ ، ٢٤٨ ، ابن رسته : ١٧٧ ، ١٨٣ ، ابن الفقيه : ٧ ، ٢٦ ،
المسعودي (ت) : ٣٣٥ وأماكن أخرى (اطار بسيط لاحداث تاريخية) ، ابن حوقل :
٢١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١٥٨ ، المقدسي : ٣٠ ، ٥٣ ، ٨٣ - ٨٤ ، ٩٧ ،
١٠٧ ، ١١٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ . يلاحظ ان لفظ وادي يستعاض عنه احيانا
بلفظ بطن مقعر ، منخفض) : انظر ابن حوقل : ٢٩ (الاصطخري : ٢٢) : بطن
(وادي) ، المقدسي : ٧٧ ، ١٠٥ - ١٠٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ (انظر ص ١٠٢) .
حول نهر الأزرق انظر الحاشية ١١١٥ .

(١٠٩١) اليعقوبي : ٣١٢ - ٣١٣ ، ابن رسته : ٢٥ - ٢٦ ، ٤٤ - ٥٢ ، ابن
حوقل : ٢٩ - ٣١ ، المقدسي : ٧٧

(١٠٩٢) الاصطخري : ٢١ ، ابن حوقل : ٢٧ ، آخرها - ٢٨ (حول تبديل سواني
بسواقي ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٥) . حول موضوع الأراضي المستمرة ، انظر
جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٥ .

(١٠٩٣) انظر الهمداني : ١٦٠ ، المشار اليه من قبل ، ص ١٢٦ (وياقوت ، معجم
البلدان ، ج ٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ج ٥ ، ٦٣) . بشأن العيون (التي شوحتها المزروعات
اليوم ، وهي غير كافية في جميع الأحوال ولا تفي بحاجات التطوير الهائلة) ، انظر
بلا نشار ، في الجغرافية العالمية ، ج ٨ ، مشار اليه ، آخر ١٧٧ - ١٧٨ .

(١٠٩٤) انظر كتاب الحدود : ٧٧ ، ١ . لوفغرين ، « بيهان » ، و م ١٠ . غول ،
(بيهان القصب » ، م ١ (٢) ، ج ١ ، ١١٦٦ - ١١٦٧ ، اطلس عالم التايمز ، ص ٣٣ ،
واسهاب مماثل عند ابن الفقيه : ٢٨ (اليمامة) .

(١٠٩٥) موجودة حقيقة في فصل الأمطار فقط : ابن خرداذبه : ١٣٦ ، ابن سيرايون :
٤٩ (١) ، ابن رسته : ١١٠

(١٠٩٦) انظر مثلا ابن الفقيه : ٨٤ - ٨٦ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠

(١٠٩٧) كتاب حدود العالم : آخر ٧٨ - ٧٩

(١٠٩٨) اختار من الاشارات والأوصاف العديدة لبشر زمزم ، بالنسبة الى المواضع التي تهمنا هنا مايلي : ابن رسته : ٤٠ - ٤٤ ، ٥٨ ، ابن الفقيه : ١٩ ، ١١٦ ، ٢٢٢ ، المسعودي (م) ، فقرة ٩٣٨ - ٩٤٠ . يلاحظ في قصة هاجر واسماعيل ، التي ترمز الى الاسلام ، دون ان تكون الاسلام ، تفوق صورة البشر على صورة العين (ربما زمزم ستصبح عينا جارية لولا حذر أو شح هاجر التي حفرت له في البطحاء ، وقيل ان في قعر زمزم ثلاث عيون ، قدسها الاسلام ، وفضل البشر على العين ، مع ذلك ، تندرج البشر في تاريخ جزيرة العرب التقليدية وفي مشهدها . انظر أيضاً المقدسي : ١٧١ ، الترجمة ، ص ١٩٨ ، حاشية ٢١٠

(١٠٩٩) صلاة مأخوذة من كتاب ابن قدامة ، ترجمته مذكورة (معدلة قليلا) ، ص ٨٦ (١١٠٠) ابن الفقيه ، ١١٢ ، يتحدث عن عيون عديدة ، في حين يقول المقدسي ان عيونها ضعيفة .

(١١٠١) قدامة : ٢١٩ (وحاشية و) .

(١١٠٢) المقدسي : آخر ١٧٤ . المقصود بلا ريب في الواقع جدول واحد أو عدة جداول آتية من العيون ، كثيرة ومقتاة : انظر ابن حوقل : ١٧١ ، وبيديكر ، فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٢٢١ .

(١١٠٣) ابن حوقل : ١٨٥ (الاصطخري ، ٤٨) . حذار من الالتباس بينه وبين قناة في العراق (فيما يلي ، ص ١٩٢) .

(١١٠٤) المقدسي : ١٨٥ (ترجمة ، ص ٢٣١ ، حاشية ٨٩) ، حول منطقة الشراة ، المرجع ذاته ، الفهرس ، اللفظ وما تقدم ، ص ٢٠ (حاشية ٩٦) .

(١١٠٥) المقدسي : ١٥٤ ، ١٥٤ (وحاشية د) ون . اليسيف ، نور الدين ، دمشق ، ج ١ ، ١٩٦٧ ، ص ١٢١ (وادي بطنان) .

(١١٠٦) المقدسي : ١٥١ ، ١٥٤ (ترجمة ص ١٧٧ ، حاشية ١٣٤) ، ١٧١ (ترجمة ، ص ٢٧٣ ، اللفظ) .

(١١٠٧) ابن خرداذبة : ١٧٧ ، ابن سيرايمون : ٤٤ (ب) ، ابن رسته : ٩١ ، ابن حوقل : ١٧٨ (باسم نهر « ابو الحسن قويق ») ، المقدسي : ١٥٥ ، وبيديكر ،

فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٤٠٤ . حذار من الالتباس بين هذا النهر والنهر الذي يحمل الاسم ذاته في خراسان : المقدسي : ٣٣٦ (و ٣٣١ ، حاشية يب) .

(١١٠٨) انظر ما تقدم ، ص ١١٨ و ١٧٣ . بشأن الأنهار الثلاثة والمواضيع المعالجة منا ، انظر اليعقوبي : ٣٦٢ ، ابن خرداذبة : ٩٩ ، ١٧٦ - ١٧٧ (و ح ا - ب) ابن سيراينون : ٤٤ (١) ، ابن رسته : ٩١ ، ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٥ ، ١١٦ (اسم آخر لبردان : الغضبان : شكس) ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٥ ، المسعودي (ت) ، ٨٧ - ٨٨ ، ابن حوقل : ١٨٣ (جيحان أهم من سيحان) ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ ، (ح . يز) وترجمة ، ص ٦٣ ، ح ١٠٧ ، و ١١٠

(١١٠٩) المسعودي (ت) ، ذكر من قبل : انظر الفصل الأول ، ص ٣٧

(١١١٠) حول هذه الشبكة المائية ، انظر الخوارزمي (ص) ١٢٥ ، ابن خرداذبه : آخر ٧٩ ، ١٧٧ ، ابن سيراينون : ٤٤ (ا - ب) ، قدامة : م ٦٥ ، اليعقوبي : ٤٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ابن رسته : (٩١ ، و ح ه) ، ابن الفقيه : ٦٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، المسعودي (ت) : ٨٨ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، ٢٤٢ ، ابن حوقل : ٢٧ - ٢٨ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٨٤ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ (و ح يز) ٢٣ (زبداني : انظر ما تقدم ، ص ١١٩) ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ « و ح و ، ترجمة ص ١٨٠ ، ح ١٥٣) ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٦٩ .

(١١١١) انظر بيديكرك ، فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٣٨٠ ، ايليسيف ، مشار اليه ، ٢٤٢ .

(١١١٢) بلانشار ، جغرافية عالية ، ح ٨ ، مشار اليه ، ٢٠٨ و ٢٠٩ (خريطة) و ر . دوسو ، طبوغرافية تاريخية لسورية القديمة وفي القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٢٧ ، ص ١٩٥ (وحاشية ه) - ١٩٨ .

(١١١٣) انظر بلانشار ، مشار اليه ، المسعودي (ت) ٨٨ ، حاشية ٢ ، دوسو مشار اليه ، ٢ (حاشية ٤) ، ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٤٣٨ - ٤٣٩ وخريطة ١٤ ، ايليسيف ، مشار اليه ، ١٩٢ وخريطة (د / ٢) .

(١١١٤) انظر المسعودي (ت) : ١٠٧ ، حاشية ٢ و ٣ ، والمقدسي : ترجمة ، ص ١٧٩ ، ح ١٤٥

- (١١١٥) انظر المقدسي : ١٦٢ (وحاشية) و ترجمة ص ١٨٠ ، ح ١٥٣ . أشرونا من قبل الى الشك الذي يكتنف ، ص ١٩٣ ، حوض الأردن ، متى ابتعدنا عن النهر . لم يذكر المقدسي ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ان نهر الأزرق (داخل وادي الزرقاء السهي : انظر اطلس التاييز ، ٣٤ ، ج / ٦ - د / ٦ - ٧) تابع لشبكة الأردن المائية ، بل جعله مجرى ماء (الوحيد اصلا) في البادية العربية السورية .
- (١١١٦) حول هذه المدينة (زغر أيضا) الواقعة في النواحي الجنوبية من البحيرة الميتة ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩
- (١١١٧) المقدسي : آخر ١٨٥ ، مع التصحيح المقترح في الترجمة ، ص ٢٣١ ، حاشية ٩١ (ما تقدم ص ١٧١ ح ١)
- (١١١٨) انظر ما تقدم ، ص ١٢٦ (اليعقوبي : ٣٢٨ ، لا يشير الى العلاقة نهر أبي فطرس - الاردن) .
- (١١١٩) انظر اليعقوبي : ٣٢٧ ، يتحدث عن بحيرة طبرية « التي يخرج منها نهر الاردن الشهير » ، والمسعودي (ت) ، ١٠٧ ، الذي يعطي صورة صحيحة عن الواقع ، لكن يحتفظ باسم نهر الاردن لمصرف البحيرة ، فيبقى الرافد بلا اسم .
- (١١٢٠) انظر أيضاً ابن حوقل على الأرجح ، ١٥٣ ، فهو يجعل نهر الأردن يجري كالنيل من الجنوب الى الشمال
- (١١٢١) انظر ما تقدم الفصل ١ ص ١٩ ، ح ٢
- (١١٢٢) بالنسبة الى بردى وشتى الأماكن التي تحمل اسما غامضا ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٦٤ ، حاشية ١١١
- (١١٢٣) انظر ر . هارتمان ، « بحر لوط » ، ١٢ (٢) ، ج ١ ، ٩٦١
- (١١٢٤) ما تقدم ، فصل ١ ، ص ١٩
- (١١٢٥) يشير اليعقوبي الى أحد ينابيع حوض اللطافني الأعلى ، ٣٢٥ ، عندما يذكر في كلامه عن بملبك « عينا عجيبة يخرج منها نهر عظيم » .
- (١١٢٦) انظر بلا نثار ، مشار اليه ، ٢٠١ ، بيدكر ، فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٣٨٠

(١١٢٧) ابن الفقيه : ١٠٤ (بالنسبة الى نهر أبي فطرس ، المقترض نبعاً كلمسياً للاردن :
انظر ما تقدم ، ص ١٢٦) ، ١١٦ (انظر ما تقدم ، ص ١٩٣) .

(١١٢٨) انظر ما تقدم ، ص ١١٦ و ١٢٥

(١١٢٩) هنا مجال ذكر تسمية « درجات » التي يشار بها الى هذه المنطقة : انظر ما تقدم
فصل ١ ص ١٩ .

(١١٣٠) وضع خاص ، ابرزه المقدسي : ٢٢ (وح يز)

(١١٣١) انظر ما تقدم ، ص ١٩٢ آخرها (وح ٥) - ١٩٣ ، في الحديث عن زمزم

(١١٣٢) للجبل أيضاً تيم مقدسة : انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٢١

(١١٣٣) باستثناء واحد سوف نتحدث عنه فيما بعد

(١١٣٤) بشأن النظرة الاجمالية الى الشبكة المائية الطبيعية أو المحدثّة في العراق وخراسان ،
انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٤ - ٨٥ ، ٢٣٢ - ٢٤٧ وأماكن متفرقة .
بالنسبة للمصنفين العرب الآخرين ، نعطي فيما يلي احالات اجمالية ، على ان نعود الى
بعضها في الحديث عن نقاط معينة (المعطيات العائدة الى دجلة والفرات الأعلىين ، سوف
تعطي فيما بعد ، في وصفهما) : الخوارزمي (ص) : ١٢٩ - ١٣٠ ، ١٤٠ ، ابن
سيرايون : ٣٠ (ب) - ٣١ ، (ب) ، ٣٢ (ب) - ٤١ (T) ، ابن خرداذبة :
٦ - ١٤ ، ٧٤ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، قدامة : ٢٣٢ آخرها -
٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ - ٢٤١ ، اليعقوبي : ٢٣٤ ، ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٤٢ - ٢٤٦ ،
٢٤٩ - ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ - ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ آخرها ، ٣٠٩ ،
٣٢٠ - ٣٢٣ ، ابن رسته : ٨٧ ، ٩٠ - ٩١ ، ٩٣ آخرها - ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ،
١١١ ، ١٥٥ ، ١٨٥ - ١٨٧ ، ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١١٩ ،
١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٦٨ ، ١٧٤ - ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ،
١٩٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣١ ،
٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣ ، ٢٩٦ ، المسعودي (م) فقرة ٢٢٩ - ٢٣٥ ،
٢٤٠ ، ٢٤٢ ، المسعودي (ت) : ٢٨ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ - ٦٥ ، ٨٧ ، ٨١ ،
٨٣ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ابن حوقل (يتوسع بالا صطخري) : ٧ ، ١٨ ، ٣٥ ،
٤٢ ، ٤٦ - ٤٧ ، ٤٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ - ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ،
المقدسي : ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ (وح ط) ، ٢٣ ، ٥٣ ، ١١٣ - ١٢٥ ، ١٢٩ ،
١٣٤ ، ٢٥٨ ، ٣٢٩ (ح و) ، حدود العالم : ٧٤ - ٧٧

(١١٣٥) حول رافد الدجلة هذا ، وحول نظام حبس الماء في هذه المنطقة ، انظر س . ه .
لونغريغ ، ١٣ (٢) ، ج ٢ ، ٣٥٢ - ٣٥٣ . حذار من الخلط بين نهر بين ونهر بين
المذكور سابقا (ص ١٩٣) .

(١١٣٦) باستثناء بعض تفرعات النهر الثالث التي تصب مباشرة في دجلة ، دون الاستعانة
بقاطول كسرى : انظر ابن سيرايبون : ٣٦ (١) .

(١١٣٧) صرصر ، وكوتي والنيل اسماء مدن أيضا . وتعطي قناتا بان وقريش اسميهما
الى قريتين صغيرتين : نهر بان ونهر قريش . حول دجيل ، القديم والحديث ، انظر
ابن حوقل آخر ٢٢٨ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٥١ ، ٦٥ ، ٨٠ ، و ٨٥ ،
ر . هارتمان و س . ه . لونغريغ ، « دجلة » في ١٣ (٢) ، ج ٢ ، ٢٥٧ ، ر . هارتمان ،
« فرات » في ١ (٢) ، ج ٢ ، ٨٦٨ ، عمود ٢

(١١٣٨) انظر ما تقدم ، ص ١٢٧

(١١٣٩) حول معنى العواء ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٤ ، ح ١ ،
والحاشية ١١٦٢ .

(١١٤٠) حول هذه المدينة ، انظر لوسترانج ، المرجع ذاته ، ٤٧ ، وأماكن متفرقة ،
وكرامرز ، ١٣ ، ج ٣ ، ١٠٣٦ .

(١١٤١) مثال ديانة ، ذكر من قبل ، الشك ذاته بشأن رافد دجلة المسمى الذيب ،
الذي يذكره قدامة : آخر ٢٣٢ - ٢٣٣ انظر أيضاً المسعودي (ت) : آخر ٧٩

(١١٤٢) ابن حوقل : آخر ٢٣٦ : « وكان نخيلها غرست ليوم واحد » الاصطخري :
٥٧ : على صف واحد .

(١١٤٣) هذه الصفة للمشهد العراقي وارادة عند الاصطخري بدقة وعند ابن حوقل : مشار
اليه ، في الحديث عن البصرة .

(١١٤٤) انظر مثلاً المسعودي (ت) : ١١٥ ، ابن حوقل : ٢٤٤ - ٢٤٥ بالنسبة
الى التاريخ الاسلامي المسعودي (ت) ، ٤٠٣ ، ٤٢٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ،
٤٧٧ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٧

(١١٤٥) وافدان ، رافدان ، (اسم يطلق احيانا على النهرين - دجلة والفرات)

- رائدان (حرفيا : اللذان يذهبان قدما لا عداد الملجأ بما فيه التفتيش عن الماء للقافلة) :
المسعودي (ت) ، ٦٥ (مع استشهاد بالفرزدق وبشار) .
- (١١٤٦) اليعقوبي : ٢٣٩ - ٢٥٤ . على الرغم من الأعمال المنجزة ، هنا أيضاً ، لا
تعطى سامراء الا نطباع . بوجود تفرعات كثيفة : المرجع ذاته ، ٢٦٣ - ٢٦٤ .
- (١١٤٧) حول معنى لفظ جزيرة ، انظر الفصل الأول ، ص ١٠٠
- (١١٤٨) عاصمة خوزستان
- (١١٤٩) منطقة في جزيرة العرب ، وراء البحرين . انظر ا . غروهمن م ١ ، ج ١٢١٨٤٤
- (١١٥٠) منطقة في الجزيرة حول الموصل : انظر م . كانار ، ١ م (٢) ، ج ٢ ، ٣٥٧ -
٣٥٨
- (١١٥١) منطقة في الجزيرة ، على الفرات ، تمتد من سبساط الى العراق : انظر كانار ،
المرجع ذاته ، ٣٥٧ .
- (١١٥٢) مركز ديار مضر ، على الفرات ، على ١٨٠ كم تقريباً الى شرق جنوب شرق
حلب : انظر ا . هونغمان ، ١ م ، ج ٣ ، ١١٨٥ - ١١٨٧ .
- (١١٥٣) منطقة الثغور : انظر ا . هونغمان ، ١ م ، ج ٤ ، ٧٧٧
- (١١٥٤) التتمة والنهاية (الطرق البرية) : « والمدينة مدرجة أهل الجبل وأصبيهان وكور
خراسان » للمرجع ذاته ، ٢٣١ آخرها - ٢٣٨ . ترجمت في نص اليعقوبي على « ترقى ، يحتط »
و « ينزل ويصعد » ويمكن اداؤها بـ « يقترب منها » (انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٥٥٠) ،
و « ويوضع لكنني فصلت المحافظة على المعنى الأصلي لأن النص يميز فيما يبدو السفن
الصاعدة نحو بغداد عن السفن النازلة منها .
- (١١٥٥) اليعقوبي : ٣٣٢ ، ابن رسته : ٩٤ - ٩٥ ، ١٨٥ ، ابن حوقل : ٢٣٥ -
٢٣٦ (انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٣ ، لفظ سميرية » .
- (١١٥٦) اليعقوبي : ٣٠٩ ، ابن رسته : آخر ٩٤ - ٩٥ ، المسعودي (م) ، فقوة
٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ (وح ١ من الترجمة ، يشار أيضاً الى تغير في دجلة في بغداد) ،
المسعودي (ت) ، ٦٣ - ٦٤ ، ٨٠ . انظر ما تقدم ص ١٢١ والخلافة الشرقية
للوسترانج : آخر ٢٥ - ٢٨ .
- (١١٥٧) الاصطخري : آخر ٥٧ ، ابن حوقل : ٢٣٨

(١١٥٨) في وقت أبكر حسب البلا ذري : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٧

(١١٥٩) مقدمة : ٢٤٠ - ٢٤١ ، ابن رسته : ٩٤ ، المسعودي (م) فقرة ٢٣٧ - ٢٣٨ ،
المسعودي (ت) مشار إليه م . ستريك وصالح العلي ، ١م (٢) ، ج ١ ، ١١٢٦ - ١١٣٠

(١١٦٠) انظر وصف البطيحة : اليمقوبي : ٣٢٣ ، ابن رسته : ٩٤ - ٩٥ ، ١٨٥
المسعودي (م) ، فقرة ٢٣٨ ، المقدسي ، ج ٤ ، ٧٠ ، ابن حوقل : ٢٣٨ (الاصطخري :
٥٧) ، المقدسي : ٣٤ ، ٤٧ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٣ . ذكر ابن رسته
الزط في نصه : ٩٥ (ترجمة ، ١٠٦) ، في حين نقلهم المتصم من البطيحة الى الشام
الشمالية ، خاصة الى السهول المرزغية عند الارنط الأدنى : انظر م . لومبار ، الاسلام
في عظمته الأولى ، باريس ، ١٩٧١ ، ص ١٥٤ آخرها - ١٥٥ ، ١ . بوبوفيك ،
ثورة الزنج في العراق في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ١٩٧٦ ، ص ٥٣ -
٥٤ ، الاصطخري : ٦٥ ، وابن حوقل : ٢٥٧ يتحدثان عن الزط في خوزستان .

(١١٦١) اقيم سكر عند الخيزرانية على دجلة لتمر المياه الى دجلة العوراء فذار ،
فاعورت دجلة ومن هنا جاء اسم العوراء : ابن رسته : ٩٥ . لست متأكدا بهذا الشأن
ان لوسترانج (الخلافة الشرقية ، آخر ٢٧ - ٢٨) قرأ جيدا نص ابن رسته . فالسكر
المقصود لا يقع عند المذار ، على دجلة السفلى ، بل صعدا بعيدا جدا نحو الأعلى قرب
الخيزرانية ، قرب فم الصلح (ابن رسته ، آخر ٩٤) . أما « انقطاع دجلة العوراء قرب
المذار » (مذار ، حيث قطع المجرى بسكر) ، فيبدو انه يعني عند ابن رسته (آخر
٩٤ : هي أي دجلة منقطعة من ثم) ، نظرا لوصفه دجلة صعدا ، النقطة القصوى ،
التي يستطيع الماء فيها في مجرى دجلة القديم (الذي عاد مجرى دجلة الحالية) ان يصعد من
عند التلاقي عند القرنة بين هذا المجرى القديم وبين المجرى المستعمل في أيام ابن رسته .
فليس الانقطاع المقصود الانقطاع الناشئ عن السكر ، بل انقطاع الملاحه فقط في مجرى
مهجور صعدا . لذلك يجب فهم تعبير دجلة العوراء ، بمعنى دجلة السفلى على الاجمال ،
أي ابتداء من المكان الذي « عورها » سد فم الصلح » : ومن هنا المحافظة على هذا الاسم على
طول المجرى الأسفل ، الذي هجر في البدء في فم الصلح في المنطقة الواقعة الى شرق واسط
(وهذا ما يشتهه المسعودي (م) ، فقرة ٢٣٥ ، وح ١ من الترجمة) ، ثم صبا (شط
العرب) من المكان الذي تعود فيه دجلة الى استعمال هذا المجرى ، وتدمير سد فم الصلح
والانتشار باتجاه الجنوب والبطيحة .

(١١٦٢) المسعودي (ت) ، ٢٨ ، يشير الى ان ريح الجنوب ، الهابة على وادي دجلة الأسفل ، تجميل النهر يضطرب : قارن بما قيل عن مجاري الماء الأخرى ، ص ١٢٢ ، ١٨٣ ، ١٩٥ .

(١١٦٣) ابن رسته : ٩٤ (مع التعبير : تدعى بلاد البحر بلاد السفالية) ، ابن حوقل : ٢٣٧ (الاصطخري ، ٥٧) ، المقدسي : ١٣ ، آخر ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٢٩ ، وما تقدم ص ١٣٨ . سنعود الى دراسة المد والجزر في موضوع البحار .

(١١٦٤) المسعودي (م) ، فقرة ٢٤٢ ، ابن حوقل : ٤٦ - ٤٧ (الذي يبدو انه يخلط بين درودرين ، هذا الدودور ودودور آخر ، يقع بعيدا الى الشرق : انظر الاصطخري : ٣٠) ، المقدسي : ١٢ .

(١١٦٥) ابن حوقل : ٢٣٧ (الاصطخري : ٥٧) : صحيح ان الدردور يقع عند التقاء دجلة وقناة قادمة من الابلّة ، الا انه على هذا الأساس واقع في منطقة المد والجزر .

(١١٦٦) انظر المقدسي : ٢٣ (ح ح) ، ١١٨ . حول معنى جزيرة ، انظر ص ١٠٠ . حول عبادان ، انظر ل . لو كهارت ، ١٨ (٢) ، ج ١ ، ٥ .

(١١٦٧) حول مجاري الماء في خوزستان ، انظر ابن سيرايمون : ٤٠ (ب) - ٤١ (١) ، ٤٧ (١) ، ابن خرداذبة : ١٧٢ ، ١٧٦ ، اليعقوبي : ٢٧٢ (ترجمة ، ص ٧٣ ، ح ١) ٢٧٤ آخرها ، ٣٦١ (تصحيح الترجمة ، ص ٢٢٨ : ليس جسر المراكب ، بل جسر النهر ، الذي يسمى مسرقان) ، قدامة : ١٩٤ ، ابن الفقيه : ٢٢٧ ، ابن رسته : ٩٠ - ٩١ ، المسعودي (م) فقرة ٢٤٢ ، المسعودي (ت) ، ٨٣ ، ابن حوقل يوسع الاصطخري (٤٩ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ٣٦٥ ، المقدسي : ١٢ (ح يج) ، ١٩ ، ٢٣ ، ١١٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ - ٤١٢ ، ٤١٩ ، حدود العالم : ٧٤ - ٧٥ . حول الصفات المشتركة لمياه جميع هذه المنطقة ، انظر بلا نشار جغرافية عالمية ، ج ٨ ، مشار اليه ، ٢٢٤ .

(١١٦٨) أو احدى أقنيبتها ، لكن ربما النهر ذاته . المقدسي : ٤٠٨ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٤٠ (دجيل عوضا عن دجلة) .

(١١٦٩) ابن سيرايمون : ٤٠ (ب) آخرها - ٤١ (١) ، المقدسي : ٤٠٦ ، ٤١٢ ، احالات أخرى عند لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٨

(١١٧٠) في الواقع تتحكم مجاري المياه النازلة من جبال زغروس في الشبكة المائية في الجزيرة المنخفضة انظر. بلانشار ، جغرافية عالمية ، ج ٨ ، مشار اليه ، ٢٢٢ - ٢٢٤ (١١٧١) حول كارون ، انظر م . تيريك وج . لاسنر ، ١٢ (٢) ، ج ٤ ، ١٠٧ - ٧٠٤ .

(١١٧٢) يرى ابن خرداداذبة : ١٧٦ ، وابن رسته : ٩١ سيرايبون : ٤٧ (١) ، ان مسرقان لا يصب في الدجيل ، بعد تركه اياه ، بل في البحر : حول هذه التبدلات المختلفة انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، آخر ٢٣٧ ، ستريك ولاسنر ، مقال ذكر ، آخر ٧٠١

(١١٧٣) انظر على التوالي للجسور : المقدسي : ٤١٠ ، ٤١٢ (وفيما بعد هنا ايضاً) ، الاصطخري : ٦٢ (ابن حوقل : ٢٥٣) . حول سد تستر ، انظر اشارة الاصطخري مشار اليه ، و ٦٤ (ابن حوقل : ٢٥٢ و ٢٥٥) . حول جسر الاهواز ويحيرتها ، انظر ما تقدم : ١٥٠ - ١٥١ .

(١١٧٤) ينزل الجغرافيون النهر أيضاً من جبال اصبهان ، في حين تنشأ في جبال زغروس ، في جنوب همدان ، ويتلقى فعلا من جهة الضفة اليسرى رافدين يجلبان له مياه زاغروس الى غرب اصفهان . اليعقوبي : ٣٦١ ، يخلط في نهر واحد الدجيل والمسرقان وهذا النهر : انظر توالي المدن المذكورة و تحديد جسر مراكب طوله ٥٦٣ سفينة في جندي سابور . حول دزفول (مدينة ، نهر وجسر) انظر ل . لوكهارت ، ١٢ (٢) ج ٢ ، ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(١١٧٥) نذكر ان هندوان اسم مدينة ونهر في فارس أيضاً (انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٧٠ ، ٢٧١ و ح ١ من ٢٧٢) واسم جسر الاهواز الشهير خاصة (انظر ما تقدم ، ص ١٥٠) : خلط هنا ايضاً عند اليعقوبي يذكر كتاب حدود العالم ، ٧٥ ، نهر سوسة الذي يستند مأؤه بالري بعيداً جداً عن مكان رفته الدجيل صعدا . حول ضريح دانيال ، انظر ما تقدم ص ١٣٩ . حول الكرنة ، انظر شوارز وميكيل ، م (٢) ج ٤ ، ٦٨٠

(١١٧٦) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، آخر ٢٣٧ (يوفق الاصطخري : ٦٢ ، ابن حوقل : ٢٥٢) ويذكر المقدسي : ١٢ (ح ١ ج) قناة اخرى (أو رافدا) بين حصن مهدي والمصب : انظر ايضاً : حدود العالم : آخر ٧٤ .

(١١٧٧) انظر حدود العالم : ٧٥ (قارن بصترك ولاسنر ، ١٣ (٢) ، ج ٤ ، ٧٠٣ ، عمود ١) . ابن خرداذبة : ١٧٢ ، يقول ان تستر واقعة بين اربعة مجاري مائية : دجيل ، مسرقان ، مهروبان ، وباسيان . ويحيل ياسيان الى شبكة أقيّة تصريف المياه الى شرق دجيل الأسفل : انظر المقدسي : ٤١٢ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ٢٤٧ . أما مهروبان ، فيثبت الالتباس بين حوضي دجيل وطاب (انظر بالنسبة الى حوضي هذين النهرين الأسفلين ، المرجع ذاته ، ٢٧٠ ، حاشية ١) : بالفعل مهروبان اسم مرس واقع في منطقة طاب الأسفل (انظر المرجع ذاته ، ٢٧٠ - ٢٧٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧) . يكرر ابن الفقيه ابن خرداذبة (مع تردد بشأن المدينة أو المدن الواقعة بين الأنهار الأربعة : انظر ابن الفقيه ، ترجمة ، ص ٢٧٥ ، ح ٦) وسمي نهري مهروبان وباسيان ، ياسين تصعب قراءتهما (انظر ابن خرداذبة : ١٧٢ ح و) : ماهينان (مهيمان) زاروبان (نرويان) : ابن الفقيه : ٢٢٧ (ح يا) ترجمة ص ٢٧٥ .

(١١٧٨) انظر المقدسي : ٤٠٣ ، يقول ان معظم سكان الأهواز هاجروا الى البصرة وفارس ، ثم يورد تأمل أحد سكان هذه المدينة : « الخوز ما كان فوق الأهواز مثل العسكر وجندي سايور والسوس ، وأما نحن فمراقيون » . بالنسبة الى وجود لفظ العراق في اسماء الأماكن ، انظر المرجع ذاته : ٤١١ - ٤١٢ (الجانب العراقي والجانب الفارسي من دجيل أو من تفرعاته) : وفي الاتجاه الآخر ، ص ٤١٣ : « سواد البصرة كلهم عجم » ، والبصرة نموذج لمدينة بيرون الخوزية التي تسمى « البصرة الصغرى » (المرجع ذاته ، وان كان هذا التعبير يمكن ان يعثر عليه في مكان آخر بعيد جداً : انظر بالنسبة الى الشام ، المرجع ذاته ، ص ١٥١ ، ١٧٨) .

(١١٧٩) المسمودي (م) ، فقرة ٢٧٠ ، ابن حوقل : آخر ٤٦ ، ٢٥٧ .

(١١٨٠) الاصطخري : آخر ٦٢ ، ٦٥ ، ابن حوقل : ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، المقدسي : ٤١٢ .

(١١٨١) الاصطخري : ٦٣ ، ٦٥ ، ابن حوقل : ٢٥٣ ، ٢٥٧ . حول نواحي الشك لهذا المشهد النهري عبر التاريخ ، انظر ، ستريك ولاسنر ، م (٢) ، ج ٤ ، ٧٠٢ ، عمود ٢

(١١٨٢) الاصطخري : ٣١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ابن حوقل : ٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، المقدسي : ٤٠٨ (مع ارسية في السفن ، ٤١٤ آخرها .

(١١٨٣) الاصطخري : ٦٢ ، (ابن حوقل : ٢٥٢) يشير المقدسي الى الجبال عرضاً عند حديثة عن المدن الجبلية : ٤١٤ (احداها في وسط الجبال ، ويقع فيها ثلج كثير) . حول تضاريس البلاد ومجاريها المائية ، انظر بلا نشار ، جغرافية عالمية ، ج ٨ ، مشار اليه ، ١٤٦ (١١٨٤) يستعمل المقدسي بانتظام هذه التسمية (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ٩٢ : اقور واثور) : ترد اثور ص ٢٠ (ح د) ، و ٢٨ (ح ي ج) . ثم اختلفت اثور بعد استعمال التسمية العامة جزيرة ، الا في حالات نادرة ، يبرها الحرص على تقديم عرض نظري (مثال ابن رسته : ١٤ ، كرره المسعودي (ت) ، ٦١ .

(١١٨٥) وردت صراحة على هذا الاساس عند ابن الفقيه : آخر - ٢٦ - ٢٧

(١١٨٦) حول هذه التفرعات ، انظر ابن سيرايبون : ٣١ (آ) ، ٣٢ (ب) ، ٣٣ (آ) ، ٣٥ (ب) ، ابن خرداذبة : ١٧٥ ، ابن رسته : ٩٠ ، ابن الفقيه : آخر ١٢٩ ، يمزج بوضوح بين ثثار وهرماس ، أو خابور (خطأ صحح المرجع ذاته ، ص ١٣٥) ، ابن حوقل : ٢٢٠ ، يتحدث بالنسبة الى المنطقة ذاتها ، قرب سنجار ، عن وادي الحيل ، الذي يحتمل ان يدخل في شبكة مياه الثثار ويتكلم قدامة ، ٢١٧ ، عن تفرع ، يدعى خليج ابن جميع ، في المنطقة ذاتها التي تحوي نهر سعيد . بالنسبة الى اقنية أقل أهمية (منطقة الموصل) ، انظر ابن حوقل : آخر ٢١٤ ، ٢١٨ - ٢١٩ (اصطخري ٥٣) . انظر أيضاً بالنسبة الى الموصل مايلي ، ص ٢١١ ، ح ٤ .

(١١٨٧) حول دجلة والفرات الأعلىين وروافدهما ، انظر الخوارزمي (ص : ١٢٩ - ١٣٠ ، آخر ١٣٩ - ١٤٠ ، ابن سيرايبون : ٣٠ (آ) - ٣٣ (آ) ، ٣٥ (آ) - ٣٥ (ب) ، ٤١ (ا) - ٤١ (ب) ، ابن خرداذبة : ٧٤ - ٩٦ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، قدامة : ٢١٧ ، ٢٣٢ - ٢٣٣ ، م ٦٦ - ٦٨ . اليعقوبي : ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ابن رسته : ٩٠ ، آخر ٩٣ - ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٨ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٦١ ، ٧٨ - ٨١ ، ٩٥ ، ابن الفقيه : آخر ٢٦ - ٢٧ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٨ - ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ آخرها - ١٣٥ ، ابن حوقل : (يوسع الاصطخري) : ١٨ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ - ٢١١ ، آخر ٢١٤ - ٢١٥ ، آخر ٢١٦ - ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، آخر ٢٢١ - ٢٢٣ ، آخر ٢٢٤ - ٢٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٠ ، المقدسي : ٢٠ (ح د) ، ١٢٣ ، ١٣٦ - ١٣٨ ، ١٤١ (و ح ا) ، ١٤٤ (و ح ي و يطوك) ، ١٤٥ (و ح د) ، حدود العالم : ٧٦ ، ١٤١ .

(١١٨٨) انظر التقليد الاداري الذي حفظه ابن خردادبة : ٧٤ (عمل الفرات ، مع كور الخابور) ، ٩٤ - ٩٥ (عمل الموصل وكور ديار ربيعة) .

(١١٨٩) حول حدود ارمينية ، انظر م . كانار ، ١٠٢ (٢) ، ج ١ ، ٦٥٥ . احالات الى ارمينية ، بالنسبة الى دجلة والخابور ، عند المسعودي (م) فقرة ٢٣٩ ، وابن حوقل : ٣٤٤ ، بالنسبة الى الزابين ، نازلة على وجه الدقة من كردستان ، عند ابن حوقل : ٢٢٨ (اذربيجان وارمينية) ، ٣٧٠ وحدود العالم : ٧٦ . أما المقدسي ، فيجمع كل هذه المرتفعات ، بما فيها اذربيجان ، تحت تسمية الرحاب العامة . ويتحدث ابن رسته ، ٩٠ ، عن ارمينية وعن الزابين فيها وحتى عن منابع النهر وان (ما تقدم ، ص ١٩٩) . (١١٩٠) يعين مصنفان دون سواهما بوضوح منابع النهرين في الأراضي البيزنطية ، هما ابن حوقل : ٢٠٨ ، ٢٠٩ والمقدسي : ٢٠

(١١٩١) قارن ابن رسته : آخر ٣٣ ، بقدامة : ٢٣٣ وبالمقدسي : ٢٠

(١١٩٢) ابن حوقل : ٢٢٦ (يتوسع بالا صطخري : ٥٤) . قارن بالهروي ، كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات ، ترجمة مذكورة ، ص ١٣٨ - ١٤٠

(١١٩٣) المقدسي : ٢٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، انظر أيضاً الفصل الاول ، ص ١١١

(١١٩٤) حول هذه المدن ، انظر ابن حوقل ، ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٢٢ آخرها ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ .

(١١٩٥) انظر مثلاً ابن خردادبة : ٩٧ ، ٩٩ - ١٠٣ ، قدامة : ٢١٦ ، ٢٥٢ - ٢٥٥

(١١٩٦) من أجل نظرة اجمالية ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١١٠ - ١١٤ (يصحح ص ١١٣ ، س ٥ ، ليصبح دجلة بدلا من الفرات) وأماكن متفرقة . ر . هارتمان و س . ه . لوفغرين ، ١٠٢ (٢) ، ج ٢ ، ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(١١٩٧) ذئب أو ديب ، انظر المقدسي : ١٤٤ (يج) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ٣٢٣ . حذار من الخلط بينه وبين رافد الفرات الذي يحمل الاسم ذاته ، ولا بين قناة اسمها قريب : الزيب ، في منطقة سامراء : انظر حاشية ١١٤١ .

(١١٩٨) المقدسي : ١٤٤ آخرها (وح يطل) .

(١١٩٩) أو ساتيدماد ، يسمى نهر المصوليات عند المقدسي : آخر ١٤٤ (وح لك) . حول التباس مع باسانيا انظر فيما يلي الحديث عن هذا النهر .

(١٢٠٠) حول هذا النهر ، المشكوك باسمه ، انظر المسمودي (ت) : ٨٠ ، المقدسي : ١٤١ (و ح آ كتبت د خطأ) ، ١٤٥ (و ح د) ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ٤٢ ، ١٣٨ . اظن انه ينبغي ان نفكر في هذا النهر لقراءة ابن سيرا يون : ٣٥ (ا) و ح ب ، التي تحيل بلا تدقيق الى مقطع من لوسترانج لم اتعرف عليه) : فافس (التي قراءها الناشر ه . فون مزيك ، قراءها سابقا فقس عند ابن الخوارزمي (ص) : ١٣٠ ، ولها الاحداثيات ذاتها) أي بلا شك فافان ، الواقعة قرب مرفد بهتن ودجلة .

(١٢٠١) دي خويه (المدسي : ١٤٤ ، حاشية ك) يجعل هذه النهر ساتيدا . الا ان الاسمين مختلفان عند ابن سيرا يون : ٣٥ (آ . ب) ، وخاصة تحديد موقع باسانفا الذي لا ينطبق مع موقع ساتيدا ، لأن النهر الأول يصب في دجلة في الضفة اليسرى ، على خمسة فراسخ (أقل من ٣٠ كم) من جزيرة ابن عمرو صعدا (ابن سيرا يون ، مشار اليه) . مع ذلك لا بد من التحفظ بعض الشيء حول معطيات ابن سيرا يون (اذ يقال ان باسانفا ينشأ الى شمال شرق آمد ، في منطقة ميفارقين وهي مدينة تابعة في الواقع الى حوض ساتيدا ، بما يمكن ان يملل خطأ دي خويه) . . ويبدو اذا اكتفيتا بالمعلومات العائدة الى المرفد ذاته وحده ، ان باستفا هي النهر المسمى في مكان آخر باعينانا : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٩٤ ، هرتمان ولونغريغ ، مشار اليه ، (يجعل خطأ باسانفا سقان : انظر مايلى عن هذا النهر) .

(١٢٠٢) المسمودي (م) ، فقرة ٢٣٩ ، (ت) ، ٨٠ ، حول جبل باسورين المسمى في هذا البحث ، انظر الفصل الأول ، ص ١ ، ح ٤ . هذا النهر والنهر السابق مصوران على اطلس التايمز ، ٣٧ ، ز / ٨ ، وينشآن على جانبي مدينة سرنك

(١٢٠٣) المسمودي (م) فقرة ٢٣٩ ، (ت) : ٨٠ - ٨١ ، يقرنه بدقة بالسابق ، بما يسمح فيما يبدو ، بتدقيق دوشا مثلما نقترح .

(١٢٠٤) تحيل المعلومات المعطاة عند المسمودي (ت) ، ٨١ ، والمقدسي : ٢٠ (ح د) (انظر أيضاً ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ٢٢٤) بوضوح كبير الى هذه المنطقة . حول جبل الشيطان ومنطقته ، الواردين عند المسمودي ، انظر الفصل الأول ، ص ١٧ ، ح ٢ ، وياقوت ، مشار اليه ، ج ٢ ، ٥١٨ ، و ج ٥ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ . قدم لي هارتمان ولونغريغ تحديد النهر مع وادي المر (وان كانا من ناحية اخرى ، يخلطان بين سقان وباسانفا) .

(١٢٠٥) المقدسي : ١٣٨ - ١٣٩ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٨٨ ، ١ .
هونغمان ، موصل « في م » ج ٣ ، ٦٥١ (نهر زبيدة قناة فيما يظن) ، ايليسيف نور
نور الدين ، مشار اليه ، ج ١ ، ١٠٤ .

(١٢٠٦) المسعودي (ت) : ٧٩ ، ابن حوقل : ٢٢٥ ، ٢٢٨

(١٢٠٧) من أجل نظرة شاملة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٤٠٩ - ٤١٠ ،
لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١١٥ ، وما يليها ، و . ر . هارتمان ، م ، ج ٢ ، ١٢٥ -
١٢٦ (اعيد في م) (٢) ، ج ٢ ، ٩٦٧ - ٩٦٨) .

(١٢٠٨) المسعودي (م) فقرة ٢٢٨ يخرج منها فيما يبدو ، ابن سيرايبون : ٣١ (ب)
يحدد التقاء الفراتين بمد رفد انجا صعدا : والعكس هو الصحيح .

(١٢٠٩) يخلط أحيانا بينها وبين سميساط ، ويصحح ياقوت الخطأ (لوسترانج الخلافة
الشرقية ، آخر ١١٦ - ١١٧) . حول هذه المدينة ، انظر فاسيليف وكانار ، بيزنطية
والعرب ، ج ٢ : السلاطة المقدونية ، مشار اليه سابقا ، ٤٦ (ح ١) وأماكن متفرقة .
(١٢١٠) حذار من الخلط بينه وبين الذيب رافد دجلة (انظر ما سبق) .

(١٢١١) حول شبكة ماء قباقيب - قراقيس - زرنوق - قناة ملطية ، انظر المعطيات
الدقيقة عند ابن سيرايبون : ٣٣ (آ) و ٤١ (ب) . ويذكر ابن سيرايبون ، ٣٣ (آ)
رافدا ثالثا هاما لقباقب ، هو الحوريث أو الجوريث (: الواقع انه رافد لجيخان
(انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٢٢) .

(١٢١٢) موقع هذا النهر غلط عند ابن سيرايبون ، ٣١ (ب) الذي يبدو انه يجعله أول
رافد للفرات من جهة المنبع .

(١٢١٣) انظر المسعودي (ت) : ٩٥ ، ابن الفقيه : آخر ٥٠ ، ١٠٦ ، ٢٥٥ ، ابن
حوقل : ١٨١ ، المقدسي : ١٤٧ ، لوسترانج : الخلافة الشرقية ، ١٢٣ - ١٢٤
(و ح ١) .

(١٢١٤) ابن الفقيه : ١٧٥ ، ياقوت ، ج ٤ ، ٤٩٧ ، ايليسيف ، نور الدين ، مشار
اليه (كيسوم أو كيسون) ، ج ١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، وخريطة ١ / د

(١٢١٥) لا بد من ربط نهر ديصان بحوض البليخ ، ويسميه ابن الفقيه : ١٧٥ ، وهو
نهر من الأنهار التي تشكل رافد الفرات هذا : انظر ايليسيف ، مشار اليه ، ١٥٣ -
١٤٤ .

(١٢١٦) انظر اليعقوبي : ٣٦٢ ، ابن حوقل : ٢١١ ، و ٢٢٢ (مع الأسف لمصائب الزمن) . حذار من الخلط بين هذا المخابور ومخابور دجلة ، الذي تحدثنا عنه من قبل . أما الثرثار الداخل في الشبكة المائية ذاتها ، انظر ما سبق . وقد اشرنا الى بلد منابع المخابور والمهرماس في الفصل ١ ، ١٩١ وفي هذا الفصل ، ص ١٢٥ آخرها - ١٢٦

(١٢١٧) يذكر ابن سيرايبون ، ٣٢ (ب) مجرى ماء يجلب الى الفرات ، بعد هيت صيبا (على ١٤٠ كم تقريبا الى غرب شمال غرب بغداد) عبر البادية الشامية العراقية ، مياه منطقة عين التمر (وهي على ١٣٠ كم تقريبا الى غرب كربلاء : انظر صالح ١ . علي ١م (٢) ، ج ١ ، ٨١٢) : والواقع لا يوجد هنا سوى الأودية ، التي استخدمت اسرتها بلا ريب أثناء شق الأتنية : انظر ر . هارتمان ، الفرات ، ١م (٢) ، ج ٢ ، ٩٦٨ ، عمود ٢

(١٢١٨) بالنسبة الى مجاري المياه التي سوف تبحث ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٤١ ، ابن سيرايبون : ٤٦ (ب) - ٤٧ (آ) ، ابن خردادبة : ١٧٤ ، ١٧٥ ، اليعقوبي : ٣٦٣ - ٣٦٤ ، ابن رسته : ٨٩ ، ابن الفقيه : ٢٩٣ - ٢٩٦ - ٢٩٧ ، المسعودي (م) ، فقرة ٥٠٦ ، (ت) ، ٩٣ - ٩٥ ، الاصلخري : ١١١ ، ابن حوقل : ٧ ، ١٣ ، ٢٢٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٨٨ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ (و ح يز) ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، حدود العالم : ٧٧ ، ١٤٤ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٦ - ١٨١ واماكن متفرقة .

(١٢١٩) لعله فوروتان أو اكيرا ، في الضفة اليسرى ، نظرا لموقع بلد الران ، من اسم الرافد (نهر اران) و المعلومات الواردة عند ابن خردادبة : ١٧٤ (كرره ابن رسته ، ٨٩ ، الذي يشير الى روافد أخرى بلا اسماء) .

(١٢٢٠) هذا التحديد الخاطئ للتبعية الأرمنية (انظر الحاشية ١١٨٩ ، تموضت الى الشرق ، حيث تعد جبال اذربيجان احيانا تابعة لارمنية : انظر حدود العالم بشأن منابع سفيد رود الذي ستحدث عنه فيما بعد .

(١٢٢١) حول بلد دربند ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢٦٢ - ٢٦٤ . يبدو ان سمور وسفيد رود نهر واحد : المسعودي (ت) : آخر ٩٤ - ٩٥ الذي يقول ان المصب يقع قرب دربند ، ويجعل الجسر (انظر بشأنه لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، آخر ١٨٠) قنطرة (وهو جسر سفن عند ابن حوقل والمقدسي) يشبه جسر سنجه .

(١٢٢٢) القرآن : ١٨ : ٥٩ / ٦٠ - ٦٠ / ٦١ ، ابن خرداذبة : ١٧٤ آخرها - ١٧٥ ، ابن الفقيه : ٢٨٧ ، المقدسي : ٤٦ (تقليد آخر يفضل الشام ، المرجع ذاته : ١٩) ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ١٧٩ .

(١٢٢٣) ما تقدم الفصل الأول ، ص ٥٤

(١٢٢٤) القرآن : ٢٥ : ٤٠ / ٣٨ ، ٥٠ : ١٢ ، ابن حوقل : ٣٤٥ ، المقدسي : ٣٨٠ . يقارن هذه المصطلحات بموضوع جحيمي ، منسوب بفراية الى الكر (ما تقدم ١١٩ وحاشية ٦٦١) ويتحدث اليعقوبي عن ٣٠٠ مدينة : ٣٦٤

(١٢٢٥) حول هذه المجاري المائية ، انظر ابن خرداذبة : ١٧٥ ، ابن سيرايبون : ٤٦ (ب) ، ليعقوبي : ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ابن رسته : ٨٩ - ٩٠ المسعودي (م) فقرة ٥٠٧ ، (ت) : ٩٣ ، الاصطخري : ١١١ ، ١٢٢ ، ابن حوقل : ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٧٨ آخرها - ٣٧٩ - ٣٨٢ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، حدود العالم : ٧٧ (و ٢١٨) .

(١٢٢٦) الفارسية سبيد

(١٢٢٧) حول هذا النهر ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢١٩

(١٢٢٨) قاله الاصطخري : ١١١ (ابن حوقل : ٣٤٥) صراحة بالنسبة الى سفيد - رود ، وهو اشهر الأنهار مع طيفوري ، وهذا الأخير يظهر وحده في العرض العام لانهار العالم الكبرى ، عند المقدسي : ١٩ ، لكنه لم يصنف في عداد فئة اعظم اثنى عشر نهرا صالحاً للملاحة .

(١٢٢٩) حول هذه التبدلات ، انظر الاصطخري : ١٢٢ ، وابن حوقل : آخر ٣٧٨ (والطبعة الأولى من م ج ع ، ج ٤ ، فهرس اللفظ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢١٥) ويعطي اليعقوبي اسم نهر موسى لنهر الري الكبير .

(١٢٣٠) المقدسي : ٢٣ : يخرج نهر الري من عين فوارة ، حرقيا فيض ماء .

(١٢٣١) حول شبكة مياه زغروس على سفحيه ، انظر ابن خرداذبة : آخر ٢٠ ، ١٧٦ ، اليعقوبي : ٢٧٤ ، ابن سيرايبون : ٤٧ (آ) ، ابن رسته : ٩١ ، قدامة : م ٦٥ ، الاصطخري : ٦٢ ، ٦٨ ، ابن حوقل : ٢٤٩ ، ٢٦٢ (خريطة) ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ - ٢٧٦ (لوحة مفصلة لمجاري المياه في فارس) ، ٣٦١ ، ٣٦٥ - ٣٦٦ ، ٣٧٠ ،

المقدس ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٤٢٥ ، ٤٤٤ - ٤٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٩٥ آخرها حدود العالم : ٧٤ (و ٢١٢ - ٢١٤) . . انظر مينورسكي ، « مند » في م ، ج ٣ ، ٢٥٢ - ٢٥٤ ، شوارز ، فارس ج ١ ، آخر ٤ - ٩ وأماكن متفرقة ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ - ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ - ٢٧٩ وأماكن متفرقة .

(١٢٣٢) صفة مرت ص ١٢٦

(١٢٣٣) انظر الملا حطة الالجمالية ، الخاصة بهذه المجاري المائية في فارس ، لمينورسكي ، في حدود العالم : ٢١٢ .

(١٢٣٤) حول كرممان ونهرها ، اللذين يمددان باتجاه الشرق شبكة المياه في زغروس دون ان تحسنه حقا ، انظر الاصطخري : ٩٨ - ٩٩ ، ابن حوقل : ٣١١ (والترجمة ، ص ٣٠٦ ، ح ٤٤٧ ، مع اسمي ديوى - روذ وهرى - روذ ، وحذار من خلط هذا الأخير مع نهر هرات) ، المقدسي : ٤٧٠ ، حدود العالم : ٧٣ - ٧٤ (الذي يقول ان النهر أو ما يتبقى منه يصب في البحر قرب هرمز : التباس مع حوض دزدان .

(١٢٣٥) حول مهران وروافده ، انظر الخوارزمي (ص : ١٣١ - ١٣٣ ، ابن سيرابيون : ٤٧ (آ) - ٤٨ (ب) ، قدامة : م ٦٦ - ٦٧ ، اليعقوبي : ٣٣٦ ، ابن الفقيه : ٦١ ، ٦٣ ، ابن رسته : ٨٩ ، ١٣٥ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٨٧ (ت) : ٨١ - ٨٣ ، الاصطخري : ١٠٤ - ١٠٥ ، ١٠٧ ، ابن حوقل : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ - ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٤٤٩ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ - ٢٣ ، ٢٠٦ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ - ٤٨٤ ، حدود العالم : ٧٢ (و ٢٠٩ - ٢١٠) ، وصيف شاه : ٤٣ - ٤٤

(١٢٣٦) عند ابن حوقل : ٤٤٩

(١٢٣٧) مع بيت الذهب ، وهو الاسم المعطى للملتان : المسعودي (م) ، فقرة ٢١٧ ، الاصطخري : ١٠٤ ، ابن حوقل : ٣٢٢

(١٢٣٨) يضاف الى هذه الشكوك ، ابن حوقل ، ٣٢٨ ، الذي يتحدث عن نهر الجندرور (مدينة قريبة من الملتان : المرجع ذاته ، ٣٢٢) الذي يصب في مهران « الى نواحي المنصورة » أي على مجرى النهر الأسفل حيث لا يوجد في الحقيقة أي رافد . وفي الأصل ،

يبدو ان سند - روذ ابن حوقل يقابل لا سند روذ حدود العالم ، بل بمجمل شبكة شنب ستلج المائية .

(١٢٣٩) حول اختلاف املاً اسم هلمند ، انظر ص ١٣٣ . حول هذه الأنهار وتفرعاتها ، انظر اليعقوبي : ٢٨١ (تصحيح ترجمة وايت ، ص ٩٠ : لا يشكل هلمند الحدود مع مكران ، بل سجستان . ولم يقل بأن هلمند لا يجتاز المفاوز . وهو يمر بها بلا شك ، لكن قبل ان يصل الى سجستان أو الى المنطقة المقصودة : أي سناروذ و زالق : وحول تحديد موقع زالق ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٣٥ ، ٣٤٤) ، ٢٨٩ (مع تحديد نهر يدخل في الشبكة المائية ذاتها ، وهو نهر قندهار ، الترفك : الترجمة ، ص ١٠٣ حاشية ه) ابن رسته : ١٧٤ ، ابن الفقيه : ٢٠٨ المسعودي (م) ، فقرة ٥١٠ - ٥١١ ، (ت) ، ٨٣ ، الاصطخري : ١٤٠ - ١٤١ ، ابن حوقل : ٤١٧ - ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٩ - ٣٣٠ ، حدود العالم : ٧٣ ، ولوسترانج ، مشار اليه ، ٣٣٨ وما يليها (الذي يذكر ، بحق ، ص ٣٤٠ آخرها - ٣٤١ ، نهرا آخر هاروذ ، رافد بحيرة زره ، ولم يشير اليه باقي الجغرافيين) .

(١٢٤٠) اوضحهم المقدسي : ٢٣ . انظر أيضاً ابن رسته : ١٧٣

(١٢٤١) اللغة الفارسية : ده (عشرة) واس (رحي) . حول شبكة المياه على السفح الشمالي للكتلة الأفغانية ، انظر الاصطخري : ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٥٦ ، وابن حوقل : ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ (و ح د) حدود العالم : ٧٣

(١٢٤٢) القندس (قديماً ختلاب) يظهر بشكل نهريين من حوضه الأعلى ، هما كاسان واندراپ . الاصطخري : ١٥٦ ، ابن حوقل : ٤٤٨) . الألتباس بين الشبكتين المائيتين ناشئ عن كون منطقة باميان التي تقع في حوض فندس (انظر و . بارتولد ف . ر . الشين ، ١م ، (٢) ، ج ١ ، ١٠٤٠) ، منسوبة عند بعض الجغرافيين الى حوض دهاس (انظر الاصطخري : ١٥٥ ، وابن حوقل : ٤٥٠ ، اللذين يقولان ان النهر يمر في باميان ويذهب الى غرجستان ، أي الى الغرب) . ويدرك بصورة أفضل الفصل بين هذه السفوح الشمالية وبين حوض جيحون الأعلى (انظر ما تقدم عن نهري كابول وبنجهير) حول هذه المناطق ، انظر اطلس التيمز ، ٣١

(١٢٤٣) حوله ، انظر اليعقوبي : ٢٨٩ ، ابن رسته : ١٧٣ ، الاصطخري : ١٤٨ - ١٤٩ (صعدا ، احالة الى منطقة باميان : انظر الحاشية السابقة : كرره ابن حوقل :

(٤٣٥) ، ابن حوقل : ٤٣٥ - ٤٤٦ ، آخر ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٦ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٣٠ - ٣٣١ ، حدود العالم : ٧٣ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٣٩٧ وما يليها ، الاصلطخري : ١٤٨ (ابن حوقل ٤٣٥) يقول ان اسم مرغاب ربما كان مشتقاً من مرو اب : ماء مرو

(١٢٤٤) انظر ما تقدم ، ص ١٤٠ - ١٤١

(١٢٤٥) حول مياه منطقة هرات - سرخس ، انظر ابن رسته : ١٧٣ ، الاصلطخري : ١٥٠ - ١٥١ ، ابن حوقل : ٤٣٨ - ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٢٩ - ٣٣٠ ، ٣٣١ (ح ي ب) حدود العالم : ٧٣ .

(١٢٤٦) انظر الاصلطخري : ١٥٤ ، ابن حوقل : ٤٤٥ ، المقدسي : ٣٣١ (ح ي ب) ، ٣٣٦

(١٢٤٧) انظر الاصلطخري : ١٤٦ ، ابن حوقل : ٤٣٣ ، المقدسي : ٣٢٩ (و ح ق) ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٨٤

(١٢٤٨) يقال لنا ان حجم الماء الاجمالي في هذه المنطقة ، حسب مرجع يذكره المقدسي ، يزيد عن حجم ماء دجلة ، مع شيء من المبالغة .

(١٢٤٩) انظر الاصلطخري : ١٥٤ - ١٥٥ ، ابن حوقل : ٤٤٦ - ٤٤٧

(١٢٥٠) انظر مثلاً ابحاث برتولد ، التركستان ، ٦٤ وما يليها ، ٨٢ وما يليها ، ١٤٤ وما يليها ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٨٥ وما يليها ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ وما يليها ، مينورسكي ، في حدود العالم : ٢٠٨ - ٢٠٩ (٦ - ١٢ ، ٢١٠ - ٢١١ (١٧ - ٢٣) ، سبولر « اموداريا » في ١٢ (٢) ، ج ١ ، ٤٦٧

(١٢٥١) حتى في نظر المتعاطفين الشيعة ، مثل ابن حوقل أو مقدسي : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، ٣٠٢ حاشية ١) ، ٣١٧ - ٣١٩

(١٢٥٢) في العنوان « نهر » في المفردات (م ج ع ، ج ٤ ، ١٣٧ - ١٤٣) ، احصيت . ٢٣٠ اسماً (يدخل بعضها في بلدان خارجة عن دار الاسلام) ، منها ٧٠ للبلدان التي تهمننا هنا .

(١٢٥٣) أحياناً أيضاً نهر بلخ ، رغم ان هذه المدينة لا تقع على النهر بالذات : انظر ما تقدم ، ص ١٣٣ (وحاشية ٤) و ٢١٩

(١٢٥٤) الفارسية : زرفشان : موزع ذهب ، بوليميتس في العصور القديمة : انظر
بسنيه ، مفردات ، مشار اليه ، ٦١٦ .

(١٢٥٥) حول النهر وروافده ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٤٦ ، ابن سيرايبون :
٤٤ (ب) - ٤٥ (آ) ، ابن خرداذبة : ٢٧ ، قدامة : ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ (و م
٦٩) ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٣ ، (مت) ، ٩٧ ، ٩٩ ، ٢٤٥ ، المقدسي : ج ٤ ،
٥٦ ، الاصلطخري : ١٨٥ - ١٨٧ (والحواشي) ، ابن حوقل : ٤٨١ ، ٥٠٧ ،
٥٠٩ ، ٥١١ - ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥٢٢ - ٥٢٤ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٢٣ ، ٣٣٢ ،
٣٤٢ ، حدود العالم : ٧٢ - ٧٣ و (٢١٠ - ٢١١) .

(١٢٥٦) يسمى ترك عند المسعودي (ت) وابن حوقل (الطبعة الأولى) . والاصلطخري .
(١٢٥٧) انظر الاصلطخري : ١٨٢ ، ابن حوقل : ٥٠١ - ٥٠٢ ، المقدسي : ٢٨٢ ،
ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٤٦٠ - ٤٦٩

(١٢٥٨) محورو الثياب ومبيوضوها

(١٢٥٩) حول هذا الاسم ، انظر ما تقدم ، ص ٢٢١ ، حاشية ٤ . حول زرفشان
وحوضه ، انظر اليعقوبي : ٢٩٣ (الذي يسمى النهر نامق ويجريه باتجاه معاكس) -
٢٩٤ ، الاصلطخري : ١٧٨ - ١٨١ ، ابن حوقل : ٤٧٣ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٩١ -
٤٩٣ ، ٤٩٥ - ٥٠١ ، ٥٠٤ - ٥٠٦ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ (وح و) ،
٢٧٨ - ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٣٣١ - ٣٣٢ (وح ز) ، حدود العالم : ٧٣ (و ٢١١) ،
ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨

(١٢٦٠) حول هذه الاشارات الى الصند ، انظر الفصل الأول ، ص ٥٥ - ٥٦ و ٨٨ -
٩١ ، حول الماء القدر ، الفصل الثاني ، ص ١٦٥

(١٢٦١) حول نهر دنية وروافده ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن
سيرايبون : ٤٤ (ب) - ٤٥ (آ) ، ابن خرداذبة : ٢٥ ، ٣٣ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ،
١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، قدامة : ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، م ٦٩ - ٧٠ ، اليعقوبي :
٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ - ٢٩٢ ، ابن رسته : ٩١ - ٩٣ ، ١٤٢ ، ١٩٣ ، ابن
الفقيه : ٦٣ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٧٤ ، ٣١٤ ، ٣٧١ ، ٣٢٤ ،
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، المقدسي ، ج ٤ ، ٥٦ المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
(ت) : ٥٢ ، ٥٦ ، ٩٥ - ٩٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، الاصلطخري : ١٦٦ - ١٦٧ ،

ابن حوقل : ٧ ، ٣٥ ، ١٦٩ ، ٣٢٨ ، ٤٢٦ ، ٤٤٨ - ٤٤٩ ، ٤٥١ - ٤٥٥ ،
٤٥٩ ، ٤٧٤ - ٤٨٢ ، آخر ٤٨٩ - ٤٩٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٥ -
٥٢٠ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٣ - ٦٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ -
٢٨٥ ، ٢٨٧ - ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٢٣ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
(ح ب) ، ٣٤٨ ، ٤٨٢ ، حدود العالم : ٧١ - ٧٢ (و ٢٠٨ - ٢٠٩) ، سبولر ،
١٢ (٢) ، ج ١ ، ٤٦٧ - ٤٧٠ ، بارتولد ، تركستان ، ٦٤ وما يليها ، لوسترانج ،
الخلافة الشرقية : ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ٤٣٣ وما يليها ، ٤٤٦ وما يليها .

(١٢٦٢) انظر ابن خرداذبة : ١٧٤ ، ابن الفقيه : ٣٢٤ ، المسودي (م) فقرة
٢٢٥ ، (ت) : ٢٤٩ وما تقدم ، ص ١١٨ ، آخر ١٢١ - ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦

(١٢٦٣) في الخريف في بيكين

(١٢٦٤) ذكرها المسودي (ت) : ٩٦

(١٢٦٥) ابن الفقيه : ٢٧٤ ، ٢١٤

(١٢٦٦) المقدسي : ٣٤٠

(١٢٦٧) فيها زامل أو رامذ عند ابن رسته : ٩٣ (ترجمة ، ص ١٠٣ ، ح ١٠) ،
مع ثلاثة روافد مسماة : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٤٣٦ ، ٤٤٠

(١٢٦٨) الوضع واضح بالنسبة الى دهاس أو نهر بلخ (نهر بلخ : حذار من الخلط بينه
وبين جيحون ، الذي يطلق عليه أحيانا هذا الاسم) : انظر ما تقدم ، ص ٢١٩ . بالنسبة
الى شبكة ختلاب (قندس) وروافده (اندراب ، كاسان ، ووتراب) ، نلاحظ ان ابن
رسته يتحدث عن رافد جيحون ، لكن لا يذكر ابن حوقل ختلاب ، ويشرح رافديه
اندراب وكاسان ، ويمدهما نهريين مستقلين ، لا علاقة ملحوظة لهما بجيحون : انظر ابن
رسته : ٩٣ ، ابن حوقل : ٤٤٨ ، لوسترانج ، مشار اليه ، آخر ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٣٦ ، اطلس التايمز : ٣١ ، ٨ / ٢ - ٣ ، وما تقدم ، مشار اليه و ص ٢١٩ حاشية

١

(١٢٦٩) اسم اخر محتمل لنهر جيحون عند المقدسي : نهر كالف (ت) : ٩٥ (انظر
ما تقدم ، ص ١٣٣) .

(١٢٧٠) تقابله فصة مناجم جميع هذه المنطقة الجبلية (ذكر ابن رسته ، ٩٣ ، هذه الصفة
العائدة الى نهر وخشاب) .

(١٢٧١) فذكر بأن صورة الجنة الأرضية مألوفة بالنسبة الى اراضي هذه المناطق (انظر للصغد ما تقدم ، الفصل الأول ، ص ٨٨) .

(١٢٧٢) مذكورة بالنسبة الى المصب في الحد الأدنى ، عند ابن حوقل : ٤٨٠

(١٢٧٣) حول هذه التفاصيل الأخيرة ، انظر ابن حوقل : ٤٧٨ - ٤٨١

(١٢٧٤) حول وضع النهر في التقاليد الفارسية ، انظر صيغة الهمداني ، ١٦٠ ، المذكورة ص ١٢٦ و ١٩١ .

* * *

حواشي الفصل الثالث

(١٢٧٥) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١٢٨ آخرها - ١٢٩ ، وابن حوقل (٢٦٥ توسيع الاصلخري ٦٨) : يستهل بحث « البحار » بـ « البحر الأعظم » ، المعروف ببحر فارس ، ثم ينتقل الى ذكر خمس بحيرات يسمي اربعا منها بحيرة والخامسة بحرا (بحر جنكان) .

(١٢٧٦) انظر مثلا بالنسبة الى بحيرة خوارزم ، حدود العالم : ٥٣ ، وبالنسبة الى بحر الخزر ، التسميتين بأن واحد (الخزري وطبرستان) في المقطع الواحد : المقدسي : ١٩ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ .

(١٢٧٧) انظر المقدسي : ٣٨١ (روح يج)

(١٢٧٨) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠

(١٢٧٩) لن نبحث في بحر ميوطيس ولا في بحر بنطس ، لأنهما لا يدخلان في دار الاسلام .

(١٢٨٠) يعرف الجغرافيون اتصال بحر الروم ببحر الظلمات ، واتصال بحر ميوطيس ببحر بنطس ، وبحر بنطس ببحر الروم . ثم انهم يفترضون أحيانا ان بحر بنطس متصل ببحر الظلمات (البحر المحيط من الجهة الأخرى . انظر د . م . دنلوب ، « بحر بنطس » ١٢ (٢) ج ١ ، ٩٥٥

(١٢٨١) ينطبق هذا الكلام على النيل أيضا ، الذي يسمى بحرا ونهرا

(١٢٨٢) وان يكن بشكل متغير جداً : انظر كامينا دالميدا ، جغرافية عالمية ، ج ٥ ، مشار اليه ، ٣٠٦ - ٣٠٧ و ١ . بلان ، الموسوعة العالمية ، ج ٣ ، ١٩٦٨ ، ص ١٠١٢

(١٢٨٣) بحيرة مالحة (مثال : « بحيرة طبرستان) وبحر عذب (مثال : « بحر » خلط) ، بحيرة واسعة (مثال : « بحيرة طبرستان) وبحر ضيق (مثال : « البحيرة »

الميتة أو على الدوام بحيرة غلاط) ، بحر مسلم فقط (البحيرة الميتة وبحيرة غلاط)
وبحر « مشترك » (مثال : بحيرة طبرستان أو بحيرة خوارزم) .

(١٢٨٤) ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١١٤ و ١٤٢

(١٢٨٥) المسمودي (م) ، فقرة ٣٠٠ - ٣٠٢ بالنسبة الى هذه الشروح والشروح
اللاحقة (اعدنا توزيع المعطي المتوفر اذا لزم الأمر ، لاسباب تتعلق بالتصنيف) :
تستوحي ترجمتنا من ترجمة ش . بيلا .

(١٢٨٦) قائم ، نقيض اصلا لاستحال ، لا يتغير .

(١٢٨٧) مأخوذ عن اليونانية : اسطقس .

(١٢٨٨) لا بد ، فيما يظهر ، من تصحيح الصورة منها الى منه في طبعه ش . بيلا

(١٢٨٩) سور ، وقد رأينا معناه الدقيق من قبل : الفصل ٢ ، ص ١٢٧ آخرها . ترجم
ش . بيلا : الهوة الواسعة في المحيط .

(١٢٩٠) أو من مجرى الماء : النهر .

(١٢٩١) لاول وهلة ، يميز المسمودي في نصه البالغ الصعوبة ، عمليين للحرارة : ففي
الحالة الثانية يبدو عمل الحرارة مفهوما بوضوح ، ويؤثر في الرطوبة الاولى المجتمعة .
أما في الحالة الاولى فيشار الى عمل الحرارة صراحة فقط لا حتراق الباقي من الماء واستحالته ،
ما يوحي بان جوهر الماء القائم (حاشية ١٢٨٦) لم يتأثر بذلك العمل . لكن يقال بأن الرطوبة
الاولى جففت اكثرها ، لذلك يجب التسليم بأن الحرارة اثرت فيها أيضاً .

(١٢٩٢) تؤدي فكرة هوة بلفظين : حفرة (ترجمة ش . بيلا : حوض) وهور (حرفيا :
مجمع ماء ، حول المعنى الدقيق ، انظر الفصل ٢ ، ص ١٢٧ آخرها و ٢٠٠ ، ترجمة
بيلا : هوة واسعة في المحيط) .

(١٢٩٣) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٦

(١٢٩٤) حول هذه المواضع ، انظر المسمودي (م) فقرة ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٧٤ ،
٢٩٣ ، ١٤٢٦ (الصعوبة هي انخفاض بحر الروم وارتفاع البحر الأحمر) ، المسمودي
(ت) : ١٠٠ ، ١٠٣ ، المقدسي : ج ٤ ، ٥١ ، اخوان الصفا ، ج ١ ، ١٦٣ - ١٦٤ ،
الاصطخري : ١٦ آخرها - ١٧ ، ابن حوقل : ١١٠ (اللفظ المستعمل « خليج » ،

ويعني الفرضة أو القناة ، اختار المعنى الثاني ، لأن المقارنة بالقناة المسحوبة من النهر ، وهي لوحة كلاسيكية وشهيرة أحيانا ، تبدو لي واضحة جدا وإن كانت كاسنة (مستترة) انظر بالنسبة الى مصر ، الفصل الثاني ، ص ١٨٧) ، المقدسي : ١٦ . ترد صورة الطوق مثلا عند ابن حوقل : ١٢ آخرها (الاصلخري : ١٧) ، يتحدث المقدسي عن حلقة ، ويعطي ابن سيرايبون ، ٩٣ ، لمحة جيدة عامة عن البحر المحيط الذي يمر وراء الشرق الأقصى وبلدان الترك ، ثم يعود الى بحر الروم . حول مجرى الأنهار نحو الجنوب ، انظر الفصل ٢ ، ص ١٢٣

(١٢٩٥) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٠ (مع احالة حاشية ٢) ، ٢٠ - ٢١

(١٢٩٦) حول المواضيع المثارة هنا ، انظر ابن خرداذبة : ٩٣ ، المسعودي (م) ، فقرة ١٩٣ ، ٢٧٣ ، وصيف شاه : ٣١ ، ويحدد موقع ضريح سليمان أحيانا في جزر اندامان (انظر عجائب الهند ، ٢٧٣ - ٢٧٤)

(١٢٩٧) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٩٤

(١٢٩٨) المقدسي : ١٦

(١٢٩٩) اعطي هنا اهم الاحالات الى الخرائط ، على ان اعود الى بعضها عند بحث بعض النقاط الخاصة : ابن خرداذبة : ٦١ ، ١٠٣ وما يليها ، ١٢٤ ، ١٥٤ ، ١٧٣ (و ح ز)
 قدامة : ٢٣٠ - ٢٣١ (م ٥٩ - ٦٢) ابن الفقيه : ٧ - ٨ ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٤٥ ، ٢٨٩ آخرها - ٢٩٠ ، ابن رسته : ٨٣ - ٨٩ ، المسعودي (م) فقرة : ١٩٢ ، ٢٤٣ - ٢٤٥ ، ٢٥٠ - ٢٥٨ ، ٢٧١ - ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ - ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ - ٣٦٣ ، ٣٧٩ ، ٤٠٤ - ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٣ ، ٧٣٩ ، ١١٠٧ ، ١٤٢٦ - ١٤٢٨ ، المسعودي (ت) : ٧٦ - ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٨ - ١٠٠ ، ١٩٢ - ١٩٥ ، اخوان الصفا ، ج ١ ، ١٦٣ - ١٦٤ ، وصيف شاه : ٣٥ وما يليها ، ابن حوقل (توسيع الاصلخري) : ١١ وما يليها ، ١٨ ، ٤٢ وما يليها ، ٤٩ ، ١٠٩ ، ١٦٥ ، ١٠٠ وما يليها ، ٢٠٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٣١ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ - ٣٨٣ ، ٣٨٦ وما يليها ، ٣٨٩ ، ٥٢٧ ، المقدسي : ١٠ وما يليها ، ١٤ - ١٩ ، ٤٦ ، ٦٢ - ٦٣ ، ١١٣ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٨ - ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ (و ح ط) ،

٤٢٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٤ ، حدود

العالم : ٥١ آخرها - ٥٣

(١٣٠٠) المقدسي : ١٦ - ١٩

(١٣٠١) القرآن : ٣١ : ٢٦ / ٢٧ ، ٢٥ : ٥٥ / ٥٣ (كرر في ٥٥ : ١٩ - ٢٠) .

(١٣٠٢) القرآن (٥٥ : ٢٠) يضيف بالفعل : والله جعل ذلك حاجزا على حسب ما اخبر في كتابه (الآية) انظر القرآن ٢٧ : ٥٢ / ٦١ ، والمسمودي (م) فقرة ١٤٢٦ بينهما برزخ لا يبغيان .

(١٣٠٣) يؤكد باستعمال لو

(١٣٠٤) أما البحر الوارد بالمفرد في القرآن ، فهو ثاني هذين البحرين كما قلنا ، أو حسب سياق الآية كل البحر الممكن تصوره انطلاقا منه ، والذي يدعى المؤمن الى ضربة بسبعة الممتدة رمز اللانهاية (نص الآية) ٣١ : ٢٦ / ٢٧ بكاملها : ولو ان ما في الأرض من شجرة اقلام ، والبحر يمد من بعده ابحر ، ما نفذت كلمة الله : فالدعوة الى التصور قوية لا سيما ان النص المربي فيه ايجاز بين لو ولما .

(١٣٠٥) ذكره المسمودي صراحة (م) فقرة ١٩٢ . يظهر الرقم ٥ عند ابن رسته ، مشار اليه ، وعند المقدسي : ١٦ (ذكر الجيهاني) و ٢٣٢ (و ح يه : تدخل بحر اذريس) .

(١٣٠٦) ابن الفقيه : ٧ - ٨

(١٣٠٧) سنعود فيما بعد ، بشكل آخر ، وبمزيد من الوضوح ، الى فكرة هذا الاتصال ، من جهة الشمال ، بين بحر الروم بحر بنطس بحر ميوطيس (تمثله رومة هنا) وبين البحر المحيط (تمثله تولية هنا) .

(١٣٠٨) المسمودي (م) ، فقرة ١٩٢ و ٢٩٢

(١٣٠٩) زايح تصحيح الزنج الوارد مرتين ، اقترحه : بالنسبة الى الزايح (جافاغا) ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٧٨ آخرها أماكن متفرقة .

(١٣١٠) المسمودي (م) ، فقرة ٢٠٣ - ٢٠٥ ، ابن الفقيه : ١٥٣ ، ١٦٠ ، ابن حوقل : ٥٢٧ .

(١٣١١) انظر ما تقدم في بحث البحر الذي يطوف بجزيرة العرب ، وأيضاً : ابن الفقيه .
٧٨ ، والمسمودي (م) فقرة ٢٥٦ - ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٢٨١ ، (ت) : ٧٦ ، ٨٤ ،
٩٠ ، المقدسي : ١٨ ، حدود العالم : ٥٢

(١٣١٢) واضح جداً عند المقدسي : ١٥

(١٣١٣) ابن الفقيه : البحر الغربي الدبوري (نسبة الى دبور : الريح الغربية) ، حول
سائر التسميات ، (ماعدا الروم وحدها) ، انظر ابن خرداذبة : ١٠٤ - ١٠٥ ، ١٥٤ ،
ابن رسته : ٨٦ ، ٨٨ ، قدامة : ٢٣١ ، م ٦٠ ، المسمودي (م) فقرة ١٩٢ ، ٢٥٨ ،
(ت) : ٨٤

(١٣١٤) المسمودي (م) فقرة ١٩٢

(١٣١٥) خليج (فرضة ، ذراع ، قناة) : ابن الفقيه : ٧ ، المسمودي (م) فقرة
٢٧٢ ، الاصطخري : ١٧ ، ابن حوقل : ١١ آخرها ، المقدسي : ١٤ (أقل وضوحاً) .

(١٥١٦) بما فيهم الجغرافيون الذين يضمون اليه سواحل الأندلس والمغرب الأطلسية :
انظر الاصطخري : ٥٠ ، ابن حوقل : ١٩٠

(١٣١٧) المقدسي : ١٤ ، الاصطخري : ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٧

(١٣١٨) الاصطخري ، مشار اليه ، ابن حوقل : ١١ آخرها - ١٢

(١٣١٩) المسمودي (م) فقرة ٢٨٤ ، ابن حوقل : ١٩٠ ، حدود العالم : ٥٣

(١٣٢٠) ابن الفقيه : ١٤٥ . يشار الى بحر الخزر عبر بلد الخزر ، « وراء دربند » ،
حول الجزر الخالدات (السعادة) ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢٠ - ٢١
وأماكن متفرقة . سنعود فيما بعد الى الجدل حول اتصال بحر بنطس وبحر الخزر .

(١٣٢١) انظر هذه الأبعاد ، مع الاحالات ، عند د . م . دنلوب ، « بحر الروم » ، م ١
(٢) ، ج ١ ، ٩٦٣ - ٩٦٤

(١٣٢٢) ابن حوقل : ١٩٠ - ١٩١ (توسيع الاصطخري : ٥٠) ، انظر أيضاً
المسمودي (م) ، فقرة ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(١٣٢٣) المسمودي (م) ، فقرة ٧٨٩ ، (ت) ، ٨٤ ، ابن حوقل : ١٩٠ ، المقدسي :
٢٣٥ ، ١٤

(١٣٢٤) المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٣ ، مع احتمال وجود موقع آخر : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٥٣٣

(١٣٢٥) قدامة : ٢٣١ ، م ٦٠ ، ابن رسته : ٨٥ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٦ ، المقدسي : ٢٣٢ (ح يه)

(١٣٢٦) المسعودي (م) ، فقرة ١٢٦ - . حول الموضوع القرآني لالتقاء (مجمع) البحرين ، الواقع في هذه الأرجاء ، انظر المقدسي : ١٩ (ترجمة ، ص ٥٣ ، ح ٧٩) و ١٥١ (حول موقع آخر ، انظر الفصل ٢ ، ص ٢١٥) .

(١٣٢٧) انظر المسعودي (م) فقرة ٢٧٩ : « ومنه ينفجر خليج القسطنطينية الذي يصب الى بحر الروم . حول المضائق ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٤١٢ - ٤١٣

(١٣٢٨) ابن خرداذبة : ١٠٣ ، قدامة : ٦٠ م ، ابن رسته : ٨٦ ، ٨٨ (البحر الارمني هو بحر بنطس فيما يبدو : قارن بلائحة البحار الخمسة الواردة في المرجع ذاته ، ص ٨٣ آخرها) ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٨ ، ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٤٥٨ ، المسعودي (ت) : ٩٨ ، ٩٩ . يجمع البحران أحيانا في اسم واحد : بحر البلغار والروس ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٩٤ ، ٤٦٢ ، المسعودي (ت) : ٩٨ . حول مجمل بحري ميوطيس وبنطس وانهارهما ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٣١١ - ٣١٢ وأماكن متفرقة .

(١٣٢٩) المسعودي (م) فقرة ٢٧٨

(١٣٣٠) المسعودي (م) ، فقرة ٢٩٥ - ٢٩٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، (ت) : ٩٩ ، ابن حوقل : ١٣ ، ٣٨٨ .

(١٣٣١) المسعودي (ت) : ٩٨

(١٣٣٢) المسعودي (م) ، فقرة ٤٠٤ - ٤٠٦ هذا هو موضوع « بحر الصقالبة » ، بشكل أدق ، بعد تدخل بحر ميوطيس : (انظر الحاشية ١٣٠٧) ، الاصلطخري : ١٨ ابن حوقل : ١٣ ، ١١٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، حدود العالم : ٥٤ ، انظر أيضاً جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٣١١ - ٣١٢ .

(١٣٣٣) نتحدثنا من قبل عن اطرافه الاولى ، حول بيزنطية ، انظر ابن حوقل : ٢٠١

(١٣٣٤) المسعودي (م) ، ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ابن حوقل : ٢٠٥ ، حدود العالم : ٥٣

(١٣٣٥) المقدسي : ١٥ . النص التالي ، مأخوذ من ابن حوقل : ٢٠٥ (ترجمة وإيت ، ص ١٩٠ - ٢٠٠ ، معدلة ، يصحح خاصة ، وإن كان المعنى لا يتبدل ، يعاف - احتنادا الى م ج ع ، ج ٤ ، ٣٠٢ - الى يعاف . لقد ترجمت معظم هذا النص ، بصيغة مختلفة قليلا ، في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٤٧٤) .

(١٣٣٦) ابن خردادبة : ٦١ ، قدامة : م ٦١ ، ابن الفقيه : ٧ ، المسعودي (م) ، فقرة ١٩٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٩٢ ، ٣٨٠ ، المسعودي (ت) ، ٧٦

(١٣٣٧) قارن ابن رسته : ٨٣ - ٨٤ و ٨٧

(١٣٣٨) ابن رسته : ٨ ، ٨٨ آخرها - ٨٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٦ ، ابن حوقل : ٤٢ ، ٢٩٥ ، ٢٧٦ ، المقدسي : ١٠ وما يليها .

(١٣٣٩) التسمية الأخيرة واردة عند ابن رسته : ٨٧

(١٣٤٠) هذه التسمية الأخيرة واردة عند الاصطخري : ٣٠ (ابن حوقل : ٤٦) .

(١٣٤١) التعبير « الخليج الفارسي » أقل استعمالا من التعبير الآخر الشائع : يرد عند قدامة : م ٦١ .

(١٣٤٢) يذكر هذا الاسم (ابن رسته : ٨٤) بلا ريب القرب من البحر المحيط ، البحر الأخضر .

(١٣٤٣) ابن حوقل : ٤٦ ، ٢٦٥ ، ٣١٦ .

(١٣٤٤) المسعودي (م) ، فقرة ٣٦١ و ٣٧٩ . حول هذه البلدان ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٧٨ - ٨٠ . أما بالنسبة الى أسماء بحار ثانوية ، مفصلة ، لكن في علاقتها بالبلدان الواقعة على شواطئها ، انظر النصوص المذكورة ص ٢٣٧ ، حاشية ٣

(١٣٤٥) ابن رسته : ٨٤ ، ابن حوقل : ١٨ ، ٤٢ ، المقدسي : ١١ ، ١٧٨ - ١٧٩

(١٣٤٦) اترجم طيلسان بهلال ، وهو معطف قصير يأخذ تقريبا هذا الشكل (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٩) . حول اشكال هذا البحر الصورية ، انظر المقدسي : ١٠

(١٣٤٧) الاصطخري : ٢٩ - ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٦ ، المقدسي : ١١ ، ٢٠٩ ، حدود العالم : ٥٤٨ (عنوان الجزر)

(١٣٤٨) الاصطخري : ٢٩ ، ابن حوقل : ٤٥ - ٤٦ ، المقدسي : ١٢

- (١٣٤٩) ابن رسته : ٨٧ ، المقدسي : ١٢ .
- (١٣٥٠) الاصطخري : ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٦ ، المقدسي : ١١ ، ١٢ ، ١٤ وجغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧٢ .
- (١٣٥١) المقدسي : ١١
- (١٣٥٢) انظر الفصل ٢ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، و ٢٠٧
- (١٣٥٣) المسعودي (م) ، فقرة ٢٥١
- (١٣٥٤) ابن حوقل : ٣٠٩
- (١٣٥٥) ابن حوقل : ٢٧٢ ، ذكر في الفصل ١ ، ص ٦٢
- (١٣٥٦) من اشهرها مصايد جزر خارك ، بفتح الراء أو كسرهما : الاصطخري : ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٧
- (١٣٥٧) الاصطخري : ٢٩ ، ابن حوقل : ٤٦ ، ٣٨٨
- (١٣٥٨) الاصطخري : آخر ٣٠ ، ٣١ ، ابن حوقل : ٤٨ ، ٤٩ ، المقدسي : ١٨ آخرها ، ٤٢٢ .
- (١٣٥٩) الاصطخري : ٣١ ، ابن حوقل : ٤٨ ، المقدسي : ١١
- (١٣٦٠) المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٩ ، ابن حوقل : ٤٧ ، المقدسي : ١٦ ، ١٨ (مع الاستشهاد بالقرآن : ٥٥ / ٢٢)
- (١٣٦١) الاصطخري : ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٧ ، انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٩ (أقل وضوحاً) .
- (١٣٦٢) ابن حوقل : ٢٩٠ - ٢٩١ ، المقدسي : ١٤
- (١٣٦٣) المقدسي : ١٩ ، لفظ بحيرة . انظر أيضاً المرجع ذاته : ٣٦٢ ، مع الاشارة الى امكانية الطواف حولها .
- (١٣٦٤) اليعقوبي : ٣٥٤ آخرها .
- (١٣٦٥) ابن خرداذبة : ١٢٤ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، اليعقوبي : ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٥٤ ، قدامة : م ٦٢ ، ابن رسته : ٨٣ ، ٨٦ ، ابن الفقيه : ٧ ، ٢٨٧ آخرها ، ٢٨٩ آخرها

(مع اسم كردبيل) ، المسعودي (م) ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٤٦٢ ، المسعودي ، (ت) :
٩٠ (الذي يذكر أسماء بلدان أو مدن أخرى على الشاطئ في حين يسمى البحر البحر
الجزري) ، الاضطخري : ١٢٨ ، ابن حوقل : ٣٨٦ ، المقدسي : ١٦ .
(١٣٦٦) المسعودي (ت) : ٩٠ ، ابن الفقيه : ٧ ، يسمى بحر الخزر البحر الخراساني
الجزري .

(١٣٦٧) هذا وضع قدامة : ٦٢م

(١٣٦٨) انظر ما تقدم الفصل ٢ ، ص ١٢١ آخرها - ١٢٢ والمسعودي (ت) : ٩٦
(١٣٦٩) يمتوحي الوصف التالي من ابن حوقل : ١٣ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٢٨٢ آخرها -
٣٨٣ ، ٣٨٨ - ٣٨٩ ، المقدسي : ٣٥٣ ، ٣٦١ آخرها - ٣٦٢ ، ٣٧٥ (ح يط) ،
حدود العالم : ٥٣ بالنسبة الى شواطئ بحر الخزر الشرقية ، انظر جغرافية دار الاسلام ،
ج ٢ ، ٢١٨ - ٢١٩ .

(١٣٧٠) حول التمت ملمعة ، ملمعة ، ملمعة ، (المقدسي : ٣٧٥ ، ح يط) ، انظر
م ج ع ، ج ٤ ، ٣٥٠

(١٣٧١) في جزيرة واقعة مقابل مصب النهر المؤلف من الرين والكر (حول الفتوة في
هذه المنطقة انظر الفصل ٢ ، ص ٢١٤ آخرها) .

(١٣٧٢) حول التنين في بحر الخزر ، انظر المسعودي (م) ، فقرة ٢٨١ . تحدثنا من
قبل عن التنين في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٤٨٩ ، ٥١٠ - ٥١١

(١٣٧٣) حول الأسمين الأخيرين ، انظر ابن خردادبة : ١٧٣ (ح ز : حول قرية
كردر ، انظر ابن حوقل : ٨٠) وابن حوقل : آخر ٤٥٩ ، بحيرة الجرجانية
(المسعودي (ت) ٩٦) تحيل الى سري قميش لا الى بحيرة خوارزم (اوال) : انظر
برتولد ، التركستان ، ١٤٦ ، والفصل ٢ ، ص ١٢٢ ، الحاشيتين ١ و ٥ لوصف
بحيرة خوارزم ، انظر ابن حوقل : ١٣ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، والمقدسي : ٢٢ ، وحدود
العالم : ٥٣ .

(١٣٧٤) استثناء : المقدسي : ١٧ (في لائحة البحار السبعة الواردة على لسان المعترض
المفروض الذي تحدثنا عنه) ، حدود العالم : ٥٣ (يتحدث عنها كأنها البحر السايح في
العالم)

(١٣٧٥) حدود العالم : ٥٤ - ٥٦

(١٣٧٦) لا تشكل البحيرات الصغيرة المشار إليها بصورة ادق (حدود العالم : ٥٥ ، رقم ٢٦ - ٢٧) استثناء في الحقيقة : لأنها تؤخذ مثالا عن المجامع الصغيرة ، ولا تسمى أصلا .

(١٣٧٧) حاجز ري بداهة . يمكن ان نفكر أيضاً في البحيرة التي ظهرت في وقت متأخر على الخريطة (لكن لانفهم جيداً من اين اتت ، وبأي سيرورة طبيعية ، هذه البحيرات الجديدة ، ولا لماذا استبعدت مع انها حسية مثل سائر البحيرات) ، أو في البحيرات الطارقة (الموقفة) ، التي تدوم قليلا جداً لكي يجوز الجزم بأنها وجدت منذ زمن بعيد . ويستطرد النص ويقول : . . . ولا قديمة ، وتجف أحيانا حتى لا يبقى فيها ماء ابداً . لكن حتى هذه الصفة ، كما قلنا ، لا تكفي لاستبعاد البحيرة المتقطعة من فئة البحيرات في النهاية ، لا أرى الا البحيرة الصناعية التي يتحقق فيها تعريف عدم القدم .

(١٣٧٨) انظر الفصل ٢ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، و ٢٠٢ آخرها - ٢٠٣ . لا يشكل اتساع اتساع البطيحة صفة مصنعة ، يقول كتاب الحدود بوجود مستنقعات صغيرة ، كما قلنا .

(١٣٧٩) انظر ما تقدم ، ص ٢٤٤ بحث بحيرة خوارزم

(١٣٨٠) مع بعض الشكوك في التصنيف : اذا حسبت بحيرة خوارزم بين البحار ، فبحر ميوطيس تابع للبحيرات : الحدود : ٥٣ آخرها - ٥٤

(١٣٨١) باستثناء بحيرة (أو بركة) على أحد المسالك (المقدسي : ١١٠ ، ١١٢) ، والمستنقع الذي يصب فيه نهر رزين روذ (ابن حوقل : ٣٦٦) ، انظر الفصل ٢ ، ص ٢١٦

(١٣٨٢) المقدسي : ٢٢٦ ، ابن حوقل : ٨١ . حول تشكيل اريج ، بتسكين الراء (وليس اريج ، انظر ليفي بروفنسال ، تاريخ الأندلس الاسلامية ، مشار اليه ، ج ٣ ، ٢٧٢) ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ٣٥١ (أصلا مستوحى من ابن حوقل . حول مدينة البصرة (ينبغي الا يخلط بينها وبين البصرة العراقية) ، انظر ج . ايفر ، ١٢ (٢) ، ج ١ ، ١١٢٠ .

(١٣٨٣) ما تقدم فصل ٢ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ و ١٨٨

(١٣٨٤) الا اصطخري : ١٠٧ (ابن حوقل : ٣٢٨) ، المقدسي : ٤٨٤) ، مع احالة الى نموذج البطيحة العراقية :

- (١٣٨٥) انظر الفصل الثاني ، ص ٢٠٣ آخرها - ٢٠٤ والحاشية السابقة .
- (١٣٨٦) انظر ابن حوقل : ٢١٠ - ٢١١ ، الذي يجعل مساحة البحيرة جريبا ، حريا : « المساحة التي يذر فيه جريب (يختلف جدا فعلا حسب الأماكن والمصور : انظر المقال المحشي في م (٢) ، ج ١ ، ١٠٤١) . بحيرة واحدة أيضاً (تستعمل كملاحة أيضاً) لمضبة فارس : ابن الفقيه : ٣٤٥ - ٢٤٦ .
- (١٣٨٧) ابن حوقل : ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، حدود العالم : ٥٥
- (١٣٨٨) المقدسي : ٣٢٣ ، حدود العالم : ٥٦ و (١٨٥)
- (١٣٨٩) ليس لباقي بحيرات وادي الأردن أو مستنقعات الشيرة ذاتها ، وتظل شديدة الارتباط بنهر الأردن اللذين يشكلانها .
- (١٣٩٠) ابن حوقل : ٧ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، المقدسي : ٣٢٢ آخرها - ٣٢٣ - ٣٢٩ ، حدود العالم : ٥٥
- (١٣٩١) ويتبدل تبدا هائلا حسب ما يجلبونه له من مياه ، ويتقلص من جراء حاجات الري فيضعف ، أو على التقيض ، يزيد بالفيضانات . وهذه الأنهار هي هلمند (ورافده ، خردروي أو ارجنداب) خوش (نهر نيشاك) ونهر فار : ابن حوقل : ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، المقدسي : ٣٠٤ ، ٣٢٩ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٣٤٢ ، ٣٤٥ . ولا يذكر الجغرافيون نهر الحارود : انظر المرجع ذاته ، ٣٤٠ آخرها - ٣٤١ والفصل الثاني ، ٢١٨ .
- (١٣٩٢) التي تجعله يشبه المستنقعات ، حسب تصنيف النماذج المشار اليه من قبل (يقول ابن حوقل ان السمك فيه كثير : اذن ليس فقط على الشواطئ بالضرورة) ، يشير المقدسي ، ٣٢٩ ، بهذه المناسبة الى البطيخة المراقبة .
- (١٣٩٣) ابن حوقل : ٣٠ فرسخا طولها (حوالي ١٧٣ كم) وسفر يوم عرضها . ويرد المرض نفسه عند المقدسي والطول يزيد عن ٢٠ فرسخا (حوالي ١١٥ كم) ، حدود العالم : ٣٠ فرسخا طولها ، و ٧ عرضا (٤٠ كم تقريبا) .
- (١٣٩٤) المقدسي : ٣٢٩ (ح يج) يسميها بحيرة السنط (يقصد السنط)
- (١٣٩٥) الاصلطخري : ١١١ - ١١٢ ، ابن حوقل : ٧ ، ٣٤٦ ، المقدسي : ٣٨٠ (ارجيح) .

(١٣٩٦) تقدير ضعيف : تزيد المسافة على ١٢٠ كم في اعظم عرض لها ، من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي . ينطبق تقدير ابن حوقل في الواقع على عرض البحيرة في وسطها .

(١٣٩٧) انظر م (ت) : ١٠٩ ، الاصطخري : ١١١ ، ابن حوقل : ٧ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ ، المقدسي : ٣٨٠ - ٣٨١ ، حدود العالم : ٥٤ . توحى تسمية الشراة بوضوح ان الاسلام لم يقف على المعتقدات والأديان التي سبقتها . حول هذه التسمية وتسميتها تلا (تله) وشاها (شاهو، شاهي) ، التين لم تردا في طبعة كرامرز، اذا لم الك مخطئا، انظر الاصطخري (م ج ع ، ج ١ ، ١٨٧٠) ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ابن حوقل (م ج ع ، ج ٢ ، ١٨٧٣) ، (١٨٧٣) ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤ (ح ي ج) ، مينورسكي ، حدود العالم : ١٩٣ ، ولو سترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٦٠ - ١٦١ (اللفظ الفارسي « شور » أي « مالح » ، الذي يعطي أحيانا اسمه للبحيرة ، لكن خارج عصرنا ، وارد في كتاب الحدود، مشار اليه ، بشكل ثوري) حدود العالم : ٦٠ (انظر أيضاً المرجع ذاته ، ١٤٣ : ارمافنة أو ارمية) يتحدث عن بحر ارمني (من أجل معنى آخر لهذا التعبير ، انظر حاشية ١٣٢٨) .

(١٣٩٨) ذكر من قبل ، الفصل ١ ، ص ٦٠ آخرها (المقدسي : ٣٨١ ، انظر أيضاً ابن حوقل : ٣٤٦)

(١٣٩٩) الاصطخري : ١١١ ، يؤكد وحده وجود السمك .

(١٤٠٠) الاصطخري : ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن حوقل : ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ (مثالان) ، حدود العالم : ٥٥ (رقم ٢٧) الذي يشير، اضافة الى بحيرات هذه المنطقة ، الى بحيرات جبال طوس ، في خراسان (حول الواقع ، انظر المرجع ذاته ، ١٨٥ . عل النقيض ، يبدو أن منطقة أخرى من خراسان ، تدعى جوزاجان ، تقع بين مرو وبلخ (المرجع ذاته ، ٥٥ ، رقم ٢٦ لا تحوي الا بحيرة واحدة .

(١٤٠١) المعلومات الاساسية متوفرة عند الاصطخري : ٦٨ ، ٧٥ - ٧٦ ، ٧٩ ، ويكررها ابن حوقل : ٢٦٥ ، ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، المقدسي : آخر ٢٣ ، ٤٢٤ (ح آ) ، ٤٤٦ ، حدود العالم : ٥٤ - ٥٥ ، بالنسبة الى تحديد الموقع ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ ، وشولرز ، فارس ، ج ١ ، ٩ - ١١

(١٤٠٢) تذكر بحيرتان أيضاً ، الا انها لا تدرجان في العرض الاجمالي لبحيرات الولاية ، هما بحيرة درخيد (درخيد ، انظر الاصطخري : ٧٤ ، ابن حوقل : ٢٧٥)

لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٦٥) ثم بحيرة غور ، وهي بركة على الأصح : انظر الاصلطخري : ٧٦، ٧٤، ابن حوقل : ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، شوارز ، فارس ، ج ٢ ، ٥٨ (١٤٠٣) تتراوح الأطوال المطاة بين ٨ و ١٢ فرسخا (٤٦ و ٦٩ كم تقريبا) ، ماعدا بختكان : حوالي ٢٠ فرسخا (حوالي ١١٥ كم) .

(١٤٠٤) حذار من الخلط بينه وبين كر التخوم الجنوبية في جبل القبق . يعكس كتاب حدود العالم المنظور ، فيجمل البحيرة خطأ أصل النهر الذي يصب في البحر .

(١٤٠٥) يشير أحد اسماء بحيرة اورمية (أو خلاط) ، كيوذان ، الى اللون اللازوردي (اللغة الأرمينية : غايويد ، اللغة الفارسية : كابود) : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ١٦٠ ، ديميزون ، معجم ، ج ٣ ، ٣١٠ ، مينورسكي ، حدود العالم : ١٩٢ آخرها - ١٩٣ ، الا ان الجغرافيين لا يذكرون هذه الصفة بما فيهم مصنف الحدود الفارسي .

(١٤٠٦) انظر بالنسبة الى بحيرة الفيوم ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١٨٦ ، وبالنسبة الى البحيرات الشاطئية في السند ، الخاصة بالزط : الاصلطخري : ١٠٧ (ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٤٨٤) .

(١٤٠٧) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٧ و ٩٩ (سفالة) .

(١٤٠٨) ابن حوقل : ٤٥ آخرها (الاصلطخري : ٢٩)

(١٤٠٩) عجائب الهند : ٢١٣

(١٤١٠) عجائب الهند : ٢٠١ . يكثر على تعبير « عالم آخر » الذي يختتم به المقطع الذي سنستشهد به في الف ليلة وليلة (قصة عبد الله البري وعبد الله البحري) .

(١٤١١) عجائب الهند : ٢١٨

(١٤١٢) أخبار الصين والهند ، فقرة ٣ ، الجاحظ (ح) ، ج ٥ ، ٣٢١ (الصيغة المشار اليها موجودة أيضاً في ح ٣ ، ٢٦٥ ، ج ٤ ، ١٧١) . يستبعد التفكير بتأثير أحد العاملين في الآخر ، ويقضي المنطق بالظن انهما يعتمدان على القصص البحارة الذين يلتقي المصنفان بهما في البصرة .

(١٤١٣) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٢ ، ٧٨٨ - ٧٩٠ ، المسعودي (ت) ،

- ٧٣ ، ما تقدم فصل ٢ ، ص ١٨٨ ، وبالنسبة الى مجاز هيراقليس (جبل طارق) ،
الفصل الثالث ، ص ٢٣٨ آخرها - ٢٣٩
- (١٤١٤) اليقوي : ٣٠٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٩ - ٢٣٤ : وما تقدم فصل ٢ ،
ص ١٢١
- (١٤١٥) المسعودي (م) ، فقرة ٣١٣ ، المسعودي (ت) : ٨٤ ، ١٠٣ . استوحينا
في ترجمتنا من ش . بيلا على نطاق واسع .
- (١٤١٦) ارسطاطاليس ميتيور ولوجيكا ، ج ١ ، ١٤ (حاشية المترجم) .
- (١٤١٧) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٠ ، وما تقدم فصل ١ ، ص ١٠٤ ،
وفصل ٢ ، ص ١٢٠
- (١٤١٨) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٨ ، وفصل ٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ و ١٩٣
- (١٤١٩) صورة الجبال والأودية واردة عند المقدسي ، ١٢ ، وخاصة المسعودي (م)
فقرة ٢٤٥ (مذكورة ومترجمة حزئياً في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٦٩) .
انظر ايضاً بالنسبة الى الصفات المذكورة هنا أخبار الصين والهند ، فقرة ١٠ ، وعجائب
الهند : ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨ (مذكورة من قبل ، ص ٢٥١ آخرها) وأماكن متفرقة .
- (١٤٢٠) انظر امثال المذكور من قبل ، ص ٢٥١ آخرها ، عجائب الهند : ٢٠١ ،
٢٤٨ وأماكن متفرقة ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٦٨ (« يتحرك البحر بتحريك الرياح »)
- (١٤٢١) أخبار الصين والهند ، فقرة ١٠ ، عوضاً عن ارسفة ، حرفيا جبال . انظر
أيضاً ابن رسته : ٨٩ .
- (١٤٢٢) المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٧ . انظر أيضاً ابن حوقل : ١٢ (ربح واحدة
في بحر الروم)
- (١٤٢٣) ابن حوقل : ٣٨٩ ، المقدسي : ١١ - ١٢ . انظر أيضاً الفصل الأول ، ص ٣٣ ،
والفصل الثالث ص ٢٤١ - ٢٤٢ .
- (١٤٢٤) أخبار الصين والهند ، فقرة ١٠ ، كررها ولخصها المسعودي (م) ، فقرة
٣٧٣ ، الذي يضيف مع ذلك ثلاث صفات : السحاب الأبيض ، قطع صغار ، ومطر
سهك فيه أنواع من قذى البحر .

(١٤٢٥) / ابن رسته . ٨٦ - ٨٧ و ٨٨ آخرها . (ومنه أخذ النص المترجم هنا وهو الأكمل) . ابن الفقيه : ٨ ، المسعودي (م) ، ، فقرة ٣٥٧ - ٣٥٨ . المسعودي وحده يعود صراحة الى معشر أما ابن رسته وابن الفقيه فقد سبقا المسعودي ، وصنفا كتابيهما في الفترة ذاتها تقريبا . بالتالي . يصبح احتمال نقل احدهما عن الآخر ضعيفا ، والأفضل التفكير بأنهما اطلعا مباشرة على كتاب هذا الفلكي . ويشير اليقوي ، ٣٦٧ ، الى شدة اضطراب البحر في الشتاء دون تسميته .

(١٤٢٦) انظر التعبير « حسب الفترة التي تبدأ بها »

(١٤٢٧) المسعودي (م) ، فقرة ١٣٢٩ - ١٣٣٠ ، المسعودي (ت) ، ٢٠ - ٢١ ، ذكر في جغرافية دار الاسلام ج ٢ ، ص ١٤ - ١٥

(١٤٢٨) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٨ : « ودوام الأمطار في كانون و كانون وشباط » .

(١٤٢٩) انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ٣٨ - ٣٩ روماني ، المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٨ فيه تفصيل أفضل : ولا يقطع من عمان الى الهند في حزيران ، الا مركب معزز ، وحمولته خفيفة .

(١٤٣٠) يتحدث النص عن « الظلمة » كما رأينا ، ترجعها ت . بيلا ، المسعودي (م) فقرة ٣٥٨ ، (ضباب داكن) .

(١٤٣١) يتضمن التفريق المبين (« على الأقل في الجزء الشمالي من هذا البحر ») ان الاضطراب يخف عند الاتجاه الى الجنوب .

(١٤٣٢) المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٨

(١٤٣٣) يتساءل المرء ، عند مطالعته المسعودي اذا كانت الهند وبحرها مفروطين في نصف الكرة الجنوبي (انظر بهذا الشأن المسعودي (م) ، فقرة ٢٦٢ ، ترجمة ح ٢) لكن لا شيء يسمح بالفصل في هذا الموضوع ، ويناقض توزيع الأقاليم (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٥٨ ، شكل ١٤ - آ) هذه الفرضية (انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة ١٨٨) . مع ذلك لا يهمننا سبب ظاهرة تماكس الفصول هنا ، بل الظاهرة بحد ذاتها .

(١٤٣٤) المسعودي (م) ، فقرة ٣٨٠ ، ابن الفقيه : ١٣ ، وصيف شاه : ٦٠

(١٤٣٥) ورد حرفيا « وغيره من البحر الحبشي » .

- (١٤٣٦) المسعودي (م) ، فقرة ٣٧٩ ، ابن الفقيه : ١٣ ، وصيف شاه : ٦٠
- (١٤٣٧) ابن الفقيه : آخر ٩ - ١٠ . برستوج : لا شك انه من الفارسية : بيرستوك : خطاف .
- (١٤٣٨) انظر الحاشية ١٣٧٢ . استوحينا معطياتنا من المسعودي (م) ، فقرة ٢٨١ - ٢٨٢ و ٢٨٥ - ٢٨٨ ابن الفقيه : ٣٠٠ - ٣٠١ ، عجائب الهند : ٢١٥ - ٢١٦ . لا نهتم هنا بالتنين ، الا من ناحية علاقته بالعاصفة . سوف نعود اليه فيما بعد ، في النبات .
- (١٤٣٩) يكرر لفظ زوبمة بالذات في نص أخبار الصين والهند المشار اليه من قبل وفي المسعودي (م) : فقرة ٢٨٥
- (١٤٤٠) اسمه الفارسي ، على حد قول المسعودي (م) ، فقرة ٢٨٨ ، احدها ، وهو تصحيف اجدر هاك
- (١٤٤١) حول هذه الزوابع ، انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ١٣ ، ابن خرداذبة : ٦٠ ، ابن الفقيه : ١١ ، ٢٩٠ (بحر الخزر) ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٤ ، ٢٧٠ ، ابن حوقل : ٤٦ - ٤٧ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ ، وما تقدم ، الفصل ٢ ، ص ٢٠٤ آخرها - ٢٠٥ و ٢٠٧ .
- (١٤٤٢) ترجمة تخمينية . بقول المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٤ ، ان البحرين يكونان درودور مستند بابي حمير ؟؟؟ بالفعل حمير اسم رجل (انظر اللسان لفظ حمير) . لكن لا بد ان يعطى هذا الاسم معنى في النص المذكور . ويتحدث ش . بيلا بهذه المناسبة عن « لقب » ، ولا يشرح قصده . يفكر طبعا بالحمار ، الذي يشبه ظهر الأرسفة ظهره لكن لا بد في هذه الحالة ، اذا فكرنا بالتصغير ، ان نشكل اللفظ حمير . خطر لي أن ارى في حمير ، الذي احتفظ به لا استعماله كعلم ، في النصف الثاني من الكنية ، تصغير اسم الفاعل حامر (حمير عوضا عن حويمر ، على غرار حريث تصغير حارث ، مع اهمال الحرف الصوتي : انظر ه . فليش ، كتاب الفقه العربي (الصرف) ، بيروت ، ج ١ ، ١٩٦١ ، ص ٣٨٩) من فعل حمير : قشر .
- (١٤٤٣) كسير وعمير : ترجمة سوفاجية ، في أخبار الصين والهند ، ذكر من قبل . وكسير وعوير لغة عامية اصلا ، بمعنى حالة سيئة (انظر لسان العرب ، لفظ « عور »
- (١٤٤٤) حرفيا كسير وعمير والثالث ليس فيه خير

(١٤٤٥) المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (ترجمة ، حاشية ه) ، ٧٣٩ ،

المسعودي (ت) : ٨٤ ، ٩٩

(١٤٤٦) ابن حوقل : ٤٦ (الاصطخري ٣٠) ، ادق من المقدسي في هذه النقطة ، ويمارض اضطراب البحر وضعف الهواء . مع ذلك يلاحظ ان المقصود هنا الأمواج ، لا التيار بالمعنى الدقيق : يمكن في جميع الأحوال ، ان يظن انه يشرح الحركة السطحية في الأعماق ، وفي التاريخ الماضي ، انسكاب المياه على فرعون .

(١٤٤٧) انظر ما تقدم ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥

(١٤٤٨) انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ١٧ ، الكندي : ج ٢ ، ١٠٩ - ١٣٣ ، عجائب الهند : ٢٦٦ - ٢٦٧ ، الجاحظ (١) : ٢٠١ ، ابن خردادبة : ٧٠ ، ابن الفقيه : ٩ ، ١٣ ، ابن رسته : ٨٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٩ - ٢٦٩ ، المسعودي (ت) : آخر ١٢ - ١٣ ، ١٢٤ - ١٢٥ ، ٤١٢ ، حدود العالم : ٥٣

(١٤٤٩) انظر سوفاحيه ، أخبار الصين والهند ، فقرة ٤٦ (ح ١ من فقرة ١٧) ، تدقق بهذا المعنى ترجمة وايت (ص ٤٤) لابن حوقل ، ٤٧ ، لتصحيح : « يحدث كل من المد والجزر مرتين كل ٢٤ ساعة » .

(١٤٥٠) المقدسي : ١٢ آخرها : حرفيا : « ولهذا البحر الصيني زيادات في وسط الشهر اطرافه » يتفق هذا الكلام جيدا مع معطيات ر . جبرات « المد والجزر » في الموسوعة العالمية ، ح ١٠ ، ١٩٦٨ ، ص ٤٤٩ والشكل (المنحني السفلي) ، حيث تقع اشد الساعات فعلا حوالي اليوم الخامس واليوم العشرين من كل شهر . ويشير أيضاً الى المد والجزر اليومي .

(١٤٥١) يشير ابن خردادبة أيضاً مثل المقدسي الى المد والجزر اليوميين (اشارة الى القمر) .

(١٤٥٢) يعين الحد عند جزيرة ابركافان ، على سواحل فارس : انظر أخبار الصين والهند ، ذكر من قبل ، فقرة ٤٢ (حاشية ه من فقرة ١٣) .

(١٤٥٣) انظر سوفاحيه ، أخبار الصين والهند ، ٤٦ (حاشية ٢ ، فقرة ١٧) .

(١٤٥٤) يبدو ان المسعودي يرى الأمور بدقة زائدة . مثلما يتضح من مروج الذهب ، فقرة ٢٦١ آخرها حيث يعتبر « المد والجزر » الشهرين مدا وجزراً شديدي السعة) ، وهذه الصيغة في كتاب التنبيه : ١٠٣ : « والكلام في كيفية المد والجزر السنوي والقمرى الذي هو الشهري » .

(١٤٥٥) أخذت هذه الصفة من أبي الحيان التوحيدي : المقاييسات ، نشرها ح . السندوبى ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م ، ص ٢٣٢ (حسب الذهنية المبيتة في جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، ص ١٣ روماني) .

اعتبرت هذه النظرية اصلا استثنائية وعلى هامش الأفكار المقبولة على العموم .

(١٤٥٦) ابتداء من هنا ، أخذنا معطياتنا من المسعودي (م) و (ت) ، مشار اليهما ، اللذين ينهجان التأمل العام في المد والجزر ويتوسعان فيهما .

(١٤٥٧) لعل ذلك عائد الى أثر النار الجوفية ، الا ان المسعودي لا يبينه .

(١٤٥٨) تشبيه بالبحيرات ، المسعودي (م) فقرة ٢٦٠

(١٤٥٩) قارن بكتابات الحدود : ٥٣ : يرتبط مد الماء بالأنهار وحدها في البحار غير البحار الشرقية .

(١٤٦٠) ربما اضطررنا الى مقارنة هذا الفرض الأخير بما قيل عن الرياح الهابة على مجاميع المياه المغلقة ، التي يظن انها تتكاثف . فاذا اخترنا ان نستنتج انها تصبح اقوى لأنها تكاثفت وتركزت ، وقعنا في الحالة المشار اليها هنا ، أي حالة الرياح القوية جداً التي تعيق المد والجزر ، الا ان هذه الصفة لا تتفق مع انعدام الحركة العامة في مشهد المجاميع المائية المغلقة (الا اذا افترضنا ان المياه الثقيلة تقاوم الرياح) هذا مع أخذ تأثير الرياح في المياه ، المشار اليه في جميع الأماكن . واذا قبلنا مثلما فعلت ، تغليل الرياح الهادئة ، وجب عندئذ ان نسلم ، كنتيجة للفرض المعروض ، بضرورة وجود الرياح لاحداث المد والجزر أو لتسهيلهما .

(١٤٦١) مثلما يفعل المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٩

(١٤٦٢) آية ، اعجوبة : ابن الفقيه : ١٩٢ ، المقدسي : ١٢٤ آخرها - ١٢٥ (وح د : وله اعلم) . احالة الى السر المطلق ، بلا تفسير ، في المسعودي (م) ، فقرة ٢٦٥ ، (ت) ، ١٠٤

(١٤٦٣) المقدسي ، ج ٢ ، ١٦٢ . مباشرة قبل المقطع الخاص بدور الملك في المد والجزر .

(١٤٦٤) ابن الفقيه : ٩ ، المقدسي : ١٣ . فضلت عوضاً عن لفظ السمع ، الترجمة الحرفية بـ منخريه . حول السبك ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٥ . حول الخضر ، انظر ا . ج . ونسلك ، ١م ، ج ٢ ، ٩١٢ - ٩١٦ ، لفظ الخضر (كرر في ١م (٢) ، ج ٤ ، ٩٣٥ - ٩٣٨

(١٤٦٥) مجاز الزجاج ترجمة جان كاسون، باريس، الناشر البلياد، ١٩٥٦، ص ١٢٧١ .

(١٤٦٦) انظر مع الاحالات ، جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، ١١٩ و ج ٢ ، آخر ٧٦

(١٤٦٧) باجازه ، ٥ ، ١٧١٩ . انظر من الجغرافيين : اليعقوبي : ٣٥٠ ، ابن رسته : ١١٨ ، اسحاق : ٤٤٧

(١٤٦٨) هذا الكتاب مستوحى من البحريين ، خلافا لآخبار الصين والهند ، التي تمكس أخبار التجار : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، مشار اليه .

(١٤٦٩) يفصل ابن حوقل فيهما الاضطخري تفصيلا واسعا . أما المقدسي ، فيعطي أخبار البحريين في فصله العام عن البحار والأنهار . يمكن ابداء ملاحظات مماثلة عن المصنفين الثلاثة .

(١٤٧٠) عند ابن حوقل : ٤٧ - ٤٨ ، الصيغ التالية مستعملة : « وابتدى بالقلزم وساحله . . » و « يطوف بحدود ديار العرب التي ذكرتها واثبتها من هنا الى عبادان والبحرين »

(١٤٧١) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ٢٠٧

(١٤٧٢) ابن حوقل : ٤٩

(١٤٧٣) ابن حوقل : ٤٨ - ٥٠

(١٤٧٤) ابن سيرايمون : ١٣٠ - ١٣١ ، المسعودي (م) فقرة ٣٧٩ ، ٨٩٨ - ٨٩٩ المقدسي : ٤٧٤ ، وصيف شاه : ٣٩ ، انظر أيضاً ، لكن بالنسبة الى بحر عدن ، الصعاب التي يذكرها المسعودي (م) ، فقرة ٢٤٥

(١٤٧٥) المقدسي : ١٤

(١٤٧٦) المسعودي (ت) ، ٧٦

(١٤٧٧) حرفيا معمور

(١٤٧٨) جاحظ (١) : ٢٠٢

(١٤٧٩) المقدسي : ١٥

(١٤٨٠) المقدسي : ١٥ - ١٦

(١٤٨١) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ١ ، ١٢٠ - ١٢١ و ج ٢ ، ٧٧

(١٤٨٢) ذكر في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٧٨

(١٤٨٣) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٨ - ٣٤٩ ، ٤٨٥ - ٤٩٠ ، ٤٩٥ - ٤٩٧ وأماكن متفرقة .

(١٤٨٤) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٣٧٧ - ٣٨٠ . يضاف الى الاحالات المعطاة : ابن رسته : ٩٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٨٢٨ ، ٩١١ - ٩١٢ ، ٩٢١ ، المسعودي (ت) ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ابن حوقل : ٧٦ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١١٨ وما يليها ، ١٧٩ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، المقدسي : ١٥ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، حدود العالم : ٥٨ - ٦٠ افتتح البيزنطيون اقريطش مجددا عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م : انظر م . كانار ، ١م (٢) ، ج ٤ ، ١١٠٩ - ١١١٢ . وأعيد فتح قبرس بعد ذلك بقليل : انظر ر . هرتمان ، ١م ، ج ١ ، ٩٠٥ . يلاحظ ان لفظ جزيرة ، بمعنى شبه جزيرة ، يستعمل أيضاً في الحديث عن بعض المدن أو مناطق تتمتع بهذا الموقع : المهديّة (المقدسي : ٢٢٦) ، جزيرة ابي شارق ، الى شرق تونس (المقدسي : ٢٢٧ ، ٢٤٦ : انظر ابن حوقل : ٧٣ (الجزيرة) والبكري ، وصف ، ترجمة ذكرت (٨٥) . مرسي الخرز (لا كمال) الى جانب جزيرات أو ارسفة مذكورة في أمكنة اخرى : المقدسي : ٢٢٦ - ٢٣٩) ، مجاز هيراقليس (ابن حوقل : ٦٢ ، حدود العالم : ٥٩) .

(١٤٨٥) جزيرة بني زغناي عند المقدسي : ٢٢٨ ، ٢٤٦

(١٤٨٦) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٣٦٧

(١٤٨٧) ارجع ذاته ، حاشية ٢١٧٩ وابن حوقل : ١١٨

(١٤٨٨) ابن حوقل : ٢٠٤ . بقيت مالطة خاضعة لدار الاسلام حتى ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م (انظر ا . روسي م ، ج ٣ ، ٢٢٧) . ويعلن نص ابن حوقل ان مالطة من الجزر الشهيرة عبر العامرة (الحمير متوحشة) : اشارة الى الغارات البيزنطية عليها ربما ، لا سيما ان المصنف يتحدث بعدها مباشرة عن سقوط اقريطش وقبرس . وصحيح انه يمكن فهم غير العامرة بمعنى أقل قوة أي قليلة الأذهار . لكن عندئذ لا نفهم لماذا يقصدها قوم بالزاد لا شتيار العسل وصيد الغنم والحمير ، ولماذا يسمح أهل الجزيرة ان وجدوا لؤلؤا . الترباء بهذا العمل والصعوبة في نص ابن حوقل هي انه يوصي بجزيرة متوحشة ومقفرة .

ثم ان ابن حوقل يطيب له اصلا ان يتكلم عن الحيوانات الأهلية التي توحشت : انظر بالنسبة الى افريقية ابن حوقل ١٥٣ (ذكر في جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧٧) .

(١٤٨٩) بشأن قصر ذكر جزر الباليار (ابن حوقل ٢٠٤) ، أو عند المصنف ذاته ، وقد سبقه الاصطخري بذلك ، وجهل موقع جبل القنالك الذي اعتبر جزيرة (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، آخر ٣٧٨ - ٣٧٩) . الا ان الاختيار الحاسم مع ذلك ، يتمثل في مصقبة التي يخصص لها ابن حوقل صفحات كاملة (ابن حوقل : ١١٨ - ١٣٠) ، الا انه يجري العرض العام لها في بضعة اسطر ، ثم يتحدث عن مدينتها الكبرى المسماة بالرمل وعن صفات اخلاقها وعاداتها (ومنها ذمه المعلمين فيها) .

(١٤٩٠) بالنسبة الى الجزر التي ستحدث عنها ، انظر ابن خرداذبة : ٦١ - ٦٢ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، الحمداني : ٥٢ - ٥٣ ، ابن حوقل : ٤٢ - ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٥٠ ، المقدسي : ١٢ ، ٢٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، حدود العالم : ٥٧ - ٥٨ (والتعليق ١٩٠) حول الجزيرة الاستوائية ناره ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٤٨٦

(١٤٩١) حدود العالم : ٥٨ باسم فاران وجبيلات ، يشير الى بعض الجزر فعلا ، وبحق . وقد رأينا من قبل (ص ٢٤١ - ٢٤٢) ان المصنفين كانوا يكتفون على وجه العموم بتسمية الأماكن ، كالإنحاء الخطرة ، وهذا ما يفعله كتاب الحدود أيضاً .

(١٤٩٢) لم تذكر كجزيرة ، بل كمرسى ، انظر ابن حوقل (خرائط) : ٢١ آخرها - ، ٤٤ ، والمقدسي : ١٠٦ ، ١٠٧ (المسالك في البر) . مع ذلك يبدو ان الجزيرة القرية تدخل في الوصف (المقدسي : ٥٣ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ١٠٤) ، اذا حكمنا على اساس اقتنار سرين وكرمان المذكورة جزيرة ، في الكلام عن نظام الفرائب .

(١٤٩٣) لم اتمكن لا هنا ولا في ترجمتي من تحديد موقع هذه الجزيرة (المقدسي : ٣٢٦) . لكن اذا أخذنا بعين الاعتبار انها تحدد بداية مضيق ، واعتمدنا المسلك الذي يتبعه المصنف ، يمكننا بكل تحفظ ان نحدد موقعها عند مستوى جبل الصبايا (جزيرة) (واقبل هذا الحل هنا دون ان يكون لدي حجة اخرى) ، أو في فواحي جنوبية شرقية قريبة من جزر فرسان ، حيث تؤدي كثرة الجزيرات والأرصفة الى تعدد الممرات الخطرة : انظر اطلس التايمز ، ٣٣ ، ٧ / ٥ و ٨ / ٨

(١٤٩٤) يعبر اسم آخر عن مظهري الجزيرة : عقل : عرقله ، ربط (ومنه أحيانا :

حصن ، قلعة) أو ذهن ، ذكاء (انظر المسمودي (م) ، فقرة ٨٧٨ ، حيث توصف ماء الجزيرة بأنه ماء العقل لأنه اشتهر بتأثيره الطيب في الاستعدادات الذهنية) .

(١٤٩٥) بنو حدان بضم الحاء (وليس حدان بكسر الحاء : يصحح ابن حوقل ، ترجمة وايت ، ص ٤١ ، ٤٩ ، ١٤٧) فخذ من الازد (انظر وستنفيلد ، قوائم النسب ، غوتنجن ، ج ١ ، ١٨٥٢ ، ١٠ ، ج ٢ ، ١٨٥٣ ، ص ٢٣٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ٢٢٧ ، ش . بيل ، الوسط البصرى وتكوين الجاحظ ، باريس ، ١٩٥٣ ، ٢٦٧) ، ابن حوقل : ٤٢ ، يبدو انه يتحدث عن حركات الحج في الماضي . في الواقع انتقلت الطريق الى الأماكن المقدسة في جزيرة العرب نحو الجنوب : يصعدون في النيل حتى اسوان ، ويسلكون الدرب حتى مرسى عذاب على بحر القلزم ، المقابل تماما لساحل الحجاز ، وهذا يسمح بتقصير مسافة قطع البحر الأحمر الى الحد الأدنى (انظر يعقوبي : ٣٣٥ وخاصة المقدسي : ٧٨) . اذن ينبغي التفتيش عن جزر بني حدان في الشمال الابد ، لكن بالتأكيد قبل خليج السويس (نظر الدور مرسى القلزم في الجهة الشمالية) انظر ابن حوقل ، خريطة ٢١ ، ٤٣ . بالفعل يعلن ابن حوقل ، ١٥٠ ، ان منطقة مناجم الزمرد ، التي يمتلكها البجة وبنو ربيعة ، تمتد بين عرضي عذاب وبني حدان . ومن المعلوم ان منازل البجة شمالا تبدأ عند درجة عرض ٢٦ (انظر ب . م . هولت ، البجة ، ١٠ (٢) ، (٢) ، ج ١ ، ١١٩٢) . ويبدو ان جزيرة سفاجة الواقعة عند عرض ٢٧ تقريباً تلائم تماماً : ويؤلف النيل منعطفاً في منطقة قوص وقفت ، فيقترب الى اقصى حد له من البحر ، ويذكر ابن حوقل ، ٥١ ، وجيها محليا ذهب من قفت الى الحج ، وابتحر من جزر بني حدان فوصل الى عينونة على شاطئ البحر الآخر ، وهي واقعة عند درجة عرض ٢٨ شمالا ، عند منفرج خليج العقبة ، على طريق الحج البرية الذاهبة من مصر يعقوبي : ٣٤١) . (١٤٩٦) يقال لنا بأن سنجلة تقابل جدة ، والمسافة بينهما يوم وليلة (٤٢) . والمسافة بالنسبة الى جزيرة المكور حوالي ٢٠٠ كم (اطلس التاييز ، ٣٣ ، ب ٦ ، ويقول ابن حوقل المرجح ذاته ان هذه الجزيرة واقعة بين عذاب (قرب حلايب) وسواكن ، بين رأسين احدهما دوي (حالياً مرسى دلوين) : انظر اطلس التييز ، ٨٥ أو ٩

(١٤٩٧) ابن حوقل ، ٤٢ ، يضعهم مقابل جدة ، وهم في الحقيقة على أكثر من درجتين الى جنوب شرق سواكن بالنسبة الى جدة .

(١٤٩٨) المقصود جزر نجمها اليوم تحت اسم دهلك . حول هذه المناطق ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٦١ - ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ (حاشية ٤) ، ١٦٩

- (حاشية ٣) ، ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٥١٦ (حاشية ١ من ٥١٥) (يضاف الى الاحالات :
اليقوي : ٣١٩) : لوفريغ ، م ١ (٢) ، ج ٢ ، ٩٢ - ٩٣
(١٤٩٩) تقتزن اصلا عادة في الوصف بالجزر السابقة : انظر جغرافية دار الاسلام ،
ج ٢ ، مشار اليه ، واطلس التاييز ، ي / ٥
(١٥٠٠) عبرت من قبل عن تردداتي بهذا الشأن : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ،
آخر ١٦٩ (انظر اسم قرية الجزيرة قرب مقيشوه : اطلس التاييز ، يا / ١٠) . يعلن
ابن حوقل ، ٤٣ ، انه يمكن القول ان زيلع تقع بين غلافقة (شمال غا في جزيرة
العرب : انظر المرجع ذاته خريطة ٢١ آخرها) ، عدن وجزيرة لحا . تصحح من هذه
ترجمة وايت التي تسيء تقطيع النص اذا اتبعتها وايت يجب ان تقول محاذيين لا محاذ ذي ،
واذا اردنا الاحتفاظ بقراءة وايت ، يجب عندئذ ان نفهم : « جزيرة وبربرة » ، ما يؤدي
الى تعقيد الأمور ، لعدم وجود جزيرة في تلك الأنحاء (اذا كان المقصود جزيرة أو
شبه جزيرة)
(١٥٠١) انظر ما تقدم ، ص ٢٤٢ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧٢
(١٥٠٢) سميت جزيرة لأنها محصورة بين دجلة والدجيل والبحر : انظر ما تقدم ، ص ٢٠٥
(١٥٠٣) انظر بشأنهما لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٦١
(١٥٠٤) انظر شوارز ، فارس ، ج ٢ ، ٨٧ - ٨٨
(١٥٠٥) انظر المرجع ذاته : ٨٢ - ٨٤ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٦١ .
التحقق من ان ابن كاوان قسم وارد عند المسمودي (م) ، فقرة ٢٥٤ ، الذي يؤكد وقوعها
قرب جزيرة هنجام (هتكام) .
(١٥٠٦) لم ترد كذلك في الحقيقة في الطريق البحرية عند ابن خردادبة : ٦١ - ٦٢
(١٥٠٧) المسمودي (م) فقرة ٤٦٤ ، الاصطخري : ١٢٨ ، ابن حوقل : ٢٨٨ ،
المقدسي : ٣٦٢
(١٥٠٨) انظر ما تقدم الفصل ٢ ، ص ٢١٤ ، الفصل ٣ ، ص ٢٤٤
(١٥٠٩) جزيرة سياه كويه ، وهي شبه جزيرة في الواقع ، تابعة للغز : انظر جغرافية
دار الاسلام ج ٢ ، ٢١٨ (وحاشية ٥) و ٢٢١

- (١٥١٠) باستثناء السمك (مع التحفظات الواردة ص ٢٤٤) .
- (١٥١١) حول الظواهرات البركانية في بحر الخزر ، انظر كامينا دالميدا ، جغرافية ج ٥ ، مشار اليه ، ٣٠٧
- (١٥١٢) مثال آخر : سترومبولي : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ٢٩٧
- (١٥١٣) المرجع ذاته ، ٤٨٥
- (١٥١٤) انظر مثلاً الأنحوان ، ١ ، ١٦٣ - ١٦٣
- (١٥١٥) أمثلة عن علاقة الجزيرة بالبر عند قدماء ، ٦٠م ، وابن حوقل : ٤٢ - ٤٣ ، والمقدسي : ١٥
- (١٥١٦) انظر الفصل الأول ص ١٠٠ . من أجل تفسير خاص للغة البحرين (قطر يوصل اليه بحرا ، يفترض انه جزيرة ، لم يعرف انها داخلية في البر) ، انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٣٦ (حاشية ٤ ، من فقرة ١٥) .
- (١٥١٧) بالنسبة الى الأندلس ، انظر ابن حوقل آخر ٦١
- (١٥١٨) ابن حوقل : ١١٨ . انظر أيضاً ، لسيان ، أخبار الصين والهند ، فقره ٥ . وصحيح ان تعبیر في البحر يزيد الغموض لأنه ينطبق على شبه جزيرة : المقدسي : ٢٢٧ ذكر في الحاشية ١٤٨٤) .
- (١٥١٩) أمثلة أخرى مقدمة ، خاصة لخليج فارس ، يضاف ابن حوقل : ١١٤ - ١١٥ (غني ما يورقة) ، ١١٨ وما يليها (المرجع ذاته لصقلية) ، ٢٠٣ - ٢٠٤ (خصب جزر بحر الروم ماعدا مالطة ، ذكر) ، المقدسي : ٨٤ (غني قبرص) ، ٢٣٢ (المرجع حدود العالم : ٥٩ - ٦٠) (غني جزر بحر الروم) .
- (١٥٢٠) انظر ما تقدم ، ص ٢٤٢ و ٢٤٩ في الحديث عن سقطرة (صورة البهج) أو عن جزر بحيرة خلط في اذربيجان . وأحياناً تأخذ الجزيرة من الجبل ، لا تفسيره ، بل إحدى صفاته النوعية : ملجأ (انظر ابن حوقل ، ٧٦ ، في كلامه عن جزيرة الجزائر) .
- (١٥٢١) ما تقدم ، ص ٢٥٠ - ٢٥١

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تنبيه	٥
المصادر والمراجع	١٣
ثبت المؤلفين ومصنفاتهم بالرموز	١٩
الفصل الأول : الأرض	٢٣
بنية الأرض	٢٤
بعض الجبال والمفاوز في دار الاسلام	٣٢
الجبل والجبال - جبل أو كتلة جبلية	٥١
السهل لا يسترعي الانتباه	٦٧
بعض النواحي الرائعة في الجبال	٧٥
الحنان الجبلية	٨٢
الجبال ملاحىء أم مخابىء ؟ ملاحىها	٨١
الجبال : تاريخ مقدس أو اسطوري	٩٤
البادية والمفاوز	١٠١
أرياف دار الاسلام	١٢١
بداية أبحاث جيولوجية	١٢٩

الموضوع	الصفحة
حياة الأرض	١٤٠
تلازم الأرض والجوهر الأخرى :	
من البركان إلى المياه الجوفية	١٤٥
الفصل الثاني : الماء على الأرض	١٥١
جريان الماء على الأرض	١٥٤
شكوك جغرافية المياه	١٦٧
الماء الضروري	١٧٩
تصنيفات مائية جوهرية	١٨٤
سحر الماء الجاري	١٩٢
المياه الجارية : تصنيفها على ثلاثة مستويات	٢٠٤
المقدس والمياه	٢١١
بعض خصائص الماء الفرعية	٢١٦
مبادئ رسم خريطة مياه	٢١٩
خريطة المياه : وضع المغرب العارض	٢٢٤
مصر والنيل	٢٢٨
الجزيرة وخوزستان : مشاهد أرض وماء	٢٥١
خزان مياه ارمينية	٢٦١
بلدان فارس : المفازة والبحر يتجاذبان الأنهار	٢٦٩
الأنهار الكبرى الثلاثة في آسية الوسطى	٢٧٤

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : مجامع المياه	٢٨٣
البحيرة والبحر	٢٨٤
أصل البحار	٢٨٧
خريطة البحار	٢٩٢
البحيرات : محاولات تصنيف وخريطة ومشهد	٣٠٥
العودة إلى البحر : عالم آخر	٣١٢
البحر المضطرب	٣١٦
الانسان والبحر	٣٣٠
الجزر ، « جغرافية مبهمة »	٣٣٥
حواشي القسم الاول	٣٤١
فهرس مواد القسم الأول	٤٩١

* * *

۱۹۹۲ / ۹ / ۱ ط ۳۰۰۰

